تأليف هرمان ملفل

موبي ديك

ترجمة الدكتور إحسان عباس

مؤسسة ناصر للثقافة

مقـــدّمَة

عندما نشر « هرمان ملفل » ، في عام ١٨٥١ ، رائعته « موبي ديك » ، لم يكن يعلم أنه بذلك يعطي الرواية الكونية أحد رموزها الأكثر ثراء ونبلاً وكمالاً . فهذه الرواية لا تعتبر أروع عمل ظهر في الأدب الأمريكي خلال القرن التاسع عشر فحسب ، بل تعتبر ، وبحق ، أحد أهم الآثار الروائية في تاريخ الرواية الكونية .

تحكي « موبي ديك » صراع الكابتن آخاب والحوت الأبيض ، أو كما يقول البعض ، تحكي ذلك الصراع السرمدي بين الإنسان والطبيعة : الإنسان في سعيه الحثيث بغية التسيّد على الكون ، والطبيعة في رموزها وألغازها وضرورتها العمياء .

تقتفي « موبي ديك » في أصالتها آثار كل عمل أدبي عظيم . فهي ليست عملاً أحادي المعنى ومستقيم الدلالة ، لأنها في قراءتها أو قراءاتها تفتح أمام الشرح والتأويل آفاقاً مطلقة السراح . ومع ذلك ، فتعددية القراءة وتعددية التأويل لا تطمس فكرة الرواية الجوهرية ، فهذه الرواية ، في كلها وتفاصيلها ، لا تحكي صراع الإنسان مع الطبيعة ، بل صراع « إنسان » مع الطبيعة . ترسم صورة « آخاب » ، سجين فرديته ورهين ذاتيته ، في سعيه اللاهث للتسيّد على الكون وتنصيب ذاته نظيراً للحقيقة ومثيلاً للمطلق . وبهذه الحالة ، فإن هذا « الكابتن » ، الهاذي فوق الموج ، لا يمثل حالة فريدة ، أو حالة عصابية

معزولة ، بل يشير إلى ظاهرة بشرية ، إلى حالة إجتماعية ، تسقط شرها على الخارج ، وتعطيه كياناً واسماً ، ثم تطارده كي تبني فوق أنقاضه مملكة الخير .

يعتقد « آخاب » بطل رواية « موبي ديك » أنه رسول الخير ووسيط النعمة الإلهية ، ويمتدّ به الوهم فيرى في حوته مثالاً للشر المطلق ، وينطلق في مطاردة شره حتى يتكسر على أعتاب هذيان فرديته ، فيبقى « الحوت » ويتلاشى « آخاب » في ثنايا الصمت والأمواج .

يعيش آخاب منذ البداية حتى النهاية ، وهم أو أوهام أنانيته وغروره الفج . يقسم العالم إلى حقلين : حقل الخير وحقل الشر ، لكن هذه القسمة لا تعتمد في موضوعيتها الزائفة إلا قوانين الفردية والذاتية الغارقة في نرجسيتها ، أي أن الخير الذي تدعي الدفاع عنه ليس في جوهره إلا تجسيداً للشر ، كل الشر . لهذا ، فإن هزيمة « آخاب » هزيمة للشر الحقيقي ، وهزيمة لكل ذات تضحي بالقيم الإنسانية الحقيقية على مذبح الحرية الفردية المجردة .

رواية « موبي ديك » مرآة ترى فيها الطبيعة البشرية صورة معينة لها ، صورة الذات الباحثة عن الانتقام ، والمتعطشة إلى التأكيد الأعمى لذات عمياء تعتقد وهماً أنها بصيرة ، رواية ـ مرآة ، ترى الانسان ، ويرى الإنسان فيها صورته ، وبتجدّد الصور يتجدّد معنى الرواية . وهكذا تظل « موبي ديك » صورة ومعنى ورواية متجددة .

وأخيراً ، لا يمكن إلا أن نشير إلى ترجمة الدكتور إحسان عباس الرائعة والرائدة ، التي صانت « هرمان ملفل » في مقامه ، وصانت روايته في حقلها الإبداعي . فكانت ترجمة إبداعية لعمل خلاّق .

الناشر

فصل في الاشتقاق

أعده معلم مساول كان يعمل اثناء الحياة في مدرسة اعدادية

ذلك المعلم الشاحب، مهلهل الرداء والقلب والجسد واللبّ ، أذكره كانني اراه . كان دائماً ينفض الغبار عن معجماته ,وأجرومياته القديمة، بمنديل عجيب الطراز، مزخرف – على نحو ساخر – بكل الاعلام البهيجة التي ترمز الى جميع الامم المعروفة في العالم. وكان يروقه ان ينفض الغبار ايضاً عن المعلومات النحوية في ذاكرته، فذلك امر كان يذكّره – في لطف وديع – بانه ينتمي الى اهل الفناء .

حين تعين الآخرين على ان يتعلموا، وتلقنهم اسم الحوت في لغتنا، مسقطاً – بطريق الجهل – من اسمه حرف « هـ » H ، وهو الحرف الذي يمنح الكلمة مغزاها، فأنت تلقنهم ما هو بعيد عن الصواب .

(هكليوت)

هويـــل ... وفي السويدية والدنمركية : « هوال » — اسمه مأخوذ من الاستدارة او التكوّر ، لان الفعل « هوالت » في الدنمركية تعني «تقوس» او « تقبب » .

(قاموس وبستر)

هويل ... . اشتقاق مباشر من الهولندية او الالمانية، ففي الالمانية «ويلن» والصفة منها « ويليان » تعني « يلتوي » او « يلتف » .

(قاموس رتشاردسن)

ح ت	بالعبرية
ق و ط س	باليونانية [1]
ق ي ط س	باللاتينية[1]
هُوَيل	بالانجلوسكسونية
هوالت	بالدنمركية
وال	بالهولندية [1]
هوال	بالسويدية
هويل	بالانجليزية
هويل	بالاسلندية
بلـّين	بالفرنسية
بلـّينة	بالاسبانية [1]
بيكي — نويه — نويه	بالفيجية
بيهي — نويه — نويه	بالارومانجونية

---

١ دخلت كلمة « القاطوس » في اللغة العربية الا ان بعض المصادر اوردتها خطأ بالفاء (انظر مثلاً حياة الحيوان للدميري) وكذلك كلمة « البلينة » عرفها الاندلسيون فقد لقب سعيد بن عثمان القرشي بالبلينة (جذوة المقتبس للحميدي : ٢١٤) وقال ابن سعيد : البلينة حوت كبير يعرف بدابة البحر (المغرب ١ : ١٩٣) وتعرب لفظة whale في المصادر القديمة على صور مختلفة منها الفال والوال والاوال والافال .

مقتطفـات

أعدها مساعدُ لخازن مكتبةٍ مساعدٍ

ستروں، ايها القراء، ان هذا الحفار النقّاب، ان تلك الارضة النفاذة التي أسميها مساعد الخازن المساعد، قد تغلغل في اقبية المكتبات وسراديبها الطويلة، ملتقطاً الاشارات المتناثرة الى الحيتان أيّان وجدها، من كتب دينية او دنيوية. لذلك ليس عليكم ان تأخذوا هذا الخليط من الاقوال، وان كان صحيح النسبة، وتعدوه في جميع الاحوال كتاباً موثوقاً معتمداً في علم الحيتان لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فما ابعد هذه الاقوال من ذلك! اذ ان المقتطفات المنقولة عن المؤلفين القدامى بعامة وعن الشعراء المذكورين في هذا الثبت، انما تعد قيّمة او ممتعة من حيث انها تعطي نظرة خاطفة عما قالته الامم والاجيال العديدة — ومنها جيلنا — او تصوّرته او تغنت به — على نحو مختلط — عن « اللوياثان ».

اذن وداعاً يا مساعد المساعد المسكين، الذي أمثل انا منه دور الشارح المعلّق. انك لتنتمي الى تلك القبيلة الشاحبة اليائسة التي لا تستطيع اية خمرة في هـذا العالم ان تبعث في عروقها دفئاً، قبيلة لو وضعتَ ازاء شحوبها تلك الصفراءَ التي لا تنزل الاحزان ساحتها لبدت قانئة كانها الفرصاد، قبيلة يحب المرء ان يعاشرها احياناً ويحسّ احساسها بالمسكنة والتعاسة، ويغدو مرحاً مطراباً على طعم العبرات، ويقول لابنائها في غلظة وجفاء، وشئونه دافقة وكأسه خواء، وحزنه مشوب بشيء من الجذل والرضاء: « دعوا عنكم هذا العناء، يا

مساعدي المساعدين ! » كلما ازددتم كدّاً لارضاء هذا العالم، زاد ما تلقونه من البخس ونكران الجميل ابداً. لتمنيت انني استطيع ان أوطنكم هامبتون كورت او التويلري [1] بعد ان اخليها ممن يحلها . لكن تجرعوا عبراتكم ، وسارعوا الخطى صعوداً الى الصاري الملوكي بكل ما أوتيتموه من قوة ، لان اصدقاءكم الذين تقدموكم على الطريق اخذوا يخلون السموات السبع ويحلّون لاجئين لدى الملائكة المتخمين : جبريل وميكال ورفائيل، ليحولوا بينكم وبين الحلول فيها . في هذا العالم تقرعون قلوباً مشقوقة بقلوب، اما في العالم الآخر فانكم ستقرعون كؤوساً سليمة بكؤوس !

فخلق الله الحيتان[2] العظام . (التكوين ١ : ٢١)

[اللوياثان] يضيء السبيل وراءه فيحسب اللج أشيب . (ايوب ٤١ : ٣٢)

وأما الرب فأعد حوتاً عظيماً ليبتلع يونان . (يونان ١ : ١٧)

هناك تجري السفن ؛ لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه . (مزامير ١٠٤ : ٢٦)

في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان، الحية الهاربة، لوياثان، الحية المتحوّية، ويقتل التنين الذي في البحر . (اشعيا ٢٧ : ١)

---

١ في هامبتون كورت قصر ملكي زاره ملفل في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٩ ولا بد انه مرّ في احدى جولاته الباريسية بقصر التويلري؛ وكان هذان القصران قد اتخذا متحفين في ايام ملفل، كما ان التويلري كان مقر لويس نابوليون الذي انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٨٤٨ ونودي به امبراطوراً عام ١٨٥٢ .

٢ في الترجمة العربية : التنانين .

وايما شيء اقترب من واقوصة[1] فكسّي ذلك الوحش، سواء أكان حيواناً ام قارباً ام صخرة، انحدر في تلك «البالوعة» الوبيلة المنهومة، وتلاشى في خليج كرشه الذي لا يعرف له قرار .

(الفقرة ٣١ من كتاب الاخلاق لفلوطارخس)

وينتج في البحر الهندي اكثر الاسماك واكبرها ، ومن بينها الحيتان والخطّارات التي تسمى البلّينات ويبلغ الواحد منها في مساحته اربعة افدنة (٦٤٠ قدماً مربعاً) او اربعة أرفينات – والارفين ٨٤و٠ من الفدان .

(بليني ٩/٢ : ٤)

ولم نكن قد تقدمنا مسافة يومين في البحر حتى ظهر لنا عند الشروق عدد كبير من الحيتان ووحوش البحر الاخرى وكان احد الحيتان بالغ الجسامة ... انتحى نحونا ، فاغر الشدقين وهو يرفع الموج من كل جانب، ويخبط الماء امامه زبداً .

(التاريخ الصحيح للوقيان – الكتاب الاول)

وزار هذه البلاد ايضاً ليصيد الحيتان، ولعظامها قيمة بالغة لما فيها من انياب، وجلب بعضاً منها للملك.... وخير الحيتان يصاد في هذه البلاد، وبعضها يبلغ ٤٨ ياردة في طوله وبعضها يبلغ خمسين، وقال انه احد ستة صادوا ستين حوتاً في يومين .

(حديث شفوي جرى على لسان من اسمه اوثر او أوكثر ودونه الملك ألفرد عام ٨٩٠ ب. م.)

كل الاشياء حيوانات كانت او قوارب، اذا هي دخلت الخليج المخيف الذي يسمى فم الحوت، غربت على التوّ، واصبحت اثراً بعد عين إلا سمك القوبيون

---

[1] الواقوصة ترجمة لكلمة chaos (قاوروصة) ومعناها الهوة ، وقد عرفها العرب بهذا الاسم، وبها سمي المكان .

البحري فانه يلوذ الى ذلك الكهف مطمئناً وينام فيه .

(مونتين - في «دفاع عن ريموند سيبند»)

لنهرب ! لنهرب ! حاز روحي الشيطان الرجيم ان لم يكن هذا هو اللوياثان الذي وصفه النبي موسى العظيم في سيرة ايوب الصبور . (رابليه)

وكان كبد هذا الحوت يساوي ما تحمله عربتان . (حوليات استو)

[اللوياثان] العظيم الذي يجعل العمق يغلي كالقدر .

(ترجمة اللورد بيكون للمزامير ١)

اما فيما يتصل بالحجم الهائل الذي تكون عليه الحيتان او الأرخ[٢] فليس لدينا شيء يقيني، ولكنها تطبق شحماً حتى ان كمية الدهن التي تستخرج من حوت واحد تفوق حدّ التصديق . (بيكون في «تاريخ الحياة والموت»)

خير ما في الارض لعلاج جرح دخيل هو زيت الحوت .

(الملك هنري الرابع ١ : ٣/٥٧ - ٥٨)

كأنه حقاً حوت . (هملت ٣/٢ : ٣٩٩)

لم تجده شيئاً براعة الحجام، وكان عليه
ان شاء الشفاء، ان يعود كرة اخرى

١ قلت : هذا ورد في سفر ايوب ٤١ : ٣١ .

٢ في الاصل ork وصوابها orc وهي من اللاتينية orca وتعني الحوت او الفرمبوز او ما يشبهه .

الى الذي سبب جرحه، حين رماه بسهم عائر
شكّ به صدره، وابتعث فيه الالم المبرّح،
عودةَ الحوت الجريح المنطلق في عرض البحر نحو الساحل .

(من قصيدة « The Fairie Queen » لسبنسر
٦ / النشيد ١٠ / القطعة : ٣١)

جسيم كالحيتان التي اذا تحركت اجسامها في البحر الساكن تخبط البحر بها كأنه يغلي .
(من اقوال السير وليم دافننانت في «مقدمة على جندبرت»)

للناس الحق في ان يتساءلوا عن ماهية زيت الحوت، لان العالم أوزمان يقول دون مواربة في مؤلف له قضى في كتابته ثلاثين عاماً : « اننا لا نعرف ما هو».
(«في زيت الحوت، وحوت العنبر» للسير توماس براون ٣ : ٢٦)

كأنه طالوس ذو « الفَلَـقة »[١] الحديثة، الذي ذكره سبنسر،
ينذر بالويل والثبور بذيله المهول .

وهو يحمل في جنبه حرابهم المثبتة
وعلى ظهره تبدو غابة من أسنـّة .
(معركة جزائر سومر لادمند والر — النشيد الثالث)

بقدرة فنان خلق ذلك اللوياثان العظيم الذي يسمى في اللغة اللاتينية Civitas (بمعنى كيان دولة) وليس هذا الكيان إلا انساناً مصطنعاً .

(العبارة الاولى في كتاب «لوياثان» لهوبز)

---

١ الفلقة هي الكلمة اللاتينية flagellum وتعني في الاصل « السوط » .

وابتلعها منصول [الروح الانساني] الغبيّ دون مضغ كأنها كانت سمكة صغيرة في فم حوت .

(رحلة حاج لبنيان)

ذلك الحيوان البحري، اللوياثان
الذي جعله الله من بين مخلوقاته
اعظم ما يسبح في الماء . (الفردوس المفقود ٧/٤١٢–٤١٦)

– هناك اللوياثان
اعظم المخلوقات، في البحار
ممتداً كأنه برزخ، ينام او يسبح ؛
ويبدو كأنه ارض تتحرك،
فاذا فغر فاه تجرع بحراً،
واذا نفث زفيره اصدر بحراً . (المصدر نفسه)

الحيتان الجبارة التي تعوم في بحر من ماء وفي داخلها تعوم بحار من زيت .
(الدولة الدينية والدنيوية لتوماس فلر)

تستلقي اللوياثانات الضخمة خلف قنة بحرية
متربصة بفرائسها،
ولا تطاردها، وانما تبتلع السرب
الذي يضلّ طريقه ذاهباً خلال الاشداق المفتوحة .

(سنة الاعاجيب (١٦٦٦) للشاعر جون دريدن)

وحين يكون الحوت عائماً عند كوثلة السفينة يقطعون رأسه ويجرونه بواسطة قارب فيقربونه من الشاطىء قدر المستطاع، ولكنه لو جرّ في ماء ارتفاعه اثنا عشر قدماً او ثلاثة عشر للامس الارض .

(عشر سفرات الى سبتزبرجن لتوماس إدج
مضمنة في رحلات بركاس)

وفي طريقهم رأوا حيتاناً كثيرة تمرح في البحر، وهي في عبث ترسل الماء عالياً من خراطيمها ونفاثاتها التي جعلتها الطبيعة في اكتافها .

(رحلات السير توماس هربرت في آسيا وافريقية)

وهنا رأوا كتائب ضخمة من الحيتان حتى اضطروا الى السير بحذر بالغ لئلا تنسرب بهم سفينتهم عليها .

(التطواف السادس لشوتن)

وابحرنا من إلب والريح شمالية شرقية في سفينة تدعى « يونان في جوف الحوت » ... بعض الناس يقولون ان الحوت لا يستطيع ان يفتح فمه ، إلا ان هذا قول خرافي .... وكثيراً ما يصعدون الصواري ليروا ان كانوا يستطيعون ان يبصروا حوتاً ، لان من سبق غيره الى رؤيته نال « دوقة » لقاء تعبه .... وقد اخبروني عن حوت اصطيد قريباً من شتلند ، وانهم وجدوا في كرشه برميلاً من سمك الرنجة .... وأخبرني احد حواتينا انه صاد مرة حوتاً في سبتزبرجن وكان ابيض اللون .

(رحلة الى جرينلاند عام ١٦٧١ من مجموعة هاريس)

وقد ألمت بهذا الشاطىء (شاطىء فايف) حيتان عديدة ؛ وفي عام ١٦٥٢ أحضر من عظم الحوت ما طوله ثمانون قدماً ، وقد خبروني أن وزن البلين بلغ ٥٠٠ وزنة عدا كمية كبيرة من الزيت ، اما الفكان فقد اتخذا في بوابة حديقة في بتفرن .

(فايف وكنروس لسيبولد)

وقد وافقت انا نفسي على ان اجرب السيطرة على حوت عنبر وان اقتله لاني لم اسمع بأن واحداً من ذلك النوع قتله انسان ، لما هو عليه من عنف وسرعة .

(رسالة من رتشارد استافورد بعثها من جزائر برمودا، « ١٦٦٨ »)

حتى الحيتان في البحار
تطيع أمر الجبّار

(كتاب المطالعة الأولى)

ورأينا ايضاً الجمّاء الغفير من الحيتان الضخام ؛ فازاء كل حوت في البحار الشمالية – استطيع ان اقول – هناك مائة في البحار الجنوبية .

(رحلة القبطان كاولي حول الكرة الارضية عام ١٧٢٩)

.... ويصاحب نَفَسَ الحوت رائحة لا تطاق حتى انها لتحدث خللاً في الدماغ .

(امريكا الجنوبية لأولاو)

الى خمسين حورية من ذوات المقام الرفيع
نعهد بالمسئولية الكبرى ، وهي إلباسها الصّدار ،
وقد طالما عرفنا ان تلك الدرع ذات الطاقات السبع تعجز واهنة
وان كانت محشوّة بالاطواق ، مزوّدة باضلاع حوت .

(الكسندر بوب : اغتصاب الخصلة، النشيد الثاني،
الابيات ١١٧ – ١٢٠)

اذا قارنا حيوانات البر من حيث الجسامة بالحيوانات التي تتخذ الأعماق مثابة لها وجدنا الاولى زرية لدى المقارنة ، فالحوت دون ريب أعظم الحيوانات خلقة .

(التاريخ الطبيعي لجولدسمث)

اذا كنت تريد ان تكتب اسطورة للسمك الصغير ، فقد تجعلها تتحدث كالحيتان العظيمة .

(من جولدسمث الى جونسون كما أوردها بوزول)

وبعد الظهر لاح لنا ما حسبناه صخرة ثم تبينا انه حوت ميت قتله بعض الاسيويين وكانوا يجرونه نحو الساحل . وبدا لنا انهم يحاولون ان يخفوا انفسهم وراء الحوت لكي لا تقع اعيننا عليهم .

(رحلات كوك)

اما الحيتان الضخمة فقلما يتجاسرون عليها بهجوم، فهم يخشون بعضها حتى انهم اذا كانوا في عرض البحر خافوا ان ينطقوا باسمائها، وهم يحملون معهم في قواربهم الروث والجير وخشب العرعر وبعض المواد الاخرى من هذا القبيل كي يخيفوها ويمنعوها من ان تدنو منهم .

(وسائل اونو فون ترويل عن رحلة بانكس
وزولاندر الى اسلندة عام ١٧٧٢)

وحوت العنبر الذي صادفه بعض النانتوكتيين، حيوان عنيف نشيط يتطلب لباقة وجرأة عظيمتين في الصيادين .

(ذكريات عن صيد الحيتان كتبها توماس جفرسن
الى الوزير الفرنسي ارمان مارك عام ١٧٧٨)

واستميحك يا سيدي : أي شيء في العالم يضاهيه .

(من خطاب ادمند بيرك في البرلمان (٢٢ آذار ١٧٧٥)
اشار فيه الى حرفة صيد الحيتان لدى اهل نانتوكت)

اسبانيا ــ تلك حوت ضخم جانح على شواطىء اوروبا .

(ادمند بيرك ـ نسيت اسم المصدر)

وعشر الدخل العادي للملك، وهو يعتمد على اعتباره حارساً حامياً للبحار من القراصنة واللصوص، انما هو حقه في السمك الملكي، وهو الحوت والاسطرغون، فاذا قذف الموج بهذين الصنفين على الشاطىء او اصطيدا على مقربة منه، كانا ملكاً للملك .

(وليم بلاكستون – في تعليقات على قوانين انجلترا،
الكتاب الاول، الفصل : ٨)

وعلى التو ينتحي البحارة لعبة الموت :

فيرفع ردمند فوق رأسه، مسدداً،

السنان المشحوذ، ويرقب كل ناحية .

(سفينة تتحطم لفالكونر – النشيد الثاني)

وتلألأت لامعة السقوف والقباب والجرسيات

وانطلقت الصواريخ من نفسها

لتعلق نارها التي تبقى لحظة

حول قبة السماء .

ومن اجل ان لا يتفوق عنصر النار على عنصر الماء

اخذ البحر المحيط يطفو سامقاً

ينفثه في الفضاء حوت،

ليعبر عن فرحٍ مستحكم الطغيان .

(كوبر – قصيدة في زيارة الملكة للندن،
الابيات ١٣ – ٢٠)

ويقذف هو بسرعة هائلة عشرة جالونات او خمسة عشر من الدم من قلبه لدى ضربة واحدة .

(حديث جون هنتر عن تقطيع حوت – صغير الجرم)

ان فوهة الابهر (الاورطى) في الحوت اكبر سعة من فوهة الانبوب الرئيسي في المنشآت المائية عند جسر لندن ؛ اما الماء الهادر في مروره خـــلال ذلك الانبوب فانه اقل زخماً وسرعة من الدم المنبثق من قلب الحوت .

(اللاهوت لبيلي)

الحوت حيوان ثديي دون رجلين خلفيتين .

(بارون كوفييه)

وعلى الدرجة الاربعين جنوباً رأينا حيتان عنبر لكننا لم نصد شيئاً منها الا في اول ايار (مايو) اذ كان البحر حينئذ مغطى بها .

(رحلة كولنت لتوسيع نطاق التحويت
لصيد حوت العنبر)

في العنصر الطليق من دوني كانت تعوم
وتتغالب وتغوص، عابثة او مطاردة، او في عراك،
أسماك من كل لون وشكل وصنف ،
تعجز اللغة عن تصويرها ، وما رأى مثلها الملاحون ،
من الحوت المخوف حتى ملايين الصغار التي تسكن كل موجة
وقد تجمعت في أسراب ضخمة كأنها جزر عائمة
تقودها غرائز خفية خلال ذلك اليباب المائي
الذي لا يحفظ أثراً ، وان كان يهاجمها من كل جانب

اعداء ذوو نهم وضراوة .

حيتان وقرشان وهولات ، مسلحة في مخاطمها او الاشداق ،

بسيوف ومناشر وقرون ملوية او انياب خطـّافية .

(العالم قبل الطوفان لمونتجومري)

انتما ايها الرّبّان : ابو وبابان ، تغنيا

لملك الرعايا المزعنفة

فليس في الاطلسي المديد

حوت اقوى من هذا الحوت

ولا يتطوف حول البحر القطبي

حوت اشد منه سمنة وترارة

(مجد الحوت لشارل لام)

في عام ١٦٩٠ كان نفر من الناس يرقبون، من فوق ربوة عالية، الحيتان وهي تنفث وتتعابث ، حين قال احدهم وهو يشير الى البحر — هناك مرج أخضر سيذهب اليه احفاد احفادنا طلباً للخبز .

(تاريخ نانتوكت لعبيد ماسي)

وصنعت لي ولسوزان كوخاً وجعلت الباب على شكل قنطرة قوطية ، حين نصبت هنالك عظام فكّ الحوت .

(قصص حكيت مرتين لهوثورن — من حكاية
« العم القروي »)

وجاءت لتوصي ببناء نصب تذكاري لحبيبها الاول الذي كان قد قتله حوت في المحيط الهادي منذ ما لا يقل عن اربعين سنة .

(المصدر نفسه — من حكاية « ضربات بازميل »)

فأجاب توم : « لا يا سيدي هذا حوت أثين ، لقد رأيته ينفث ، فنصب قوْسَي قزح في الجوّ كأجمل ما يحلو لانسان أن يرى . ذلك برميل زيت نادر .

(الربان لجيمس فنيمور كوبر ، الفصل : ١٧)

وجاءوا بالجرائد فرأينا في « صحيفة برلين » ان الحيتان قد استحضرت فوق المسرح عندهم .

(أحاديث بين اكرمان وجوته ، ٣١ كانون الثاني ١٨٣٠)

فأجبت : « رباه ! ما بالنا يا سيد (تشيز) ! ، لقد شقّ الحوت سفينتنا » .

(خبر عن تحطم الحواتة « اسكس » من نانتوكت وقد هاجمها حوت عنبر وحطمها تحطيماً في المحيط الهادي ، وكان الضابط الاول فيها هو اوين تشيز ، وهو الذي كتب هذا السرد ، نيويورك ١٨٢١)

جلس بحار ذات ليلة في مرقبه

والريح طليقة تنفخ نايها

وضوء القمر الشاحب حيناً يلتمع وحيناً يخبو

ويتلألأ لهب الفوسفور في مجرّ الحوت

وهو يتوثب في الماء .

(من قصيدة البحار الغريق «الابيات ١ — ٥» لاليزابث اوكس سمث)

وكان طول الحبل الذي سحب من مختلف القوارب المنهمكة في صيد الحوت يبلغ معاً ١٠٤٤٠ ياردة او قرابة ستة أميال انجليزية ... وأحياناً يهز الحوت ذنبه الراعب في الفضاء فيفرقع كأنه سوط ويتردد صداه على مسافة ثلاثة اميال او اربعة .

(سكورسبي)

فاذا جن جنون حوت العنبر المستشيط غضباً بالآلام التي يتلقاها من هذه الهجمات الجديدة تقلب ظهراً لبطن ، ونصب رأسه الضخم وانقض بفكيــه المفتوحين ناهشاً كل شيء حوله ؛ ويندفع نحو القوارب برأسه ، فتنقلب أمامه في سرعة فائقة وأحياناً تتحطم تحطماً تاماً .... ولعلّ مما يبعث الدهشة البالغة أن يغفل الناس اغفالاً تاماً التأمل في عادات حيوان فذ ، هام (من الزاوية التجارية) – كحوت العنبر – أو ان تكون تلك العادات قد استثارت قليلاً من الفضول لدى عديد من المتطلعين ، وفيهم عــدد جمّ من ذوي الكفاية ، الذين سنحت لهم في السنوات الاخيرة أوفر الفرص واشدها مواتاة لمشاهدة عادات الحيتان .

(تاريخ حوت العنبر تأليف توماس بيل ١٨٣٩)

والقشلوط (حوت العنبر) ليس فحسب احسن سلاحاً من الحوت الأثين (حوت جرينلاند) من حيث ان له سلاحاً مخيفاً على طرفي جسمه ، وانما هو ايضاً يبدي – في اكثر الاحوال – ميلا لاستعمال اسلحته بطريق العدوان ، وعلى نحو فني جسور مؤذٍ معاً ، وهذا يؤدي بالناس الى ان يعدوه اخطر حيوان يهاجمونه بين جميع الفصائل المعروفة من عشيرة الحوت .

(رحلة تحويت حول الكرة الارضية
لفردريك دبل بنيت ١٨٤٠)

١٣ تشرين الاول (اكتوبر) : وسمعنا من يهتف من اعلى الصواري : « هناك ينفث ! »

فقال القبطان : « كم يبعد ؟ »

– ٣٣ ٣/٤ درجة يا سيدي .

– ارفع الدفة . أثبت !

– أثبتّها يا سيدي .

– انت في رأس الصاري ، هل ترى هذا الحوت الآن ؟

– اجل . اجـــل سيدي ! سرباً من حيتان العنبر . هناك ينفث ! هناك يثب !

– اهتف . اهتف كلما رأيته !

– سمعاً سيدي ! هنـــاك ينفث – هناك – هناك – هناك ينفث – ينـ – ننن ففففـ !

– كم يبعد ؟

– ميلين ونصف .

– يا للبرق والرعد ! أعلى هذا القرب ! ادعوا الجميع !

(صور من رحلة تحويت لروس براون ١٨٤٦)

ان سفينة التحويت « جلوب » التي حدثت على ظهرها هذه الحوادث المرعبة – ونحن بسبيل سردها – تنتمي الى جزيرة نانتوكت .

(قصة التمرد على السفينة جلوب كتبها
ورثاء لاي رهسي ١٨٢٨)

ولما ان لحق به الحوت الذي كان قد جرحه ، تجنب هجمته بعض الوقت بحربة ، ولكن الحيوان المتسخط انقض في النهاية على القارب ، ولم يحمه ويحم رفاقه منه إلا قفزهم في الماء عندما رأوا ان هجمته محتومة لا يمكن تلافيها .

(يوميات الاسفار والرحلات ، لتيرمان وبنت –
بوسطن ١٨٣٢ ، المجلد الاول، الفصل الاول)

وقال السيد وبستر : « ان نانتوكت نفسها حصة فذة خاصة من الدخل القومي ؛ سكانها عددهم ثمانية آلاف او تسعة يعيشون هنا في البحر ، ويضيفون

اضافة كبيرة كل عام الى الثروة الوطنية بحرفة تعد من أجرأ الحرف واشدها تطلباً للمثابرة والدأب .

(من خطاب دانيل وبستر في مجلس الشيوخ الامريكي ، ألقاه بمناسبة طلب اقامة حاجز عند الميناء في نانتوكت ، عام ١٨٢٨)

ووقع الحوت عامداً فوقه ولعله قتله في لحظة .

(الحوت وصيادوه او مخاطرات الحوات وسيرة الحوت ، استقاها القس هنري ت. شيفر في رحلة العودة الى الوطن من القومودور بريبل)

فأجاب صموئيل : « اذا نأمت نأمة بعثت بك الى الجحيم » .

(حياة صموئيل كومستك (المتمرد) كتبها أخوه وليم كومستك ، وهي صورة اخرى من قصة التمرد على ظهر الحواتة « جلوب »)

ان رحلات الهولنديين والانجليز الى المحيط الشمالي ، لعلهم يكتشفون طريقاً الى الهند من خلاله ، فتحت امامهم ، وان أخفقوا في هدفهم الاول ، المواطن التي تأوي اليها الحيتان .

(القاموس التجاري لمك كولك)

هذه الامور تتم في تبادل ، فالكرة ترتد لتنط الى الامام مرة اخرى ؛ وها هم الحواتون بعد ان انكشفت لهم المواطن التي تأوي اليها الحيتان ، قد وقعوا — فيما يبدو — على دلائل جديدة تؤدي بهم الى ذلك الممر الشمالي الغربي الخفيّ .

(من « شيء » لم ينشر)

من المحال أن يصادف المرء حوّاتة في البحر دون أن يدهشه مظهرها المألوف . فللسفينة ذات الاشرعة القصيرة التي يقف رقباؤها على رءوس الصواري يمعنون

النظر اللهيف في البسيط الممتد من حولهم ، هيئة تختلف اختلافاً كلياً عن تلك السفن المنهمكة في رحلة منتظمة .

(التيارات والتحويت – البعثة الامريكية)

لقد يذكر المشاة في جوار لندن وفي جهات اخرى انهم رأوا عظاماً مقوسة قد نصبت في الارض ، اما لتكون اقواساً في البوابات او مداخل للمخادع ، ولعلهم أنبئوا ان هذه العظام اضلاع حيتان .

(حكايات عن حوّات في المحيط المتجمد الشمالي)

ولم يدرك البيض ان سفينتهم قد حازها غصباً المتوحشون المسجلون بين الملاحين الا حين عادت القوارب من مطاردة تلك الحيتان .

(خبر صحفي عن اغتصاب الحواتة هوبوك واستعادتها)

من المشهور المتعارف انه قلما يرجع احد من بحارة الحواتات (الامريكية) في السفن التي ابحروا على ظهورها .

(رحلة في قارب تحويت لجيمس رودس)

وفجأة انفرج الماء عن كتلة هائلة انطلقت عامودياً في الفضاء واذا بها حوت .

(مريام كوفن او صياد الحيتان لجوزف هارت)

حقاً ان الحوت يزرق بالحراب ، ولكن تدبر لنفسك كيف يمكنك ان تسوس مهراً أرناً لم يروض من قبل بربط حبل – محض ربط – عند عجب ذنبه .

(فصل في التحويت على الارينات وتويجات الصواري)

وفي احدى المرات رأيت اثنين من هذه الحيوانات الهائلة (الحيتان) وربما كانا

ذكراً وأنثى يسبحان في بطء ، متعاقبين ، على مرمى حجر او اقل من الشاطىء (شاطىء ترا دل فويجو) الذي تمد فوقه شجرة الزان اغصانها .

(رحلة عالم طبيعي لداروِن)

« جميعاً الى المؤخرة ! » كذلك هتف الضابط حين استدار فرأى فكي حوت عنبر فاغرين ، قرب رأس القارب ، وهما يهددانه بخراب وشيك . « الى المؤخرة جميعاً ، نجاةً بأنفسكم ! » .

(وارتون صياد الحوت)

تذرعوا بالبشر يا فتياني ، وبرباطة الجأش ،

حين يغرز الزراق الجسور رمحه في الحوت .

(اغنية نانتوكتية)

آه يا للحوت الفذ الفريد ، بين العاصف والنكباء ،

يظل في بيته في الماء

مارداً في قوته ، حيث القوة هي عين الحق

وملكاً على البحر المديد ، الذي لا تعرف له حدود .

(أغنية الحواتين)

١ تباشير

قبل بضع سنوات ، لا ادري عددها على وجه الدقة ، كنت انا – وليكن اسمي الذي أعرف به هو اسماعيل – خالي الوفاض من الدراهم او كالخالي، ولم يعد على البر شيء يبعث المتعة في نفسي ، فخطر لي انني قد اقضي بعض الوقت مبحراً [١] وأرى الجزء المائي من العالم . ذلك انني كلما أحسست بالتجهم يرتسم حول شفتي، كلما احسست في روحي بشيء من رطوبة تشرين ونضحه البليل، كلما وجدت نفسي أقف، وقفة المأخوذ، امام دكان التوابيت، واشيّع كل جنازة صادفتها في الطريق، بل قل كلما سيطر عليّ الشعور بالمرّة السوداء حتى اصبحت بحاجة الى وازع اخـــلاقي رادع يحول بيني وبين الضرب في الشوارع وتسديد اللكمات المحكمة الى رءوس السابلة ، كلما كنت في مثل تلك الاحوال أحسست انه قد آن لي ان اركب البحر باقصى ما استطيعه من سرعة، فذلك هو ما أوثره ان آثر غيري المسدس والرصاص. في رباطة جأش المتفلسف القى كاتو[٢] بنفسه على سيفه، اما انا فاني اتوجه نحو السفينة في هدوء . وليس في هذا ما يثير استغراباً، فلو ان الناس على اختلاف درجاتهم عرفوا هذا الامر لاصبحوا بين الحين والحين يشركونني مشاعري نحو البحر او يكادون .

---

١ قام ملفل في الواقع بعدة رحلات بحرية، اولها رحلة من نيويورك الى لفربول عام ١٨٣٩ .

٢ يعني ماركوس بوركيوس كاتو (٩٥ – ٤٦ ق. م.) حفيد كاتو الرقيب؛ انتحر بعـــد مقتل بومبي لئلا يقع اسيراً في قبضة يوليوس قيصر وقيل انه قضى آخر ليلة من حياتـــه يقرأ « الفيدون » لافلاطون .

ها هي مدينة منهاتو البحرية، يلفها نطاق من الارصفة كما تلتف الحواجز المرجانية حول الجزائر الهندية ؛ ويكللها زبد البضائع من كل ناحية، وشوارعها جميعاً تفضي بك الى البحر، يميناً جعلت وجهتك او شمالاً، وعند اقصاها يقع ذلك السدّ العتيد الذي تغسله الموجات وتنعشه النسمات، واذا كنت في الطرف الآخر من المدينة لم تره لان بينك وبينه مسيرة بضع ساعات. تأمل عند ذلك السدّ الحاجز جماهير المحدّقين في الماء.

او ان شئت فطوّف ارجاء هذه المدينة في اصيل يوم حالم قد اخلد الناس فيه الى الراحة؛ توجه من «ثنيّة كورلير» الى «مزلقان كوينتي» ومن ثم انعطف شمالاً ماراً بهوايتهول، فماذا ترى؟ آلافاً مؤلفة من الاحياء، قد استبحروا في تأمل الماء، كأنهم حرّاس صامتون قد انبثوا في كل الارجاء، بعضهم يتكىء على الاسوجة، وبعضهم يجلس على مشارف الارصفة، وبعضهم يمدّ عينيه فوق جنبات السفن القادمة من الصين، وآخرون قد امعنوا في تسلق الحبال كأنما يحاولون ان يبذوا من عداهم في تفرّس الماء. هؤلاء جميعاً ابناء البرّ يقضون ستة ايام في كل اسبوع سجناءَ خلف جدران من الخشب والطين، مشدودين الى مكاتبهم، مسمّرين في مقاعدهم، مقيّدين عند مناضدهم. ما السرّ؟ هل اختفت من الارض مروجها الخضر؟ ماذا يصنع هؤلاء الناس عند البحر؟

انظر! ها هي افواج اخرى عامدة الخطوات نحو الماء كأنما تريد ان تغوص فيه. يا عجباً! لا شيء يرضيهم دون الوقوف على حافة الماء، فاما التخطّر تحت المشارف الظليلة في تلك المصانع فانه لا يُرضيهم. بل انهم يقتربون من الماء اقتراب من يود ان يعانقه دون ان يقع فيه، وهناك يقفون صفوفاً تبلغ الاميال او الفراسخ طولاً. كلهم من سكان البرّ، وفدوا من الزقاقات والمنعطفات، والشوارع والطرقات، جاءوا من جميع الجهات، واتحدوا جميعاً عند الماء، اترى القوة المغنطيسية في إبر البوصلات المستعملة في تلك السفن قد اجتذبتهم نحوها؟

ثم هب انك كنت في الريف، في منطقة مرتفعة ذات بحيرات، واسلك اي مسربٍ شئت، وانا على يقين ان كل مسرب يقودك الى سرارة الوادي، وهناك تجد نفسك قد وقفت عند حوض في جدول . ان في الماء لسحراً، وان شئت على ذلك برهاناً فاعمد الى رجل هوّامة في احلامه غريق في مطاويها، ثم اسنده حتى يقف على قدميه، وادفع به حتى يمشي ، تجد انه يقودك — دون ان يضل — الى الماء، ان كان في تلك البقعة ماء . واذا ظمئت وانت في الصحراء الامريكية الكبرى فاعمد الى هذه التجربة ان كان في القافلة استاذ سابحٌ في غيوب المتافيزيقا فكل الناس يعلمون ان التأمل الفكري والماء قرينان الى الابد .

وها هو فنان يريد أن يختار للصورة التي يرسمها منظراً خلاباً من مناظر وادي ساكو [1] هو اشدها امعاناً في الحلم واكثفها ظلالاً ، واهدأها واكثرها سحراً وخلابة . فما أهم عنصر يدرجه في الصورة ؟ سيرسم ، ولا بد ، شجرات جذوعها مجوفة كأن في داخلها ناسكاً يحمل صليبه ، وهناك يبسط المرج الغافي، وهنا القطيع الجاثي ، ويجعل عند الطرف الاقصى كوخاً يتصاعد منه الدخان الواهي ، وتتغلغل في الغابة النائية طريق متعرجة تبلغ أُنوفَ الرّعان الغارقة في زرقة الافق . وتظهر الصورة على هذا النحو سابحة في غيبوبة النشوة ، وشجرة الصنوبر تنثر تنهداتها فوق رأس الراعي كأنها اوراق تتساقط . إلا انها، رغم ذلك كله صورة باهتة لا حياة فيها لو لم تكن عين الراعي معلقة بالجدول السحريّ الذي يترقرق امامه . اذهب في زورة الى منطقة السهوب الشاسعة (البريري) [2] في شهر حزيران (يونيه) حيث تغرق رجلاك حتى الركبتين بين

---

[1] نهر ساكو ، ينبع من قاعدة جبل وشنطن ويجري الى الجنوب ويصب في الاطلسي عند مين .

[2] في الانتقال الى الغرب في منتصف القرن التاسع عشر كان لمنطقة السهوب سحر جذاب يأسر نفوس الامريكيين .

ازهار الزنابق على مدى عشرات من الاميال . لكن ما السحر الذي تفتقر اليه تلك المنطقة ؟ — هو الماء — فليس فيها قطرة منه . ترى لو كانت نياجرا شلالاً من الرمل أكنت تقطع آلاف الاميال من أجل ان تراه ؟ وحين تسلّم شاعر تنسي البائس [1] قبضتين من الفضة : لماذا تراه وقف يميّلُ بين شراء معطف هو في أشد حاجة اليه وبين ان يستغل نقوده في رحلة الى شاطي روكوي يقوم بها راجلاً ؟ لمَ يكاد كل غلام جزل سليم ذي روح جزلة سليمة يتوق — بين الحين والحين — توقان المجنون للذهاب الى البحر ؟ ولماذا أحسست أنت نفسك في اول رحلة قمت بها مسافراً باختلاجات غريبة وقد قيل لك انك انت والسفينة قد توارى عنكما منظر البرّ ؟ لمَ كان الفرس القدماء يعدون البحر مقدساً [2] ؟ لمَ جعل الاغريق للبحر رباً عدوه أخاً لرب الأرباب نفسه [3] ؟ حقاً ان لذلك كله مغزى. وأعمق من هذا مغزى قصة الفتى « نرجس » فانه حين عجز عن ان يمسك خياله الوديع المتمثل امامه في النبع ، وعذّبه شعوره بعجزه ، ألقى نفسه في الماء وآثر الغرق . ونحن انفسنا نرى ذلـــك الخيال في كل نهر وكل بحر ، ذلك هو خيال شبح الحياة ، الخيال الروّاغ الذي لا نستطيع ان نضم عليه جُمْعَ اليد ، وذلك هو السرّ في كلّ ما هنالك .

واذا قلت ان من عادتي ان اذهب الى البحر حين احس بدوائر من التجهم تنعقد حول عيني ، وحين احس بضيق في التنفس ، فلست اعني انني اذهب الى البحر في صورة رحالة مسافر ، اذ المسافر لا بد له من كيس ، وما الكيس إلا

---

١ لا احد يدري الى من يشير ملفل في هذه العبارة ، ولعل المقصود هو بايارد تيلور الذي كان يكثر من الرحلة ماشياً .

٢ ذكر هيرودتس ان المجوس يقـــدمون الضحايا والقرابين للشمس والقمر والتراب والنار والماء والريح .

٣ هو بوسيدون اخو زفس في الاساطير الاغريقية .

خرقة اذا كان فارغاً لا خشخشة له ؛ ثم ان المسافرين يصابون بدوار البحر ، ويعتريهم النكد والتحفز للشجار ، ويأرقون ولا يجدون لأنفسهم متعاً . كلا . ولا أذهب الى البحر في صورة كومودور او قبطان او طبّاخ ، وان كنت أعرف شئون الملاحة . بل اتخلى عمّا في هذه الوظائف من مجد ورفعة لمن كان يهواها ، ذلك أني امقت كل ما يعــــده الناس مشرّفاً محترماً من ضروب الكدح والمحن والبلايا ، أياً كان نوعها . فانا أحبّ ان اهتم بشئون نفسي دون ان اهتم بالسفن والمركبات المثلثة الاشرعة والمثنّاة والشواني وهلم جرّا . وانا اقرّ ان وظيفة الطباخ ذات مجد وفير ، إذ الطباخ في السفينة يشبه ان يكون ضابطاً ، ومـــع ذلك لم يخطر لي أبداً ان أشوي الفراخ ، مع ان الفرخة اذا شويت ، وأضيف اليها القدر اللازم من الزبد ، وملّحت وتبّلت في إحكام ، فلن تجد احداً مثلي يستطيع ان يتحدث عنها باحترام ، ان لم أقـــل بتوقير وإجلال . ان شغف المصريين القدماء بأبيس المشويّ وبفرس الماء المحمّرة هو الذي حـــدا بهم الى وضع مومياءات هذين الحيوانين في مخابزهم الضخمة التي يسمونها « الأهرام » .

غير أني حين أذهب الى البحر أختار ان أكون بحّاراً بسيطاً يقف امام الصاري ، ويسبر غور الماء امام منارة السفينة ، ويصعد الى قمة الصاري الملكي . حقاً ان رؤسائي يأمرونني بهذا او بذاك ، فأقفز من دقل الى دقل كأنني جندب ينطّ في المروج الربيعية ، ومثل هذا الامر في البدء يكون مثار غمّ وكآبة ، اذ يجرح شعور المرء بالاعتزاز ، وبخاصة ان كان ينتمي الى احدى العائلات العريقة[1] كبني رينسلار وبني راندولف والهردكانوتيين . ولعلّه اشـــدّ شيء مساساً بالكرامة الذاتية ان كان المرء — قبل ان يغمس يده في برميل القار — معلماً في

١ كانت عائلة ملفل نفسه عريقة ، اشتهر منها غير واحد ، وكان هو نفسه معلماً ، والقطعة الاولى التي جعل عنوانها « فصل في الاشتقاق » وتحدث فيها عن المعلم الشاحب المساول انما يشير فيها الى نفسه في اغلب الظن ، ولعله اراد ان يقرن نفسه بمعلمين صاروا أدباء مرموقين مثـــل روسو والدكتور جونسون .

مدرسة ريفية ، يحرّك يده الآمرة الناهية امام طلابه ، فيجعل اطولهم قامة يقف في رهبة وخشوع . دعني أؤكد لك ان النقلة من وظيفة معلم الى مهنة بحّار امرٌ حادٌّ مرهف لا يستطيع المرء ان يصرّ بأسنانه مكشراً وهو يأخذه على عاتقه الا اذا أثار حماسته لقبوله فيلسوفٌ مثل سنكا وسائر الرواقيين . الا ان حدة هذا الشعور تتضاءل بمرور الزمن .

اي عار في ان يستدعيني قبطان فظ عبوس ويأمرني ان احضر مكنسة انظف بها ظهر السفينة ؟ ترى اي درجة تبلغها هذه المهانة — اعني اي وزن تبلغه — في ميزان الانجيل؟ هل ينحطُّ قدري في نظر جبريل — سيد الملائكة — لاني خففت باحترام ملبياً أوامر ذلك الفظ العبوس في ذلك الامر عينه ؟ خبروني أينا ليس خادماً ؟ اذن فمهما يأمرني القبطان العجوز ، ومهما يصبني من صفعاته ولطماته فاني اراني راضياً لاني اعلم انه لم يأتِ شيئاً إدّاً ، ولأني على يقين ان كل انسان تقدم له الخدمة على نحو او آخر ، اي على نحو مادي او معنوي ، وهكذا تدور اللطمة فتصيب كل الوجوه ، وتنزل اللكمة على كل منكب ؛ وحين أعلم كل ذلك يستولي عليّ الرضى .

ثم انا اذهب الى البحر في صورة بحار لأني اتقاضى أجراً عن كل اتعابي ، اما الذي يركب البحر مسافراً فانه لا يقبض درهماً واحداً — فيما اعلم . بل الامر على النقيض اذ على المسافر ان يدفع اجراً وفي هذا نفسه كل ما في الكون من فرق بين الدفع والقبض . وربما كان الدفع اسوأ عقوبة انزلها بنا لصّا الجنة [1] . اما القبض ، فهل شيء يوازيه ؟ ان الحيوية الوديعة التي يبديها المرء وهو يقبض نقوداً غاية في اثارة الاعجاب ، هذا مع اننا جميعاً نعتقد مخلصين ان المال اصل كل الشرور الدنيوية ، وان الغني لا يدخل باب السماء إلا حتى يدخل الجمل في سمّ الخياط . ما اسرع ما نسلم انفسنا الى التهلكة راضين مستبشرين !

---

[1] في هذا اشارة الى قصة آدم وحواء .

ثم انا اختار دائماً ان اكون بحاراً لاني امارس رياضة بدنية مفيدة واستنشق هواءً نقياً عند منارة السفينة، اذ الامر في السفينة كالامر في العالم الذي نسكنه، اعني ان الرياح في المقدمة اشد انتشاراً من الرياح في الكوثلة (هذا اذا انت لم تنقض الحكمة الفيثاغورية السائرة) [1] ولذلك فان البحارة عند منارة السفينة يستنشقون الهواء اولاً ثم يسلمونه الى الكومودور في موضعه خلف الدقـــل الكبير ، فيستنشقه وقد تبدد جوهره ، وهو يظن مخطئاً انه اول من يتلقاه ؛ وبمثل هذه الطريقة يتحكم المرءوسون في رؤسائهم في شئون اخرى ، والرؤساء غافلون عما يجري . لقد عبأت رئتي من هواء البحر عدة مرات وانا بحار تاجر، فما الذي أوحى اليّ ان اذهب هذه المرة في رحلة لصيد الحيتان ؟ ان مصرّف الاقدار المحجوب وراء الغيب الذي يرعاني في كل خطاي ، ويحفزني سرّاً الى عمل ما اعمل ، ويسيطر عليّ بطريقة لا استطيع تفسيرها، هو وحده القادر على ان يجيب عن هذا السؤال . ولا ريب في ان رحلتي هذه لصيد الحيتان تمثـــل جانباً من ذلك المخطط العظيم الذي رسمته عناية الله منذ الازل ، فقد جاءت نوعاً من الراحة القصيرة ، نوعاً من النغم المفرد بين فصلين كبيرين من رواية . ولعلّ ما خط في اللوح المحفوظ انما كتب على النحو الآتي :

التنافس على الجـــولة الانتخابية الكبرى لرئاسة الجمهورية في الولايات المتحدة [2]

رحلة لصيد الحيتان يقوم بها شخص يدعى اسماعيل

معركة دامية في افغانستان [3]

---

١ تنص الحكمة الفيثاغورية على الامتناع عن اكل الفول « فذلك خير للمعدة ، وهذا يجعل الرؤى في النوم اقل اضطراباً واشد هدوءاً » .

٢ لعله يشير الى انتخابات عام ١٨٤٠ قبل ابحاره على السفينة اكوشنت .

٣ قامت في كابل ثورة عام ١٨٤١ قتل فيها عدد من الضباط الانجليز .

لماذا خصص لي مديرو المسرح ، اعني الاقدار ، هذا الدور الخسيس ، دور صيد الحيتان ؟ ولمَ قدّروا لغيري ادواراً كبرى في تراجيديات سامية ، وأدواراً قصيرة سهلة في كوميديات ظريفة ، وأدواراً مفرحة في مجونيات ضاحكة ؟ لست اعرف لذلك جواباً ملائماً ولكني حين استعيد في ذاكرتي جميع الظروف والملابسات ، اعتقد انني قد اتبين بصيصاً يفصح عن جانب من المنابع والدوافع التي تسللت إليّ ماكرة تحت شتى ضروب التنكر والتخفي ، واغرتني بالشروع في اداء ذلك الدور الذي قمت به ، هذا الى انها داهنتني فجرتني الى التوهم بأن ما اديته انما اخترته بمحض ارادتي الحرة السديدة وحكمتي الرشيدة .

وأقوى هذه الدوافع فكرة ٌ مهيمنة عن الحوت الكبير نفسه ، فمثل هـــذا الوحش المهول الغامض يثير لديّ كل رغبة في الكشف والتطلع . ثم تلك البحار الموحشة النائية حيث يتدحرج الحوت بجثة كالجزيرة ضخامة ً ، واخطارُ الحوت ، تلك الاخطار التي لا استطيع ان اتحدث عنهـــا او اسميها باسمائها ، وما يصحب ذلك من عجائب تقدمها آلاف المرئيات والمسموعات عند محاذاة بتاغونيا ، كل هذه الامور كانت عوامل تحكمت بي لتوجهني الى غايتي . وقد تعجز هذه الامور نفسها عن ان تغري اناساً آخرين ، اما انا فاني امرؤ تعذبه الحُرْقَة الدائمة نحو الامور النائية ، فانا أعشق الابحار في بحار ممنوعة والنزول على شواطىء موحشة همجية . واستطيع ، دون ان اغفل عما هو خير ، ان اسرع الى ادراك الرعب ، كما استطيع ان اكون مع الرعب على وئام — وليتهم يسمحون لي بذلك — اذ من الخير ان يكون المرء على وفاق مع كل ما في المكان الذي يحل فيه من نزلاء .

لهذه الاسباب جميعاً رحبت صدراً برحلة صيد الحيتان ، وكأن عالم الاعاجيب فتح ابوابه امامي على مصاريعها . وبين الاخيلة الغريبة التي حدتني الى غايتي اخذت تحوّم في آفاق روحي ، مثنى مثنى[1] ، مواكب مسترسلة من الحوت لا تنتهي ، وبينها جميعاً أرى شبحاً عظيماً مقلنساً كأنه تلة ثلجية في الفضاء .

---

[1] يقارن ملفل هنا بين ازدواج الاخيلة في آفاق روحه وبين دخول الحيوانات في سفينة نوح « من كل زوجين اثنين » مشبهاً روحه بالسفينة .

٢

حقيبة من القماش

دسست قميصاً او اثنين في حقيبة قماشية عتيقـــة وطويتها تحت ذراعي، وشرعت في رحلتي نحو رأس هورن والمحيط الهادي، فغادرت مدينة منهاتو الطيبة القديمة ووصلت نيو بدفورد[1] دون إبطاء، وكانت ليلة سبت في شهر كانون الاول (ديسمبر) ، ولشد ما كانت خيبة املي حين علمت ان سفينة الركاب الصغيرة كانت قد اقلعت الى نانتوكت وان ليست هناك من وسيلة لبلوغ ذلك المكان حتى يوم الاثنين التالي .

ان معظم الشبان الذين يرشحون انفسهم لتلقي آلام صيد الحيتان وعقوباته يقفون فى نيوبدفورد كي ينطلقوا من ثمّ في رحلتهم، غير اني لم اكن اريد ذلك ولا خطر لي في بال، اذ كنت قد ازمعت ان ابحر في سفينة نانتوكتية، وذلك لان شيئاً جميلاً مثيراً يتصل بكل شيء ذي علاقة بتلك الجزيرة القديمة الشهيرة، وكان ذلك الشيء الجميل المثير يبعث في نفسي سروراً وارتياحاً . نعم كانت نيوبدفورد قد اخذت تدريجاً تحتكر مهنة صيد الحيتان ، حتى اصبحت نانتوكت القديمة المسكينة متخلفة عنها في هذا المضمار، ولكن هذه الثانية هي امّ الاولى — هي صور التي ولدت قرطاجة — هي المكان الذي جُرّ فيه اول حوت امريكي قتيل الى البرّ . هل تجمع الحوّاتون الأول — اولئك الرجال الحمر في قواربهم

---

١ على الساحل الجنوبي من ولاية مساشوست، على الضفة الغربية من نهر اكوشنت، اما فيرهافن فتقع على الضفة الشرقية ، وقد زار ملفل مدينة نيوبدفورد عام ١٨٤٠ يوم كانت اهم ميناء لزيت حوت العنبر .

ليطاردوا الحوت (اللوياثان)، إلا في نانتوكت ؟ ومن اين – الا منها – اندفعت اول سفينة مغامرة وحيدة الصاري وقد شحنت فيها حمولة من الحصى – كذلك تقول القصـــة – لتخذف بها الحيتان، حتى يكتشف الصيادون مدى اقترابها فيقذفوها بالرمح المريّش من محاذاة الدقل المائل الامامي .

كان عليّ ان اقضي في نيوبدفورد ليلة ويوماً، وليلة اخرى تتلوهما، قبل ان استطيع الاقلاع الى الميناء المقدور، ومن ثم وجدتني افكر في امر الطعام والمنام، وكانت ليلة مريبة السحنة، لا بل قاتمة شديدة القتام والكآبة، مكفهرةً قارسة البرد، ولم اكن اعرف احداً في تلك المدينة . وسبرت غور جيبي باصابع قلقـــة كانها الخطّاف فلم ترجع اليّ الا ببضع قطع من الفضة . ووقفت في وسط شارع مقفر، وقد طرحت حقيبتي على عاتقي، اقارن بين جهمة الافق في الشمال وظلمته جهة الجنوب، وفي وقفتي قلت لنفسي : حيثما وليتَ وجهك يا اسماعيل، حيثما قدَّرَتْ لك حكمتُكَ ان تأوي الى نزل في هذه الليلة، يا عزيزي اسماعيل، فكن على يقين من ان تسأل عن الاجر قبل ان تتورط ، ولكن لا تمعن في التدقيق .

وذرعت الشوارع بخطىً مترددة وجاوزت لافتة «الرماح المتقاطعة»، ولكن كان يبدو لي المكان الذي وصلت اليه باهظ التكاليف مفرطاً في المرح، ومن امامي كانت «حانة الحوت المسيّف» ترسل من نوافذها الحمر اللامعة اشعة فياضة حتى لقد بدا لي انها اذابت الثلج والجليد المتراكم من امام الحان، اذ كانت كل بقعـــة سواها تحمل من الصقيع المتجمد طبقة يبلغ سمكها عشر بوصات وتكوّن رصيفاً صلباً كالاسفلت، وكان ذلك نفسه يكربني حين انقل قدميّ على النتوءات الصوّانية ، لان الخدمات الشاقة المضنية التي ادّاها نعلاي جعلتهما في حالة بائسة مزرية . وخطر لي مرة اخرى ان المكان باهظ التكاليف مفرط في المـــرح ، وتوقفت لحظة لارقب اللألاء المنساب على ارض الشارع، واسمع قرع

القوازيز والاكؤس في الداخل . واخيراً قلت لنفسي : امضِ بنا يا اسماعيل، ألست تسمع ؟ هيا ابتعد من امام الباب فان حذاءيك المرقعين يعرقلان المرور . ومضيت ، تقودني الغريزة في الشوارع المتجهة نحو الماء ، اذ عند الشاطىء أجد – ولا ريب – ارخص الحانات والفنادق ان لم اقلْ ارحبها صدراً .

يا للشوارع الخاوية ! كِسَفٌ من ظلماتٍ على الجانبين لا بيوت، وهنا وهناك ذبالةٌ تنوس كانها شمعة منصوبة في قبر . في تلك الساعة من الليل، وفي آخر يوم من ايام الاسبوع بدا ذلك الحيّ من المدينة كأنه خراب مهجور . ولكن سرعان ما بلغت ضوءاً يعلوه الدخان منبعثاً من مبنى داني السقف واسع الباحة ، بابه مفتوح على مصراعيه كأنما يرحب بالداخلين، وعليه سمة من الاستخفاف وعدم الاكتراث كأنما اقيم ليفيد منه الجمهور؛ ودخلت، وكان اول ما فعلت أن وقعت متعثراً بصندوق للرماد في الدهليز . وحين كادت الذرات المتطايرة تخنقني كنت اقول لنفسي : يا لهذا البلد ! أترى هذا رماد عامورة التي احترقت ؟ وتذكرت « الرماح المتعارضة » « والحوت المسيف »، وقلت : لا بد ان تكون هذه هي « المصيدة »، ولملمت نفسي واستجمعت ناهضاً، وتقدمت وانا اسمع صوتاً عالياً يصدر من الداخل وفتحت باباً داخلياً ثانياً .

وبدا لي كأنني اشهد البرلمان الاسود الكبير منعقداً في ظلمات توفة (الجحيم)[١]، وان مئات الوجوه تلفتت في مقاعدها تتفرس في القادم، ومن دونها ملاك المنية الاسود يرتل في كتاب فوق منبر ؛ كان المكان كنيسة للزنوج وكان حديث الواعظ عن ظلمة الظلام وعن البكاء والعويل وتحريق الأرّم هنالك .

---

١ توفة اسم مرتفعات في وادي ابن هنوم حيث جعل الاسرائيليون الجاحدون ابناءهم يمرون خلال النار الى الصنم في موكب ضـلال وجحود (ارميا ٧ : ٣١ – ٣٢)؛ وذكره ملتن في « الفردوس المفقود » (١ : ٣ – ٤) وقال : توفة هناك وجهنم السوداء ... . ولعل ملفل رأى في نيوبدفورد كنيسة للزنوج فقد كانت لهم فيها كنيسة يوم ذهب في السفينة الاكوشنت .

وتمتمت بيني وبين نفسي وانا متردد حائر : واهاً لك يا اسماعيل، ما أتعسَ القِرى عند لافتة « المصيدة » .

وتقدمت فبلغت اخيراً ضوءاً خافتاً غير بعيد عن احواض السفن، وسمعت في الفضاء صريراً بائساً، وتطلعت الى اعلى فرأيت علامة تتأرجح فوق باب وعليها طلاء ابيض يمثل – على نحو باهت – فوارة طويلة منتصبة ذات رذاذ ضبابي وقد كتب تحتها : « حانة النفـّاث لصاحبها بطرس التابوتي » .

وقلت لنفسي : تابوت ؟ نفاث ؟ لفظتان كريهتان في تلك الحال . غير انهم يقولون ان كلمة التابوت اسم شائع في نانتوكت واظن ان بطرس هذا هاجر منها الى هذا البلد. ولما بدا لي النور باهتاً والمكان – لاول وهلة – هادئاً، وبدا البيت الخشبي الصغير الذي تشعث كأنما عمّر من خرائب منطقة التهمتها النيران ولما اوحت لي اللافتة المتأرجحة ان الصرير الذي ترسله انما هو قرقعة الفقر والتعاسة – لما بدا كل ذلك كذلك قلت : لا بد ان تكون هذه البقعة ارخص نزل، وخير مكان تقدم فيه قهوة الحمص .

كان نوعاً من البيوت غريباً – داراً قديمة تنتهي بجَمَلون مفلوج من احد جانبيه – ان صحّ التعبير – مائل على شقه الآخر في أسى . وتقع الدار عند زاوية حادة كئيبة حيث تظل الريح العاصفة اوروكليدون [1] ترسل عواءً أسوأ من كل عواء كانت ترسله من حول سفينة بولس المسكين . وعلى ذلك فان اوروكليدون نسيم قوي منعش لكل من استكنّ في البيت، ووضع رجليه على المدفأة ليدفئها قبيل النوم . يقول مؤلف قديم أملك انا من كتابه النسخة

---

[1] هي الريح التي حطمت سفينة بولس، جاء في اعمال الرسل (٢٧ : ١٤) ولكن بعد قليل هاجت عليها ريح زوبعية يقال لها اوروكليدون .

الوحيدة التي استعصت على الفناء : « حين تحكم على هذه الريح العاصفة إلتي تسمى اوروكليدون فيجب ان تعين من اية الزاويتين تنظر اليها، لان الاختلاف بينهما ينشىء فرقاً مدهشاً في حكمك : أأنت ترمقها من وراء الشباك الزجاجي حيث يتجمع الصقيع كله في الجانب الخارجي، ام انت ترقبها من خلال النافذة العارية التي لا إطار لها، حيث يتجمع الصقيع في الجانبين الخارجي والداخلي، وحيث يكون شخص الموت هو الزجّاج الوحيد » . وحين خطرت هذه العبارة ببالي قلت في نفسي : حقاً ايها الاديب القديم انك لذو منطق سديد . نعم هاتان العينان هما النافذتان وجسدي هذا هو الدار، يا ليت الناس رأبوا هذه الصدوع وسدّوا هذه الثقوب وجعلوا هنا وهناك سطاماً او نسالة . لكن لاتَ حينَ اصلاحٍ وترميم . فقد تكوّن الكون، ووضع حجر الزاوية في البناء، وسوّيت الشظايا منذ مليون عام . مسكين هو لعازر يغرز اسنانه كالمنشار في صوّةٍ من الصوى ليتخذها وسادة، وترتجف فوقه اسماله كلما اهتز وارتعش، وقد يسد كلتا اذنيه بالخرق، وقد يضع في فمه قرصة قمح، ومع ذلك فان هذا كله لن يحميه من الريح العاصفة اوروكليدون . ويقول دايفس الشيخ [1] وهو ملفّع بمعطفه الحريري الاحمر (ومن بعد اصبح لديه معطف اشد حمرة من الاول) : اوروكليدون ! أح ! أح ! ما اجملها من ليلة ذات صقيع ! ما اشد لألاء الجوزاء ! اي انوار تجيء من الشمال ؟ دع المتحدثين يتحدثون عن المناخ في صيفهم الشرقي ذي الاهراء الخالدة واعطني الحق في ان اصنع لنفسي صيفاً بايقاد النار .

لكن ما رأي لعازر ؟ هل يستطيع ان يدفىء يديه الزرقاوين بان يرفعهما

---

[1] وردت قصة لعازر والرجل الغني في انجيل لوقا (١٦ : ١٩ – ٣١) ولم يعين الانجيل اسم ذلك الغني، وانما ورد اسمه Dives في بعض كتب الرحلات .

في وجه الانوار الشمالية العظيمة ؟ ألا يؤثر لعازر ان يكون في سومطره بدلاً من ان يكون هنا ؟ ألا يؤثر ان يستلقي على خط الاستواء ؟ بلى ايها الارباب ! بل يؤثر ان يذهب الى قرارة السعير ليبعد عن نفسه هذا الزمهرير .

فاذا قلت لك ان لعازر استلقى هناك منطرحاً ورأسه على الصوّة امام باب دايفس فهذا امر اشد اثارة للدهشة من ان تسمع بان جبلاً من الجليد قد ارسى عند احدى جزائر مالوقا [1] . غير ان دايفس نفسه يعيش كأنه قيصر روسي في قصر من الجليد [2] مصنوع من التنهدات المتجمدة، وبما انه رئيس هيئة اجتماعية تحرم الخمور فانه لا يشرب الا العبرات الحرار التي يسكبها اليتامى .

ولكن حسبنا بكاء فنحن ذاهبون لصيد الحوت ، ولا بد لنا من دموع غزيرة من بعد . اما الآن فلنكشط الجليد عن اقدامنا المتجمدة، ولنحاول ان نرى اي نوع من المكان هو حانة « النفاث » .

---

١ جزائر مالوقا او جزائر البهار تشمل كل الجزر الواقعة في ارخبيل الملايو .

٢ كان يقام في بطرسبرج قصر من الجليد كل عام يضوأ بالشموع والمشاعل خلال احد الاعياد.

٣ حانة النفاث

اذا انت دخلت حانة النفاث التي تنتهي بحملون وجدت نفسك في مدخل فسيح متطامن مضلّل، ذي طراز عتيق من الافاريز، يذكر المرء بهيكل سفينة عتيقة قبيحة المنظر . وقد علق في احد جوانبها لوحة زيتية كبيرة ، لوث الدخان صفحتها وانطمست معالمها ، حتى انك لا تستطيع ان تستبين فكرتها وانت تنظر اليها تحت الاضواء المتعارضة غير المتكافئة التي كشفتها لعينيك عند دخولك الا بالتفرس المستمر والزيارات المتكررة المنظمة ومساءلة الجيران . انها كتل من الظلال والاخيلة لا مغزى لها حتى تكاد تظن ان الرسام الذي اوجدها فنان شاب طموح كان يعيش في عصر سواحر نيوانجلند وحاول ان يمثل بها صورة الفوضى الكونية حين تلمسها كف السحر . بعد قسط كبير من التأمل المخلص والتفكر المثابر المكرور ، وبعد ان تفتح النافذة الصغيرة الواقعة نحو الخلف من المدخل ، تستنتج اخيراً ان هذه الفكرة التي خطرت لك — ايا كان حظها من الغرابة — لها ما يؤيدها .

غير ان اشد ما يحيرك في الصورة ويعييك فهمه منها انما هو كتلة طويلة لدنة مهولة سوداء تتذبذب في وسط الصورة فوق خطوط ثلاثة زرق معتمة عمودية عائمة في زبد لا يعرف كنهه . انها صورة بليلة موحلة نزازة طحلبية لو رآها امرؤ عصبي المزاج لتركته مشتت الخواطر ، غير ان فيها لوناً من الروعة يعز على التحديد والتصور الكامل ، ولا يُدرك الا بعض ادراك ، لوناً يأسرك ويوثق عينيك بها حتى لتقول : آليت على نفسي لأجدن مغزى هذا الرسم العجيب .

وتتساقل على مخيلتك تواً خواطر براقة الا انها — ويا للأسف — خادعة : انها صورة البحر الاسود وقد هبت عليه النسمات في منتصف الليل ؛ انها الصراع الشاذ بين العناصر الاربعة ؛ هي مرج اتلفـــه حاصب ؛ لعلها منظر شتائي في هيبربور ؛ ربما كانت صورة انفجار نهر الزمن الذي يحتضنه الجليد على الجانبين . ثم تتراجع هذه الخيالات حسيرة امام ذلك الشيء المهول الذي يحتـــل وسط الصورة ، لانك ان عرفت سرّه ، فكل ما عداه هين ميسور . على رسلك ! أليس فيه شبه يسير من سمكة ضخمة بل شبه من الحوت العظيم نفسه ؟

والواقع انني عرفت فكرة الفنان ؛ وكان ما توصلت اليه نظرية حاسمة كونتها بنفسي ، الا ان بعضها مبني على آراء جمعتها من شيوخ كثيرين تحدثت اليهم في الامر ، وخلاصة ما هنالك ان الصورة تمثل رجلاً من رأس هورن في عاصفة شديدة ، وقد غاصت سفينته هنالك فأصبحت شبه غريقة لا يرى منها الا صواريها الثلاثة معطلة ، وفي الصورة حوت ساخط محنق يريد ان ينقض على السفينة ، وتكاد تقول انه لشدة تحفزه سيتسنم في وثبته رؤوس الصواري الثلاثة .

اما الجدار المواجه للمدخل فقد علقت عليه صفوف من الهراوات الضخمة والحراب ، وبعضها قد رصّع بأسنان لامعة تشبه مناشير العاج ، وبعضها الآخر قد جعلت عليه جمة من خصل شعر الانسان ، وكانت احداها في هيئة منجل ذي مقبض ضخم تتأرجح يمنة ويسرة كأنها القطاع الذي خلّفـــه في عشب حصده حديثاً حصاد طويل الذراع . وحين يحدق فيها الناظر تعتريه رعشة ودهشة : ترى اي متوحش مخيف آكل للحوم البشرية كان يحمل هذه الاداة المرعبة المذرّبة ليحصد بها الارواح كأنه الموت . وبين هذه الادوات حراب ورماح قديمة صدئة مما يستعمل في صيد الحيتان ، وكلها مكسّر مشوّه . ولبعض هذه الاسلحة قصص وحكايات : بهذه الحربة التي كانت ذات يوم طويلة واصبحت

اليوم معقوفة على نحو غريب ، قتل ناثان سوين [1] ، منذ خمسين عاماً ، خمسة عشر حوتاً بين شروق الشمس وغروبها . وذلك الرمح الذي غدا اليوم مثل البريئة ، قذف في بحار جاوة ، فأصاب حوتاً ندّ به هارباً ، وبعد سنوات قتـــل ذلك الحوت بعيداً عن رأس بلانكو [2] . لقد دخل سن الرمح في جسمه عند الذنب ثم تسرب فيه اربعين قدماً كاملة ، كما تتسرب الابرة القلقة وتتغلغل في جسم الانسان ، واخيراً وجد ذلك السن دفيناً في حردبته .

فاذا انت عبرت هذا المدخـــل المعتم ومضيت في الطريق ذات الاقواس المتدنية ، ولعلها طريق تخترق ما كان في الايام القديمـــة مدخنة ضخمة فوق مواقد تحيط بها من كل جانب ، فانك تدخل الغرفة العامة ، وهذا مكان اشد ظلمة من الاول منخفض السقف ، قد صفت في سقفه « مورينات » خشبية ضخمة ، وفرشت ارضه بألواح خشبية قديمة متغضنة ، حتى لتكاد تتخيـــل وانت تدوس عليها انك تمشي على ارض « قمرات » سفينة عتيقة ، وبخاصة في تلك الليلة التي تعوي فيها الريح وتهز هذه الفُلك البالية الراسية في تلك الزاوية هزاً عنيفاً . وفي احد الجوانب تقوم مائدة مديدة قميئة تشبه الرفّ قد غطيت بصناديق زجاجية مصدوعة مشدوخة ، تملؤها أشياء نادرة علاها الغبار ، جمعت من اقصى ارجاء المعمورة . وفي الزاوية القصوى من الغرفة يقوم كهف معتم هو خزانة الشراب « البار » ، وشكله محاكاة غير متقنة لرأس حوت ، وأياً كان شأنه فهناك فك الحوت المقوس ، وهو من السعة بحيث يمكن لعربة ان تمر تحته . وفيه رفوف مهترئة صفت عليها الاباريق القديمة والقناني والقوازيز . وبين فكي هذا الدمار الوَحِيّ شيخٌ بالٍ صغير الجسم منهمك في عمله كأنه يونان آخر

---

[1] لعله هو نفسه الحوات الذي سيتحدث عنه فالج في اواخر الفصل : ١٨ باسم نات سوين .

[2] هناك عدة مواقع تعرف بهذا الاسم ، ولعل المعني هنا هو الرأس بلانكو (الابيض) في بيرو شمالي بايتا .

ملعون (بل انهم ينادونه باسم يونان) [1] وهو يبيع البحّارة البُحران والموت – لقاء مالهم – بيعَ الغلاء .

كريهة هي الاقداح التي يصب فيها ذلك السمّ . اسطوانية الشكل من خارج هي تلك الكؤوس الخبيثة الخضر الجاحظة اما في داخلها فانها تستدق وتستدق حتى تفضي الى قرارة خادعة ، وقد رصـــع الزجاج – دون اتقان – بخطوط متوازية تحيط بهذه الاقداح التي تشبه ممسحة الاقدام . يقول الشارب : صب حتى هذه العلامة ، وذلك يكلفه بنساً واحداً ؛ فاذا بلغ الشراب العلامة التالية كلف بنسين ، وهـــلم جراً حتى تمتلىء الكأس – وهي المكيال الذي يستعمله اهل رأس هورن – وثمنها شلن واحد .

وحين دخلت المكان وجدت عدداً من البحارة الشبان قد تجمعوا حول طاولة يتفحصون على ضوء خافت « عينات » متنوعة من تحف صغيرة يصنعها البحارة ويسمونها Skrimshander [2] ؛ وبحثت عن صاحب الخان ، وحين لقيته أخبرته اني اريد غرفة ، فأجابني ان داره مليئة بالناس وليس فيها سرير واحد خالٍ ؛ ثم استدرك وهو يدق على جبهته بيده : « على رسلك ! لا أظن لديك مانعاً في ان تشارك صيّادَ حيتانٍ غطاءَه ؟ أليس كذلك ؟ اعتقد انك ذاهب للتحويت ، ومن الخير لك ان تتعود هذا الامر » .

واخبرته انني لم احب ابداً ان اشارك شخصاً آخر فراشه ، واذا كان عليّ ان افعل ذلك ابداً ، فهذا شيء يعتمد على هوية الحوّات ؛ فاذا لم يكن لديه – اي رب النزل – مكان آخر يهيئه لي ، ولم يكن لدى الحوات ممانعة وتشدد ،

---

١ انظر الفصل التاسع في ما يلي .

٢ أخذت معنى هذه الكلمة من تعريف ملفل لها في الفصل : ٥٧ وهي كلمة عامية تختلف في تهجئتها ، وأشيع صورها Scrimshaw .

فاني لأوثر ان اشارك اي امرىء شريف لحافه على ان اضرب في شوارع مدينة غريبة في مثل تلك الليلة المريرة .

– « كذلك قدّرت ! حسناً . تفضل . عشاء . عشاء ؟ اتريد عشاءً ؟ سيكون العشاء جاهزاً توّاً » .

وجلست على « مدّ » خشبي قديم ، تخدد وجهه كأنه مقعد فوق السدّ العتيد في منهاتو ؛ ورأيت في احد طرفيه فعل نوتي دءوب اخذ يزينه بمديته الصغيرة ، وتخيلته كيف انحنى وأكب يعمل في حفر المسافة الواقعة بين رجليه ، وقلت لنفسي : لعله جرّب مهارته في سفينة مطلقة الاشرعة الا انه لم يحرز نجاحاً .

واخيراً دعي اربعة او خمسة منا الى تناول الطعام في غرفة مجاورة ، كانت باردة كأنها إسلندة ، لا نار فيها ابداً ، اذ زعم رب النزل انه يعجز عن القيام باعدادها ، ولم يكن ثمة سوى شمعتين كئيبتين مصنوعتين من الشحم وقد وضعت كل منهما في غلاف مفتول . وسررنا اذ قيّض لكل منا ان يزرّ « صدرة السعدان »[1] على جسمه ، وان يرفع الى شفتيه كوباً من الشاي الساخط فوق اصابع تجمدت او تكاد . الا ان السفرة كانت من النوع الخصب الغني اذ لم تقتصر على اللحم والبطاطس ، وانما كانت تشمل ايضاً الفطير السكري . يا لله ! فطير للعشاء ! وأقبل شاب يلبس معطفاً اخضر سميكاً على ذلك الفطير اقبالاً مفزعاً مروعاً .

فقال رب النزل : « يا بني انا متيقن ان الكابوس سيتلبسك الليلة » .

فهمست : «ايها السيد ، هذا الفتى لا اظنه الحوات ، اتراه هو ؟ »

---

١ هي صدرة ضيقة يلبسها البحارة .

فقال رب النزل وقد ارتسمت على وجهه امارات مرح شيطاني : «لا . لا . ان الحوات فتى ذو سحنة سوداء وهو لا يأكل الفطير ابداً . ابداً لا يأكله . لا يتناول الا الشرائح المشوية ويحبها حباً جماً » .

فقلت : « قبحه الله ، ولكن اين هو هذا الحوات ؟ اهو هنا ؟ » فأجابني : « سيحضر عما قليل » .

وبدأ الريب يساورني في امر هذا الحوات الاسود ، ومـــا استطعت لريبي دفعاً . ثم حزمت أمري وقلت لنفسي : اذا اتفق ان نمنا تحت لحاف واحد فعليه ان يخلع ثيابه وان يأوي قبلي الى السرير .

انتهى العشاء ، وعادت الجماعة الى غرفة الشراب ؛ واذ لم اكن اعرف ما يمكن ان افعله قررت ان اصرف ما تبقى من المساء في المشاهدة والتطلع .

وعلى التوّ سمعنا جلبة في الخارج ، وصاح رب النزل وهو يبادر للنهوض : «هؤلاء بحارة الباخرة «الغرمبوز»[1] . رأيتها اليوم على مسافة من الميناء. استغرقت رحلتها ثلاث سنوات . سفينة محملة بالمشحونات . مرحى . ايها الفتيان . سنسمع آخر الانباء من جزر فيجي » .

وسمعنا وقع احذية البحارة في المدخـــل . وانفتح الباب على مصراعيه ، ودلف الينا مجموعة غريبة من الملاحين ، تدثروا بمعاطفهم البحرية الخشنة ، وقنّعوا رءوسهم بغفارات صوفية كلها بالٍ ممزق ، وقد تلبدت لحاهم بما علق بها من ذلاذل جليدية ، وكأنهم في ذلك الزيّ قطيع من الدببة انطلقوا من لابرادور . لتوّهم نزلوا البرّ من قاربهم وكان هذا اول بيت يدخلونه ، فلا عجب اذن ان

---

[1] الغرمبوز : اسم لنوع من الحيتان ، سيجيء تصنيفه في الفصل : ٣٢ ، وقد قال فيه ملفل هنالك : «ويرى بعض الصيادين ان ظهوره ارهاص بأن حوت العنبر العظيم على الاثر » .

يمّموا عامدين صوب فك الحوت ، أعني خزانة الشراب ، فتلقاهم يونان العجوز الاعكش - في حركته الدائبة - وأترع الكؤوس - في الحال - لهم جميعاً . وكان أحدهم يشكو « نزلة » في الرأس ، لذلك مزج له يونان دواءً كالقطران من شراب الجنّ والدبس معاً ، وأقسم انه سيد الادوية جميعاً لعلاج انواع البرد والزكام، أياً مـــا كان عمر المرض وقدرته على المقاومة وسواء في ذلك أعَلِقَهُ المريض عند شاطىء لابرادور او وهو في مهب الريح الصادرة عن جزيرة ثلجية .

وسرعان ما صعد الشراب الى رؤوسهم ، مثلما يفعل دائماً ، حتى ولو كان شُرّابه اخبث السكيرين الذين نزلوا الى البر حديثاً ، فبدأوا يثبون ويصخبون .

ولحت ان احدهم يقف متنحياً عن رفاقه . لم يكن يرغب في ان يفسد عليهم جذلهم بما يعلو وجهه من صحوٍ رزين ، الا انه على الجملة تحاشى ان يحدث صخباً كصخبهم ، وراقني هذا الرجل على التوّ؛ وبما ان ارباب البحر قد قدّروا له ان يكون من بعد رفيقي في السفينة (اما عند هذا الحدّ من قصتي فهو رفيق في نزل) فاني سأجرب قلمي في وصفه : تبلغ قامته ستة اقدام ، ذو كتفين مهيبتين وصدر كخزّان الماء في السفينة، وقلما رأيت لدى رجل ما رأيت فيه من قوة عضلية . كان وجهـــه برونزي اللون ملوّحاً بالشمس ، فاذا انفرجت شفتاه عن اسنانه التمعت بشدة ؛ وفي الظلال العميقة المطيفة بعينيه ذكريات حائمة لا تبعث في نفسه كثيراً من الجذل . وحين سمعت صوته عرفت انه من اهـــل الجنوب ، وقدّرت حين رأيت قامته الجميلة انه احد الجبليين الفارعين من سلسلة اليغانيا في ولاية فرجينيا . وعندما بلغت العربدة لدى رفاقه ذروتها انسلّ خارجاً دون ان يلحظه احد ، ولم اره الا عندما اصبح رفيقي في البحر . وفي بضع دقائق افتقده رفاقه ، ويبدو انه كان اثيراً لديهم جميعاً، فرفعوا عقائرهم يصيحون : « بلكنجتون . بلكنجتون . اين بلكنجتون ؟ » وانطلقوا من البيت يبحثون عنه .

أصبحت الساعة تقترب من التاسعة وبدا كأن قوى غيبية ضربت على الغرفة غشاء من الهدوء بعد ذلك القصف ، وبدأت أهنىء نفسي على خطة صغــيرة خطرت لي قبيل قدوم البحارة :

لا انسان يؤثر ان يكون احد اثنين في سرير واحد . بل لعلّ المرء يتحاشى ان يشارك اخاه لحافه . لست ادري لمَ كان ذلك كذلك ولكني اعلم ان الناس يفضلون الوحدة حين ينامون . واذا كان الامر ان ينام المرء مع شخص غريب لا يعرفه في فندق غريب في مدينة غريبة ، وذلك الشخص الغريب صياد حيتان فان اعتراضاته تتوالى الى ما لا نهاية . وليس في الوجود سبب يجعلني دون سواي من الناس، وانا البحار، اشارك رجلاً آخر فراشه . ذلك ان البحارة لا يشاركون غيرهم أسرّتهم وهم في البحر ، مثلما ان العازبين من الملوك لا يفعلون ذلك وهم على البر . حقاً انهم جميعاً ينامون في غرفة واحدة ولكن لكل امرىء منهم ارجوحته ولكل منهم بطانيته ، وكل منهم يستقلُّ بإهابه .

وكلما انعمت التفكير في امر ذلك الحوّات ازداد مقتي لفكرة النوم معه . وكان من حقي ان افترض انه ما دام صياداً فان الكتان الذي يلبسه او الصوف — حسبما كان الامر — قد يكون من اقل الانواع نظافة او انه على وجه اليقين ليس من أجملها . وبدأت اختلج حتى عمّ الاختلاج بدني كله ، ثم : لقد مضى قطع كبير من الليل وقد آن لذلك الحوات الاريب ان يعود وان يكون قد ذهب الى السرير . هب انه جاء وأوى الى فراشه فوق جثتي في منتصف الليل — كيف أعلم من اي وكرٍ لعين انسلّ قادماً ؟

— « ربّ النزل ! غيّرتُ رأيي حول ذلك الحوات — لن انام معه وسأجرب هذا المقعد » .

— « اعمل ما يرضيك . آسف اذ لا استطيع ان أقدم لـــك غطاء طاولة

لتستعمله مفرشاً . وهذا الخشب كزّ لعين » ؛ وأمرّ يده يتحسس ما فيه من عقد واخاديد . « لكن مهلاً يا تحفتي الصغيرة ! ، لديّ في غرفة الشراب فارة نجار . سأكفل لك الراحة المسترخية هنا » . وما ان تفوه بهذه الكلمات حتى اسرع فاحضر الفارة ، ونفض الغبار اولاً عن المقعد بمنديله الحريري العتيق ، ثم انحى على الخشبة سحجاً قوياً وقد كشر عن انيابه كالقرد . واخذت النشارة تطير يمنة ويسرة حتى ارتطمت الفارة اخيراً بعقدة عقداء لا يمكن تحطيمها . وكاد رب النزل ان يوهن رسغه وانا استحلفه ان يكف ، فان السرير قد أصبح املس ناعماً ممهداً لجنبي ؛ ولست اعلم كيف يمكن لاي سَحْجٍ في الكون ان يصنع ريش نعام من لوح خشب الزان . ورسم رب النزل تكشيرة أخرى واخذ يجمع النشارة وألقى بها في الموقد الكبير القائم في وسط الغرفة ومضى لطيّته وخلفني في تفكير قاتم .

قست طول المقعد فوجدته ينقص قدماً عما يكفيني، وقلت : ذلك امر ميسور الحلّ اذا انا وصلت به كرسياً، ولكني وجدت عرضه ينقص قدماً ايضاً ؛ وكان المقعد الآخر في الغرفة اعلى من الذي سحج بالفارة بمقدار اربع بوصات ، فلا امل في جمعهما معاً . وضعت المقعد الاول طولياً في البقعة الوحيدة الخالية بموازاة الحائط وتركت بينه وبين الحائط فضاءً صغيراً ليطمئن فيه ظهري ، ولكن سرعان ما وجدت ان تياراً من الهواء البارد تدفق عليّ من تحت اسكفّة الشباك ، فاستيقنت ان هذه الخطة لا تجدي شيئاً خصوصاً وان تياراً آخر من الباب الخائر الكسيح اخذ يلتقي بالتيار المندفع من الشباك ويكوّن الاثنان سلسلة من الدوّامات الصغيرة بجوار البقعة التي قدّرت ان امضي الليلة فيها .

وقلت لنفسي : ليت الشيطان يُحضر ذلك الحوات ، لكن مهلاً ! ألا استطيع ان اكسب الجولة منه فأغلق الباب بالمزلاج من داخل، وأثب الى فراشه ثم لا استيقظ ولو سلطوا على الباب اعنف الدق ؟ بدت لي فكرةً غير رديئة

ثم نفيتها عن خاطري عندما اعدت فيها النظر ، اذ من يدري ، ربما وجدت الحوات في الصباح، حين أُطلُّ من الغرفة، واقفاً في المدخل على اهبة ان يجدّلني ارضاً .

ونظرت حولي مرة اخرى فلم اجد فرصة ممكنة لقضاء ليلة محتملة الا في سرير شخص آخر ؛ وعندئذ بدأت احسُّ انني ربما غرست في نفسي هوًى لا داعي له ضد حوات لا اعرفه ، وقلت : أنتظرُ برهة فقد يهبط عليّ قبل مضي وقت طويل ، عندئذ اتفرس فيه وربما وجدنا الرفقة في سرير واحد سارّة . لا احد يدري .

وظل النزلاء الآخرون يفدون واحداً واحداً ومثنى مثنى وثلاث ثلاث ويذهبون الى النوم الا هو فلم يلح له طيف . وقلت : « ربّ النزل ! اي نوع من الفتيان هو — أيتأخر دائماً في عودته ؟ » وكانت الساعة قد كادت تـدق الثانية عشرة .

وابتسم ربّ النزل ابتسامته الواهية مرة اخرى وبدا كأن شيئاً يجاوز ادراكي يدغدغه بقوة . وأجابني قائلاً : « لا . على وجه العموم هو طير لا يغيب عن عشه . ينام باكراً وينهض باكراً . نعم هو الطائر الذي يلتقـط الدودة . غير انه خرج الليلة يبيع متجولاً ، ولست ادري اي شيء أخّره ، الا ان يكون قد عجز عن ان يبيع رأسه » .

«عجز عن ان يبيع رأسه ؟ ! اي قصة محيّرة مضحكة هذه التي تقصها عليّ؟ » واستبد بي الغضب، ومضيت اقول : « هل تودّ ان تقول ان هـذا الحوات منهمك ليلة السبت هذه ، او على الاصحّ صباح الاحد ، في عرض رأسه للبيع في المدينة ؟ »

فقال : « تماماً . وقد قلت له انه لن يستطيع بيعه هنا ، لان السوق بلغت حدّ الاكتفاء او يزيد » .

فصرخت : « حدّ الاكتفاء من اي شيء؟ »

— « من الرؤوس يقيناً. أليس في العالم رؤوس كثيرة جداً ؟ »

فقلت : « اود ان اصارحك ايها السيد ، من الخير لك ان تكف عن غزل هذا الخيط . فأنا لست غرّاً غمراً » .

فقال وهو يبري من العصا خلالاً يغرزه بين اسنانه :

« لعلك لست غراً ، ولكني اظن ان وجهك سيسودّ اذا سمع ذلك الحوات انك تسخر من رأسه » .

فقلت وقد هاج غضبي من جرّاء هذا الخلط الذي لا اجد له تعليلاً وصاحب النزل يواجهني به : « بل سأكسر ذلك الرأس » .

فقال : « ولكنه مكسور » .

قلت : « مكسور ! تعني انه مكسور ؟ »

— « دون ريب . وذلك هو السبب الذي يحول دون بيعه، فيما أحسب » .
عندئذ انتحلت بروداً كبرود جبل هقلا ابان عاصفة ثلجية وقلت له : « ايها السيد، يا رب النزل، كفّ عن بَرْي هذه العصا . علينا انا وانت ان يفهم احدنا الآخر، وان يتم ذلك دون ابطاء . ها انا اجيء الى دارك لاكتري سريراً فتقول لي : لا استطيع ان اقدم لك الا نصف سرير اذ النصف الثاني اصبح من نصيب رجل حوّات لم اره انا بعد، بينا تصرّ انت على ان تخبرني عنه اشد القصص اثارة

للحيرة والهياج، كأنما تريد ان تولّد في نفسي شعوراً مقلقاً نحو رجل قرّرت ان يكون شريكي في سرير — والشراكة في السرير، ايها السيد، ألفة وثيقة سرية من ارفع طراز؛ فانا اطلب اليك ان تدلني على هوية هذا الحوات وماهيته وهل اذا اعتبرت الامر من كافة وجوهه — اظل سالماً اذا انا قضيت الليلة معه . وأود في المقام الاول ان تكف عن سرد تلك القصة — قصة بيعه لرأسه — فاني اعدها، ان هي صحت، شاهداً قوياً على جنونه المطبق، وما كنت لانام مع رجل مجنون. وانت يا سيدي، اعني انت يا رب النزل، اي انت نفسك يا سيدي، حين تحاول عامداً متعمداً ان تغريني بالمبيت معه تعرّض بذلك نفسك للمقاضاة على جرم ».

واخذ رب النزل نفساً طويلاً وقال: «اشهد ان هذه موعظة طويلة من فتىً يشتد به الهياج فيرسل هُجْرَ القول احياناً . هدىء من روعك . هذا الحوات الذي حدثتك عنه وصل حديثاً من البحار الجنوبية حيث اشترى عـــدداً من الرؤوس الزيلندية المحنطة (طُرفة من الطرف كما تعلم) وقد باعها جميعاً الا واحداً ذهب يسعى ليبيعه الليلة، اذ غداً هو الاحد، ولا معنى لان يجوب الشوارع لبيع رؤوس آدمية والناس غادون الى الكنائس . لقد اراد ان يفعل ذلك يوم الاحد الماضي فاستوقفته وهو خارج من الباب ومعه اربعة رؤوس قد سلكها في خيط حتى كأنها « مشكاك » من البصل .

هذا الشرح فسّر ما ظلّ لولاه لغزاً لا يحلّ ، ودلّني على ان رب النزل لم يخطر له ان يسخر مني . ولكن مـــا هي نظرتي انا — في الوقت نفسه — الى حوّات مكث طوال ليلة السبت حتى ادركه صبح الاحد وهو منهمك في عمل وحشي، اعني بيع رؤوس موتى وثنيين ؟

— « صدقني ايها السيد ان هذا الحوّات رجل خطر » .

فردّ قائلاً: «هو رجل لا يخلّ بدفع الاجر . لكن هيا لقد فات الليل. ومن الخير ان تجرب بختك – فالسرير مريح . نمت فيه انا وزوجتي سال ليلة اقتراننا. فهو يتسع لاثنين يسرحان فيه ويمرحان . سرير جبار كبير . كانت سال قبل ان نتخلى عنه تضع عند قاعدته ابنينا سام وجوني الصغير . لكنني في احدى الليالي رأيت مناماً واخذت اتقلب وانا نائم، كما ان سام وقع على الارض وكاد يكسر ذراعه. بعدئذ قالت لي سال : لا خير فيه. تعال معي. سأدعك تلقي عليه نظرة خاطفة » . وعندها اضاء شمعة وحوّلها نحوي واشار اليّ ان اتبعه . غير اني وقفت متردداً . ونظر هو الى الساعة في الزاوية وهتف قائلا : «اقسم ان الاحد قد حلّ . لن ترى ذلك الحوات الليلة . لقد القى مراسيه في مكان آخر . تعال . بالله عليك تعال. الا تجيء ؟»

نظّرتُ في الامر برهة وتبعته على الدرج، فادخلني غرفة صغيرة باردة كالمحارة، مؤثثة بسرير ضخم يتسع حقاً لاربعة حواتين ينامون فيه وقد افترشوا صدورهم .

وضع رب النزل الشمعة على صندوق بحري قديم عجيب يؤدي مهمتين : فهو حامل للمغسلة وهو طاولة متوسطة، وقال : «يلاّ ... الى الراحة . وتصبح على خير» . ورفعت عيني عن السرير وتحوّلت لانظر اليه فوجدته قد غادر الغرفة .

انحنيت فوق السرير بعد ان طويت غطاءَه. لم يكن شيئاً بالغ الاناقة ولكنه كان مظنة التحمّل للامتحان . ادرت بصري في الغرفة فما رأيت الى جانب السرير والطاولة المتوسطة من اثاث سوى رفّ خشن، والجدران الاربعة، ولوحة من الورق ترتسم عليها صورة رجل يطعن حوتاً . اما الاشياء التي وضعت في الغرفة وليست من اثاثها الدائم فقد رأيت منها أرجوحة مطوية ملقاة على الارض

في احدى الزوايا، ورأيت كيس بحريٍّ كبيراً يحتوي ملابس الحوات وهو ولا ريب يقوم في البحر مقام الحقيبة على البر . وهناك ايضاً على الرف فوق الموقد صنارات غريبة من عظام السمك، ورمح مُريَّشٌ طويل عند رأس السرير.

لكن ما هذا الملقى على الصندوق ؟ رفعته وقربته من النور، لمسته وشممته، حاولت كل وجه ممكن لأصل الى رأي مقنع في شأنه ؛ لا استطيع ان اشبهه الا بمسحــــة الارجل التي توضع عند الباب، وقد زخرفت حوافيه بجلاجل صغيرة رنانة كريش الشيهم المدهون الذي يزخرف به الهنود أحذيتهم . وفي وسط هذه المسحة ثقب او شق مثل الذي تراه في البرانس التي يلبسها اهل امريكا الجنوبية. ولكن أيصحّ لحوات عاقل ان يلبس ممسحة ارجل ويتخطر في شوارع اية مدينة مسيحية وهو في ذلك الزي التنكريّ ؟ لبست ذلك الشيء لأجرّبه فاثقلني كأنه زنبيل اذ كان جاسياً خشناً سميكاً، وخيّل اليّ انه ايضاً رطب كأن الحوّات العجيب لبسه في يوم ماطر. تقدمت نحو قطعة من مرآة مثبتة في الجدار فلم ارَ في حياتي منظراً كالذي رأيت . انتزعت نفسي منه بعجلة حتى لأحسست بوثءٍ في عنقي .

جلست على حافة السرير وبدأت افكر في الحوات بياع الرؤوس، وممسحته التي يرتديها ؛ وبعد ان قضيت في التفكير فترة في جلستي تلك نهضت وخلعت صدارة السعدان، ووقفت في وسط الغرفة مفكراً . ثم نزعت معطفي ومضيت افكر وانا ما ازال البس قميصي . غير اني بدأت اشعر بشدة البرد بعد ان نزعت بعض ثيابي، وتذكرت ما قاله صاحب الدار عن الحوّات وانه لن يعود تلك الليلة الى البيت اذ فات اوان عودته، وعندئذ كففت عن التفكير، وجذبت سروالي ونعليّ في سرعة، واطفأت الشمعة وأويت الى الفراش وخليت نفسي في رعاية الله .

هل كانت الحشيـــة محشوة باقراص القمح ؟ هل كانت محشوة بكسر من الخزف ؟ لست ادري . غير اني تقلبت طويلاً ولم يراوح النوم عيني واخيراً ذهبت في تهويمة خفيفة وكدت أقلع نحو ارض « النعاس » حين سمعت وطئاً ثقيلاً في الممرّ ورأيت بصيصاً من نور يتسرب الى الغرفة من تحت الباب .

نجّني يا رب، فهذا هو الحوات ولا بد، ذلك هو الجهنميّ بيّاع الرؤوس . وظللت متمدداً وآليت ان لا افوه بكلمة الا حتى يكلمني . ودخل الغريب الغرفة يحمل الشمعة في يد والرأس الزيلندي نفسه في الاخرى ووضع الشمعة، غير قريب مني، على الارض في احدى الزوايا، ثم اخذ يعمل في فك عقد الحبل عن الكيس الذي اشرت من قبل الى وجوده في الغرفة . وكان بي شوق جامح لرؤية وجهه الا انه ابقاه منزوياً عني مدة وهو يعالج حل الرباط . فلما انتهى من ذلك استدار اليّ . يا لله ! اي منظر ! يا له من وجه ! وجه ذو لون اصفر ميال للارجواني قاتم تتخلله بقع سود كبيرة متناثرة . نعم هو كما قدّرت . رفيق مرعب . كان في شجار نال فيه جراحاً رغيبة وعاد لتوّه من عيـــادة الجرّاح . واتفق في تلك اللحظة ان أدار وجهه نحو النور فاتضح لي ان البقع السود على وجنتيه لا يمكن ان تكون ابداً ضمادات مثبتة . انما هي لطخات . ولم ادرِ في البدء كيف افسر هذا الامر ولكن سرعان ما خطر لي طائف من الحقيقة : تذكرت قصة رجل من البيض – حوات ايضاً – وقع بين المتوحشين فوشموه بميسمهم ، وخلصت الى ان هذا الحوات ايضاً قد وقع في مغامرة مماثلة اثناء رحلاته البعيدة . ثم قلت مناجياً نفسي : اي ضير في هذا ؟ هذا هـــو مظهره وحسب . والمرء قد يكون شريفاً مهما يكن لون بشرته . ولكن كيف افسر سحنته التي لا تنتمي الى الارض اعني ذلك الجزء من وجهه الذي لا علاقة له ببقع الوشم ؛ قد يكون طبقة اكتساها وجهه من تلويـــح شمس الاستواء، لكنني لم اسمع في حياتي ان الشمس تدبغ بشرة انسان بلون اصفر مائل الى الارجوان . على اية حال انا لم اعش في البحار الجنوبية ولعل الشمس هنالك

تحدث مثل هذه الآثار الغريبة في البشرة . وبينما كانت هذه الافكار تعبر خلال رأسي كالبرق، لم يتنبه الحوات لي ابداً، بل فتح كيسه بعد جهد وبدأ يعيّث فيه واستخرج منه نوعاً من الطبرزين وكيساً من جلد الصِّيل لا يزال الشعر عليه، ووضع هذين على الصندوق القديم القائم في وسط الغرفة ثم تناول الرأس الزيلندي — وهو شيء فظيع حقاً — ودسه في الكيس . ثم خلع قبعته — وكانت قبعة محرّدة جديدة، ففاجأني بمفاجأة جديدة اذ كان رأسه خالياً من الشعر — ممسوحاً منه تماماً — الا جميمة في يافوخه قد عقصها عند جبهته . وتبدى رأسه الاصلع ذو اللون الارجواني لكل ذي عينين كأنه جمجمة متعفنة. ولولا ان ذلك الغريب كان يقف بيني وبين الباب لانطلقت منه هارباً باسرع مما ألْتَهِمُ العشاء .

بل لعلني فكرت في ان انسلّ من الشباك لولا انني تذكرت ان الشباك يفضي الى فضاء الطابق الثاني . لست امرءاً جباناً، ولكن أُبلس علي فلم ادرِ ماذا اصنع بهذا الوغد الارجواني بياع الرؤوس . والجهل ابٌ للخوف . وبما اني وجدتني في منتهى الحيرة والتردد ازاء هذا الغريب فاني اعترف بان الخوف منه تملكني حتى كأن الشيطان نفسه هو الذي دخل عليّ غرفتي في صمت الليل البهيم. بل بلغ بي الخوف مبلغاً جعلني اخشى ان اخاطبه حينئذ وان اطلب اليه جواباً مقنعاً عما كان يبدو لي فيه لغزاً غير قابل للتفسير .

وفي اثناء ذلك مضى هو يخلع ملابسه وكشف في النهاية عن صدره وذراعيه، واقسم ان هذين الجزءين المستورين من جسده كانا موشومين بتلك البقع السود نفسها، فكأنما خاض حرباً كحرب الثلاثين ونجا منها بلفافة من «اللزقات» اتخذها قميصاً . بل ان رجليه كان يغطيها الوشم واذا نظرت اليهما حسبت عدداً من الضفادع الخضر يتسلق جذع لينةٍ صغيرة ؛ وتجلّى لي انه لا بد ان يكون وحشاً مقيتاً او ما شابه ذلك، نقله حوات في البحار الجنوبية على ظهر سفينته ونزل في هذا البلد المسيحي . وارتعشت اذ جرى ذلك في خاطري . وهو ايضاً

بائع رؤوس ولعلها رؤوس اخوته ، وربما اعجبه رأسي ، يا لله ! انظر الى هذا الطبرزين !

ولكن لم تبقَ لدي فرصة للارتعاش لان الرجل المتوحش اخــذ في شيء ملك عليّ انتباهي وأقنعني بأنه وثني ولا بد ، فقد اتجه الى برنسه الثقيل [1] او قبائه او قفطانه ، وكان قد علقه على الكرسي، وعيّث في جيوبه واستخرج بعد البحث صورة غريبة صغيرة مشوهة محدودبة الظهر ولونها يشبه تماماً لون طفل كونغويّ ابن ثلاثة أيام . وعندما تذكرت الرأس المحنط كدت أظن في البداية ان هذا القزم الاسود كان طفلاً حقيقياً محنطاً ايضاً ، ولكني حين رأيته لا لدونة فيه وانه كان يلتمع كأنه الابنوس المصقول ، استنتجت انه لا بد من ان يكون صنماً خشبياً ، وقد كان حقاً كذلك .

ذلك ان الوحش اتجه صوب الموقد الخالي وأزاح اللوحــة المغطاة بالورق ونصب أحــدبه القميء كأنه بيذق الشطرنج بين حديدتي الوجاق ، وكانت جوانب المدخنة واللبنات المرصوفة في داخلها مغشاة بالكَتَن، حتى لتصورت ان هذا الموقد كان خير معبد صغير او مزار لصنمه الكونغوي .

وتخازرت محدقاً في التمثال الذي استتر عني نصفه وانا احس بالقلق والتململ في الوقت نفسه — وحدّدت البصر لأرى الخطوة التالية . فرأيته يستخرج اولاً حفنة من النشارة من جيب برنسه ويضعها باعتناء امام الصنم ثم يضع في قمتهــا قطعة من بسكويت المراكب ويقرب اليها شعلة المصباح ويوري النار في النشارة ليجعل منها لهباً قربانياً . وفي الحال يقرب اصابعه من النار بسرعة ويسحبها

---

[1] استعمل المؤلف كلمة grego ويرى بعض المعلقين انها تركية الاصل ، قلت : ولعلها هي القرقل بالعربية، والعامة يقولون القرقر .

بسرعة أشد، عدة مرات (وبهذا لسعتها النار وآذتها لسعاتها فيما يبدو) واخيراً وفق الى استخراج قطعة البسكويت ثم هدّأ النار وفرق الرماد وقدّمها في اجلال لزنجيه الصغير ، ولكن ذلك الشيطان الصغير لم يبدُ عليه انه احب هذه الوجبة الجافة ابداً فلم يحرّك شفتيه . وقد رافق هذه الشعائر الغريبة اصوات حلقية اشد غرابة كان يرسلها ذلك المتعبد الذي بدا كأنما كان يرتل ترنيمة او لعله يغني مزموراً وثنياً او شيئاً شبيهاً به ، وكان وجهه اثناء ذلك كله يختلج على نحو بالغ الشذوذ . واخيراً اطفأ النار ، وتناول الصنم دون خشوع او اجلال ، ودسه في جيب برنسه في اكتراث قليل كأنما كان صياداً يدس ديك السلوى الميت في جعبته .

زادت هذه الاعمال الشاذة من قلقي؛ ولما ابصرت الدلائل كلها تدل على انه قد أنهى اعماله وانه سيثب في السرير الى جانبي تصوّرت ان الوقت قد حان ، قبل ان ينطفىء النور، لأحطم ربقة السحر التي كانت تقيدني، واذا ضيعت هذه الفرصة فقد ضاعت للابد .

الا ان الفترة التي بددتها في التهيؤ لما اريد ان اقول كانت ضربة قاضية فقد تناول الطبرزين عن الطاولة وتفحص رأسه لحظة ثم قربه من النور وقد جعل مقبضه في فمه ونفث سحباً كثيفة من دخان الطباق وفي اللحظة التالية انطفأ النور وقفز المتوحش ، وكدوسه [1] — وهو ما حسبته طبرزيناً — بين اسنانه ، الى السرير بجانبي فلم أتمالك من ان تندّ عني صيحة — حشرجة دهشة — جعلته يشعر بوجودي .

---

[1] الكدوس : كلمة دارجة في السودان تدل على مـــا نسميه «الغليون» او ما يسمى «الشبك» في التركية ، وقد اتخذته للدلالة على الغليون ذي الساق الطويلة مرادفاً للشبك، وقصرت كلمة «الغليون» على ما كانت ساقه قصيرة .

وتمتمت متلعثماً بما لا ادريه ، وتدحرجت مبتعداً عنه نحـــو الجدار ثم استحلفته ، ايا كان ومهما يكن ، بأن يبقى هادئاً وان يدعني انهض واشعل المصباح مرة اخرى ؛ الا ان الاصوات المنبعثة من حلقه اقنعتني على التو انه اساء ادراك ما اعنيه .

واخيراً قال : « اي شيطان انت ؟ لا تتكلم انت . والا أقـتـُـلْ » . وما ان نطق بهذه الكلمات حتى مضى الكدوس يلتمع من حولي في الظلام .

فصرخت : « يا ربّ النزل ! بحق الله ! يا بطرس التابوتي ، يا رب النزل . اشهد ! يا تابوتي ! يا ملائكة ! خلصوني ! » .

فهمهم المتوحش مرة اخرى يقول : « احكِ . خبّر انا من هـــو انت والا ملعون اقتلك » بينما كانت جذبات الانفاس من الكدوس تطيّر رمـــاد الطباق الساخن من حولي حتى لحسبت ان منامتي ستحترق . ولكن شكراً لك يا رب ! ففي تلك اللحظة دخل صاحب النزل الى الغرفة وبيده شمعة ، فقفزت من السرير وجريت نحوه .

فكشر عن انيابه وهو يقول : « لا تخف الآن ، ان كويكوج[1] هنا لن يمس شعرة في رأسك » .

فصحت فيه : « كفّ عن التكشير . لماذا لم تخبرني ان ذلك الحوات الجهنمي من أكلة لحوم البشر ؟ »

---

[1] ان لم تكن هذه الشخصية من نسج الخيال فان ملفل قد نظر في تصويرها الى ماربونا من ناهيتي وقد اعجبه فيه قوة شعوره القومي واعتزازه بوطنه وسماه « فيلسوف الطبيعة » الوثني المتأبد الذي كان ينتقد الرذائل والحماقات المسيحية في بلاط تاهيتي ، وهو مثل كويكوج في مظهره ودربته في التحويت ومزاجه الفلسفي . ولا ريب في ان كويكوج هو الشخصية الوحيدة التي تستأثر بالحب في القصة كلها .

— « ظننت انك تعرف ذلك. الم اخبرك انه ذهب يبيع الرؤوس في المدينة؟ ولكن اهدأ الآن واذهب لفراشك . اسمع يا كويكوج . انت تسمع كلامي، انا اسمع كلامك . هذا ينام في فراش معك . سامع ؟ »

فهمهم كويكوج قائلاً : « تمام ». ومضى ينفث دخان الكدوس وهو جالس في السرير .

ثم اشار اليّ بكدوسه وهو يقول : «تعالْ تنوم »، ورمى الملابس الى ناحية . فعل ذلك بطريقة لا اعدها مهذبة فحسب بل هي في الواقع لطيفة عطوفة . ووقفت انظر اليـــه لحظة فوجدته على رغم الوشم الذي يغمر جسمه متوحشاً نظيفاً مليح المنظر . وقلت لنفسي : ما هذا الازعاج الذي قمت به ؟ الرجل انسان مثلي ولديه من الاسباب ما يجعله يخافني مثلما اخافه . من الخير ان ينام المرء مع متوحش صاحٍ من ان ينام مع مسيحي سكران .

وقلت مخاطباً رب النزل : «قل له ان يخبىء عني هذا الطبرزين او الكدوس او أياً كان اسمه، قل له باختصار ان يتوقف عن التدخين وعندئذ ادخل السرير الى جانبه ، ولكنني لا استطيع ان اتصور رجلاً يدخن في الفراش الى جانبي . هذا امر خطر . ثم تذكر انني لم أؤمن على حياتي » .

وتحدث رب النزل بهذا الى كويكوج فاذعن، ثم اشار اليّ — في تهذيب — ان ادخل السرير ، وابتعدَ الى احد الجانبين كأنه يقول لي : لن امس اي عضو من اعضائك .

فقلت : «طاب مساؤك يا رب النزل. تستطيع ان تمضي». وأويت الى الفراش ولا اذكر اني نمت في حياتي خيراً من تلك النومة .

٤ غطاء السرير

حين استيقظت في صباح اليوم التالي لدن طلوع الفجر وجـــدت ذراع كويكوج ملقاة عليّ في هيئة ودية حانية لا مثيل لها ، حتى لو ان احداً رآني على تلك الحال لحسبني زوجته . كان غطاء السرير لفقاً من رقع مليئة باشكال ملونة صغيرة بعضها مثلث وبعضها مربع ؛ واشهد انني حسبت ذراعه قطعة من ذلك الغطاء المرقع، اذ كانت موشومة باشكال مسترسلة متشابكة كانها تيه في قصر كريتي والبقع عليها متفاوتة الظلال لا تتشابه منها اثنتان، وذلك ربما كان مرده فيما اظن الى انـــه كان يبقي ذراعه وهو على السفينة في الشمس والظل — دون نظام — ويحسر كمّي قميصه على مسافات متفاوتة كل يوم . وحين تنبهت من نومي كان قد ألقى جانباً من ذراعه على الغطاء، فلم استطع ان اميزها من ذلك اللحاف لان لونيها تداخلا وامتزجا ؛ ولولا احساسي بالثقل والضغط لمـــا استطعت ان اقول ان كويكوج كان يحتضنني .

كانت احساساتي غريبة . دعني احاول تفسيرها : اني لأذكر حادثة مماثلة بعض الشيء وقعت لي حين كنت طفلاً . أكانت حقيقة او حلماً — ذلك شيء لم استطع ان اجزم بـــه . وهذه هي الحادثة : كنت اقطع شجرة قبّار احسبها كانت تحاول ان تزحف متسلقة المدخنة، اذ كنت قد رأيت احد عساليجها قبل بضعـــة ايام يمتد سابحاً فيها . وجرتني ظئري ، زوجة أبي، من رجليّ واستخرجتني من المدخنة — وكان من عادتها ان تضربني دائماً بالسوط او ان ترسلني الى السرير دون عشاء — الا أنها هذه المرة دفعتني الى النوم مع ان الساعة

كانت الثانية بعد ظهر الحادي والعشرين من شهر حزيران (يونيه)، وهو اطول يوم في السنة في هذا النصف الذي نعيش فيه من الكرة الارضية . كنتُ مروّع المشاعر ولكنني لم اكن املك لنفسي نفعاً ولا ضراً، فصعدت الدرج الى غرفتي الصغيرة في الدور الثالث، ونزعت عني ثيابي بقدر ما استطيعه من بطء، رجاء قتل الوقت، ثم اندسست في الفراش وانا ارسل تنهدة مريرة .

اضطجعت هنالك مكروب النفس احسب انه ستنقضي ست عشرة ساعة قبل ان ارجو خلاصاً وانعتاقاً . ست عشرة ساعة في الفراش ! حين اتصوّر ذلك يتحدر الوجع في الصلب من ظهري، وقد كان النور شاملاً، والشمس ترسل اشعتها من النافذة، والعربات في الشارع تحدث جلجلة مدوّية، والاصوات الفرحة الجذلى تمـــلأ جوانب البيت . وازداد احساسي سوءاً على سوء، فنهضت من الفراش وارتديت ثيابي وهبطت الدرج في خفة ونعومة، اذ مشيت في جوربيّ دون حذاء ، وعمدت الى حيث كانت زوجة ابي ، وفجأت القيت نفسي ضارعاً على قدميها، ورجوتها ان تحسن اليّ العقوبة فتجلدني دون هوادة لسوء سلوكي، ان تصنع اي شيء تريده الا ان تحكم عليّ بالحبس في الفراش طوال وقت ثقيل مملّ لا يطاق . ولكنها كانت اذا عُدّتْ زوجاتُ الآباء خيرهُنّ واحسنهنّ ضميراً، فقد ابت الا ان تعيدني الى الفراش . واستلقيت هنالك ساعات عديدة وانا في تمام اليقظة شاعراً انني لم ابلغ من السوء مثلما بلغت حينئذٍ، ومن بعد عرفت مما حلّ بي من مصائب لاحقة كبيرة انني في ذلك اليوم تجرّعت حقاً أسوأ المصائب جميعاً . ويبدو انني اخيراً ترديت في تهويـــة ذات كوابيس مضطربة . وأفقت منها ببطء وانا لا ازال شبه غارق في الاحلام، وفتحت عيني فاذا الغرفة التي كانت تسبح في ضوء الشمس قد تغلفت بحجب الظلام. واحسست على التوّ هزة تسري في كياني كله . لم اعد أرى او اسمع شيئاً . الا ان يداً من الغيب كانت تبدو مطمئنة في يدي . كانت ذراعي على الغطاء وكان الشكل الصامت الذي يعز ان اتصوّره او اعرف له اسماً، اوقل ذلك الطيف صاحب

تلك اليد يجلس على مقربة من سريري . وظللت مستلقياً هنالك زمناً حسبته اجيالاً مركومة فوق اجيال، واشد المخاوف ترويعاً قد جمّدت جسمي. وانا لا اجرؤ على سحب يدي، غير اني كنت اتصوّر اني لو حركتها مدى بوصة واحدة لانخلعت من حولي الربقة السحرية المفزعة . ولست ادري كيف انحسر عني هذا الاحساس اخيراً الا اني حين استيقظت في الصباح تذكرته وجسمي ينتفض، ومن بعـــده ظللت اياماً واسابيع واشهراً وانا ذاهل في ثنايا محاولاتي المحيّرة لتفسير ذلك اللغز، لا بل انني ما ازال حتى هذه الساعة أحاجي نفسي بـــه احياناً .

لا بل عدِّ عن شعوري بالخوف الرهيب تجد ان احساساتي حين شعرت بتلك اليد من الغيب في يدي مشبهة ً في غرابتها لتلك الاحساسات التي ذقتها حـــين استيقظت ووجدت ذراع كويكوج الوثني تطوّقني . ثم انبعثت احداث تلك الليلة الماضية واحداً اثر واحد حية مجسدة في ذاكرتي، ثم توارت عني ولم يبق حياً في نفسي الا ما انا فيه من ورطة مضحكة . حاولت ان ازيح ذراعه — ان افكّ قبضته الزوجية عني — الا انه ظل على استغراقه في النوم يحتضنني دون فكاك، حتى كأنه يوحي بانه لا شيء يفرقنا الا الموت . عندئذ حاولت ان اوقظه — « كويكوج ! » الا ان الشخير كان هو جوابه الوحيد على نداءاتي . فتدحرجت مبعداً وانا احس كأن عنقي مطوّقة بأنشوطة، وفجأة احسست بخدش طفيف ، فنحيت الغطاء عني واذا بي ارى الكدوس نائماً الى جانب الرجـــل المتوحش كأنه وليد ذو وجه أسجح. يا لهذا « الكبيس » الطريف ! انا في سرير في بيت غريب في رائعة النهار مع متوحش وكدوس : « كويكوج . بحق الخير، باسم الانسانية، استيقظ ! » وبعد جهدٍ انفقته في التقلب وفي عتاب جهوري مسترسلٍ على انه لا يليق به ان يحتضن رجلاً مثله احتضان الزوج لزوجتـــه افلحت بان انتزع منه نخرة فسحب ذراعه على التوّ، وانتفض كله انتفاضة كلب

من كلاب نيوفوندلاند خارج من الماء[١]، وجلس في السرير متيبساً كأنه انبوبة الرمح، ينظر اليّ ويفرك عينيه كأنه لا يتذكر كيف اتفق لي ان نمت الى جواره، وان كان يبدو ان خيطاً رفيعاً من شعاع التذكر اخذ يلتمع في رأسه وينبهه الى انه يعرف عني شيئاً ما. وفي اثناء ذلك بقيت ساكناً ارمقه اذ كادت ريبتي فيه تتلاشى، واصبحت اميل الى رؤية ذلك المخلوق الغريب عن كثب. ولما بدا ان ذاكرته قاربت ان تتبين شخص رفيقه في السرير، وعندما تقبّلت هذه الحقيقة الواقعة دون نفور، قفز من الفراش الى الارض، وجعلني افهم بما رسمه من اشارات واصوات انه - ان كان ذلك يسرني - سيلبس ثيابه اولاً ثم يتركني لألبس ثيابي بعــــد ذلك مخلياً الغرفة كلها لي. فقلت في نفسي: كويكوج! هذا اقتراح، في مثل هذه الظروف، دالّ على سمو الذوق والتهذيب. قل ما تشاء غير انه لا مراء في ان لهؤلاء المتوحشين احساساً باللياقــــة واللطف فطرياً، وهم مطبوعون على التهذيب، وذلك شيء عجيب. وانا اثني بهذا ثناءً خاصاً على كويكوج لانه عاملني بقسط وفير من حسن الادب والاحترام بينا كنت انا آثماً في حقه بشدة الجفاء والفظاظة. واخذت احدجه بنظراتي وانا في السرير وارقب المراحل التي يمرّ بها في اللبس والزينة، وانتصر حبّ الاستطلاع عندي - فترة - على اصول اللياقة والادب. ذلك انه لا يتاح لك ان ترى انساناً مثل كويكوج كل يوم، ولذلك كان هو وطرائقه جديرين بالتطلع وان جافى ذلك المعهود من التزام بآداب السلوك.

بدأ لبسه من قمة الجسم فثبت قبعته المحرّدة الطويلة على رأسه، ثم اتبع ذلك وهو ما يزال دون سروال بالبحث عن حذائه. ثم كانت الجولة الثانية انه اندس في الفراش وحذاؤه في يده وقبعته على رأسه. اما لماذا صنع ذلك فأمر يقضى منه العجب ولا ادري له وجهاً، غير اني استنتجت من اللهاث والطحير العنيف

---

[١] هذه صورة مستمدة من واقع كان ملفل يعرفه حق المعرفة اذ كان يقتني كلباً من كلاب نيوفوندلاند.

المتنوع انه كان جاهداً في لبس نعليه . لم اسمع بقانون من قوانين الاحتشام يتطلب من المرء ان ينزوي عن اعين الناس حين يلبس حذاءه ؛ الا ان كويكوج — كما ترى — كان مخلوقاً في مرحلة انتقالية : لا هو شرنقة ولا هو فراشة [1] . كان قد احرز من التهذيب ما يبرز به خشونته باغرب طريقة ممكنة . وهو لم يكن قد اكمل تعليمه بل كان ما يزال في الصفوف الدنيا ؛ ولو لم يكن قد أصاب قسطاً يسيراً من التحضر فلعله ما عنّى نفسه بكل ما يتصل بالحذاء ولبسه . ولكنه لو لم يكن قد احتفظ بقسط من الهمجية لما تصوّر ان يندس في الفراش كي يلبسه ؛ واخيراً برز من السرير وقبعته قد تبعجت وتهدلت فوق عينيه واخذ حذاؤه يصرّ وقدمه تظلع في جنبات الغرفة ، حتى كأنه لم يتعوّد لبس الحذاء ، وحتى كأن حذاءه الرطب المتغضن المصنوع من جلد البقر الذي لم يهيأ على قدر قدميه فيما أرجح ، كان يعتصر قدميه فيعذبه ويؤلمه اول ما يلبسه في صباح بارد مرير .

وارتفع ضوء النهار فرأيت النافذة دون ستارة ، ووجدت الشارع ضيقاً ، ولضيقه يستطيع من في البيت المقابل ان يرى بوضوح كل ما يجري في غرفتنا ، ويلحظ شخص كويكوج في حالٍ تنافي الحشمة واللياقة ، وهو يتخطر عارياً الا من قبعته وحذائه . وحين اتضح لي ذلك رجوته ، ملحفاً متلطفاً ، ان يسرع في قضاء ما تبقى من لبس وزينة ، وان يضع عليه سرواله — على وجه الخصوص — باسرع ما يمكنه . فامتثل لما طلبت وتوجه الى الماء . في مثل هذا الوقت اعني في الصباح يبدأ اي مسيحي بغسل وجهه ، ولكن لشدّ ما دهشت حين رأيت كويكوج يكتفي بقصر الغسل على صدره وذراعيه ويديه . ثم لبس صدارته

---

[1] قارن هذا بقول جوته في سيرة حياته: «وفي هذا الصدد يبدو اشد الناس حيوية وحذاقة كالفراش ، مهما يكن حالهم في طور الدودة فانهم ينفصلون عنهم غشاء اليفعة الذي فيه نموا حتى اكتمل بهم النموّ» .

وتناول قطعة من الصابون الصلب كانت على الطاولة المتوسطة التي تمثل ايضـــاً حامل المغسلة ، وغمسها في الماء واخذ ينشر الرغوة منها على عارضيه وبدأت ارقب لارى اين يخبىء الموسى، عندما تناول – يا للعجب العجاب – الرمح المريش الذي يستعمله الحوّاتون من زاوية السرير ونزع منه القناة واستلّ سنان الرمح وشحذه قليلاً على حذائه ثم تقدم من قطعة المرآة المثبتة في الحائط واخذ يحت شعر عارضيه بشدة، او قل اخذ « يحوّتها » . وقلت لنفسي : هذا يا كويكوج استخدام لخير الآلات الحادة التي يصنعها روجر في انتقام وتشفٍّ ؛ ومن بعد قلّ عجبي من هذه الحلاقة حين اصبحت اعرف اي نوع مرهف من الفولاذ يتخذ في صنع السنان ، وكيف ان شفرتيه الطويلتين المستقيمتين تظلان دائماً غاية في المضاء .

انجز كويكوج بقيـــة زينته وغادر الغرفة في خيلاء وقد تلفع بصدارة السعدان، وهو يتلعب برمحه كأنه عصا المارشالية .

٥

الفطور

لبست ثيابي بسرعة وهبطت الى غرفة الشراب وحييت رب الدار المقلّص الشفتين دائماً تحية الانس والارتياح فلم اكن اضمر نحوه ضغينة وان عابثني غير قليل في امر رفيقي في السرير .

على اي حال انا ارى الضحكة الطيبة شيئاً قوياً طيباً بل هي شيء طيب نادر بالغ الندرة . وفي هذا ما يؤسف له . فان كان شخص امرىء يصلح لدى امرىء آخر مادة للتندر والدعابة فاني انصحه بان يكون رحب الصدر فيتقبل بترحاب ان يَضحك ويُضحك الآخرين . ومن كان على حظ كبير مما يضحك الناس منه فكن على يقين من ان فيه من الخصائص فوق ما نتصوره .

كانت غرفة الشراب مكتظة بالنزلاء الذين توافدوا في الليلة السابقة ولم يكن قـــد اتيح لي ان اتعرف الى ملامحهم . كانوا جميعاً من المهتمين بالحيتان : على اختلاف في الدرجات والحرف فمنهم الضباط الكبار ومنهم ضباط الصف الثاني وضباط الصف الثالث، ومنهم نجارون بحريون، ونحاسون بحريون وحدادون بحريون ومنهم الصيادون بالرمح واصحاب السفن ؛ فئة من السمر ذوي السواعد المفتولة واللحى الكثة والشعر الاشعث المعثكل، يلبسون صدارات السمدان بدلاً من الجلباب الصباحيّ .

تستطيع دون عناء ان تحزر منذ متى نزل كل واحد منهم على الساحل : هذا الشاب ذو الخدّ الفاره، يشبه في لونه الاجاصة التي سفعتها الشمس ورائحته

تكاد تكون مسكية كشذاها . حين تراه تقول انه لم يمض عليه ثلاثة ايام منذ ان القى العصا من رحلته الهندية . وذلك الذي يجلس الى جانبه اخف ظلالاً منه وقد تقول ان فيه مسحة من الخشب الاخضر؛ وعلى سحنة الثالث بقايا من صحمة استوائية الا ان سائرها قد انقشع اذن فلا ريب في انه مقيم على البر منذ اسابيع. ولكن أيهم يجلو عليك عارضاً مثل عارض كويكوج ؟ — ذلك عارض معلم بجدائد من الاصبغة فكأنه منحدرات الانديز الغربية يريك في نسق واحد مناطق مناخية متفاوتة، واحدة اثر اخرى .

صاح رب الدار: هيّا، ودفع الباب على مصراعيه، فدخلنا لنتناول طعـــام الفطور .

يقولون ان الرجال الذين رأوا الدنيا يصبحون ذوي سجاحة واطمئنان في تصرفاتهم، ولباقة وكياسة بين رفقتهم . هذا لا يصح دائماً فان لديارد الرحالة المشهور ابن نيوانجلند ومنجو بارك الاسكتلندي[1] كانا بين الناس اقلهم ثقـــة بانفسهم في الابهاء والقاعات . ولكن ربما كان اجتياز سيبريا في زلاجة تجرها الكلاب[2] ، وذلك هو ما فعله لديارد ، وربما كان مشي المتوحد الجائع في قلب افريقيا السوداء، وذلك هو النصيب الذي فاز به منجو ثمرةً لأسفاره، اقول ربما كان هذا او ذاك النوع من الاسفار لا يعد خير وسيلة لاحراز قسط كبير من

---

١ جون لديارد (١٧٥١ – ١٧٨٩) قضى اربع سنوات في جزائر المحيط الهادي في رحلة مع الكابتن كوك (١٧٧٦–١٧٨٠) وقطع سيبريا في عربة تجرها ثلاثة خيول (صيف ١٧٨٧) واتهم بانه جاسوس فرنسي فاعيد في عربة الى موسكو ثم طرد من روسيا عند الحد البولندي (نيسان ١٧٨٨) . اما منجو بارك (١٧٧١–١٨٠٦) فقد عرف برحلاته في داخل افريقية (١٧٩٩) وبين الرجلين مشابه كثيرة.

٢ خطأ من ملفل، والصواب : تجرها الخيول .

الجاذبية والذلاقة الاجتماعية . ثم ان ذلك الألق الجذاب في المجتمع يحرزه المرء في اي مكان .

أثار هذه التأملات في خاطري اننا بعد ان جلسنا الى المائدة منيت نفسي وهيأتها لسماع قصص كثيرة عن صيد الحيتان . ولشد ما كانت دهشتي حين وجدت كل رجل في الجالسين يلوذ بالصمت العميق . بل استولت عليهم جميعاً الحيرة والارتباك . اجل . ها هنا فئة من كلاب البحر، كثيرون منهم، دون ومضة من خجل، واجهوا الحيتان الهائلة في البحار الهائجة – التقوا بمن هم غرباء عنهم – بارزوا الحيتان وصرعوها دون ان يطرف لهم جفن . وها هم يجلسون هنا على مائدة الافطار وكلهم شركاء في المهنة متقاربون في الاذواق ينظر احدهم الى الآخر في استحياء كأنهم لم يفارقوا حظائر الاغنام بين الجبال الخضر . منظر غريب ! هذه الدِّببة الحيية ! هؤلاء الحواتون الباسلون الخوّارون !

اما كويكوج، وما ادراك ما هو، فقد جلس بينهم واتفق ان كانت جلسته في صدر المائدة، بارداً كأنه الذلذل الجليدي. يقيناً لا استطيع ان اثني على حظه من الادب في هذا المقام . فان اشد الناس اعجاباً به لا يستطيع ان يجد مسوغاً يبرّر احضاره رمح الصيد الى مائدة الطعام واستعماله هناك دون احتفال بمشاعر الآخرين ؛ فقد كان يمده الى الطرف القصي من المائدة، وفي ذلك ما فيه من خطر بالغ على رءوس الحاضرين، ويغرزه في شرائح اللحم ويقربها الى صحنه . الا انه فعل ذلك في هدوء وكلنا نعلم ان الناس يرون ان من ادّى امراً في هدوء فقد أداه في ظرف وكياسة .

لن نتحدث في هذا المقام عن كل الشذوذات لدى كويكوج وكيف انه تجنب القهوة والكعك الساخن، ووجه همته مجتمعة نحو شرائح اللحم حتى اتى على

اكثرها . يكفيني ان اقول انه بعد انتهاء الفطور انسحب مع سائر القـــوم الى القاعة العامة ، واشعل كدوسه الشبك ، وجلس هناك في هدوء يهضم الطعام ويدخن، وقبعته التي لا تفارقه ابداً جاثمة على رأسه ، بينما اندفعت خارجـــاً لأقوم بجولة في البلد .

٦ الشارع

اذا كانت الدهشة قد تملكتني حين لمحت – اول مرة – همجياً مثل كويكوج يتجول في مجتمع مهذب في مدينة متحضرة فان تلك الدهشة سرعان ما انحسرت عني حين قمت بأول جولة صباحية خلال شوارع نيوبدفورد .

كل ميناء ذي شأن كثيراً ما يعرض لك في الشوارع العامة القريبة من دار الصناعة (الترسانة) أغرب السحن التي تنتمي الى مختلف جهات العالم وتعجز الواصفين . حتى انك لترى في شارعي برودواي وشسنت[١] بحارة من حوض المتوسط يزحمون النساء المروّعات احياناً . وليس شارع ريجنت[٢] نائياً على بحارة جزر الهند الشرقية (العسكر) والملايو . وفي بومباي – وفي أبولو جرين منها – يعيش امريكيون يرعبون الاهالي احياناً ؛ الا ان نيوبدفورد تفوق في هذا الشأن كل شارعي ووتر ووابنج[٣] . ففي هذين الشارعين ترى بحارة فحسب اما في نيوبدفورد فترى متوحشين يتوقفون ليتحدثوا في زوايا الشوارع – متوحشين لم تفارقهم وحشيتهم وكثير منهم ما يزال يحمل على عظامه لحماً نجساً ؛ وذلك مما يجعل الغريب يحملق في الوجوه محدّقاً . وترى أبناء جزر فيجي وغيرهم من البدائيين ونماذج غريبة من محترفي صيد الحيتان يتجولون في الشوارع دون ان

---

١ الشارع الاول في نيويورك والثاني في فيلادلفيا .

٢ اسم شارع بلندن .

٣ ووتر في لفربول ، ووابنج في لندن .

يثيروا التفاتاً ، كما ترى ايضاً مناظر اخرى اشد غرابة واكثر اثارة للضحك . وفي كل أسبوع يصل الى هذه المدينة عشرات من أغرار فيرمونت ونيوهامبشير وكلهم متعطشون للربح والمجد من صيد الاسماك ، واكثرهم شبان ذوو أجسام قوية ، أناس عاشوا على قطع الاخشاب ورأوا ان يلقوا الفأس ويعتقلوا حربة الصيد واكثرهم اغرار خضر الوجوه كأنهم الجبال الخضر التي جاءوا منها؛ وتحسبهم في بعض الامـــور الاخرى قد تقدمت بهم السن بضع ساعات . تأمل ! ذلك شاب يخب عند الزاوية ويلبس قبعة محرّدة ومعطفاً كذنب الخطّاف (فراك) ويتمنطق بحزام بحار ومدية مغمدة . وهـــذا آخر يلبس السوتر والعباءة البمبازية .

واذا الريفي اخذ في التأنق عجز عن ان يباريه الغرانقة المتأنقون من ابناء المدن — واعني بذلك «غندور» الريف المتغطرس السادر الذي اذا ذهب ليحصد الفدانين اللذين يملكهما — في أيام القيظ — لبس قفازاً من جلد الغزال كي لا تلوّح الشمس يديه . فاذا صمم هـــذا « الغندور » الريفي على ان يحرز سمعة فائقة ، ويسلك نفسه في عصبة صيد الحيتان ، فلا بد لك من ان ترى الامور المضحكة التي يأتيها حين يبلغ الميناء ، فهو اذا اراد ان يجعل زيه البحريّ ينم عليه أوصى الخياط ان يضع له أزراراً جرسية الشكل على صـــدارته ، وان يزود سرواله الخيشي بالسيور . مسكين انت يا ابن التبن والقش ! ما أسرع ما تنفرط تلك السيور في أول هبة ريح ضارية حين تلقى انت وسيورك وأزرارك وكل مـــا لديك بين فكي العاصفة .

لكن اياك ان تظن ان هذه المدينة الشهيرة لا تقدم لزائرها الا الحوّاتين والمتوحشين والمتغندرين . لا بل ان نيوبدفورد اغرب شأناً مما تتصوّر . ولولانا — نحن رجال الحيتان — لظلت تلك البقعة من الارض حتى اليوم دوّية مقفرة كأنها ساحل لابرادور . وبعض الريف الممتد من خلفها يفزع المرء منظره لانه

أجرد قاحل . ولعلّ المدينة نفسها من اكثر الامكنة غلاء في نيوانجلند جميعاً . نعم انها بلد الزيت . ولكنها ليست مثل ارض كنعان بـــلد القمح والخمر ، ولا تتدفق في شوارعها انهار اللبن ، ولا ترصف تلك الشوارع في ايام الربيع بالبيض الطازج ؛ ورغم ذلك كله فلن تجد في كل امريكا بيوتاً كبيوتها أبهة وفخامة ، او كمتنزهاتها وجناتها وفرة ونضارة . من أين تلك الجنات ؟ كيف غرست في بقعة ريفية لم تكن الا مُطـّرحاً لخبث المعادن ؟

اذا شئت جواباً على هذا السؤال فاذهب وانظر الى الرموز التي تمثلها رماح الصيد الحديدية المريشة حول ذلك الصرح العالي . أجل . ان تلك البيوت الجبارة والجنائن الزاهرة انما انبثقت من الاطلسي والهادي والهندي . انها اصطيدت من أعماق البحر وجرّت حيث نصبت . هل يستطيع السيد اسكندر[1] ان يعمل مثل هذا العمل العظيم ؟

والناس يقولون : ان الآباء في نيوبدفورد يـــدفعون المهور لخطـّاب بناتهم حيتاناً ويفرقون على القريبات حصصاً من البربوز . لا بد من أن تذهب الى تلك المدينة لتشهد عرساً رائعـــاً فالناس يقولون ان في كل بيت هنالك احواضاً من الزيت وفي كل ليلة يوقدون ، دون حساب ، شموعاً من شحم العنبر تبلغ مثل قاماتهم طولاً .

من اللاذّ ان ترى المدينة في فصل الصيف – فهي مليئة بأشجار الغُرْب الجميـــلة ، والشوارع التي تظللها الاشجار الخضراء ذات الازهار الذهبية . وفي شهر آب (اغسطس) يقدم الشاهبلوط الجميل الوفير الذي يشبه الشمعدانات – يقدم للعابرين عناقيد من براعمه في اشكال مخروطية مستقيمة مستدقة . الفن ذو

---

[1] ساحر ألماني كان يؤدي ألعابه السحرية في مسارح نيويورك بين عامي ١٨٤٥ - ١٨٤٩.

قوة مهيمنة فقد أضاف ربعاناً مشرقة من الازهار الى تلك النفايات من الحجارة العقيمة التي طرحت آخر يوم خلق فيه العالم .

ونساء نيوبدفورد : انهن يزهرن إزهار الورد الاحمر في بلدهن . الا ان الورد لا يترعرع الا في الصيف ؛ اما جمال خدودهن فانه دائم كضوء الشمس في السماء السابعة . لا تستطيع ان تجد لتوردهن مثيلاً في اي مكان الا في سالم ، فقد أخبرني الثقة ان انفاس الفتيات فيها تنفث مسكاً ، حتى ان عشاقهن من البحارة يتنسمون شذاهن العطر وهم على اميال من الشاطىء و كأنما يقتربون من « جزر البهار » بدلاً من « رمال المتبررين الغياري » .

٧ المعبد

يقوم في هذه المدينة التي تسمّى نيوبدفورد معبد صيادي الحيتان وقليل هم الصيادون ذوو الامزجة المتقلبة الذين يتراخون عن القيام بزيارته في احد ايام الآحاد ما داموا يزمعون الابحار وشيكاً الى المحيط الهندي او الهادي . وانا على يقين بأن تلك الزيارة لم تفتني .

فعندما عدت من جولتي الصباحية الاولى خففت مرة اخرى لقضاء هذا الارب ، وقد تغيّرت السماء من حال صفاء وشمس وبرودة الى ضباب ومطر مصحوب بالبَرَد . لذلك تلفعت بسترتي الخشنة المصنوعة من قماش يسمونه « جلد الدب » ، واتخذت وجهتي في مقاومة العاصفة العنيدة . وعندما دخلت المعبد وجدت جمعاً مشتتاً صغير العدد من البحارة ونسائهم وأراملهم . وكان يغشّي الوجود صمت مخيّم لا يمزقه بين الحين والحين سوى زعقات العاصفة . وقد ابتعد كل مصلٍّ عن اخيه عامداً كأن كل حزن صامت كان مقصوراً على صاحبه فهو لا يفضي به الى غيره . ولم يكن القسيس قد وصل فوقف كل فريق صامت من الرجال والنساء يرمقون شواهد رخامية عديدة ذات حوافي سود قد غرزت في الجدار على جانبي المنبر . ويشبه ان يكون ما كتب على ثلاثة منها كما يلي : وان كنت لا أدّعي ان هذا هو النصّ الحرفي :

وقفاً على ذكرى جون تلبوت الذي غرق
وهو في الثامنة عشرة قريباً من جزيرة الدمار ،
حذاء ساحـــل باتاغونيا في غرة تشرين الثاني
عام ١٨٣٦ . نصبت هذه اللوحة اخته لذكراه .

وقفـــاً على ذكرى روبرت لونج وولس
إلري وناثان كولمان وولتر كاني وسيث ماسي
وصموئيل جلايج ، وهم من بحارة السفينة « اليزا »
التي جرها حوت فأغرقها على مبعدة من البرّ في
المحيط الهادي في ٣١ كانون الاول ١٨٣٩ وقد
أقام هذا النصب الرخامي رفاقهم الناجون .

وقفاً على ذكرى المرحوم القبطان حزقيال
هاردي الذي قتله وهو في مقدم قاربه حوت
العنبر عند ساحل اليابان في الثالث من آب ١٨٣٣
وقد نصبت أرملته هذه اللوحـــة لذكراه .

بعد ان نفضت البَرَد عن قبعتي وسترتي اللتين كساهما الجليد بطبقة زجاجية تخذت مجلسي عند الباب ، وتلفت يمنة ويسرة ، فأدهشني ان ارى كويكوج قريباً مني . كان مثابراً بجدّية المشهد فارتسمت على ملامحه نظرة المندهش الذي ثار في نفسه حب استطلاع ظامىء . وكان هذا المتوحش هو الشخص الوحيد الذي لحظ دخولي — فيما يبدو — ذلك انه كان الأمي الوحيد بين الناس ، ومن ثم لم يكن قد شغل بقراءة تلك النقوش الجامدة على الجدار . لست أدري هل كان في الجمع احد اقرباء البحارة الذين كتبت اسماؤهم على الرخام ، غير اني اعلم ان ما لا يدون من احداث مهنة الصيد على الشواهد والنصب كثير العدد ، وكثيرات هن النساء الحاضرات اللواتي كن يحملن على وجوههن سمات حزن لا يريم ، ان هنّ لم يتسلبن ثياب الحداد ، حتى لأحسست مستيقناً انه قد احتشد امامي أولئك الذين يبتعث الأسى في قلوبهم الملتاعة منظر تلك اللوحات الكئيبة وينكأ جراحهم القديمة .

أوهِ يا من يرقد موتاهم بين العشب الأخضر ! يا من اذا وقفوا بين الازهار قالوا : هنا ، هنا يرقد الأحبة ! انكم لتجهلون الوحشة التي تعشش في تلك الصدور . اي فراغ مرير في ذلك الرخام ذي الاطار الأسود الذي ليس تحته رفات ! أي يأس في هذه المنقوشات الثابتة ! اي خلاء مميتٍ وكفر محرّم في تلك الأسطر التي تهضم الايمان وجوده وتنكر البعث على الأحياء الذين قضوا دون ان تخط لهم قبور . لو نصبت هذه اللوحات في مغارة الفيلة [1] لكانت أيضاً في موضعها الملائم .

في أي فريق من المخلوقات الحية يدرج موتى بني الانسان ؟ لم يقول المثل

---

[1] مغارة قرب بومبي بالهند والى جانبها ست مغاور صغيرات ، وهي وقف على عبّاد شيفا المدمّر الذين يؤثرونه على فشنو الحافظ ، وكانت مزينة بالتماثيل .

السائر فيهم انهم لا يحكون حكايات وان كانت لديهم أسرار تزيد على رمال عالج ويبرين ؟ كيف نقرن باسم الذي فارقنا امس الى العالم الآخر كلمة كافرة مرموقة ، ولا نمنحه هذا الحق اذا شاء ان يبحر الى اقصى بقعة في هـــذا العالم الحيّ ؟ لم تدفع شركات التأمين تعويضات عن موت من يعدون خالدين ؟ في اي شكل خالد كسيح وغيبوبة مميتة يائسة يقبع آدم القديم الذي مات منـــذ ستين قرناً كاملة ؟ ما بالنا ما نزال نرفض ان نتعزى عمن لا نفتأ نؤمن — رغم ذلك — انهم يقيمون في نعيم مقيم ؟ لم يحاول الاحياء جميعاً ان يخرسوا الاموات جميعاً ، مع ان اشاعة تروي كيف سمع صوت الدقّ في احد القبور تكفي لترعب مدينة كبيرة ؟ هذه الاشياء جميعاً ليست دون معنى .

الا ان الايمان كالثعلب يجد غذاءه بين القبور ، ومن الريب الميتة يستجمع أشد آماله حياة ونضرة .

لقلما يحتاج القارىء ان اخبره بأي مشاعر تأملت تلك الشواهد الرخامية وأنا على أهبة السفر الى نانتوكت ، وكيف انني على ضـــوء ذلك اليوم الحزين المظلم — وهو ضوء خافت — قرأت مصير صيادي الحيتان الذين مضوا قبلي على الطريق . نعم يا اسماعيل ، انك قد تواجه مثل ذلك المصير . غـــير ان المرح عاودني على نحو ما : مغريات ممتعة تحفزني على الرحلة ، فرصة ذهبية لتحسين الحال — فيما يبدو — اجل : فان قارباً مخروقاً يجعلني خالداً بالبراءة التي يمنحنيها بعد ان كنت من ابناء الفناء . نعم ان في مطاردة الحيتان موتاً — الا انه ازجاء للانسان في احضـــان الابدية على نحو سريع صامت ملهوج . ثم ماذا نجد في احضان الابدية ؟ هب اننا اخطأنا خطأ فادحاً في فهم مسألة الحياة والموت . هب ان ما يسمونه على هذه الارض « ظلّـي » انما هو جوهري الصحيح . هب

اننا حين ننظر الى الامور الروحية نشبه السرطان الذي يرى الشمس من خلال الماء فيظن ان الماء الكثيف هو اشد نوع من الهواء شفافية . هب ان جسدي ليس الا الحمى الذي يأوي اليه وجودي الافضل . بل في الواقع ليأخذ جسدي من شاء – اقول ليأخذه – فانه ليس انا . مرحى ثلاثاً لنانتوكت وليأتِ القارب المخروق والجسم الموهون متى شاءا ، اذ ان جوبتر نفسه يعجز عن ان يخرق روحي .

٨ المنبر

لم اكن قد جلست طويلاً حين دخل رجل ذو وقار جليل، وما ان استدار الباب الذي تصفعه العاصفة على عقبيه مرحباً بقدومه حتى توجهت الانظار اليه متطلعة عجلى، وكان ذلك دليلاً على ان هذا العجوز الجليل هو القسيس . اجل . كان هو الأب مابل المشهور، فكذلك كان يدعوه صيادو الحيتان، وكان بينهم اثيراً مرموقاً . وفي شبابه كان بحاراً وحواتاً الا انه منذ عدة سنوات نذر حياته للتبشير والوعظ . واثناء كتابة هذه السطور كان قد بلغ من العمر الفصل الشتائي من شيخوخة صحيحة سليمة، أعني ذلك النوع من الشيخوخة الذي يخيل اليك انـــه يفضي الى شباب ثانٍ مزدهر، اذ كان يلمع في أثلام تجعداته ألق وديع من نضارة آخذة بالنمو، كأنها خضرة الربيع تتفلت للظهور من تحت ثلوج شباط . وكل من سمع قصته من قبل فلا بد من ان يتلقاه باهتمام بالغ، اذ كانت قد رسخت عنه في النفوس خصائص اكليروسية تعزى الى حياة المخاطر البحرية التي خاضها في شبابه . وعندما دخل لحظت انه لم يكُ يحمل مظلة، ولم يأتِ على وجه اليقين في عربة، اذ ان قبعته التربولين كانت تقطر برداً ذائباً، وسترته الكبيرة المصنوعة من قماش الملاحين تكاد تشده الى الارض بثقل ما امتصته من ماء . مهما يكن من شيء فقد نزع عنه قبعته ومعطفه وخفـّه، واحداً اثر آخر، وعلقها في فجوة صغيرة في الزاوية المجاورة له، وحين ارتدى ثياباً مناسبة تقدم بهدوء نحو المنبر .

وكان منبراً ككل المنابر القديمة في طرازها، عالياً بالغ العلوّ ؛ وبما ان الدرج العادي الصالح لمثل هذا الارتفاع يكوّن مع الارض زاوية طويلة فيبتلع مساحة

المعبد - وهي بطبيعتها صغيرة - لذلك قام المعماري امتثالاً لارشادات الاب مابل ببناء منبر دون درج، متخذاً عوضاً عنه سلماً جانبياً قائماً كالسلالم التي تستعمل في الصعود الى السفن من قارب في البحر. وقامت زوج احد قباطنة الحواتين فتبرعت للمعبد بزوجين جميلين احمرين مبرمين من الكرور. ولما كان المنبر نفسه متقن الرأس مدهوناً بلون كلون خشب الماهوغاني فقد كان التدبير جملة، اذا انت اعتبرت حال المعبد، يدلّ على ذوق طيب. توقف الاب مابل لحظة عند قاعدة السلم وقبض بكلتا يديه على عقدتي الحبل البارزتين للزينة، والقى نظرة الى فوق، ثم وضع يداً على يد، واخذ يصعد مرقاة اثر مرقاة في رشاقة تليق بالبحارة، الا انها ايضاً مشفوعة بالوقار، كأنما يصعد الى قمة الدقل الرئيس في سفينته.

وكانت مراقي هذا السلم الجانبي، حسبما هي الحال في كل السلالم المتأرجحة، مصنوعة من حبال مغلفة بالقماش وليس فيها خشب الا في العوالق، ولذلك كان في كل مرقاة مفصل. وحين لمحت المنبر اول مرة لم يفتني ان هذه المفاصل اذا كانت تصلح للسفينة فانها في حال المنبر تبدو غير لازمة. غير أني لم اكن قد تهيأت لأرى الاب مابل بعد ان رقي في منبره يستدير ببطء، وينحني فوق المنبر، ويعمد الى جرّ السلم مرقاة اثر مرقاة، حتى يودعها جميعاً لديه، وقد اصبح ممتنعاً متحرزاً في «سفينته» الصغيرة.

وتفكرت في هذا الامر بعض الوقت دون ان افهم وجه السرّ فيه. ذلك ان الاب مابل كان قد احرز شهرة واسعة في الاخلاص والتأله ولذلك لم يتجه بي الريب الى انه كان يجر على نفسه سوء السمعة بمثل هذه الحيل المسرحية، وقلت في نفسي: لا. لا بد من سبب وجيه لهذا. ثم لا بد ان يكون هذا الامر رمزاً لشيء غير مرئي. ألا يجوز انه بهذه العزلة الجسمانية يرمز الى انعتاقه الروحي - بعض الوقت - من أسر العلائق والروابط الدنيوية؟ اجل ان هذا المنبر وقد

طفح بخمر الكلمة ولحمها يمثل حمىً حصيناً دائم المدد للرجل المؤمن – فيما ارى – كأنه قلعة شاهقة [1] مزودة ببئر من الماء المعين داخل اسوارها .

الا ان السلم الجانبي لم يكن هو وحده المظهر الغريب في ذلك المكان، بل كانت هناك شئون اخرى استمدها القسيس من وحي اعماله البحرية السابقة، منها صورة كبيرة تمثل سفينة جريئة تصارع عاصفة عنيفة عند شاطىء عاصف ذي صخور سـود وموجات بيض . وقد علقت هذه الصورة بين الشاهدين الرخاميين القائمين على جانبي المنبر، وزين بها الحائط الذي يمثل ظهر المنبر نفسه، وفوق الغيمات الساجات والسحب السود المتدحرجة كانت تعوم جزيرة صغيرة من نور الشمس يبزغ منها وجه مَلَك ، وهذا الوجه المتألق يرسل فلكة من الشعاع على ظهر السفينة المتقاذَفة، شبيهة بذلك الطبق الفضي الذي طعمت به الربعة خلف الدقل الاعظم في سفينة « النصر » حيث سقط نلسون [2] . وكأن الملاك يقول : « ايتها السفينة الكريمة . تقحّمي، اندفعي، قدّمي دفةً جسورة. ها هي الشمس تشق الدجن، والسحب تنحسر متدحرجة، والزرقة الصافية قد اصبحت وشيكة » .

ولم يكن المنبر نفسه بنجوة من أثر الذوق البحري الذي خلق السلم والصورة بل ان مقدمته «الُمقَرْوَزة» كانت تشبه القيدوم السامق في السفينة، وكان وضع الكتاب المقدس على قطعة بارزة من حلية التدوير انما هو محاكاة للمنقار الحديدي او المَلْوى في السفينة .

---

[1] في الاصل كأنه : Ehrenbreitstein وهي قلعة زارها ملفل عام ١٨٤٩ .

[2] «النصر» Victory اسم سفينة نلسون وهي في ميناء بورتسموث، وقد رآها ملفل عام ١٨٤٩ .

أي شيء اشد من هذا احتفالاً بالمعنى ؟ اذ المنبر هو مقدّم هذه الارض وكل شيء عداه يجيء في المؤخرة، والمنبر هو الذي يقود العالم ويهديه، منه تلمح عاصفة الغضب الالاهي اول ما تلمح، ولا بد للقيدوم من ان يتلقى الصدمة الاولى ؛ منه يتوجــه الدعاء الى رب الرياح – رفيقة كانت او عنيفة – لكي يرسلها رخاء طيبة . اجل ان العالم سفينة مبحرة، لمّا تستكمل رحلتها، والمنبر فيها هو قيدومها .

٩ الموعظة

نهض الاب مابل ، وامر الناس المتفرقين ان يتجمعوا ، بصوت لطيف يوحي بسلطان وديع : « انتم في ميمنـــة السفينة ، قفوا جانباً ، اتجهوا نحو ميسرة السفينة . وانتم في الميسرة ، تجمعوا ، هيا الى الميمنة ؛ جميعاً توسطوا السفينة ، توسطوا » .

تحركت الاحذية البحرية الثقيلة بين المقاعد وأرسلت دمدمة غـــير عالية ، وبعثت احذية النساء حسيساً ، ثم هدأ كل شيء ، واتجهت الاعين نحو الواعظ .

تريث هنيهة ثم جثا على ركبتيه عند مقدمة المنبر ، وطوى يديه الكبيرتين السمراوين امام صـــدره ، وشخص بعينيه المغمضتين ، ودعا دعاءً قانتاً حتى خيّلَ انه راكع يصلي في قاع البحر .

وحين انتهى من ذلك أخذ يقرأ الترنيمة التالية في نغمات مستطيلة جليلة كأنها صوت جرس مسترسل في سفينة مشرفة على الغرق في ضباب البحر . الا انه غيّر أسلوبه في المقطعين الأخيرين واندفع في تهلل وابتهاج بجلجل يرتل قائلاً [١] :

---

١ لعل ملفل هو ناظم هذه الانشودة الدينية ، فلم يعثر احد لها على أصل في كتاب آخر .

أضلاع الحوت وما في الحوت من مفزعات
نشرت فوقي ظلاماً كئيباً
وتدافعت من حولي أمواج ساقها الله مضوأة بنور الشمس
فرفعتني ثم هوت بي وطوحت بي للأجل المحتوم

ورأيت جهنم وقد تفلّعتْ أحشاؤها
وهي تتميز بآلام وأحزان أبدية
لا يقدر على وصفها إلا من كابدها ؛
واهاً لي . لقد كنت أهوي في لجج اليأس .

وفي محنتي السوداء دعوت ربي
حين كدت أجحده رباً
فسمع الله شكاتي
ولم يعد بطن الحوت لي محبساً

وبادر مخفاً الى خلاصي
كأنما انطلق به دلفين كالشعاع
وتجلى لي وجه الرب منقذي
رهيباً ، متلألئاً كخطفة البرق

ستظل ترنيمتي الى الأبد
تعيد ذكرى تلك الساعة الرهيبة البهيجة
لله الحمد خالصاً
فهو القويّ الذي وسعت رحمته كل شيء .

شارك جلّ المصلين في ترديد هذه المناجاة فتعالت على عواء العاصفة ، وتلا ذلك توقف قصير الامد ، وقلب الواعظ ببطء صفحات التوراة ، وأخيراً قال وهو يطوي يده على الصفحة المبتغاة : « أحبابي رفاقَ البحر ، قفوا عند الجملة الاخيرة من الاصحاح الاول في سفر يونان حيث يقول : « واما الربّ فأعدّ حوتاً عظيماً ليبتلع يونان » .

« يا رفاقي البحارة . يحوي هذا السفر إصحاحات اربعة ، او خيوطاً اربعة ، فهو من أصغر القوى في حبل الكتاب المقدس القويّ المفتول . اي اعماق روحية يسبرها حبل يونان المديد ! اي عبرة حفيلة نستمدها من هذا النبي ! اي شيء سامٍ هي تلك الانشودة في جوف الحوت ! ما أشبهها بالموجة في عنفها وعظمتها ! اننا لنحسّ الطوفان يتدفع من فوقنا ، واننا نغمس معه الى اغوار الماء حيث ينزوي جنُّ البحر ، ومن حولنا أعشاب البحر وكلُّ ما فيه من حمأة . ولكن اي درس هذا الذي نتعلمه من سفر يونان ؟ يا رفاقي البحارة انه لدرس ذو طاقتين : درس لنا بني الانسان المذنبين ، ودرس لي انا قائد سفينة الحيّ القيوم . هو درس لنا جميعاً — نحن المذنبين — لانه قصة الخطيئة وقساوة القلب والمخاوف التي استفاقت فجأة والعقاب العاجل والتوبة والصلوات والنجاة والفرح الذي غمر يونان . وقد كانت خطيئة ابن أمتّاي — كخطيئة جميع الآثمين من الناس — هي عصيان اوامر الله إصراراً حين وجدها اوامر شاقة . لا يهمنا ماذا كانت تلك الاوامر ، وكيف ألقيت اليه ، غير أن كل ما يأمرنا الله ان نفعله يشق علينا فعله ، تذكروا هذا واعلموا انه من ثمّ يأمرنا بدلاً من ان يسعى لإقناعنا . واذا كنا نطيع الله فعلينا ان نعصي انفسنا ، وفي عصياننا لانفسنا تكمن الصعوبة في امتثالنا لأوامر الله » .

« لم يقتصر يونان على العصيان بل ذهب يسخر من الله بالفرار من وجهه . ظن ان سفينة صنعها الآدميون قد تحمله الى بلاد ليس لله فيها سلطان ، وكل

السلطان فيها انما هو لتباطنة هذه الارض . فتواري في أرصفة يوبا يبحث عن سفينة متوجهة الى ترشيش ، وربما كان يكمن في هذا نفسه معنى خبيء لم يتنبه له أحد حتى اليوم . اذ ان ترشيش لم تكن سوى مدينة قادش الحديثة ، ذلك ما يقول به العلماء . وأين هي قادش يا رفاق البحر ؟ في اسبانيا أبعد مكان من يوبا يمكن ان يبحر اليه يونان في الايام القديمة ، حين كان الأطلسي ما يزال بحراً مجهولاً او يكاد . ذلك لان يوبا — وهي يافا الحديثة يا رفاق البحر — تقع على ساحل المتوسط ، او البحر الشاميّ ، وتبعد عنها ترشيش او قادش ما يزيد على ألفي ميل غرباً ، وراء مضيق جبل طارق . ألستم ترون يا رفاقي البحارة ان يونان كان يحاول ان يمعن هرباً من وجه الله حتى ليقطع العالم من طرف الى طرف ؟ يا لك من رجل تعس ! ايها الحقير الذي يستأهل كل ازدراء ! أتريد ان تختفي عن إلاهك بقبعة منكفئة الحوافي [1] وعين منكسرة ! وأنت تنسلّ بين حشود السفن كالخارب اللصّ تريد ان تعبر البحار ! كان مضطرباً تخونه نظراته وملامحه ، ولو كانت في تلك الايام شرطة لقبضت على يونان قبل ان يلمس ظهر السفينة بشبهة اقترافه جرماً . ما أوضح ما تنبيء أحواله انه هارب : لا متاع ولا صوان للقبعة ولا وليجة ولا كيس أمتعة ، ولا أصدقاء يصحبونه الى الرصيف مودّعين . وبعد بحث وتسلل كثير يجد اخيراً سفينة ترشيش وهي تتلقى آخر البضائع من مشحوناتها ، وحين يخطو على ظهرها ليقابل قبطانها في قمرته يتوقف البحارة جميعاً عن رفع البضائع ليبصروا هـذا الغريب وعينه المشئومة . فيدرك يونان ذلك ويحاول عبثاً ان يبدي أمارات الثقة والاطمئنان. وعبثاً يحاول ان يمتحن أثر ابتسامته التاعسة ذلك ان حدساً قوياً يلهم البحارة انه لا يعقل ان يكون بريئاً ، فيهمس احـدهم للآخر في جدّ ظاهره هزل ويقول : « جاك ، لقد سرق مال أرملة ». او يقول : « جو، ألستَ تبصره ؟

[1] كذلك كانت قبعة آخاب منكفئة الحوافي ، انظر الفصل : ٣٠ (الجملة الختامية) .

انه زوج اثنتين » . او يقول : « هاري ايها الفتى ! اني لأظنه الزاني الذي هرب من السجن في عامورة القديمة ، او لعله احد القتلة الهاربين من سدوم » . ويجري آخر ليقرأ الاعلان المثبت على اسوار الرصيف الذي تأوي اليه السفينة وفيه جائزة بخمسمائة قطعة ذهبية لمن يرشد الى قاتل ابيه ، وفيه أوصاف القاتل . فيقرأ ناقلاً عينيه بين يونان تارة والاعلان تارة اخرى بينا يتجمهر رفاقه البحارة الذين يشاطرونه شعوره حول يونان على أهبة ان يلقوا القبض عليه . فيرتعد يونان المرتاع ، ويستنجد بكل جرأته لترتسم الجرأة في قسمات وجهه فلا يزداد في أعينهم الا جبناً . فهو لا يريد ان يعترف بأنه مشبوه ولكن ذلك نفسه شبهة قوية ، غير انه يفيد من ذلك الى اقصى حد ، وعندما يجد البحارة انه ليس هو الموصوف في الاعلان يطلقون سراحه فيهبط الى القمرة » .

« فيصيح القبطان وهو جالس الى طاولة عمله ، يعد الاوراق لتقديمها للجمارك : « من هذا ؟ » – من هذا ؟ سؤال هيّن ولكنه يقع على سمع يونان وقوع الصاعقة ويكاد يستدير هارباً الا انه يتظارف قائلاً : « أود ان أسافر على هذه السفينة الى ترشيش . هل بقي لإبحاركم وقت طويل يا سيدي ؟ » . حتى هذا الوقت لم يكن القبطان قد تطلع الى يونان وان كان ماثلاً امامه ، ولكنه ما يكاد يسمع ذلك الصوت الأجوف الخاوي حتى يرميه بنظرة فاحصة . وأخيراً يجيبه في أناة : « نبحر مع ارتفاع المدّ التالي » ، وما يزال محدّد البصر اليه . فيقول يونان : « ألا تبادرون للابحار قبل ذلك يا سيدي ؟ » فيقول القبطان : « إبحارنا مع المدّ مبادرة يرضى بها كل مسافر شريف » . واهاً لك يا يونان ! هذه طعنة اخرى . ولكنه يسرع فيحوّل فكر القبطان عن الامعان في هذه البادرة من الريبة ويقول : « سأسافر معكم . اجرة السفر – كم تبلغ ؟ سأدفع على التوّ » . من اجل ذلك نوّه « سفر يونان » بأمر الدفع كأنه يوحي لنا بأن ذلك امرٌ يجب ألا نغفل عنه في هذه القصة اذ ورد فيه : « فدفع اجرتها » اي قبل ان

تنشر السفينة اشرعتها . واذا قرأت هذه العبارة في قرائنها وجدتها حافلة بالمعنى » .

« وكان قبطان تلك السفينة يا رفاقي البحارة حصيفاً ألمعياً يستطيع بنافذ بصره ان يستشف الجريمة لدى اي امرىء اقترفها ، الا ان جشعه لم يكن يسمح له ان يفضحها الا ان كان مقترفها مفلساً . ان الخطيئة التي تستطيع ان تدفع الاجرة في هذا العالم، يا رفاق البحر، تسافر حرة طليقة دون ان تحتاج الى وثيقة سفر ؛ ولكن ان كانت الفضيلة مسكيناً مدقعاً أوقفوه عند كلّ الحدود . لذلك شاء القبطان ان يختبر انتفاخ هميان يونان قبل ان يدينه علناً، فتقاضى منه ثلاثة اضعاف الاجرة التي يدفعها امثاله، وامتثل يونان لهذا الاشتطاط ودفع . وكان القبطان يعرف ان يونان هارب الا انه صمم في الوقت نفسه على ان يساعد الهرب الذي يعبّد طريقه بالذهب . ولكن حين استخرج يونان كيس نقوده كانت الريب الفطنة ما تزال تساور القبطان . فنقر كل قطعة ليجد فيها زيفاً مبهرجاً فما وجد شيئاً من ذلك فتمتم يقول : « على اي حال لا أراك مبهرجاً » ؛ وقيّد اسم يونان بين المسافرين . فقال له يونان : «عيّن لي غرفتي يا سيدي، فأنا امرؤ قد انهكني السفر، وبي حاجة الى النوم » . فقال القبطان : « ذلك يبدو في ملامحك . هناك غرفتك » فدخلها يونان وكان يود لو يقفلها لولا ان المفتاح لم يكن موجوداً . وعندما سمعه القبطان يتلمس مغلاقها متحامقاً ، ضحك ضحكة خافتة وتمتم بشيء عن أبواب مخادع المتهمين التي لا يسمح لهم ان يقفلوها من داخل . وألقى يونان نفسه وهو أشعث أغبر مرتدٍ كل ثيابه فوق سريره، وأحس كأنما سقف الغرفة الصغيرة جاثم على جبهته ، وأخذ يلهث وهو مبهور الانفاس في هواء محصور . وأحس وهو في ذلك الوكر المتضايق وقد نزل دون خط الماء ببوادر نذر الشؤم التي تسبق الساعة الخانقة ، ساعة يطويه الحوت في أدق مسالك أحشائه » .

« وكان في غرفة يونان قنديل معلق يتأرجح تأرجحاً واهناً وقد شدّ عند

وسطه الى الجدار بلولب . وعندما ترنحت السفينة نحو الرصيف بسبب ثقـــل الرزم الاخيرة التي قذفت فيها بقي القنديل واللهب وكل ما يتصل بها في وضع انحراف مستمر بالنسبة للغرفة وان كانت حركتها خفيفة ؛ ومع انه كان في الحقيقة مستقيماً استقامة لا تخطئها العـــين فانه جلا للعين المستويات الكاذبة الخادعة التي كان معلقاً بينها . وكان القنديل يرعب يونان ويخيفه . وفيما كان مضطجعاً على سريره أخذت عيناه المتعبتان تدوران في ارجاء المكان ، ولم يجد الهارب الذي وجد ملجأ لنفسه اي ملاذ لنظرته القلقة ، ولكن التناقض في وضع القنديل ما يزال يثير الرعب في نفسه ، فأرض الغرفة وسقفها وجوانبها تبدو جميعاً مائلة . فيئن يونان قائلاً : كذلك هو ضميري معلق في داخل نفسي على استقامة ، وكذلك هو يتلهب مضيئاً الا ان الغرفة التي تحتلها روحي مائلة».

« بعد مصارعة أليمة مرت على يونان في سريره أثقله عبء تعاسته الباهظة ، وقد هوى به يغرقه في أعماق النوم ، كأنه سكير أوى الى فراشه بعد ليلة من العربدة وهو ما يزال يترنح، الا ان ضميره يخزه مثل وثبات فرس رهان روماني يزداد شدّاً كلما أهوى عليه صاحبه بسوطه المدبب بالفولاذ ؛ او كأنه امرؤ في تلك الورطة التاعسة يدور ويدور في نوبة دوار ، داعياً الله ان يفنيه كي تمرّ النوبة ، وأخيراً يحس وهو في غمرة الويل خدراً عميقاً يتسلل الى جسمه مثلما يتسلل في النهاية الى امرىء ينزف حتى يموت ، اذ الضمير هو الجرح وليس ثمة ما يوقف نزيفه » .

« وحان وقت المدّ وألقت السفينة حبالها ، وانسابت على وجه الماء مبتعدة عن الرصيف ، وهي منحنية متجهة صوب ترشيش وليس عليها عـــلامة من التهلل والاستبشار . تلك السفينة يا رفاق كانت من أوائل السفن التي اتخذت للتهريب ، وكانت البضاعة المحظورة هي يونان . غير ان البحر يثور لانه يأبى ان يحمل ذلك العبء الشرير ، فتهب عاصفة مخيفة وتكاد السفينة ان تنشقّ .

حينئذ يهيب رئيس النوتية بالأيدي لتخفيف حملها ، فتطرح الصناديق والرزم والجرار وتسمع جلبتها وهي تلقى في الماء . وفيما الريح تزعق والرجال يصرخون وكل لوح خشبي فوق رأس يونان يجأر بالانين من شدة وطء الاقـــدام عليه ، اذ ذاك كان يونان يغط في نومه الشنيع ، والجلبة هذه تشتد من حوله . فهو لا يرى سماء سوداء او بحراً غاضباً ولا يحس بالخشب المترنح ، ولا يسمع ولا ينصت لاندفاعة الحوت القويّ ، وهو يشق البحار خلفه بشدق مفتوح . نعم يا رفاق ، كان يونان قد نزل في جوف السفينة ، وهو ما أقدّر ان يكون سريراً في قمرة ، وكان مستغرقاً في النوم . الا ان القبطان المرتاع يجيء اليه ويصرخ في أذنه التي حلّ بها الوقر : « ماذا تعني ايها النائم ! انهض ! » فيهب من نومه فزعاً لدى سماع الصيحة المخيفة ، وينهض مـــترنحاً على قدميه ، ويتعثر متجهاً نحو ظهر السفينة فيمسك بحبل ويلقي نظرة على البحر . وفي تلـــك اللحظة تثب نحوه احدى الموجات وثبة النمر ، مندفعةً من جانب السفينة نحو قمتها . وتثب في السفينة موجة اثر موجة ، واذ لا تجد منفذاً كي تتسرب منه تجري هادرة نحو مقدمة السفينة ومؤخرتها حتى يشرف النوتية على الغرق، والسفينة ما تزال طافية . ومثلما يبدي القمر الشاحب وجهه المفزع من الاخاديد العميقة المنحدرة في الظلمة المطلة عليها ، كذلك يرى يونان وهو مبهور الدقل المائل وهو يمتد في الفضاء ثم يراه وقد توجه الى اسفل نحو الاعماق الهائجة ».

« أفواج من الرعب اثر أفواج اندفعت تصرخ في روحه . الهارب من وجه الله انفضح امرهُ مما كان أبداه من مداهنة وتولاه من تملق . عرفه البحارة بسيماه. غَلَبَتْ ريبتهم في أمره . أرادوا ان يفوضوا الامر الى حكم السماء ليكشف وجه الحقيقة ، فلجأوا الى القرعة ليروا بسبب من ثار ذلك النوء المخيف . وقعت القرعة على يونان . واذ استبان الأمر تألبوا محنقين يقذفونه بالاسئلة : ما هو عملك ومن اين أتيت ؟ ما هي أرضك ؟ ومن اي شعب انت ؟ تأملوا يا رفاق البحر مسلك يونان : سأله البحارة ملحفين متطلعين عن هويته وأرضه فلم يتلقوا

منه جواباً على هذه الاسئلة فحسب بل أجابهم عن سؤال لم يوجهوه اليه ؛ يد الله القوية هي التي انتزعت منه ذلك الجواب الذي لم يطلب ، حين صاح يقول : « انا عبراني وانا خائف من الرب إله السماء الذي صنع البحر والبر » . تخافه يا يونان ! ما أحسن ان تخاف الله إذن ! ودون مواربة يفضي باعترافه كله . وعندئذ يزداد النوتية رعباً وان كانت انفسهم تفيض بالرثاء لحاله . ذلك ان يونان لم يتضرع الى الله طالباً الرحمة اذ كان يخشى ألا يستجيب الله دعاءه وهو الذي أورط نفسه في ظلمات الهرب من وجهه ، وانما أهاب ذلك التعس بالنوتية ان يأخذوه ويطرحوه في البحر، اذ كان يعلم ان ذلك النوء العظيم انما ثار بسببه؛ وحينئذ استثيرت شفقتهم عليه ، وتلمسوا وسائل أخرى كي ينجّوا السفينة ، وذهبت محاولاتهم سدى ، واشتد عواء العاصفة الغاضبة ، فرفعوا الى الله يداً داعية ، وأمسكوا يونان بالأخرى وطرحوه في البحر وهم كارهون » .

« ها هو يونان يهوي الى الاعماق كأنه المرساة المطروحة . واذا السكون ينبسط من قبل المشرق ، فيكف البحر عن الهياج ، ويحمل يونان العاصفة معه ، مخلفاً ماءً هادئاً وراءه . ويتخطفه وهو هابط جوف الهياج الجامح حتى لا يكاد يعي اللحظة التي ينزل فيها بين شقي شدقين أهرتين فاغرين لتلقيه ، ويطبق الحوت وراءه كل انيابه العاجية كأنها مزاليج بيض يقفل بها باب سجنه. وصلـّى يونان الى الرب إلاهه من جوف الحوت . تأملوا صلاته. وخذوا منها عـــبرة زاجرة . ذلك أنه وهو الآثم لم يبكِ ولم يعول طالباً الخلاص الفوريّ . بل كان يحسّ ان العقوبة التي نزلت به عادلة فهو يُسلم امر خلاصه لله ، ويقنع هو نفسه بشيء واحد رغم ضروب آلامه وعذابه : وذلك الشيء هو ان يعود فينظر الى هيكل قدس الرب . وهـــذه يا رفاق البحر توبة نصوح خالصة اذ ليس فيها الالحاف بطلب المغفرة وانما فيها الشكران على العقاب . واذا شئتم ان تعرفوا مبلغ رضى الرب عن عمل يونان دلكم عليه ان الله نجاه في آخر الامر من البحر والحوت . رفاقي ! لست اعرض صورة يونان امام انظاركم لتحاكوه في خطيئته

وانما اعرضها عليكم لتقتدوا بطريقته في الندم والتوبة . لا تقعوا في الاثم ولكن ان وقعتم فيه فتوبوا الى الله منه كما فعل يونان » .

وحين كان يرسل هذه الكلمات كان زئـــير العاصفة الصارخة المتحرّفة في خارج المعبد كأنما يضفي قوة جديدة على الواعظ ، وكأنما كان الواعظ نفسه وهو يصف العاصفة البحرية امرءاً تتلاعب به عاصفة . اذ كان صدره يعلو ويهبط كأن فوقه جرثومة تراب ، وكان ذراعاه وهو يطوّح بهما كالعناصر وهي تتقاتل متصارعة ، وكانت الرعود التي تتدحرج عن جبهته القاتمة والبروق التي تثب من عينيه تجعل مستمعيه البسطاء ينظرون اليه في خوف سريع غريب عليهم .

ثم غشت السكينة نظرته حـــين أخذ يقلب صامتاً صفحات الكتاب مرة اخرى ، ووقف دون حراك ، مغمض العينين ، مدى لحظة ، كأنه كان في النهاية يناجي ربه ويناجي نفسه .

ثم مال بجذعه الى الامام نحو المستمعين ، وطأطأ رأسه في وضع يدلّ عـلى أعمق ضروب التواضع وعلى أشدها رجولة في آن معاً وقال :

« يا رفاق البحر . ان الله قد وضع عليكم احدى يديه اما انا فقد بسط عليّ يديه كلتيهما . لقد قرأت لكم عـــلى ضوء خافت ينساب من نفسي العبرةَ التي علـّمناها يونان — نحن الآثمين — فهي عبرة لكم ولكن العبرة لي من قصة يونان اقوى لاني اشد منكم أثاماً . كم احب ان انزل عن قمة هـــذا الصاريْ واجلس بينكم فوق عنبر السفينة ، وأصغي كما تصغون بينا يقرأ لي احدكم العبرة الاخرى ، العبرة الاقوى التي يعلمنيها يونان — انا قائد سفينة الحيّ القيوم . كان يونان مثلي ربانا ، نبياً مسيحاً ، ينطق بالحق ، أمره الله ان ينادي بالحق اهل نينوى الذين صعد شرهم امام الرب ، فخشي العداوة التي قد يثيرها وهرب ناكلاً عن أداء رسالته ، ومضى يريد ان يفر من وجه واجبه ووجه ربه بالارتحال في سفينة مقلعة من

يافا . لكن حينما ولى المرء وجهه فتم وجه الله . فلم يبلغ يونان ترشيش ، وأتاه وعيد الله في صورة حوت ابتلعه وأهبطه الى قرارة المصير ، وانحرف بـــه في سرعة خاطفة الى العمق « في قلب البحار » ، حيث حومات الاعماق اجتذبته عشرة آلاف قامة الى القرار ، « والتفّ عشب البحر برأسه » ، وعجّت فوقه جميع ويلات الماء . وحين كان على عمق لا يبلغه اي مسبار بحري – « من أحشاء الجحيم » – حين كان الحوت قد أرسى على أقصى عظام المحيط ، سمع الله من الظلمات نداء النبي التائب السجين . وأمر الرب الحوت فجاء من عالم البرد الزمهريري وظلمة البحر يتضرّب صعداً نحو الدفء والشمس المنعشة ومتع الهواء والارض «فقذف يونان الى البر». وحين صدرت كلمة الله الى يونان مرة اخرى، وكان يونان مشججاً منهوك القوى وفي أذنيه اللتين تشبهان محارتين طنين البحر، امتثل أمر ربه . أي امر ؟ ان يصدع بالحق في وجه الباطل – ذلك هو الامر».

« هذه هي العبرة الاخرى التي أستمدّها من قصة يونان يا رفاق وويل لربان الحيّ القيوم الذي يستخف بها ؛ ويل لمن ألهته هذه الحياة الدنيا عن أداء فروض الكتاب ؛ ويل لمن أثار فتنة أطفأ الله نارها ؛ ويل لمن يبتغي ان يترضى الناس اكثر مما يخوفهم ؛ ويل لمن كانت سمعته آثر لديه من عمل الخير ؛ ويل لمن لا يستدعي الهجنة الى نفسه في هذه الدنيا ؛ ويل لمن يتجنب الحق وان كان الباطل منجاة ؛ ويل لمن يعظ غيره ولا يتعظ ! – كما قال القديس بولس[1] ».

وتدلـّى رأسه ونأى عن نفسه لحظة عاد بعدها فرفـــع رأسه الى القوم ، والبشر يلتمع في عينيه ، حين صرخ في حماسة ربانية : « لكن يا رفاق السفينة :

---

[1] يشير الى ١ كورينثوس ٩ : ٢٧ «بل أقمع جسدي واستعبده ، حتى بعد ما كرزت للآخرين لا أصير انا نفسي مرفوضاً» .

في ميمنة سفينة كلٌّ ويل مسرة حقيقية [1] — طوبى حقة — وقمة تلك المسرة موغلة في سموقها باكثر مما يوغل الويل في انحداره العميق . اذا أنتم قستم علوّ الصاري الكبير حتى الصفحة المعدنية في رأسه وانخفاض الكلزون — او اللوح المثبت في قاعدة السفينة — ألستم تجدون علوّ الاول اكثر من انخفاض الثاني ؟ طوبى[2] سامقة شاهقة روحية — لمن عرّض نفسه الصليبية ضد الارباب والقباطنة المستكبرين في هذه الارض . طوبى لمن أسعفته ذراعاه القويتان حين تغرق سفينة هذا العالم الحقير الخائن — . طوبى لمن لم يسمع في الحق لومة لائم وانما يقتل الآثام ويحرقها ويهدمهـــا ، وان كان يستلـّها من تحت ثياب القضاة والحكام — . طوبى — شاهقة نبيلة — لمن لا يقر بشرع سوى شريعة الله وبرب سوى ربه ومن أخذته الحمية للسماء وحدها — . طوبى لمن اذا احتشدت كل أمواج بحار الرعاع الهائجة المائجة لم تزحزحه عن قاعدة سفينة الاجيال — . طوبى خالدة لذيذة لمن يقول حين يضجعونه في لحده : رباه — انت يا من عرفتك بصولجان سطوتك — ها هنا أرقد ، خالداً كتبت لي ان اكون او فانياً . لقد سعيت لأكون من حزبك لا لأكون من حزب الدنيا او من حزب نفسي . غير أن هذا ليس امراً ذا بال فاني لا حق لي بالخلود ، اذ الخلود لوجهك ، وما هو الانسان حتى يطلب البقاء ، والبقاء صفة خالصة لربه » .

لم يزد ، وانما لوّح بيده نحو الرءوس ينثر فوقها البركات ، ثم غطى وجهه بيده ، وبقي راكعاً وحيداً في موضعه ، حتى فصل القوم جميعاً .

---

١ لاحظ ان اسم السفينة في الفصل : ١٣١ هو « مسرة » ، وهي آخر سفينة التقت بها الباقوطة .

٢ تأمل التوازن بين تكرير كلمتي « ويل » و « طوبى » في هذه الموعظة .

١٠ صديق حميم

حين رجعت من المعبد الى حانة النفاث وجدت كويكوج هنالك وحده، اذ كان قد غادر المعبد قبل نثر البركات، وكان يجلس على مقعد امام النار، وقدماه على وجاق المدفأة ، وقــد قرّب من وجهه صنمه الزنجي الصغير باحدى يديه، وأخذ يحدد النظر في وجه الصنم ويعبث عند أنفه بمديته ، وهو في اثناء ذلك يهمهم لنفسه بطريقته الوثنية .

ولما قطعت عليه وحدته نحّى التمثالَ من يده ، وذهب تواً الى الطــاولة وتناول عنها كتاباً كبيراً، ووضعه على ركبتيه وأخذ يعد صفحاته على نحو لا يختلّ ؛ اذ كان يقف لحظة بعد كل خمسين صفحة – فيما تصوّرت – وينظر من حوله نظرات فارغة ثم يتفوّه بصفير طويل مغرغر من الدهشة، ثم يبدأ في عدّ الخمسين التالية، ويبدو انه كان في كل مرة يبدأ بواحد كأنما كان يعجز عن ان يتجاوز الخمسين في عده، وبعد ان كثر لديه عدد الخمسينات معاً ثارت دهشته من كثرة عدد الصفحات .

جلست أرقبه باهتمام بالغ: كان متوحشاً وكان وجهه مشوهاً – حسب ذوقي – تشويهاً بالغاً مفزعاً ومع ذلك فقد كان في قسماته ما لا يوصف باثارة النفور . ان المرء لا يستطيع ان يخفي حقيقة روحه، وكذلك كان حال كويكوج ، فاني اظن انني رأيت من خلال وشمه الغريب آثار قلب بسيط شريف، ورأيت في عينيه النجلاوين العميقتين اللتين تتلهبان سواداً وجسارة أمارات روح تستطيع

ان تتحدى ألف شيطان . زد على هذا ان هذا الوثني كان يطيف به منزع رفيع لم تستطع ان تشوهه خشونته وفظاظة منبته . كان يبدو لي انساناً لم يعرف الملق ولا يد الدائن العليا . وكان رأسه حليقاً وقد اتخذت جبهته سمتاً متطلقاً ألمعياً بالنسبة لرأسه وبدت أعرض مما هي في حقيقتها . أتراها كانت كذلك اذ كان رأسه حليقاً ؟ ذلك شيء لا أجرؤ على الجزم به، ولكنني على يقين من أن رأسه كان رأساً ممتازاً اذا نظرت اليه من زاوية علم القوى العقلية ؛ قد يبدو مضحكاً، غير انه ذكرني برأس الجنرال واشنطن كما نراه في تماثيله المعروضة للناس ؛ ففيه ما في رأس واشنطن من انحدار مقعنسس متدرج بانتظام فوق الحاجبين وهما لديه ايضاً حاجبان شديدا البروز كأكمتين طويلتين يتكاثف الشجر في قمتيهما . كان كويكوج هو جورج واشنطن وقد تطوّر في اتجاه بدائي .

وبينا كنت أرقبه عن كثب وانا كأنما أوهم في الوقت نفسه أنني انظر الى العاصفة من النافذة لم يتنبه هو لوجودي، ولا عنّى نفسه ان يلقي عليّ نظرة واحدة وانما بدا أنه منهمك كل الانهماك في عد صفحات ذلك الكتاب العجيب . واذ تذكرت كيف كنا ننام معاً على وئام في الليلة السابقة، وبخاصة اذ تأملت تلك الذراع الحانية التي وجدتها تطوقني حين صحوت في الصباح، خيّل اليّ ان قلة احتفاله بي امرٌ مستغرب . غير ان المتوحشين كائنات غريبة ولا يعرف المرء بدقة احياناً كيف يُعاملهم . فهم يبدون أول الامر مصدر رهبة بالغة، وتبدو السكينة المطمئنة في بساطتهم حكمة سقراطية . ولحظت ايضاً ان كويكوج لم يكن على شيء من الانسجام — او لعله كان على انسجام قليل — مع البحارة الآخرين في الخان . فلم يحاول ان يباشر التعرف الى أحد منهم، بل بدا انه لا يرغب في ان يوسع دائرة معارفه . كل هذا لفتني بانه شيء فذ فريد ثم كررت فيه النظر فوجدت فيه ايضاً شيئاً من الروعة . ها هنا رجل ابتعد عن وطنه عشرين الف ميل عن طريق رأس هورن، وهو الطريق الوحيد الذي يبلّغه الى وطنه ، وقد رماه القدر بين ناس غرباء عنه فكأنما ألقاه في كوكب المشتري ،

ومع ذلك كان مسترسل الطمأنينة محتفظاً باقصى حظ من الهدوء والرصانـــة ، قانعاً بصحبة نفسه ، غير متعدٍّ طوره . وفي هذا — دون ريب — مسحة من فلسفة جميلة ، وان كان هو لم يسمع على وجه اليقين بما نسميه فلسفة ؛ ولكن لعلنا ان شئنا، نحن الفانين، ان نكون فلاسفة حقاً فعلينا ألا نعي اننا نعيش عيش الفلاسفة او نسعى لنكون كذلك . وكلما سمعت بان زيداً او عمراً من الناس يرى في نفسه انه فيلسوف فاني استنتج — كما استنتجت العجوز المصابة بسوء الهضم — أنه « قد كفّ عن تناول الهاضوم »، ولا بدّ .

جلست في تلك الغرفة المتوحدة والنار تتلهب في غير حدة، وانمـــا هي في مرحـــلة لطيفة من التوقد وقد خفتت فيها حدتها التي أدفأت الهواء فأصبحت تصلح لمتعة النظر. جلست وأطياف المساء واشباحه تتجمع حول النافذة وتسرق النظر الينا في صمت، نحن الاثنين الوحيدين، والعاصفة تهدر في الخارج في تموجات مهيبـــة، وفي جلستي تلك أخذت أحس بمشاعر غريبة. أحسست شيئاً يذوب ويتهاوى في دخلة نفسي؛ لن أوجه بعد اليوم قلبي الممزق ويدي المجنونة ضد عالم المخلب والناب، فهذا المتوحش الذي ينشر الطمأنينة من حوله قد افتدى العالم . ها هو يجلس هناك وقلة اكتراثه بالاشياء تنبىء عن طبيعة لا يندس فيها نفـــاق الحضارة وخدعها المستعذبة . نعم هو وحشي المنبت، يحلو للمرء ان يراه، ولكني بدأت احس انني انجذب اليه على نحو غريب، والمغناطيس الذي يشدني نحوه هو تلك الامور التي تنفر منه معظم الآخرين ؛ وقلت لنفسي : سأجرب صداقة امرىء وثني بعـــد ان برهن اللطف المسيحي على انه تودد أجوف . وقرّبت مقعدي منـــه ورسمت بعض الاشارات والحركات الودية، باذلاً ما في وسعي من جهد لأتحدث اليه اثناء ذلك ؛ ولم يكترث هو بهذه البوادر الودية اول الامر، غير اني حالما أشرت الى كرم ضيافته في الليلة الماضية عانى صوغ عبارة يسألني فيها : هل سنكون رفيقي سرير مرة أخرى ؟ فأجبت أنْ نعم، وخيل اليّ انه استشعر الرضى او لعله ابدى ارتياحه بما عدّه تقديراً .

ثم أخذنا نقلب صفحات الكتاب معـــاً، وحاولت ان اشرح له الغاية من الطباعة ومعنى الصور القليلة التي احتواها الكتاب وسرعان ما أثرت اهتمامه، ومن ثم انتقلنا نهذرم، بأقصى ما نستطيع، حول المناظر الخارجية المتنوعة التي لا بد للمرء من ان يراها في هذه المدينة الشهيرة . وفي التوّ اقترحت عليه ان نشترك في التدخين فأخرج كدوسه وجرابه وعرض عليّ في هدوء أن اسحب انفاساً . وجلسنا نتبادل سحب الانفاس من ذلك الشّبك العجيب وجعلنـــاه يتنقل فيما بيننا في انتظام .

ان كان قد تسلل الى صدر ذلك الوثني شيء من جليد اللامبالاة نحوي فان هذه الانفاس الممتعة المؤنسة قد أذابت ذلك الجليد وجعلتنا خدنين، فقد ألفني على نحو طبيعي عفوي مثلما ألفته، وعندما انتهينا من التدخين ضغط جبينه على جبيني وطوقني عنـــد الخصر وقال : « منذ اليوم تمّ اقتراننا » ؛ وهذا يعني في لغة بني قومه اننا قد اصبحنا صديقين حميمين، وانه قد يقدم حياته من اجلي مغتبطاً اذا استدعى الامر ذلك . لو ان احد ابناء وطني بادهني هذه الوقدة المفاجئة من الصداقة لقلت ذاك تسرّع لا تحمد عقباه، ولأحطت حماسته المندفعة بالشك والريبة، غير ان هذه النظرة القديمة الى معنى الصداقة لا تنطبق على هذا المتوحش الساذج .

ذهبنا معاً الى الغرفة بعد تناول العشاء وتبادل الحديث الودّي والتدخين . فأهداني الرأس المحنط الذي لديه ثم استخرج كيس الطباق الكبير وتلمس باصابعه مـــا تحت الطباق ، واخرج ثلاثين دولاراً فضياً ونشرها على الطاولة وقسمها بالتساوي قسمين بطريقة آلية ، ودفع باحدهمـــا نحوي وقال : هذه حصتك . وكنت على ان اعترض الا أنه اسكتني حين سكبها في جيوب سروالي، فتركتها حيث اطمأنتْ . ثم قام يؤدي صلوات المساء فأخذ صنمه، وأزاح اللوح المغطى بالورق ، وظننت من بعض الاشارات والاعراض انه يرغب في ان اشاركه

صلواته ، ولمـــا كنت اعلم ما سوف يتلو فكرت لحظة : ترى اذا دعاني فهل اطاوعه او لا ؟

كنت مسيحياً متديناً ، ولدت ونشأت في احضان الكنيسة المشيخيـــة (البرسبتيرية) المعصومة . كيف اتحد مع هذا الوثني البدائي وأعبد قطعة من الخشب ؟ ولكني قلت لنفسي : ما هي العبادة ؟ اتظن يا اسماعيل ان الهك العظيم رب السماء والارض — رب الوثنيين وغيرهم — يمكن ان يغار من قطعة تافهة من الخشب الأسود ؟ مستحيل . لكن ما العبادة ؟ — الامتثال لارادة الله، تلك هي العبادة . وما هي ارادة الله ؟ ان اعمل لاخوتي بني الانسان ما أحب ان يعمله بنو الانسان من أجـــلي ، تلك هي ارادة الله . وكويكوج أخ لي في الانسانية فما الذي أرغب في أن يعمله من اجلي ؟ ان يؤدي العبادة معي على حسب المذهب المشيخي . اذن فعليّ ان اتحد معه . اذن فعليّ ان أصبح عابد صنم . لذلك اشعلت النشارة ونصبت الصنم الصغير البريء وقدمتُ اليه بسكويتاً محروقاً انا وكويكوج وانحنيت له بالسلام مرتين او ثلاثاً وقبّلت أنفه . وحين انتهينا من ذلك خلعنا ملابسنا وذهبنا الى السرير وقد اطمأن ضميرانا واصبحنا في سلام مع العالم كله . غير اننا لم نم قبل ان نتبادل قليلاً من الحديث .

ليس في الدنيا مكان للمكاشفة بالاسرار بين الاصدقاء مثل السرير، ولا ادري لمَ كان ذلك كذلك . يقولون ان الرجل وزوجه يفتح احدهما للآخر اعمـــاق روحه في السرير، وبعض الازواج الشيوخ كثيراً ما يستلقون ويتحدثون عن الايام الخوالي حتى الصباح . كذلك استلقيت انا وكويكوج في عرس قلبين، قرينين مطمئنين متحابين .

11

المنامة

اضطجعنا في السرير نـــثرثر، وتدركنا سنة قصيرة فنذوق النوم غراراً ثم نصحو، وبين الحين والحين كان كويكوج يطرح – في حنوّ – رجليه السمراوين الموشومتين فوق رجلي ثم يسحبهما. كنا على غاية من الالفة والانطلاق والطمأنينة. ومن حلاوة السمر انقشعت عن عيوننا اخيراً كل اثارة للنعاس، وشعرنا كأننا قد اخذنا قسطنا من النوم وصحونا، وان كان الصبح ما يزال نائياً عنا في الغيب.

نعم استكملت يقظتنا حتى بدأ الاضطجاع يبدو لنا متعباً، وقليلاً قليـــلا وجدنا انفسنا نجلس، والثياب مطوية من حولنا، وسندنا ظهرينا الى ظهر السرير وقد جعلنا ركبنا الاربع متقاربة في هيئة تشبه الحبوة، وانحنينا بحيث يتجـــه الانف نحو الركبتين كأنما النقرة بينهما مدفأة نستمد منها الحرارة. كنا نحس بعذوبة واسترخاء، وازداد احساسنا بذلك اذ كان البرد قارساً في الخارج، ولا بد انه كان قارساً في الداخل اذا نحن تجاوزنا ثياب النوم، فقد كانت الغرفة دون نار. اقول: ازداد احساسنا بذلك لان المرء ان شاء ان يستمتع بدفء الجسد فلا بد له من ان يدع جزءاً من جسمه عرضة للبرد، اذ ليس هناك من صفة في العالم تتخذ لها وجوداً متعيناً دون ان توضع موضع المفارقة لصفة اخرى. ليس هناك شيء قائم بذاته. اذا اوهمت نفسك انك مرتاح وانه قد مضى عليك وقت طويل وانت كذلك فاعلم ان صفة الراحة لم تعد تنطبق عليك. ولكن ان كنت مثلي ومثل كويكوج في السرير قد جعلت ارنبة انفك او يافوخك يحسّ بالبرد قليلاً فهناك تشعر شعوراً عاماً بانك في دفء ممتع حقيقي. لهذا السبب

يجب ان لا تزود غرفة النوم بالنار فهذا من عيوب الترف في حياة الاغنياء. اذ ان ذروة السرور في لذة الدفء هي ان لا يفصل بينك انت وما تهوّم فيه من جمام وبين برد الهواء في الخارج شيء سوى البطانية، عندئذ تستلقي كأنك قبس دافىء في جوف بلورة قطبية .

كنا قد اتخذنا هذه الحبوة بعض الوقت حين خطر لي فوراً ان افتح عيني ، ذلك انني ان كنت بين ملاءتي السرير، ليلاً او نهاراً، نائماً كنت او يقظان، فان من عادتي دائماً ان ابقي عيني مغمضتين لكيما استغرق في الشعور بالاسترخاء في السرير . وما من امرىء يستطيع ان يحس بهويته الحق الا وعيناه مغمضتان، كأنما الظلمة هي العنصر الذي يتكون منه جوهرنا، وان كان النور اكثر انسجاماً مع الطبيعة الطينية فينا . فلما فتحت عينيّ وخرجت من الظلمة الراضية التي خلقتها لنفسي الى ظلمة جاهمة مفروضة عليّ لا يتخللها ضياء في الثانية عشرة ليلاً أصابني انتكاس وبيل . ولذا أمّنتُ على اقتراح كويكوج بانه قد يكون من الخير ان نشعل المصباح ما دامت يقظتنا مستكملة ؛ ثم هو قد شعر برغبة لاهفة الى بضعة أنفاس هادئة من كدوسه . لقد أصابني نفور حاد في الليلة الماضية من تدخينه في السرير ولكن ألا ترون كيف يصبح الهوى العنيد المتصلب مرناً ليناً حين يحاول الحبّ ان يحنيه ؟ فأصبح أحب شيء اليّ ان أرى كويكوج يدخّن الى جانبي حتى ونحن في السرير لانه كان في تلك الحال يبدو في فرح عائلي لطيف. ولم أعدّ أبدي اهتماماً لا مسوّغ له بعقد التأمين الخاصّ بربّ النزل . وانما أصبحت أعنى بالطمأنينة المكتنزة الخاصة الناجمة عن مشاركة صديق صدوق في كدوسه وسريره . وتبادلنا الشبك فيما بيننا وقد طرحنا سترتينا الخشنتين على اكتافنا حتى انعقد فوقنا – في بطء – ظلة زرقاء من الدخان يتخللها ضوء المصباح الذي أشعلناه قبيل ذلك .

هل كانت تلك الظلة المتموجة هي التي طوّحت بذلك الانسان البدائي الى مشاهد الماضي ؟ لست أدري، غير انه تحدث عن وطنه، وكنت تواقاً الى سماع تاريخه، فرجوته ان يمضي في الحديث، فامتثل في سرور ورضى. حينئذ لم أحسن فهم كثير من كلماته الا ان ما أفضى اليّ به من بعد حين أصبحت اكثر ألفة بتعبيراته « المكسّرة » يجعلني الآن قادراً على ان أقدم قصّته كلها أياً كانت وقائعها في هذا الموجز الذي أسرده .

١٢ موجز سيرة

كان هذا الرجل من أبناء كوكوفوكو وهي جزيرة تقع الى الغرب والجنوب ، وليس لها على المصوّرات الجغرافية وجود فالأماكن الحقة لا تدرج على تلك المصورات أبداً .

وحين كان حديثَ الولادة يجري كأنه حيوان برّي في أرجاء الغابات وهو يخصف عليه تباناً من الحشيش ، فتتبعه المعزى قاضمة العشب عنه كأنه شجيرة خضراء ، في ذلك الحين تغلغلت في روحه الطمّاحة رغبة جياشة ليعرف عن دنيا المسيحية اكثر مما يستطيع ان يراه في أنموذج او اثنين من صيادي الحيتان . كان والده رئيساً كبير المقام، كان ملكاً، وكان عمه رأس الكهنة، وكان اذا ذكر النسب الامومي يستطيع ان يفخر بأن له خالات تزوجن محاربين باسلين لا يغلبون . كان الدم الذي يجري في عروقه ممتازاً — اذ كان ملوكياً ، وان كنت أخشى انه للأسف قلـّل من النسبة الملوكية فيه بنزوعه في شبابه الجاهل الى أكل لحوم البشر .

وذات يوم زارت سفينة قادمة من ميناء ساج [١] الخليج الواقع في مملكة ابيه ، وتلمس الشاب ان يسافر الى أرض مسيحية ، الا ان السفينة كانت مزودة بما يكفيها من بحارة ولذلك رَدّتْ طلبه بازدراء ، ولم ينجع نفوذ والده في تذليل ذلك الردّ، غير ان كويكوج أقسم أن يحقق ما تصبو اليه نفسه ، فدفع

---

١ قرية صغيرة على الساحل الجنوبي ، على مقربة من الطرف الشرقي من لونج آيلاند .

بزورقه وحيداً الى مضيق بعيد كان يعلم ان السفينة لا بد من ان تجتازه حين تغادر الجزيرة ، وكان على احد جانبيه حاجز مرجاني وعلى الجانب الثاني برزخ منخفض من الارض تغطيه غابات المنجروف التي تنمو وتترعرع في الماء ، فخبأ زورقه وهو عائم بين تلك الغابات جاعلاً مقدمته قِبَلَ البحر وجلس هو على كوثلة الزورق وقد أمسك بالمجذاف منخفضاً بيده ، فلما جاءت السفينة تنساب على الماء انطلق من مكمنه كالبرق الخاطف وتعلق بجانبها وركل بقدمه زورقه فقلبه رأساً على عقب وأغرقه ، وتسلق السلاسل ، ورمى نفسه مستجمعاً كل طاقته على ظهر السفينة ، وقبض على مزلاج حلقي هنالك وأقسم ان لا يفلته ولو قطعوه ارباً ارباً .

هدده القبطان بأنه سيقذف به في الماء ، فذهب تهديده سدى ، علق سيفَ بحّارٍ فوق معصميه العاريين، ولكن كويكوج — وهو ابن ملك — لم يطرف له جفن . وأعجب القبطان بهذه الجرأة المستيئسة وبرغبته الفذة في ان يزور دنيا المسيحية ، فلان شماسه اخيراً وأخبره انه يتقبله على الرحب والسعة . الا ان هذا الشاب المتوحش الاريب ، هذا الرجل الذي كان في بلده وريث عرش لم يرَ ابداً قمرة القبطان ، وانما وضعوه بين البحارة.وجعلوا منه صياد حيتان . ومثلما كان القيصر بطرس الاكبر راضياً ان يكدّ في أحواض السفن في مدن أجنبية[١]، كذلك كويكوج لم يأنف من كل ما قد يلحق به الهوان ، اذا هو استطاع بذلك ان يكسب القدرة على تنوير بني وطنه الاميين وتثقيفهم . وقد قال لي انه كانت تحدوه في أعماقه رغبة عميقة في ان يحرز بين المسيحيين تعلّم الفنون والوسائل التي تجعل قومه أسعد حالاً مما كانوا عليه ، بل يريد ان صحّ له ذلك

---

١ بطرس الاكبر (١٦٧٢ – ١٧٢٥) سافر متنكراً باسم بطرس ميخايلوف ودرس عدة فنون وعلوم في مدن ألمانيا وهولندة وقضى بضعة اشهر من عام ١٦٩٨ عاملاً في دار الصناعة بمدينة دبتفورد بانجلترا يتعلم بناء السفن ، كي يدخل فنون اوروبا الغربية وصناعاتها الى روسيا .

ان يجعلهم خيراً مما كانوا . لكن وا أسفاه ! فان تصرفات الصيادين أقنعته بأن المسيحيين قد يكون فيهم التعساء والاشرار وأنهم قـــد يتفوقون في تعاستهم وشرورهم على رعايا ابيه الوثنيين . واخيراً وصل مرفأ ساج ورأى ما يفعله البحارة هنالك ثم ذهب الى نانتوكت ورأى في اي الوجوه ينفقون اجورهم هنالك ايضاً ، وعندئذ قال كويكوج المسكين لنفسه : واضياعَ جهداه ! هذا عالم شرير اينما ولـّى الانسان وجهه . سأظل وثنياً حتى أقضي نحبي .

وهكذا عاش بين هؤلاء المسيحيين وتزيا بزيهم وانتحل رطانتهم وهو وثني عريق في أعماقه . وهذا هو وجه الغرابة في عاداته وان كان قد نأى عن وطنه منذ زمن .

وألحت اليه متسائلاً : لماذا لا يفكر في العودة الى بلده ليتوّج فيه ملكاً ، اذ هو قد يعد اباه في الموتى الفانين بعد ان أصبح شيخاً همّاً ضعيفاً . فأجابني بأنه لم يحن أوان ذلك بعد ، وأضاف يقول : انه يخشى ان تكون المسيحية – او اهلها بالاحرى – قد جعلوه غير ملائم لارتقاء عرش نقي خالص توارثه ثلاثون ملكاً وثنياً قبله . وقال : انه قد يعود مع الزمن حين يحسّ انه قـــد استعاد « العماد » الوثني مرة اخرى . اما هدفه قبل ذلك فهو ان يطوف مبحراً ، وان يبذر « زوانه » في المحيطات الاربعة جميعاً . لقد جعلوا منه حوّاتاً وأصبح رمح الصيد الشائك في يده بديلاً عن الصولجان .

وحين وقف الحديث عند ما يزمع ان يؤديه في المستقبـــل سألته ما الذي ينوي ان يفعله في الحاضر الراهن فوراً ؟ فأجابني بأنه عائد الى البحر آخذ في حرفته القديمة . عندئذ أخبرته ان صيد الحيتان هو هدفي أيضاً ، وأعلمته انني أنوي الابحار الى نانتوكت اذ هي خير ميناء يبحر منه الصياد المغامر ، أعني خير ميناء يعدُ بصيد وفير . فقرر حالاً ان يرافقني الى تلك الجزيرة وان

يسافر معي على نفس السفينة ، ونكون معاً في نوبة واحدة ، وقارب واحد ، وعلى مائدة واحدة . وبايجاز : سيشاركني في كل ما يقدّر لي، ويداي الاثنتان بين يديه ، وقد غمست الايدي معاً بجرأة في « وجبة » العالمين اللذين ننتمي اليهما. فوافقت على كل ما قاله وانا جذل فقد كنت أحمل له ودّاً ، وكان الى ذلك حوّاتاً مدرباً ، ومن كان مثله لم يعجز عن ان يكون ذا نفع عظيم لامرىء مثلي يجهل كل شيء عن اسرار صيد الحوت وان كان يعرف البحار معرفة الملاحين التجار .

وانتهت قصته عند آخر نفس اجتذبه من « الشبك » فعانقني وضغط جبهته على جبهتي وأطفأ النور ، فتباعدنا احدنا عن الآخر كل الى ناحية ، وارتمينا توّاً في أحضان النوم .

١٣ عربة يد

في صباح اليوم التالي – وهو يوم الاثنين – تخلصت من الرأس المحنط حين دفعته الى حلاق ليعرض عليه جمة من الشعر المستعار ، وبعد ذلك دفعت ما عليّ وما على صديقي من حساب مستغلاً النقود التي أعطانيها ذلك الصديق . ويبدو ان ربّ النزل والنزلاء جميعاً أحسّوا على نحو مدهش بالغيرة من هذه الصداقة المفاجئة التي نبتت بيني وبين كويكوج ، وخصوصاً وأن بطرس التابوتي – رب النزل – حكى لي عنه حكايات موغلة في الاسراف والغلوّ فأخافني من الشخص نفسه الذي أصبحت اليوم أرافقه .

استعرنا عربة يد ونقلنا اشياءنا وفيها حقيبتي القماشية البائسة وفيها من أمتعة كويكوج كيسه الخيشي وأرجوحة نومه ، ومضينا منحدرين الى «الطحلبة» تلك السفينة الصغيرة المثناة الشراع الراسية عند رصيف الميناء على أهبة الاقلاع الى نانتوكت . وبينا كنا سائرين كان الناس يحملقون فينا ، ولم تتجه انظارهم كثيراً الى رفيقي اذ تعودوا ان يروا متوحشين مثله في شوارع بلدهم ، وانما كانوا يحدقون لرؤيتنا انا واياه في صحبة وثيقة : غير انا لم نعرهم اهتماماً وظللنا ندفع العربة ، كل بدوره ، وكان كويكوج يقف بين الحين والحين ليسوّي الغمد على ريش رمحه . فسألته لمَ يحمل مثل هذا الشيء المزعج على الساحل ، أليست كل السفن المخصصة لصيد الحيتان مزودة بالرماح الصالحة للصيد ؟ فأجابني على هذا السؤال بما فحواه : ان ما ألمعت اليه حق تماماً ولكنه ذو مقة خاصة لرمحه اذ هو من مادة مضمونة مجرّبة في عديد المعارك وقد أصبحت قلوب الحيتان

مألفاً لسنانه . اي ان كويكوج – بعبارة موجزة – كان لاسباب خاصة يؤثر سلاحه مثلما ان الحصادين الذين يستأجرون للحصاد في حقول المزارعين يذهبون الى عملهم وقد حملوا معهم مناجلهم الخاصة بهم وان لم يكونوا مجبرين على ان يتزوّدوا بها .

واذ نقل العربة من يدي الى يده قصّ عليّ قصة مضحكة عن موقفه من أول عربة يدٍ شاهدها . كان ذلك في مرفأ « ساج » ويبدو ان أصحاب السفينة التي ركبها أعاروه عربة لكي ينقل فيها صندوقه الثقيل الى الفندق الذي ينزله؛ ومن اجل ألا يقال انه يجهل كيف يستعملها – والواقع انه كان على جهـــل تام بطريقة استعمالها – وضع صندوقه عليها وربطه ربطاً محكماً، ثم حمل العربة على منكبه ومضى يشق الرصيف . قلت له : « أوه يا كويكوج، أظن انك كنت تعرف خيراً مما فعلت ؛ ترى ألم يضحك الناس من ذلك ؟ »

فلما سمع ذلك مني حكى لي قصـــة اخرى . قال : ان الناس في جزيرة روكوفوكو يعصرون في حفلات الاعراس الماء العطر من أثمار جوز الهند الفتيّ في سقاء يقطيني مدهون يشبه الكأس الذي يصب فيه شراب البنش . وهـــذا الكأس – أو لنسمّه الرّفــد – يمثل دائماً واسطة العقد في الزينة على البساط الجدول حيث يقام الاحتفال . وذات يوم وقفت في ميناء روكوفوكو سفينة تجاريـــة كبيرة، ودعي قائدها الى عرس أخت كويكوج، وكانت اميرة جميلة يُزهف بها العمر نحو الحادية عشرة . وكان القبطان من أي وجه اعتبرته يعد سيداً جليل المظهر عارفاً بأصول اللياقة وآدابها، بما يليق بقبطان في سفينة . فلما اجتمع الضيوف جميعاً في كوخ العروس – وهو من البوص الهنديّ – دخـــل القبطان وقد خصص له مجلس الشرف، فجلس عند ذلك الرفد بين رأس الكهنة وجـــلالة الملك ، والد كويكوج ؛ وحين انتهوا من تقديم التحميد والدعاء، – فأولئك الناس يبدأون ايضاً بالتحميد وقد أخبرني كويكوج أنهم يفعلون

حينئذٍ خلاف ما نفعل، فنحن ننظر، اذ نردد أدعية الشكر، الى الصحاف المنشورة بين ايدينا، أما هم فيقلدون طيور البطّ، وتشرئب اعناقهم وأعينهم نحو الوهّاب العظيم الذي يمنحنا جميع الاعياد والاحتفالات — أقول : حين انتهوا من تقديم التحميد افتتح رأس الكهنة المائدة بالشعائر الخالدة التي عاشت عليها الجزيرة، أي بأن غمس اصابعه الميمونة التي تفيض البركة، في الرفد، قبل ان يدار العصير المبارك على الشاربين . ولما رأى القبطان أنه يجلس الى جنب رأس الكهان وبعينيه فعل ذلك الكاهن الأعلى ما فعل ، وظناً منه انه ما دام قبطاناً لسفينة فهو مقدّم على مَلكٍ لا يملك إلا جزيرة، وبخاصة وهو ضيف في دار الملك — أقول : لذلك تقدم ذلك القبطان — غير مبالٍ — وغسل يديه في ذلك الرفد ظاناً انه قدح كبير تغسل فيه الأيدي . وقال كويكوج : « تفتكر ماذا ؟ أما ضحك منه قومنا ؟ »

وأخيراً دفعنا أجرة السفر وأودعنا الامتعة ووقفنا على ظهر تلك الشانية، فنشرت شراعيها وانسابت على نهر آكشنت . وعلى احد الجانبين تجلت نيوبدفورد وقد امتدت شوارعها صفوفاً ، والاشجار التي يغطيها الثلج تتلألأ في الفضاء الصافي البارد، وقد كدست على أرصفتها تلال وجبال من براميل فوق براميل، وقد تلاصقت سفن صيد الحيتان التي تجوب العالم ووقفت صامتة بعد ان أرست سالمة هنالك في نهاية مطافها . بينا كان ينبعث من سفن اخرى أصوات النجارين وصانعي البراميل وقد اختلطت بضجيج النيران والأفران لإذابة القار، وكل ذلك ينبىء عن التأهب لرحلات جديدة . فما تنتهي أخطر سفرة وأطولها حتى تبدأ ثانية، وما تكاد تنتهي الثانية حتى تبدأ ثالثة وهلمّ جرّاً الى الابد . ذلك هو الدءوب الدائب، بل تلك هي الفداحة الباهظة، في كل السعي الانساني على الارض .

النسيم المنعش يزداد طلاقة وترويحاً عندما يحتضن بسيط الماء، و «الطحلبة»

الصغيرة تنثر الزبد المتسارع عن مقدمتها كما ينفث المهر الفتيّ أنفاسه . كيف كنت اتنفس ذلك الهواء الجهنمي ! ما أشد ما احتقر الارض ذات الحواجز والاتاوات والجوازات ! تلك الطريق العامة التي خدّدتها نعال العبودية وحوافرها ! وتحوّلتُ الى الاعجاب بعظمة البحر الذي لا تنطبع فيه آثار .

ويبدو ان كويكوج كان يرد موردي ويشرب من دنّ كدنيّ ويترنح مثلَ ترنّحي ، فقد تفاجّت فتحتا أنفه الأسمر وابتسم جذلان ابتسامة كشفت عن اسنانه المشحوذة المحددة . وطارت بنا السفينة ، وكسب عرض البحر الجولة، وأدت « الطحلبة » شعائر الولاء لهينمة الريح، فانحنت اجلالاً وانغمرت مقدمتها كأنها عبد بين يدي سلطان ؛ وكلما مالت الى جانب انبعثنا نميل معها، وكل كرّ من كرورها يجلجل كأنه سلك معدني، والصاريان الطويلان ينكبّان كأنهما قصبتان هنديتان في وجه إعصار برّي . وانهمكنا في هذا المشهد المترنح حين كنا واقفين امام الدقل المائل الغاطس، حتى لقد مرّ علينا وقت لم نلحظ فيه النظرات الساخرة التي كان يسددها الينا المسافرون وهم مجموعة من الحمقى تعجبوا من ان يكون اثنان من الناس على مثل هذه الصحبة، كأن الرجل الابيض شيء أرفع من الزنجي الذي فقد البياض . لكن كان هناك بعض الحمقى والمتغطرسين تدل صفرتهم الشاحبة على أنهم جاءوا من قلب الضغينة ومن سويداء الغيرة . وفاجأ كويكوج احد هؤلاء الأيفاع الأغرار وهو يحاكيه ساخراً من وراء ظهره . وظننت ان ساعة ذلك المتغطرس قد دنت، فقد نحّى ذلك المتوحش المفتول الساعد رمحه، وأمسك بالفتى من ذراعيه وطوّح به في رشاقة وقوة خارقة في الفضاء، ثم ضربه على كفله في انقلابة، فأرسى على قدميه، وصدره يكاد ان ينشق، وأدار كويكوج ظهره غير مكترث وأشعل كدوسه ودفعه اليّ لاسحب منه نفساً .

فصرخ المتغطرس وهو يجري نحو الضابط : « كبتان ! كبتان ... هــــذا

شيطان، وصاح القبطان، وهو ضلع عجفاء، فيما هو يمشي في خيلاء نحو كويكوج: « انت . هناك . بحق الشياطين ماذا تعني بذلك ؟ ألا تدري انك قد تقتل الفتى ؟ »

فقال كويكوج وهو يلتفت نحوي بلطف : « هو ، يقول ماذا ؟ » قلت : « يقول لك انك كدت تقتل — هو » وأشرت الى ذلك الغر المرتعد .

فصرخ كويكوج وهو يلوي قسماته الموشومة في تعبير من الازدراء غريب : « انا أقتل هو — سمكة هو صغيرة !! ان كويكوج يقتل — هُ — حوتاً كبيراً ».

فزأر القبطان يقول : « انا أقتلوك يا آكل لحوم البشر إذ انت قمت باحدى حيلك ها هنا على هذه السفينة . فاحذر ثم احذر » .

في تلك اللحظة آن الاوان لكي يكون القبطان نفسه على حذر ؛ ذلك ان الضغط الهائل على الشراع الاكبر قد فصل الحبل الذي يضبط زاوية الشراع ، وأخذت السارية الكبرى التي بها تمتد قاعدة الشراع — ولنسمّها المشحان — تتأرجح من جانب الى جانب وتكنس في حركتها الجزء الخلفي من ظهر السفينة . اما المسكين الذي عَنَّفَ عليه كويكوج فقد اكتسحته وألقته في البحر . وعقل الخوف الايدي جميعاً عن الحركة ، ولو حاولت يد ان تمتد الى السارية لتثبتها لكان ذلك هو الحمق عينه . فقد كانت تطير يمنة ويسرة وتعود ثانية في أقل من رجع البصر وفي كل لحظة تكاد تتطاير الى شظايا . فلم يعمل احد شيئاً ولم يبدُ ان شيئاً يمكن ان يعمل . اما الذين على الظهر فاندفعوا نحو المقدمة ووقفوا يرقبون السارية — المشحان — كأنها الفك الاسفل من حوت محنق يستشيط غضباً . وفي غمرة هذا الفزع المشلول انحنى كويكوج برشاقة على ركبتيه ، وزحف تحت متأرجَح السارية ، وأمسك بحبل ، وأوثق أحد طرفيه

الى الجانب الواقع فوق ظهر السفينة ، ثم قذف الطرف الثاني كأنه انشوطة ، وأعلقه حول السارية وهي تتأرجح فوق رأسه ، وفي الهزة التالية اعلق السارية نفسها وثبّتها ، وبذلك سلم كل شيء . واندفعت الشانية مع الريح ، وبينا كانت الايدي تعالج القارب في المؤخرة ، نزع كويكوج ثيابه حتى الخصر ، ووثب من الجانب وثبة متقوسة حيوية طويلة . وظللنا نراه مدة ثلاث دقائق او اكثر وهو يسبح كأنه كلب ، يلقي ذراعيه الطويلتين على استقامة أمامه ، وأحياناً يبرز كتفيه المفتولين من خلال الزبد الذي يجمد الاطراف . ونظرت الى ذلك الرفيق العظيم الرائع فلم أرَ شخصاً يتطلب انقاذاً . لان ذلك الفتى الغرّ كان قد انحدر الى الاعماق . غير ان كويكوج انطلق عمودياً من خلال الماء ولمح ما حوله في لحظة ، ثم — كأنما عرف الامور على حقيقتها — غاص واختفى عن الانظار . وبعد بضع دقائق ظهر ثانية وإحدى ذراعيه تضرب الماء والاخرى تجرّ شيئاً لا حياة فيه . فالتقطهما القارب حالاً ، واستعيد المتغطرس المسكين ، وصفقت الايدي جميعاً تحيي كويكوج ، وسأله القبطان المغفرة ؛ ومنذ تلك الساعة التصقت به كأنني محارة ، الى ان غاص كويكوج المسكين آخر غوصة طويلة .

أهناك مثل انكاره للذات ؟ لم يتصوّر انه يستحق نيشاناً من الجمعيات الانسانية العظيمة . لم يطلب شيئاً سوى الماء — الماء القراح — حتى يزيل عنه الملوحة ؛ واذ فعل ذلك لبس ثياباً جافة وأشعل كدوسه وأسند ظهره الى جدار السفينة ونظر الى من حوله في دماثة وكأنه يقول لنفسه : « هذا عالم مشترك يتبادل الناس التعاون في كل بقعة من بقاعه ؛ ونحن المتوحشين أكلة لحوم البشر لا بد من ان نساعد هؤلاء المسيحيين » .

١٤ نانتوكت[1]

لم يحدث في السفرة شيء آخر يستحق ان يذكر وهكذا وصلنا نانتوكت سالمين بعد جري ٍ جميل .

نانتوكت ! خذ خريطتك وانظر اليها . تأمل اي بقعة تحتلها في هذه الارض وكيف تقع ، حيث تقع ، بعيدة عن الشاطىء ، متوحدة اكثر من فنار اديستون . انظر اليها — ما هي الا كثيب رمل او حِقْف ، كلها شاطىء ليس وراءه ارض . فيها من الرمل اكثر مما قد تستعمله في خلال عشرين سنة بديلاً عن ورق النشاف . ولو حدثك عنها بعض الظرفاء المغامرين لأخبروك انهم يزرعون العشب نفسه فيها لانه لا ينبت وحده برياً وانهم يستوردون اشواك كندا ، وانهم يبعثون الى ما وراء البحار في طلب سدادة يمنعون بها تسرب الزيت من برميل ، وان قطع الخشب في نانتوكت تحمل وتنقل كأنها شظايا من الصليب الحقيقي بروما . وان الناس هناك يزرعون « الفطر » امام بيوتهم لكي يجلسوا في ظله إبان القيظ ، وان سنبلة واحدة من النبات تكوّن واحة ، وثلاث سنابل تنبت على مدى مسيرة يوم تمثل سهوباً شاسعة ، وانهم يلبسون احذية للمشي في الرمل المهيل كتلك التي يستعملها اهل لابلاند للمشي على الثلج وأنهم محاطٌ بهم مطوّقون محصورون من كل وجه معزولون قد جعل

---

١ جزيرة تقع على بعد ٢٧ ميلاً الى الجنوب من رأس كد ، واكبر مدنها تسمى نانتوكت .

المحيط بلدهم جزيرة محضاً حتى انهم ليجدون البزّاق عالقاً بكراسيهم وموائدهم كما يعلق بظهور السلاحف البحرية . الا ان هذه الشطحات لا تدل الا على ان نانتوكت ليست هي إلينوي .

تأمل هذه القصة المأثورة العجيبة عن استيطان الرجال الحمر لهذه الجزيرة . تقول الاسطورة : في سالف الازمان خات نسر على ساحل نيوانجلند وطار يحمل وليداً هندياً في مخالبه . وأعول الوالدان وهما يريان طفلها وقد غاب عن انظارهما فوق الامواه المترامية فعزما على اللحاق به في الاتجاه نفسه ، وأبحرا في زورقيهما وبعد سفرة خطيرة استكشفا الجزيرة ، وهناك وجدا علبة عاجية صغيرة ، وما كانت سوى هيكل الوليد الهنديّ المسكين .

أي عجب ، وأهل نانتوكت يولدون على الشاطىء ، في ان يألفوا البحر مصدراً لعيشهم . كانوا اول الامر يجمعون السرطان من الرمل ، فلما اشتدت جرأتهم خاضوا الماء بشباكهم بحثاً عن سمك المقريل ، فلما ان شبّت دربتهم انطلقوا في قواربهم يصيدون البكلاه (سمك القد) . وأخيراً أنزلوا في الماء اسطولاً من السفن التجارية الكبرى واستكشفوا العالم المائي ، وطوقوه بنطاق من الملاحة ، وأطلّوا على مضايق برنج؛ وفي كل فصل وفي المحيطات جميعاً شنوا حرباً أبـــدية على اكبر جرم حافل بالحيوية ، تخلف بعد انحسار الطوفان ، اشدها هولاً واكثرها ضخامة اعني ذلك الجبار كأنه هملايا ، ذلك الماموث الذي يعيش في البحر الملح ، ويكسوه شؤم قوة خفية ، حتى ان الهلع الذي ينشره ، يخشى اكثر مما تخشى هجماته الجريئة الحاقدة .

هكذا جاب أهل نانتوكت العراة ، ‹نسّاك البحر ، العالمَ المائي وفتحوه، صادرين من جرثومة النمل التي يسمونها جزيرة ، وكأن كل واحد فيهم هو الاسكندر الكبير . وجزأوا بينهم الاطلسي والهادي والهندي مثلما اقتسمت

بولندة ثلاث[*] من قوى القراصنة . اذا شاءت امريكا ان تضيف المكسيك الى تكساس وان تكدس كوبا فوق كندا فلتفعل ، وليحتشد الانجليز في طول الهند وعرضها مكاثرين اهلها عدداً ، وليركزوا علمهم الشهير على قرص الشمس . غير ان ثلثي هذه المعمورة المؤلفة من بر وبحر من نصيب ابن نانتوكت ، لان البحر منها هو نصيبه ، فهو يتملكه مثلما يحرز الاباطرة امبراطورياتهم ، وليس للبحارة الآخرين من حق فيه الا العبور . وما السفن التجارية الا جسور[*] ومعابر ، وما الحربية منها الا قلاع عائمة وقد يذهب القراصنة وقباطنة السفن الخاصة في مسالك البحر كما يفعل قطاع الطرق على البر ولكنهم لا ينهبون الا سفناً ليست لاهل نانتوكت ولا يقتطعون الا اجزاء اخرى من الارض دون أن يحاولوا استمداد عيشهم من أغوار الماء العميق . الا ابن نانتوكت وحده فانه هو الذي يقطن البحر ويقيم المآدب والحفلات فوق مياهه ، هو وحده على حد قول التوراة : « يـــنزل اليه في سفن »[1] ، ويفلحه ذهاباً واياباً كأنه مزرعته الخاصة ، فيه بيته ، وفيه موطن عمله ، وعمله دائب لا يوقفه طوفان كطوفان نوح ، ولو كان طوفاناً يكتسح كل الملايين في الصين . هو يعيش في البحر كما تعيش ديوك السهوب في السهوب ؛ يختبىء بين الامواج ويتسلقها كما يتسلق صيادو الاروى جبال الالب . تمضي عليه سنوات لا يعرف فيها البرّ ، فاذا نزل على البر اخيراً وجد فيه رائحة عالم آخر ، اغرب من القمر في نظر ابن الارض . ابن نانتوكت كطيور النورس التي لا برّ لها ، تطوي جناحيها عند الغروب وتهدهد نفسها للنوم بين الامواج . وهو عندما يجنه الليل نائياً عن البرّ يلف أشرعته ويخلد الى الراحة وتحت وسادته نفسها تندفع قطعان من الفظّ والحيتان .

---

١ من المزامير ١٠٧ : ٢٣ - ٢٤ « النازلون الى البحر في السفن العاملون عملاً في المياه الكثيرة ، هم رأوا اعمال الرب وعجائبه في العمق » .

١٥ الشودر

كان المساء قد أظلّ حين أرست « الطحلبة » الصغيرة في هوادة، ونزلتُ انا وكويكوج الى الشاطىء، ولم نكن نستطيع في تلك الساعة المتأخرة ان ننجز عملاً سوى ان نبحث عن عشاء ونزل . وكان صاحب حان النفاث قد أوصى بنا ابن عمه هوسيا هسي (آل السليط) من عائلة « القدور المجرّبة »[١]، وأكّد لنا انه صاحب فندق من أحسن الفنادق في نانتوكت كلها، واضاف يقول : ان ابن العم هوسيا مشهور بأطباق الشودر . اي انه بايجاز ألمح الينا ان خير ما نفعله هو ان نجرّب وجبةً عند عائلة « القدور المجرّبة » . ولكنه حين وصف لنا كيف نهتدي الى الفندق قال : إجعل على يمينك مستودعاً اصفر اللون حتى تواجه كنيسة بيضاء على اليسار، واجعل الكنيسة على اليسار حتى تنعطف نحو اليمين بعد ثلاثة منعطفات، فاذا فعلت ذلك فاسأل اول رجل تلقاه عن ذلك المكان — وحين تذكرنا هذه التعليمات الملتوية حيرتنا بادىء الأمر، وبخاصة وان كويكوج أصرّ على ان المستودع الاصفر، وهو بداية انطلاقنا، لا بد ان يكون على اليسار، بينا فهمت انا من بطرس التابوتي أنه على اليمين . مهما يكن من شيء أخذنا نخبط في الظلام، وبين الحين والحين نطرق باب امرىء آمن مطمئن لنسأله عن الطريق حتى وصلنا اخيراً الى شيء لا مدبّ فيه للخطأ .

---

١ الاصح ان يقال « قدور التصفية » Try-Pots ، وانما آثرت شيئاً من المباينة للاصل رجاء الايحاء بالقدرة على الطبخ .

فقد رأينا امام الباب العتيق قدرين ضخمتين من الخشب مدهونتين باللون الأسود، معلقتين من أذنين كآذان الحمار، وتتدليان من ساريتين افقيتين مسمرتين على دقل كبير مغروز امام ذلك الباب. وقد نشر قرنا تينك الساريتين من الجانب غير المواجه حتى بدا ذلك الدقل غير بعيد الشبه بالمشنقة؛ ولعلّني كنت حينئذ مسرفاً في التقاط الانطباعات التي تأدت اليّ من ذلك المنظر، ولكني لم أملك ان أحدق في تلك المشنقة إلا وأنا استشعر ريبة غامضة، وأحسست في عنقي بشيء من التصلب وأنا أحدق في القرنين اللذين لم ينشرا. نعم هما اثنان؛ واحد لي وواحد لرفيقي، وقلت لنفسي: هذا كله نذير شؤم يقتفي خطواتي: حين نزلت في اول ميناء للصيد كان صاحب النزل الذي حللت فيه تابوتيًا. وفي معبد الصيادين كانت شواهد القبور تحدد النظر في وجهي. وها هنا مشنقة! وهذان زوجان من القدور السود الضخام! أتراهما يلمحان تلميحاً مواربا الى درك الجحيم السفليّ!

استردني من التهويم في هذه الافكار منظر امرأة كلفاء، ذات شعر أصفر وعباءة صفراء، واقفة في دهليز الفندق تحت مصباح بليد أحمر متأرجح يبدو شبيهاً بعينٍ مطروفة، وقد اشتبكت مع رجل ذي قميص صوفي ارجواني في سباب طريف. كانت تقول للرجل: «انصرف وإلا ... عفرت الارض بك». فقلت: «هيا يا كويكوج. قد وصلنا، فتلك هي زوجة السيد هسي».

وكذلك كانت، اذ ان السيد هوسيا «السليط» كان قد سافر، وترك لزوجته ان تشرف بما لديها من كفاية تامة على كل اعماله. وعندما أعلنا عن رغبتنا في العشاء والمنام أرجأت زوجة «السليط» أمر السباب مؤقتاً وأدخلتنا الى غرفة صغيّرة، وأشارت الينا بالجلوس الى مائدة تناثرت فوقها بقايا وجبة استهلكت قبيل قليل، ثم استدارت نحونا وقالت: «بكلاه او حلزون؟»

فقلت في أدب جم: «ما شأن البكلاه يا ستي؟»

فرددت : « بكلاه او حلزون ؟ »

فقلت : «حلزون للعشاء ؟ وبارد ايضاً أهذا ما تعنينه؟ ولكن هذا استقبال فاتر حلزوني في وقت الشتاء . أليس كذلك يا مسز « سليط » ؟ »

ولكن لما كانت في عجلة تودّ ان تستأنف شتم الرجل ذي القميص الارجواني، وكان هو ينتظر استئناف ذلك في المدخل، ولما لم تسمع من كلماتي شيئاً سوى لفظة « حلزون » أسرعت نحو باب مفتوح يؤدي الى المطبخ وصرخت : « حلزون لاثنين » واختفت عن انظارنا .

فقلت : « كويكوج، هل تظن اننا الاثنين نستطيع ان نكتفي في عشائنا بمحارة واحدة ؟ »

وانطلق من المطبخ بخار دافىء لذيذ الشذا كذّب ما حسبناه رجاءً خائباً، وعندما حضر الشودر يعلوه البخار انحلّ اللغز بما تطيب له النفس . أصيخوا اليّ يا أحبتي ! كان ذلك الطبق مصنوعاً من حلزون صغير غضّ، لا تكاد الواحدة منه تتجاوز حبة البندق، وقد مزج ببسكويت السفن مسحوقاً، وشرائح من لحم الخنزير رقيقة مملحة، وقد غذي كل ذلك بالزبدة، وأُدم بقدر سخيّ من الفلفل والملح . وكانت الرحلة البرود قد شحذت شهوتنا للأكل، وخاصة كويكوج حين رأى طعامه البحريّ الأثير أمامه، والشودر متقن غاية في ذلك ؛ فالتهمنا ما بين أيدينا بسرعة فائقة . وحين سندت ظهري لحظة وفكرت في ما صاحت بـــه زوجة « السليط » وهي تعلن للطباخين ما يجلبونه للنزلاء من بكلاه او حلزون قلت : سأقـــوم بتجربة صغيرة، فتقدمت الى باب المطبخ وقلت : « بكلاه » بصوت جهوري، وعدت الى المائدة . فانبعث البخار اللذيذ مرة اخرى في بضع لحظات الا أنه كان ذا شذا مباين للاول، وفي وقت غير طويل وضع أمامنا طبق من شودر البكلاه .

استأنفنا الجدّ ؛ وفيما كنا نجيل الملاعق في صينية الطعام، قلت لنفسي: أتراه يؤثر في الرأس . وإلا فلماذا جرى ذلك الوصف العيّاب عن ناس يقال فيهم : هؤلاء ذوو رءوس شودرية ؟ « انظر يا كويكوج أليس ذاك الذي في صحنك أنكليس ُحيّ ؟ أين رمحك ؟ »

كان فندق « القدور المجرّبة » أشد المحلات التي تقدم السمك امعاناً في « السمكية »، وبحق ما استحق تلك التسمية، اذ كانت القدور دائماً تقرقر بالشودر . فهو طعام الفطور وطعام الغداء وطعام العشاء، حتى ليبدأ المرء المقيم هنالك يتحسس حسك السمك خارجاً من ثيابه . وأمام الدار باحة قد رصفت بصدف الحلزون . ثم إن زوجة « السليط » تلبس عقداً مصقولاً من فقرات سمك البكلاه ، وزوجها يحتفظ بسجل حساباته مجلداً بجلد قرش فاخر عتيق . حتى الحليب له نكهة السمك ؛ ولم أستطع ان أفسّر ذلك الا حين قمت بجولة ذات صباح على الشاطىء بين قوارب بعض الصيادين ورأيت بقرة هوسيا المخططة تتغذى على قمامة من بقايا السمك، وكانت تسير على الرمل وقد علق في كل حافر من حوافرها رأس سمكة البكلاه وانا أؤكد لكم انها كانت تبدو محذوّة منتعلة .

ختمنا العشاء فتسلمنا مصباحاً وقدّمت لنا زوجة « السليط » كل التعليمات المتعلقة بأقصر طريق تبلغنا غرفة النوم . ولكن بينما كان كويكوج يتأهب ليتقدمني صاعداً الدرج مدت السيدة اليه يدها وطلبت اليه ان يسلمها رمحه، اذ ان إدخال الرمح الى احدى الغرف أمر غير مسموح به . فقلت لها: «ولمَ لا؟ كل حوّات عريق ينام والى جانبه رمحه . لمَ لا ؟ » فقالت: « لان ذلك خطر . منذ ان عاد استجز الشاب من رحلته التعيسة وليس معه إلا اربعة براميل من الجمة بعد ان غاب اربع سنوات ونصف سنة، ووجد ميتاً في الطابق الاول الخلفي ورمحه الى جانبه – منذ ذلك الحين لا أسمح للنزلاء ان يأخذوا هذه الاسلحة

الخطيرة الى غرفهم ليلاً ؛ وعلى هذا يا سيد كويكوج (وكانت قد حفظت اسمه) سآخذ هذه الحديدة منك واحتفظ لك بها حتى الصباح. ولكن أي شودر تريدان في فطور الغد ؟ البكلاه ام الحلزون ؟»

قلت : « كليهما، وليكن مع ذلك على سبيل التنويع زوجان من سمك الرنجة المدخّن » .

١٦ السفينة

في السرير تدبرنا خططنا من أجل غد ولكن ثار عَجَبي وقسط غير قليل من اهتمامي حين أعلمني كويكوج بأنه قد كان مثابراً على استشارة يوجو [١] — إلهه الاسود الصغير — وان يوجو أخبره مرتين او ثلاثاً، وأصرّ عليه في كل مرة اصراراً شديداً ، بأن لا نذهب سوية بين أسطول الصيد في الميناء لنختار معاً السفينة التي نبحر عليها، اقول : ان يوجو نبه في حرارة واخلاص الى ان اختيار السفينة يجب ان يكون منوطاً بي وحدي ، ان شئنا ان يظلّ يوجو مقيماً على رعايتنا ، ومن اجل ذلك وقع اختيار يوجو على سفينة ، لو تركت انا اسماعيل لشأني لوقع عليها اختياري دون خطأ ، كأن الحظ هو الذي قدّر ان تكون من نصيبي ، وعليّ ان ابحر في تلـــك السفينة على الفور ، بصرف النظر في الحال الراهنة عن كويكوج .

نسيت ان اذكر ان كويكوج كان في أمور عديدة يضع ثقة كبيرة في براعة يوجو وحسن تقديراته ، وتنبؤاته المدهشة، وأنه كان يحبوه إعظاماً بالغاً ويرى فيه إلهاً طيباً حسن النوايا على الجملة ، وان لم تكن خططه الخيّرة ناجحة دائماً .

ولما كانت خطة كويكوج هذه ، او قل خطة يوجو ، تمس اختيار السفينة

---

١ يذكر اسمه بلفظة ياجوج ولكن لعلّ ملفل لم يطلع على هذا ، واختار اسماً مقارباً لما يعرفه من اسماء في البحار الجنوبية .

التي نبحر عليها وجدتني أواجهها بشيء من التكرّه . نعم انا لم اعتمد اي اعتماد على حكمة كويكوج لكي يدلّ علي خير سفينة تحملنا وتحمل مقدّراتنا في أمان . ولكن حين تبددت جميع اعتراضاتي فلم تحرك شيئاً في كويكوج اضطررت الى التسليم ؛ وعلى ذلك تأهبت للشروع في هذا العمل بطاقة وقوة مندفعة حاسمة لكي أسوّي ذلك الامر الصغير التافه على عجل . وفي صباح اليوم التالي خلفت كويكوج مع يوجو قابعين في غرفة نومنا الصغيرة ، اذ يبدو ان ذلك اليوم كان عندهما رمضان او يوم صيام وخشوع وصلاة . كيف كان كويكوج يؤدي هذه الشعائر ? ذلك سرّ لم استطع استكشافه فاني وان كنت حاولت ممارستها مرات عديـــدة لم استطع ان أُحكم صلواته ولا بنودها التسعة والثلاثين . تركت كويكوج صائماً وكدوسه بين شفتيه ، ويوجو يدفىء نفسه على نار النشارة القربانية ، وذهبت في جولة بين السفن . وبعد تجوال طويل واستفسارات عارضة علمت ان هناك ثلاث سفن مزمعة على رحـــلة تستغرق ثـــلاث سنوات : وهي « زوجة الشيطان » و « اللقمة السائغة » و « الباقوطة »[1] . اما الاولى فلست ادري من اين جاء اسمها واما الثانية فاسمها واضح واما الباقوطة فانتم تذكرون دون ريب انه اسم قبيلة مشهورة من هنود مساشوستس انقرضت كما انقرض الميـــديون . أمعنت النظر في « زوجة الشيطان » وتفحصتها متطلعاً ثم قفزت منها الى « اللقمة السائغة » واخيراً وصلت ظهر « الباقوطة » وتأملتها لحظة وقرّرت اخيراً انها هي السفينة التي نريدها .

لعلك رأيت في زمانـــك كثيراً من السفن الفارهة الانيقة ؛ لعلك رأيت ذوات الاشرعة المربعة ، والينكات اليابانية كأنها الاطواد ، والجليوت الهولندية التي تشبه البط الامريكي ، وغيرها ، ولكن صدقني ان قلت لك انك لم ترَ سفينة

---

[1] Pequod

قديمة نادرة المثال كالباقوطة ، تلك السفينة العتيقة التي يعز وجود مثلها حقاً . كانت سفينة من الطراز القديم اقرب الى الصغر ، تحمل ملامح الخطّاف ذي الطراز العتيق ؛ طال تمرسها وتقلب الجوّ بها بين عاصف وساكن في المحيطات الاربعة، فاسودّت سحنة هيكلها كأنها جندي فرنسي حارب في مصر وسيبريا على السواء . وتبدو مقدمتها الجليلة وكأنها قد التحت . فقدت صواريها الاصلية في احدى العواصف وركبت لها صوار جديدة قطعت من موضع على ساحل اليابان ، وانتصبت كأنها أصلاب ملوك كولون الثلاثة القدماء [1]. اما ظهرها فقد بلي وتغضن كأنه الحجر الذي نهكته ايـــدي الحجاج الذين يؤمّون كنيسة كانتربري حيث لقي توماس بيكت مصرعه . غير انه أضيف الى هذه العناصر القديمة فيها ملامح جديدة مدهشة تتصل بذلك العمل الفذ الذي اضطلعت به نصف قرن او يزيد ، ويعزى كثير من هذه الترميمات والتحسينات الى فالج القبطان العجوز الذي ظلّ يدير شئونها سنوات عديدة قبل ان ينتقل الى قيادة سفينة يملكها وقبل ان يصبح اليوم بحاراً متقاعداً وواحـــداً من اصحاب الباقوطة . فان فالج هذا في اثناء رئاسته قد بنى فوق المظاهر الاصيلة العجيبة ورصعها بأناقة في المادة والرسم لا يلحق بها شيء إلا الدرع الخارجي المنقوش او القاع في سفينة ثوركل هيك . فكساها كأنها امبراطور حبشي اثقلت عنقـــه زخارف ثقيلة مدلاة من العاج المصقول ، وجاءت كأنها نصب تذكاري . سفينة في صورة انسان بدائي مستوحش زين نفسه بعظام منقوشة استلّها من أجسام اعدائه . وأما جوانبها المفتوحـــة غير المُفَرْوَزَة فوق الظهر العلويّ فقد زينت ، كأنها فك واحد مديد ، بأنياب حوت العنبر الحادة ، وقد زجت الانياب هنالك بدلاً من المسامير لكي تشد اعضادها وأمراسها . وهذه الامراس لا تخترق خشباً وانما تمرّ برشاقة عن بكرات من عاج البحر . اما عنـــد دفتها الرزينة فانها بدلاً من ان تتواضع فتتخذ عجلاً دواراً ركزت هنالك نخلاً ،

---

[1] المجوس الثلاثة الذين أتوا بالهدايا الى عيسى في مهده ، قيل انهم مدفونون في كولون .

جعلته كتلة واحدة منحوتة نحتاً عجيباً من فك عدوها اللدود، ذلك الفك السفلي المستدق الطويل . فكان القيمُ على الدفة اذا وجهها في عاصفة أحس كأنه تترى يكبح جواده المنطلق بإمساكه من فكه . سفينة كريمة الا أنها صورة للكآبة وكل شيء كريم ففيه مسحة من الاسى الكئيب .

وعندما أجلت طرفي خلف الدقل الاعظم على الربعة المؤخرة من السفينة بحثاً عن مسئول لكي أقيّد اسمي بين المشتركين في الرحلة لم أرَ في بادىء الامر احداً ، ولكن بصري لم يستطع ان يتجاوز شيئاً منصوباً كالعريش او الكوخ الهندي على مسافة يسيرة خلف الصاري الرئيس . وبدا لي انه ليس سوى مثابة مؤقتة تستخدم في الميناء. كان مخروطيّ الشكل يبلغ ارتفاعه زهاء عشرة اقدام ويتألف من صفائح طويلة ضخمة من العظم الاسود اللدن اخذت من الاجزاء الوسطى والعليا في فكي الحوت الأثين، وقـــد غرست بحيث وقعت نهاياتها المستعرضة على ظهر السفينة ، وسلكت دائرة من هذه الصفائح معاً ، وانحدرت احداها نحو الاخرى في تبادل ، ثم ضمت عند الذروة في نقطة مقنزعة حيث الالياف المسترسلة المكسوة بالشعر تتموّج جيئة وذهوباً كأنها العقدة العليا على رأس الشيخ المسنّ رئيس قبيلة بوتوتامي . وتنفتح في مواجهة مقدم السفينة فتحة مثلثة الشكل حتى ان من كان في داخلها يستطيع ان يشرف على المنظر كاملاً أمامه .

وبعد لأي وجدت واحداً منزوياً بعض انزواء في هذا العريش الغريب ؛ وأوحى لي منظره انه رجل مسئول ، وانه كان يستمتع وقت الظهيرة، حين يتوقف العمل في السفينة ، بالارتياح من عبء الامر والنهي . كان جالساً على كرسي قديم الطراز من خشب البلوط غطي بمنعرجات من الزخارف ، وقاعدته مصنوعة من ضفائر قوية من نفس المادة المرنة التي صنع منها العريش .

ربما لم يكن في مظهر ذلك الرجل المسنّ شيء متميز . كان أسمر مفتول

الساعدين كغيره من قدامى البحارة ، وقد أثقل جسمه بما لفـّه حوله من قماش البحارة الازرق وفصله على طراز الكويكريين ، الا ان شبكة من الغضون الدقيقة جميلة صغيرة كانت تتشابك حول عينيه ، ولعلها من آثار إبحاره المستمر في عواصف جائحة قاسية ، كان هو في اثنائها يتطلع نحو مهب الريح ، وهـذا يجعل العضلات حول العينين تنكمش وتتقلص . ومثل هذه التجعدات ذو أثر كبير في من كان عبوساً متجهماً .

قلت وقد تقدمت الى باب العريش : « أأمامي قبطان الباقوطة ؟ » فأجاب:

– هب انه قبطان الباقوطة فما تريد منه ؟

– كنت أفكر ان أبحر .

– كنت ! أحقاً كنت ! ارى انك لست من اهل نانتوكت – هل اتفق ان سافرت على سفينة مخروقة ؟

– أبداً يا سيدي .

– اذن – أجرؤ على ان أقول انك لا تعرف شيئاً عن صيد الحيتان .

– لا شيء يا سيدي ولكن لا شك في انـــني سأتعلم في وقت قصير . لقد سافرت عدة سفرات في الخدمة التجارية، واظن . . .

– الخدمة التـّجارية عليها اللعنة ! لا تكلمني بهذه اللهجة . أترى تلك الرجل ؟ سأنزع تلك الرجل من قفاك اذا تكلمت اليّ عن الخدمة التـّجارية مرة اخرى . يا سلام على الخدمة التـّجارية ! اظنك تحس بالخيلاء لانك خدمت في سفن التـّجارة . اغرب يا رجل عن وجهي . ما الذي تريده من صيد الحيتان ؟

أمرك مريب . أليس كذلك ؟ لم تكن في حياتك قرصاناً، هل كنت ؟ لم تسرق آخر قبطان عملت تحت امرته، هل سرقته ؟ لا تفكر في قتل الضباط حين تعمل في البحر ؟

أقسمت اني بريء من كل تلك الامور . وفهمت ان هـذا البحار العجوز كشأن رجل كويكري منعزل من اهل نانتوكت يخفي تحت هذه الاعاريض شبه الساخرة هوىً لبلده وتعصباً له، وانه لا يثق في الغرباء إلا ان انطلقوا من رأس كود او من فنيارد .

– لكن ما الذي يجذبك الى صيد الحيتان ؟ أود ان اعلم قبل ان أوافق على إبحارك .

– أود يا سيدي ان أعرف ما هو صيد الحيتان . اريد ان أرى العالم .

– تريد ان تعرف ما هو صيد الحيتان، مش كده ؟ هل ألقيت نظرة على القبطان آخاب [1] ؟

– من هو القبطان آخاب ، يا سيدي ؟

– معلوم، معلوم، ادركت ذلك . القبطان آخاب هو قبطان هذه السفينة .

– اذن فأنا مخطىء . ظننت انني أكلم القبطان نفسه .

– انك تكلم القبطان فالج، – ذلك هو الذي تكلمه، ايها الشاب . انا والقبطان بلدد مسئولان عن اعداد الباقوطة للابحار وانها مزودة بكل ما تحتاجه،

---

١ الاسم في العبرية يعني أخا الاب اي العم ؛ ودراسة شخصيته في هذه القصة تحتاج مساحة واسعة ؛ يكفي ان يقـال ان ملفل استغل في تصويره شخصية بروميثيوس والشيطان عند ملتن وبعض خصائص الشخصيات الكبرى عند شكسبير وخاصة في المناجيات الذاتية .

بما في ذلك الملاحون . نحن من اصحابها ووكلائها، ولكن اعود فأقول: اذا كنت تريد ان تعرف ما هو صيد الحيتان – كما اخبرتني – فاني استطيع ان أضعك حيث تعرفه قبل ان تربط به مصيرك وتتورط فتفوت عليك فرصة التراجع . ألق نظرة على آخاب القبطان ايها الشاب وسوف تجده ذا رجل واحدة .

– ماذا تعني يا سيدي ؟ هل أفقده الرجل الاخرى حوت ؟

– أفقده اياها حوت ! ايها الشاب اقترب مني : بـــل افترسها وامتضغها وضرّسها بأنيابه اشد ذي ناب وحشي مزّق سفينة . آه . آه .

ذعرت لحماسته وربما استثارني قليلاً ما اودعه في آهاته الختامية من أسى عميق؛ غير اني قلت بكل ما استطيع من هدوء : « ما تقوله صحيح دون ريب يا سيدي، ولكن لعلّ ذلك الحوت عينه كان ذا شراسة متميزة ، ولو خليتني لتقديري لاستنتجت ما حكيته لي من تلك الحادثة نفسها » .

– انتبه ايها الشاب . ان رئتيك نخبُ هواء . أظنك لا تخادعني في القول. مؤكد مؤكد انك مارست البحر قبل اليوم . أمتأكد انت ؟

قلت : « سيدي ظننت انني اخبرتك بأني قمت باربع رحلات في التجا – » .

– اعفني من ترديد هذا ! تذكر ما قلته انا عن الخدمة التُجارية – لا تثقل عليّ – لا احب ان اسمع ترديدك . لكن دعنا نتفاهم . لقد لمحت اليك بما تعنيه مهنة صيد الحيتان . ألا تزال تحس انك تميل اليها ؟

– نعم يا سيدي .

– حسناً . أأنت المرء يستطيع ان يسدّد رمحاً الى زور حوت حيّ ثم يقفز وراءه ؟ أجب بسرعة .

– نعم يا سيدي اذا لم يكن بد من ذلك ؛ لا انك تقول هذا لتتخلص مني وهذا ما لا اتصوره .

– حسناً ثانية ! اذن فأنت لا تريد فحسب ان تذهب في صيد الحيتان لتعرف بالتجربة ما هو ذلك الامر ولكنك تريد ايضاً ان تذهب لترى العالم ؟ أليس ذلك ما هو قلته ؟ أظن ذلك . اذن تقدم خطوة هنالك وانظر حال الجوّ من مرقب الجوّ واخبرني ماذا ترى .

وقفت هنيهة وقد حيرني هذا المطلب الغريب لاني لم اعرف تماماً طبيعته : أهو مزاح أم جد. ولكن فالج القبطان استجمع كلّ تجعدات وجهه في عبسة واحدة وامرني بتحقيق المهمة .

تقدمت ونظرت من المرقب فلمحت السفينة التي تتأرجح مع التيار في مرساها وقد مالت ميلاً موارباً نحو المحيط الفسيح . كان المنظر شاسعاً لا حدود له الا انه كان مملاً موحشاً، ولم أرَ فيه الا استرسالاً لا يتخلله شيء من تنوّع .

وعدت فقال فالج : « طيب ماذا تقول ؟ ماذا رأيت ؟ » فأجبت : « لم أرَ شيئاً ذا بال، لم أرَ الا الماء . آفاق بعيدة وعاصفة مصحوبة بالغيوم على وشك ان تهب » .

– طيب . ماذا تظن في رؤيتك للعالم ؟ أتريد ان تدور حول رأس هورن كي تراه بوضوح ؟ ألا تستطيع ان ترى العالم من حيث انت واقف ؟

زعزعني هذا القول؛ ولكني لا بد ان اذهب في صيد الحيتان، وانا اريد ذلك، والباقوطة سفينة كأي سفينة اخرى حسنة – بل لعلها خيرهن . واعدت هذا الذي مرّ في خاطري على مسامع فالج . فلما رأى عزمي وحزمي ابدى موافقته

على إبحاري في تلك السفينة . ثم اضاف قائلاً : « وتستطيع ان تمضي الاوراق على التوّ . تعال معي » . وما ان قال ذلك حتى تقدمني نازلاً الى القمرة .

على الطرنسوم ـ او الخشبات التي تتخذ مقعداً في كوثلة السفينة ـ رأيت ما خلته اغرب الصور وأشدها اثارة للدهشة . عرفت من بعد ان الجالس هنالك هو بلدد القبطان الذي كان من اكبر الشركاء المالكين لتلك السفينة . اما الحصص الاخرى فكانت — كما هي الحال احياناً في تلك الموانىء — ملكاً لجمهور من المساهمين من ارامل وآباء لا ابناء لهم وقاصرين تحت الوصاية، وكل فرد منهم يملك قيمة رأس خشبة او قاعـــدة لوح او مسماراً او اثنين في السفينة . اذ الناس في نانتوكت يستثمرون اموالهم في سفن صيد الحيتان مثلما يستثمر غيرهم الاموال في الاسهم الدولية التي تأتي بربح وفير .

كان بلدد مثل فالج ومثل كثيرين من ابناء نانتوكت كويكرياً في مذهبه، اذ ان تلك الطائفة كانت اول من استوطن تلك الجزيرة ولا يزال سكانها الى اليوم يحتفظون بخصائص ابناء هذه الطائفة ومميزاتهم على نحو غير قليل . الا ان اموراً غريبة وغير متجانسة قد حوّرت من تلك الخصائص والمميزات بما زادت عليها وانقصت منها . فبعض هؤلاء الكويكريين من اشد البحارة والصيادين نزوعاً لسفك الدماء . فهم كويكريون محاربون، يحبون الثأر والانتقام .

ومن العادات الشائعة في الجزيرة ان يسمّي الآباء ابناءهم باسماء مما ورد في التوراة . وبينهم رجال يحملون تلك الاسماء وينتحلون في طفولتهم طريقـــة التخاطب الكويكرية القائمة على التبجيل باستعمال « انتم » و « انتمو » وتجري بها السنتهم كأنها سليقة فيهم ثم تمتلىء حياتهم من بعد بمغامرة مستبسلة جريئة لا تعرف حدوداً، فيمزجون بهذه الخصائص المميزة التي شب بهم العمر عنها آلافاً من اعمال الجرأة والاقدام لو اضيفت الى ملك اسكندنافي او وثني روماني من

ابطال الملاحم لصلحت له وصلح لها . وحين تجتمع هذه الامور في رجل ذي قوة طبيعية فائقـــة ، ذي دماغ كرّي وقلب كبير، وقد اعانه على ان يفكر تفكيراً مستقلاً مبتوتَ الصلات بالموروث ما اتيح له من هدوء وانفراد — الليالي الطوال — في يقظاته الليلية في المياه النائية تحت كواكب لا نراها نحن في مناطقنا الشمالية، رجلٍ يتلقى كل أثر للطبيعة غضاً — سواء أكان عذباً او مريراً — من صدرها البكر المطواع المؤتمن، وبذلك يتعلم بعون من الفوائد العارضة لغةً جريئة رفيعة حادّة، فان ذلك الرجل في ميزان أمة كاملة يعدّ مخلوقاً جليل القدر قوي النفس يصلح للتراجيديات السامية، وحين تسيطر عليه علة من العلل مستقرة في اعماق طبيعته وينقاد هو لها بما يشبه ان يكون رضى واختياراً فان ذلك من الزاوية المسرحية لا يزري به سواء أكانت العلة فيه وراثة او اكتساباً . ذلك ان كل الرجال العظماء من الزاوية التراجيدية انما يكونون كذلك بسبب ما فيهم من علة . ثقوا ايها الشبان الطامحون ان العظمة الانسانية مرض، ولكنا لا نتحدث عن هذا بل عن شيء آخر ؛ نتحدث عن رجل ان يكن فذاً فانما ذلك ناجم عن وجه آخر من وجوه الكويكرية فيه وقد وقعت عليه ظروف فردية فحوّرته وغيّرته .

كان القبطان بلدد كزميله فالج صياداً ثرياً متقاعداً . الا ان فالج لم يكن يهتم قدر قلامة ظفر بما يدعى امور الجدّ والرصانة، بل كان يعد هـــذه الامور عينها لبَّ التفاهة ونُـقاوتها. وفي هذا كان بلدد يختلف عنه اذ انه لم ينل فحسب تعليمه وثقافته على اشد مبادىء الطائفة الكويكرية في نانتوكت تنطعاً وتزمتاً، بل ان حياته البحرية من بعد ، ومنظر كثير من العرايا الجميلات في الجزر حول هورن كل ذلك لم يزحزح ذلك الكويكري المتشدد قيد شعرة، ولم يغيّر خيطاً واحداً في زيّه وملبسه . وعلى هذا الثبات الراسخ فان طبيعة بلدد كانت عرضة للتقلب . نعم ان وازع الضمير قد حال بينه وبين ان يحمل السلاح ضدّ غزاة البر الا انه كان يغزو المحيطين الاطلسي والهادي غزوات لا تقف عند حد، ومع

انه كان خصماً لدوداً لسفك الدم الانساني، الا انه اهرق وهو يلبس معطفه الضيق اطناناً على اطنان من دم الحوت العبيط. كيف كان بلدد التقيّ في امسيات التأمل يوفق بين هذه الامور المتناقضة من ذكرياته؟ ذلك شيء لست ادريه، ولكن يبدو ان خاطره كان مطمئناً ؛ ولعله أرسى منذ عهد طويل عند استنتاج حكيم عاقل يقضي بان دين المرء شيء وان هذا العالم العملي شيء آخر . هو عالم يدفع حصصاً واسهماً . وذلك شيء هام عند رجل مثل بلدد نشأ اجيراً في قمـــرة يلبس ثياباً قصيرة من اخشن الاصواف، وارتقى الى حوّات ذي صدارة وإسعة كأنها كرش الشبوط، ثم اصبح قائداً لقارب ثم رئيس ضباط ثم قبطاناً واخيراً صاحب سفينة. واختتم بلدد حياة المغامرة كما ألمحت من قبل بالتخلي عن اي نشاط عملي في سن الستين، ووقف ايامه الباقية على تسلم الدخل الطيب الذي يرد اليه، في هدوء .

ويؤسفني ان اقول ان بلدد شهر بانه فظ عاتٍ جبار وانه كان في سفراته البحرية سيداً مريراً قاسياً. وقد اخبروني في نانتوكت، وان كان ما قالوه غريباً، انه حين ابحر حوّاتاً على ظهر حواتة تسمى « كاتيجوت » فان ملاحيه حين عادوا الى الوطن نقلوا جميعاً الى المستشفى وقد انهكهم الألم والاعياء . وأقل ما نقوله فيه انه وهو الكويكري التقي، كان قاسي القلب غليظ الكبد . ومع ذلك فهم يقولون انه لم يكن يستعمل السباب مع ملاحيه ولكنه كان يستنزف منهم قدراً مسرفاً من الجهد الجائر الثقيل . فكان اذا حدّد عينه العسلية المصفرّة في احد البحارة يوم كان رئيس ضباط في سفينته جعله يشعر بانه اصبح ثائر المزاج عصبياً حتى ان البحّار ليمسك بأي شيء – مطرقة كان او مثقباً – ويتوجه من فوره الى العمل في شيء ما، اي شيء كان، بحمية كأنها حمية المجنون. كان التراخي والكسل يتلاشيان امامه وكان تكوينه الجسماني يعكس صورة عن طبيعته النفعية، فكان جسمه الطويل الضامر لا يحمل لحماً زائداً ولا لحية مسترسلة، بل كانت ذقنه ذات زغب ناعم مقتصد كالزغب المنجرد على قبعته ذات الحافة الواسعة.

كذلك كان الشخص الذي رأيته يجلس على الطرنسوم حين تبعت فالج القبطان هابطاً الى القمرة. كانت المسافات بين الدكات صغيرة وهناك جلس بلدد الشيخ منتصباً كالوتد؛ وكان يجلس دائماً هذه الجلسة فلا يتكىء كي لا ينجرد الزغب عن معطفه . وكان قد وضع قبعته الواسعة الى جانبه وجعل رجليه متقاطعتين في تصلب ، وزرّ رداءه الصوفيّ حتى الذقن ، وألقى النظارة على أنفه وبدا مستغرقاً يقرأ في مجلد ضخم .

صاح فالج : « مرة اخرى تكبُّ عليها يا بلدد ؟ مش كده ؟ منذ ثلاثين سنة وانت تدرس أسفار الكتاب ، حسب علمي ، اين وصلت يا بلدد ؟ »

وكأن بلدد تعود منذ عهد بعيد ان يسمع هذا الحديث المستخف من صديقه القديم ، فصعّد بصره في هدوء دون ان يلحظ ما يحمله صديقه من استهانة ، وحين رآني نظر مرة أخرى نحو فالج متسائلاً .

فقال فالج : «يقول انه صاحبنا ؛ سيبحر على السفينة» ؛ فقال بلدد في نغمة جوفاء وقد تحوّل إليّ : « أتريدون ذلك ؟ » فقلت لاشعورياً : « نريد »، وقد كان هو كويكرياً متحمساً وبلغة التبجيل يتحدث .

فقال فالج : « ما رأيك فيه يا بلدد ؟ »

فقال بلدد : « ينفع » ورمقني ثم مضى يقرأ في كتابه في لحن هامس مسموع.

تصورته أغرب كويكري عجوز وقعت عليه عيناي وبخاصة حين قارنته بصديقه وزميله القديم فالج الذي يحب الضجيج والعجيج . غير اني لم أقل شيئاً بل تطلعت من حولي بنظر حديد . فتح فالج صندوقاً واستخرج منه عقداً من عقود العمل في السفينة ووضع امامه دواة وقلماً وجلس الى طاولة صغيرة؛ وبدأت افكر انه قد آن الاوان لكي أقرر بيني وبين نفسي اي شروط ارضى ان انزل

على حكمها من اجل هذه الرحلة . وكنت أعلم انهم في التحويت لا يدفعون اجوراً وانما يتسلم العاملون ، بما في ذلك القبطان نفسه، حصصاً معينة من الربح يسمونها « الانصباء » lays وهذه تتناسب ودرجة الاهمية التي تناط بكل واجب من واجبات عصبة السفينة . وكنت أعلم ان غـَرارتي في ميدان التحويت لن تقسم لي نصيباً كبيراً ، ولكن بما اني عرفت البحر وأستطيع توجيه السفينة وربط الحبل وجدله وكل ما الى ذلك ، فانني لم أشكّ من كل ما سمعته في انهم سيقدمون لي على الاقل النصيب رقم ٢٧٥ أعني هـــذا الجزء من صافي غلـّة الرحلة، أياً كان مقداره في النهاية؛ ومع انهم يسمون هذا النصيب باسم « النصيب البطيء » فانه خير من لا شيء ، واذا كانت رحلتنا موفقة فانه يكاد يفي بثمن الثياب التي سأبليها خلالها ، دع عنك أمر الطعام خلال ثلاث سنوات وذلك ما لا أدفع فيه مليماً واحداً .

قد يظن من يسمع هذا ان هذه طريقة بائسة لجمع قدر محترم من المال — نعم هيّ كذلك ، طريقة جد بائسة حقاً ، ولكني انا ممن لا يحفلون بالثراء وأنا قانع من الدنيا اذا هي زودتني — لقاء عملي - بالطعام والمأوى ما دمت أحمل هذه الشارة الجاهمة ، شارة « الغيمة الكهربية » . وعلى الجملة قدّرت ان النصيب الخامس والسبعين بعد المائتين شيء معتدل ولكني لن اندهش اذا ما عرضوا عليّ النصيب المائتين اذا هم اعتبروا انني عريض الكتفين جزل البنية .

وعلى رغم ذلك فان شيئاً جعلني قليـــل الثقة بعض الشيء في تسلم حصة سخية من الارباح ، فقد سمعت على البر شيئاً عن القبطان فالج وعن بلدد خدنه العجوز غير المسئول وانهما المالكان الكبيران للباقوطة ومن ثم ترك سائر الشركاء الموزعون ذوو الحصص الصغيرة أمر ادارة شئون السفينة جميعاً لهذين الرجلين . وما عرفت الا ان بلدد الشيخ البخيل قد يكون لديه الكثير مما يقوله في الايدي التي تعمل في سفينته وبخاصة وقد وجدته على ظهر الباقوطة مطمئناً في قمرته

يقرأ التوراة كأنه جالس امام الموقد في بيته . وبينا كان فالج يحاول — عبثاً — ان يصلح قلماً بمطواه ، كان بلدد العجوز — لدهشتي البالغة — اذا قدّرت انه شريك هام في الاجراءات المرتقبة — بلدد هذا لم يعرنا اهتماماً ومضى يتمتم لنفسه ويقرأ : « لا « تنصبوا » لكم كنوزاً على الارض ، حيث يفسد السوس ... » .

فقاطعه فالج قائلاً : « طيب يا قبطاننا بلدد . ماذا تقول ؟ اي نصيب نفرضه لهذا الشاب ؟ »

فأجابه وكأن صوته منبعث من القبر : « انكم تعرفون هذا خيراً مني ، النصيب السابع والسبعون بعد السبعمائة (٧٧٧) ليس كثيراً ، أليس كذلك ؟» ويمضي فيقرأ : « حيث يفسد السوس والصدأ ولكن « انصبوا»» [1] ... فقلت لنفسي : لا تنصبوا ، حقاً ، وأي نصيب ! السابع والسبعين بعد السبعمائة ! يا بلدد العجوز انت مصرّ على انني، انا من الناس ، لن أنصب لنفسي « أنصباء » على هذه الارض حيث السوس والصدأ يُفسدان ؛ هذا « نصيب بطيء » غاية في البطء حقاً ، ومع ان كبر الرقم قد يخدع المرء الذي يعيش على البر الا ان أقلّ حساب يبيّن انه وان كان رقماً كبيراً فانك حين تجعله جزءاً وتسميه الجزء السابع والسبعين بعد السبعمائة فان هذا الجزء من الفارذنج farthing أقل بكثير جداً من ٧٧٧ دبلون ذهبيّ . كذلك جرت هـــذه الخواطر في نفسي حينئذ .

فصاح فالج : « عمى بعينك يا بلدد . أتريد ان تغبن هذا الشاب ؟ يجب ان يأخذ اكثر من ذلك » .

---

١ النص في متى ٦ : ١٩ « لا تكـــنزوا لكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والصدأ ... . بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء ... » وقد استعملت كلمة « انصبوا » لان المؤلف يتلاعب بالجناس بين هذه اللفظة ولفظة « نصيب » .

فأجاب بلدد دون ان يرفع عينيه : « النصيب ٧٧٧ » ثم مضى يتمم : «لانه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك ايضاً » .

فقال فالج : «سأسجل اسمه ازاء النصيب الثلاثمائة. اتسمع ذلك يا بلدد؟ اقول: النصيب الثلاثمائة » .

فوضع بلدد كتابه واستدار نحوه في هدوء وقال : « قبطان فالج ، قلبك سخي ؛ ولكن عليك ان تعتبر الواجب المنوط بك تجاه الشركاء الآخرين في السفينة — من ارامل وأيتام وغيرهم — واذا كافأنا اتعاب هذا الشاب بسخاء فنحن قد نختطف الخبز من افواه هؤلاء الارامل وأولئك الايتام . النصيب السابع والسبعون بعد السبعمائة يا قبطان فالج » .

فزأر فالج وقد وقف واخذ يذرع ارض القمرة : « ويلك يا بلدد ؛ سحقاً لك ! لو اتبعتُ مشورتك في هذه الامور لسحبت حيثما اتجهت ضميراً مثقلاً يكفي ليغرق بثقله اكبر سفينة ابحرت حول رأس هورن » .

فقال بلدد في ركانة : « قبطان فالج قد يجرّ ضميرك عشر بوصات من الماء او عشر قامات، ذلك ما لا ادريه ؛ ولكن بما انك ما تزال يا فالج رجلاً سادراً في آثامه غير تائب منها فاني اخشى ان يكون ضميرك مثقوباً وانه في النهاية سيغرقك في الدرك الاسفل من الجحيم، يا قبطان فالج » .

— «الدرك الاسفل، الدرك الاسفل ! انك تهينني ايها الرجل، تهينني بما تعجز الطبيعة الانسانية عن ان تطيقه . من الغضب المشتط ان تقول لاخيك الانسان انه صائر الى الجحيم . ديدان ونيران ! يا بلدد أعد ما قلته عليّ، واستثر غضبي، لكن انا، انا نعم انا سأبتلع بطيخة مثلجة على حالها . أخرج من القمرة يا منافق يا اصفر يا ابجر يا ابن البندقية الخشبية، لأطمسنّ اثرك » .

وحين أرعد بهذه الشتائم اندفع نحو بلدد الا ان هذا تحاشاه عندئذ في سرعة عجيبة مواربة منحدرة .

أفزعتني هذه السّورة الصارخة بين اثنين كبيرين مسئولين من مُلاّك السفينة، وشعرت ان نفسي اخذت تزهد في الرحلة وتود ان تتخلى عن الابحار في سفينة : ملكيتها موضع شبهة، وإمرتها عرضة للنزوات، فخرجت لامنح بلدد منفذاً اذ كان دون ريب جامح الرغبة في ان يختفي من وجه غضب فالج المندلع . ولشدّ ما دهشت حين رأيته يجلس مرة اخرى على الطرنسوم في هدوء ودون ان تكون لديه ادنى رغبة في الانسحاب . ويبدو انه قد ألف القبطان فالج العاصي وتعود اساليبه . اما فالج فانه بعد ان نفّس عن غضبه لم يبق لديه شيء منه فيما يبدو، فجلس ايضاً كالحمل الوديع، وان ظل يرتعش قليلا كأن اعصابه كانت ما تزال ثائرة . واخيراً صفر : « اف. ف. أظن الريح تتجه معاكسة . بلدد كنتَ في الماضي ماهراً في شحذ الاسنة، أصلح هذا القلم، من فضلك ؛ ان مديتي تحتاج تجليخاً . احسنت، شكراً لك يا بلدد . اما انت ايها الشاب، اسمك اسماعيل، أليس كذلك ؟ سأسجل اسمك هنا يا اسماعيل، ازاء النصيب الثلاثمائة » .

فقلت : « ايها القبطان فالج ان معي صديقاً يريد ان يبحر ايضاً فهل آتي به غداً ؟ »

فقال فالج : «اكيد . احضره، ونحن نرى في أمره». فارسل بلدد أنة ورفع رأسه من الكتاب بعد ان كان قد دفنه فيه وقال : « اي نصيب يريد ؟ »

فقال فالج : « اوه ! لا تهتم بهذا يا بلدد » . ثم التفت اليّ وقال : « هل سبق له ان مارس التحويت ؟»

— قتل من الحيتان اكثر مما استطيع عدّه ايها القبطان .

— طيب، اذن احضره معك .

ومضيت بعد ان وقّعت على الاوراق لا يخالجني ريب في انني أديت عملاً طيباً في ذلك الصباح ، وان الباقوطة هي نفس السفينة التي قـــدّر يوجو لي ولكويكوج ان تنقلنا حول الرأس .

وما إن مشيت غير بعيد حتى بدأت احدّث نفسي بأنني لم أرَ القبطان الذي سأبحر معه . هـــذا مع ان سفينة صيد الحيتان في احوال كثيرة قد تعد إعداداً كاملاً ويحضر فيها جميع الملاحين قبل ان يظهر القبطان للأعين ويأتي ليتسلم القيادة . اذ تكون الرحلات احياناً طويلة وتكون فترات الراحة على البرّ في الوطن بالغة القصر ، فان كان القبطان صاحب عائلة او مصالح تشغل باله فانه لا يعنّي نفسه كثيراً بأمر السفينة في الميناء وانما يتركها لاصحابها حتى يكون كل شيء قـــد أعد للانطلاق في البحر . غير ان إلقاء نظرة عليه أمر مستحسن قبل ان يصبح الانسان في عهدته بعهد لا ينقض . فعدت ادراجي ودنوت من فالج القبطان محيياً وسألته اين يمكن ان أجد القبطان آخاب .

— وماذا تبغي منه ؟ لقد حققت ما تريد ، وسوف تبحر على السفينة .

— هذا صحيح ولكنني أحب ان أراه .

— لكنني لا أظنك تستطيع ذلك في الحاضر . لست أدري ما أمر القبطان على التمام ولكنه لا يبارح بيته ، كأنه مريض ومنظره لا يوحي بذلك ؛ والواقع انه ليس مريضاً ، ولكنه غير معافى تماماً . على اي حـــال ايها الشاب انه لا يستقبلني دائماً ولذلك لا أتصور انه يستقبلك . هو شخص غريب الاحوال — ذلك القبطان آخاب ، كذلك يظن بعض الناس ولكنه انسان طيب . ستحبه كثيراً ، لا خوف ، لا خوف . رجل جليل هو القبطان آخاب ، مقدّس رباني

لا يعرف التقوى . لا يتكلم كثيراً فاذا تكلم، فما عليك الا ان تنصت . حذارِ يا هذا ، ان آخاب فوق مستوى العامة ، درس في الكليات وعاش بين أكلة لحوم البشر. أَلِفَ عجائب أعجب من الامواج، وأثبت حربته المتألقة في اعداء اقوى وأغرب شأناً من الحيتان ؛ حربته، أجل، انفذ سنان وأسدّه في كل الجزيرة . آه انه ليس القبطان بلدد، وليس القبطان فالج . انه آخاب، يا غلام، آخاب القديم كما تعلم كان ملكاً متوجاً .

– واعلمْ انه ملك شرير، وعندما ذبح ذلك الملك الشرير، اما ولغت الكلاب في دمه ؟

فقال فالج وفي عينه معنى كاد يفزعني : « تعال اليّ، اقترب، اقترب . اسمع ايها الفتى لا تتفوه بمثل هذا الكلام على ظهر الباقوطة . لا تتفوه به في أية بقعة . ان القبطان آخاب ليس هو الذي اختار اسمه لنفسه، وانما كانت نزوة حمقاء جاهلة من امه الارملة الخرقاء التي ماتت عنه وعمره اثنا عشر شهراً، ومع ذلك فان تستغ المرأة الهندية العجوز في جايهيد قالت ان ذلك الاسم قد يحمل النذر ويكون نبوياً . وقد يحدثك حمقى آخرون مثلها بمثل ما قالت . لكني أود ان احذرك . فتلك اكذوبة محض ؛ انا اعرف القبطان آخاب معرفة حسنة، سافرت معه ضابطاً منذ سنوات، اعرف ما هو – طيب – لا اعني انه طيب تقي مثل بلدد، وانما اعني انه طيب شتّام، يشبهني الا انه يفوقني كثيراً . اجل اجل انا أعلم انه لم يكن في حياته كثير المرح، وانا اعرف انه في عودته الى الوطن فقد عقله فترة ولكن كان السبب في ذلك هو الآلام الحادة النافذة في جذعه النازف بالدماء، وذلك امرٌ يعرفه مَن خبره . واعلم ايضاً انه منذ فقد رجله في آخر سفرة بسبب الحوت اللعين اصبح متقلب المزاج، متردد الطباع يائساً، متوحشاً احياناً، ولكن كل ذلك يزول . ودعني اخبرك وأؤكد لك، دفعة واحدة ، ايها الشاب ان من الخير لك ان تبحر مع قبطان طيب متقلب

المزاج على ان تبحر مع قبطان بشوش سيىء الطباع. اذن وداعاً ، ولا تظلم القبطان آخاب لانه يحمل اسماً شريراً؛ ثم تذكر ايها الفتى ان له زوجة لعله لم يمض على زواجه منها ثلاث رحلات، فتاة حلوة وديعة راضية بما قدّر لها. تدبّر هذا ؛ ذلك الشيخ قد أولد هذه الفتاة الحلوة ولداً . أتعتقد اذن انه يمكن ان يكون لدى آخاب أذى مطلق لا يكبح ؟ لا . لا . يا بني ان كان آخاب ذا عاهة ممقوتاً منهوك القوى فان لديه جوانب انسانية » .

وحين بارحته امتلأت نفسي بالأفكار ؛ ذلك ان ما انكشف لي عن القبطان آخاب ملأ جوانحي بغموض غريب من التألم له، وشعرت حينئذ بعطف عليه وأسف من اجله، لكني لم أدرِ لماذا غمرني ذلك الشعور الا ان تكون نكبته بفقدان رجله هي السبب . ومع ذلك شعرت برهبة غريبة منه، الا انها نوع من الرهبة لا استطيع ان أصفه ، فانه لم يكن رهبة على وجه الدقة لكني لست ادري ما هو ؛ غير اني أحسست به فلم ينفرني من الرجل ؛ بيد اني شعرت بما يشبه ان يكون جزعاً فيما حسبته لغزاً فيه ، لغزاً بنسبة القدر الضئيل الذي عرفته عنه . ومهما يكن من شيء فقد انطلقت افكاري – من بعد – في وجهات اخرى، حتى تلاشى وجود آخاب المبهم من مخيلتي عندئذ .

١٧ الصوم [١]

كان كويكوج قد نذر الصوم ، وهو على ان يستمرّ فيه طوال اليوم، ولذلك لم أشأ ان أزعجه بالعودة المبكرة ، وقرّرت ان أرجع عنـــد ما يجن الليل ؛ ذلك أني أكنُّ أبلغ احترام نحو الفروض الدينية التي يمارسها اي امرىء كان ، مهما تكن مضحكة ، ولا أجد في قلبي نزوعاً الى التهوين من شأن عبّاد اي دين حتى ولو كان أولئك العبّاد قرية من النمل يعبد أهلها الكمأة ، او لو كانوا بعض المخلوقات التي تعيش في نواحٍ من أرضنا وتنحني على نحو من العبودية ، غـــير معهود الا على هذا الكوكب ، أمام جذع رجل إقطاعي متوفٍ مريض لا لشيء إلا لأنه يملك أملاكاً مترامية الاطراف ويؤجرها باسمه .

أقول : علينا نحن الصالحين أتباع المذهب المشيخي ان نرْحُبَ صدراً بهذه الأمور فلا نتصور أنفسنا أعلى مقاماً من سائر الناس ، وثنيين كانوا او غير ذلك، لما لديهم من تصوّرات ممرورة في شئون دينهم . هذا كويكوج كان يستطعم أشد الخواطر سخفاً عن يوجو وعن صومه . وماذا في هذا ؟ كان كويكوج يظن أنه يعرف ما هو بصدده ، فيما أخمّن ، ويبدو انه كان راضياً بذلك ، فليطمئن حيث وجد رضاه وطمأنينته ، وكل مجادلاتنا معه لن تجدي شيئاً . إذن لندعه وشأنه ، أنزل الله علينا جميعاً رحمته، مشيخيين كنا او وثنيين ، اذ أننا جميعاً نمشي برءوس « مشعورة » تحتاج صدوعها رأباً .

---

١ في الاصل : رمضان .

وحين قدّرت ان صلواته وشعائره لا بد ان تكون قد انتهت ، توجهت عند المساء الى غرفته وقرعت الباب ، فلا جواب ؛ حاولت ان أفتحه فوجدته مغلقاً من داخل . ناديت من ثقب المفتاح في لطف : « كويكوج ! » ، فلم أجد إلا الصمت الشامل . « أقول : كويكوج ! لمَ لا تتكلم ؟ هذا أنا - اسماعيل » . ولكن كل شيء بقي ساكناً صامتاً . بدأ الفزع يساورني فقد غبت عنه زمناً كافياً ، وأخشى ان يكون قد ألمت به نوبة من التشنج . نظرت من ثقب المفتاح، ولكن الباب كان يواجه زاوية شاذة في الغرفة ، ولذلك كان المنظور من خلل الثقب شيئاً شاذاً مشئوماً إذ لم أستطع ان أرى الا جزءاً من مرقـــاة السرير وخطاً من الحائط ولا شيء سوى ذلك، ودهشت حين رأيت قناة رمح كويكوج التي كانت ربة النزل قد أخذتها منه في المساء السابق قبل ان نأوي الى الغرفة مركوزة الى الجدار . قلت لنفسي : هذا غريب ولكن بما ان الرمح على أية حال موجود، وبما ان كويكوج قلما يخرج دون ان يمتقله اذن فهو موجود ولا بد في الغرفة . وليس في هذا التقدير أدنى خطأ . صحت : « كويكوج ! كويكوج » — كل شيء هادىء ساكن . حدث شيء ما ولا بدّ . أصيب بالسكتة ! حاولت ان أستعمل العنف في دفع الباب فقاومني بعناد . هبطت الدرج راكضاً ، وأفضيت بما في صدري من ظنون لأول شخص صادفته — وكان هو الخادمة ؛ فصرخت : « لا ! لا ! قَدَّرْتُ ان هناك امرأ . ذهبت لأسوّي السرير بعد الفطور فكان الباب مقفلاً ولا تسمع في الداخل نأمة . وظل الصمت شاملاً حتى هذه اللحظة . وقلت : لعلكما خرجتما معاً وأقفلتما الغرفة حفاظاً على ما فيها من أمتعة لكما . لا ! لا ! ستي ! سيدتي ! قَتْل ! مسز هسي ! سكتة ! » وجرت وهي تردد هذه الصيحات نحو المطبخ وانا على أثرها .

برزت مسز هسي (السليط) لدى سماع الصوت وفي احدى يديها بوطة الخردل وفي الاخرى وعاء الخلّ وقد فرغت لتوها من الاشراف على المواعين ومن شتم خادمها الغلام الاسود في اثناء ذلك .

صرخت : «مستودع الخشب ! اين الطريق اليه ؟ كرمال ألله اركضوا ، احضروا شيئاً نكسر به الباب ، الفأس ! الفأس ! أصابته نوبة ، يقيناً ! » وفيما قلت ذلك اندفعت أصعد الدرج فارغ اليد على غير هدى ، فاعترضت زوجة « السليط » طريقي ببوطة الخردل ووعاء الخلّ وبكلّ خروعٍ يتقمصه وجهها :

— « ما بك ايها الشاب ؟ »

— « فأساً ! كرمال ألله ! اسرعوا الى الطبيب، واحد منكم، بينا أنا أكسر الباب » .

فقالت ربة البيت وهي تضع وعاء الخل على الارض بسرعة لتكون احدى يديها حرة طليقة : « اسمع ! اسمع . أأنت الذي تتحدث عن كسر احـــد أبوابي ! » وفيما هي تقول ذلك قبضت على ذراعي : « ما لك ! ما بك أيها البحار ؟ »

بكل ما استطيعه من هدوء وسرعة أفهمتها القصة جميعاً ، فضربت بوعاء الخل جانب أنفها دون وعي ، واستغرقت تفكر لحظة ، ثم هتفت : « لا ! لم أره منذ أخذته منه » وجرت الى غرفة صغيرة تحت اسكلة الدرج ، وأجالت فيها عينيها وعادت تقول ان رمح كويكوج قد اختفى منها . وصاحت : « قتل نفسه . هذه حادثة استجز التعيسة تتكرر — ضاع شرشف آخر — كان الله لأمه المسكينة ! سيخرب بذلك بيتي — ألهذا الفتى المسكين أخت ؟ اين هي ؟ بتي ! اذهبي الى سنارل الخطّاط قولي له ان يصنع لي لافتة يكتب عليها : «الانتحار ممنوع والتدخين ممنوع في القاعة » — بهذا نقتل عصفورين بحجر . نقتل ؟ رحم الله روحه . ما هذه الدوشة ؟ انت ايها الشاب . قف عندك » .

وجرت خلفي وأمسكت بي وانا أحاول مرة اخرى ان أفتح الباب بالقوة :

« لا أسمح بهذا ، لا أسمح باتلاف ممتلكاتي . اذهب الى صانع الأغلاق، هناك واحد على بعد ميل . قف عندك » ثم وضعت يدها في جيبها وقالت : « هذا مفتاح مناسب، فيما أظن . لنجرّبه » وأدارت المفتاح في المغلاق ولكن وا أسفاه بقي المزلاج الداخلي مثبتاً لا يتحلحل .

فقلت : « لا بد من كسره » ، وجريت هابطاً قليلاً عن باب المدخل ، تهمماً بالانقضاض ، حين أمسكت ربة المنزل بي ، وحلفت أني لن أحطم شيئاً من عقاراتها ، ولكني نزعت نفسي من قبضتها واندفعت وألقيت جسمي وانا مندفع ضدّ الباب ، فانفتح محدثاً جلبة شديدة ، وحين ارتطمت الاكرة بالجدار نثرت الجير حتى السقف وهناك رأيت ، يا لله ! كويكوج جالساً رابط الجأش مطمئن النفس في وسط الغرفة تماماً وقد تقرفص على فخذيه وحمل يوجو على يافوخ رأسه . ولم يلتفت لا الى هذه الناحية ولا الى تلك وانما جلس كالتمثال المنصوب دون ان تبدر منه دلالة على الحياة والحركة .

قلت وانا أتقدم نحوه : « كويكوج ؟ ما دهاك ؟ »

وقالت ربة النزل : « طبعاً لم يجلس هذه الجلسة طول اليوم . أتراه فعل ؟ »

ولكنا رغم كلّ ما قلناه لم نستطع ان نستخرج منه كلمة واحدة ، وكدت أهم بأن أدفعه لكي يغيّر جلسته لانها كانت غير محتملة ، فهي مؤلمة معقدة للأعصاب على نحو شاذ ؛ وبخاصة وأن الدلائل تشير الى انه جلس كذلك ثماني ساعات او عشراً واستمر على ذلك دون ان يتناول طعاماً .

قلت : « مسز هسي هو حيّ على اية حال ، فاذا تكرمت اتركينا وسأتولى النظر انا نفسي في هذا الامر الغريب » .

وأغلقتْ الباب وراءها وحاولت ان أقنع كويكوج بأن يجلس على كرسي،

وسدىً ما حاولت . ظلّ حيث هو ؛ توسلت بكل أسباب اللطف والأدب ولكن كان رده الوحيد على ذلك انه بقي لا ينتقل خطوة ولا ينبس بكلمة ولا ينظر اليّ ولا يلحظ وجودي ولو لمحاً .

وقلت لنفسي . عجيب أمره . أيكون هذا جزءاً من الصوم لديه ؟ أتراهم يجلسون القرفصاء وهم صائمون في وطنه ؟ هو كذلك ولا بد ، أجل ! هذا جزء من عقيدته فيما أظن . طيب لأتركه حيث شاء فانه سينهض -- دون ريب -- عاجلاً او آجلاً . شكراً لله لانه لا يستطيع ان يبقى كذلك ابداً . ثم ان صومه لا يحلّ الا مرة في العام . ولا أظنه ملحّاً ما دام كذلك .

ذهبت الى العشاء . وبعد ان جلست وقتاً طويلاً أنصت الى قصص مسهبة يقصها بعض البحارة الذين عادوا لتوّهم من رحلة يسمونها مجازاً « حلاوة البرقوق » (ويعنون بها رحلة قصيرة لصيد الحيتان في شانية او سفينة ذات صاريين وهم لا يتجهون فيها الا الى شمال خط الصيد في المحيط الاطلسي دون سواه) . أقول : بعد ان أصغيت الى هؤلاء الصيادين حتى ناهزت الساعة الحادية عشرة صعدت الى غرفة النوم وانا على مثل اليقين ان كويكوج حينئذ قد ختم صيامه . ولكن خاب ما ظننته يقيناً فقد كان ما يزال حيث خلّفته لم يتزحزح قيد أنملة . فبدأ استيائي منه يثور ، ذلك انه كان من البلادة واللوثة المحض ان يجلس القرفصاء يوماً ونصف ليلة في غرفة باردة وقد وضع على رأسه قطعة من الخشب :

-- « بحق السماء يا كويكوج انهض وتحلحل ؛ قم تناول بعض الطعام انك تميت نفسك جوعاً ، تقتل نفسك يا كويكوج » . غير انه لم ينبس ببنت شفة .

عزمت وقد يئست من امره ان آوي الى الفراش وأنام ، ولا ريب في انه سيلحق بي بعد وقت غير طويل. غير أني قبل ان استدير منصرفاً تناولت

صداري الثقيلة التي تسمى جلد الدب وألقيتها عليه اذ كانت الليلة توحي بأنها ستكون قارسة البرد ، ولم يكن يرتدي شيئاً سوى سترته المستديرة . ومضى وقت وانا عبثاً أحاول ان استجلب النعاس . كنت قد أطفأت الشمعة ولكن خطر لي ان كويكوج على بعد اربعة أقدام جالس تلك الجلسة المرهقة متصلباً متخشباً وحده في الظلام ، فملأني هذا الخاطر شعوراً بالتعاسة . تصوروا حالي نائماً طوال الليل في غرفة واحدة مع وثني ساهر يجلس القرفصاء في هذا الصوم الموحش الذي لا أعرف له تفسيراً !

ولا أدري كيف غفوت اخيراً إغفاءة امتدت حتى الصباح وحين أفقت نظرت عبر السرير فرأيت كويكوج مقرفصاً كأنما شدّ الى الارض بمسمار . ولكن ما كاد اول خيط من أشعة الشمس ينفذ الى الغرفة حتى نهض ومفاصله متيبسة تصرّ وعلى وجهه سمات المرح ، فتقدم مني يظلع ، وضغط جبهته على جبهتي وقال ان صومه قد انتهى .

انا ، كما ألمحت من قبل ، لا اعترض على دين اي فرد مهما يكن حاله ، ما دام ذلك الفرد لا يقتل غيره ولا يهينه من اجل ان غيره لا يشاركه ايمانه . ولكن حين يصبح دين المرء مثيراً للسخط ، حين يكون مصـــدر عذاب لصاحبه ، وبايجاز حين يجعل العيش على هذه الارض كالسكن في فندق مزعج ، حينئذ أعتقد ان الوقت صالح لننتحي بصاحب ذلك الدين ناحية ونناقشه في معتقده .

وهذا هو مـــا فعلته إزاء كويكوج . قلت له : « اذهب الى السرير تواً واضطجع وانصت لما أقول » . ثم مضيت في حديثي مبتـــدئاً من نشأة الدين البدائي وتطوره حتى بلغت مرحلة الاديان المختلفة في عصرنا الحاضر ، وخلال ذلك كله جهدت لكي أبين له ان كل ضروب الصوم وجلوس القرفصاء في غرف باردة مكفهرة إنما هي هراء صراح ، فهي ضارة بالصحة ، لا تفيد الروح ،

وتتعارض — في ايجاز — وقوانين علم الصحة المعروفة وحسن التدبير . وأخبرته ايضاً انه اذ كان في امور اخرى بدائياً بالغ التعقل والحكمة فانه مما يؤلمني ، بل يحرضني ويرمضني، ان أراه محمّقاً الى مدى محزن في امر هذا الصوم الذي يمارسه. ثم قلت : زد على ذلك ان الصوم ينحل الجسم ومن ثمّ تضوى الروح ، وكل افكار تتولد عن الصيام فان نصفها بالضرورة يكون ميتاً جوعاً . وهذا هو السرّ في أن أكثر المتدينين المصابين بعسر الهضم يجترون خواطر سوداوية عن مصايرهم . وأقول في كلمة ، وقد قلتها على نحو ملتوٍ غير عامد : كويكوج ! ان جهنم فكرة ولدت اول مرة اثر عسر هضم من تناول الفطير السكّري ثم خلّدت تلك الفكرة خلال مراحل عسر الهضم الذي يولده الصيام .

ثم سألته أتراه يصاب احياناً بعسر الهضم ، ووضحت له الفكرة في تبسيط شديد حتى ادركها فأجاب بالنفي الا مرة واحدة في حادثة لا تنسى . وكان ذلك عقب حفلة كبيرة أقامها والده الملك حين انتصر في معركة عظيمة ، فقتل خمسين من العدو في حوالي الثانية ظهراً وشويت اجسامهم وأكلت في ذلك المساء .

قلت وانا ارتعش : « حسبك يا كويكوج . كفى . كفى » . اذ كنت أعلم النتائج دون ان يلمح اليها ، فقد كنت رأيت بحاراً زار تلك الجزيرة نفسها ، وأخبرني ان العادة جرت في حال الانتصار في معركة كبيرة ان يشوى المذبوحون جميعاً في فناء دار المنتصر او حديقته . ثم يوضعون واحداً اثر آخر في مذاود خشبية كبيرة ، ثم تصف حولهم زخارف من ثمر الخبز وجوز الهند كأنهم اطباق الارز ويهديهم المنتصر لأصدقائه وقد وضع في فم كل واحد منهم ضمة من البقدونس كأنهم الديوك الرومية التي تسوّى احتفالاً بعيد الميلاد .

بعد ذلك كله لست اظن ان تعليقاتي على الدين تركت اثراً في نفس كويكوج

ذلك لانه كان في المقام الاول كأنما في أذنه وقر اذا انت حدثته في ذلك الموضوع الهام إلا اذا تناولته من وجهة نظره . ثم لانه في المقام الثاني لم يفهم ثلث ما قلته، مهما بسطت افكاري ووضحتها ، ثم لأنه اخيراً كان يعتقد انه يعرف عن الدين الحق اكثر مما اعرف . فنظر إلي نظرة مجاملة وحنوّ كأنما كان يرى من المؤسف ان يضلّ شاب عاقل مثلي ضلالاً لا رجاء فيه عن إدراك التقوى الوثنية .

اخيراً نهضنا وارتدينا ثيابنا ، وتناول كويكوج بنهم فطوراً كبيراً من جميع انواع الشودر كي لا يوفر صيامه شيئاً على ربة النزل ، وانطلقنا الى الباقوطة ، ونحن نتسكع في مشيتنا ونخلل اسناننا بحسك القفندر .

١٨ علامة

حين كنا ننحدر الى نهاية الرصيف نحو السفينة ، وكويكوج معتقل رمحه، حيانا القبطان فالج بصوته الاجش من عريشته وقال انه لا يشك في ان صديقي كان متوحشاً من اكلة لحوم البشر ، وان هذا الصنف من الناس لا يؤذن لهم بالابحار على سفينته الا ان تقدموا بأوراقهم قبل التسجيل .

قفزت على جانب السفينة وتركت رفيقي واقفاً على الرصيف وانا أقول : « ماذا تعني بهذا يا قبطان فالج ؟ »

فأجاب : «أعني انه لا بد ان يبرز اوراقه» .

وقال بلدد بصوته الخاوي وهو يمد رأسه من خلف رأس فالج من العريش : « حقاً عليه ان يبرز ما يدلّ على انه تنصّر » . واستمرّ ملتفتاً الى كويكوج : « يا ابن الظلام ! هل انت في الوقت الحاضر على صلة باية كنيسة مسيحية ؟ »

فقلت : « بل هو ينتمي الى اول كنيسة مجمعية » . وهنا يجدر بي ان أقول ان كثيراً من هؤلاء المتوحشين الموشومين الذين يبحرون في سفن من نانتوكت يتحولون الى احد المذاهب المسيحية في النهاية .

فصاح بلدد : « أول كنيسة مجمعية ! ماذا ؟ أتعني تلك التي تقام صلواتها واجتماعاتها في بيت الشماس ديوترونومي كولمان؟» . واذ قال ذلك اخرج نظارتيه

ومسحها بمنديل كبير اصفر زاهي اللون واثبتها على عينيه بتؤدة وخرج من العريش وانحنى، انحناءة المتيبس، على جانب السفينة، وسدد الى كويكوج نظرة طويلة .

ثم قال وهو يستدير نحوي : « كم مضى عليه وهو عضو فيها ؟ أعتقد ايها الشاب انه حديث الانتماء » .

وقال فالج : « ثم انه لم يعمّد ولو فعل لغسل ماء العماد عنه بعض هذه الزرقة المشئومة في وجهه » .

فصاح بلدد : «اخبرني أهذا الفريسي عضو منتظم منتسب الى اجتماعات الشماس ديوترونومي ؟ لم أره هناك وانا أتردد اليها كل يوم احد». قلت: «لا اعرف شيئاً عن الشماس ديوترونومي ولا عن اجتماعاته . كل ما أعلمه ان كويكوج بحكم مولده ينتمي الى الكنيسة الجمعية الاولى . وهو نفسه شماس، اعني كويكوج نفسه » .

فقال بلدد في عبوس: «ايها الشاب انت تعابثني . أوضح ما تقول ايها الحثيّ الشاب . الى اي كنيسة تنتمي؟ أجبني» .

واذ وجدتني محرجاً أجبت : « اعني يا سيدي تلك الكنيسة القديمة كنيسة الفطرة التي تنتمي اليها أنت وانا والقبطان فالج هناك وكويكوج هنا، ننتمي اليها كلنا واليها ينتسب كل ابن أم وكل ذي نفس، تلك الكنيسة الجمعية الاولى الأبدية التي تضم كلّ من سبح لله . كلنا ابناؤها الا ان بعضنا قد تراوده اخيلة ضالة زائفة تنحرف به قليلاً عن المعتقد الاعظم الذي يوحدنا جميعاً ويجمع بين أيدينا » .

فصاح فالج وهـــو يدنو مني : « تعني يربط الأيدي» أي يشدها في وثاق واحد . ايها الشاب خير لك ان تسافر على السفينة مبشراً واعظاً بدلاً من ان تكون بحاراً . لم أسمع موعظة خيراً من موعظتك . لم يبذها الشماس ديوترونومي بل حتى الاب مابل نفسه ، وهو ما هو في الخطابة والوعظ . اصعد الى ظهر السفينة . اصعد . دع عنك مسألة الاوراق . أقول : قل لكويهوج – ما اسمه ؟ – قل لكويهوج ان يتقدم . وحقّ المرسى العظيم ، انه ليحمل رمحاً نعم الرمح ! من نوع جيد ، وهو يلعب به لعب المتمرسين . أقول : يا كويهوج، او أياً كان اسمك، هل وقفت في حياتك على رأس قارب لصيد الحيتان ؟ هل اتفق لك ان طعنت سمكة ؟ »

ولم ينبس كويكوج بكلمة وانما قفز على جانب السفينة بطريقته الوحشية العفوية ، ومن ثم انطلق الى مقدمة احد قوارب التحويت المعلقة على احـــد الجوانب ثم طوق ركبته اليسرى وسدّد من عليها رمحه وصاح يرطن : « قبطن. أنت هو تراه النقطة القار على الماء هاك ؟ تراه ؟ فرضاً هو عين الحوته . شفت !» وسدّد الرمح ثم قذف به فويق قبعة بلدد الواسعة الحواشي، عبر ظهر السفينة على خط مستقيم وأزال بقعة القار التي كانت تلتمع .

وقال في هدوء وهو يسحب رمحه : « فرضنا هو عين الحوته ، داك الحوته يموت » .

فقال فالج الذي بهرته مصاقبة الرمح الطائر فتراجع نحو ممرّ القمرة موجهاً الكلام لشريكه : « بلدد أسرع . أقول : عجل يا بلدد واحضر الاوراق لا بد من ان نسجل هجهوج اعني كويهوج في احد قواربنا. اسمع يا كويهوج. سنعطيك النصيب التسعين . وهذا اكثر مما اعطيه اي حوّات من نانتوكت » .

لذا نزلنا الى القمرة وما كان ابلغ سروري حين سجل كويكوج بين رفاق السفينة التي اصبحت انتمي اليها .

وعندما انتهت الامور التمهيدية واصبح كل شيء في يد فالج جاهزاً للتوقيع، التفت الي وقال: «أظن ان كويهوج أمّي لا يكتب . أليس كذلك ؟ أقول يا كويهوج عليك اللعنة أتوقع اسمك او ترسم علامتك ؟»

الا ان كويكوج الذي كان قد أدى هذه الفريضة مرتين او ثلاثاً من قبل لم يخجل عندما سمع السؤال بل اخذ القلم المقدّم اليه ونسخ على الورقة، في الموضع الصحيح ، نسخة دقيقة عن شكل مستدير غريب كان موشوماً به ذراعه، وقد ادركه الخطأ العنيد الذي تلبس فالج وهو يلفظ اسمه ، فكان ما رسمه شبيهاً بما يلي :

كوهوج



علامته

في اثناء ذلك كـــله جلس القبطان بلدد يحدق النظر منعماً في كويكوج واخيراً نهض في وقار وعبّث في جيوب معطفه الصوفيّ الضخم ذي الزيق العريض، واستخرج رزمة من الكراسات الدينية ثم اختار كراسة عنوانهـــا « اقتربت الساعة او العمل قبل الأجل » ووضعها بين يدي كويكوج، ثم زمها والكتاب بينها بيديه، وأنعم النظر في عينيه وقال : « يا ابن الظلام ! عليّ ان أؤدي واجبي نحوك . انا شريك في هذه السفينة وأحس بأني مسئول عن أرواح بحارتها جميعاً . فاذا كنت ما تزال متشبثاً بشئونك الوثنية، وذلك ما اخشاه

آسفاً، فاني اتوسل اليك ان لا تبقى لحظة من أولياء الشيطان الرجيم . اطرح عنك بعلاً والتنين الوبيل . احذر يوم الهول الاكبر . وتبصّر وتدبر . (الطف بنا يا رب !) حاذر ان تقع سفينتك في هوة جهنم ! »

كانت اثارة من البحر الملح ما تزال عالقة بلغة بلدد وقد اختلطت بلغة الكتاب وبالعبارات المألوفة في بلده .

فقال فالج : « قف . خلّ عنك . حسبك لا تفسد علينا حوّاتنا . ان الحوّاتين الاتقياء لا يحسنون الصيد . تقواهم تسيّب القرش من ايديهم . الحوات لا يسوى دانقاً ان لم يكن كالقرش وحشية ومضاء . أتذكر الشاب نات سوين أجرأ من وقف على رأس قارب في نانتوكت وفنيارد ؟ بعد ان سلك نفسه في الاجتماعات الدينية ، فقد جرأة الحوّات — أصبح يرتعش اشفاقاً على روحه المئوفة ، حتى غدا يخيم ويحجم اذا واجه الحيتان ، خوفاً من ان ينشق به القارب فيهوي الى دركات الجحيم .

رفع بلدد عينيه ويديه وقال : « فالج ! فالج ! لقد رأينا — انا وانت نفسك — لحظات عديدة من الخطر . انت تعلم يا فالج ما معنى الخوف من الموت . كيف تهرف بهذا البهتان المضلل ! انك تكذّب حقيقة قلبك يا فالج ! قل لي عندما تحطمت صواري الباقوطة الثلاثة في الاعصار عند اليابان ، في تلك الرحلة التي رافقت فيها القبطان آخاب ، ألم تفكر في الموت واليوم الآخر ؟ »

فقال فالج وهو يخطر في القمرة وقد دسّ يديه الى أعماق جيبيه . « ما شاء الله ! ما شاء الله . اسمعوا بالله عليكم جميعاً . تصوّروا ! حين كنا في كل لحظة نتصوّر ان السفينة غارقة ! الموت واليوم الآخر وقتئذ ؟ ماذا ؟ حين اخذت الصواري الثلاثة تضرب جوانب السفينة وتبعث اصواتاً كالرعد ، وأخذ

كل بحر يتفجر منقضاً علينا في القيدوم والكوثلة ، أفكـّرنا في الموت واليوم الآخر حينئذ ؟ كلا . ما كان لدينا وقت للتفكير في الموت حينئذ . الحياة هي ما كنا نفكر فيه انا والقبطان آخاب – كيف نخلص الجميع – كيف نكسو الصواري العارية بالاشرعة والحبال – كيف نصل الى اقرب ميناء – ذلك هو ما كنت افكر فيه » .

لم يقل بلدد شيئاً وزرّ معطفه ، ومشى مختالاً فوق ظهر السفينة فتبعناه ، وهناك وقف يطل في هدوء على بعض صناع الاشرعة ، وهم يصلحون شراعاً كبيراً من وسطه . وبين الحين والحين كان ينحني ويلتقط خرقة او يلمّ طرف دوبارة مقيّرة ، حرصاً منه على ان لا تذهب سدى .

١٩ ايليا المتنبىء[1]

ما كدنا نغادر الباقوطة، ونبدأ تسكعنا بعيدين عن الماء، وكل منا غارق في افكاره، حتى طالعنا شخصٌ غريب، وقف امامنا وصوّب سبابته المكتنزة نحو السفينة وقال :

— يا رفيقيّ، هل اتفق لكما ان تبحرا في تلك السفينة ؟

كان مرتدياً ثياباً مهلهلة، سترةً حائلة اللون وسروالاً مرقعاً، وقد لفّ حول عنقه خرقة من منديل أسود. وقد غمر وجهه كله بثر الجدري في جميع النواحي، وخلاّه كمجرى التيار المعقد المضلّع بعد ان تنحسر عنه المياه او تجفّ .

فأعاد قوله : « هل تبحران فيها ؟ »

قلت محاولاً ان اكسب بعض الوقت لأشمله بنظرة طويلة : « تعني الباقوطة فيما أظن » .

فقال : « نعم الباقوطة — تلك السفينة هناك » . وأرجع ذراعه كلها ثم

---

١ اختار له اسم « ايليا » عمداً لان ايليا هو الذي كان ينذر آخاب، انذره اولاً بثلاث سنوات من القحط، وتنبأ له ايضاً بأن الكلاب ستلغ في دمه (انظر اخبار الملوك الاول ١٧ ، ١٨ ، ٢١) .

ردّها على استقامة امامه ، وقد جعل أنملة سبابته مصوبة تمام التصويب الى السفينة » .

قلت : « نعم قبيل هنيهة وقعنا العقد » .

– هل يحيك شيء في روحيكما ؟

– حول أي شيء ؟

فقال في سرعة : «اوه لعلكما لا تشعران بشيء ! لا بأس، اعرف فتياناً كثيرين لا يشعرون بشيء – يا حسن حظهم ! خليّون لا يؤرقهم شيء . ان الروح كالعجل الخامس للعربة » .

قلت : « عن اي شيء تهرف، ايها الرفيق البحار ؟ »

– « هو لديه ما يكفي ليعوض الآخرين عما ينقصهم في أرواحهم » . تفوه الغريب بتلك الكلمات في اقتضاب وقد تلفظ لفظة « هو » في نبرة عصبية شديدة. فقلت : «كويكوج ! هيا بنا، هذا امرؤ قد ندّ من عقال، وهو يتحدث عن شيء وشخص لا نعرفهما » .

فصاح الغريب : « قف ! بالحق نطقت – فأنت لم ترَ « الرعد الرعّاص » بعد ! »

قلت وقد لفتتني الحماسة الملتاثة في هيئته : « من هو الرعد الرعّاص ؟ »

– « آخاب القبطان » .

– « ماذا ؟ قبطان سفينتنا الباقوطة ؟ »

— « ايوه . بيننا نحن البحارة القدامى، ذلك هو اسمه . لم ترياه بعد، أليس كذلك ؟ »

— « بلى ! لم نره . يقولون انه عيّان الا أنه في تحسّن وسيكون معافىً في زمن قصير » .

فضحك الرجل الغريب ضحكة ساخرة مهيبة في آن، وقال : « معافىً في زمن قصير . اسمع ! حين يعافى القبطان آخاب تكون يدي اليسرى هذه قد صحّت، وليس قبل ذلك » .

— « ماذا تعرف عنه ؟ »

— « ماذا اخبروك عنه ؟ هكذا قل ! »

— « لم يخبروني عنه كثير شيء . سمعت انه صياد حيتان ماهر ، طيب في معاملة بحارته » .

— « كلا هذين الخبرين صحيح – نعم، كلاهما صحيح، ولكن عليك ان تقفز حين يأمر . تقدم ثم تذمر، تذمر لكن لا تتوقف – هذا هو ما يقضي به آخاب. ولكنكما لم تسمعا شيئاً عما اصابه عند رأس هورن، منذ زمن بعيد، حين استلقى كالميت ثلاثة ايام بلياليها، ولا عن المناوشة بينه وبين الاسباني عند المذبح في سانتا . لم تسمعا شيئاً من ذلك ؟ مش كده ؟ ولا شيء عن القدح الفضي الذي بصق فيه ولا عن فقدانه لرجله في آخر رحلة حسبما جاءت النبوءة ، لم تسمعا شيئاً عن هذه الامور وعما هو اكثر منها، مش كده ؟ لا . لا اظنكما سمعتما . وأنّى لكما ! ومن يعرف ما اعرف ؟ لا اظن نانتوكت كلها تعرف . لكن مهما يكن من امر فلا بد انكما سمعتما شيئاً عن رجله وكيف فقدها ؛ أجل .

اجل سمعتها، فيما أخمّن. حقاً كل الناس يعرف ذلك – اعني يعرفون انه ذو رجل واحدة ، وان حوت العنبر اخذ الاخرى » . قلت : « يا عزيزي عمّ كل هذا الهذيان، لست ادري ولا يعنيني ان ادري اذ يبدو لي ان هناك منطقة معطلة في رأسك بعض الشيء . لكن ان كنت تتحدث عن القبطان آخاب ، قبطان تلك السفينة الراسية هنالك، اعني الباقوطة ، فليكن معلوماً لديك اني اعرف كل شيء عن فقدانه لرجله » .

– « كل شيء، مش كده – تعرف حقاً ؟ كل شيء ؟ »

– « يقيناً » .

وقف الغريب الذي يشبه الشحاذ في هيئته ، لحظة ، واصبعه تشير الى الباقوطة ونظره مسدد نحوها، كأنما هو في استبحار فكري مضطرب . ثم قدّم قليلاً ثم استدار وقال : « تبحران . أليس كذلك ؟ قد كتبتما توقيعيكما ؟ حسناً حسناً ! ما أُمضي فقد أُمضي، وما قضي فلا بد كائن ! وقد يشاء الله ان لا يكون . كل شيء قد أعدّ ورتب، ولا بد ان يبحر معه بحارة، فيما اظن ؛ ويبحر معه رجال آخرون . كان الله لهم ! وداعاً يا رفيقيّ، وداعاً ! وحلت عليكما بركة السماء الموشحة بالقداسة . انا آسف اذ أوقفتكما ! »

قلت : « اسمع يا عزيزي اذا كان لديك شيء هام تقوله لنا، هيّا نـُثـْـه، أفضِ به ، ولكن ان كنت تحاول فحسب ان تضحك علينا وتخادعنا، « فالعب غيرها ! » – ذلك كل ما لديّ من قول » .

– « وقولك فصيح ؛ وأنا أحب ان اسمع فتىً يتحدث على هذا النحو . انت تناسبه – انت وأمثالك . صباح سعيد – يا رفيقيّ – وداعاً ! حين تقابلانه قولا له : اني قرّرت ألا اكون واحداً منهم » .

— « يا عزيزي، يا رفيقي انك لا تستطيع ان تضحك علينا كأنا من الحمقى، ليس لك ان تخدعنا بهذا الأسلوب ؛ أسهل شيء في الوجود على المرء ان يبدو للناس وكأنه ينطوي على سرّ عظيم » .

— « وداعاً يا رفيقيّ . صباح سعيد ! »

— « يا له من صباح ! هيا بنا كويكوج لنمض عن هذا المجنون؛ مهلاً! قل لي ما اسمك ! »

— « ايليا » .

ايليا ! كذلك رددت في نفسي ونحن نبتعد عنه، وكل منا يعلق بطريقته على هذا البحار العجوز ذي الأسمال، واتفقنا على انه لم يكن سوى نصّاب يحاول ان يبدو «بعبعاً» . وربما لم نكن قد أبعدنا عنه ما يزيد على مائة ياردة حين انعطفنا في أحد المنعطفات، والتفتُّ ورائي وأنا أدور منعطفاً، فاذا بايليا يقتفي خطانا عن بعد، وأثّر مرآه في نفسي على نحو جعلني لا أنبه كويكوج الى أنه يسير في آثارنا، وانما مضيت ورفيقي وأنا أتوق لأتحقق هل ينعطف الغريب في نفس الزقاق الذي اتجهنا فيه . وكان ان فعل وبدا لي انه يتعقبنا ؛ أما ماذا كان قصده من ذلك فشيء لم أستطع ان أتخيله ابداً . هذه الحادثة ولدت في نفسي، حين اجتمعت مع كلماته المبهمة التلميحية الموهمة المغلفة، جميعَ ضروب العجب والاشفاق، وكلها كانت تتصل بالباقوطة والقبطان آخاب والرجل التي فقدها، والنوبة عند رأس هورن، والقدح الفضي وما قاله عنه القبطان فالج حين غادرت السفينة أمس، ونبوءة المرأة الهندية تستغ والسفرة التي ارتبطنا بها ومئات من أمور أخرى كالطيوف .

وعزمت على ان أعلم علم اليقين هل ايليا الباذّ الهيئة يتعقبنا حقاً ؛ وتحقيقاً لهذه النية اجتزت الطريق بصحبة كويكوج ثم عدنا معاً على الجانب الآخر منها، الا أن ايليا مضى في طريقه دون ان يلحظنا – فيما يبدو – . ذلك نفّس عني، ومرة اخرى، قلت في نفسي انه نصّاب، وبدا لي أني أطلق عليه هذا الوصف لآخر مرة .

٢٠ كل شيء على قدم وساق

مضى يوم او يومان ، واحتدم النشاط فوق ظهر الباقوطة . لم تصلح الاشرعة القديمة فحسب بل استحضرت أشرعة جديدة ، ولفائف من الخيش والحبال ، اي جلب كل شيء يدل على ان الاعدادات في السفينة تؤذن بالانتهاء . اما القبطان فالج فلعله لم ينزل الى البرّ او نزل مرات معدودة ، وظلّ اكثر الوقت في عريشه يرقب الايدي بنظرات نافذة . واما بلدد فقام بكل مـــا تحتاجه السفينة من مشتريات ومن مخزونات . واما الرجال العاملون في عنبر السفينة وعلى الحبال فكان عملهم يمتد بهم وقتاً طويلاً بعد حلول الليل .

في اليوم التالي لليوم الذي أمضى فيه كويكوج العقد، عمم على جميع الفنادق التي ينزل فيها بحارة السفينة أمر بأن تودع حقائبهم وصناديقهم في السفينة قبل حلول الليل ، اذ توشك ان تبحر في أية لحظة . فحملنا انا وكويكوج أمتعتنا وقررنا ان ننام على الشاطىء حتى يحين موعدها . ولكن يبدو انهم يبكـّرون في تعميم مثل هذه الأوامر في هذه الحالات فقد مضت عدة ايام ولم تبحر السفينة؛ ولكن لا عجب في ذلك اذ كان ما يجب انجازه كثيراً ولا احد يحصي ما يجب ان لا يغيب عن البال قبل ان تكون الباقوطة قد أعدت واخذتً كل أهبتها .

كل منا يعـــلم كثرة الاشياء التي لا يستغني عنها بيت : من أسرّة وقدور وسكاكين وشوكات وجوارف وملاقط وفوط وكسّارات وغيرها . وتلك هي

الحال ايضاً في سفرات الصيد التي تحتاج الى ما يكفي ثلاث سنوات تقضى في عرض البحر بعيداً عن كل البدالين وبائعي الخضر والفواكه والاطباء والخبازين والصيارفة . وهذا يصدق ايضاً على السفن التجارية وان لم تبلغ في ذلك مبلغ سفن التحويت . فالسفرة في صيد الحوت طويلة ، هذا الى تعدد الادوات التي يحتاجها الصيادون في مهمتهم ، واستحالة استبدالها او ايجاد عوض عنها في الموانئ النائية التي تمر بها سفن الصيد ؛ ويجب ان نذكر بأن سفن التحويت من بين جميع السفن اكثرها تعرضاً للحوادث من كل نوع وخاصة تلف الاشياء التي يعتمد عليها نجاح الرحلة ، او فقدانها ، ولذلك يأخذون فيها مزيداً من القوارب ومزيداً من الصواري ومزيداً من الحبال والرماح ، يأخذون مزيداً من كل شيء إلا شيئين هما السفينة نفسها وقبطانها .

ولدى وصولنا الجزيرة كانت الباقوطة قد استكملت كل المخزون المطلوب او تكاد ، وذلك يشمل ما تحتاجه الرحلة من لحم البقر والخبز والماء والوقود والاطواق الحديدية والاخشاب . ولكن ظل احضار الاشياء المتنوعة، صغيرة كانت او كبيرة، مستمراً قائماً بعض الوقت .

ومن أبرز الذين كانوا يقومون بالجلب والنقل أخت بلدد القبطان ، سيدة عجوز نحيلة ذات روح حازمة لا تعرف الكلل إلا انها الى ذلك ذات قلب حنون ، آلت على نفسها – ان هي استطاعت – ألا تدع شيئاً ينقص الباقوطة بعد ان تنساب على الماء . وكانت حيناً تجيء وهي تحمل جرة من المخلل الى مخزن المؤن ، وحيناً آخر تحمل حزمة من أقلام الريش لتضعها في درج رئيس الضباط حيث يحفظ سجلّه ، وحيناً ثالثاً لفافة من الفانلا يحزم بها صلبه من يشكو الروماتزم في ظهره . ليس في الكون امرأة يليق بها اسمها كما كان اسم هذه المرأة لائقاً بها – اسمها «احسان» – العمة احسان – وبذلك كان الجميع يدعونها . كانت العمة المحسنة احسان كاحدى راهبات الاحسان والمحبة تنهمك

هنا وهناك موجهة يدها وقلبها لكل شيء يبشر بالسلامة والراحة والعزاء كلّ من على ظهر السفينة التي يرعاها اخوها المحبوب بلدد وتملك هي فيها عشرين او اربعين دولاراً ادخرتها .

ولكن كان من المفزع ان يرى المرء هذه المرأة الكويكرية الطيبة المتفانية في الخير تجيء الى ظهر السفينة – مثلما فعلت في آخر يوم – وهي تحمل في احدى يديها مغرفة زيت طويلة وفي اليد الاخرى رمحـــاً أطول للتحويت . كذلك لم يتخلف كل من بلدد وفالج عن اداء واجباتها ، فأما بلدد فانه كان يتجول ومعه قائمة طويلة بالحاجات المطلوبة ، وعند وصول اي حاجة منها كان يضع علامة ازاءها على الورقة . واما فالج فكان يأتي وهو يقزل من كهفه المصنوع من عظم الحوت ويزأر في الرجال الموجودين في المداخـــل او يرفع زئيره نحو العاملين فوق الحبال عند رأس الصاري ، ويختم ذلك كله بالزئير وهو يأوي الى عرينه .

وكثيراً ما كنت انا وكويكوج نزور السفينة اثناء تلك الاستعدادات ، وكثيراً ما سألتُ عن آخاب القبطان وكيف حاله ومتى يفد الى السفينة . وقد كانوا يجيبونني على هذه الاسئلة بأنه آخذ في التحسن المطرد ، وان حضوره الى السفينة متوقع في اي يوم ، وان القبطانين فالج وبلدد يستطيعان في اثناء ذلك ان يرعيا كل ما هو ضروري كي يجعل السفينة متأهبة للرحيل . ولو كنت صادقاً مخلصاً مع نفسي لرأيت بوضوح في قلبي انني لم اكن اتصور تمام التصوّر معنى ان أُسلم نفسي لمثل تلك الرحلة الطويلة دون ان تقع عيناي على الرجل الذي سيكون السيد المطلق في الرحلة حالما تأخذ السفينة مجراها في عرض البحر . ولكن حين يشتبه المرء بوقوع ظلم او خطأ فانه احياناً يسعى دون ان يشعر ليخفي شكوكه وشبهه حتى عن نفسه ، ان كان الأمر يعنيه ويملك عليه فكره . تلك هي حالي ولذا لم اقل شيئاً وحاولت ان ابتعد بنفسي عن التفكير .

واخيراً اعلنوا لنا ان السفينة ، في وقت ما في اليوم التالي ، ستبحر يقيناً ، ولذلك نهضت انا وكويكوج مبكرين في صباح اليوم الموعود .

٢١ ركوب البحر

كانت الساعة تقترب من السادسة والفجر أطلس موشح بالضباب حين اقتربنا من الرصيف .

قلت لكويكوج « ان كان بصري لم يخدعني فهناك بعض البحارة يجرون امامنا . لا يمكن ان تكون هذه ظلالاً . ستقلع عند طلوع الشمس – فيما أخمّن – هيا بنا » .

« قف مكانك » : صاح صوت يقترب صاحبه على اعقابنا ، ثم وضع يديه على كتفينا ، ثم زج نفسه بيننـــا ، ووقف منحنياً بعض انحناء ، في ذلك الشفق المنبهم ، وهو يحدق ناقلا بصره بيني وبين كويكوج على نحو غريب .

كان هو ايليا .

– « أتركبان البحر ؟ »

قلت : « انزع عنـّا يديك ، أتسمح ؟ »

وقال كويكوج وهو يفلت من يده : « اسمع ي انت . رح » .

– « اذن فلستما مبحرين ؟ »

قلت : «بل سنبحر فما شأنك أنت ؟ هل تعلم يا سيد ايليا انني أعتبرك وقحاً متطفلاً ؟ »

فقال وهو ينقل بصره بيني وبين كويكوج في بطء ودهشة وبنظرات يعجز المرء عن تفسيرها : «لا . لا . لا . لم اكن ادرك ذلك » .

قلت : « هل تتفضل عليّ وعلى صديقي، يا ايليا ، بالانسحاب . اننا ذاهبان الى المحيط الهندي والهادي ونؤثر ألا تستوقفنا وتعطلنا » .

— « تذهبان ؟ تذهبان ؟ وترجعان قبل الفطور ؟ »

فقلت : « كويكوج ، انه « مشعور » . امض بنا » .

فهتف ايليا المسمّر في مكانه يودعنا وقد ابتعدنا خطوات : « هالو ! »

قلت : «لا تأبه به يا كويكوج ، وامضِ بنا » .

ولكنه لحق بنا ثانية ، وفجأة ربت على كتفي وقال : « هل رأيت اشياء تشبه الاشخاص ذاهبة نحو السفينة قبل قليل ؟ »

وهزني السؤال الذي أصاب حقيقة واقعة فأجبت : « نعم، أظنني رأيت اربعة رجال او خمسة الا ان الجو كان معتماً فلست واثقاً من ذلك تماماً » .

فقال ايليا : « معتماً جداً ، معتماً جداً . سعدتما صباحاً !» وخلفناه مرة اخرى الا انه سرق الخطى خلفنا مرة اخرى ومس كتفي وهو يقول : « جرب ان كنت تستطيع ان تعثر عليهم . أتفعل ؟ »

— « أعثر على من ؟ »

فردّد : — « سعدتم صباحاً ! سعدتم صباحاً » ثم مضى وهو يقول : « آه ! كنت على وشك ان احذركما — لكن لا . لا بأس . لا بأس — لا فرق ... كله في العائلة ايضاً . صقيع قارس هذا الصباح ، أليس كذلك ؟ وداعاً لكما . لن أراكما عن قريب ، فيما أخمّن ، الا ان يكون ذلك امام هيئة المحلفين العظمى » . وانصرف اخيراً بعد ان فاه بهذه الكلمات الملتاثة وتركني لحظة وانا مندهش أشد الدهشة من وقاحته المرورة .

واخيراً اعتلينا ظهر الباقوطة فوجدنا كل شيء في سكون عميق وليس فيها نفس يتردد . كان باب القمرة مغلقاً من داخل ، ومنافذ ظهر السفينة كلها مثبتة في اماكنها ، وقد كدست فوقها لفائف الحبال . وحين تقدمنا من منارة السفينة وجدنا باب الناروزة مفتوحاً . ورأينا ضوءاً فهبطنا ولم نجد هنالك الا رجـــلا عجوزاً من الحبّالين وقد تلفع بصدرة بحّار مهلهلة ، وتمدد على صندوقين ووجهه الى اسفل وقد طوقه بذراعيه ، وجثا عليه النوم الثقيل العميق .

— « أولئك البحارة الذين رأيناهم يا كويكوج تراهم اين ذهبوا ؟ » — قلت ذلك ونظرت في ريبة الى النائم ؛ ولكن يبـــدو اننا حين كنا على الرصيف لم يلحظ كويكوج ابداً ما كنت ألمح اليه . ولقد كنت أظن نفسي واهماً مخدوعاً من الناحية البصرية لولا ان ايليا سألني عنهم سؤالاً لا اعرف له تفسيراً . الا اني أخمدت هذه الخواطر وأخذت ارقب الرجل النائم ، وألمحت هازلاً الى كويكوج ان من الخير لنا ان نجلس مع هذا الجسد الممدد ، وقلت لكويكوج ان يتخذ لنفسه جلسة تتفق ووضع ذلك النائم . فوضع يده على قفا الرجل كأنه يتحسس ان كان ناعماً وثيراً ثم جلس هنالك مطمئناً لا يبالي .

فقلت : « يا لطف الله ! يا كويكوج لا تجلس هنالك » .

فقال كويكوج ! « آه : جيد مقعدة جلوس . هكذا في بلدنا . لا أوذيه وجهه » .

قلت : « وجه ! أتسمّي هذا وجهه ؟ هذا اذن وجه لطيف . لكنه ثقيل النّفَس كأنما يلهث ، قم يا كويكوج ! انت ثقيل الوطأة فوقه ، وذلك يحطم وجه المسكين . انهض يا كويكوج ! أراه سينفضك حالاً . اني لأعجب كيف لا يستيقظ » .

زحزح كويكوج نفسه وجلس غير بعيد عن رأس النائم وأشعل كدوسه . وجلست انا عند قدميه . وظللنا نتبادل الكدوس من فوق جسم النائم . وعندما سألت كويكوج ما الذي يعنيه بقوله « جيد مقعدة جلوس . هكذا في بلدنا » ، أفهمني بلهجته المكسّرة انهم في بلدهم ، لانعـــدام جميع انواع الطنافس والكنبات ، يعمد الملك والرؤساء والاعيان الى ان يسمّنوا بعض ابناء الطبقات الدنيا ليتخذوهم مقاعد لهم . واذا شاء احدهم ان يزود بيته بمثل هذا الاثاث المريح فعليه ان يشتري ثمانية او عشرة من « التنابل » ثم يطرحهم في الدواوين والأواوين . ومثل هذا الاثاث الوثير مفيد في الرحلات فهو خير من كراسي الحديقة التي تتحوّل الى عصيّ . وأحياناً يستدعي السيد تابعه فيرغب اليه ان يجعل من نفسه مقعداً تحت شجرة ظليـــلة او في مكان رطب تنبسط فوقه المستنقعات .

وبينا كان كويكوج يحدثني بهذه الامور كان كلما تسلم الشبك مني جعل فوهته فوق رأس النائم .

— لِمَ تفعل ذلك يا كويكوج ؟

— سهل كثير ، يقتل — هُ — سهل كثير .

ومضى يستعيد ذكريات غريبة عن كدوسه ، وهو — فيما يبدو — ذو فائدتين : ينثر أدمغة الأعداء ، ويسكن روح صاحبه ، وفي تلك اللحظة التفتنا الى الحبّال

النائم . فقد ملأ الدخان القوي ذلك الوكر الضيق وبدأ أثر ذلك يظهر عليه ، فأخذ يتنفس تنفس المخنوق ثم بدا ان أنفه يضطرب ثم تقلب مرة او مرتين ، ثم جلس يفرك عينيه .

وأخيراً تنفس وقال : « هالو . من أنتما ايها المدخنان ؟ »

فأجبت : « من المبحرين . متى تقلع ؟ »

— « أجل . أجل . انتما ذاهبان فيها . أليس كذلك ؟ تقلع اليوم . جـــاء القبطان الليلة الماضية » .

— « اي قبطان ؟ — آخاب ؟ »

— « ومن سواه ؟ »

هممت ان أسأله بضعة اسئلة أخرى عن آخاب ، حين سمعنا جلبة فوق ظهر السفينة .

فقال الحبّال : « هلا ! استاربك بدأ نشاطه . انه رأس الضباط ، حيويّ طيب تقي . وما دمت قد استيقظت فلا بد من ان أتوجه اليه » . وما ان قال ذلك حتى اتجه نحو ظهر السفينة وتبعناه .

كانت الشمس قد بزغت ساطعة . وسرعان ما أخذ البحارة يفدون مثنى مثنى وثلاث ثلاث ، ونهض الحبّالون وانهمك الضباط المساعدون في العمل ، وانشغل كثير من رجال البر بجلب آخر الحاجات اللازمة . وفي أثناء ذلك كله ظلّ القبطان آخاب مختفياً متوارياً في جوف قمرته .

٢٢ عيد ميلاد سعيد

ومن بعد، وكان وقت الظهيرة وشيكاً، صرف الحبّالون بعد أن جرّت الباقوطة من مرساها، وبعد ان جاءت «إحسان» التي تـذكر ولا يغلبها النسيان، في قارب تحويت ، ومعها آخر هدية – قبعة مسائية لصهرها اسطب الضابط الثاني، ونسخة من التوراة لخازن المؤن ؛ بعد ذلك كله خرج القبطانان فالج وبلدد من القمرة، واستدار فالج نحو رئيس الضباط وقال :

– « أأنت واثق يا سيد استاربك ان كل شيء على ما يرام ؟ القبطان آخاب حاضر – كلمته قبل لحظات – لم نعد نحتاج شيئاً من البر ؟ طيب ؛ ادع الملاحين جميعاً . احشدهم هنا في الكوثلة – قبحهم الله ! »

فقال بلدد : « لا حاجة بنا الى السب والشتم، يا فالج، مهما نكن بحاجة الى العجلة . لكن هيا يا صديقنا استاربك . نفذ الاوامر » .

كيف يكون ذلك ! ها هي السفينة على وشك ان تبدأ رحلتها، وصاحب الكلمة العليا على ظهرها القبطان فالج وزميله بلدد كأنما سيكونان الآمرين معاً فيها في عرض البحر مثلما كانا في الميناء . وأما آخاب فلا دلالة على وجوده سوى قول القائلين انه في القمرة . ولكن كل ما قاله فالج وزميله من قبل : ان حضور آخاب غير ضروري بأي حال لرفع المرساة وتوجيه الدفة في عباب البحر، وذلك قول حق لان ذلك ليس من مهمة آخاب وانما هو من عمل الربان،

ثم ان آخاب لم يكن قد استكمل العافية — كذلك قالوا — واذن فلا غرابة ان يغيب عن السفينة وهي راسية . كل هذا يبدو أمراً طبيعياً معقولاً ومما يؤكده ما اعرفه عن السفن التجارية فهنالك ايضاً يمضي وقت غير قصير على رفع المرساة قبل ان يظهر القباطنة على ظهور السفن، وانما يبقون عند مائدة القمرة، يحتفون بتوديع اصدقائهم ابناء البر قبل ان يغادروا السفينة نهائياً مع الربان .

ولكن لم يكن لدي فرصة للتفكير في الأمر ذلك ان القبطان فالج كان بالغ الحيوية والحركة ، وكأنما هو المسئول عن الحديث والأوامر، دون بلدد .

فصاح وقد تلكأ البحارة عند الصاري الكبير : « الى الكوثلة، هيّا يا اولاد الأرامل . سقهم الى المؤخرة يا سيد استاربك » .

وكان الأمر التالي : « انصبوا العريش هناك ! » وكنت ألمحت من قبل الى ان هذا العريش المصنوع من عظام الحوت لا ينصب ابداً الا في الميناء ولكن على مدى ثلاثين سنة كان الامر بنصب تلك الخيمة على الباقوطة هو الامر الذي يتلو رفع المرساة تواً .

وتلا ذلك أمر آخر : « جهزوا المسحاب . صاعقة تبتلعكم ! اقفزوا » ووثب البحارة الى العتلات .

وأقول : عند رفع المرساة يكون الموقف الذي يحتله الربان في الجزء الامامي من السفينة، ولذلك كنت ترى بلدد منهمكاً في الاشراف على مقدم السفينة ليرى المرساة الصاعدة ، وهو بين الحين والحين يغني مقطوعة كئيبة من بعض الاناشيد الدينية لينعش ايدي العاملين عند الدولاب الرافع ويبعث فيهم ارادة وعزماً، أما أولئك العاملون فكانوا يجأرون كأنهم جوقة يتغنون بجمال الفتيات

في زقاق بوبل . ولا عجب في ان يؤدي بلدد عمل الربان، فقد كان الى وظائفه الاخرى ربانا مجازاً بالعمل في الميناء، وقد اتهمه الناس بأنه ما اصبح رباناً الا لكي يسلم من دفع اجرة لوظيفة الربان في كل السفن التي كانت في ملكه . وأما عن تغني العمال بالفتيات فاني اذكر ان بلدد قبل ما يقل عن ثلاثة ايام أخبرهم بأنه لا يسمح بالأغاني الدنيوية على ظهر الباقوطة، وأحضرت اخته « إحسان » نسخاً صغيرة مختارة من أناشيد وطس الدينية [1]، ووضعت في سرير كل بحـــار نسخة منها .

وفي الوقت كان فالج، وهو يشرف في الجزء الآخر من السفينة، يتميز غضباً ويسب ويفحش في السباب . وكاد الظن يساورني بأنه سيغرق السفينة قبل ان تسحب المرساة . واتكأت لاارادياً على العتلة التي معي وطلبت الى كويكوج ان يعمل كما عملت، وأنا اتصور المخاطر التي نعرّض لها انفسنا حين نأخذ في رحلة مع شيطان مثله يسمي نفسه رباناً . وطيبت خواطري المستثارة حين تذكرت ان طريق النجاة قـــد توجد لدى بلدد التقي رغم النصيب السابع والسبعين بعد السبعمائة؛ وحينئذ أحسست بلكمة على أذني فاستدرت، واصابني الرعب عندما رأيت شبح فالج وهو يسحب رجله من جواري المصاقب . تلك كانت اول ركلة اناלها .

وزأر فالج يقول : « أهذه هي الطريقة التي يرفعون بها المرساة في السفن التجارية ! اقفز يا رأس الكبش؛ اقفز واكسر صلبك. لمَ لا تقفز ؟ أقول : انتم جميعاً لمَ لا تقفزون ؟ انت يا كوهوج اقفز . وانت يا ذا الشاربين الاحمرين !

---

[1] هو اسحاق وطس (١٦٧٤ – ١٧٤٨) نظم اناشيد دينية كثيرة ترتل في الكنائس البروتستنتية .

وانت يا صاحب القبعة الاسكتلندية ! وانت يا لابس السروال الأخضر . اقفز . اقفزوا جميعاً، ودعوا اعينكم تثب من محاجرها » . وما ان نثر هذه الكلمات حتى مضى على طول الدولاب الرافع يستعمل رجله في الركل هنا وهناك جزافاً دون وازع بينا ظل بلدد المحتشم الوقور ماضياً في ترتيلاته . فقلت لنفسي : لا بد من ان يكون القبطان فالج قد شرب شيئاً اليوم .

وأخيراً رفعت المرساة، ووقف كل بحار في مكانه، وانسابت بنا السفينة . كان اليوم هو عيد الميلاد، وكان يوماً قصيراً قارس البرد؛ وحين ولج النهار الشمالي القصير في الليل وجدنا انفسنا في عرض المحيط والفصل شتاء، والرذاذ المتجمد يطوّقنا بالجليد كأننا في درع صقيلة . وأخذت صفوف الأسنان على الجوانب تلتمع في ضوء القمر وتدلت من مقدم السفينة ذلاذل ثلجية كبيرة منحنية كأنها أنياب فيل عاجية بيضاء .

قام بلدد النحيف – وهو يؤدي وظيفة الربان – بأول نوبة في الرقابة وظلت تتردّد نغماته دائماً وابداً كلما غاصت السفينة القديمة في احضان البحار الخضر وأرسلت صقيعاً راعشاً فوق جسمها، وجأرت الرياح وقعقعت الحبال، وكنا نسمعه يقول في تغنيه [١] :

وراء الامواج العالية حقول حبيبة

قد كستها الطبيعة ثوباً اخضر

كذلك تجلت كنعان القديمة ليهود

بينا كان يتحدر الأردنّ خلالها .

---

١ من اناشيد وطس . انظر التعليق السابق .

لم تقع هـــذه الكلمات العذبة اليّ مثلما وقعت عندئذ، فقد كانت مفعمة بالأمل والرجاء؛ وعلى الرغم من هذا الليل الشتائي القارس في الأطلسي ، على رغم من الرطوبة التي تبلل قدميّ وتضفي على صدرتي بللاً أغزر بدا لي ان الاقدار قد وفرت لنا في جعبتها كثيراً من الموانىء والملاجىء، وكثيراً من المروج والمسارب ذات الخضرة الابدية ، التي يهيج فيها العشب في الربيع ويبقى حتى منتصف الصيف دون ان يذوي او تدوسه الأقدام .

ها قد اصبحنا في عرض من البحر بحيث لم يعد لوجود الربانين معنا حاجة، فبدأ البحارة بانزال القارب الشراعي القويّ الذي حمل معنا .

كان التأثر الذي ألمّ بكل من فالج وبلدد – والثاني منهما بخاصة – في موقف الفراق عجيباً غير خالٍ من الامتاع . كانا ينفران من الفراق، كانا شديدي التكره ليغادرا سفينة مُقْدِمة على سفرة طويلة مليئة بالمخاطر – تبلغ الى ما وراء الرءوس العاصفة، سفينة استثمر فيها بلدد بضعة آلاف من دولاراته التي شقي في جمعها ، سفينة يسافر فيها احد رفاقه القدامى قبطاناً، رجل مثله في كبر السن يبدأ مرة اخرى في مواجهة كل مرعبات الشدق القاسي الجبار ؛ كان بلدد ينفر من ان يقول وداعاً لشيء امتلأت جوانبه بكل ما يهمه – فأطال المسكين اللبث، ذرع ظهر السفينة بخطوات قلقة، جرى الى القمرة ليقول وداعاً مرة اخرى، عاد مرة اخرى الى ظهر السفينة ونظر صوب الريح، نظر نحو الامواه المترامية التي لا حد لها، إلا حد من القارات الشرقية النائية التي لا يبلغها البصر، نظر الى البر، نظر الى أعلى، نظر يميناً وشمالاً، نظر الى كل وجهة والى لا وجهة، واخيراً لف حبلاً حول وتد بحركة آلية، وأمسك وهو يرتعش بيد فالج القوية، ورفع القنديل، ووقف لحظة يحدق بشجاعة في وجهه كأنـــه يقول له : « مع كل ذلك، يا صديقي فالج، استطيع ان اتحمل، نعم أستطيع » .

أما فالج فقد نظر الى الامر نظرة فيلسوف، ولكن رغم فلسفته كلها كانت العبرة تترقرق في عينـــــه حين اقترب القنديل منه . وهو نفسه لم يتوقف عن الجري من القمرة الى ظهر السفينة — ملقيـــــاً كلمة في الاسفل ، واخرى الى استاربك، رئيس الضباط .

ثمّ تحوّل الى رفيقه في نظرة كأنها الاخيرة وقال : « قبطان بلدد — هيا يا رفيقي القديم علينا ان نذهب — اسندوا دعامة الشراع الرئيسي هنالك ! ها هو القارب ! قفوا جانباً حتى يقترب ! باعتناء ! باعتناء ! — هيا يا بلدد ، أيها الرجل، قل كلمتك الاخيرة : حظ سعيد لك يا استاربك — حظ سعيد لك يا سيد اسطب — حظ سعيد لك يا سيد فلاسك، وداعاً، وحظ سعيد لكم جميعاً . بعد ثلاث سنوات من هذا اليوم سأحضّر لكم عشاءً ساخناً يتصاعد فوقه البخار في نانتوكت القديمة . مرحى ومع السلامة ! »

فهمهم بلدد الشيخ يقول وكأنه يهذي : « حاطتكم بركة الله، وجعلكم في حفظه ورعايته المقدسة . أرجو ان تحلّوا في جو جميل كي يتمكن القبطان آخاب من الظهور بينكم — كل ما يريده هو الشمس الممتعة وستجدون وفرة من أشعة الشمس في الرحلة الاستوائية التي تزمعونها . كونوا حذرين في الصيد يا رفاق ! لا تكسروا القوارب دون حاجة تستدعي ذلك أيها الحوّاتون ، ان اللوح من خشب الشربين الأبيض الجيد قد ارتفع سعره ثلاثة في المائة . كذلك لا تغفلوا عن الصلوات . وأنت يا سيد استاربك احرص على ان لا يبدد صانع البراميل ذاك تلك الاطواق الفائضة . آه ! وإبر الاشرعة مودعة في الدرج الأخضر . لا تصـــوّتوا كثيراً في أيام الآحاد يا رجال، ولكن لا تدعوا فرصة تفلت من ايديكم ايضاً فذلك بطرٌ وتعجرف على هبات السماء . وأنت يا سيد اسطب خلّ بالك من مكيال الدبس فقد كان يرشح بعض الشيء فيما اظن . واذا نزلتم الى الجزر يا سيد فلاسك فحذارِ من الزنا . مع السلامة ! مع السلامة !

لا تبقوا تلك الجبنة طويلاً في العنبر يا سيد استاربك لئلا تتلف . دققوا في توزيع الزبدة فقد اشترينا كل رطل بعشرين سنتاً، واذكروا أنه اذا ...» .

– «يلـّلا، يلـّلا يا قبطان بلدد . كفاك هذراً – لنمضِ ا» وجرّه فالج مسرعاً عند جانب السفينة، وهبطا كلاهما في القارب .

وافترقت السبيل بالسفينة والقارب، وهب النسيم الليلي البارد الرطب يفصل بينهما، وطارت فوق رءوسنا نورسة تصيح، وتدحرج الهيكلان تدحرجاً غريباً. صحنا من قلوبنا الحزينة مرحى ثلاثاً وغصنا على غير هدى ، كأننا القدر، في الأطلسي الموحش .

٢٣

الشاطىء الآمن من الريح

قبل فصول[١] ذكرت شخصاً اسمه بلكنجتون وهو بحّار طويل القامة كان قد نزل على البرّ حديثاً ورأيته في الحان في نيوبدفورد .

في تلك الليلة الشتائية المرتعشة عنـــدما طعنت الباقوطة بقدمتها الموتورة صدر الامواج الحاقدة المقرورة : من تراه مثل امامي عند دفتها سوى بلكنجتون؟ تطلعت في رهبة مشفقة وخشية الى ذلك الرجل الذي لم تكد قدماه تطآن الارض ، في منتصف الشتاء بعد رحلة خطرة استغرقت سنوات اربعاً ، حتى أثاره القلق فاندفع في فصل آخر عاصف مرة اخرى . لذعت حرارة اليابسة قدميه فيما يبدو . أعجب الاشياء هي التي لا يستطاع ذكرها ، وأعمق الذكريات لا يخلـّد في شواهد ، وهذا الفصل القصير هو القبر غير الحجري الذي أعددته لبلكنجتون . حسبي ان اقول ان حاله كانت كحال سفينة تلعبت بها العاصفة فهي تتوجه نحو الحمى ، نحو المرفأ الآمن من الريح في ذلة وتعاسة . ويرحب بها الميناء ويفتح صدره لها ملاذاً فهو عطوف، آمن ، مريح ، عنده النار والعشاء ، والاغطية الدفيئة والاصدقاء ، وكل ما يولينا عطفاً ولطفاً . ولكن اللجوء الى البر او الميناء في تلك العاصفة هو أسوأ مخاطرة تتعرض لها السفينة ، فهي تريد ان تفرّ من وجه اللطف والبشاشة والكرم ، ولو لمست اليابسة طرف قاعدتها لمساً لتخلل الارتعاش جسمها كله ، ولذلك تستجمع أشرعتها بكل ما أوتيته

---

١ انظر الفصل الثالث .

من قوة لتبارح الشاطىء ، وفي هذا تقاوم الرياح التي تحاول ان تردها الى الميناء، وتندفع الى الرحب اللابرّي بين ذراعي البحر المتضرّب المهتاج . من اجـــل المأوى تندفع وحيدة في قلب الاخطار وصديقها هو ألد اعدائها .

أتعلم يا بلكنجتون ؟ اني لأحس انك ترى التماعات من تلك الحقيقة المروّعة التي لا تحتمل ، انك لترى ان كل تفكير عميق مخلص فانما هو جهد جريء تبذله الروح كي تبقي لبحرها انفتاحَ جوانبه وحريته الطليقة ، حين تتآمر أعتى رياح السماء والارض لتلجئها الى الشاطىء الخائن المستعبد المغلول .

في حالة اللابرّية وحدها تكمن أعلى الحقائق ، لا برّ لها ، مطلقةً كالإله — ولذا فخير للمرء ان يهلك في ذلك المطلق الصخّاب من ان تقذف به الامواج على البرّ ، ولو كان هو برّ السلامة . اذ من ذا الذي — وا أسفاه ! — يؤثر لنفسه حينئذ ان يزحف كالدودة زحف المهين الهدان الى البرّ . يا ويـــلات المفزع المرعب ! أكل هذا العذاب يضيع سدى ؟ كن رابط الجأش ، شُدَّ حَيْلك يا بلكنجتون ! تحمّل وصـــابر عابساً جاهماً يا صِنْوَ الجبّارين ! من رذاذ بحرك الذي ينضمُّ فوق جسدك الهالك ، يثبُ عالياً مجدك وجبروتك !

٢٤

دفاع عن التحويت[١]

بما أني انا وكويكوج قد اقلعنا شوطاً في سفرة التحويت ، وبما ان التحويت نفسه مشنوع السمعة منزور الألق والرواء في نظر ابناء البر لذلك فاني جـــد حريص على ان أقنعكم يا ابناء البر بالظلم الذي ينال صيادي الحيتان من نظرتكم هذه .

أما في المقام الاول فلعلّه من تحصيل الحاصل ان أقرر بأن مهنة التحويت لا تعدّ بين معظم الناس على مستوى ما يسمونه المهن الحرّة . فلو ان غريباً دخل في مجتمع مديني متنوع الاجناس وقيل للناس هذا حوّات لما زاد هذا الوصف في كفاياته عندهم الا قليلاً ، ولو انه منافسةً لضباط البحرية أضاف الى اسمه على بطاقته هذه الرموز (ص. ح. ع.) اي صياد حوت العنبر لرأى الناس في عمله هذا شيئاً عجرفياً مضحكاً .

ولا ريب في ان من اكبر الاسباب التي تجعـــل العالم يحرمنا التمجيد، نحن الحـــواتين، هو ان الناس يظنون بأن مهنتنا في خير احوالها لا ترقى الا الى نوع من الجزارة ، وأننا حين ننهمك فيها فانما يحيط بنا كل نوع من الدم والدنس. جزارون نحن ، ذلك صحيح ، ولكن ماذا عن القادة العسكريين الذين يغتبط

---

١ معظم هذا الفصل استمده ملفل — روحاً وافكاراً — من الفصل الحادي عشر في كتاب بيل « نشوء حرفة صيد حوت العنبر وتطورها » وكذلك أوحى اليه سكورسبي ببعض الافكار.

العالم على اختلاف نواحيه في تمجيدهم وتكليل رءوسهم بالغار ! أليسوا جزارين، وجزارين يحملون أقنى شارة دموية ؟ امـــا عن الدنس المزعوم في مهنتنا فاني سألقي اليكم بعض الحقائق التي ما تزال مجهولة بوجه عام ، وهي على الجملة ستضع حرفة صيد حوت العنبر بين أنظف الاشياء على هذه الارض النظيفة . ولكن لو سلمنا بأن هذه التهمة صحيحة فأي ظهر سفينة فوضوي زلق بما ساح فوقه من دماء يمكن ان يقارن بجزرة في ميدان القتال لا يحقها وصف ، ويرجع منها كثير من الجنود ليشربوا وداد جميع السيدات ؟ واذا كانت فكرة الخطر تزيد في تصوّرات الناس عن حرفة الجندي فلأؤكد لكم ان كثيراً من المجندين الذين يمشون الى المدفعية طَوْعَ خواطرهم يَخيمون ناكصين اذا لاح لهم شبح ذنب حوت العنبر وهو يحرك الهواء دوّامات فوق رأسه . أيُّ شأنٍ لأهوال الانسان التي لا تفوت حدّ التصور اذا أنت قارنتها بأهوال الله وعجائبه المتواشجة ؟

ولكن مع أن العالم يزدرينا نحن الحواتين الا انه يولينا – غافلاً – أعمق آيات الولاء والخشوع . اجل، يقدم لنا إجلالاً وفيراً غزيراً ، ذلك ان جميع القناديل والمصابيح والشموع التي تشتعل في جميع أرجاء الكرة الارضية فانما تضاء في مجدنا كما تضاء امام قبور القديسين والأولياء .

بل انظر الى هذه المسألة تحت أضواء اخرى ، زنها بكل ضروب الموازين وانظر ما نحن الحواتين وماذا كنا :

لم كان لدى الهولنديين في ايام دي ويت أمراء بحر (اميرالات) لأساطيـــل التحويت ؟ لمَ جهز لويس السادس عشر ملك فرنسا على حسابه سفناً لصيد الحيتان أرسلها من دنكرك ، وتلطف فدعا الى تلك المدينة عشرين او اربعين عائلة من جزيرتنا نانتوكت ؟ لمَ دفعت بريطانيا بين عامي ١٧٥٠ و ١٧٨٨ الى حواتيها هبـــات تربو على مليون جنيه ؟ واخيراً كيف تأتى ان اصبح حواتو امريكا يربون على حواتي العالم مجتمعين في العدد ، وان لديهم اسطولاً من سبعمائة

سفينة يعمل فيه ١٨ ألف رجل ويكلف في العام أربعة ملايين من الدولارات ، وتسوى السفن فيه ايام الاقلاع ٣٠ مليوناً من الدولارات ، وتحضر كل عام الى موانئنا غلة تقـــدر بسبعة ملايين . كيف كان كل ذلك اذا لم يكن في حرفة التحويت شيء ذو حول وطول ؟

وهذا لا يبلغ نصف الحقيقة بعد ، فاسمعوا ايضاً :

أؤكد لكم دون جمجمة ان الفيلسوف العالمي لا يستطيع — حياتَهُ — ان يدلنا على اي عمل سلمي أثر خلال الاعوام الستين الماضية بقوة وكفاية في العالم الواسع كله — مجتمعاً — بأكثر من تأثير مهنة التحويت ، تلك المهنة السامية الجبّارة . فقد ولـّدتْ على نحو او آخر أحداثاً هامة في ذاتها ، هامة خالدة فيما نجم عنها من أحداث مسترسلة حتى لتعد حرفة التحويت كتلك الأم المصرية التي كانت تحمل في بطنها بنات يولدن حاملات ايضاً . وربما كان عدّ هـــذه الاحداث مهمة لا تطاق ولا تقف عند غاية فلنكتف بحفنة منها : منذ سنوات عديدة مضت كانت حرفة التحويت رائداً في الكشف عن أقصى ارجاء الارض المجهولة ، فقد استكشفت بحاراً وأرخبيلات لا خرائط لها ، حيث لم يبلغ مستكشف مثل كوك وفانكوفر؛ واذا كان المحاربون الامريكيون والاوروبيون يركبون بأمان فيما كان من قبل موانىء للمتوحشين ، فعليهم ان يطلقوا نيرانهم تحية لشرف سفينة التحويت ومجدها ، فهي التي مهدت لهم الطريق في البداية ، وكانت الترجمان بينهم وبين المتوحشين . انهم قد يمجدون ذكرى ابطال الرحلات الاستكشافية مثل كوك وكروزنشترن [١] ومن لف لفها ؛ ولكني أقول ان عشرات من القباطنة المجهولين الذين أبحروا من نانتوكت كانوا كهؤلاء المكتشفين

---

١ آدم ايفان كروزنشترن (١٧٧٠ — ١٨٤٦) أول روسي طاف حول الكرة الارضية وكان ملفل يعرف حق المعرفة « رحلته حول العالم ١٨٠٣ — ١٨٠٦ » .

عظمة بل أعظم من كوك و كروزنشترن لانهم وهم العزّل الذين لا يجدون نصيراً تمرسوا في البحار الوثنية المليئة بالقرش وعنـــد شواطىء جزر لم تقيد لها في المصوّرات الجغرافية اسماء وأهلها من رماة الحدق ، تمرسوا بالحرب ضد عجائب وأهوال بكرٍ لا يجرؤ ان يتمرس بها كوك عن طيب خاطر بكل ما معه من قوى بحرية وبنادق ؛ وقد ألفَ الابطال أهالي نانتوكت ما يزهو بعمله سواهم من الناس في الرحلات الى البحار الجنوبية حتى أصبحوا لا يعدونه الا مبتذلاً هيناً من الاعمال . فالمغامرة التي يخصص فانكوفر لسردها ثلاثة فصول لا يعدها أولئك الابطال جديرة بالتسجيل في سجل السفينة العمومي ، ولكن آه من العالم وواهاً له !

لم يكن من تجارة بل من صلة اية صلة بين اوروبا وذلك الخـــط الغنيّ من الولايات الاسبانية على ساحل المحيط الهادي حتى استدار التحويت حول رأس هورن ، اللهم الا ان تكوّن صلة بين البلد الام ومستعمراتها او تجارة قائمة بينهما . وكان الحوات اول من ثلم حد السياسة الغيرى التي يتبعها التاج الاسباني حين تعرف الى تلك المستعمرات . وقـــد أبين بوضوح — ان سمح لي حجم الكتاب — كيف ان تحرير بيرو وشيلي وبوليفيا من نـــير اسبانيا وانشاء ديموقراطية خالدة في تلك المناطق انما يعزى الى أولئك الحواتين .

اما امريكا العظمى في الجانب الآخر من الكرة ، تلك التي نسميها استراليا ، فان الذي كشف عنها الغطاء وقدمها للعالم المستنير هو رجل حوات ؛ اذ بعد ان استكشفها احد الهولنديين خطأ ظلت السفن تتجنب الدنو من شواطئها زمناً طويلاً لان همجيتها تشبه الداء الوبيـــل ، الا سفن التحويت فقد كانت تحاذي شواطئها وتدنو منها . اذن فان سفينة التحويت هي البلد الأم الذي تنتمي اليه تلك المستعمرة القوية اليوم . زد الى ذلك ان المهاجرين الأول في العهود الاولى من الاستيطان باستراليا كانوا يواجهون المجاعات ولم ينقذهم مراراً من الموت جوعاً إلا

البسكويت السخيّ الذي كانت توزعه سفن التحويت حين ترسو لحسن حظهم في مياههم . وتشهد جزر بولينيزيا التي لا تحصى عدداً بهذه الحقيقة نفسها وتؤدي فروض الولاء التجاريّ لسفينة التحويت التي مهدت الطريق امام المبشر والتاجر، وحملت المبشرين الاولين في كثير من الاحوال الى حيث ينشرون تعاليمهم. واذا كان لليابان ، تلك البلاد المسوّرة المغلقة ، ان تصبح بشوشاً مضيافة فلن يرجع الفضل في ذلك الا لسفن التحويت ، لان هذه السفن تقف على عتبة تلك البلاد .

فاذا لم يقنعك كل هذا وذهبت تقول ان حرفة التحويت لا تشتمل على ما هو شريف رفيع من الناحية الجمالية ، فاني على استعداد لأحطم في مبارزتك خمسين رمحاً حول هذه النقطة ، وأنزلك عن جوادك كل مرة وخوذتك قد شقت نصفين .

تقول بزعمك : لم يكتب عن الحوت مؤلف مشهور ولا أرّخ مهنة التحويت مؤرخ ذائع الصيت .

أتقول ذلك وتفتح به فمك على مصراعيه ؟ قل لي اذن من كتب اول خبر عن الحوت العظيم (اللوياثان) ؟ أليس هو أيوب مضرب المثل في الصبر ؟ ومَن كتب اول حكاية عن رحلة لصيد الحوت ؟ ألم يكن أميراً ؟ أليس هو ألفرِد العظيم الذي أمسك بقلمه الملكي ودوّن كلمات أوثر الحوّات النرويجي في تلك العصور ؟ ومَن هو الذي ألقى عنا مديحاً رناناً في قاعة البرلمان ؟ من سوى ادمند بيرك ؟ وتقول زاعماً : كل هذا صحيح ولكن الحواتين أنفسهم شياطين بؤساء ليس في عروقهم دماء نبيلة .

ليس في عروقهم دماء نبيلة ؟ بل دماؤهم خير من الدم الملكي . ذلك ان جدة بنيامين فرنكلن هي ماري موريل ، ثم أصبح اسمها بعد الزواج ماري فولجر وهي من أوائل المستوطنين القدامى في نانتوكت ومن ابنائها وحفدتها عدد

كبير من عائلة فولجر ومن الحواتين وكلهم من اقرباء بنيامين العظيم ، يقذفون بالحديدة المزججة من طرف في العالم الى طرف .

وتقول : هذا حسن . الا ان الجميع يقرون ان التحويت مهنة غير محترمة .

مَن أنبأك هذا ؟ والتحويت ملكي المنزع ، فقد أقر القانون الدستوري الانجليزي القديم ان الحوت « سمكة ملكية » * .

فترد قائلاً : آه إنما هذا شيء اسمي ، فان الحوت نفسه لم يدخل مرة واحدة في مناسبة فخمة جليلة .

أنـّى لك هذا ؟ ألا تعلم انه في احدى حفلات النصر التي أقيمت لقائـــد روماني وهو يدخل عاصمة العالم ، جلبت عظام الحوت من الساحل الشامي ، وكانت أبرز شيء في ذلك الموكب الصاخب[1] ؟

فتجيب : صدّقتُ ما تقول ما دمت انت ترويه ولكن قل ما تريد فليس في التحويت عزة أصيلة .

ليس في التحويت عزة ؟ عزة حرفتنا تشهد بهـــا السماء . في سماء الجنوب كوكب اسمه « القاطوس » اي الحوت ، ولا أزيد . شدّ قبعتك أمام القيصر واخلعها احتراماً لكويكوج ، ولا أزيد . عرفت رجلاً صاد في حياته ثلاثمائة وخمسين حوتاً ، وانا أعد ذلك الشخص أبلغ شرفاً من ذلك القائد القديم الذي كان يتمدح بأنه فتح هذا العدد من المدن المحصنة .

---

* انظر مزيداً عن هذا الموضوع في فصول تالية .

١ قيل ان مارقس اميليوس سكارس أخذ الى روما هيكل حوت كان قد قذفه البحر عند ميناء يافا .

وأما أنا ، فان قدر لي ان يكتشف الناس فيّ مجداً لم يستبن من قبل ، واذا أصبحت جديراً بأي صيت حق في ذلك العالم الصغير – العالم ذي الصمت البليغ الذي أطمح اليه طموحاً له ما يسوغه، واذا أديت بعد اليوم شيئاً خليقاً بالانسان ان يؤديه على ان يتركه دون أداء ، واذا وجد من يصفـّون تركتي – بل دائنيّ على وجه أدق – مخطوطة نفيسة في درج مكتبي فأنا هنا أعزو ، وأنا استشرف المستقبل، كل شرف ومجد الى حرفة التحويت ، اذ ان الجامعة التي تخرجت فيها هي سفينة صيد الحيتان ، فقد قامت في حياتي الثقافية مقام هارفارد وييل .

٢٥ تذييل

في الدفاع عن معنى العزة في التحويت يسرني ان لا أقدم شيئاً سوى حقائق جوهرية . ولكن بعد ان يعد المحامي شواهده ، أتراه يعطل ما يعرض له من حدس معقول ينبىء عن القضية بحجة ناصعة وبيان ذليق ؟ أليس مثل هـــذا المحامي — ان فعل ذلك — مظنة لوم ؟

من المتعارف المشهور في تتويج الملوك والملكات حتى المحدثين منهم ان يتدرجوا خلال خطوات غريبة من « التدشين » تجعلهم صالحين لما يناط بهم . فهناك ما يسمونه « مملحة الدولة » وما يسمى « مزيتة الدولة» . كيف يستعملون الملح على وجه الدقة ؟ — من يدري ؟ انا واثق على أي حال ان رأس الملك « يزيّت » يوم التتويج ، كأنه صحن سلطة . أتراهم يمسحونه بالزيت رجاء ان يجعلوا ما في داخل رأسه يتحرك ويعمل في يسر مثلما يزيتون الآلات ؟ ها هنا شيء كثير يصلح للنظر والتأمل حول هذه العزة الاصيلة لهذا الصنيع الملكي ، لأننا في شئون الحياة العامية ننظر باحتقار وازدراء الى المرء الذي يدهن شعره ، وتذيع منه رائحة الزيت . والواقع ان الرجل الناضج الذي يستعمل زيتاً لشعره يعـــد مهزوزاً في جانب من جوانب نفسه ، الا ان وصفه الطبيب ذلك . ومن القواعد العامة انه في جملته لا يبلغ شيئاً كثيراً .

لكن هذا هو الشيء الوحيد الذي نود ان نقف عنده في هذا المقام : أي نوع من الزيت يستعمل في حفلات التتويج ؟ طبعاً لا يمكن ان يكون هو زيت

الزيتون او زيت « مكسّر » لتقوية الشعر او زيت الخروع او زيت الدب او زيت القطارات او زيت كبد البكلاه . اذن ماذا يمكن ان يكون سوى زيت العنبر في حاله الطبيعية الصافية دون شوب، زيت العنبر أحب الزيوت جميعاً ؟

فكروا في هذا يا نسل البريتون الناشئين على الطاعة . اننا نحن ـ الحواتين ـ نزوّد ملوككم وملكاتكم بالمادة الصالحة للتتويج .

[٢٦] فرسان ووصفاء

كان استاربك رئيس الضباط في الباقوطة من اهالي نانتوكت ومن أتباع المذهب الكويكري بالولادة ، وكان رجلاً طوالاً جاداً ، ذا بنية مناسبة لتحمل المناخ الحارّ ، وان ولد على ساحل جليدي ، اذ كان لحمه عاسياً مضمّراً كالبسكويت الذي دخل الفرن مرتين . وبما انه نقل الى جزائر الهند فان دمه أصبح لا يتلف كالجعة المعبأة في القناني . ولا بد من أنه ولد ايام سنة مُسْنِتة او مجاعة جائحة او في احد ايام الصوم التي يُعرف بها بلده . وقد شهد ثلاثين صيفاً أعجف ، جفّفتْ في بنيته كلّ الحواشي وضمّرت كلّ موضع رخو ، فاذا هو ناحل قضيف ؛ وليس نحوله علامة على الهموم والاوصاب المضنية ، ولا هو دلالة على آفة تنحت الجسم ، وانما هو ضمور وحسب . ولم يكن ابداً دميم المنظر بل كان على الضدّ من ذلك ، اذ كانت بشرته الصافية الضيقة المشدودة لبوساً ممتازاً فتلبّس هو بها مُحكمةً مُقَدّرةً ، وُطيّب من داخل بالعافية والقوة كأنه مصريٌّ محنط ، فبدا وكأنما هو مستعد للبقاء أجيالاً طويلة ، مستعد ان يظل في كل حين كما هو في الحال الراهنة . وسواء أكان هناك جليد قطبي او شمس استوائية فهو في كل الاحوال كآلة التوقيت الموثوقة ، تكفل له حيويته الداخلية ان يؤدي مهمته في جميع أنواع المناخ . واذا نظرت في عينيه بدا لك وكأنما ترى فيهما أخيلة لا تزال ماثلة من آلاف الاخطار التي واجهها في حياته بثبات وسكينة . انه رجل رابط الجأش حازم ، كانت حياته في معظمها رواية ذات « حركات معبّرة » لا فصلاً خاملاً من الاصوات . لكنه كان ، على رصانته الجريئة وجَلَده الجسور ، ذا صفات تؤثر احياناً في سائر مميزاته وتكاد ترجح

بها في احيان اخرى . كانت يقظة الضمير لديه غير مألوفة في البحارين وكان قد وهب الخشوع الطبيعي العميق ، لذلك نزعت به الوحدة الموحشة على الماء نزوعاً قوياً الى الخرافة ، الا انه نوع من الخرافة يبدو في بعض الظروف وكأنه نابع من الذكاء لا من الجهالة . كان يؤمن بالنذر الخارجية ويصغي الى صوت الشعور بالشؤم في دخيلة نفسه . واذا استطاعت هذه الامور ان تحني فولاذ روحه احياناً ، فان الذكريات العائلية عن زوجه وطفله في منطقة « الرأس » كانت تنزع الى ان تثنيه عما في طبيعته من حزونة أصيلة وتزيد من تعريضه لتلك المؤثرات الكامنة التي اذا أصابت بعض ذوي القلوب الشريفة كبحت لديهم تدفق الجرأة التي تشبه جرأة العفاريت ، وهي الجرأة التي تتجلى كثيراً لدى الآخرين في أشد صروف الصيد اخطاراً . كان استاربك يقول : « لا أريد من يرافقني في قاربي الا ان يكون امرءاً يخشى الحوت » . ويبدو انه كان يعني بهذا القول ان أشد الشجاعة نفعاً وأحسنها معتمداً هي التي تنشأ من تقدير الخصم لخصمه وحسبان خطره المرتقب ، كما يعني ان من لا يعرف الخوف يُعَد رفيقاً اخطر على صاحبه من الرعديد الجبان .

فكان اسطب الضابط الثاني يجيبه : « اجل يا استاربك ها هنا رجل « حويط » ليس في كل الصيادين مثله » . وبعد صفحات غير كثيرة ستعرف ما تعنيه كلمة « حويط » بدقة حين يستعملها رجل مثل اسطب او اي واحد من صيادي الحيتان .

لم يكن استاربك ذا حماسة تسعى لركوب الاخطار ، لم تكن الشجاعة فيه وقدة عاطفية ، بل كانت شيئاً مفيداً له، قريباً من متناول يده في كلّ الظروف العملية الخطيرة . ولعلّه كان يتصوّر ان الشجاعة في مهنة التحويت انما هي جزء من الزاد الذي تزود به السفينة ، شيء شبيه بما تحتاجه من الخبز واللحم ، لا يجوز استهلاكها وتضييعها بسوء التدبير ؛ ومن ثم لم يكن يميل الى التحفز

لصيد الحيتان بعد الغروب ولا الى الاصرار على مقاتلة السمكة التي تصرُّ على الثبات في مقاتلته . اذ كان استاربك يقول لنفسه : « انا هنا في هذا المحيط المحرج لأقتل الحيتان كي أعيش، لا لتقتلني الحيتان كي تعيش » ؛ وكان استاربك يعلم ان مئاتٍ من الرجال خرجوا يبحثون عن مثل غايته ولقوا مصارعهم . اذ ما هو المصير الذي لقيه ابوه ؟ وأين في الاعماق التي لا قرار لها يمكن ان توجد أشلاء أخيه ؟

فاذا اعتبرت هذه الذكريات التي تخايله وقدرت انه يستسلم الى الايمان بالخرافات – كما أشرت من قبل – وجدت ان شجاعته التي تستطيع بعد كل هذا ان تتحقق وتنطلق إنما كانت شجاعة متطرفة غاية في وفرتها . ولكن حين يكون مثل هذا الرجل على هذه الفطرة وعلى مثل تلك التجارب والذكريات المهولة فان من المعجز ان تقصّر هذه الامور المستكنة في نفسه عن ان تولّد فيه عنصراً قد ينطلق في الظروف الملائمة من مكمنه ويعصف بما لديه من جرأة وشجاعة . وعلى مبلغ ما كان يتمتع به من شجاعة فان شجاعته كانت من النوع الذي تراه في بعض الجرءاء الباسلين الذين تقف جرأتهم ثابتة لا تتزعزع ولا تنكل ما داموا يصارعون البحر او الرياح او الحيتان او اي مفزع من مفزعات عالم الطبيعة إلا انها تعجز عن ان تقف موقف الندّ من مفزعات أشد هولاً لأنها أعلق بالنفوس ، مفزعاتٍ تنطلق متوعدة من رجل محرّب قويٍّ ساخطٍ عاقدٍ ما بين حاجبيه .

ولكن ان كانت القصص التالية ستكشف في بعض امثلتها تهويناً تاماً من شأن شجاعة استاربك المسكين ، فقلما أجد قلبي يطاوعني على تدوينها ، لان من أشد الامور اثارة للأسى والأسف ، بل من اشدها زعزعة للشعور ، أن تعرض على الناس تهاوي الشجاعة في الروح . قد يكون الناس ممجوجين حين تراهم في شركات مساهمة او أمم ، وقد يكون بين الناس محتالون وحمقى

وسفاحون ، وقد تكون لهم وجوه دنيئة هزيلة ؛ ولكن الانسان ، في المستوى المثالي ، مخلوق كريم ألمعي سامٍ وضّاء ، وهو جدير اذا انكشفت لديه هَنَة تشينه بأن يسرع اليها رفاقه ويستروها بأغلى ما لديهم من أردية . تلك الرجولة الطاهرة نحسها في دخيلة أنفسنا، في أعمق أعماقنا، حتى لتظل سليمة لم يمسسها سوء وان اندثرت كل السمات الخارجية ؛ انها لتنزف وهي تتلوى بأصدق الألم كلما شهدت منظر امرىء محطم الشجاعة بارزاً للعيون . بل ان روح التقوى نفسها لا تملك إزاء هذا المنظر المخجل ان تكبح في نفسها لومها للاقدار ؛ غير ان هذه الانفة التي أتحدث عنها ليست أنفة الملوك والطيلسانات وانما هي أنفة وفيرة ليس لها كسوة من طيلسان . تراها تلتمع من ذراع امرىء يحمل معولاً او يدق مسماراً ، هي أنفة ديموقراطية تتنزل على الايدي نوراً ابدياً من عنــــد الله ، من الله الاول والآخر ، مثابة الديموقراطية وفلكها ، الكلّي الوجود الذي جعلنا سواسية على أرضه .

فاذا انا بعد اليوم نسبت الى أحقر البحارة والخلعاء والمنبوذين أسمى الصفات وان كانت قاتمة ، ونسجت من حولهم أمجاداً مأساوية ، واذا استطاع اشدهم جزعاً — ولعله ان يكون اكثرهم نصيباً من الزراية — ان يرفع نفسه في بعض الاحايين الى الذرى الشاهقة، واذا سكبت على ذراع ذلك العامل ضوءاً أثيرياً ، واذا نشرت قوس قزح امام غروب شمسه الفاجع، فانصرني في موقفي على كل ناقد يسلقني بلسانه الحديد يا نبع المساواة التي نشرت فوق جميع الناس رداءً واحداً سامياً هو رداء الانسانية . انصرني في موقفي هذا ايها الربّ ، يا رمز الديموقراطية الاعظم ، انت يا مَن لم تحرم « بنيان » ، الجاني الاسود من نعمة الشّعر؛ انت يا من كسوت بأوراق مطرّقة من رقيق الذهب ذراع ثرفانتس الشيخ حين بترت وأخذ من اجلها يستكفّ الايدي ، انت يا من انقــــذت

أندرو جكسون [1] من اللصوق بالدقعاء وأمطيته حصان فارس محارب ورفعته الى مـــا سما به فوق العروش ، أنت يا من تنظر الى ابناء الارض من عليائك وتختار أحب أحبابك فيهم من عامّة الناس الذين يَشرُفون الملوك ، أنت يا رب ، انصرني في موقفي وأيدني وتقبّل مني يا ذا المنّ والطول .

[1] أندرو جكسون رئيس الولايات المتحدة : ١٨٢٩ - ١٨٣٧ توفي عام ١٨٤٥ بعد ان عاد ملفل الى الولايات المتحدة وبدأ حياته الادبية .

٢٧ فرسان ووصفاء

اما اسطب الضابط الثاني فكان من أهل رأس كد ولذلك كانوا يسمونه، حسب العادة المحلية المتبعة، « الراسكدّي » : هَيْنٌ لَيْنٌ، لا هو جبان ولا هو شجاع، يواجه الاخطار كيفما جاءت في هيئة من لا يبالي . ويظل وهو منهمك في أشد أزمات الصيد منهوكٌ من شدة الاعياء، هادئاً مستثبت النفس كأنه صانع يعمل منهمكاً طوال العام . طيب المزاج يَسِرٌ سَبَهْللِيّ، يتصدّر قارب التحويت كأن أشد لقاء مميت مع الحوت ليس سوى مائدة عشاء وبحارته ضيوف حولها . ذو اهتمام خاص بتنضيد الجزء الخاص به من القارب على نحو مريح، مثلما يهتم سائق العربة التي تخص المسرح بالاطمئنان على صندوقه . وحين يكون قريباً من الحوت، في غمرة الموت، يصرّف رمحه الغشوم ببرود وبداهة كما يصرّف « السمكريّ » مطرقته وهو يصفر . وقد يهمهم بالنغمات القديمة التي يرددها البحارة حين يكون جنباً لجنب مع أعتى حوت مستشيط الغضب . طول التمرس قد جعل شدقي الموت كرسياً مريحاً لدى اسطب . ولا أحد يعلم كيف كان يتصوّر الموت، بل لعلّ من حق المرء ان يتساءل : أتراه تصوّر الموت أبداً ؟ ولكن ان اتفق له أنْ وجَّهَ فكره تلك الوجهة بعد عشاء لذيذ كما يفعل البحّار الطيب فانه كان يعتبره نوعاً من دعوة أصحاب النوبة ليثبوا الى الحبال العليا ويقفوا متأهبين هنالك فاذا وثب معهم عرف الشيء الذي من أجله وثب حين امتثل للأمر، لا قبل ذلك .

ولعل هناك شيئاً ـ بين سائر الاشياء الاخرى ـ جعل اسطب يسراً سجيحاً،

غير هيّاب ، ينقل خطواته فارعاً مستبشراً وقد حمل عبء الحياة في عالم مليء ببائعي السقط الجاهمين العابسين الذين انحنت أصلابهم تحت ثقل بضاعتهم ؛ شيئاً استخرج منه طيب مزاجه ودعابته التي تبلغ حدّ الاستخفاف بالتدين، أما ذلك الشيء فهو غليونه ولا بدّ . ذلك أن غليونه الصغير القصير الأسود كان كأنفه واحداً من قسمات وجهه الثابتة . ولا تستكثر ان يبرز من منامته في السفينة دونَ أنف اذا حسبت أنه يستطيع التخلي عن غليونه، فكلا الأمرين سواء . ولديه صف كامل من الغلايين معبأة جاهزة قد ثبتها في لوحة مسنّنة وجعلها في متناول يده، فاذا دخل غرفته دخنها جميعاً على التوالي، مشعلاً واحداً منها من الآخر حتى النهاية ، ثم عبّأها مستأنفاً ووضعها جاهزة حيث كانت . ذلك ان اسطب حين يرتدي ثيابه يضع أولاً غليونه في فمه بدلاً من ان يدخل رجليه في سرواله .

أقول : ان هذا التدخين المستمر قد كان في الاقل سبباً واحداً في مدّه بتلك الصفات الخلقية الخاصة، اذ كل امرىء يعلم ان هذاء الهواء الارضي، سواء أكان على البر أو على الماء، تنتقل اليه العدوى بسرعة من تعاسات لا تحصى، نَفَثها من لا يحصرون من الاحياء الذين لقوا حتفهم ؛ ومثلما ان الناس في أيام وباء المرض الاصفر يمشون وقد وضعوا على أفواههم مناديل مضمخة بالكافور كذلك فعل اسطب في مواجهـــة البلايا والمحن التي تصيب بني الانسان، اذ اتخذ من دخان الطباق وقاءً يصدّ به العدوى عن نفسه .

أما الضابط الثالث فهو فلاسك من أهالي تسبري في فنيارد التابعة لمرتا . شاب قصير القامة صلب العود، أحمر اللون، شرس فيما يتصل بالحيتان كأنـــه يتصوّر ان الحيتان العظمى قد أهانته في شخصه ونسبه، ولذلك كان إهلاكها كلما عرضت له من سمات النخوة والأنفة . وقـــد فقد كل احساس بالاكبار للعجائب الكثيرة التي تصدر عن الحيتان في حجومها الهائلة وطرائقها الغريبة،

ومات لديه كل خوف من الاخطار التي يمكن ان تنجم عن لقائها حتى كان رأيه الفائل يصوّر له أن الحوت العجيب ليس إلا نوعاً من فأر تضخم وانتفخ او لعله جرذ مائي لا يتطلب منه إلا قليلاً من المخادعة وبعض الوقت والجهد كي يقتله ويشويه . هذه الشجاعة الحمقاء اللاواعية جعلته هازلاً بعض الشيء في شئون الحيتان فهو يتبعها من أجل التفكه، ورحلة حول رأس هورن يقضي فيها ثلاث سنوات ليست لديه الا دعابة مرحة تستمر طوال ذلك القدر من الزمن . وقد ينقسم الناس في فريقين على نحو ما تنقسم مسامير النجار في قسمين : منحوتة ومصنوعة ، والى الفريق المصنوع ينتمي فلاسك ، اذ صنع لكي يثبت محكماً مشدوداً ويبقى أمداً طويلاً ؛ كانوا يسمونه : « الدعامة الكبرى » على ظهر الباقوطة لانه في هيئته يمكن ان يشبّه بتلك الخشبة القصيرة المربعة التي يطلق عليها ذلك الاسم حواتو المناطق القطبية وهي بما يزج فيها من خشبات جانبية مستعرضة تحمي السفينة من الارتجاجات الجليدية في تلك البحار المصطفقة .

كان هؤلاء الضباط الثلاثة ، استاربك واسطب وفلاسك ، رجالاً ذوي شأن وخطر . فقد أجمع الرأي على ان يكونوا قادة ثلاثة من قوارب الباقوطة ؛ وفي التعبئة العظمى للمعركة التي قد يقود فيها آخاب القبطان جيوشه لتنقض على الحيتان يمثل هؤلاء الثلاثة مركز القواد في الفيالق ، واذا اعتقل الجيش حراب التحويت الطويلة النفاذة كان هؤلاء ثالوثاً مختاراً من الرمّاحين بينا الصيادون الآخرون هم الزرّاقون .

وبما ان كل ضابط او قائد في حملة الصيد يصاحبه ، كالفارس القوطي في الازمان القديمة ، مُوَجّه للدفة في القارب او زرّاق برمحه يقدم له في بعض الاحداث والظروف سناناً جديداً اذا التوى الاول او انحنى عند الهجوم ، وبما ان الاثنين يقيمان فيما بينهما صلة وثيقة وصداقة حميمة لذلك أرى من المناسب ان أثبت في هذا المقام شيئاً عن زرّاقة الباقوطة ولأي قائد ينتمي كل منهم .

واذكر منهم كويكوج اول من أذكر فقد اختاره استاربك رأس الضباط وصيفاً معاوناً . ولكنكم تعرفون كويكوج فلا حاجة بي الى التحدث عنه .

ثم اذكر طاشطيقو ، وهو هندي عريق خالص من جاي هيد ابعد قمة في فنيارد التابعة لمرتا غرباً ، حيث لا تزال آخر قرية من الحمر طالما زودت جزيرة نانتوكت المتاخمة بأجرأ حواتيها الزراقين . وهم بين الصيادين يعرفون بنسبتهم فيقال فيهم « الجايهيديون » . وطاشطيقو هذا ذو شعر مسترسل متهدّل اسود ، وخدين بارزي العظام ، وعينين نجلاوين حوراوين ، شرقيتين في اتساعهما ، قطبيتين جنوبيتين في تعبيرهما المتألق - صفات تتحدث انه وريث الدم النقي من أولئك الصيادين المحاربين المختالين الذين جـابوا ، وأقواسهم في ايديهم ، الغابات العاديّة في تلك الارض وهم يطاردون وعول الموظ في نيوانجلند، ولكن طاشطيقو لما كفّ عن استنشاء ريح الوحوش البرية في الغابات أخذ يقص أثر الحيتان الكبيرة في البحار ، وهكذا حلّ الرمح السديد الذي يحمله الابن محل السهم الصائب الذي كان يرسله الآباء . وان انت نظرت الى العضل الاصحم في اعضائه الافعوانية كدت تؤمن بخرافات بعض البيورتان الاوائل وأوشكت ان تصدق بأن هذا الهندي المتوحش ابن امـير القوى الهوائية . كان طاشطيقو وصيفاً لدى اسطب الضابط الثاني .

وثالث الزرّاقـين اسمه دغة : زنجي متوحش فحمي السواد ضخم له على الارض وطأة الاسد، اذا رأيته حسبته احشويرش . يتدلى من أذنيه بُرَتان ذهبيتان كبيرتان حتى سمّاهما البحارة « الوتدين الذهبيين »، وتحدثوا كيف يمكنهم تثبيت حبال الصاري الرئيس بهما . تطوع دغة في شبابه بالسفر على ظهر سفينة حوّاتة كانت راسية عند خليج منعزل في ساحل وطنه فلم يذهب الى أي بقعة في العالم سوى افريقية ونانتوكت والموانى الوثنية التي يتردد اليها الحوّاتون، وعاش عدة سنوات حياة الصيد الجريئة في سفن يهتم أصحابها اهتماماً فريداً بنوع

الرجال الذين يختارونهم للابحار في سفنهم، لذلك كله استمر دغة يتمتع بكل فضائله الهمجية، منتصباً كالزرافة يتنقل على ظهور السفن في خيلاء امرىء فارع الطول يبلغ ١٩٠ سنتيمتراً دون حذاء. فاذا نظر المرء اليه شعر بقماءة جسمانية، واذا وقف امرؤ من البيض أمامه بدا كأنه علَم أبيض جاء يتوسل الى عقد هدنة مع احدى القلاع؛ ومن المستغرب أن يكون دغة — احشويرش، الزنجي الطود، هو وصيف فلاسك الصغير الذي يبدو الى جانبه كأنه بيذق الشطرنج.

أما سائر عصبة الباقوطة فيكفي أن أقول: لا يبلغ أن يكون نصف العاملين في هذا العصر أمام الصاري في صيد الحيتان بأمريكا - وهم ألوف - من أبوين أمريكيين، بينما يكاد كل الضباط أن يكونوا أمريكيين نسباً. وفي هذه الحقيقة تتفق الحال في صيد الحيتان مع الحال في الجيش الامريكي وفي الأساطيل الحربية والتجارية وفي قـوى الهندسة التي تعمل في بناء القنوات وطرق السكك الامريكية. أقول: تتشابه الحال هناك وهنا لأن الامريكي الاصيل في جميع الاحوال يجود بالأفكار، وسائر العالم يقدم العضلات بسخاء. وينتمي عدد غير قليل من بحارة التحويت الى جزائر الآزور حيث يرسو حواتو نانتوكت في أسفارهم البعيدة، ليضيفوا الى بحارتهم عدداً من الفلاحين الاشداء القاطنين على تلك السواحل الصخرية. كذلك فان حواتي جرينلاند الذين ينطلقون من هَلْ أو لندن يتوقفون عند جزائر جتلند ليستكملوا عدد ملاحيهم فاذا كانوا عائدين الى أوطانهم أنزلوهم في جزائرهم، ويبدو أن أهالي الجزر هم خير الحواتين وان لم أعلم سرّ ذلك. وقد كان معظم ملاحي الباقوطة من هؤلاء الجزريين، وأنا أسميهم «المتأبدين»، لا أحفل بمدى اجتماعهم في صعيد، بل أعني ان كل متأبد منهم يعيش في دنياه الخاصة. واذا احتشدوا على صعيد سفينة واحدة فأي قبيل هم! مندوبون من أتباع الثوريّ أنخارسيس كلوتز [١] جاءوا من كل جزر البحار

---

[١] ثوري بروسي فرنسي (١٧٥٥ - ١٧٩٤) كان اسمه جان بابتست فجعله أنخارسيس ولقب نفسه «خطيب الجنس البشري».

ومن جميع أطراف اليابسة، يصحبون آخاب الشيخ في الباقوطة ليبسطوا مظالم الكون أمام قفص الاتهام الذي لم يرجع من عنده الا القليل. بيب الاسود الصغير – أتراه عاد؟ لا. لم يعد، وانما تقدّم على الطريق. ذلك الفتى الألبامي المسكين! على منارة الباقوطة الجاهمة ستراه قبل وقت طويل يضرب طنبوره، استهلالاً للـــوقت الازلي، حين يدعى الى الصعيد العلوي كي يشارك الملائكة عزفهم ويضرب طنبوره في مراقي المجد. اسمه هنا جبان، وهم يحيونه هناك تحية البطل.

٢٨

آخاب

مضت عدة أيام على مغادرتنا نانتوكت ولم يلح آخاب أبداً فوق العنابر . وكان الضباط يتناوبون المراقبة في انتظام ، ولم يبد شيء ينقض عليّ تصوّري أنهم هم الآمرون الوحيدون في السفينة لولا أنهم كانوا أحياناً يصدرون عن القمرة بأوامر مفاجئة جازمة ، فكان هذا الفعل يدلني على أنهم انما يقودون السفينة بالنيابة . أجل ان « ريّسهم » الأعلى ودكتاتورهم كان موجوداً وان لم تره الأعين التي لم يؤذن لها أن تنفذ الى معتكفه المقدس في القمرة .

وكنت كلما صعدت الى ظهر السفينة اثر نوبة من المراقبة في الاسفل شخصت ببصري تواً الى مؤخرة السفينة لأرى ان كان هناك وجه غريب . ذلك ان قلقي المبهم إزاء القبطان المجهول كاد يصبح لديّ في عزلة البحر بلبالاً منغصاً. وأحياناً كان يلم بي ـ غير مأذون ـ الهذيان الشيطاني الذي سمعته من ايليا الرثّ القَشِف فيزيد في بلبالي على نحو غريب، ويشتد بي التوجس على وجه لم أتصوّره من قبل . وفي مثل تلك الاحوال لم أكن أستطيع مقاومة ذلك الهذيان الشيطاني مثلما أني كنت في لحظات اخرى أتبسم من تلك التخيلات الكئيبة التي أرسلها على مسمعي عرّافُ الارصفة الغريب .

ولكن سواء أكان ما أحس به هو التوجس أو الانزعاج — ان صحت تسميته كذلك — فاني كلما كنت اتلفت حولي في السفينة كان يبدو لي ان استحواذ هذه المشاعر عليّ لا يجد له مسوغاً ؛ نعم ان الزرّاقين وسائر هيئة البحارة كانوا

أشد همجية ووثنية واختلاطاً من أي فريق صحبته على السفن التجارية وتعرفت اليه في تجاربي السابقة، ومع ذلك فاني كنت أعزو هذه المشاعر – وبحقٍ ما أعزوها – الى التفرّد الفذ في طبيعة تلك الحرفة الاسكندناوية التي أسلمتُ اليها نفسي. ولكن منظر الضباط الثلاثة في السفينة كان أقوى معتمد لي لتبديد هذه التوجسات الباهتة واستثارة الثقة والاستبشار في كل مرحلة من مراحل سفرتنا. ليس من السهل أن تجد ثلاثة رجال أو ضباط بحر، لكل امرىء منهم سبيله الفذّ، خيراً منهم. وكل واحد فيهم أمريكي النسبة احدهم من نانتوكت والثاني من فنيارد والثالث من «الرأس». ولما أن كنا في فترة عيد الميلاد حين انطلقت السفينة من الميناء فقد سرنا مسافةً في جو قطبيّ قارس، وان كنا انما نهرب من هذا الجو طوال الوقت متجهين جنوباً، وكلما قطعنا درجة أو دقيقة من تلك العروض خلفنا الشتاء الغشوم وجوَّه الراهق من ورائنا تدريجاً. وفي صباح يوم قليل الاكفهرار إلا أنه ما يزال أطلس متجهماً، في فترة الانتقال من المناخ البارد، والسفينة تجري في ريح رخاء وتشق عباب الماء في وثبات شامتة وسرعة أسيانة، صعدت الى ظهر السفينة تلبية لدعاء نوبة الحراسة قبل الظهر وصوّبت نظري نحو أعلى الكوثلة. اعترتني قشعريرة تنذر بالشرّ. جاز الواقع حدود التوجّس. أمامي على ظهر السفينة يقف آخاب القبطان.

لم تبد لي فيه أية دلالة على مرض جسماني، ولا على نقاهة منه. بدا لي كأنه امرؤ استنقذ من النار بعد أن ربط الى السارية ليحرق، وكانت النار قد سفعت الأعضاء دون أن تلتهمها ودون أن تفني جزءاً واحداً من عنفوانها المعمّر المجدول. وبدت بنيته الشامخة المستعرضة كأنما هي مصنوعة من البرونز الصلب وقد جبلت في شكل لا يدركه التغير كأنها تمثال برسيوس الذي صبّه تشلليني[1]،

---

[1] تمثال برسيوس يحمل رأس مدوزا في فلورنسة من البرونز صنعه بنيفنوتو تشلليني (١٥٠٠-١٥٧١).

واذا نظرت اليه رأيت وسماً دقيقاً كأنه اثر سفود، بين البياض والدكنة ، وقد اتخذ طريقه بين شعره الأشيب واستمرّ نازلاً عن اليمين على احد جانبي وجهه ورقبته اللذين سفعتها الشمس ودبغتها، حتى غاب تحت ملابسه . وهو يشبه ذلك الأثر العامودي الذي يرتسم أحياناً على جذعٍ مستقيم عالٍ من شجرة ضخمة حين ينفذ فيها سهم من البرق العلوي فيشقها، فيسحج اللحاء ويشقه من الرأس الى القاعدة قبل أن يغور في الثرى، مخلفاً الشجرة حية خضراء إلا أنها موسومة دون أن يلوي منها غصناً . هل ولد آخاب يحمل تلك السمة ؟ هل كانت ندباً خلفه جرح رغيب ؟ ما من أحد يعرف وجه اليقين في ذلك . ولكن كأنما أجمع القوم ضمناً ، وبخاصة الضباط، على أن لا يلمحوا اليها خلال الرحلة كلها، إلا أن رئيس طاشطيقو وهو هندي شيخ جايهيدي بين البحارة، أكّد ذات مرة توهماً أن آخاب لم ينل ذاك الوسم إلا بعد أن استكمل الأربعين، وأنه أصيب بـــه في كفاح مع قوى الطبيعة في البحر لا في غمرة عراك بين آدميين . لكن نفى هذا التلميح المفتئت نفياً ضمنياً تلميح آخر أورده شيخ ثانٍ من جزيرة مان، عجوز خفيض الصوت لم يبحر أبداً من نانتوكت ولم تقع عيناه على آخاب قبل ذلك . ومع ذلك فان التقاليد البحرية القديمة والمعتقدات العريقة زوّدت هذا الشيخ بقوى خارقة للطبيعة في المكاشفة . فلم يكن أي بحار أبيض ليناقضه مناقضة جادة حين قال : إن صحّ للقبطان آخاب أن تسجى جثته كمن يموت حتف أنفه، وهذا ما لا أكاد أقول بحدوثه (وتمتم بهذه الكلمات في خفوت) فان من يغسل جثته سيرى سمة الولادة تمتد من رأسه الى أخمص قدمه .

أثرت فيّ طلعة آخاب الجاهمة والوسم الداكن الذي يمتد فيها تأثيراً بليغاً، حتى كدت في اللحظات الأولى أغفل عن أن قسطاً غير ضئيل من جهامتـــه المتشامخة إنما يعزى الى رجله الهمجية البيضاء التي ألقى عليها جانباً من ثقله . وقد سبق لي أن تصوّرت أن هذه الرجل العاجية قد قدّرت له في البحر من العظم الصقيل المنتزع من فـــك حوت العنبر . وذات مرة قال الشيخ الهندي

الجايهيدي : « نعم تحطم صاريه بازاء اليابان ولكنه « ركّب » لنفسه صارياً جديداً قبل أن يعود الى الوطن ، مثلما فعلت سفينته حين تكسرت صواريها، نعم . لديه خُرْجٌ من هذه الصواري » .

ولفتتني وقفته الفريدة التي اعتمدها . في كل جانب من جانبي ظهر الباقوطة خلف الدقل الأعظم قريباً من أشرعة المظين ثقب حفر بالمثقاب، سعته نصف بوصة في المرينة، وقد ثبت آخاب رجله السليمة في واحد من تلك الثقوب، وجعل احدى ذراعيه مرفوعةً ممسكة بطرف المظين، ووقف منتصباً ينظر على مدى مستقيم وراء مقدم السفينة المترنّح على الدوام . وفي تلك النظرة المسددة الجريئة المعلقة بالاتجاه الأمامي يتجلى قدر لا يحدّ من البأس الركين والصلابة الحازمة التي لا تهن ولا تلين . لم ينطق بكلمة، لم يحدثه ضباطه بشيء ، وانما دلت أدق حركاتهم وتعبيرات وجوههم على أنهم يعانون ادراكاً قلقاً، ان لم أقل مؤلماً، بأن الرقيب المسلط يلحظهم بعين كدرة . وليس ذلك فحسب بل إن آخاب ذا المزاج المتقلب وقف أمامهم والألم قد ارتسم على وجهه، في غطرسة وصَيَدٍ ملوكي ثقيل، لا أجد له اسماً دقيقاً، كأنه ويل وبيل .

ولم يطل به الوقوف أول مرة في العراء فانسحب الى قمرته . ولكنه كان بعد ذلك الصباح يبرز كل يوم ويراه الملاحون إما واقفاً مثبتاً رجله في الثقب المحوري وإما جالساً فوق مقعده العاجي او متخطراً على ظهر السفينة بوطء ثقيل . ولما أخذت جهمة السماء تنقشع، أي بدأت تظهر البشر والسماحة بعض الشيء، أخذ آخاب يقلل من اعتكافه وعزلته، كأنه لم يفرض عليه العزلة حين اقلعت السفينة من مرساها إلا زمهرير البحر الشتويّ المرير، ورويداً رويداً أصبح يبرز دائماً أو غالباً ولكن كل ما قاله وما فعله في الواقع على ظهر السفينة حيث انسكبت أشعة الشمس أخيراً جعله يبدو لي حشواً زائداً حيث هو كأنه دقل آخر . إلا أن الباقوطة كانت تمخر البحر حينئذٍ ولم تكن تتجول تجوالاً

منتظماً وكان الضباط ذوي كفاية تامة للاشراف على معظم المعدات والاعدادات اللازمة للتحويت، فلم يكن هناك شيء يستدعي جهود آخاب أو يستثيره للعمل فان وجد شيء من ذلك فهو قليل. وهكذا أخذ يبدد — حينئذٍ — تلك السحب التي كانت قد تكدست، كومة فوق كومة على جبهته، مثلما أن الغيوم جميعاً تختار أعلى القمم لتحتشد من فوقها .

ومع ذلك، لم يمضِ وقت طويل حتى استطاع الاغراء الدافىء الناغم في ذلك الجوّ الممتع المتهلل الذي وقعنا في نعيمه أن يغير مزاج آخاب تدريجاً . ان الغادتين الراقصتين الورديتيّ الخدود، أعني نيسان ونوار، حين تعودان الى الغابات الباردة الناقمة المكفهرة، ترحب بمقدمهما اكبر سنديانة شائخة جاسية عريت من الورق وشققتهـــا الصواعق، وترسل في الأقل بضعة عساليج خضر احتفاء بالقادمتين الجذلتين، كذلك استجاب آخاب في النهاية الى الاغراءات المرحة التي حملها ذلك النسيم اللعوب . وقد انتحل غير مرة برعماً باهتاً من نظرة لو أتيح لرجل غيره لتفتح تواً عن ابتسامة .

٢٩

شجار

مضت بضعة أيام منذ أن خلفت الباقوطة الجليد وجباله من وراء ظهرها ، وأصبحت تتدحرج في ربيع كيتو المشرق، وهو فصلٌ يكاد يهيمن أبداً في البحر عــلى أعتاب آب (أغسطس) الخالد في المناطق الاستوائية . وأصبحت الايام المنعشة الصافية الناعمة العبقة الفياضة الوفيرة كالكؤوس البـلورية التي تترع بالاشربة الفارسية — تطفح بالماورد وتقدِّمُ أفواهها بالثلوج . والليالي البهية المرصّعة بالنجوم كأنهن السيدات المختالات في الحبرات المزينات بالجواهر يتعللن في خيلائهن المتوحدة بذكرى بعولتهن السادة الذاهبين في ميادين الفتح والغلبة ، وما أولئك السادة سوى الايام المشمسة المقنعة بالخوذ الذهبية . فمن كان يريـد النوم تحير ايها يختار : أتلك الأيام الجميلات أم تلك الليالي المغريات . ولكن فنون السحر في ذلك الجو السرمد لم تتحف العالم الخارجي فحسب بتعاويذها وحيويتها الجديدة بل تغلغلت رقاها الى الروح وبخاصة حين كانت تحلُّ الأمسيات الوديعة ، عندئذٍ تظلق الذكريات بلوراتها مثلما يتكون الجليد الصافي في الشفق الصامت . وكل هذه المؤثرات اللبيقة تسللت الى بنية آخاب .

غير أن من علت سنـه يظل صاحياً يأبى الرقاد ، كأن المرء كلما طالت بالحياة صلته نفر من ممارسة اي شيء يشبه رقدة الموت . وأمّار البحر الشيوخ ذوو اللحى الشمطاء هم الذين يغـــادرون أسرتهم ليزوروا ظهر السفينة المجلبب بالظلام . وتلك هي حال آخاب ، إلا أنه في الأيام الأخيرة كان يبدو كأنما يعيش في الهواء الطلق ، حتى لتقول انه كان يلم بالقمرة زائراً وكانت زيارته لها

لماماً ، اذا أنت قست مكثه فيها الى مكثه فوق الألواح الخشبية . وربما كان يتمتم لنفسه : «حين ينزل قبطان مسن مثلي الى هذه الناروزة الضيقة فكأنما ينزل الى قبره ، إني أحس كأني أذهب الى لحد يسمونه سريراً » .

ففي كل أربع وعشرين ساعة تقريباً، حين تنصب الحراسة الليلية، ويقوم الفريق الموجود على ظهر السفينة بالسهر على نوم الفريق في الأسفل ، حتى لو أن حبلاً كان يحتاج أن يسحب على المنارة لما ألقى به البحارة الى الأسفل في جفاء وخشونة كما يفعلون أثناء النهار ، وانما يسقطونه الى مستقره في حيطة وحذر لئلا يزعج رفاقهم النائمين ، أقول : حين يبدأ هذا النوع من السكينة ينسحب على الوجود ، في المعتاد ، يحرس ربُّ الدفةِ الصامت ناروزةَ القمرة ، ولا يمضي وقت طويل حتى يبرز منها الرجل الشيخ وهو يتشبث بالدرابزين الحديدي ليعين رجله على مشيتها الظالعة . كانت فيه لمسة من الانسانية ترعى مشاعر الآخرين ، اذ كان في مثل هذه الساعات يأبى في العادة ان يمتسّ على ظهر السفينة وراء الدقل الاعظم ، ذلك ان ضباطه المنهوكين الذين أخلدوا الى الراحة على بعد ست بوصات من كعبه العاجي قد تطيش بألبابهم أصداء الصلصلة والصرير المنبعثة من تلك الخطوات العظيمة حتى ليرون في منامهم أنياب حيتان القرش وهي تصطك . وذات مرة كانت السوداوية قد استغرقته فأغفلته عن رعاية مشاعر الرفاق ، وذهب يذرع السفينة من أعلى الكوثل حتى الدقل الاعظم بخطى ثقيلة كأنها صخر يتقلّع ، واذ ذاك طلع الضابط الثاني اسطب من أسفل وألمح في دعابة مترددة مستنكرة معاً ان القبطان آخاب ان كان يعجبه « المشي على الخشبة »[1] فلا أحد يستطيع ان ينكر عليه ذلك ، ولكن قد تكون هنالك

---

[1] to walk the planks في العبارة تورية ، فقد كان آخاب يمشي على خشب السفينة ، كما أن المشي على الخشب عقوبة يستعملها القراصنة في السفن اذ يجعلون شخصاً يمشي على الخشبة ثم يزلزلونها تحت قدميه حتى يهوي في البحر .

وسيلة صالحة لكتم الصوت وإخماده ، وألح في غمغمة وتردد الى كرة من القنّب يلبّس بها الكعب العاجي . ويلك يا اسطب ! انـــك لم تكن تعرف آخاب حينئذٍ .

قال آخاب : « أأنا قنبلة مدفـــع يا اسطب حتى انك تريد ان تحشوني كذلك ؟ لا بأس قل ما تريد فأنا قد نسيت . أهبط الى قبرك السفليّ المظلم فاذا اندسست بين أكفانك ، اتخذناك في النهاية كبّة غزل . اهبط ايها الكلب وانجحر » .

انعقد لسان اسطب لحظة حين أفزعته الخاتمة غير المتوقعة في كلمات الشيخ الذي انقلبت لهجته فجأة الى سباب وتحقير، ثم قال في انفعال : « لست متعوداً ان يوجه اليّ الكلام بهذه اللهجة يا سيدي ؛ لقلّما أطيق مثـــل هذه اللهجة يا سيدي » .

— « صه » ! ذلك هو الصوت الذي صرّت به أسنان آخاب وتحرك بعنف مبتعداً كأنما يريد ليتجنب حوافز الهياج .

فتجرأ اسطب وقال : « لا يا سيدي، على رسلك . لا أريد أن أدعى كلباً ، استذلالاً » .

— « اذن فليقل لك عشر مرات انت حمار وبغل وأتان ؛ وانقشع والا كنستك من العالم جملة » .

وفيما هو يتلفظ هذه الكلمات اقترب من اسطب وفي طلعته مفزعات مروعة حتى ان اسطب تراجع من وجهه لا إرادياً .

فتمتم اسطب وقد وجد نفسه يهبط الى ناروزة القمرة : « لم يعاملني أحد

هذه المعاملة من قبل دون ان اردّ عليها بالمثل . هذا غريب . قف يا اسطب .
لا أدري أأرجع فأضربه أم ... ما هذا ؟ — أركع على ركبتيّ وأتوسل اليه
داعياً ؟ نعم، هذه هي الخاطرة التي عنّت لي . ولكنها تكون أول مرة أركع
فيها داعياً مصلـّياً . غريب ، غريب جداً ؛ وهو رجل غريب أيضاً . نعم خذه
من أساسه الى راسه ، يــكاد ان يكون أغرب شيخ أبحر اسطب معه . يا لله
كيف اندفع نحوي ! عيناه كخزانتي البارود في البندقية ؛ أهو مجنون ؟ على اي
حال به مسّ وهذا أمر اكيد مثلما ان ظهر السفينة لا يقعقع إلا ان يكون فوقه
شيء. ثم هو لا يستلقي في سريره هذه الايام إلا ثلاث ساعات من أربع وعشرين،
ولا يغفو في اثنائها . ألم يخبرني خازن المؤن ، الغلام العجّان انه في الصباح يجد
فراش أرجوحة الرجل العجوز كله معكوكاً مقلوباً والملاءات قد لبكت عند
آخر السرير ، والغطاء يكاد ان يكون ملوياً مثنياً في عقد ، والوسادة ساخنة
سخونة مفزعة كأن آجرة محماة كانت فوقها ؟ عجوز حار حاد . أظن لديه مـا
يسميه بعض الناس على البر ضميراً ، ويقولون انه نوع من الاختلاج النورالجي ،
أسوأ من ضربان الضرس . طيب . لا بأس . أنا لا أعرف ما هو ولكني أسأل
الله ان يحميني من عدواه . وهو مليء بالألغاز ولا أدري سرّ ذهابه الى العنبر
الخلفي كل ليلة حسبما حدثني الغلام العجّان وقال انه يظن انه يذهب هنالك . لم
يذهب ؟ أريد ان أعرف . مَن الذي يعده اللقاء في ذلك العنبر ؟ أليس هـــذا
عجيباً ؟ ولكن لا أحد يدري . ها هنا تستمر اللعبة القديمة — يذهب لينال
غفوة . عليّ اللعنة ، جدير بنا ان نأتي الى هذا العالم حتى ولو لم يكن نصيبنا
منه الا ان ننطرح نائمين . وها انا يخطر لي هذا الأمر ، وهو اول شيء يعمله
الطفل حين يولد، وهذا شيء غريب ايضاً . عليّ اللعنة ، لكن كل الاشياء غريبة
حين نفكر فيها إلا أن التفكير في الامور ضد مبادئي . « لا تفكر » تلك هي
الوصية الحادية عشرة التي انقاد لها . « نم حينما تستطيع » هي الوصية الثانية
عشرة — هكذا إذن . ولكن كيف ؟ ألم يدعني كلباً ؟ المشنوع ! ودعـــاني
عشر مرات حماراً وكدّس فوق ذلك كله مجموعة من الأتن، كان في مقدوره ان

يرفسني ويتمم منظر الحمير . لعله رفسني ولم أشعر فقد أفزعتني جبهته بعض الشيء ، اذ أومضت كأنها عظمة مغسولة. يا للشيطان ما بي ؟ انا لا أقف منتصباً على رجلي . اصطدامي بذلك العجوز قد لخبط كياني . تالله كنت أحلم . كيف؟ كيف ؟ كيف ؟ — لكن الطريقة الوحيدة ان أكتم الأمر . الى السرير إذن . وفي الصباح أرى كيف تلوح للفكر هذه الفعلة الاحتيالية المزعجة » .

٣٠

الغليون

حين انصرف اسطب وقف آخاب هنيهة منحنياً عــلى جدار السفينة ثم استدعى ، كما أصبحت عادته في الايام الاخيرة ، احد بحارة النوبة وأرسله الى القمرة ليحضر له مقعده العاجي وغليونه . وأشعل الغليون من المصباح الموضوع عند صندوق الابرة المغناطيسية ، وثبت المقعد مستقبلاً الريح وجلس يدخن .

تقول الأسطورة ان عروش الملوك الدنماركيين المغرمين بالبحر في غابر أيام الامم الشمالية كانت تصنع من أنياب النـّرول . فكيف يستطيع أمرؤ ان ينظر الى آخاب حينئذٍ وقد جلس على ذلك المقعد المصنوع من العظام دون ان تخطر له السمة الملكية التي يمثلها . كان آخاب خاقان سفينة ، وملكاً عـلى البحر ، وسيداً عظيماً على الحيتان .

مضت بضع لحظات انطلق فيها الدخان من فمه في نفثات سريعة مسترسلة ارتدت الى وجهه ، وأخيراً أخذ يناجي نفسه وقد سحب الغليون من فمه : « ما لهذا الدخان لم يعد يهدئني . آه يا غليوني ! ستكون حياتي عسيرة اذا تلاشى سحرك عني ؛ ها هنا كنت أجهد دون وعي ، من غير استمتاع ، أجل وللجهلي جعلت أدخن ضد الريح طول الوقت . ضد الريح وبمثل هذه النفثات العصبية كأن نفثاتي الاخيرة هي أقوى النفثات وأحفلها بالاضطراب ، شأني في ذلك شأن الحوت المحتضر . مـــا شأني بهذا الغليون ؟ هذا الشيء الذي يراد

للتسكين ، لإرسال أبخرة لطيفة بيضاء بين شعرات بيض لطيفة لا بين خصل في دكنة الحديد مثل خصلي . سأكف عن التدخين » .

قذف بالغليون الذي ما يزال مشتعلاً في البحر [١] ، وسمع حسيس جمرته بين الامواج ، وفي اللحظة نفسها ضربت السفينة الحبب الذي أحدثه الغليون الغارق . أما آخاب فأخذ يذرع السفينة وعلى رأسه قبعة منكفئة الحوافي .

---

١ قد تقدم في الفصل العاشر ص: ١٠٢ كيف أن تبادل الانفاس من غليون واحد كان رمز صداقة حميمة بين اسماعيل وكويكوج، وها هو آخاب يقذف بغليونه في البحر وتلك امارة على أنه يستسلم لشيطانه ويكسر « طوق الانسانية السحري » . كان ملفل نفسه يحب التدخين فهو يستعمله في أدبه رمزاً للراحة والاطمئنان .

٣١ ربة الاحلام

في الصباح التالي دنا اسطب من فلاسك محيياً وقال :

« مثل هذه الرؤيا لم أرَ في حياتي ايها الدعامة الكبرى ؟ أنت تعرف الرجل العاجية التي يمشي بها الرجل العجوز . رأيت في المنام أنه ركلني بها، وحين حاولت أن أرد عليه بالمثل، وحياة روحي، يا رفيّق، انخلعت رجلي . ثم بلمح البصر ! بدا آخاب هَرَماً وأنا آخذ في ركله كأني أحمق ممرور . وأغرب من هذا يا فلاسك – وأنت تعلم مبلغ غرابة الأحلام جميعاً – أني خلال هذه السورة الغضبية التي انتابتني رأيتني أقول لنفسي : إن تلك الركلة التي سدّدها اليّ آخاب، في آخر الأمر – ليست إهانة لي . قلت لنفسي : ما ضرّ ؟ علامَ كلّ هذه الحناقة ؟ هذه ليست رجلاً من لحم وعظام إنما هي اصطناعية . وبين الضربة الحية والأخرى الميتة فرق كبير . هذا هو الذي يجعل ضربة اليد يا فلاسك ، مذلة مؤلمة للمرء خمسين مرة اكثر من الضرب بالقناة . العضو الحيّ هو الذي يحدث الاهانة الحية يا بنيّ . وأقول لنفسي طوال ذلك كله، إفهمْ، وأنا أخبط أصابع قدمي الكليلة ضد ذلك الهـَرَم اللعين، وكل شيء يحدث في تناقض مضطرب، طول الوقت، أقول : كنت أقول لنفسي : هل رجله إلا قناة – قناة من عظم الحوت . وأقول أيضاً : نعم إن الضرب لم يكن إلا دعابة، في الواقع لم يكن إلا رَمْحاً بعظم الحوت لا رفسة مهينة . ثم أقول لنفسي : « بل انظر اليها مرة، الى نهايتها، أي موضع القدم، ما أصغرها . بينا لو ركلني فلاح عريض القدم، لكانت تلك اهانة شيطانية عريضة . أما هذه الاهانة فقد

استدقت واستدقت حتى أصبحت نقطة . ثم تأتي النكتة الكبرى في الحلم، يا فلاسك . بينا كنت أركل الهرم ظهر لي انسان الماء العجوز (المرمان) وعليه شعر كشعر الغرير، وله في ظهره حردبة وأمسك بي من كتفي وذبحني . كان يقول لي : ماذا تحاول ؟ تحرّك أيها الرجل، ولكنني كنت خائفاً . يا لها من فراسة ! الا أني في اللحظـــة التالية أتيح لي أن أتغلب على الخوف . « ماذا أحاول ؟ » ذلك ما قلته لنفسي أخيراً . وأي دخل لك في هذا، أود ان أعرف أيها الأحدب.؟ أتريد انت ركلة ؟ والله يا فلاسك ما كدت ألفظ هذه الجملة حتى أدار لي مؤخرته وانحنى ونزع عنه كمية من عشب البحر كان قد اتخذها تباناً . ماذا تظنني رأيت ؟ وحق الرعد ايها الرجل كانت مؤخرته قد غرزت فيها كلها مخارز رءوسها الى خارج . وقلت في نفسي بعد ان تروّيت في الأمر : « اظنني لا أريد ان اركلك أيها الرفيق العجوز » فقال : « عاقل يا اسطب، عاقل يا اسطب » ، وظل يتمتم بهذه العبارة طول الوقت كأنه يتغذى من لثته مثل عفريتة المدخنة . ولما رأيت أنه لا يريد أن يكف عن قوله : « عاقل يا اسطب، عاقل يا اسطب » خطر لي انني قد أنحي على الهـرَم ركلا كرة أخرى . وما كدت أرفع قدمي حتى زأر : « كف عن الركل » فقلت : « مرحباً . ما المسألة أيها الرفيق القديم ؟ » فأجابني : اسمع يا هذا تعال نبحث في أمر الاهانة . ركلك القبطان آخاب . أليس كذلك ؟ فقلت : بلى لقد فعل . ها هنا وقعت قدمه . فقال : طيب . واستعمل رجله العاجية ، أليس كذلك ؟ فقلت : بلى لقـــد فعل . فقال : طيب يا اسطب يا عاقل من أي شيء تتذمر ؟ ألم يركلك بنيّةٍ حسنة ؟ لم تكن رجلا من الخشب المقيّر تلك التي ركلك بها . أكانت كذلك ؟ كلا بل ركلك رجل عظيم ذو رجل عاجية جميلة يا اسطب . هذا شرف . أنا أعده شرفاً . اصغِ اليّ يا اسطب يا عاقل . في العهود القديمة بانجلترا كان أعاظم اللوردات يعدون من المجد الرفيع ان تصفعهم الملكة وتجعل منهم أنجد الفرسان . ليكن موضع فخرك يا اسطب أن آخاب الشيخ ركلك وجعل منك امرءاً عاقلا . تذكر ما أقوله لك : اجعله يركلك . عدّ ركلاته

شرفاً لك ولا تردّ عليه بالمثل لانك لا تستطيع أن تعين نفسك يا اسطب يا عاقل . ألا ترى ذاك الهرم ؟ وفجأة بدا لي على نحو غريب أنه يعوم في الفضاء، فأرسلتُ شخيراً، وانقلبتُ على الجانب الآخر ووجدتني في أرجوحتي . فماذا ترى في هذا الحلم يا فلاسك ؟ »

– لا أدري يبدو لي شيئاً من الحمق .

– ربما . ربما؛ ولكنه جعلني عاقلا يا فلاسك . هل ترى آخاب واقفاً هنالك يوارب النظر من على مؤخرة السفينة ؟ خير ما تستطيع ان تعمله يا فلاسك أن تدع ذلك العجوز وحده . لا تكلمه مهما يقل لك . ويك . ها هو يصرخ فماذا يقول ؟ أنصت !

– انتم عند رأس الصاري . حددوا الابصار جميعاً . ها هنا حيتان من حوالينا . اذا رأيتم حوتاً أبيض فأنذرونا بأصوات جهورية تشق الصدور .

– ماذا ترى في هذا يا فلاسك ؟ ألست ترى نقطة صغيرة من شيء مستهجن مستغرب فيه ؟ مش كده ؟ حوت أبيض ، هل أدركت هذا ؟ اسمع – في الريح شيء فريد . قف متأهباً يا فلاسك . على عقل آخاب شيء دموي . صه ! ها هو قادم نحونا .

٣٢ علم الحيتان

لقد توغلنا في أحضان العباب وعما قليل نغيب في مدّه المترامي بلا ساحل ولا مرفأ أمين . لكن قبل أن يتم هذا ، قبل ان يتدحرج هيكل الباقوطة المطحلب الى جانب هياكل الحوت المحلزنة، من المناسب في البداية ان نلتفت الى مسألة يكاد لا يستغني عنها من شاء أن يدرك ما يتلو من معلومات عن الحوت واشارات مختلفة اليه .

وانه ليسرني ان أقدم اليكم في هذا المقام عرضاً منظماً عن مختلف أجناس الحوت . غير أن مهمتي هذه ليست سهلة، اذ التصنيف لا يعدو ان يكون تصنيفاً لمشمولات الفوضى، ولا تتضمن المحاولة شيئاً أقلّ من ذلك . اصغوا الى ما قاله خير الحجج الاثبات وأحدثهم رأياً :

قال القبطان اسكورسبي (١٨٢٠) : « ليس في علم الحيوان فرع اكثر تعقيداً من ذلك الذي يسمونه علم الحيتان » .

وقال الجرّاح بيل (١٨٣٩) : «ليست غايتي، لو كان لي في الأمر يدان، أن أدخل في بحث عن الطريقة المثلى لتقسيم الحيتان الى فئات وأسر . . . فالاضطراب المطلق قائم بين من يؤرخون لهذا الحيوان » (حوت العنبر) .

وهاك أقوالاً أخرى : « ضعف الاستعداد اللازم لمتابعة أبحاثنا في الأمواه

التي لا يسبر غورها » — « حجاب كثيف يعز النفاذ منه يقف دون معرفتنا عن الحيتـــان » — « هذا ميدان قد نثرت فيه الاشواك » — « وكل هذه الدلالات الناقصة انما تعذبنا نحن علماء التاريخ الطبيعي » .

هكذا تحدث عن الحوت كل من كوفييه العظيم وجون هنتر، ولسون، بدورُ علم الحيوان والتشريح . ومع ذلك فان كانت المعرفة الصحيحة منزورة يسيرة فان الكتب عديدة وفيرة ؛ وكذلك هي الحال الى حد ما في علم الحيتان . فكثيرون هم الذين كتبوا عن الحوت كباراً وصغاراً، قدامى ومحدثين، أهل برّ وأهـــل بحر، ومنهم من أسهب ومنهم من توخى الايجاز . تعال نعد بعضهم : منهم مؤلفو كتاب يهود، وأرسطوطاليس وبليني والدروفاندي والسير توماس براون وجسنر وراي ولنايوس وروندليتيوس وويلوبي وجرين وارتيدي وسيبولد وبريسون ومارتن ولاسيبيد وبونتير ودزمارست وبارون كوفييه وفردريك كوفييه وجون هنتر واوين وسكورسبي وبيل وبنت و ج. روس براون ومؤلف Miriam Coffin وأولمستد والقسيس ت. شيفر . ولكن ما الغاية القصوى التعميمية التي من أجلها كتب هؤلاء، ذلك ما تبينه المقتبسات السابقة .

ولم يرَ حوتاً حياً من هؤلاء المؤلفين الذين سُردت اسماؤهم سوى من ذكرتهم بعد أوين ، ولم يكن فيهم حوّات ورمّاح محترف إلا واحد هو القبطان اسكورسبي فهو خير حجة في شأن «الحوت الأثين» أو حوت جرينلاند، ولكن اسكورسبي لم يعرف شيئاً ولم يقـــل شيئاً عن حوت العنبر الكبير الذي اذا قارنت به « الحوت الأثين » وجدت هذا الثاني يكاد لا يستحق ان يذكر . ويجب أن أقرر في هذا المقام أن الحوت الاثين مغتصب يجلس على عرش البحار بل انه ليس بأية حال أضخم الحيتان وقد وطّد له الاغتصاب سبقه الى الاستئثار بالعرش وتراخي الزمن على تتويجه، والجهل العميق الذي بقي الى ما قبل سبعين سنة يكتنف حوت العنبر ويخيـــل للأذهان انه شيء أسطوري أو شيء غير

معروف اطلاقـــاً ، ولا يزال هذا الجهل سائداً في جميع المجالات إلا في بعض صوامع العلماء وموانىء التحويت . ان الرجوع الى جلّ الاشارات الواردة عن الحيتان لدى الشعراء العظام في الازمان الغابرة سيدلكم على أن الحوت الاثين كان في نظرهم عاهل البحار دون منازع . وأخيراً حان الأوان لبيعة ملك جديد . وهذا هو مكان البيعة [١] . أصغوا اليّ أيها الناس الطيبون جميعاً ! لقد عزل الحوت الاثين -- وتولى العرش حوت العنبر !

ليس هناك الا كتابان يقدّمان لكم حوت العنبر الحيّ على حقيقته، ويوفقان في ذلك الى أقصى حدّ من بين جميع الكتب التي تزعم لنفسها ذلك . وهما كتاب بيل وكتاب بنت وكان كل منهما في زمنه جراحاً على سفن التحويت الانجليزية التي ترتاد البحر الجنوبي وكلاهما دقيق ثقة . وما في كتابيهما من مادة حول حوت العنبر ضئيل ضرورةً، ولكنها في بابها مادة من نوع ممتاز وان كانت في معظمها مقصورة على الوصف العلمي . ومهما يكن من شيء فان حوت العنبر من الناحيتين : العلمية او الشعرية غير واضح القسمات في أي أدب . فلم يجد من يخطّ سيرته مع أنه يسمو سموّاً بالغاً على كل ما يصاد من الحيتان .

وتحتاج الفصائل المختلفة من الحيتان نوعـــاً من التصنيف الشامل المقرّب للمعرفة حتى ولو جاء في شكل مَسْرَدٍ ميسر بما يسد الحاجة الراهنة على أن يتولى الخلف العاملون في الميدان استكمال أبوابه والاضافة الى ما وضعه السلف، على التوالي . وبما أنه لم يتقدم الى تحقيق هذا الأمر من هم خير مني معرفة واطلاعاً، أراني أتقدم في هذا الصدد بجهودي المتواضعة . ولست أعدكم بأن يكون عملي

---

١ في الاصل : هذه هي مربعة تشارنج (Charing Cross) وكانت مركز لندن منها يبدأ قياس المسافات بالأميال ومنها يعلن النداء بملك جديد .

كاملاً، فكل أمر انساني يظن فيه الكمال لا بد من أن يكون لهذا السبب عينه غير بريء من النقص والخطأ. ولست أزعم أني سأقوم بوصف تشريحي دقيق لمختلف الفصائل، أو أنني في هذا الموضع على الاقل سأسهب في الوصف. غايتي هاهنا رسم مسودة من تصنيف للحيتان فأنا المهندس ولست المعمار الباني.

إلا أنها مهمة جسيمة لا يحسنها أي «فرّاز» عاديّ للرسائل في دائرة البريد. انه لأمر مخيف ان أذهب في الاعماق خلف الحيتان متحسساً، مخيفٌ أن يضع المرء يديه في أسس العالم الهائلة وأضلاعه وعظام حوضه نفسها. ومن أنا حتى أسعى لأعلق هذا اللوياثان من أنفه بصنارة؟ لعلني أتعظ بالزواجر الرهيبة التي وردت في سفر أيوب: «هل يقطع (أي لوياثان) معك عهداً فتتخذه عبـــداً مؤبداً ... هوذا الرجاء به كاذب» (٤١: ٤، ٩). ولكني غصت في عالم المكتبات وأقلعت في ارجاء المحيطات، تمرست بيدي هاتين بالحيتان وأنا جاد مخلص فيما أنتويه وأود ان أحاول، ولكن لا بد من تمهيد أجلو به مسألتين:

أولاهما: ان علم الحيتان ما يزال غير يقيني، غير مستقر على وضع حاسم؛ وشاهدي على ذلك لأول وهلة أن بعض الجهات لا تزال تناقش في هوية الحوت: أهو سمكة أم لا. يقول لينايوس (١٧٧٦) في كتابه «نظام الطبيعة»: «بهذا أود أن أفصل بين الحيتان والأسماك». ولكنني أعلم أنه رغم هذا التصريح الجليّ الذي أورده لينايوس ظلّ القرش والشبوط والرنجة والنوع الذي يسمى من الرنجة «انثى الآل» حتى عام ١٨٥٠ كلها تشارك اللوياثان نفس البحار.

. ويورد لينايوس الاسباب التي جعلته يكاد ينكر على الحيتان ان تكون حيوانات مائية على النحو التالي: «ان قلبها حار ذو مخدعين ولها رئتان وجفنان يتحركان وأذنان مجوفتان penem intrantem feminam mammis lactantem — ex lege naturæ jure meritoque. وقد أطلعت على هذا كله

صديقي* سيمون ماسي وشارلي كوفن من نانتوكت وكلاهما كان رفيق المائدة في احدى السفرات، واتفق رأياهما على أن هذه الاسباب المقدّمة غير كافية، بل أضاف شارلي يقول بلهجة جحودية انكارية إنها أسباب من قبيل النصب والاحتيال .

وليعلم من شاء أنني نحيت الجدل جانباً وأخذت الرأي القديم القائل بأن الحوت من السمك واستنصرت يونان المقدس ليسندني في الرأي . وما دمت قد سويت هذه المسألة الجوهرية فان النقطة التالية- هي : على حسب أي اعتبار داخلي يختلف الحوت عن سائر السمك ؟ لقد قدّم لينايوس وجوه الخلاف قبل قليل وهذه هي في ايجاز : الرئتان والدم الحار بينا سائر السمك ذو دم بارد وليس له رئتان .

وثانيتهما : كيف نعرّف الحوت بمظاهره الخارجية الواضحة حتى نسمه بسيماه أينما عرض لنا في المستقبل ؟ أوجز فأقول : الحوت سمكة نفاثة ذات ذنب أفقي . هذا هو الحوت ؛ فان كان التعريف موجزاً فاعلم انه نتاج تأمل طويل. قد تقول : ان الفظ حيوان نفاث، هذا صحيح ولكنه ليس سمكة لانه برمائي . واذا أخذت الشق الاول من التعريف مع الثاني، جاء مقنعاً مرضياً . ويكاد كل امرىء ان يكون قد لاحظ ان جميع السمك الذي يعرفه أهل اليابسة ليس له ذنب منبسط وانما ذنبه عمودي أو منشعب . أما في السمك النفاث فان الذنب قد يتخذ هذا الشكل نفسه إلا أنه يظل أفقي الاتجاه دائماً وأبداً .

ولست أقصد من هذا التعريف الذي أوردته للحوت أن انفي من حظيرة الحيتان أي مخلوق بحري وضعه في تلك الحظيرة أهل نانتوكت العارفون الخبيرون، ولا أريد ان أزج فيها بأية سمكة يعدها هؤلاء الثقات غريبة أجنبية

على الحيتان * لذلك لا بد أن تضاف في هذا الجدول من علم الحيتان جميع الاسماك الصغيرة النفاثة ذات الذنب الأفقي . وهذه هي الاقسام الكبرى في قبيل الحيتان :

اولاً : أقسم الحيتان – حسب الجرم – في ثـــلاثة كتب اولية (يتفرع كل كتاب منها الى فصول) وستشمل هذه الكتب جميع الاصناف من كبير وصغير. والكتب هي : ١ – الحوت من القطع الكبير ٢ – الحوت من قطع الثمن (١/٨) ٣ – الحوت من قطع جزء من اثني عشر (١/١٢) واذكر من نماذج النوع الاول « حوت العنبر » ، ومن النوع الثاني : « الغرمبوز » ومن النوع الثالث « البربوز أو الدّوحر » .

الكتاب الاول : يحتوي – فيما يحتويه – الفصول الآتية : ١ – حوت العنبر ٢ – الحوت الاثـــين ٣ – الحوت المزعنف او المناري ٤ – الحوت المسنم ٥ – الهركول ٦ – الحوت الازرق .

الكتاب الاول (القطع الكبير) – الفصل الاول : **حوت العنبر** : يعرفه الانجليز القدماء – في ابهام – باسم « إوال ترومبا » Trumpa Whale و « إوال فيستر » Physeter Whale و «الحوت الذي رأسه كالسندان » Anvil Headed Whale ويعرفه الفرنسيون اليـــوم باسم « القشلوط » Cachalot والالمان باسم

---

* انا اعرف انه حتى وقتنا الحاضر لا يزال كثير من الطبيعيين يعدون السمكة التي تسمى Lamatins والاخرى التي تسمى « الاطومـــات » Dugongs (وتسميها عائلة كوفن في نانتوكت باسم السمكة الخنزير Pig-fish والسمكة الخنزيرة Sow-fish) ، من جملة الحيتان. ولكن بما ان هذين النوعين بجموعة اتافية مهينة تتربص في معظم الاحوال عند مصبات الانهار وتغتذي بالتبن المبلول، وبما أنها لا ينفثان، لذلك انكر عليها النسبة الى الحيتان وقد قدمت لها جوازي سفرهما كي يغادرا مملكة علم الحيتان .

Pottsfich ويسميه العلماء « مقروقفال » Macrocephalus . وهو دون ريب أضخم من يقطن هذه الكرة الارضية ، وأشد الحيتان التي يواجهها الانسان إخافة ، وأجلّها منظراً ، واكثرها في التجارة قيمة اذ هو الحيوان الوحيد الذي تؤخذ منه المادة القيمة التي يسمونها زيت العنبر Spermaceti . وسأفيض القول في خصائص هذا الزيت في مواضع أخرى كثيرة . اما في هذا المقام فأكثر ما يهمني هو اسمه . فاذا اعتبرت اسم الزيت (اي Spermaceti) من زاوية فقه اللغة وجدته سخيفاً . منذ بضعة قرون، حين كان حوت العنبر في صورته المتعينة مجهولاً او يكاد ، وعندما كان زيته يؤخذ عرضاً من السمك الذي يطرح على الشواطىء، في تلك الايام كان يظن ان زيت العنبر يؤخذ من حيوان صنو للحوت المعروف في انجلترا باسم الحوت الاثين او حوت جرينلاند (القاطوس) وكان الناس أيضاً يظنون ان هـذا الزيت المسمى Spermaceti انما هو منيّ الأثين (القاطوس) لان كلمة Sperm تفيد هذا ، و ceti تعني « قاطوس » . وفي تلك الايام كان زيت القاطوس هذا بالغ الندرة لا يستعمل في الاضاءة وانما يقتصر استعماله على اتخاذه مرهماً ودواءً . ولا يحصل عليه المرء الا من الصيادلة مثلما تشتري اليوم أوقية من الراوند . وعلى مرّ الزمن — فيما أرى — عرفت حقيقة هذا الزيت ولكن ظل اسمه القديم مع ذلك عالقاً به لدى البائعين وذلك — دون ريب — ليوهموا أنه نادر فتزيد بذلك قيمته ، ثم نقلت التسمية الى الحوت الذي يستخرج منه ذلك الزيت .

الكتاب الاول (القطع الكبير) — الفصل الثاني : **الحوت الاثين** : يعد هذا الحوت من احدى النواحي اكثر أنواع اللوياثان التي يجلّها الانسان ويقدرها لانه أول نوع كان يصيده الانسان بانتظام . ومنه تؤخذ المادة التي تسمى عظم الحوت او البلين ، والزيت الذي يعرف بخاصة باسم « زيت الحوت » وهو مادة ضئيلة القيمة في التجارة . ويطلق عليه الصيادون جميع الألقاب الآتية دون تمييز : الحوت — حوت جرينلاند — الحوت الأدهم « حوت الجليد » — الحوت العظيم —

الحوت الصحيح – الحوت الأثــــين . وهناك قسط من الغموض فيما يتصل بهوية الأنواع التي تطلق عليها هذه الاسماء . فما هو هذا الحوت الذي أضعه ثانياً في الكتاب الاول من هذا التصنيف ؟ هو الذي يسميه علماء التاريخ الطبيعي من الانجليز باسم «السبلحوت العظيم» Great Mysticetus ويسميه حواتو الانجليز : حوت جرينلاند ، وحواتو الفرنسيين باسم البلينة العادي ، والسويديون باسم بال جروفلاند Growlands Walfish . وهو الحوت الذي كان يصيده الانجلـــيز والهولنديون على مدى القرنين الماضيين في البحار القطبية الشمالية . وهو الذي طالما طارده الصيادون الامريكيون في المحيط الهندي وعلى ضفاف البرازيل وعلى الشاطىء الشمالي الغربي وجهات أخرى مختلفة من العالم سمّوها مناطق صيد الحوت الاثين .

ويزعم بعضهم أنه يجد فرقاً بين حوت جرينلاند لدى الانجليز والحوت الاثين لدى الامريكيين ، ولكنهما يتفقان اتفاقاً دقيقاً في الملامح الكبرى ، ولم يقدم أحد حقيقة واحدة حاسمة تقيم بينهما فرقاً أساسياً . إلا أن بعض دوائر التاريخ الطبيعي تعمد الى التعقيد المنفّر لكثرة حرصها على التفريع الكثير القائم على فروق واهية . وفي موضع آخر سأتناول الحوت الأثــــين باسهاب عند إفاضة البيان عن حوت العنبر .

الكتاب الاول (القطع الكبير) – الفصل الثالث : **الحـــوت المزعنف او المناري** : أضع تحت هذا العنوان وحشاً متعدد الاسماء : فهو المزعنف Finback وذو النفاثة الطويلة Tall-Spout وجون الطويل Long-John ؛ يكاد الناس أن يكونوا رأوه في كل بحر ، وهو الحوت الذي يستبين المسافرون نفاثته البعيدة وهم يعبرون الأطلسي في المراكب النيويوركية . وهو يشبه الحوت الاثين في طوله وبلينه ، إلا انه أقل منه قطراً وأخف لوناً ، يقترب لونه من الزيتون ؛ ومشفراه الضخمان يمثلان منظراً يشبه الحبل اذ يتكونان من طيات متشابكة منحرفة

ذات تجاعيد ضخمة . اما المظهر الكبير الذي يميزه وبه سمّي فهو زعنفته وهي في الغالب شيء واضح بارز ، طولها ثلاثة أقدام او اربعة تمتد رأسياً من القسم الخلفي من الظهر وذات شكل زاويّ ولها طرف حديد جداً . ولو ان الحوت اختفى فلم يظهر منه أدنى شيء لظلت هذه الزعنفة المستقلة احياناً بارزة فوق السطح بوضوح ، وحين يعتدل البحر الى السكون وتنداح فيه التغضنات الدائرية بعض انداياح وتقف هذه الزعنفة التي تشبه عقرب المزولة منتصبة وترسل ظلالاً على السطح المجعد فان المرء قد يحسب الدائرة المائية المحيطة بها شبيهة بالمزولة بعض الشيء ، لها ميل المزولة ، وخطوطُ الساعات المتموجة محفورة عليها . وغالباً ما يذهب الظل على هذه المزولة [1] الى الخلف ، والحوت المزعنف « غير مدنيّ » اي لا يحب الانتماء الى القطيع ، فهو يبدو كأنه يكره الحيتان مثلما ان بعض الناس يكرهون الناس . خجول ، متفرد دائماً ، على غير توقع يصعد الى السطح في أنأى البحار وأشدها ركوداً . ونفاثته المستقيمة العالية ترتفع كأنها حربة طويلة تبغض البشر ملقاة على سهل قاحل . وهب قوة عجيبة وسرعة في السباحة بحيث يتحدى أية مطاردة يقوم بها الانسان . وكأن هذا اللوياثان هو قابيل الطريد العنيد بين أبناء جنسه ، وقد جعل سمته ذلك الميل القائم فوق ظهره . وبما أن بلينه في فمه فان البعض أحياناً يدرجه هو والحوت الأثين في فصيلة نظرية يسمونها « الحيتان البلينية » ومنها، فيما يبدو، أنواع عديدة اكثرها غير معروف ؛ ويسمي الصيادون بعض أنواعها بالاسماء التاليـــة : الحيتان ذات الأنوف المستعرضة – الحيتان المنسّرة ذوات المناقير – الحيتان المحرّبة الرءوس – الحيتان المحدّبة – الحيتان ذوات الفك الاسفل الضخم – الحيتان ذوات المخطم.

من الهام ان أذكر فيما يتصل بهذه التسميات التي تطلق على الحيتان البلينية

---

[1] في الاصل Ahaz-dial وذلك ناظر الى ما ورد في أشعيا ٣٨ : ٨ « ها أنا ذا أرجع ظل الدرجات الذي نزل في درجات آحاز بالشمس عشر درجات الى الوراء ... » .

أنها قد تسهل الاشارة الى بعض أنواع الحيتان ولكن لا طائل في محاولة انشاء تصنيف واضح للويائان مؤسس على بلينه او حدبته او زعنفته او أسنانه، هذا على الرغم من أن هذه الاعضاء او الملامح - اذا اتخذت أساساً في بناء كيان منظم من علم الحيتان - بدت أصلح من المميزات الجسدية الاخرى التي تبرز مختلفة في مختلف أنواع الحيتان. أنـّى ذلـك؟ هذه الملامح من بلين وحدبة وزعنفة في الظهر وأسنان: موزعة دون تمييز على جميع أنواع الحيتان بقطع النظر عما تكون طبيعة بنائها من حيث الخصائص الجوهرية الاخرى؛ فالحدبة المسنمة موجودة في حوت العنبر والحوت المسنم الاحدب على السواء، ثم تنقطع وجوه الشبه بينهما. وهذا الحوت الاحدب المسنم وحوت جرينلاند كلاهما ذو بلين، ثم لا شبه بينهما بعد ذلك. وهكذا قلْ في الاعضاء والملامح الاخرى التي تقدم ذكرها. فاذا أخذت أنواعاً مختلفة من الحيتان وجدت تلك الملامح تجتمع او تفترق على غير نظام؛ واذا أخذت أحد الانواع على حدة وجدت أحد الملامح فيه يشذّ عما هو عند غيره. وهذا كله يستعصي على كلّ تصنيف عام تتخذ فيه تلك الملامح أساساً. تلك صخرة تحطمت عندها جهود كل عالم من علماء التاريخ الطبيعي.

وقد يظن البعض أننا اذا اعتبرنا الاجزاء الداخلية من الحوت، أي الجانب التشريحي فيه، فهناك على الأقـل نستطيع ان نعثر على التصنيف الصحيح. وأقول: كلا. خذ الجانب التشريحي من حوت جرينلاند - مثلاً - أهناك شيء فيه أهم من بلينه؟ وقد رأينا انه من المستحيل ان نصنف حوت جرينلاند على أساس بلينه تصنيفاً صحيحاً. واذا اعتبرت أحشاء الانواع المختلفة من الحيتان لم تجد مميزات تبلغ في نسبتها واحداً الى خمسين من المميزات الخارجية التي عددناها من قبل. ماذا يتبقى اذن؟ لا شيء سوى ان نأخذ جسم الحوت، بحجمه المستفيض كله، ونتخذه أساساً في التصنيف دون تردد. وهذه هي

الطريقة الببليوغرافية التي آثرناها هنا وهي الوحيدة التي يكتب لها النجاح لأنها الطريقة العملية دون غيرها . فلنمضِ على منهجنا :

الكتاب الاول (القطع الكبير) – الفصل الرابع : **الحوت المسنّم** : كثيراً ما يرى هذا الحوت على الساحل الشمالي من امريكا، وكثيراً ما اصطيد هنالك وجرّ الى الميناء . يحمل رزمة ثقيلة كأنه تاجر متجول ، أو قد تسميه الحوت – الفيل، أو الحوت – القلعة . على أي حال لا ينفع اسمه الشائع في تمييزه لان حوت العنبر أيضاً ذو حدبة مسنمة وان كانت اصغر من حدبة هذا المسنّم . وزيته غير ذي قيمة وله بلـّين ، وهو أشد الحيتان ميلاً الى اللعب والمرح، فيكثر حوله الزبد المتطاير والماء الأبيض مما لا يماثله فيه حوت آخر .

الكتاب الأول (القطع الكبير) – الفصل الخامس : **الهركول** : لا يعرف عن هذا الحوت عدا اسمه، الا الشيء القليل . رأيته على مسافة من رأس هورن؛ محبٌ للعزلة، يهرب من الصيادين والفلاسفة . غير جبان إلا أنه لم يبدِ حتى الآن شيئاً من جسده سوى ظهره الذي ينتصب في شكل ربوة طويلة حادة . ليذهب في حال سبيله فلا أنا أعرف عنه شيئاً ذا بال ولا غيري .

الكتاب الأول (القطع الكبير) – الفصل السادس : **الحوت الازرق** : هذا ناسك آخر يحب العزلة، ذو معدة ذات لون كبريتي، انتحله دون ريب من الاحتكاك بالصخور القارية في بعض غوصاته المتعمقة . قلما يبرز للعيان . على الاقل أنا لم أره إلا في أقصى البحار الجنوبية، وهو دائماً بعيد ناءٍ بحيث لا يمكن المرء من استثبات ملامحه . لا أحد يصيده إذ يهرب مبعداً في الوثبة الواحدة بمقدار طول حبل كامل ؛ تحكى عنه أعاجيب ؛ وداعاً أيها الحوت الازرق، لا أستطيع أن أزيد شيئاً أعلم أنه صحيح عنك، ولا يستطيع ذلك أكبر المعمرين في نانتوكت .

بهذا ينتهي الكتاب الأول ويبدأ الكتاب الثاني . قطع الثمن : يضم هذا حيتاناً متوسطة الجرم قد نعدّ منها في هذا المقام ١ — الغرمبوز ٢ — الحوت الأدهم ٣ — النرول أو اليأمور ٤ — الدرّاس ٥ — السفّاح .

الكتاب الثاني (قطع الثمن)* الفصل الأول — **الغرمبوز** : أوحى تنفسه الرنان او بالأحرى لهاثه بمثل يردده أهل البر ، وهو قاطن مشهور من قطان المحيطات ، إلا أنه لا يصنف عادة بين الحيتان لكن حين وجده معظم المؤرخين الطبيعيين يحوز جميع الملامح العظيمة التي تميز اللوياثان عدّوه منها . حجمه معتدل من قطع الثمن ، يتراوح طوله بين ١٥ — ٢٥ قدماً وله محيط مشابه عند الخصر . يتنقل قطعاناً ولا يصاد بانتظام ، وان كان زيته كثيراً وصالحاً للاضاءة ، ويرى بعض الصيادين ان ظهوره إرهاص بأن حوت العنبر العظيم على الأثر .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) : الفصل الثاني — **الحوت الادهم** : الاسماء التي أطلقها على جميع هذه الحيتان هي الاسماء التي ألفها الصيادون وشاعت بينهم وهي أحسن الاسماء بعامة . وحيث يتفق ان يكون الاسم مبهماً او غير دقيق التعبير فاني سأقرر أنه كذلك وأقترحُ اسماً آخر . وهذا هو ما أفعله بصدد الحوت الادهم لان الدهمة او السواد لون غالب عـــلى جميع الحيتان ، ولذلك سمّهِ الحوت ـ الضبع ان شئت . هو مشهور بالشره وبما ان الزاويتين الداخليتين من مشفريه منحنيتان الى أعلى فانه يحمل على وجهه كلوحاً شيطانياً خبيثاً كأنه مفوستفليس . معدّل طوله يتراوح بين ١٦ — ١٨ قدماً ويعيش في مختلف أنواع

---

* لمَ لم اسمِّ هذا الكتاب الثاني «قطع الربع» — وهو الذي يتلو القطع الكبير حجماً ؟ لان الحيتان الواقعة في هذه الفئة — وان كانت اصغر حجوماً من الفئة الاولى — لا تزال تحمل اوجه شبه كبيرة بها . وقطع الربع عند مجلد الكتب ذو حجم ضئيل لا يحتفظ بشكل القطع الاكبر بينما قطع الثمن يحتفظ بحجم القطع الاكبر .

المناخ . وله طريقة خاصة في إبراز زعنفته الظهرية الحجناء وهي تبدو شبيهة بالأنف الروماني. وحين يكفّ أصحاب السفن عن استخدام صيادي الحيتان بما يدر عليهم ربما يتجه هؤلاء احياناً الى صيد الحوت – الضبع حتى يكفلوا المئونة من الزيت الرخيص للاستهلاك في الشئون المنزلية – مثلما أن بعض القومة المقتصدين في المنازل والفنادق يستعملون الشحم النتن في الإضاءة حين ينفردون ويقل الروّاد بدلاً من الشمع الشذيّ . وطبقة الشحم في هذا الحوت رقيقة إلا أن الواحد منه يقدم أحياناً ما يربو على ثلاثين جالوناً من الزيت .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) الفصل الثالث – **النّرول** : ومعنى الكلمة « الأنافي » ، وهذا مثل آخر على التسمية الغريبة التي ألصقت بهذا النوع ، ولعله إنما سمّي كذلك خطأ حين ظن من رأوا قرنه أنه أنف أحجن ؛ يبلغ طوله نحواً من ١٦ قدماً بينما يبلغ معدل قرنه خمسة أقدام، وبعض القرون يتجاوز عشرة أقدام بل يبلغ خمسة عشر . وما هذا القرن اذا توخينا الدقة إلا نابٌ ممتد نابت من الفك في اتجاه ينزل قليلاً عن الاتجاه الأفقي، ولا يوجد الا على الجانب الأيسر من فكه الاعلى، وله من أجل ذلك تأثير سيىء إذ يمنح صاحبه شبهاً بمنظر الرجل الأعسر . ومن العسير ان نعين الغاية التي يحققها هذا القرن العاجي او الحربة ويبدو أنه لا يستعمله كما تستعمل السمكة المسيفة والسمكة ذات المنقار ما لديهما من سلاح، وان أخبرني بعض البحارة ان النرول يستعمل قرنه مجرفة في قلب قاع البحر بحثاً عن غذاء . وقال شارلي كوفن انه يستعمله مخراقاً للجليد، ذلك أن النرول إذ يرتفع الى السطح في البحر القطبي يجده مغلقاً بالجليد فيطعن بقرنه ويشق خلاله طريقاً ؛ ولكنك لا تستطيع أن تبرهن على صدق هذه الاستنتاجات . أما انا فأرى انه على أي وجه استعمل النرول قرنه الاعسر فانه يفيده كثيراً لو اتخذه أداة يمسك بها الكراسات حين يقرأ . وسمعتهم يسمون النرول : ذا الناب والأقرن ووحيد القرن ؛ وهو مثَل غريب حقاً على وحدانية القرن التي تكاد توجد في كل مملكة من ممالك الطبيعة الحية . وقد استنتجت من

أقوال بعض المؤلفين الرهبان القدامى أن قرن هذا الاقرن البحري كان يعد في الايام الغابرة الترياق العظيم ضد السم، ولذلك كانت مستحضراته تدر أرباحاً هائلة . وكان يقطّر إلى الملح الطيّار لتسعف به النسوة اللواتي يصبن بالاغماء على النحو الذي يصنع به النشادر من قرون الغزال الذكر . وقد كان القرن يعد فيما مضى تحفة عجيبة ؛ أخبرني بلاك لتر عن عودة السير مارتن فوربشر حين رجع من تلك الرحلة ولوّحتْ له الملكة بس بيدها المزينة بالجواهر من نافذة قصر جرينتش [1] ، وسفينته الجريئة تنحدر مع نهر التيمس فقال بلاك لتر : « عندما عاد السير مارتن من تلك الرحلة قدّم لجلالتها ، وهو راكع، قرناً ضخماً طويلاً من قرون النرول ظلّ معلقاً مدة طويلة من بعد في قلعة وندسور » . ويؤكد مؤلف إرلندي أن آرل ليستر كذلك قدم الى جلالتها وهو يحني ركبتيه قرناً آخر لوحيد قرن من حيوانات البرّ .

وللنرول طلعة بهية يشبه بها النمر الارقط فلونه العام في بياض اللبن ولكنه منقط ببقع سود مستديرة ومستطيلة . وزيته رفيع النوع صافٍ جميل إلا أن ما يوجد منه قليل وقلّما يطـــارده الصيادون ويعيش في الاكثر في البحار حول القطب .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) الفصل الرابع — **الحوت السفّاح** : ما يعرفه أبناء نانتوكت عن هذا الحوت قليل فأما العالم الطبيعي فلا يعرف عنه شيئاً . وأستطيع ان أقول بناء على ما رأيته منه عن بعد انه في حجم الغرمبوز . متوحش شديد الوحشية، يشبه ان يكون نوعاً من حوت فيجي . أحياناً يعلق بشفر أحد الحيتان الكبيرة التي وصفت في الكتاب الاول ويظلّ متشبثاً بـــه

---

[1] يعني الملكة اليزابث، وقد لوحت له بيدها عندما سافر في رحلته الاولى، ثم قدم لها قرن النرول عند عودته من الرحلة الثانية .

كأنه العلقة حتى يتردى الحيوان القوي الضخم من الانهاك ميتاً . والصيادون لا يطاردون السفاح أبداً ولم أسمع شيئاً عن نوع زيته . قد أقف متردداً في إطلاق اسم «السفاح» عليه لانه اسم مبهم ذلك أننا جميعاً سفاحون قتلة، براً وبحراً، سواء من كان منـّا من صف بونابارت أو من فئة أسماك القرش .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) · الفصل الخامس – **الدرّاس** [1] : هذا السيد مشهور بذنبه اذ يستعمله هراوة يصك بها أعداءه . يمتطي ظهر احد الحيتان الكبرى (من النوع الاول) واذ يذهب سابحاً يشق دربه بـِجَلـْدِهِ – طريقة يتبعها مديرو المدارس في هذه الدنيا . ما يعرف عنه أقل مما يعرف عن السفاح . كلاهما خارجيٌ حتى في البحر الذي لا تحكمه شريعة .

بذلك ينتهي الكتاب الثاني (قطع الثمن) ويبدأ الكتاب الثالث (قطع الجزء من اثني عشر ١/١٢) .

قطع الجزء ١/١٢ : في هذه الفئة تقع الحيتان الصغيرة وهي جميعاً من أنواع البربوز أو الدوحر :

١ – بربوز مرحى ٢ – البربوز الجرين ٣ – البربوز الطحيني .

الذين لم يتفق لهم بخاصة ان يدرسوا هذا الموضوع قد يستغربون ان تصنف أسماك لا تتجاوز الاقدام الاربعة أو الخمسة في عداد الحيتان – وكلمة الحوت في الاستعمال الشائع تفيد الضخامة . ولكن هذا النوع الثالث حيتان حقاً اذا

---

١ كان حقه ان يجعله « الفصل الرابع » حسب الترتيب الذي اورده من قبل .

احتكمنا الى التعريف الذي وضعته للحوت أعني : سمكة تنفث ولها ذنب أفقي .

الكتاب الثالث (قطع ١٢/١) الفصل الاول – **بربوز مرحى** : هذا هو النوع الشائع من البربوز ويكاد أن يكون موجوداً في جميع انحاء الكرة الارضية ، وأنا الذي منحته هذا الاسم ، إذ هنالك غير نوع من البربوز ولا بد من استحداث شيء للتمييز بينها ؛ وانما أسميه كذلك لانه يسبح دائماً في رعالٍ جــذلة تظل تتوثب في البحر الواسع نحو الفضاء كأنها قبعات الجماهير في الرابع من تمـــوز (يوليه) [عيد الحرية] . والبحّار يتطلع الى منظرها مستمتعاً مسروراً ، وهي مليئة بالحيوية والمرح وتتجه دائماً من الامواج التي يراوحها النسيم نحو مهبّ الريح ، فهي عصبة الفتيان التي تعيش دائماً مستقبلة الريح . ويعدها البحارة أمارة فأل حسن ، انك لا تملك إلا ان تقول مرحى ثلاثاً وأنت تنظر الى هذه الاسماك الطروب فاذا لم تفعل فحالتك يرثى لها ، كان الله في عونك ، اذ ان روح المرح ليست من نصيبك . وبربوز مرحى البدين الذي حسنت تغذيته يعطي جالوناً من الزيت الطيب غير ان السائل الرقيق الناعم الذي يستخرج من فكيه بالغ القيمة إذ يبعث في طلبه الجواهريون والساعاتيون . ويضعه البحارة على حجر المسنّ ؛ ولعلك تعلم ان لحم البربوز طيب للأكل وربما لم يخطر لك ان البربوز ينفث ؛ نعم ان نفثته صغيرة حتى انها لا تدرك . ولكن ان صحّ لك ان ترى البربوز مرة اخرى فارقبه وسوف ترى أنه حوت العنبر في صورة مصغرة .

الكتاب الثالث (القطع ١٢/١) الفصل الثاني – **بربوز الجرين** : قرصان متوحش ممعن في وحشيته ، لا يوجد – على ما أظن – إلا في المحيط الهادي . اكبر من بربوز مرحى إلا انه يشبهه في البنية العامة ؛ استثره تجده تحوّل قرشاً . قطبتُ حاجبي لمرآه عدة مرات ولكنني لم أره يصاد أبداً .

الكتاب الثالث (قـطع ١٢/١) الفصل الثالث – **البربوز الطحيني :**
اكبر أنواع البربوز ولا يوجد إلا في المحيط الهادي، حسبما بلغ اليه العلم . والاسم الانجليزي الوحيد الذي أطلقه عليه البحارة حتى اليوم هو «البربوز الأثين» لاجل أنه يوجد مصاقباً للحيتان الأثينية . يختلف بعض اختلاف في شكله عن بربوز مرحى إذ هو ذو محيط أقل استدارة ومرحاً . والحق أن له هيئة سيد نظيف أنيق، ليس له زعانف على ظهره (ومعظم أنواع البربوز ذات زعانف) وله ذنب جميل وعينان هنديتان حالمتان عسليتا اللون، إلا أن لون الطحين على فمه يفسد كل هذا الجمال . لون ظهره أسود حالك حتى زعانفه الجانبية ، إلا أن جدّة فارقة كأنها العلامة في هيكل السفينة تطوقه من أعلى الى أسفل وتسمّى «الخصر اللامع» وتفصل بـين لونين : سواد الظهر وبياض البطن . ويشمل البياض جانباً من رأسه وسائر فمه فيجعله يبدو وكأنما فرّ بعد ان قام بزورة فاحشة الى كيس الطحين . منظر بالغ في الدناءة والطحينية ! أما زيته فيشبه زيت سائر أنواع البربوز .

*
* *

بعد القطع ١٢/١ يتوقف التصنيف، اذ أن البربوز أصغر صنف من الحيتان . وفي أعلى القائمة تجد الحيتان الكبرى المرموقة إلا ان هناك خليطاً من حيتان شرودة أو منقرضة أو شبه أسطورية أعرفهـا أنا الحوّات الامريكي سماعاً لا عيـاناً . وسأعدها مستعملاً الاسماء التي وضعها البحارة وقد تكون هذه القائمة مفيدة لباحثي المستقبل فيكملون ما بدأت به واذا اصطيد أحد الحيتان التالية وعوين حاله أمكن ادراجه في التصنيف الذي رسمته آنفـاً ، وفي واحد من الابواب الثلاثة، حسب حجمه :

الحوت الذي يشبه عنق الزجاجة – الحوت الينك – الحوت ذو الرأس

الذي يشبه البودنج — حوت رأس هورن — الحوت القائد — الحوت المدفع — الحوت القضيف — الحوت المغلف بالنحاس — الحوت الفيل — الحوت اليشبه جبـــل الجليد — الحوت الكووغ — الحوت الازرق . . . الخ . ويقول الثقات من اسلنديين وهولنديين وانجليز قدماء أنه يمكن اقتباس قوائم اخرى من حيتان لا تعرف هويتها يطلق عليها كل نوع من الاسماء الشاذة . ولكنني لا أوردها لانها انقرضت وأنا اتصوّر أنها كانت كما تدل عليه اسماؤها حافلة بالحوتية إلا أنها أصبحت أسماء دون مدلولات .

وأخيراً : قلت في البداية ان هذا التصنيف لن يجيء في هذا المقام مستكملاً ولعلك ترى أنني التزمت بما قلت . غير أني أخلي هذا التصنيف الحيتاني غير مستكمل مثلما تركت كاتدرائية كولون، والآلة الرافعة ما تزال هنالك على قمة الجرسية التي لم تتم[1]. ذلك ان المباني الصغيرة قد يتممها المعماريون الذين ابتدأوها، أما المباني العظيمة، المباني الحق، فان حجر الزاوية فيها يترك للخلف . وقاني الله سبحانه إتمام أي شيء وما هذا الكتاب كله إلا مسوّدة، لا بل هو مسوّدة المسوّدة . واهاً أين الوقت والقدرة والمال والجلد !

---

[1] زار ملفل تلك الكاتدرائية في ٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٩ .

٣٣ مقطع الشحم

يصلح هذا الموضع لتقييد خاصية من الخصائص المألوفة على ظهر السفينة تتصل بضباط مهنة التحويت وتنشأ عن وجود فئة ضباط من الزراقين ، وهي فئة لا توجد طبعاً في اي قطعة بحرية أخرى سوى أسطول الحواتة .

مما يشهد بالاهمية الكبرى المنوطة بحرفة الزرّاق ان الهولنديين في أعمال الصيد منذ قرنين او اكثر لم يكونوا يعهدون بقيادة سفينة الحواتة الى الشخص الذي نسميه اليوم « القبطان » وانما كانت القيادة شركة بينه وبين آخر يدعونه سبكزندر Specksynder وهي لفظة تعني حرفياً « مقطع الشحم » وقد درج استعمالها حتى أصبحت تعني رأس الزرّاقين . في تلك الايام كانت سلطة القبطان قاصرة على الابحار وعلى الادارة العامة في السفينة ، أما عملية التحويت وكل ما يتصل بها فكان مقطع الشحم او رأس الزرّاقين هو السيد الاول فيها دون منازع . وما تزال وظيفة رأس الزرّاقين قائمة في السماكة الانجليزية بجزيرة جرينلاند تحت اسم محرّف هو سبكسيونير ، الا ان العزة القديمة التي كانت تحف بصاحبها تضاءلت باهتة . فهو اليوم لا يعدو ان يكون زرّاقاً مقدّماً ، وهو بذلك واحد من أدنى الملازمين لدى القبطان . ولكن النجاح في سفرة التحويت يعتمد الى حد كبير على السلوك الطيب لدى الزرّاقين ، ثم ان الزراق في الحواتة الامريكية ليس فحسب ضابطاً هاماً في القارب وانما هو في بعض الظروف (كنوبة الحراسة الليلية او في ميدان التحويت) صاحب الامر على ظهر السفينة ايضاً ؛ لهذا كله تتطلب السنّة السياسية الكبرى في البحر ان يعيش — اسمياً —

منفصلاً عن الرجال الذين يقفون أمام الصاري وان يكون له من التمييز ما يجعله رئيسهم على نحوٍ ما ، وان كانوا هم يعتبرونه في العادة صنواً لهم في المنزلة الاجتماعية .

في البحر يفرقون تفرقة فاصلة بين الضابط والرجل العادي ، فالأول يسكن في المؤخرة والثاني في المقدمة ؛ لذلك تجد الضباط في سفن التحويت والسفن التجارية على السواء يتخذون مساكنهم مع القبطان ، وكذلك في معظم الحواتات الامريكية يسكن الزرّاقون في القسم الخلفي من السفينة ، ومعنى هذا انهم يتناولون وجباتهم في قمرة القبطان، وينامون في موضع يفضي الى القمرة بطريق غير مباشر .

وسفرة الحواتة في البحار الجنوبية أطول سفر قام به إنسان او يقوم به أبداً . فطول السفرة وما يكتنفها من أخطار والشعور بالفائدة المشتركة الذي يسود الجماعة فكل منهم رفيعاً كان او وضيعاً يعتمد في مكاسبه على الحظ المشترك لا على أجور مقدرة وكل منهم مدعو للسهر والدأب والبسالة ، أقول : كل هذه الأمور قد تولد في بعض الاحوال تراخياً في النظام المحكم باكثر مما يتصدى له النظام في السفن التجارية . ولكن ان يكن هؤلاء الحواتون أحياناً يعيشون معاً كالأسرة البابلية القديمة في بعض الاحوال الساذجة فانهم مع ذلك كله قلما يتهاونون في شئون الآداب التي لا بد ان يراعوها وراء الدقل الاعظم — في الاقل ، ولا يتجردون منها بحال . حقاً كثيرة هي السفن النانتوكتية التي ترى فيها الربان يتخطر وراء الدقل الاعظم في عظمة تيّاهة لا مثيل لها في اي أسطول حربي ، لا بل انه يتطلب فروض الطاعة والولاء ممن حوله كأنما هو يلبس الارجوان الامبراطوري لا الكتان المهلهل الذي يرتديه البحار .

وكان قبطان الباقوطة ذا المزاج المتقلب أقل نظرائه استسلاماً لدواعي هذه

العجرفية الضحلة ؛ فلم يكن يتطلب من فروض الولاء سوى طاعة كاملة مبادرة، ولم يكن يأمر اي رجل ليخلع نعليه قبل ان يخطو وراء الدقل الاعظم ، وان يكن في بعض الظروف ، المتصلة بأحداث سأرويها باسهاب فيما بعد ، يخاطب رجاله بألفاظ لم يألفوها سواء أكان مصدرها التواضع او التهيب او غير ذلك ، أقول مع هذه الصفات في القبطان آخاب فانه لم يكن يتنازل ابداً عن مظاهر السيادة والآداب المرعية في البحر .

لا بل ربما لن يفوتنا ان نلحظ في النهاية انه كان أحياناً يتخذ من هــذه المظاهر وتلك الآداب المرعية قناعاً لنفسه ، ويستغلها بين الحين والحين في تحقيق غايات أخرى خاصة به غير التي وضعت شرعاً من أجلها . فأصبح النزوع السلطاني الذي يخايل ذهنه متجسداً – عن طريق هذه المظاهر – في هيئة دكتاتورية سادرة لا تقاوم ، ولولا تلك المظاهر لبقي ذلك النزوع خافياً غير مستعلن . اذ مهما يكن شأن التفوق الفكريّ لدى الانسان فان ذلك التفوق يعجز عن ان ينتحل سيادة ميسّرة عملية على الآخرين دون عون من حيل وأساليب خارجية تكون في ذاتها دائماً متفاوتة الحظ من الخسة والدناءة . وهذا هو الذي أبداً يضع أمراء الله العدول في امبراطوريته الكبرى بمنجاة عن كل ملابسات الدنيا من دسوت ومنصات ومعارك انتخابية وغيرها فيتخلون عن الامجاد الكبرى التي تتمخض عنها تلك الحيل والاساليب الخسيسة ويتركونها لأولئك الرجال الذين ينالون الشهرة عن طريق وضاعتهم وتدنـّيهم السحيق اذا قورنوا بتلك الصفوة القليلة من أولياء الله الزاهدين في أمجاد الحياة الراضين بالستر والخمول لا عن طريق سموٍّ أكيد فيهم يرفعهم فوق مستوى الجماهير . وحــين تقوم الخرافات السياسية المتطرفة باستغلال هذه الشئون والحيل الصغيرة فانها تمدها بقدرة كبرى ، حتى انها في بعض ما يتصل بالملوك من شئون لتمنح قدرة وصولة للبلهاء الاغبياء ؛ ولكن ان كان التاج المستدير الذي يطوّق امبراطورية واسعة النواحي ، يستدير ايضاً محكماً حول ذهن امبراطوري كما هو الشأن في

حال القيصر نقولا [1] عندئذٍ تركع قطعان الرعاع مهينة أمام تلك السيادة المركزية المحكمة الهائلة . ان كاتب المآسي ان شاء ان يصوّر الصمود الانساني العنيد الركين في نطاقه الكامل وخطرانه الفوريّ فانه لجدير به ان لا ينسى ابداً لمحة كالتي ألمحت اليها ذات أهمية بالغة أحياناً لفنّه .

إلا أن قبطاني آخاب ما يزال يتحرك أمامي في عبوسه وبذاذته النانتوكتية . وفي هذه النبذة التي لمست فيها جانب الاباطرة والملوك عليّ ألا أخفي أنني سأتعامل مع حوات مسكين عجوز مثله ، ولذلك فانني محروم من كل زينة ملكية ظاهرة ، ومن كل ما يعلق بها من حواش وأسباب . آه يا آخاب ! كل شيء عظيم فيكَ يجب ان يُتخَطّف من الفضاء ، او يغاص عليه في الماء ، او يتجسد في الهواء اللاجسداني .

[1] نقولا الاول امبراطور روسيا (١٨٢٥ – ١٨٥٥) مثال موفق على الاستبداد المطلق حتى عرف باسم القيصر الحديدي .

٣٤ المائدة في القمرة

الوقت ظهراً ؛ وأمين المؤن ذلك الغلام العجان ذو الوجه الشاحب ، كأنه رغيف خبز ، يبرز من ناروزة القمرة ، ويعلن لسيده ومخدومه ان قد حان وقت الغداء . وسيده جالس لواذاً من الريح برقب الشمس ، ويحسب صامتاً موقع المكان على المصوّر الاملس الذي يشبه في شكله المدالية ، وهو يحتفظ به لتلك الغاية اليومية على الجزء الاعلى من رجله العاجية . واذا اعتبرت استغراق آخاب في ذهول تام عما أعلنه أمين المؤن ظننت ان ذلك الرجل المتقلب المزاج لم يسمع ما قاله خادمه . ولكنه يمسك توّاً بأشرعة المظين ، ويطوّح بنفسه على ظهر السفينة ، ويقول بصوت مستوٍ غير مبتهج « الغداء ، يا سيد استاربك » ثم يختفي داخل القمرة .

وحين يتلاشى آخر صدى لخطوات السلطان ، ويقتنع استاربك ، الامير الاول ، ان سلطانه قد أخذ مجلسه على المائدة ، ينهض من سكينته ، ويدور بضع دورات على الألواح الخشبية ؛ وبعد أن يلقي نظرة رزينة على صندوق الابرة المغناطيسية يقول بصوت فيه مسحة من التهلل « الغداء ، يا سيد اسطب » ، ويهبط في الناروزة . ويتسكع الامير الثاني فترة حول الحبال ، ثم يهز حلقة الرباط الرئيسي بخفة ليرى ان كان ذلك الحبل الهامّ على حال جيدة ؛ ويحمل على عاتقه العبء القديم فيقول في عجلة : « الغداء ، يا سيد فلاسك » ويقتفي آثار سلفيه .

غير ان الامير الثالث وقد وجد نفسه وحده وراء الدقل الاعظم كأنما يحس بأن عبئاً جاثماً انزاح عن صدره ، فهو يوزع الغمزات المتفهمة في جميع الوجهات، وينفض مذرويه ، وينفخ في المزمار القرني نغمة حادة لا ضجيج لها ، فوق رأس « الباب العالي » ثم في خفة رشيقة يقذف بقبعته على قمة الصاري المظين متخذاً لها منه رفاً ، ويجر رجليه هابطاً ، ما دام على الاقل بعين الرائي الواقف على ظهر السفينة ويعكس ما يجري في المواكب حين تتخذ موسيقى الختام في البداية . غير ان فلاسك الصغير ، قبل ان يخطو الى باب القمرة ينتحل وجهاً جديداً ، ويدخل حضرة الملك آخاب في صورة القن او العبد بعد ان كان حراً مرحاً .

في تقاليد البحر أشياء غريبة تولدها شدة التصنع والتكلف ، وليس أقلها غرابة ان يكون بعض الضباط في الهواء الطلق فوق ظهر السفينة اذا هم استثيروا جرءاء يتحدون آمرهم؛ حتى اذا جعلت هؤلاء الضباط أنفسهم في اللحظة التالية يهبطون الى مائدة الغداء ، في قمرة ذلك الآمر نفسه، فما أسرع ما تتماث جرأتهم، فاذا هم يلبسون وجوه المسالمين ان لم أقل هيئة المسكنة والانخذال ، حين يجلس آمرهم على رأس الطاولة . هذا عجيب وأحياناً يكون مبعث هزء وسخرية . من أين جاء التباين في الحالين ؟ أهناك مشكلة ؟ لعلها ليست كذلك . حـــين يكون المرء بليشاصر ملك بابل، وحين يكونه في الدماثة لا في الخيلاء، فذلك يعني وجود مسحة من العظمة الدنيوية . ولكن من يتصدر مائدة غدائه بروح ملكية ذكية ومن حوله ضيوفه فان سلطانه الذي لا يبلغ شأوه أحد ، ونطاق نفوذه حينئذٍ ، والملوكية التي يتبجبح فيها، كل تلك الشئون تفوق ما كان لدى بليشاصر من سلطان ونفوذ وملوكية لان بليشاصر لم يكن يبلغ الذروة في هذه الشئون . ومن أدب مأدبة لاصدقائه مرة واحدة استطاع ان يتـــذوق طعم « القيصرية » . ففي هذا العمل سحر القيصرية الاجتماعية الذي لا يستعصي على قوّته أحد . وان أضفت الى هذا الاعتبار مــــا في وظيفة قبطان السفينة من

سيادة مفروضة ، استطعت ان تستنتج السبب في هذا اللون المتفرد الذي ذكرته آنفاً من حياة البحر .

ترأس آخاب المائدة المرصعة بالعاج كأنه أسد بحري صامت مروّض جالس على شاطىء مرجاني أبيض ، يحفه أشباله المحرّبون المؤدبون في آن معاً . وكل ضابط فيهم ينتظر دوره في سكب نصيبه من الطعام . كانوا كالاطفال الصغار في حضرة آخاب ، ومع ذلك فلم يكن في آخاب نفسه أدنى نصيب من العجرفة المتبسطة . واحتشدت خواطرهم جميعاً في بؤرة واحدة حين اثبتوا عيونهم على سكين الرجل العجوز وهو يقتطع جانباً من الصحن الرئيسي أمامه ؛ ولست أظن أبداً أنهم دنسوا قداسة تلك اللحظة بهنة هينة من حديث حتى ولو دار حول موضوع كموضوع حال الطقس مما لا يكلف جهداً . كلا لعمري ! وحين بلغت قطعة اللحم الحبيسة بـــين سكين آخاب وشوكته مأمنها في صحن استاربك ، دفع اليه آخاب بصحنه فتلقى رأس الضباط نصيبه من اللحم كأنه يتلقى صدقة ، وقطعها بلطف ، حذراً من أن تخدش السكين وجه الصحن فتبعث حشرجة مزعجة ، ومضغها دون صوت ، وازدردها في غير قليل من الحيطة والحذر . كانت هذه الوجبات في القمرة خشوعية تؤخذ في صمت رهيب كأنها مأدبة التتويج في فرنكفورت[1] حيث يتغدى الامبراطور الالماني مع المستشارين الامبراطوريين السبعة . ومع ان آخاب لم يكن يحرم الحديث على المائدة فانه هو نفسه كان يظل أخرس صامتاً . أيّ ارتياح كان يحس به اسطب المختنق حين كان أحد الفيران يحدث ضجة مفاجئة في العنبر ! أما فلاسك الصغير البائس فهو أصغر الابناء وأدناهم منزلة في هذا الشمل العائلي المتعب الضجر . حصته هي الظنابيب التي كان يكسوها لحم البقر المملوح ، حصته قد تكون عظام الدجاجة

---

[1] مدينة فرنكفورت على نهر المين ، اتخذت مقر الانتخابات الامبراطورية منذ ١٣٥٦ .

بين الفخذ والرسغ . اذ لو أن فلاسك خيل اليه ان يحتزىء نصيبه من الطعام لنفسه لبدا له ان هذا أمرٌ يناظر السرقة الفاحشة . لو تقدم فتناول نصيبه من الطعام على المائدة لما استطاع دون ريب ان يحتفظ برأسه في هذا العالم الشريف . ومع ذلك فربما استغرب من عرف ان آخاب لم يمنعه من ذلك ابداً . ولو تقدم فلاسك وشارك في أخذ ما يريد فربما لم يلحظه آخاب ابداً . وأقلّ ما كان يدور في خاطر فلاسك هو ان يأخذ نصيبه من الزبدة . هل كان يظن ان اصحاب السفينة يحرمونه منها لانها تعقد سحنته الصافية الواضحة ؟ أكان يحسب أنه ما دام في رحلة بحرية طويلة في مياه ليس فيها أسواق فان الزبدة نوع من العلاوة لا يستحقها لأنه ملازم وحسب ؟ أياً كان السبب فان فلاسك ، وا أسفاه كان امرءاً لا زبدة له !

وثمة شيء آخر : كان فلاسك آخر شخص يهبط الى الغداء وأول شخص يغادر المائدة ؛ تأمل ! من ثمّ كان فلاسك يلهوج غداءه لضيق الوقت . كان استاربك واسطب مقدّمين عليه ، وكانا يتمتعان أيضاً بحق التلكؤ في الخاتمة ، واذا اتفق ان كان اسطب الذي لا يعد أعلى من فلاسك إلا بدرجة واحدة ضعيف الشهوة للطعام وأبدى في الحال أعراضاً تدل على انه ختم وجبته ، فمحتوم على فلاسك ان ينهض وعندئذٍ لا يكون قد زاد على ثلاث لقم في ذلك اليوم ؛ ذلك أن التقاليد المقدسة تحرم على اسطب ان يسبق فلاسك الى ظهر السفينة لذلك أقرّ فلاسك ذات مرة لخلصائه أنه منذ ان ارتقى الى رتبة ضابط لم يعرف منذ تلك اللحظة شيئاً سوى انه جائع، على تفاوت في كلب الجوع لديه . ولم يكن مقدار ما يأكله ليخلصه من الجوع ويقضي عليه بل كان ذلك القدر من الطعام يطيل عمر الجوع ويخلّده . وكان فلاسك يقول لنفسه : « الهدوء والاكتفاء شيئان قد غادرا معدتي الى الابد . انا ضابط ولكن ما أشد ما أتوق الى ان أمسك قطعة من لحم البقر في منارة السفينة كما كنت أفعل يوم كنت أقف أمام الصاري . هذه هي ثمرات الترقية ، هـــذا هو بُطـلُ المجد ، هذا هو جنون

الحياة !» ثم لو ان أحد البحارة كان ينقم على فلاسك شيئاً من تصرفاته الرسمية، فما على ذلك البحار ، اذا شاء ان يثأر منـــه ثأراً عريضاً ، الا ان يذهب الى مؤخرة السفينة وقت الغداء ، ويطل على فلاسك من فضاء القمرة وقد جلس في بلادة والحيرة تعقد لسانه أمام آخاب الرهيب .

كان آخاب وضباطه الثلاثة يمثلون ما يسمى « الفوج الاول » على المائدة في قمرة الباقوطة . وبعد مغادرتهم المكان في ترتيب على عكس ترتيب القدوم ، ينظف غطاء المائدة الخيشي او بالاحرى يقوم « السفرجي » الشاحب بترتيبه في دهشة وعجلة . ثم يدعى الزرّاقون الثلاثة الى الطعام ، اذ هم الورثاء لما تبقى منه ، فيحولون القمرة العالية الممتنعة تحويلاً مؤقتاً الى شيء يشبه قاعة الخدم .

ما أغرب الفرق القائم بين حالين على المائدة اولاً حين تشهد الكبت والتوتر وضروب التسلط الخفي حين يكون القبطان وفوجه وثانياً حين تشهد خلو البال والسجاحة بل الديموقراطية الصاخبة التي يمارسها الزراقون ، أولئك الفوج الذي يعد في منزلة أدنى من الفوج الاول . بينا كان أسيادهم الضباط في الحال الاولى يبدون خائفين من صوت حركة الفكين عند طحن الطعام كان هؤلاء الزرّاقون يمضغون طعامهم في قابلية متفتحة حتى لتسمع للمضغ أصواتاً واضحة . كانوا يأكلون كأنهم سادة ، ويملأون معدهم كأنهم سفن هندية تعبأ بالبهارات طول النهار . كانت شهوة كل من كويكوج وطاشطيقو الى الطعام ساعرة حتى اذا شاءا ان يملأا الفراغ الذي لم تملؤه الوجبة السابقة كان على الغلام السفرجي الشاحب ان يأتيهما بكتلة ضخمة من لحم البقر المقدد المملوح كأنها احتزت من جسم الثور الصلب . واذا لم يقم الغلام بعمله في عجـــلة ، اذا لم يذهب بين الهرولة والوثب ، لجأ طاشطيقو الى حفزه بطريقة غير حميدة ، اذ كان يقذف ظهره بالشوكة كأنه يحوّت بالرمح . ومرة استولت الدعابة فجأة على دغة فحاول ان ينعش ذاكرة الغلام، فرفعه بيده ودسّ رأسه في جفنة خشبية فارغة بينا أمسك

طاشطيقو بموساه وأخذ يرسم دائرة تمهيداً لنزع جلدة رأسه . كان ذلك الغلام الذي يشبه وجهه رغيف الخبز عصبياً رعديداً مستضعفاً ، ولد لأب خباز مفلس وأم ممرضة في مستشفى . وما الذي يناله من يرى طلعة آخاب القاتمة المرعبة كل حين ويشهد تلك الزيارات الدورية الصخابة التي يقوم بها أولئك المتوحشون الثلاثة سوى ان تكون حياته كلها ارتعاشة في الشفتين ! كان في العادة اذا زود الزرّاقين الثلاثة بما يريدونه هرب من قبضاتهم الى كراره الصغير المجاور، وأخذ يسرق النظر اليهم من مفاصل الباب حتى ينتهوا من طعامهم .

منظر يستحق المشاهدة ان ترى كويكوج جالساً قبالة طاشطيقو، وأسنانه المحددة تواجه أسنان زميله الهندي ، وبينهما دغة يجلس على الارض لان الجلوس على مقعد يبعث برأسه الذي يشبه التابوت المحلّى بالريش ، هابطاً الى جحيم السواحر ، وكلما حرّك في جلسته كراديسه الضخمة جعل القمرة المنخفضة تهتز كأنه فيل افريقي ينقـــل في سفينة . ولكن على ذلك كله كان هذا الزنجي العملاق عيوفاً متقشفاً ان لم أقل متفنقاً نظيفاً . ويكاد يستحيل على امرىء مثله ان يحتفظ بحيويته منبثة في جثته المستعرضة الفخمة الرائعة الفارعة وهو يكتفي بتلك اللقم التي تعدّ نسبياً ضئيلة قليلة؛ لكن لا ريب في ان هذا الهمجي النبيل كان يتغذى ويعب من عنصر الهواء حوله ويستنشق بوقبي منخريه النافجين حياة الاكوان الرائعة . العمالقة المردة لا يصنعهم اللحم والخبز ولا يعيشون عليهما . أما كويكوج فكان اذا أكل تمطق بشفتيه على نحو همجي بدائي فأحدث بذلك صوتاً بشعاً ، حتى ان الغلام الرعـــديد يكاد ينظر اليه ليرى ان كانت هناك علامات من أضراسه تختفي في ذراعيه الناحلتين ، وحين كان يسمع طاشطيقو يغني له لعله يتمطى حتى ترتاح عظامه ، كان الغلام الساذج يكاد يحطم المواعين المعلقة حوله في الكرار بما ينتابه من ارتعاد فالجي فجائي . وكيف يهدأ ذلك المسكين وهو يرى حجر المسن الذي يحمله الزرّاقون في جيوبهم ليشحذوا به أسنتهم وأسلحة أخرى ، يراه وقد استخرجه كل واحد منهم على الغداء واخذ

يشحذ به سكينه محـدثاً صوتاً كأنه الصريف . كيف ينسى ان كويكوج – مثلاً – ايام ان كان في وطنه تورط ولا بد في حماقات تجمع بين القتـل والاحتفال بلحوم القتلى ! أسفاً ايها الغلام ، ما أشقى النادل الابيض الذي يقف في خدمة آكلي لحوم البشر . عليه ان يحمل معه ترساً لا فوطة . ولكن ما أشد سرور الغلام حين ينهض فرسان البحر الملـح ويغادرون المكان في الوقت المناسب ؛ غير ان أذنيه سريعتان الى التوهم تصنعان الاساطير فتخيلان اليه ان عظامهم الحربية تقرقع في كل خطوة كأنها سيوف عربية في أغمدتها .

ومـع ان هؤلاء الهمجيين كانوا يتناولون طعامهم في القمرة ، ويعيشون – اسمياً – فيها ، إلا أنهم لكراهيتهم اطالة الجلوس قلما كانوا يدخلونها فيما عدا أوقات الطعام وقبل وقت النوم ، حين يجتازونها ذاهبين الى مخادعهم الخاصة .

في هذه الناحية لم يكن آخاب بدعاً بين معظم قباطنة التحويت الامريكيين، اذ كانوا يجنحون الى اعتبار القمرات حقاً مقصوراً عليهم ، فاذا دخلها شخص غير القبطان في اي وقت فذلك من باب الحفاوة والتسامح . لذلك يمكن ان يقال ان الضباط والزرّاقين في الباقوطة ، كانوا في واقع الأمر يقطنون في خارج القمرة لا داخلها اذ انهم عندما كانوا يدخلونها فانما كانوا في ذلك كباب البيت الشارع على الطريق ، يدور الى الداخل لحظة ليعود بعدها الى مستقره ويظلّ ابداً في مكانه قاطناً في العراء . ولم يخسروا في هذا شيئاً اذ ليس في القمرة ألفة الأصحاب لان آخاب كان من الناحية الاجتماعية نائياً كالعيّوق . كان محسوباً – بالاسم – في عداد المسيحيين الا انه كان مـا يزال أجنبياً على دنيا المسيحية . كان يعيش في العالم كما يعيش آخر دببة جرسلي في ولاية مسوري بعد ان مهدها الانسان موطناً ، فاذا ذهب الربيع والصيف دسّ ذلك الحيوان ابن الغابات نفسه في جذع شجرة جوفاء وقضى فيه الشتاء وهو يلحس براثنه ؛ كذلك كانت روح آخاب في شيخوخته المقرورة العاوية محبوسة في جذعه المجوّف تغتذي هنالك من مخالب عبوسه الكابي .

٣٥ اعلى الدقل

حين طاب الجو واعتدل جاء دوري أول مرة في سياق التناوب الدوري بين البحارة، لأصعد الى قمة الدقل .

تزود قمم الصواري في معظم الحوّاتات الامريكية بالرجال حين تهم السفينة بمغادرة الميناء، حتى ولو كان عليها ان تبحر ١٥ ألف ميل او اكثر قبل ان تبلغ ميدان تطوافها ؛ واذا كانت تقترب من الوطن في العودة بعد رحلة استغرقت ثلاث سنوات او أربعاً او خمساً وفيها شيء فارغ – هب أنه دنّ – فان أعالي الصواري فيها تظل مزودة بالرجال حتى النهاية ولا تتخلى عن رجالها في صيد حوت آخر حتى تصبح أعمدة أشرعتها العلوية بين منارات المرفأ .

وبما ان الوقوف عند قمم الصواري، سواء في البرّ او البحر، عمل قديم ممتع فلأتحدث عنه في هذا الموطن باسهاب . أعتقد ان أقدم من وقفوا على قمم الصواري هم المصريون القدماء اذ أنني لم أجد في كل استطلاعي وتنقيبي احداً سبقهم الى ذلك . نعم ان اسلافهم بناة بابل قد هدفوا من بناء البرج الى ان يشيدوا أعلى قمة صارٍ في آسيا جميعاً او افريقيا ايضاً، ولكنهم قبل ان يسقفوها هبّت عليها ريح مرعبة من غضب الله ذهبت بتلك السارية الحجرية وأغرقتها، لذا لا نستطيع ان نقول بأسبقية هؤلاء البابليين على المصريين في هذا الصدد . وحين اقطع بأن المصريين كانوا شعباً له قوّام على صواريه فانما أبني هذا القول الجازم على المعتقد الشائع بين علماء الآثار اذ يرون ان الاهرام الأولى انما بنيت

من اجل غايات فلكية ، وتلك نظرية مؤيدة بأن الجوانب الاربعة في هـــذه الصروح مبنية على شكل مدرج فكان أولئك الفلكيون القدامى يصعدون الى الذروة بخطوات متفاجة ينقلون بها أرجلهم صعداً ويهتفون اذا رأوا نجمـــاً جديداً، مثلما يهتف مراقبو السفن الحديثة اذا رأوا شراعاً او حوتاً على مرأى منهم . ولدينا مثـل آخر فذ غير هياب على رجل من القائمين على قمم الصواري ذلك هو سمعان العامودي الناسك المسيحي المشهور في الايام القديمة، فقد ابتنى لنفسه عموداً من الحجر في الصحراء وقضى كل النصف الثاني من حياته على قمته يرفع اليه طعامه عن الارض ببكرة ، ولم يكن ليزحزحه من مكانه ضباب او صقيع او مطر او برد ولكن ظل يواجه كل شيء الى النهاية اعني حتى قضى في موضعه . اما القائمون على قمم الصواري من المحدثين فليس لدينا منهم الا مجموعة غير حيّة، اعني رجالاً من حجر او حديد او برونز، وهم وان كانوا اكفاء قادرين على مواجهة النوء القاسي إلا انهم فاقدو القدرة على النداء عندما يستكشفون اي شيء غريب . منهم نابليون على قمة عامود فندوم يقف وقد طوى ذراعيه على ارتفاع ١٥٠ قدماً في الفضاء ، لا يبالي من يحكم ظهر السفينة دونه، سواء أكان الآمر المسيطر يسمى لويس فيليب او لويس بلانك او لويس الشيطان . ومنهم واشنطون العظيم الذي يقف شاهقاً على الدقل الرئيس السامق في بلتيمور، وكأن العمود الذي يقف عليه واحد من اعمدة هرقل ، اذ يصيب رأسه حدّ العظمة الانسانية التي قل ان يتجاوزها احد من بني البشر . ونلسون امير البحر ايضاً على رافعة من معدن المدافع يقف على قمة دقله في ميدان الطرف الأغر ؛ وكلما غلفه دخان لندن كان ذلك نفسه دلالة على ان هناك بطلاً مختبئاً اذ حيث الدخان فثمّ نار . ولكن واشنطون العظيم ونابليون ونلسون لا يجيبون أية صيحة تتأدى اليهم من اسفل، حتى ولو استنخاهم الصائحون في لهفة لكي يعطفوا بحسن مشورتهم على السفن الضالة التي ينظرون اليها من علٍ . وقد يجوز لنا ان نستنتج بأن ارواحهم تتغلغل خلال ضباب المستقبل الكثيف وتستبصر اي شعاب صخرية وصخور يجب ان تتحاشاها تلك السفن .

وقد يبدو أمراً لا مسوغ له ان نجمع بين القوّام على الصواري في اليابسة وزملائهم البحريين في نطاق . والحق ان الحال على خلاف ذلك ويشهد بصدق ما ذهبنا اليه نبذة كتبها عبيد ماسي مؤرخ نانتوكت الوحيـــد فيحدثنا عبيد الجليل ان الناس في تلك الجزيرة في دور مبكر من تاريخ التحويت، قبل ان تعد السفن بانتظام لمطاردة الصيد، اقاموا سواري سامقة على طول الساحل كان يصعد عليها المراقبون بوساطة مراقٍ مسمّرة، مثلما تصعد الفراخ في بيت الدجاج. ومنذ بضع سنوات اقتبس حواتو الخليج في نيوزيلندة هذه الطريقة فكان المراقبون اذا ابصروا الصيد نبهوا القوارب المعدة على مقربة من الشاطىء . غير ان هذه العادة أصبحت أثراً بعد عين ، فلنعد الى الحديث عن القيام الصحيح على قمة الصاري أعني على سفن التحويت في البحر : تبقى الصواري الثلاثة مزودة بالرجال من شروق الشمس الى غروبها ، ويتناوب فيها البحارة كلٌ في نوبته (كما هي الحال عند الدفة) ويتعاقبون كل ساعتين . وحين يكون الجو في المناطق الاستوائية هادئاً فان القيام على قمة الدقل غاية في الامتاع ، لا بل انه مبعث للبهجة عند الرجل المتأمل الحالم . هناك يقف المرء على علو مائة قدم فوق ظهر السفينة الصامت متفاجّ الرجلين فوق الأعماق كأنما الصواري ركازات ضخمة ، ومن دونه ومن بين رجليه تسبح أضخم وحوش البحر ، مثلما كانت السفن تمر من بين حذائي تمثال كولوسوس العملاق المشهور في رودس قديماً . هناك يقف المرء مستغرقاً في أثباج البحر المسترسلة الى ما لانهاية ، في هدأة لا تصخب فيها الا الامواج ، وتتدحرج السفينة المسحورة في تراخٍ وأناة ، وتهب الرياح التجارية الناعسة ، فيدفعه كل شيء الى أحضان النوم وتلتف حوله ، معظم الوقت في حياة التحويت الاستوائية ، وتـــيرة من الاسترسال الرائع الذي لا تعكره الاحداث ، فلا يسمع خبراً ولا يقرأ جريدة ولا تضلله مـــلاحق الصحف وأخبارها المثيرة عن مبتذلات الحياة في سورة من الهياج لا ضرورة لها ، ولا يسمع عن مآسي الأسر ولا عن كمبيالات مسحوبة على مفلسين ، ولا عن تدهور

الأسهم ، ولا يشغل باله التفكير في أمر الغداء لان وجباته على مدى ثلاث سنوات مخزونة وادعة في البراميل ، وقائمة الاسعار لا تتبدل .

وقد تبلغ الساعات المختلفة التي يقضيها المرء عند قمة الصاري – في سفرة من سفرات التحويت الجنوبية تستمر ثلاث سنوات او أربعاً – اذا أنت جمعتها معاً عدة أشهر كاملات ؛ ومما قد يأسف المرء له ان المكان الذي ينفق فيه هذه الحصة الوفيرة من عمره كله خالٍ محروم للأسف من كل ما يضارع السكن المريح او من كلّ ما يولد اطمئناناً واستقراراً في المشاعر كالسرير او الأرجوحة او التابوت او قفص الاتهام او المنبر او العربة او اي شيء من هذه العـــدد والوسائل الصغيرة الممهدة التي يجد فيها المرء عزلته المؤقتة . ولعل الموطىء الوحيد الذي يحلـّه انما هو قمة الصاري الاشمّ حيث يقف على عصوين دقيقتين متوازيتين (ويكاد ان يكون هذا أمراً تتميز به سفن الحواتة) يسمونها «الخشبتان الشهمتان» . ها هنا يحس الغرّ المبتدىء في شئون المراقبة ، والبحر يتنفض من حوله ، أنه في موقف مريح كما لو انه وقف على قرني ثور . وتستطيع في الجو البارد ، دون ريب ، ان تحمل معك بيتك الى القمة وما بيتك هذا إلا معطف ؛ غير اننا اذا توخينا الصدق قلنا ان أسمك نوع من هذا المعطف لا يمثل بيتاً إلا بمقدار ما يمثله الجسد العاري ، إذ مثلما ان الروح ملصقة مُقَرّاة داخل هيكله اللحمي ولا تستطيع ان تتنقل فيه حرّة ولا أن تغادره إلا اذا ركبت الغرر وعرضت نفسها للفناء (كالحاج الجاهل الذي يجتاز جبال الألب المثلجة شتاءً) كذلك معطف المراقب ليس فيه من صفة البيت الا انه غلاف او جـــلد آخر يغلفك ويحيط بك ؛ وأنت لا تستطيع ان تزج في جسدك رفاً او صندوقاً ذا أدراج ، ولا تستطيع كذلك ان تحوّل معطفك حين المراقبة الى مقصورة مريحة .

وبالاشارة الى هذا كله من المؤسف الممض ان لا تزود رءوس الصواري في سفن الحواتة الضاربة جنوباً بتلـــك الخيم او المنابر الصغيرة التي يغبط عليها

أصحابها ، وتسمى « أعشاش الغراب » وبها يتقي المراقبون من حواقي جرينلاند صبارة القرّ في البحار المتجمدة . للقبطان سليت [1] كتاب مؤنس ممتع عنوانه : « رحلة بين جبال الجليد بحثاً عن حوت جرينلاند ، واعادة كشف – وهـــذا هدف عارض – للمستعمرات الاسلندية المفقودة التي كانت تابعة لجرينلاند في القديم » . وفي هذا الكتاب المعجِب وصف جذاب خطير الشأن لإطلاع جميع القوام على قمم الصواري على عش الغراب في « جبل الجليد » ، وجبل الجليد هو اسم سفينة القبطان سليت ، فسمّى اختراعه الجديد « عش غراب سليت » تمجيداً لنفسه ، اذ كان هو نفسه مخترعه وصاحب الامتياز الاصيل فيه ؛ وكان بارئاً من كل تواضع مضحك كاذب ، وكان يرى أننا ما دمنا نسمي أبناءنا بأسمائنا (ونحن الآباء مخترعو هؤلاء الابناء وأصحاب الامتياز الاصيل فيهم) فعلينا بالمثل ان نسمي بأسمائنا كل جهاز آخر نلده . وعش غراب سليت يشبه في الشكل أنبوبة او قطعة من أنبوبة ، مفتوح من أعلاه حيث زوّد بحجاب جانبي متحرك يدور نحو مهب الريح ليتلقاها في النوء الشديد عن الرأس ، وهذا العش مثبت في أعلى الصاري فاذا شئت استعماله صعدت فيه من خلال فوهة في أسفله كفوهة المصيدة . وفي الجانب الموالي لمؤخرة السفينة مقعد مريح تحته خزانة للمظلات والأقبية والمعاطف وفي الواجهة الامامية لوحة مسننة يضع فيها المرء المصوتة [2] والغليون والتلسكوب وغير ذلك من الحوائج البحرية . وعند ما كان القبطان سليت نفسه يقف على قمة الصاري في هذا العش الذي اخترعه يقول انه كان دائماً يحمل بندقية (مثبتة ايضاً في اللوحة المسننة) ومعهـــا قارورة من البارود والطلقات ، من أجل ان تجفل ، اذا أطلقها ، حيتان النرول الضالة ، او الحوت

---

١ اسم وضعه ملفل ساخراً ويشير به الى القبطان وليم اسكورسبي الاكبر والد مؤلف « خبر عن المناطق القطبية » ، وكان اسكورسبي الاكبر من أنجح الحواتين في تلك المناطق اذ قام بثلاثين رحلة ناجحة في مياه خطرة ولم يفقد سفينة واحدة .

٢ آلة لتقوية الصوت .

الأقرن الجوّال ، التي تغير على تلك البحار ؛ ذلك لانك لا تستطيع ان تطلق عليها النار من ظهر السفينة بسبب مقاومة الماء اما اطلاق النار عليها من عل فانه شيء مختلف تماماً . ووواضح ان الوصف الذي كتبه القبطان سليت، ليبيّن في اسهاب أصغر ضروب المنافع التي حققها اختراعه، كان أمراً محبباً الى نفسه وهو يطنب في تبيان كثير من الدقائق ويسلمنا الى وصف علمي دقيق لتجاربه في عش الغراب ، فيحـــدثنا انه اتخذ بوصلة صغيرة أودعها هنالك لكي يحسب الاخطاء الناجمة عما يسمى « الجذب المحلي » في مغناطيس صندوق الابرة ، وانما ينجم الخطأ عن كون الحديد الأفقي مجاوراً عند ظهر السفينة لصندوق الابرة ، وربما كان ناتجاً في حال « جبل الجليد » لوجود كثير من الحدادين المعلولين بـين بحارتها . ومع أن القبطان فطن علمي المنزع في هـــذه الشئون الا أنه رغم كل نظرياته في « انحرافات الابرة » و « ملاحظ على بوصلة السمت » و « أخطاء تقريبية » فانه يعلم علم اليقين انه لم ينغمس في هذه التأملات المغنطيسية العميقة انغماساً يعجزه عن ان ينجذب بين الحين والحـــين الى تلك الزجاجة الصغيرة الطافحة الملففة بعناية ولطف في جانب من عش غرابه ، في متناول ميسر لليد ؛ ومع أني في الجملة معجب كثيراً بالقبطان الشجاع النزيه العالم، بل أوليه الحبّ، إلا أني أراه قد أساء النية حين تجاهل أمر تلك الزجاجة تجاهلاً تاماً ، وهو يرى كيف كانت صديقاً صدوقاً ونديماً رفيقاً حين كان يدرس الرياضيات في الاعالي في عش الطائر على بعد يسير من القطب ، وقد وضع القفاز في يديه والقلنسوة على رأسه .

لكن ان كنا نحن ، حوّاتي البحار الجنوبية ، محرومين من المهاد المريح في الأعالي ، لا ننال ما كان يستمتع به القبطان سليت وحواتو جرينلاند فان لدينا ما يعوض هذا الحرمان ويوازيه ويربو عليه فنحن — حواتة الجنوب — قد ننعم بالطمأنينة في تلك البحار المغرية التي نبحر غالباً فيها . وأنا أصدقك القول عن نفسي فقد كنت أصعد الحبال متلكئاً متكاسلاً ، وأرتاح في القمة لأتحدث الى

كويكوج او الى اي امرىء آخر انتهت نوبته والتقيت به لدى صعودي ، ثم أرقى قليلاً فألقى رجلاً متكاسلاً فوق سارية الشراع الرئيس ، مرسلاً نظرة رائدة على المروج المائية وأخيراً أصعد الى مستقري النهائي .

ودعني أنفض خبيئة صدري في هذا المقام وأقرُّ في صراحة ان الرّقابة التي كنت أقوم بها كانت بئيسة. هذا الكون يدور في داخلي فهل في مقدوري – وأنا قد أصبحت وحـــدي على علوٍّ يولّد الخواطر والافكار – الا ان أستخف بالواجبات التي تفرض عليّ ان أراعي أمر سفن التحويت حين تقول: «كن يقظاً مفتح العينين على الجوّ من حولك ، وارفع عقيرتك بالنداء كلّ مرة» .

ولأوجه اليكم يا أصحاب السفن النانتوكتيين تحذيراً حافزاً مثيراً في هذا المقام ! حذار من ان يكتتب للعمل في سماكاتكم اليقظة اي فتى شاحب الجبين غائر العينين مستسلم الى التأمل في غير إبّانه ، يبحر معـــكم وقد حمل حوار «الفيدون» [1] في رأسه بدلاً من «جداول» بودتش . أقول لكم حذار من مثل هذا الفتى . ذلك ان الحيتان لا بد ان تقع عليها العين قبل ان يمكن قتلها، وهذا الشاب الافلاطوني ذو العين الغائرة قد يجركم في عشر دورات حول العالم ولا يزيد غلتكم من زيت العنبر ربع لتر واحد . وما أقدم لكم هذه التحذيرات اعتباطاً وأنتم في غنى عنها ، لان سماكة الحيتان في هذه الايام قد جعلت تصبح ملجأ لكثير من الشبان الرومنتيكيين السوداويين الذاهلين الذين اشمأزت نفوسهم من الهموم المضنية على اليابسة ، فجاءوا يطلبون رضى مشاعرهم في الشحم والقار . وكثيراً ما كان تشايلد هارولد يقوم عند قمة الصاري في احدى سفن التحويت التاعسة الخائبة ثم يرسل كلماته المنكدة قائلاً :

---

[1] هو الحوار الذي تناول فيه افلاطون مسألة خلود النفس ، وكان من الكتب التي يحبها ملفل .

تدافعي تدافعي يا أمواج الخضم العميق الاخضر

ففوقك آلاف من متصيدي الشحم يتذبذبون متقلبين من غير طائل .

وكثيراً ما يوقف قباطنة السفن هؤلاء الفلاسفة الشبان الذاهلين موقف التقريع ويوبخونهم لانهم ليست لديهم « رغبة » كافية في الرحلة ، ويلمحون اليهم بأنهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً عن الطموح السامي اذ أنهم يؤثرون في قرارة نفوسهم ان يروا اي شيء سوى الحيتـــان . ويضيع كل تقريع سدىً ، فهؤلاء الافلاطونيون يعتقدون ان الرؤية عندهم ناقصة ، وأنهم مصابون بقصر النظر فما جدوى أن يتعبوا أعصـاب العين ؟ وهم لم يحضروا معهم نظاراتهم التي يستعملونها في المسارح .

قال احد الزرّاقين لاحد هؤلاء الفتية : « يا قرد ، قد قضينا في التجوال ما يناهز ثلاث سنوات وأنت لم ترَ حوتاً . ان كنا نجد للدجاجة أسناناً ، وجدنا الحيتان وأنت موكل بالحراسة في الأعالي » . لعلّ الحيتان اختفت أثناء نوبته ، او لعلها كانت أكداساً على الأفق البعيد ، ولكن هدير الموج الذي اختلـــط بالأفكار هدهد ذلك الفتى الذاهل في هدأة حلم أجوف غير واعٍ كأنه سحب الأفيون، فأفقده في النهاية هويته ، فأخذ يحسب الخضم الغامض عند قدميه صورة محسوسة لتلك الروح العميقة الزرقاء التي ليس لها قرار ، والتي تغلغلت في الانسان وتخللت عالم الطبيعة ؛ وغدا كل شيء غريب منساب جميل لا تحققه العين بدقة يغره ، وكل زعنفة بارزة لا تستبان بوضوح في اي شكل لا يثبته الادراك تتبدى في عينيه تجسيداً لتلك الخواطر والافكار الغرّارة التي لا تعمر الروح إلا ان استمرت تمرق من خلالها . وفي هذه الحال المسحورة تنحسر الروح هاربة الى الموطن الذي جاءت منه ، وتتخلل الزمان والمكان كأنها رفات كرانمر المؤمن

بوحدة الوجود حين ذرّيت فأصبحت في النهاية جزءاً من كل شاطىء في الكرة الارضية [1] .

تنحسر الحياة من راكب السفينة إلا تلك الحياة المهدهدة التي تهبها له السفينة نفسها وهي تقدل فوق الامواج هوناً ما . حياة استمدتها السفينة من البحر ، ووهبتها للبحر تيارات إلاهية خفية لا تدرك . وبينا المرء مستغرق في هذه الهدأة سابح في هذا الحلم ، قل له ان يحرك قدمه او يـــده على مدى بوصة ، ليزحزح رأسه قيد انملة ، ترجع اليه هويته في فزع . انه ليحلق فوق «دوامات» ديكارت [2] ، ولعله في منتصف النهار والجو غاية في الاعتدال يرسل صيحة مختنقة محشرجة ويتردى خلال ذلك الهواء الشفاف في أعماق البحر إبان الصيف ، فلا يرتفع من مهواه الى الأبد . تنبهوا لهذا ايها المؤمنون بوحدة الوجود !

---

١ هو توماس كرانمر نصبه هنري الثامن رئيساً لاساقفة كانتربري ، وقد أحرق في اكسفورد عام ١٥٥٦ متهماً بالهرطقة بعـــد ان عادت سلطة الكنيسة الرومانية في حكم الملكة ماري . ولكن لم يذكر احد ان رفاته ذرّيت ، ويبدو ان الامر اشتبه على ملفل ، باستخراج رفات ولیم ويكلف وحرقها وقذفها في نهر هنالك «حملها في أرجاء المعمورة» حين ألقى بها أخيراً في البحر المحيط .

٢ اعتماداً عـــلى نظريات كوبرنيكس وغليليو تقدّم الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠) بنظرية تقول ان كل حركة في الكون فهي دائرية او في هيئة دوّامة . وقد بقيت هذه النظرية حتى قضى عليها نيوتن بنظريته في الجاذبية .

٣٦ الربعة خلف الدقل الاعظم

(يدخل آخاب ثم يدخل الجميع)

بعد مدة قصيرة من حادثة الغليون كان آخاب ، حسب عادته ، يصعد ذات صباح بعيد الفطور من دهليز القمرة الى ظهر السفينة . ومعظم قباطنة البحر يتمشون في العادة هنالك في تلك الساعة كالسادة الريفيين الذين يدورون في الحديقة بضع دورات بعد وجبة الافطار .

وسرعان ما تأدت الينا أصوات خطواته العاجية الثابتة وهو يذهب ويجيء في دوراته المعهودة على ألواح ألفت وطأته حتى انحفرت آثار مشيته فيها ، وكأنها حجارة جيولوجية . هل حدقت ممعناً في ذلك الجبين المغضن المخـدد ؟ هنالك ترى ايضاً آثار أقدام أغرب من تلك – هي آثار أقدام الفكر الذي لا ينفك مسهداً يذرع رأسه جيئة وذهوباً .

لكن في المناسبة التي نحن بصددها بدت تلك الطوابع المنحفرة أشد غوراً مما هي في العادة ، مثلما ان خطوته العصبية القلقة في ذلك الصباح تركت علامة أعمق . وملأ الفكر نفس آخاب ، حتى انك لتكاد عند كل دورة يدورها حيناً عند الصاري الرئيس وحيناً عند صندوق الابرة ان ترى ذلك الفكر يدور فيه كلما دار ويخطو فيه كلما خطا ؛ قد تملكه تملكاً تاماً في الواقع حتى كأنما لم يكن سوى الشكل الداخلي لكل حركة خارجية .

همس اسطب يقول : « أتراه يا فلاسك ؟ ان الصوص الذي في داخله ينقر القشرة ولا بد من ان ينقف سريعاً » .

وانقضت الساعات . وكان آخاب حبيس قمرته ثم تواً يذرع ظهر السفينة وفي مظهره ما كان فيه من التهمم المستبد نحو غايته .

وأخذ النهار يقترب من نهايته ، وفجأة وقف عند جانب السفينة ودسّ رجله العاجية في الثقب ، وأمسك بيده جانب الشراع ، وأمر استاربك ان يبعث بكل الرجال الى مؤخرة السفينة .

« سمعاً ! » — ذلك ما قاله الضابط وقد اعترته الدهشة لأمر قلما يصدر على ظهر السفينة الا في الظروف الشاذة .

فردد آخـــاب : « أرسل كل الرجال الى المؤخرة . المراقبون على رءوس الصواري ؛ هيا ! لينزلوا ! »

وحين احتشدت العصبة كلها وأخذوا يتطلعون اليه ووجوههم يرين عليها الاستغراب وشيء من الخشية والتوجس — اذ أنه لم يكن يختلف كثيراً عن الأفق حـــين تنذر العاصفة بالهبوب — ألقى آخاب لمحة عجلى من فوق جانب السفينة وسدّد عينيه في البحارة وبدأ المشي من حيث يقف ، أعني استأنف خطواته الثقيلة كأنه لا يحس نأمة إنسيّ على مقربة منه . ومضى يمشي مطأطأ الرأس وقبعته منكفئة بعض الشيء ، غير منتبه الى الهمس المندهش الدائر بين الرجال ، حتى همس اسطب في حذر الى فلاسك بأن آخاب دعاهم ، ولا بد ، ليشهدوا براعة المشي . ولم يستمرّ هذا الأمر طويلاً اذ صاح بعد تلبث عنيف :

— « ماذا تفعلون عندما ترون حوتاً ايها الرجال ؟ »

– « نرفع عقائرنا بالنداء » رددت هذا الجواب المتسرّع عشرون حنجرة معاً .

– « حسن ! » كذلك صاح آخاب وفي صوته نغمة استحسان غريبة اذ لحظ الانتعاش المخلص الذي أثاره سؤاله غير المتوقع وألقى الرجال في حومته بقوة مغناطيسية .

– ثم ماذا بعد ذلك يا رجال ؟

– ننزل قواربنا ونتبعه !

– واي لحن ترددون وأنتم تجدفون يا رجال ؟

– حوت ميت او قارب محطوم !

وعند كل صيحة أخذت أسارير الرجل العجوز تزداد تطلقاً واستحساناً على نحو غريب عنيف . هذا بينا أخذ البحارة ينظر أحدهم الى الآخر نظرات دهشة واستغراب ، كأنهم يعجبون كيف انساقوا هم أنفسهم الى الانفعال بهذه الأسئلة التي تبدو دون غاية .

غير انهم عادوا وكلهم شغف وتطلع حين خاطبهم آخاب ، بعد ان دار نصف دورة في الثقب المحوري، ويده مشبوحة على الشراع وهو يقبض عليـــه قبضة محكمة لا تخلو من ارتعاش، فقال :

«أنتم يا حراس الاعالي جميعاً لقد سمعتموني ألقي الأوامر حول حوت أبيض. تنبهوا ! هل ترون هذه الأوقية الاسبانية من الذهب ؟ » ورفع في وجه الشمس

قطعة نقد عريضة لامعة ثم مضى يقول : « هذه القطعة تسوى ستة عشر دولاراً يا رجال . هل ترونها ؟ ناولني يا سيد استاربك تلك المطرقة » .

وبينا ذهب الضابط يحضرها جعل آخاب، دون أن يتكلم، يحك القطعة الذهبية ببطء على زيق سترته كأنما يريد أن يزيد في لألائها، وكان عندئذٍ يهمهم لنفسه بصوت خافت دون ان يستعمل ألفاظاً، محدثاً صوتاً مغمغماً مكتتماً حتى بدا وكأنه همهمة آلية تصدرها عجلات حيويته التي تدور في دخيلة نفسه .

وتناول المطرقة الخشبية من استاربك وتقدم نحو الدقل الاعظم والمطرقة مرفوعة في احدى يديه، والقطعة الذهبية معروضة في الاخرى وهتف في صوت جهوري :

« من نبّه الى وجود حوت أبيض الرأس ذي جبهة مجعدة وفك أعوج، من نبّه الى وجود ذلك الحوت الابيض الرأس وفي جانبه الأيمن ثلاثة ثقوب ، من نبّه الى وجود ذلك الحوت الابيض نفسه فله هذه الاوقية الذهبية يا أبنائي ! »

« زه مرحى ! زه مرحى ! » صاح البحارة تحية تسمير القطعة الذهبية على الصاري وهم يؤرجحون قبعات التربولين في الفضاء .

وفي اثناء ذلك كله كان طاشطيقو ودغة وكويكوج يتطلعون وقد ساورهم اهتمام ودهشة أشدّ من سائر الملاحين، وأجفلوا حين سمعوا ذكر الجبهة المتجعدة والفك الأعوج كأنما كل واحد على حدة مَسَّتْهُ ذكرى خاصة .

قال طاشطيقو : « قبطاننا آخاب، لا بد ان هذا الحوت الابيض هو الذي يسميه بعضهم : موبي ديك » .

فصاح آخاب : « موبي ديك ؟ اذن فأنت تعرف الحوت الابيض يا طاش ؟ »

فقال الرجل الجايهيدي في تؤدة : « أتراه يحرك ذنبه تحريكاً غريباً بعض الشيء يا سيدي قبل ان يغوص ؟ »

وقال دغة : « وله نفثة غريبة وهو كث الحاجب بالقياس الى حيتان العنبر الأخرى، سريع جسور، يا قبطان آخاب ؟ »

وصاح كويكوج بكلمات متقطعة : « وله واحد. اتنان . تلات آه ! أسنة كثيرة فيه جلده، قبطان؛ وكل الأسنة عج معج فيه مثل... مثل» وأخذ يتلمس جاهداً كلمة يعبّر بها عن نفسه ويبرم يده ويبرمها كأنه يفتح قنينة : « مثل هيك... مثل هيك » . فصاح آخاب : « مثل البريمة . صدقت يا كويكوج كل الأسنة تعوّجت فيه والتوت. صحيح يا دغة نفاثته كبيرة كأنها عرمة قمح؛ بيضاء ككومة من جزز الصوف النانتوكتي اثر الموسم السنوي العظيم لقص الاغنام . أيوه يا طاش وذنبه يخطر كالشراع المشقوق في العاصفة . يا للموت ! يا للشياطين! يا رجال ان ما رأيتموه هو موبي ديك — موبي ديك » .

فقال استاربك، وكان حتى هذه اللحظة يلحظ رئيسه هو واسطب وفلاسك بدهشة متزايدة؛ واخيراً بدا ان فكرة لاحت له فسرت بعض الشيء كل دهشته: « قبطان آخاب، قبطان آخاب سمعت بموبي ديك — أليس هو موبي ديك الذي خلع رجلك ؟ »

فصاح آخاب : « من أنبأك هذا ؟ » وبعد ان توقف قليلاً مضى يقول : « نعم يا استاربك، نعم يا احبابي المجتمعين . هو موبي ديك الذي نزع صاريّ . موبي

ديك هو الذي ألجأني الى هذا الجِذْم الميت الذي أقف عليه [1] . نعم . نعم . نعم » وصرخ في شهقة مرعبة جهورية حيوانية كأنها شهقة موظ أصيب في قلبه واستمر يقول : « أجل . صحيح ! هو ذلك الحوت اللعين الذي هدّ ركني وجعل مني خشبة ناتئة الى الابد وكل يوم » . ثم لوح بذراعيه كأنه يصب لعنات لا تحصى وصاح : « نعم. نعم. وسأطارده حول رأس الرجاء وحول رأس هورن وحول الدوامة النرويجية وحول شعل الهلاك والدمار قبل أن أيأس من لقائه . ومن اجل ذلك أبحرتم أيها الرجال، كي تتعقبوا ذلك الحوت الابيض في نصفي الكرة الارضية وعلى كل جوانب المعمورة الى ان ينفث دماً أسود ويتقلب ويتضرب وتطفو زعنفته على الماء . ما قولكم يا رجال أتعطونني ايديكم على هذا ؟ اني لأراكم شجعاناً باسلين » .

« أجل . أجل » صاح الرماحون والبحارة وقد جروا يقتربون من الشيخ الهائج وقالوا : « عيون نفاذة ترقب الحوت الابيض . رماح حادّة معدة لموبي ديك » .

بين الشهقة والصراخ قال : « بارك الله فيكم . بارك الله فيكم يا رجال . يا امين المؤن . اذهب واحضر مكيال الجروك الكبير . ما بالك مططت بوزك يا سيد استاربك ؟ ألا تريد ان تطارد الحوت الابيض ؟ ألست كفؤاً لموبي ديك ؟ »

— « انا كفؤ لفكه المعوج، كفؤ لفكي الموت ايضاً، يا قبطان آخاب، ان كان ذلك يتفق مع العمل الذي من اجله نسعى ؛ ولكني جئت هنا لصيد الحيتان لا لأثأر لرئيسي . كم برميلاً من الزيت يأتيك بها انتقامك ان حققته يا قبطان

---

[1] في الاصل razeed me ومعنى الكلمة : قطع الربعة العليا من سفينة .

آخاب ؟ انه لا يغلّ عليك مـــا يفيدك كثيراً في أسواق نانتوكت » .

— « اسواق نانتوكت ! تباً ! اقترب يا استاربك . انك لتطلب نصيباً اكبر [1] . ان كان المال هو المقياس ايها الرجل وقدّر الحاسبون ان تكون الكرة الارضية بيت حساباتهم الكبير فطوقوها بالجنيهات ووضعوا جنيهاً على مدى كل ثلاثـــة ارباع من بوصة فدعني اخبرك بأن انتقامي يدر كسباً عظيماً في هذا المجال » .

فهمس اسطب : « انه يدق صدره بيده . ترى لماذا ؟ والصدى يدل على انه صدر واسع إلا انه أجوف » .

فصاح استاربك : « أتنتقم من وحش اخرس ! ضربك بوحي من غريزته العمياء ؟ جنون ! انك حين تغضب من شيء اخرس يا قبطان آخاب فذلك ذو سبب بالكفر » .

— « أصيخوا مرة اخرى — هذا يريد نصيباً في الارباح ؛ كل الاشياء المرئية ايها الرجل ليست إلا أقنعة من الورق المقوّى . ولكن في كل حادث — في العمل الحيّ، في الفعل اليقيني — يقوم شيء مجهول إلا انه متعقل، فيخفي طابع ملامحه وراء ذلك القناع غير المتعقل، فاذا كان للمرء ان يضرب فليضرب من خلال القناع . كيف يمكن للسجين ان ينفذ الى الخارج إلا اذا اخترق الجدار ؟ انا أرى الحوت الابيض هو ذلك الجدار وقد اندفع قائماً على مقربة مني، واحياناً

---

[1] يلمح آخاب هنا الى ان موافقة استاربك قد تشترى بزيادة نصيبه من الارباح (a little lays) ؛ وقد مرّ بنا ان الانصباء التي ينالها الذاهبون في التحويت تسمّى (lower layer (انظر الفصل ١٦ : ١٤١) .

يخيل اليّ ان ليس وراءه شيء ، ولكنه وحده يكفي فانه يستنزف جهدي، يطرحني كالكومة، وأرى فيه قوة غاصبة فاضحة يبتعثها حقد مبهم، وذلك الشيء المبهم هو ما امقته ؛ وسواء أكان الحوت الابيض نائباً عنه او كان هو إياه فاني سأجعل ذلك المقت له نكالاً . لا تتحدث عن الكفر، يا رجل. اني لأضرب الشمس لو انها اهانتني اذ ان كانت الشمس تستطيع الاهانة فأنا استطيع الضرب، فهناك دائماً نوع من التعامل الانتصافي ما دام الحسد يهيمن على كل المخلوقات ولكن ليس رئيسي نفسه يا رجل كفاءً بهذا التعامل ؛ ومن ذا الذي هو اعلى مني حتى يستحق اسم الرئيس ؟ ليس للحقيقة حدود . حوّل بصرك ! لأسهل ان يطيق المرء تبريق الشياطين من ان يطيق النظرة البلهاء ! كذا اذن : تحمر وتصفرّ، لقد اذابتك حرارتي فأصبح يتطاير منك شرر الغضب . لكن افهم يا استاربك : ان ما يقال في حرارة ، فذلك شيء يخرس نفسه فلا يبين ؛ بعض الناس تصدر عنهم الكلمات الحارة وهي خسة صغيرة . لم أقصد ان أثيرك . معلش . ها فانظر تلك الخدود التركية ذات الصحمة البقعاء، تلك الصور الحية المتنفسة التي رسمتها الشمس . هذه الفهود الوثنية — التي لا يهمها شيء ولا تعبد شيئاً، تلك التي تحيا ولا تتطلب اسباباً عن الحياة المتلظية التي تحس بها ولا تقدم أسباباً . هؤلاء البحارة ايها الرجل، هؤلاء البحارة أليسوا وحداناً ومجتمعين مع آخاب في امر الحوت ؟ انظر الى اسطب ! انه يضحك، وانظر ذلك التشيليّ هناك انه يقهقه اذ يتصوّره . شجيرتك المزعزعة لا تستطيع ان تقف وحدها في العاصفة الجائحة يا استاربك ! وما الامر ؟ قدّره وحدك . أن تعين غيرك في ضرب زعنفة ؛ ليس هذا عملاً بطولياً يقوم به استاربك . وماذا ايضاً ؟ عن هذا الصيد البائس، لن تبقى خير حربة في نانتوكت كلها محجمة حين امسكت كل يد بمحجر المسن ؟ آه ! أثقلتك القيود والاغلال . ها ! رفعتك الامواج ! تكلم — تكلم وحسب ، اجل ، اجل انه صمتك اذن الذي ينطقك . (ثم على حدة) : انطلق شيء من وقبي منخريّ الواسعين فتجرّعه حتى بلغ رئتيــــه . أصبح استاربك في قبضتي، لا يستطيع ان يقاومني دون تمرد وثورة » .

« حماني الله ! حمانا جميعاً ! » كذلك تمتم استاربك بصوت خفيض .

إلا ان آخاب، وهو مبتهج جذلان اذ يرى التسليم المسحور الضمني لدى استاربك، لم يسمع دعـــاءه الاخير المحمّل بالنذر والتوجسات، ولا الضحكة الخفيضة التي انطلقت من عنبر السفينة، ولا ذبذبات الريح المنذرة بالشرّ وهي تصطدم بالامراس، ولا الخفقات الجوفاء تصدر عن الاشرعة وهي تلطم الصواري، وقد هوت قلوبها ذعراً في تلك اللحظة. اذ ان عناد الحياة واباءَها عادا يشتعلان في عيني استاربك اليائستين، وماتت الضحكة التي تأدت من اسفل، ومضت الريح في هبوبها وانتفخت الاشرعة ، وذهبت السفينة كما كانت من قبل تتمايل وتتدحرج. آه منك ايتها النذر والمنبهات ! لماذا لا تبقين حيث أنت حين تقررين القدوم ؟ ولكن أأنت ايتها الاطياف مرهصات لا نذر إلا أنك لست مرهصات آتية من الخارج بقدر ما تمثلين الامور التي تجري في الداخل . اذ ان قليلاً من العناصر الخارجية يعترض طريقنا ويصدنا ؛ عندئذٍ تلحّ الضرورات الدخيلة على ان تحفزنا للمضيّ .

صاح آخاب : « المكيال ! المكيال ! »

فجاءوه بالاناء القصديري الطافح، فالتفت نحو الرماحين وأمرهم ان يحضروا أسلحتهم، ثم صفهم امامه قرب المسحاب وقد امسكوا رماحهم بأيديهم، بينما وقف ضباطه الثلاثة الى جانبه ومعهم حرابهم . وكوّن سائر العصبة دائرة حول تلك الفئة ووقف برهة يلحظ كل فرد في الملاحين . إلا ان تلك العيون الغريبة واجهت عينيه كأنها عيون ذئاب السهوب الحمر المتوقدة تواجه عيني قائدها قبل ان يندفع وهو على رأسهم في أثر البيسون ليسقط وا أسفاه في فخ خبيء نصبه الرجل الهندي .

سلـّم الاناء المترع لاقرب بحار وصاح : « اشرب وأدره لمن يليك . ليشرب

الملاحون وحدهم الآن . ثم أديروه . أديروه ! شرباً قصيراً، وتمززاً طويلاً يا رجال ! انه ساخن كحافر الشيطان . تمام . تمام . هكذا يدار . انه ليتغلغل متلولباً ثم ينشطر متجهاً الى العين الغاضبة الافعوانية . أحسنتم . كدتم تأتون على ما فيه . في هذا الاتجاه ذهب . في هذا يجيء . لقد تحسيتم الحياة المترعة . املأ ايها الساقي ! »

« أصغوا اليّ ايها الشجعان لقد جمعتكم حول هذا المسحاب ؛ وانتم ايهـــا الضباط أحيطوا جناحيّ بحرابكم ؛ وانتم ايهـــا الرماحون قفوا هناك ومعكم رماحكم ؛ وانتم ايها البحارة الاقوياء الاشداء تحلقوا حولي كي أحيي عادة سامية درجت قبلي بين أسلافي الصيادين . ايها الرجال انكم سترون أنّ ... يا غلام ! عجّل ! الدراهم الزائفة لا تعود بسرعة ؛ حسناً. ها هو الاناء مترع مرة اخرى، لو لم تكن انت عفريت سنت فيش ! غُـرْ يا حمّى البرداء ! »

« تقدموا ايها الضباط . ضعوا حرابكم أمامي متقاطعة . احسنتم دعوني ألمس نقطة الالتقاء » . وما ان قال ذلك حتى مدّ ذراعه وضم جمع يده على الاسلحة المتعارضة في مركز التقائهـــا جميعاً . واذ فعل ذلك هزها فجأة وفي عصبية بينا هو ينعم النظر حيناً الى استاربك وحيناً الى اسطب وحيناً الى فلاسك ، وكأنه كان يود ان يفرغ في دخيلة نفوسهم عن طريق عزم دخيل لا يحدّ تلك الشحنةَ النارية التي تجمعت داخل الجرة الليدنية من حياته المغناطيسية، وأصيب الضباط بالوهن الخائر امام مظهره القوي الصامد الغامض ؛ أما اسطب وفلاسك فحوّلا نظراتهما عنه الى ناحية، وأما نظرة استاربك الشريف فسقطت عند قدميه . وصاح آخاب : « عبثاً ؛ ولكن، لعل الخيرة في ذلك لانكم لو أخذتم مني تلك الشحنة المتأججة إذن لنقصت الكهرباء او تلاشت مني أنا، وربمـــا لم تقدروا على تحملها فصعقتكم ، وربما لم تكونوا ممن يحتاجها . اخفضوا حرابكم ! وأنا أوظفكم يا ضباطي الثلاثة سقاة لأنسبائي الوثنيين الثلاثة الواقفين

هنالك – أشرف الناس وأعلاهم محتداً، أولئك الزرّاقين الشجعان . أتزدرون هذه المهمة ؟ ماذا تقولون في البابا العظيم وهو يغسل اقدام الشحاذين مستعملاً تاجه البابوي ابريقاً ؟ آه ايها الكردينالات الاحباء ! ان تواضعكم هو الذي يحني جباهكم لأدائها . انا لا آمركم وانما انتم تريدون . جذّوا الاربطة وافصلوا القنوات من الأسنة ايها الزراقون » .

أطاع الزراقون الثلاثة أمره في صمت ووقفوا امامه وقد انفصلت الاسنة من قنوات رماحهم – وطول السنان منها ثلاثة اقدام – وهم قد أشرعوها .

– « لا تطعنوني بذلك الفولاذ النفّاذ ! اميلوها ! اميلوها ! ألا تعرفون قرارة الكأس . اجعل ثعلبة السنان الى اعلى . تمام . كذا . انتم ايهـــا السقاة تقدموا . الأسنة ! خذوها . احملوها وأنا أصب » . وبذلك مشى ببطء من ضابط الى آخر وملأ ثعلبة كل سنان بالشراب الناريّ يصبه من الاناء .

– « انتم الآن ثلاثة يواجهون ثلاثة . ضعوا ثقتكم في هذه الكؤوس الفولاذية القاتلة . سلـّموها الى اصحابها يا من أصبحتم فريقـــاً في هذه الرابطة التي لا تنفصم . ها ! استاربك ! لقد تمّ كل شيء ! وهذه الشمس المؤمّنة على خطتنا تشهد على العهد . اشربوا ايها الزرّاقون . اشربوا وأقسموا انتم يا من تقفون عند مقدم القارب المرصد بالموت – أقسموا ان يكون الموت نصيب موبي ديك . قولوا : جعلنا الله جَزَرَاً لنقمته إن لم نجتزر موبي ديك حتى يموت » . رفعت الاسنة التي اتخذت كؤوساً وتصاعدت الصيحات وانصبت اللعنات على الحوت الابيض، وأغرقت الارواح عندها في جرع الشراب . اصفر استاربك وحوّل وجهه وارتعد ؛ ثم جرى الاناء مرة اخيرة يدور بين الملاحين الهائجين ، وعندما لوح لهم آخاب بيده تفرقوا جميعاً، أما هو فذهب ينزوي في قمرته .

٣٧

الغروب

(المنظر في القمرة، عند النوافذ المطلة على مؤخرة السفينة . آخاب جالس وحده يحدق في الفضاء)

« حيثما اتجهت خلفت أثراً أصفر كدراً . حيثما أبحرت فثمّ ميـــاه شاحبة وخدود أشد شحوباً . الأمواج الغيرى الحاسدة تتدافـع على الجانبين لتطمس أثري . لتفعل ان شاءت فأنا أمرّ أولاً وأخلـّفها ورائي » .

« هناك عند حافة هذا الكأس المترع أبــداً تعلو الامواجَ الدافئة َحمرةُ الخجل كأنها الخمر ، والحاجب الذهبي يسبر غور الازرق المائي . والشمس قامس يهبط — وقد مالت عن سمت الظهيرة — وروحي تصعد لانها سئمت لبثها عند مشارف الارض . هــــل التاج الذي ألبسه — إذن — ثقيل ؟ تاج لومبارديا الحديدي [١] ؟ هذا وفيه تتلألأ جواهر عديدة . أنا الذي ألبسه لا أرى المدى الذي يبلغه لألاؤها، إلا أني أحس إحساساً مبهماً بأني ألبس شيئاً يحيّر ويُعشي. حديديٌ هو — أدري ذلك — لا ذهبي . مصدوع هو ايضاً — أحس ذلك . والحافة المثلمة تشكـّني حتى ان دماغي ليدق دقاته ضدّ المعدن الصليب . نعم .

---

١ محفوظ في كاتدرائية مونزا بايطاليا ، كان يستعمل في تتويج اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة وتروي الاساطير أن فيه مسماراً من مسامير الصليب الذي دق لعيسى .

جمجمة فولاذية هي جمجمتي . مثلها لا يحتاج خـــوذة في اي قتال ينثر حشو الرءوس » .

«أتعلو جبهتي حرارة جافة؟ يا لله ! رحم الله أياماً كنت اذا لسعتني فيها حمة الشروق رقتني منها تعويذة الغروب . كل ذلك انقضى . هذا الضوء الجميل لا يضوىء جنبات نفسي . كل جمال أصبح مصدر عذاب لي لأني لا أستطيع ان أتمـــلاه . وهبت الادراك العالي فأعوزتني القدرة الدانية التي تحسن التملـّي والاستمتاع . ملعون على نحو خبيث ماكر ! مطرود من الرحمة وأنا في رحبة الفردوس ! طابت ليلتكم – طابت ليلتكم ! » [يلوح بيديه ويغادر النافذة] .

« لم تكن مهمة صعبة . ظننت أنني سأجد في الاقل واحداً حروناً عنيداً . الا أن شتـّى وافق طبقتهم؛ طوقي المسنن يلائم كل عجلاتهم المختلفة فتدور حوله وفاقاً . او ان شئت فقل ان كل امرىء فيهم جرثومة من مسحوق البارود تقف أمامي ، وأنا أعواد الكبريت . تشبيه صعب غير موفق ! اذ ان الكبريت ان شاء ان يشعل الآخرين فقد وجوده اولاً . ما جرؤت عليه أردته ، وما أردته سأحققه . يظنونني مجنوناً – استاربك يظنني كذلك ، الا أنني شيطاني ، انني الجنون هائجاً مجنوناً ! جنوني هو الجنون الذي لا يهدأ الا ليتأمل نفسه ! قالت النبوءة انني سأفقد عضواً – صدقت فقد فقدت هذه الرجل ، وأنا الآن أتنبأ بأنني سأفقدُ من ذهب برجلي أعضاءه . لأكن انا العراف ومحقق العرافة معاً . هذا شيء ايتها الآلهة العظيمة فوق طوقك . انا أضحك وأمكو منكم سخراً ، يا لاعبي الكريكت يا «قبضايات»، أيها الصمّ مثل بيرك أيها العمي مثل بنديجو[1] ،

---

١ كان بيرك بطل انجلترا في الملاكمة عام ١٨٣٣ ، وكان بنديجو واسمه وليم طومسن بطلاً آخر ١٨٣٩ – ١٨٤٥ .

لن أقول كما يقول تلميذ المدرسة لفتوّة من فتوات العواهر : « فتش لك على واحد قدّك ، لا تلكمني » . لا . لقدُصرعتموني وها انا أنهض من كبوتي ، إلا أنكم هربتم واختبأتم من وجهي. ابرزوا اليّ من وراء حشيات القطن التي تحتمون بها . ليست معي بندقية طويلة تبلغ مداكم . تعالوا ! آخاب يهديكم تحياته . تعالوا وانظروا ان كنتم تستطيعون ان تزحزحوني من موقفي . تزحزحوني ! لا تستطيعون ذلك الا اذا زحزحتم أنفسكم . أمامكم رجل . تزحزحوني ؟ لقد مددت الى غايتي المثبتة سكة حديدية ورسمت لروحي ان تجري عليها لتبلغها فأنا أندفع دون خطأ فوق مضايق لا يعرف غورها وخلال جبال لم تخترق صعابها وتحت أثباج السيول والتيارات الجارفة . لا شيء يقف عقبة في طريقي ، لا انعطاف في السكة الحديدية العامدة » .

٣٨ غبش الظلام

(عند الصاري الرئيس وقد استند اليه استاربك)

« روحي لم تنلها أطراف الثقاب فحسب ، انها معبأة الى درجة الانفجار . عبأها رجل مجنون . حمة لا يطاق لسعها ان يبسط الجنون ذراعيه حول كل هذا الجمال . الا انه حفر عميقاً عميقاً ووضع لغماً فجّر به كل عقلي . أظنني أبصر خاتمته الكافرة ولكنني أحسّ ان عليّ مساعدته لبلوغها ؛ شئت او أبيت — لقد ربطني به ذلك الشيء الذي لا أجد له اسماً او وصفاً ، ربطني بحبل لا أجد معي سكيناً أجذه بها . يا للشيخ المفزع الرهيب ! يصيح قائلاً : من ذا يسيطر عليه ؟ نعم انه قد يكون ديموقراطياً مـــع كلّ من فوقه . انظر كيف يبسط سيادته على كل من دونه ! آه ! بوضوح أرى مهمتي التاعسة — ان أطيع والثورة تعتلج في نفسي ، وأسوأ من ذلك ان تخالط كراهيتي لمسةٌ من شفقة ، اذ انني قرأت في عينيه ويلاً مرعباً مكفهراً لو كان بي لشلّ قواي . ومع ذلك فثمة أمل . الزمن والمدّ تياران عريضان ، فالعالم المائي كله مجال للحوت البغيض مثلما ان الزهرية الزجاجية بيت للسمكة الذهبية الصغيرة ، والله قادر على ان يرخي حبال الزمن بينه وبين غايته التي أهان بها وجه السماء . لاستخفّ قلبي الرجاء لو لم يكن قلباً مثقلاً كأنه الرصاص ، لكن مزولة حياتي تنحدر ، وقلبي هو الذي يرجح بها ، وقد ضاع مني المفتاح الذي يعينني على رفعها من منحدرها ».

[يسمع صوت عربدة آتياً من المنارة]

« رباه ! كيف يبحر المرء مع أفراد عصبة وثنية لم تــلدهم أمهات من بني الانسان وانما تمخض عنهم البحر او قرش البحر . فالحوت الابيض هو الغرغون المخيف لديهم . سمعاً ! هذا هو اللهو الشيطاني . تجيء العربدة اولاً ثم يعقبها صمت محتوم . أظن هذا يمثل لنا الحياة . في الامام ينطلق مقدم السفينة المرح المتأهب المتماجن خلال البحر اللامع الفوّار لا لشيء الا ليجر آخاب في أعقابه ، حيث يقيم مستغرق الفكر في قمرته الواقعة عند المؤخرة المبنية على ماء المخر الساكن الهامد ، ومن بعد يتشبث بها الخرير المتذبذب . يهز العواء المديد أعماقي . صمتاً ! ايها المعربدون وابدأوا نوبة الحراسة . آه أيتها الحياة في ساعة كهذه الساعة حين تكون روحي قد قهرتها المعرفة واستولت عليها – معرفة كالتي تتغذى بها الاشياء المستوحشة الجاهلة مضطرة – في ساعة كهذه ايتها الحياة أحس بالرعب الكامن فيك ، لكنه ليس رعباً من داخلي ، هو رعب يقع خارج نفسي ، وسأحاول ان أقاتلك يا أشباح المستقبل الجاهمة بالشعور الانساني الرقيق الذي فيّ . أيديني ثبتي قدميّ أعلقي حبائلك بي ايتها القوى المبروكة ! »

٣٩

النوبة الاولى في الحراسة الليلية

مرقبة الصاري الامامي (اسطب وحده يصلح احد الاربطة)

ها ! ها ! ها ! إحم ! أجـــلو زَوْري. منذ ذلك الحين وأنا أفكر فيها والختام دائماً سلسلة من ها ! ها ! ها ! لِمَ كان ذلك كذلك ؟ لان الهاهاة الضاحكة أحكم جواب وأسهله عن كل تلك الغرابة . واذا كفلت للانسان راحته ، تلك الراحة التي تحضر حين تطلب ، فلا خير ان يقع ما يقع ، فكل شيء بقضاء وقدر . لم أسمع كل حديثه مع استاربك ولكن استاربك تبدى لعيني المسكينة شيئاً كالذي أحسست به أنا في تلك الامسية . كن واثقاً ان السلطان العجوز قد صلبه . أدركت ذلك ، عرفته ، ولو كانت لديّ الموهبة لتنبأت به لأني حين صفعت جمجمته بنظرتي رأيت ذلك الامر . حسناً يا اسطب . يا اسطب يا عاقل – ذلك هو اللقب الذي أحرزته – حسناً يا اسطب ، اي بأس عليك ؟ ها هنا جثة . انا لا اعرف كل ما قد يقع ولكن مهما يكن فاني سأذهب للقائه ضاحكاً . اي غمز عابث تنطوي عليه مرعبات دنياكم ! أشعر انني مضحك فا . لا . ليرا . سيرا ... ترى ماذا تصنع إجاصتي الشهديّة الريّا في البيت الآن ؟ أتراها تبكي ؟ أم تراها تستضيف آخر دفعـــة وصلت من الرماحين ، فهي مرحة كأنها علم الفرقيطة ، وكذا انا فا . لا . ليرا سيرا . آه !

سنشرب الليلة بقلوب جذلى
استخفّها الحب فهي مرحة رشيقة

كالحبب الطافي عند حافة الكأس
ينماث اذا لامسته الشفاه .

شعر جزل جميل – من ذا ينادي ؟ السيد استاربك ؟ نعم سيدي نعم – (ثم على حدة) هو رئيسي وله رئيسه ايضاً اذا لم اكن مخطئاً في التقدير – أجل . أجل يا سيدي تمهّل عليّ . أكاد أنهي هذه المهمة . آتٍ اليك

٤٠

منتصف الليل عند المنارة

الرراقون والبحارة (يرتفع الصاري الامامي، فيظهر الحراس المناوبون واقفين متبلدين متكئين مضطجعين في اوضاع مختلفة وكلهم يغنون معاً في جوقة) :

وداعاً وفي رعاية الله يا ايتها السيدات الاسبانيات

وداعاً وفي رعاية الله يا سيدات اسبانيا

قبطاننا قد أمر — .

البحار الاول من نانتوكت :

ايها الفتيان لا تكونوا عاطفيين . ذلك شيء يضرّ بالهضم . احفظوا اللازمة وهيئوا أنفسكم للنغمة ورددوا بعدي . (يغني ويأتمّ به الجميع):

قبطاننا واقف فوق الدكة

وفي يده مرقاب

يرى به الحيتان الجريئة

وهي تنفث عند كل شاطي

ضعوا دنانكم في قواربكم يا فتيان

وقفوا عند معاقد الحبال

وسنصيد حوتاً من هذه الحيتان

فاعقدوا العزائم وتكاتفوا كالبنيان

تهللوا وافرحوا يا فتيان ، لا خارت منكم القلوب !

حين ينقض الرمّاح الجريء ليطعن الحوت .

يتأدى صوت ضابط من الربعة وراء الدقل الاعظم :

اقرع الجرس ثماني مرات ، هناك هيا !

البحّار الثاني من نانتوكت :

أوقفوا الغناء ! ثماني دقات هناك ! أتسمع يا جرّاس دق الجرس ثماني دقات انت يا بيب ! يا أسيود ، ولأدعُ النوبة فمي صالح لذلك ، فم كأنه البرميل . هكذا . هكذا : (يدلي رأسه في الناروزة) ستار — بو — لي — نز آهوي ! ثمانية أجراس هناك في الاسفل ! هيا أسرع !

البحار الهولندي :

تعسيلة عظيمة هذه الليلة يا صويحب ؛ ليلة مسترخية كسلى . لحظت ذلك في الخمرة التي أدارها علينا ريّسنا ، فهي مميتة لبعضنا ، مهيجة لسائرنا . فنحن نغني وهم ينامون ، اي نعم ، يضطجعون هنالـــك كالبراميل المشدودة بالارض . خذ هذه البراعة وانفخ فيها ونادهم ؛ قل لهم يكفّوا عن ان يحلموا بصواحبهم . قل لهم نُفخ الصور

وبعثر من في القبور . عليهم ان يطبعوا على شفاه الخليلات آخر قبلة – في المنام – وينهضوا للحساب. هذا هو السبيل، هذا هو. ان حلقي لم يتلفه أكل الزبدة الهولندية .

البحار الفرنسي :

صه . يا أولاد ! لنرقص رقصة او رقصتين قبل ان نرسي في خليج بلانكت . ما قولكم ؟ ها هم أفراد النوبة الثانية . استووا على أرجلكم . بيب ! بيب ! هات الطنبور .

بيب (وهو برم مأخوذ بالنوم) :

لا أعرف أين هو .

البحار الفرنسي :

اضرب على كرشك إذن بدلاً منه ، وحرّك أذنيك . ارقصوا الرقصة يا رجال . حلوة هي لفظة الرقص ؛ مرحى ! ويلي ألا تريدون الرقص ؟ اصطفوا واحداً واحداً واقفزوا في دبكة مزدوجة . تطوّحوا . أرجلكم ! أرجلكم !

البحار الاسلندي :

لا أحب هذه المصطبة يا رفيّق، ذوقي يراها رطبة بليلة؛ انا تعوّدت على مصاطب الجليد . آسف اذ أسكب ماءً بارداً على ما انت متحمس من أجله . ولكن معذرة .

البحار المالطي :

وكذلك انا أجدني متقاعساً عن الرقص . أين الفتيات ؟ اي أحمق

يأخذ يده اليسرى في يمناه ويقول لنفسه وهو يهزها : مرحبا . كيف حالك ؟ أريد رفيقة تراقصني ، اين الرفيقات !

البحار الصقلي :

اي نعم ! فتيات وبساط عشبي أخضر عندئذٍ أثب وأنط معكم بل أصبح جندباً ان شئتم .

بحار لونج آيلاند :

يا بلداء ! ان قعدتم عن الرقص فغيركم كثير . أقول : احصدوا قمحكم حين تريدون . ستسعى الارجل عمّا قريب الى الحصاد . آه . ها هي الموسيقى حضرت . هيا اليها !

البحار الأزوريّ : (يصعد ويضع الطنبور عند أعلى الناروزة)

بيب . ها هي الآلة وهناك عضادة الرافعة . اصعد ! يلاّ يا فتيان !

(نصفهم يرقص على نغمات الطنبور ، بعضهم يهبط الى أسفل ، بعضهم ينام او يستلقي بين لفائف الامراس . الشتائم سيل غزير)

البحار الازوري (يرقص) :

نغّم . نغّم يا بيب . دق يا جرّاس دق . نغّم . حكـّم . دمدمْ . قدّم . يا فتى الاجراس . ابعث الشرار فوق النار . واحطم الجلاجل .

بيب :

تقول الجلاجل ! هذا واحد قد هوى . انا ألطمه هكذا .

البحار الصيني :

جلجل بأسنانك ودعها تتلاطم . اجعل من نفسك معبداً هندياً .

البحار الفرنسي :

استطارني الطرب ! أمسك هذا الطوق يا بيب حتى اقفز من خلاله. ايتها الاشرعة المشققة . تمزقي !

طاشطيقو (يدخن في هدوء) :

هذا رجل ابيض بحق يسمي ما يفعله مراحاً . أف له . انا في غنى عن التعب والعرق .

البحار الشيخ ابن جزيرة مان :

عجباً هل يعلم هؤلاء الفتية المرحون اي شيء هو الذي يرقصون فوقه . أمرٌ وعيد تتفوه به نساء الليل عندكم ، أولئك اللواتي تصفعهن الريح عند المنعطفات ان تقول احداهن : سأرقص فوق قبرك ، سأرقص . يا للمسيح ! حين يفكر المرء في الاساطيل الخضر والبحارة ذوي الجماجم الخضر ! ايه . ايه صدق علماؤكم حين قالوا ان الارض مستديرة ولذلك صحّ لاهلها ان يجعلوا منها دواراً للرقص . ارقصوا يا فتيان فانتم في عهد الشباب . كان لي شباب .

البحار الثالث من نانتوكت :

عرق ! عرق ! واه ! هذا أسوأ من جرّ القوارب خلف الحيتان في جو – هات نفساً يا طاش .

(يتوقفون عن الرقص ويتحلقون حلقاً . في الوقت نفسه تكفهر السماء وتقوى الريح)

البحار الهندي :

وحق براهما يا فتيان سيقولون انزلوا الاشرعة عما قليل . مدّ عالٍ سماوي كأنه مدّ نهر الكنج قد تحول ريحاً . انك ترينا عين الغضب المكفهر يا رب الانواء[1] !

البحار المالطي (متمدد يهز قبعته) :

هي الامواج — قبعات الثلوج جاءت ترقص رقصتها . عما قليل تهز هدّابها . ليت الامواج جميعاً كانت نساء ، اذن لنزلت اليهن ورقصت معهن . ليس في الارض ما هو عذب مثـــل اللمحات الخاطفة ترسلها الصدور الدافئة الثائرة في الرقص حين تخفي كرمة الاذرع التي تظللها عنباً ناضجاً جامحاً مستوفزاً .

البحار الصقلي (وهو متمدد) :

على الخبير سقطت . اسمع يا فتى . لمحاً واذا الاجسام تتعانق — تميّح كتميّح الاغصان الغضة — لمسات وجمشات — رعشات . الشفة ! القلب ! الرانفتين ! تمتع بالنظر اليها . لا تكف عن لمسها ثم امضِ . لا تذق . افهم ان ذقت شبعت ! مش كده يا وثني ؟ (يلكزه لينتبه) .

البحار التاهيتي (متمدد على حصير) :

يا ما أحلى العري المقدس في فتياتنا الراقصات — رقصة الهيوا هيوا . آه يا دانية الثمار يا سامقة النخيل يا تاهيتي . لا أزال أريح جنبي على حصير من صنعك ولكن اين الثرى الناعم ، ثراك ؟ رأيتك يا حصيري

---

[1] هو سيفا رب الدمار والخراب في الدين الهندوسي .

تنسجين في الغابات . خضراء كنت اول يوم جئت بك من هناك . وها انت بليت وذبلت النضارة . ويلاه ! لا انا ولا انت نستطيع ان نطيق البلى . كيف بك لو تعرضت للأنواء . ها انا أسمع الجداول الهادرة من قمة بيروهيتي ذات الشماف حين تندفع من خلل القنان وتغرق القرى والقيعان . العاصفة ! العاصفة ! انهضي يا نفس وواجهيها (يقفز واقفاً على قدميه) .

البحار البرتغالي :

يا للبحر كيف يتدافع متناثراً على جنب السفينة . تهيأوا لطيّ الاشرعة يا أحباء . الريح قد استلت سيوفها وشهرتها وعما قليل ستقوم المبارزة حالاً .

البحار الدنمركي :

قعقعي قعقعي ايتها السفينة القديمة فانت متماسكة الجوانب ما دمت تقعقعين . أحسنت ! الضابط هناك يمسك بـك بثبات . لم يعد يخاف كأنه قلعة في جزيرة كايتجوت شيدت هناك لتقاتل بحر البلطيق بمدافع تجلدها العواصف ، وينعقد عليها ملح البحر .

البحار الرابع من نانتوكت :

تذكر ان لديه أوامر . سمعت آخاب الشيخ يقول له انه يجب ان يقتل العاصفة مثلما يفجرون أنبوب الماء بمسدس – سمعته يقول : أطلق سفينتك رأساً في قلب العاصفة .

البحار الانجليزي :

دم ! هـــذا الشيخ كاجار[1] عجوز . نحن الفتيان الذين سنصيد له الحوت !

الجميع : نعم . نعم .

البحار الشيخ ابن جزيرة مان :

كيف تهتز هذه الصنوبرات الثلاث . الصنوبر اصلب نوع من الشجر وأقدره على الحياة حين ينقل من تربة الى تربـــة ولكن اي تراب في السفينة سوى التراب الملعون الذي صنع منه الملاحون . ثباتِ يا قيّم الدفة ، ثباتِ . هذا نوع من الجو تخور فيه القلوب الجريئة على الـــبر وتتصدع الهياكل المنبسطة في البحر. على قبطاننا علامة الميلاد . انظروا هناك يا أولاد تروا علامة أخرى في السماء ، تتوهج لامعة – وكل ما عداها اسود كالقار .

دغة :

ومـاذا في هذا ؟ من كان يخاف السواد فـانه يخافني . انا قطعة منتزعة منه .

البحار الاسباني (على حدة) :

يريد ان « يتقبضن » آه ! الحقد القديم يجعلني حساساً سريع الانفعال ، (يتقدم) نعم ايها الزرّاق لا نكران في ان بني قومك هم الجانب المظلم من بني الانسان – سواد كسواد الشياطين ؛ هل زعلت ؟

---

١ كاجار : Cajar شحاذ مكدّ، وقد استعملها الجاحظ في البخلاء .

دغة (في تجهم) :

ابداً .

بحار من سنتياغو :

هذا الاسباني اما ان يكون مجنوناً او سكران . والاول أقرب الا ان تكون المياه النارية التي سقاه اياها ريّسنا طويلة الاثر في كيانه .

البحار الخامس من نانتوكت :

ما هذا الذي رأيته — برق ؟ نعم .

البحار الاسباني :

لا . هذا دغة كشر عن أنيابه .

دغة (واثباً) :

سكـّر بوزك ، يا قزم . بشرة بيضاء وقلب منخوب .

البحار الاسباني (يلاقيه) :

بمديتي أشق صدرك في سرور . جرم كبير وروح صغيرة !

الجميع :

خناقة ! عركة ! خناقة !

طاشطيقو (وهو ينفث نفساً) :

خناقة في الاسافل وخناقة في الاعالي – الآلهة والرجال – كلاهما متترع متسرع للقتال – أفٍ !

بحار بلفاست :

عركة ! ها خناقة ! بركاتك يا عذراء ، خناقة ! مـا عاش من تخلّف !

البحار الانجليزي :

المهم التكافؤ ! اخطفوا المدية من الاسباني ! تحلقوا ! تحلقوا !

البحار الشيخ ابن جزيرة مان :

ما أسرع ما تحلقوا . هناك ! الافق المتحلق الدائري . في تلك الحلقة قتل قابيل هابيل . أهذا شيء حلو ! أهذا عمل صحيح ! كلا . لمَ يا رب خلقت هذه الحلقة الدائرية ؟

صوت ضابط يتأدى من الربعة خلف الدقل الاعظم :

تكاتفوا عند جوانب الاشرعة . اقتربوا كي تطووا الاشرعة العليا !

الجميع :

العاصفة ! العاصفة ! اقفزوا ايها الاعزاء ! (يتفرقون) .

بيب (انكمش ودخل تحت الرافعة) :

اعزاء ؛ يا رب عونك لهؤلاء الاعزاء . دعامة الشراع تئن ! تحشرج ! واخ – واغ ! رباه . تطامن متحاشياً لائذاً يا بيب . كأنك في الغابة الملكية ذات الصيد الوفير . بل هذا اسوأ من المكث في الغابات التي تجتاحها الريح في آخر يوم من ايام السنة . من ذا الذي يتسلق اشجار الكستناء بعد ان رحلت ؟ دأبهم لا ينفكون عنه ، يلعنون ويشتمون اما انا فلا . مستقبلهم مزهر .طريقهم تؤدي الى السماء . احكم قبضتك ! اية عاصفة هي هـــذه يا جميني ! ولكن اولئك الشبان هنالك اسوأ ايضاً . انهم عواصف بيضاء . بيضاء ؟ حوت ابيض . اش . اش . تسمعت لما قالوه قبل قليل ، والحوت الابيض . اش . اش . تحدثوا عنه مرة . وفي هذا المساء نفسه سمعت ذلك الافعى العجوز ، وما سمعته يجلجل جسمي ويهزه كالطنبور ، سمعته يقسم انه لا بد من ان يصيده ! آه ايها الاله الابيض الكبير ، حيثما كنت في سماواتك محتجباً في الظلام ارحم هذا الغلام الاسود الصغير في أرضه . احفظه من كل الرجال الذين ليس لهم احشاء تعرف الخوف .

٤١ موبي ديك[١]

كنت انا، اسماعيل، احد أولئك الملاحين : صرخاتي صعدت متحدة مع صرخاتهم ، ويميني انعقد مع أيمانهم . وجأرت بقوة ورسخت يميني واغلظته للخوف القابع في نفسي . ملأني شعور فائر غامض حنون حتى كأن نقمة آخاب الطامئة كانت نقمتي . بآذان منهومة أنصتُّ الى تاريخ ذلك الوحش القتال الذي اقسمت انا والآخرون أيمان الانتقام والثأر منه .

منذ عهد مضى كان الحوت الابيض المنفرد المنعزل في فترات متقطعة يلمّ بالبحار المتأبدة التي يرتادها صيادو حوت العنبر لكن لم يكونوا كلهم يعرفون عن وجوده ، ولم يره منهم رؤيةَ معرفة إلا عدد قليل نسبياً منهم ؛ اما الذين نازلوه عن معرفة منازلة واقعية فكانوا اقل عدداً . وهناك اسباب كثيرة بعضها مباشر وبعضها غير مباشر حالت طويلاً دون انتشار الاخبار الفذة المتميزة في عالم التحويت الواسع المترامي الاطراف عن موبي ديك . فالحواتات كثيرة العدد منتشرة على غير نظام في مدى المحيط المائي، وبعضها تغامر مندفعة في بحثها على عروض منعزلة ، فتمتد غيبتها اثني عشر شهراً كاملة دون ان تلقى في طريقها شراعاً واحداً يحمل اليها نبأ اي نبأ، وكل رحلة على حدة تطول او تقصر حسب

---

١ لا ريب في ان ملفل عرف اساطير كثيرة عن التحويت والحيتان واستعار من بعضها اسماً لهذا الحوت الخيالي، غير ان شخصاً اسمه رينولدز نشر عام ١٨٣٩ مقالات في مجلة Knicker-bocker عن حوت ابيض اسمه موكا ديك فيه خصائص كثيرة مما ذكره ملفل متصلاً بموبي ديك.

ظروفها ، وليس لابحـــار السفن وقت محدد تنطلق فيه معاً، الى غير ذلك من اسباب . ولا يكاد احد يشك في ان بواخر عديدة ذكرت انها التقت، في هذا الوقت او ذاك او على هذا الخط الزوالي او ذاك، حوت عنبر ذا ضخامة وشراسة غير عاديتين، وان ذلك الحوت بعد ان ألحق الاذى بمهاجميه نجا منهم ولم يصب ؛ ولعلّ بعض الناس كانوا يفترضون — ولهم وجـــه من الحق — ان هذا الحوت المذكور لا بد ان يكون موبي ديك، ولا شيء سواه . غير ان سماكة حوت العنبر قد عرفت فيها امثلة متعددة متكررة عن وحشية الوحش المطارد وخبثه وحقده لذلك فان أولئك الذين دفعتهمْ المصادفة جاهلين لخوض معركة ضد موبي ديك — اقول لعلّ أولئك الصيادين في اكثر الاحوال قنعوا ان يسندوا الرعب الذي ولده فيهم الى اخطار سماكة الحيتان عامة ولم يقصروه على حوت واحد . وعلى هذا النحو في اغلب الظن نظر الناس الى ذلك اللقاء الكارث بين آخاب والحوت حتى عهدئذٍ .

وأما الذين سمعوا من قبل عن الحوت وألقته المصادفة في طريقهم وتسنى لهم ان يروه فكل واحد منهم في مبادي الامور هاجمه وحاول صيده في جسارة ومن دون خشية، كما يهاجم كل حوت آخر من فصيلته . ولكن مع الزمن كثرت الكوارث الناجمة عن تلك الهجمات ولم تكن قاصرة على رضّ الارساغ والاعقاب وكسر اعضاء وبتر اخرى، بل كانت كوارث مميتة لا يرجى معها شيء . وهذه الاخفاقات المتكررة والنوازل كلها احتشدت ونسب مـــا فيها من الرعب والافزاع الى موبي ديك، واصبحت مبعث فرق يهز فرائص كثير من الصيادين الباسلين الذين بلغتهم في آخر الامر قصة موبي ديك .

والشائعات الغريبة من كل نوع لا تعجز عن المبالغة واضافة شحنة من الرعب الى التاريخ الصحيح لتلك اللقاءات المميتة ؛ ذلك ان الشائعات المختلقة لا تنمو فحسب نمواً طبيعياً من الاحداث المرعبة المدهشة — مثلما ان الشجرة التي

اصابتها الصاعقة تلد من حولها نبات «الفطر» – وانما تكثر الشائعات الغريبة في الحياة البحرية اكثر مما تكثر في البرّ، وتنمو حيثما وجدت نواة من حقيقـــة صالحة لان تتشبث بها وتلتف من حولها . ومثلما ان البحر يفوق اليابسة في هذا الامر فان سماكة الحيتان تفوق كل نوع آخر من حياة البحر في غرابة الشائعات التي تدور احياناً حولها وفي مبلغ الخوف الذي تثيره . ذلك لان الحواتين — اذا اعتبرتهم فئة واحدة – ليسوا بارئين من ذلك الجهل والاطمئنان الى الخرافة، وهما من خصائص البحارين ، بل انهم من دون البحارين جميعاً معرضون بحكم مهنتهم الى الاقتراب من كل ما يثير الدهشة والخوف في عرض البحر . انهم لا يقفون امام اعاجيبه الكبرى وجهاً لوجه ولكنهم يصارعون اشداق الرعب بأيديهم . وحين يسافر المرء وحده في تلك المياه النائية ويقطع مبحراً الف ميل ويمر بألف شاطىء فانه لا يقف على ديّار ولا نافخ نار ولا يجد شيئاً يرحب بمقدمه تحت تلك الشمس ؛ وفي مثل هذه المواقع طولاً وعرضاً تهيمن على الحوات الذي يسمى وراء حرفته مؤثرات تجعل مخيلته حبلى بأجنّةٍ عديدة .

لا عجب اذن ان كبر حجم الشائعات عن الحوت الابيض وتضخم بمحض انتقالها على مدى المسافات المائية الشاسعة، حتى انطوت في النهاية على كل نوع من انواع التلميحات السقيمة وعلى إلماعاتِ خداجٍ عن قوى غيبية ناطت بموبي ديك في النهاية اهوالاً جديدة لم يستمدها الخيال من عالم المنظورات . ونشر هذا الحوت — في احوال كثيرة — رعباً في النفوس حتى لقلّما وجد بحار من أولئك الذين لم يعرفوا موبي ديك الا عن طريق تلك الشائعات يرضى ان يواجه اخطار فكه مختاراً .

وكانت هناك مؤثرات اخرى اقوى وأشد حيوية تفعل فعلها في النفوس . حتى في عصرنا الحاضر لم تنطمس من اذهان الحواتين جملةً المنزلةُ الاصيلة لحوت العنبر من حيث هو يتميز تميزاً مخيفاً عن كل انواع الحيتان ؛ وبينهم اليوم من

يؤهلهم ذكاؤهم وشجاعتهم لمنازلة حوت جرينلاند او الحوت الاثين الا انهم قد يحجمون عن خوض معركة مع حوت العنبر، إما لقلة التجربة او لضعف في الكفاية او للتهيب . وعلى اي حال فثمة عــــدد وفير من الحواتين وبخاصة بين حواتي الامم الذين لا يبحرون تحت ظل العلـَم الامريكي لم يواجهوا حوت العنبر مواجهــــة الخصم العدو، وانما كل معرفتهم الوحيدة عن اللوياثان قاصرة على الوحش المغمور الذي كان الصيادون يطاردونه قديماً في البحار الشمالية . وهؤلاء الرجال يصغون وهم جالسون في عنابر السفن برهبة وبرغبة، كرغبة الاطفال في الحكايا عنـــد الموقد ، الى القصص الغريبة الفريدة عن التحويت في البحار الجنوبية . ولا يدرك الهول الجبار الذي يتمتع به حوت العنبر العظيم ادراكاً شعورياً مثل أولئك الذين يذهبون فوق مقدمات السفن التي تصدمه مواجهة .

وكأنما حقيقة قوته التي أيدها الاختبار قـــد ألقت ظلالها امامها في الايام الاسطورية السابقة فنجد اثنين من المؤرخين الطبيعيين المطلعين هما أولاسن وبوفلسن يقولان ان حوت العنبر ليس فحسب مصدر فزع وحيرة لكل مخلوق آخر من مخلوقات البحر ، وانما هو ايضاً بالغ الشراسة والوحشية حتى ليظلّ ظمآن ابداً الى الدم الانساني . ولم تكن هذه الانطباعات او ما يكاد يشبهها قد طمست على مرّ الزمن حتى عهد كوفييه ذلك لان البارون نفسه يؤكد في تاريخه الطبيعي ان كل الاسماك (والقرش من بينها) حين ترى حوت العنبر : « تصاب بأقوى انواع الرعب » و « انها من شدة افراطها في السرعة وهي ناجية تندفع نحو الصخور بعنف يؤدي بها الى موت وحيّ » . ومهما تصحح التجارب العامة في السماكة من هذه المعتقدات يظل الايمان بها لدى الحواتين في بعض التقلبات التي تنال مهنتهم حياً في أذهانهم ، ويظل لتلك المعتقدات وجهها المرعب المروع بل لعلها تحتفظ بما قاله بوفلسن عن الظمأ الى الدم الانساني .

واذ سيطرت على الصيادين رهبـــة من موبي ديك ولدتها الشائعات والنذر

ذهب غير قليل منهم يتذكرون فيما يتصل بذلك الحوت حواتة الايام القديمة للحصول على حوت العنبر حين كان من الصعب في الغالب ان يغرى حواتو الحوت الاثين المدربون المتمرسون بأن يمخروا بين اخطار تلك الحرب الجديدة الجريئة ، فقد كان هؤلاء الناس يردون قائلين : قد تكون مطاردة الحيتان الاخرى ذات جدوى . أما مطاردة شبح اسمه حوت العنبر وتسديد الحراب نحوه فأمرٌ ليس منوطاً بالانسان الذي لا عاصم له من الفناء . فمن حاول مثل ذلك فقد عرض نفسه حتماً ليذهب أشلاء ممزقة في ذمة الابدية . وفي هذا الموضوع وثائق هامة يمكن الرجوع اليها .

مع ذلك كله كان بعض الصيادين على استعداد رغم هـــذه الامور جميعاً ليطاردوا موبي ديك ، واتفق لعدد اكبر من الصيادين ان سمعوا عنه أموراً غامضة عن بعـــد دون احاطة بتفصيلات اية نازلة من النوازل التي أحدثها ، ودون اية متعلقات خرافية ؛ وهؤلاء ايضاً كانوا على حظ من الصلابة والعناد يتيح لهم الثبات في المعركة ان حان حينها . ومن الالماعات الغريبة التي أشرت اليها الماعة اقترنت اخيراً بالحوت الابيض في الاذهان ذات النزعة الخرافية وهي ذلك التصوّر الواهم الذي مثّل للناس ان موبي ديك من « أهل الخطوة » . اي انه موجود في كل مكان وقد رآه من أبصروه في أمكنة مختلفة في وقت واحد .

ومهما يكن حظ تلك الاذهان من سذاجة التصديق فان هذا التصور كان قائماً على ظل خفيف من الاحتمال الاسطوري . وبيان ذلك ان أسرار التيارات البحرية لا تزال مغلقة لم يفكّ طلاسمها البحث العلميّ الحصيف ؛ فاذا بقي حوت العنبر تحت السطح لم يستطع مطاردوه ان يجدوا تفسيراً وتعليلاً للطرق الخفية التي يسلكها ؛ ومن حين الى حـــين تولدت حول مسالكه أغرب التصوّرات وأشدها تناقضاً وبخاصة حول الاساليب الغامضة التي ينتقل بها ، بعد ان يقمس الى أغوار بعيدة ، في سرعة فائقة بين أشد المراحل تباعداً .

ومن المتعارف المشهور لدى حواتات الامريكيين والانجليز ، وهو شيء قد دوّنه اسكورسبي منذ سنوات تدويناً موثوقاً ، ان بعض الحيتان اصطيدت في أقصى الشمال من المحيط الهادي ووجدت في أجسامها أسنة رماح قذفت بها في بحار جرينلاند. وليس هناك ما ينقض القول بأن الفترة التي انقضت بين الهجومين في حال بعض الحيتان لا يمكن ان تتجاوز اياماً معدودات . لهذا اعتقد بعض الحواتين استنتاجاً ان الممر الشمالي الغربي ، وهو عقبة أمام الانسان ، لم يكن يمثـــل مشكلة لدى الحوت . وهكذا تثبت التجربة الحية الواقعية التي قام بها الاحياء ان الوقائع المروية عن الحوت تكاد توازي تلك الاقاصيص الخرافية امثال الاعجوبة التي رويت في سالف الايام عن جبل استرلو الداخلي في البرتغال وعن قصة أعجب ايضاً تروى عن نبعة أرثوسة قرب سرقوسة بصقلية . امـــا استرلو فقد قيل ان بحيرة كانت عند قمته وجـد فيها حطام سفن عامت على سطحها . وأما ارثوسة فقد زعموا ان مياهها كانت تأتيها من البلاد المقدسة [1] في مجرى خفيّ تحت الارض .

وما دام الحواتون قد اضطروا الى ألفة هذا اللون من الاعاجيب وعرفوا ان الحوت الابيض نجا حياً بعد هجمات متكررة بطـّاشة فليس من المستغرب ان يمعن بعض أولئك الحواتين في ايمانهم بالخرافات فيعلنوا ان موبي ديك ليس من « اهل الخطوة » فحسب وانما هو خالد ايضاً (لان الخلود هو ان يصبح المرء من أهل الخطوة زمنياً ايضاً) وان جوانحه قد تغرز فيها غابات من الأسنة ومع ذلك يمضي سابحاً لم يمسسه أذى بل انه اذا طعن وأخذ ينفث دماً عاقداً فما هذا المنظر فيه الا تهاويل خداعة مبعثها الرعب ، ذلك انك ترى نفاثته النقيـــة الناصعة بعد مئات من الفراسخ بين امواج لا أثر فيها للدماء .

---

[1] الصواب : من بلاد اليونان ، حسبما ذكرت الاسطورة .

ولو ان هذا الوحش جرّد من جميع هذه الاوهام الخارقة الغيبية لظل في بنيته الحقيقية وشخصيته الفذة ما يؤثر في الخيال بقوة غير مألوفة . ذلك ان حجمه المستفيض لم يكن هو الذي يميزه كثيراً عن سائر حيتان العنبر وانما ما ألمعنا اليه في موضع آخر من جبهة مجعدة فذة بيضاء كالثلج وحردبة عالية هرمية بيضاء . تلــــك هي الملامح البارزة فيه ، تلك هي العلامات التي كان يعلن بها للذين يعرفونه عن هويته على مسافة طويلة حتى في البحار المترامية التي لم ترسم لها خرائط .

اما سائر جسمه فكان معلماً أبقع مشمولاً بلون الرخام ـ صفة غدت في النهاية علماً عليه حين دعي الحوت الابيض ، وكان يسوغ هذه التسمية حقاً بما فيها من دلالة حرفية منظره الناضر حين ينساب وقت الظهيرة في بحر ازرق معتم الزرقة مخلفاً وراءه خيطاً من الزبد الابيض ملمعاً كله بومضات ذهبية .

وقد يكون حجمه الهائل ولونه المعلم وفكه السفلي المشوه ، عوامل أحاطته بذلك الرعب الطبيعي الا انها لا تبلغ في ذلك مبلغ ضغنه الذكي الذي ليس له نظير ، فقد روت الاخبار كيف انه أبدى مثل هذا الضغن في هجماته مرة اثر مرة . ثم ان ضغنه لا يبلغ في اثارة الرعب مبلغ تقهقره الخداع الذي كان يبعث الهول اكثر من اي شيء آخر . فلقد كان يسبح امام مطارديه الزاهين المتهللين وهو يبدي لهم كل اعراض الذعر وشواهده ولكن كم من مرة استدار فجأة وحمل عليهم حملة منكرة فاما جعل من قواربهم شظايا متناثرة واما ردّهم مدهوشين مأخوذين الى سفنهم .

ولقد شهدت محاولات اقتناصه مصاير عدد من الهلكى ، ولم تكن مثـل تلك الكوارث شيئاً شاذاً في السماكة وان لم تلفظ بها الالسنة كثيراً على البر ، الا ان الوحشية الجهنمية التي تتمثل في الحوت الابيض كانت تخيّل لخصومه انها

وليدة تدبير سابق فكلما أطاح بعضو او سبّب موتاً قالوا ان مثل هذه الامور لا ينزلها بخصومه خصمٌ غير ذكي .

قدّر لنفسك إذن كيف تبلغ أذهان صياديه المستيئسين الى ذروة السخط اللاهب الحائر حين كانوا يسبحون عائدين وسط شظايا من القوارب كأنها العصف المأكول وأشلاء غارقة من رفاق مزقوا ارباً ارباً ، ليخرجوا من تلك الخثارة البيضاء التي عقدها حولهم غضب الحوت المريع الى ضوء الشمس الهادىء المحنق بهدوئه وابتسامته كأنما يزف بشرى مولد او عرس .

غير أن قبطاناً رأى قواربه الثلاثة محطمـــة من حوله ورأى المجاذيف والرجال ينسابون في احشاء الدوامات فانتزع مديته من مقدم سفينته المنحطم وانقض على الحوت كما ينقض المبارز الاركنساسي على خصمه ، وسعى في حنق عشوائي بشفرة تبلغ ست بوصات الى ان يستل حياة الحوت من أعماق أعماقه السحيقة . ذلك هو آخاب القبطان . ثم كان ما حدث ان طوّح موبي ديك فكـّه السفليّ الذي يشبه المنجل ، من تحته فجأة ، وحصد به رجل آخاب ، كما يحش ّ الحصّاد سنبلة في الحقل . وما كان لأحد سواه ان يسدد ضربة مثلها ناضحة بالضغينة الحاقدة ، لا استثني من ذلك تركيا معمماً او احد ابناء البندقية او الملايو الذين يستأجرون للقتل . اذن فليس ثمة من ريب في ان آخاب بعـد ذلك اللقاء الذي كاد يودي به هالكاً احتقب في صدره نحو الحوت حقــد الموتور ، وزاد حقده ضراماً انه أخذ في علته الحانقة يرى الحوت مسئولاً عن مصابه الجسماني كله وعن مرارة الحزن والضغينة التي استولت على عقله وروحه . وحين مضى الحوت الابيض أمامه سابحاً تمثله صورة المس ّ التي تجسدت فيها كل العوامل الحاقدة التي يحس بها بعض الخبثاء الماكرين تتأكل في دخائل نفوسهم حتى لتترك أحدهم يحيا بنصف قلب وبعض رئة . ذلك الحقد المجرّد الذي كان منذ بدء الخليقة ، ذلك الحقد الذي يؤمن بعض المسيحيين المحدثين ان نصف

العالم ينتمي الى سلطانه ، ذلك الحقد الذي اتخـــذ له الاوفيتيون[١] القدامى في المشرق تمثال شيطان وعبدوه ، لم يسجد آخاب أمامه خاشعاً عابداً مثلهم وانما نقل صورته وهو في شبه بحران الى الحوت الابيض البغيض وضرّم في نفسه الثورة الناقمة عليه وهو يتلمّس مدى التشويه في جسمه وروحه . ورأى آخاب الذي أصابه المسّ كل ما يثير الجنون ويستفز العذاب وكل ما يستثير رواسب الاشياء ، وكل حقيقة يستكن فيها الحقد وكل ما يفتت القوى العضلية ويشوي الأدمغة ، وكل ضروب الشيطنة الماكرة التي تعشش في الحياة والفكر ، رأى كل ذلك اي كل الشرّ مجتمعاً قد تمثل كائناً مرئياً يمكن له ان ينقض هاجماً عليه في صورة موبي ديك . وفوق حردبة الحوت البيضاء كدّس جميع الغضب والكره اللذين جريا في نفوس بني جنسه منذ عهد آدم ثم فجّر قنبلة قلبه الملتهبة على تلك الحردبة كأنما اتخذ من صدره مدفعاً .

ولعلّ هذا المسّ فيه لم ينشأ دفعة، وقت ان فقد رجله، ذلك انه حين انقض على الوحش ومديته في يده اطلق العنان لعداوة مفاجئة متضرمة جسدية فلما تلقى الضربة التي بترت منه شلواً حينئذٍ لعله لم يحسّ إلا بالتمزق الجسدي المؤلم ولا شيء سواه . غير ان آخاب حين اضطرته الصدمة الصادمة للعودة نحو الوطن واستلقى اشهراً مسهدة طويلة الايام والاسابيع، ممدداً هو والعذاب في ارجوحة واحدة يدور في صبارة قرّ الشتاء حول رأس باتاغونيا الموحش العاوي، حينئذٍ تسرب النزيف من جسمه الممزق الى روحه الجريحة وبالعكس وتمازج النزيفان معاً فجعله اختلاطهما مختلطاً مجنوناً . ومما يؤكد ان هذا المسّ النهائي لم يصبه إلا وهو عائد بعد ذلك اللقاء، انه كان في بعض الفترات اثناء الرحلة يهـــذي كالمقمور المخبول ؛ وان قوته الحيوية، وان فقد رجله، كانت ما تزال تكمن في

---

[١] فرقة غنوصية بدائية يقدرون قوى الشر ويشبهون في هذا فرقة اليزيدية .

صدره الاسود وقد زادتها غيبوبته حدة حتى اضطر ضباطه ان يوثقوه بالاغلال وهو مبحر يهذي في أرجوحته . وأخذ وهو في معطف المجانين الضيق المشدود يتقلب وفق تناوح الرياح المجنونة؛ وعنـــدما وقعت السفينة في عروض مقبولة عامت وقد نشرت أشرعتها الخفيفة في ريح رخاء عبر المياه الاستوائية الساجية. وحينئذٍ دلت الظواهر جميعاً على ان الرجل العجوز خلّف بحرانه الهاذي وراءه بين أثباج رأس هورن وخرج من كهفه المظلم الى نعيم النور والهواء . وحين بدت طلعته حازمة واثقة على شحوبها ، وأخذ يصدر اوامره الهادئة الرزينة مرة اخرى ، وتوجه ضباطه الى الله يشكرونه على ان جنون قبطانهم قد بارحه ، اقول حتى حينئذٍ كان آخاب ما يزال يهذي في دخيلة نفسه . ذلك ان الجنون الانساني كثيراً ما يكون ماكراً خبيثاً ، يتحول ، وقد ظننته تولّى ، في صورة اشد قدرة على التسلل لواذاً . وكذلك كان جنون آخاب المطبق ، فانه لم يهدأ وانما انكمش وغار في اعماق سحيقة كنهر الهدسن حين يضيق به المجرى وماؤه على حاله من الغزارة وينفذ من ممرّ التلال فوق عمق لا يسبر له غور، وفي المجرى الضيق الذي انساب فيه جنون آخاب الغزير المستعرض لم تتخلف نقطة واحدة كذلك لم تغرق في ذلك الجنون الغزير المستعرض نقطة واحـــدة من عقله الطبيعي الكبير . فذلك العامل الحيويّ الذي كان، اصبح اداة حيوية، واذا صحّ لهذه الاستعارة العنيفة ان تصدق قلت ان جنونه الخاص غزا تعقله العام وأخذه اسيراً وحوّل مدفعه المصوب نحو هدفه المجنون حتى ان آخاب لم يفقد شيئاً من قوته الموجهة نحو غايته الوحيدة بل أصبح يمتلك ألف ضعف من الطاقة التي كان يوجهها ابداً في عهد التعقل نحو اي هدف واحد معقول .

وفي هذا القدر كفاية . غير ان الجزء الاكبر الاعمق الاعتم من آخاب لم ينل منّا تلميحاً كاشفاً . لا طائل في نبش الاعماق ليعرفها الناس وكل حقيقة فانما تكمن في الاعماق . نحن الآن نقف على قمة فندق كلوني المروّس [1] فلنغادره

[1] متحف بباريس حاول ملفل ان يزوره في اول كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٩ فوجده مغلقاً.

مهما يكن فخماً عجيباً ذاهبين في طرق متعرجة من خلال قلبه . شقي طريقك ايتها الارواح ذات المنزع الشريف الاسيان الى أبهاء ثرمس الواسعة الرومانية في طرازها حيث اصول جلال الانسان اي جوهره المهيب يجلس في وقار الملتحين بعيداً بعيداً تحت الابراج الوهمية القائمة في هذه الارض العليا ، جوهر عاديّ قديم مدفون تحت العاديّات ، جـــالس على عرش من اجساد انسانية مبتورة الاطراف . وتسخر الآلهة العظيمة من ذلك الملك المأسور جالساً فوق عرش محطم مشوه . ويجلس هو كأنه تمثال امرأة اتخذ سارية في رواق ، صابراً ساكناً يسند فوق جبهته الباردة اروقة العصور . تعطفي متعرجة في طريقك ايتها الارواح الذاهبة في استكبارها واساها . سلي ذلك الملك المستكبر الاسيان . صفاتك من صفاته ومن أشبه اباه فما ظلم ! فأنت من نسله ايتها الارواح الغضة المنفية ، ربيبة ملك . سليه فـــلا يعرف سرّ الدولة العريق الا من هذا الوالد الجاهم .

كانت تلتمع في قلب آخاب ومضة فحواها : كل وسائلي سليمة عاقلة غير ان دوافعي وغاياتي مجنونة . الا انه كان يعرف ايضاً دون ان تكون لديه قوة ليقتل الحقيقة او ليغيرها او ليتحاشاها بأنه كان يواري حقيقته ويكتمها عن الناس منذ عهد بعيد وما يزال يواريها على نحو ما . الا ان أمر ذلك الكتمان كان يقع تحت ادراكه الحسّي فحسب ولم يكن خاضعاً لحزمه الارادي . ومع ذلك فقد وفق في التورية والتنكر حتى انه حين كان يخطو على البر برجل عاجية لم يتصوره اي نانتوكتي الا انه حزين حزناً طبيعياً ، بلغ منه مبلغاً ، بسبب ذلك العارض الفظيع الذي أصابه .

وقد نسب الناس الخبر عن البحران الذي أصابه في البحر الى سبب مماثل ايضاً ؛ وكذلك فعلوا ايضاً في شأن ذلك التقلب المزاجي الذي أصبح يخيم دائماً على جبهته من بعد حتى اليوم الذي أبحرت الباقوطة فيه في هذه الرحلة . ولعل

أهل تلك الجزيرة الذكية الماهرين في التقدير والحساب كانوا أبعد من ان يسيئوا الظن بكفايته للخروج في سفرة تحويت اخرى بسبب من تلك الاعراض الكابية فوق جبينه فجنحوا الى ان يُسرّوا التوهم بأن هذه الاسباب نفسها جعلته صالحاً متأهباً للقيام بمطاردة مليــئة بالغضب والوحشية كالمطاردة الدامية في صيد الحيتان . واذا وجد رجل يعضه الحَرَضُ الدخيل ويحرق الغضب ظاهره، وقد داءت نفسه بفكرة لا يرجى شفاؤها ذات مخالب محددة ضارية لا تنكل فمثل هذا الرجل قد يكون «عينه فرارُه» — هو هو الذي يصلح ان يقذف رمحه ويرفع حربته ضد أشد الوحوش هولاً وافزاعاً . واذا تعرّض الظن بأنه عاجز جسدياً ، فانه قد يكون أبعد الناس كفاية في ان يحفز اتباعه ويذمرهم ويستثير نخوتهم عند الهجوم . ومهما يكن من أمر هذا التقدير ، وهو يقيني ، فان آخاب الذي جعل سرّ غضبه المتضرم — وهو سرٌّ مجنون — حبيسَ نفسه وأقفل عليه وضبب بمزلاج، قد عمد الى السفر في هذه الرحلة ولديه غاية — وحيدة — لا ثاني لها ، استغرقت وكده كله ، وتلك هي صيد الحوت الابيض . ولو ان بعض معارفه القدامى على البر خطر لهم شيء مما كان يعتلج في نفسه لانقضت عليه ارواحهم المأخوذة المعتدلة وانتزعت السفينة من مثل ذلك الرجل الشيطاني ! كانوا يسعون الى رحلات دارّة بالربح ليقبضوا بالغلة الحاصلة دولارات خارجة من دار الضرب ، اما هو فكان مطويّ النفس على انتقام خارق وقح لا ينادى وليده .

ها هنا اذن شيخ أشيب الرأس كافر النفس يطارد باللعنات حوت أيوب حول العالم على رأس بحارة جلهم من أفناء الخلعاء المارقين والاراذل المنبوذين وآكلي لحوم الآدميين . ومما زاد معنوياتهم ضعفاً قلة غناء الفضيلة او الاستقامة المخذولة التي لا تجد لها نصيراً لدى استاربك ، والخفة وقلة المبالاة والاستهتار — تلك الخلال التي يعتصم بها اسطب ، والتوسط الغالب في الكفاية عند فلاسك . مثل هؤلاء البحارة ، يسوسهم مثل هؤلاء الضباط، كأنما انتقاهم وحشدهم قدر

جهنمي ليعينوه على ثأره المجنون . كيف اتفق لهم ان استجابوا عن بكرة أبيهم لغضب الشيخ – بأي سحر شرير حاز ارواحهم حتى انتحلوا الكراهية التي لديه فأصبحت هي كراهيتهم ، وأصبح الحوت الابيض عدوهم اللدود مثلما هو عدوه – كيف تمّ كل ذلك، كيف كان الحوت الابيض في نظرهم او كيف كان يبدو لفهمهم الخفي اللاواعي على نحو مبهم يقيني في صورة الشيطان الكبير الذي ينساب في بحار الحياة – هـل من تفسير لكل ذلك ؟ هذا يتطلب عمقاً أبعد غوراً مما يستطيعه اسماعيل . فينا جميعاً حفـّار دخيل لا يكفّ عن العمل في منجمه ولكن أنى لنا ان ندري الى اين يتجه النفق الذي يحفره من الاستماع الى صوت فأسه المكتوم المتنقل ابداً ؟ من ذا الذي لا يحس بجذبة ذراع لا يستطيع مقاومتها ؟ اي زورق « اسكف » بين اربعة وسبعين مربوطة بحبل يقف ثابتاً لا يهتز ؟ اما انا فاني أسلمت نفسي طائعاً لرحمة الزمان والمكان . وبينا انا في أشد اندفاع لمواجهة الحوت لا أرى شيئاً في ذلك الوحش سوى دائرة السوء المميت.

٤٢ بياض الحوت

ماذا كان يعني الحوت الابيض لدى آخاب، ذلك ما ألمعت اليه ؛ اما ماذا كان يعني لديّ -- في بعض الاحايين -- فذلك شيء لم اتحدث عنه حتى الآن .

هناك خاطرة اخرى او قل رعب غامض لا يوصف فيما يتصل بموبي ديك، عدا تلك الاعتبارات الواضحة التي لم تستطع الا ان توقظ بعض الفزع والتوجس في روح الانسان . غير ان تلك الخاطرة كانت تهيمن في حدتها هيمنة تامة على سائر المخاوف . الا انها غريبة غامضة ، قريبة يعجز التعبير عنها ، حتى لأكاد أيأس من وضعها في صورة مفهومة . تلك هي بياض الحوت فقد كان بياضه يفزعني اكثر من كل شيء آخر . ولكن كيف أرجو ان اعبّر عن نفسي في هذا الامر ؟ على انه لا بد لي من التعبير عن نفسي ولو على نحو غائم عارض والا كانت كل هذه الفصول خواء .

كثير من الاشياء الطبيعية يزيد البياض في جمالها ويرهف منه كأنما يسكب عليها فضيلة من ذاته، مثلما هي الحال في الرخام والسفرجل الياباني واللآلىء . وقد رأت كثيرٌ من الشعوب -- حتى الهمجية منها -- في هذا اللون تفوقاً ملكياً، حتى ان قدامى ملوك بيجو العظماء وضعوا لقب « سيد الفيلة البيض » على سائر المتعلقات الملكية الفخيمة، وأبرز ملوك سيام المحدثين صورة الفيـــل

الابيض على العلَم الملكي[1] . وحمل علَم هانوفر صورة وحيدة هي صورة جواد فاره ناصع البياض. اما الامبراطورية النمساوية القيصرية التي ورثت روما السيدة المتبسطة فقد اتخذت اللون الابيض رمزاً امبراطورياً . وبسبب البياض كذلك نسب التفوق الى الجنس الانساني فمنح الانسان الابيض سيادة مثالية فوق كل الشعوب الملونة . ثم كان البياض الى ذلك كله دلالة على السرور، فكان الرومان يرون الحجر الابيض علامة على اليوم البهيج . وفي كثير من الشعائر والرموز جعل هذا اللون رمزاً لاشياء حساسة شريفة مثل طهر العروس وسمت الشيخوخة . وبين الحمر في أمريكا يعد تقديم النطاق من الخرز الابيض أعمق مظاهر التشريف والتبجيل . ويمثل البياض في كثير من الاجواء عظمة العدالة في فروة القاضي ، ويضفي شأناً على سلطان الملوك والملكات الذين يمتطون الجياد الكريمة الناصعة . وقد جعل البياض في غيبيات الاديان الكبرى رمزاً للطهارة المقدسة والسلطان؛ فيرى المجوس ان الشعلة البيضاء المنشعبة أقدس شيء على المذبح؛ وتقول الاساطير اليونانية ان زفس العظيم تجسد ذات مرة في صورة ثور ناصع البياض . وكان الايروقيون ذوو المحتد الكريم يضحون في منتصف الشتاء كلباً أبيض مقدساً ويتخذون ذلك اليوم أقدس أعيادهم ، ويعتقدون ان ذلك الحيوان الطاهر المخلص أنقى رسول يذهب الى « الروح العظمى » حاملاً له تقريراً سنوياً عن اخلاصهم ووفائهم . ومن اللفظة اللاتينية التي تعني أبيض alb استمد الاساقفة المسيحيون اسم واحد من اقدس الثياب التي يلبسونها وهو « الألب » او الرداء المزنّر الذي يلبسونه تحت الكازاك . وكان البياض في الدين الرومي يستعمل بين مظاهر الأبهة المقدسة في ذكرى آلام الصلب . وفي رؤيا القديس يوحنا تقدم

---

[1] كانت الحرب بين امراء سيام في القرن السادس عشر تقوم في سبيل احتياز الفيل الابيض، وهم يسمون الملك «ملك الفيل الابيض»، ويكون هذا الفيل ملكاً على سائر الفيلة، والمسألة راجعة الى عقيدة دينية في اصلها .

الثياب البيض الى الذين قتلوا من أجل كلمة الله ، ويقف الاربعة والعشرون شيخاً متسربلين بثياب بيض حول العرش الابيض العظيم ، والواحد الذي استوى على العرش أبيض كأنه الصوف ؛ ومع كل هذه الشئون التي تجمع فيها كل ما هو عذب وشريف ورائع فانه ما يزال يكمن في دخيلة الفكرة عن البياض شيء روّاغ يصيب الروح بالهلع اكثر من الحمرة التي تفزعها حين ترى الدماء .

وهذه هي الصفة الروّاغة التي تجعل البياض اذا فصل من القرائن الوديعة اللطيفة ووصل بشيء مرعب ، يزيد ما فيه من رعب حتى الذروة . تأمل الدب القطبي الابيض والقرش الابيض في البحار الاستوائية : ما الذي يجعلها رعباً راعباً سوى بياضها الناعم الشامل ؟ ذلك البياض الكالح هو الذي يضفي ذلك اللطف البغيض الممقوت الذي يثير التقزز اكثر مما يثير الفزع على الحملقة الخرساء في مظهرهما . حتى ان النمر ذا المخلب المضرّى في بردته التي تنبىء عن شراسته لا يستطيع ان يصيب الشجاعة بالترنح مثلما يصيبها الدب او القرش المشتملان بشملة بيضاء * .

---

* بالاشارة الى الدب القطبي فقد يقول من يلذه ان يتعمق هذه المسألة : ليس بياض الدب اذا نظرت اليه منفصلاً هو الذي يعلي من درجة الرعب الذي لا يطاق في هذا الوحش اذ قد يقال انك اذا حللت هذا الرعب المستزاد وجدته ينشأ من ان وحشية هذا المخلوق محاطة من حولها بجزة من البراءة والحب السماويين فاذ يجتمع شعوران متناقضان لدينا يخيفنا الدب القطبي بهذه المفارقة ولكن لو سلمنا بصحة هذا كله لقلنا انه لولا البياض لما تمّ هذا الخوف الحاد . وأما القرش الابيض فان السكينة الشبحية المنسابة في صورة ذلك الحيوان حين يرى في أحواله العادية تضاهي على نحو غريب تلك الصفة نفسها في الدب القطبي . وقد وفق الفرنسيون في ابراز تلك الصفة في القرش في تسميتهم له باسم Requin وهي كلمة تذكر بلفظة Requiem «وتعني راحة الموت» – ثم اطلقت على القداس الجنائزي – وهذا القرش ابيض صامت صمت الموت .

وفكّر في طير الفطرس من اين جاءت سحب الدهشة الروحية والرعب الشاحب التي يبحر فيها ذلك الشبح الابيض في الأخيلة جميعاً . لم يكن كولردج اول من ألقى تلك الرقية السحرية . اول من ألقاها شاعر الحضرة الالهية الذي لا يشاري ولا يماري أعني الطبيعة * .

---

* اذكر اول طائر فطرس رأيته في حياتي. كان ذلك في هبة ريح طويلة في المياه فوق البحار القطبية ؛ من نوبة حراسة الظهيرة في الاسفل صعدت الى ظهر السفينة المغطى بالغيوم وهناك عند مدخل العنابر رأيت شيئاً مريشاً ملكي السمت ذا بياض صافٍ وعرف مقوس روماني وبين الحين والحين كان يقوّس جناحي ملاك كأنما يريد ان يعانق تابوت عهد. وكانت تهزه خفقات وانتفاضات عجيبة . لم يصبه اذى جسماني غير انه كان يرسل الصيحات كأنه شبح ملك في مصيبة لا قبل له بها وأظنني رأيت في عينيه الغريبتين اللتين لا يستطاع تفسيرهما اسراراً تجلى فيها الله فانحنيت كما انحنى ابراهيم قدام الملائكة . كان ذلك الشيء الابيض ابيض ناصعاً يفرد جناحيه على مدى واسع وكنت في تلك المياه المنقطعة قد فقدت الذكريات التعيسة المنحرفة – ذكريات التقاليد والمدن . وطويلا حدقت في تلك الاعجوبة من الريش. لا استطيع ان احدث بما تغلغل في نفسي وانما ألمح اليه الماحاً . واخيراً استيقظت والتفت فسألت بحاراً : اي طير هو ذاك ؟ فأجاب : **goney** ولم اكن سمعت بهذا الاسم من قبل واعتقد ان هذا الطير المجيد غير معروف للناس على البر ؛ ابداً ! ومن بعد عرفت ان هذه اللفظة هي اسم طائر الفطرس عند بعض الملاحين ؛ ولا يمكن ان تكون قصيدة كولردج العجيبة ذات علاقة بتلك الانطباعات الغريبة التي ألمت بي عندما رأيت ذلك الطائر على ظهر السفينة ذلك اني لم اكن قرأت القصيدة ولم اكن اعرف انه هو طائر الفطرس . غير اني حين اقول هذا فاني بطريقة غير مباشرة ازيد من ألمعية فضل تلك القصيدة وصاحبها .

أؤكد اذن ان سر السحر يكمن في ذلك البياض الجسدي العجيب في الطائر وهي حقيقة يؤيدها تسميتهم لبعض انواع الفطرس باسم الفطرس الداكن وقد رأيت هذا النوع ولكن مشاعري لم تكن كمشاعري يوم رأيت الفطرس الابيض .

ولكن كيف امسك ذلك الطائر الغريب؟ هل تصون السر ؟ ان كنت تفعل حكيت لك . بصنارة خائنة غدارة وحبل حين كان الطائر يعوم فوق الماء . واخيراً جعل منه القبطان رسولاً اذ ربط حول عنقه قطعة من جلد كتب عليها الوقت والمكان ثم اطلقه . ولكني لا اشك في انّ تلك القطعة الجلدية التي كتبت ليراها الناس اخذت في السماء حين طار الطائر الابيض لينضم الى صف الملائكة المهللين المسبحين !

وما أعظم شهرة جـــواد السهوب الابيض في تواريخ الغرب الامريكي وفي الموروث الهندي ! حصان رائع فاره في بياض اللبن ، ذو عينين نجلاوين ورأس صغير وجؤجؤ رابٍ وعزة كعزة ألف ملك وهو في هيئته الشمّاء المغالية في الاستخفاف ، انتخب ملكاً على قطعان الخيل البرية العديدة وكانت مراعيها في تلك الايام تمتد بين جبال روكي وجبال الليغاني . في طليعتها الوهاجة كان يرود بها مرتبئاً متجهاً نحـــو الغرب كأنه ذلك النجم المرموق الذي يقود كل مساء جيوش الضياء . وقد زودته معرفته التي تشبه الشلال المتلألىء الوضاء وذنبه الذي يشبه الشهاب المنقض بزينة أشد تألقاً مما يستطيع صاغة الذهب والفضة ان يزودوه به . ترى فيه طيفاً ملكياً ملائكياً من ذلك العالم الغربي الحيّ الذي كان يجلو لأعين قدامى القناصين وناصبي الفخاخ أمجاد الايام الاولى حين كان آدم يمشي في أبهة وسناء كأنه إله ، مقعنسساً غير هياب كأنه هذا الجواد الجريء . وسواء أكان ذلك الجواد الابيض يمشي بين أركان حربه ومارشالاته في طليعة كتائب تموج دوماً فوق السهول كأنها نهر أوهايو او كان بين رعاياه المطيفين به وهي ترعى في نطاق واسع على مدى الافق فانه كان يتفقدها بمنخريه الدافئين المحمرين وسط بياضه البرود . وأياً كان المظهر الذي يطالع به الناس فقد ظل لدى أشجع الهنود موضع اجلال راعش ورهبة متهيبة . وليس للشك مجال فيما بني على شهادة الاساطير عن هـــذا الجواد العتيق اذ تقول ان بياضه الروحي بخاصة هو الذي وشحه بالقداسة ، وأن في هذه القداسة ما استخرج الخشوع من العابدين وفيها ما أثار في الوقت نفسه رعباً لا يحده وصف .

غير ان هناك أمثلة اخرى يفقد فيها البياض كل هذه الحواشي وذلك المجـد الغريب الذي يكتنفه في الجواد الابيض وطائر الفطرس .

ما الذي في المـُغـْرَب ينفـّر العين ويصدمها حتى ليشمئز منه أحياناً الاهل والاصحاب ؟ هو ذلك البياض الذي يكتنفه . لقد خلق المغرب في أحسن تقويم

كغيره من الناس دون ان يكون فيه تشويه جوهري ، ومع ذلك فان تفشغَ البياض فيه يجعله بشعاً اكثر من اي طرح بشع قبيح . فلمَ ذلك ؟

ولم تنسَ الطبيعة في مظاهر أخرى ان تجعل البياض صفة تكلل بها سائر صفات المفزع من قواها الخفية او شبه الخفية التي ليست — على خفائها — أقلّ من سواها حقـــداً وحفيظة ؛ فشبح البحار الجنوبية الضاوي يسمونه بسبب مظهره الثلجي « العاصفة البيضاء » . كذلك لم ينسَ فنُّ الحقد الانساني ان يستعين بهذا اللون القدير في بعض الاحداث التاريخية . فالمستيئسون المقلّسون بالقلانس البيض من غنت يقدمون على ذبح وكيل الحاكم بمقاطعتهم في سوق المدينة [1] ؛ ومما يزيد في روعة وصف الحادث حسبما أورده فرواسارت اتخاذ تلك العصبة رمزاً ثلجي اللون — أعني قلانس بيضاء يتقنعون بها .

وفي بعض الامور لا تقصر التجربة العامة المتوارثة عند البشر جميعاً عن ان تشهد بما لهذا اللون من قوة خارقة للعادة . فلا ريب في ان الصفة المنظورة في منظر الميت التي تخيف المشاهد هي ذلك الشحوب الرخامي البادي فيها كأنما الشحوب يشبه شارة الهلع في العالم الثاني مثلما انه شارة الجزع في عالم الفناء . ومن صفرة الموتى استعرنا اللون المعبّر للأكفان التي ندرجَ فيها الموتى . كذلك نحن لا ننسى ان نطرح هذه الملاءة البيضاء في أساطيرنا على كل الاشباح فنصورها وقد أخذت ترتفع في ضباب أبيض كاللبن — ولنضف الى ما تقدم وهـــذه

---

١ كان ذلك عام ١٣٧٩ اذ اقدمت عصبة من ذوي القبعات البيض يقودها جون ليون على قتل روجر دوترف وكيل ايرل مقاطعة فلاندر، في سوق المدينة. وقد وصف جون فرواسارت هذه الحادثة في كتابه : « حوليات انجلترا وفرنسا واسبانيا » .

المفزعات آخذة بجامع قلوبنا ، ان الواعظ الانجيلي حين يريد ان يجعل ملك المفزعات مشخصاً متجسداً يصوره راكباً على حصان أبيض [١] .

اذن فان الانسان قد يجعل البياض رمزاً للجليل والمهيب ولكنه لا أحد ينكر ان هذا البياض في حالات نفسية اخرى قد يستحضر في أعمق دلالاته المثالية صورة الشبح أمام الروح .

واذا كانت هذه المسألة تلقى اجماعاً فكيف للانسان الفاني ان يعللها ؟ قد يحاول تحليلها فيجده أمراً مستحيلا . إذن فهل نستطيع ان نستقرىء أمثلة يكون فيها البياض قد تعرى او كاد من الملابسات المباشرة التي تلصق به معاني الرعب ، غير أنه مع ذلك يظل يأخذ بجامع قلوبنا على نحو معتدل ؟ هل نرجو ان نقع على قبس يهدينا الى السبب الخبيء الذي نفتش عنه ؟

تعال نجرب . لكن لنذكر ان الدقة المتسللة في مثل هذا الامر لا تستجيب الا للدقة المتلمسة ولا يستطيع امرؤ ان يتبع آخر في هذه المسارب دون عون من خيال ، ومع ان بعض الانطباعات التخيلية التي سنقدمها هنا كانت — دون ريب — شركة بين معظم الناس الا انه قلما وعاها أحد منهم في حينها ولذلك فقد يعجز المرء عن تذكرها في هذا المقام .

تصوّر شخصاً ذا مثالية لم ينلها بالتشقيف ، اتفق له ان يعرف طبيعة أحد العنصرة ، معرفة عابرة غير محكمة ، وقل لي لماذا تسترسل في خياله اذا ذكر

---

١ انظر سفر الرؤيا ٦ : ٢ فنظرت واذا فرس ابيض والجالس عليه معه قوس وقد أعطي اكليلا ؛ والسفر نفسه : ٨ واذا فرس أخضر والجالس عليه اسمه الموت (وهنا أخضر ترمز الى الشحوب) .

اسبوع العنصرة محض ذكر سلسلة من مواكب طويلة كئيبة صامتة يمشي فيها حجاج بطيئو الخطوات مطأطئو الهامات مقنعون بقلانس من الثلج الذي سقط حديثاً ؟ او خذ بروتستانتياً أمياً ساذجاً من احدى الولايات المتوسطة بامريكا وقل لماذا اذا ذكرت له الراهب الابيض او الراهبة البيضاء ذكراً عابراً أثار ذلك في روحه صورة تمثال أعمى .

وقلعة لندن البيضاء : عدّ عن الروايات التي تحدثنا عن من سجن فيها من الملوك والمحاربين فتلك روايات لا تعلل تماماً خطورة شأنها وقل لي ما الذي يجعل تلك القلعة ذات أثر بعيد في خيال الامريكي الذي لم يتمرس بالاسفار أبلغ من أثر تينك القلعتين الشاهقتين جارتيها : قلعة بايورد والقلعة الدامية .

ثم الجبال البيض في نيوهامشير وهي قلاع أعلى وأرفع : لمَ يطيف بالروح لدى ذكر اسمها محض ذكر في بعض الحالات النفسية « شبحية » مهولة ضخمة بينا يبعث ذكر سلاسل فرجينيا الزرقاء « حلميّة » ناعمة ندية قصية . او لم يقع الخيال في إسار « الطيفية » اذا ذكر اسم البحر الابيض — بقطع النظر عن موقعه — اما اسم البحر الاصفر فانه يهدهد الخيال بخواطر عن أصائل وديعة مزعفرة قضاها المرء على الامواج ، مشفوعة بأبهى ساعات الغروب وأشدها سِنَة . او لنأخذ مثلاً لا علاقة له بالمادة ، يتأدى الى الخيال خالصاً شفافاً : لماذا اذ نقرأ في قصص أوروبة الوسطى عن الجنيات القديمة يتبدى لنا « الرجل الطويل الشاحب » الذي يعيش في غابات هارتز — وهو الذي تنساب صفرته الثابتة الملازمة بين خضرة الغابات دون ان تحدث حفيفاً — أقول : لماذا يتمثل هذا الشبح أشد افزاعاً من جميع الأقزام الذين يزعقون ويصرخون في جنبات الغاب ؟

ومدينة ليما[1] التي لا تسكب دمعة واحدة على مصائبها : ليس الانقباض الذي يعلو صفحتها صادراً فحسب عن تذكرها للزلازل التي دكت كاتدرائيتها ، ولا عن ضروب الذعر التي أثارتها بحارها المهتاجة ، ولا عن مرأى ذلك الحقل المديد من المآذن والمنارات المائلة وأحجار الزوايا المتناثرة والصلبان المنحنية (كأنها السواري المائلة في اسطول راسٍ)، وشوارع ضواحيها قد كدست فيها الجدران تكديساً كأنها رزمة من البطائق مطروحة . لا ليست هذه الامور وحدها هي التي تجعل ليما أغرب المدن وأشدها تعاسة وانما لبست ليما القناع الابيض، وفي بياض مصابها رعب أشد هولاً. وهذا البياض يجعل خرائبها كأنها حدثت أمس وان كانت هي قديمة مثل بزارو ، ولا يسمح بنمو الخضرة على دمنها ومطارح بـــلاها ، وانما ينشر فوق حصونها المتهاوية صفرة السكتة الصارمة فتخلد ما فيها من تشويه .

وأنا أعلم ان المفهوم العام لدى الناس لا يعترف بأن ظاهرة البياض هي العامل الاول الذي يزيد في رعب ما هو مرعب وأن العقل ذا الخيال القاصر لا يرى شيئاً من الرعب في تلك المظاهر التي يراها عقل آخر حافلة بالرعب بسبب من هذه الظاهرة وحدها وبخاصة حين تبدو في اي شكل يشارف حدود الخرس او الشمول . ولعلني أوضح ما أعنيه بهذين القولين في مثلين تاليين :

أولاً : حين يقترب الملاح من شواطىء بلاد أجنبية يهبّ الى الحراسة حين يسمع ليلاً هدير الموجات الكبار ويحسّ بقدر من الهلع يكفي ليشحذ ملكاته وحواسه . ولكن ادعه في مثل هذه الظروف نفسها من أرجوحته ليرى سفينته

---

[1] أسسها فرنشسكو بيزارا عام ١٥٣٥ واتخذها عاصمة، وقد هدمت الزلازل عام ١٧٤٦ قسماً كبيراً منها، كذلك أحدث فيها زلزال آخر عام ١٨٢٨ خراباً بالغاً ، وقد زارها ملفل زورة قصيرة بين ٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٣ و ٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٤٤ .

مبحرة خلال منتصف الليل في بحر من البياض الذي يشبه اللبن — كأن ألسنة برّ تطيف به من كل جانب وقد أخذت تسبح من حوله حشود من الدببة البيض المقلنسة المتدافعة — حينئذٍ يشعر برعب صامت كالذي تبعثه الخرافات ؛ واذا طيف المياه المبيضة الملففة بالاكفان يرعبه كأنه شبح حقيقي وعبثاً ما يحاول الحبل ان يقنعه بأنه ما يزال بعيداً عن ان يبلغ الأغوار سبراً . وانما يهبط قلبه وترتخي يده عن دفة سفينته ، ولا يطمئن باله الا اذا أصبح فوق الماء الازرق . ولكن أين هو هذا الملاح الذي قــــد يقول لك : « سيدي لم يكن خوفي من الارتطام بصخور خبيئة وانما كان خوفاً من ذلك البياض المفزع هو الذي أقلقني » .

ثانياً : ان الهندي من أبناء بيرو لا تبعث في نفسه رؤية جبال الانديز التي يعلوها هودج من الثلوج اي شيء من الرعب ، اللهم الا ان يكون من تصور الوحشة والعزلة الصقيعية الابدية التي تهيمن على تلك الاعالي الشاسعة وتخيل للمرء على نحو طبيعي ما قد يصيبه من خــــوف لو انه ضلّ طريقه في تلك العزلة الموحشة . ومثل ذلك حال قاطع الاخشاب في الغرب الامريكي فانه يلحظ السهوب المترامية بقسط ضئيل من الاكتراث وقد التحفت بالثلج وليس فيها ظل لشجرة او لغصن يوقظ الغيبوبة المصلوبة التي نشرها البياض . وليس كذلك حال البحار حين يرى مناظر البحار القطبية فانه يرتعش من البرد وتشرف سفينته على الغرق ، وكأنما قوى الصقيع والهواء تأخذه بحيلة جهنمية من حيل المشعوذين فبدلاً من ان تريه قوس قزح متحدثاً اليه بالرجاء وبالعزاء في محنته ، تخيّل له انه يرى مقبرة كالحة كاشرة عن أنيابها له ، وفيها نصب ثلجية دقيقة وصلبان مشظّاة متفلقة .

ولكنكم قد تقولون : هذا الفصل الابيض الطويل عن البياض ليس إلا علماً أبيض ترفعه روح امرىء مستسلم جبان . لقد استسلمت يا اسماعيل للأوهام السوداوية .

خبروني : هذا المهر القويّ الأرن الذي يفتلى في وادٍ آمن من فيرمنت بعيداً عن كل الضواري – اذا جئته في يوم مشمس وضاح وحركت خلف ظهره جلد ثور سلخ حديثاً دون ان يراه بل يشم شذا رائحته الحيوانية الغريبة – لماذا يفزع وينخر وتجحظ عيناه ويدق الارض في نزوات مخبولة من الهلع ؟ ليست لديه ذكريات عن طعنات دامية سببتها مخلوقات متوحشة في موطنه الشمالي الأخضر حتى يقال ان الشذا الغريب الذي شمه ذكـّره بشيء مرتبط بتجربته لأخطار سابقة . اذ ما الذي يعرفه هذا المهر ربيب نيوانجلند عن حيوان البيسون ساكن اوريجون البعيدة ؟

على رسلكم اذن . انكم لتشهدون هنا ان غريزة التعرف الى الشر الشيطاني في الكون موجودة حتى في الحيوان الأعجم فهو وان كان يبعد آلاف الأميال من اوريجون ما يزال اذ يشم ذلك الشذا الوحشي يتمثل قطعان البيسون النطّاحة الممزّقة كما يتمثلها أخـــوه الذي لا يزال برياً سارحاً في السهوب ، وربما كانت قطعان البيسون تعفره في الثرى في هذه اللحظة .

كذلك اذن هي التدفعات المكتتمة في البحر ذي البياض كأنه اللـــبن . والحفيف البارد الذي يحدثه صقيع الجبال المزخرف والتحوّلات الكئيبة التي تأتيها ثلوج السهوب حين تذروها الرياح . كل هذه لدى اسماعيل هي هزة جلد الثور للمهر المرتاع .

نعم لا أحد يعرف اين تقع تلك الاشياء التي لا تسمّى ، والتي تبعث علاماتها الغريبة مثل هذه اللمحات ولكني انا والمهر نعتقد بوجود تلك الاشياء ، ولا بدّ. واذا كان اكثر مظاهر الكون المرئي قد خلق من مادة الحب فان الافلاك غير المرئية انما صنعت من الرعب .

ولكن لم نفكّ لغز هذا البياض فقد عرفنا سحره وعلمنا كيف تستجيب له الروح بقوة وأغرب من هذا وأشد احتفالاً بالأسرار – حسبما تقدم – أنه من بين الرموز الروحية اكثرها مغزى لا بل انه الحجاب الالهي ثم هو بعد كل ذلك، ورغم كل ذلك، هو العامل الذي يُغلي من حدة الخوف في أشد الاسياء اخافة للانسان .

أهو أن لا محدوديته تمثل ما في الكون من خلاء ساكن لا ينبض ومن انفساح لا يحدّ وبذلك تدعنّا من الخلف بخواطر العدم حين نرى الاعماق البيضاء في نهر المجرة ؟ أهو ان البياض في جوهره ليس لوناً بمقدار ما هو انعدام محسوس للالوان وفي الوقت نفسه تحقق محسوس لها ؛ ألهـذا كان هناك بياض صامت أخرس حافلاً بالمعنى في بسيط مديد من المنظر الثلجي – جحود لا لون له ، جـامع للألوان جميعاً تنفر منه نفوسنا ؟ للفلاسفة الطبيعيين نظرية تقول ان سائر الالوان الأرضية – أي كل زخارف فخمة او جميلة – مثل حواشي السماء والغابات العذبـة لدى الغروب ، وأجنحة الفراشات المذهبة وخـدود الفتيات اللواتي تشبه الفراشة ، كل هذه ليست إلا خدعاً ماكرة، ليست في جوهر المادة بطبيعتها وانما ركبت فيها من خارج حتى ان الطبيعة المؤلهة نفسها إنمـا تتبرج كأنها عاهرة لا يستر مغرياتها سوى قبر . فاذا تأملنا هذه النظرية وتقدمنـا خطوة اخرى ووقفنا عند الزينة الغريبة التي تبرز كل لون من ألوان الطبيعة أعني مبدأ الضوء العظيم وانه يبقى أبداً أبيض او غير ذي لون في ذاته واذا وقع على المـادة دون وسيط مسّ الاشياء جميعـاً حتى ازهار الخزامى والورود بخضابه الذي لا لون له – أقول اذا تأملنا كل ذلك بدا الكون المفلوج ممدداً أمام أعيننا

كأنه أبرص ؛ وكما يرفض المسافرون ذوو الارادة الحازمة في لابلاند ان يضعوا على عيونهم نظارات ملوّنة ملوّنة كذلك الكافر التعيس تعشى عينـــاه وهو ينظر الى الكفن الابيض المنشور على كل منظر من حوله . كل هذا مجتمعاً يرمز اليه الحوت الابيض . أتعجبون بعد ذلك من الصيد الناري ؟

٤٣ أصغ !

– صه ! هل سمعت تلك الضجة يا كباكو ؟

كانت النوبة الوسطى في الحراسة، وضوء القمر ساجٍ جميل، والملاحون قد وقفوا في طابور يمتد من عند احد براميل الماء العذب في منتصف السفينة حتى البرميل عند الناروزة قرب أعلى الكوثلة وعلى هذه الحال كانوا يمرّرون الدلاء ليملأوا برميل الناروزة . وبما أنهـــم في معظم الوقت كانوا يقفون قريبين من مشارف الربعة وراء الدقل – وهي موضع مقدّس – لذلك حرصوا على ان لا يتكلموا او يصدروا حفيفاً بأقدامهم . ومضت الدلاء تنتقل من يد الى يد في صمت عميق لا يتخلله إلا خفقة عابرة من شراع والا الهمهمة الدائمة التي تحدثها أرينة السفينة اثناء تقدمها الدائب .

في وسط هذه السكينة همس آرشي أحد رجال الطابور وكان يقف قريباً من العنابر الخلفية في أذن جار له شولوي بتلك الكلمات :

– صه ! هل سمعت تلك الضجة يا كباكو ؟

– « خذ السّجل . تسمح يا آرشي ، أي ضجة تعني ؟ »

– «ها هي مرة اخرى – تحت العنابر – ألا تسمعها؟ سعال. إنها تبدو كأنها سعال » .

- « الله يلعن السعال ! مرّر هذا السّجل العائد » .

— « مرة أخرى — هي عينها — كأنها الآن صوت اثنين او ثلاثة نائمين يتقلبون » .

— « قرنبى [1] ! كفاك يا رفيق، بالله ! هذه هي البقسماطات الثلاث المنقوعة التي أكلتها في العشاء تتقلب في جوفك — لا غير . انتبه للدلو ! »

— « قل ما تريد يا رفيق . ان سمعي حاد » .

— « نعم . أنت الذي سمع وهو في البحر على بعد خمسين ميلاً من نانتوكت صوت إبر العجوز الكويكرية وهي تخيط . أنت هو أليس كذلك ؟ »

— « اسخر كما تريد . سنرى النتيجة . أصخ يا كباكو ! في العنبر الخلفي شخص لم يظهر بعد على ظهر السفينة وأنا أظن ريّسنا العجوز يعرف شيئاً عنه ايضاً . سمعت اسطب يخبر فلاسك في احدى النوبات الصباحية ان في الجو شيئاً من ذلك » .

— « اش ! هاك الدلو ! »

---

١ كلمة اسبانية تدل على الشعور بالمفاجأة او الاشمئزاز .

٤٤ الخريطة

لو انك ذهبت في أعقاب آخاب القبطان الى قمرته بعد العاصفة التي حدثت في الليلة التالية لليلة التي نال فيها التأييد من البحارة في بلوغ غايته لرأيته يعمد الى درج في الطرنسوم ويستخرج منه طوماراً كبيراً مجعداً من الخرائط البحرية الصفراء وينشرها امامه على طاولته المثبتة . ثم لرأيته بعد ان يجلس اليها قد اخذ يدرس متفحصاً ما فيها من خطوط وظلال متنوعة تواجه عينيه ثم يخط عليها في بطء حازم خطوطاً أخرى بقلمه في مواضع كانت خالية من كل رسم وتخطيط . وبين الحين والحين يرجع الى اكداس من سجلات الرحلات البحرية الى جانبه حيث دونت فيها الفصول والمواقع التي اصطيدت فيها حيتان العنبر او رؤيت في سفرات سابقة قامت بها مختلف السفن .

وبينا كان مشغولاً كذلك كان المصباح الصفيحي الثقيل المعلق بالسلاسل فوق رأسه يتأرجح تأرجحاً مستمراً مع حركة السفينة ويلقي ابداً ومضات وظلال خطوط متنقلة فوق جبينه المتغضن حتى لكأنه ـ وهو يرسم خطوطاً واتجاهات على الخرائط المتجعدة ـ كان هناك قلم خفيّ يمد خطوطاً واتجاهات على خريطة جبهته ذات الأخاديد العميقة .

ولم تكن هذه هي الليلة الوحيدة التي يجلس فيها آخاب منفرداً في قمرته متأملاً خرائطه . وأكاد أقول انه كان يستخرجها كل ليلة ، ويمحو منها كل ليلة بعض العلامات، ويضع مكانها علامات اخرى . ذلك ان آخاب، وخرائط

المحيطات الاربعة منشورة أمامه، كان يلف بقلمه في تيه من التيارات والدوامات رجاء ان يستيقن من انجاز الخاطرة المجنونة التي كانت تملأ روحه .

وكل من لم يكن على معرفة تامة بطرائق الحيتان قد يرى ان البحث عن مخلوق واحد في محيطات هذا الكوكب الارضي التي لا تحد مهمة سخيفة لا رجاء فيها . ولكن الامر لم يكن يبدو كذلك لدى آخاب الذي كان يعرف جميع أوقات المدّ والتيارات وبذلك يحسب تنقلات حوت العنبر طلباً للطعام ويستطيع ان يبلغ الى استنتاجات معقولة تكاد تشارف اليقين حول اليوم المناسب الذي يكون فيـــه الحوت هنا او هنالك باحثاً عن فريسته، وحسبه ليبلغ ذلك ان يتذكر المواسم المنظمة اليقينية التي يخرج فيها الصيادون لصيد الحوت في عروض ومواقع بأعيانها .

ان تعيين الفترات التي يلجأ فيها الحوت الى هذه المياه او الى تلك قد أصبح شيئاً يقينياً حتى ان كثيراً من الصيادين يعتقدون انه اذا استطاع أحد ان يرقبه ويدرسه خـــلال العالم عن كثب، وانه لو أجرى مقارنة بين سجلات السفينة لرحلة واحدة يقوم بها أسطول كامل للتحويت اذن لوجد ان هجرات حوت العنبر تطابق في الزمان رحلات قطعان الرنجة وأسراب السنونو ــ دون اختلاف. وعلى أساس من هذا التقدير بذلت محاولات لرسم خريطة محكمة مفصلة تنبىء بهجرات حوت العنبر * .

---

* منذ ان كتبت هذا جاء لحسن الحظ ما يؤيده في نشرة رسمية أصدرها اليوزباشي موري من المرصد القومي بواشنطن في ١٦ نيسان (ابريل) ١٨٥١ ويبدو من تلك النشرة ان تلك الخريطة في طريقها الى النجاز وقد وردت اقسام منها في النشرة: «هذه الخريطة تقسم المحيطات في خمس مناطق ذات خمس درجات عرضية وخمس درجات طولية، وفي الاتجاه العمودي تحوي كل منطقة ١٢ عموداً بعدد الاشهر، وفي الافقي تحوي ثلاثة احدها يدل على عدد الايام التي قضيت في كل شهر في كل منطقة والاثنان الآخران يدلان على عدد الايام التي رئيت فيها الحيتان ـ سواء أكانت من جنس العنبر او من الحوت الاثين » .

ثم ان حيتان العنبر حين تنتقل من منطقة غذائية الى اخرى بهداية غريزة لا تخطىء أو قل بوساطة ذكاء خفي وهبها الله اياه — فانها في الاكثر تسبح في مسارب — veins — آخذة في طريقها على طول خط بحري في دقة لا أمت فيها ولا عـــوج حتى انك لا تجد سفينة ابداً جرت مجراها حسب أية خريطة بعشر تلك الدقة العجيبة . ومع ان الاتجاه الذي يذهب فيه اي واحد من تلك الحيتان في هذه الاحوال مستقيم كأنه خطوط المسّاح على خريطته ومع ان خط تقدمه مطابق تماماً لخط مخره المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا ان المسرب المحدّد الذي يقـــال انه يسرب فيه في تلك الاوقات يتسع بحيث يشمل بضعة أميال عرضاً (تزيد او تنقص حسب امتداد المسرب او انكماشه) الا أنه لا يتجاوز مدى النظر من قمم الصواري في الحواتات حين تنساب متنبهة يقظة على طول تلك المنطقة السحرية . وخلاصة هذا كله انك تستطيع في مواسم معينة وفي نطاق ذلك العرض وعلى طول ذلك المسرب ان تفتش عن الحيتان المهاجرة وأنت على مثل اليقين بأنك ستراها .

اذن فان آخاب لم يكن يرجو ان يلتقي بفريسته في أوقات موثوقة عنـــد مواقع تغذية مشهورة متباعدة، فحسب، وانما كان اذا اجتاز ما بين تلك المواقع يستطيع بما أوتي من براعة فنية ان يحدد الزمان والمكان في طريقه بحيث لا يكون بعيداً عن استشراف الرجاء في لقائه .

وحدثت حادثة بدت لأول وهلة وكأنها تعقد خطته الغارقة في البحران المنظمة في آن معاً . ولعلها لم تكن كذلك في حقيقة الامر. ان قطعان حوت العنبر تتخذ مواسمها المنظمة في مواقع معينة ولكنك من وجه عام لا تستطيع ان تستنتج بأن القطعان التي أمّت خط العرض الفلاني او خط الطول العلاّني في هذا العام مثلاً هي نفسها التي ألمت به في الموسم السابق ، وان كانت هناك أمثلة واقعية خاصة أثبتت ان نقيض هذا صحيح . وهذه الملاحظة نفسها تصدق بعامة

وفي حدود أضيق على المنعزلين والمترهبين بـين الحيتان الناضجة المسنّة . فموبي ديك – مثلاً – رئي في سنة سابقة عند ما يسمى منطقة سيشل [1] في المحيط الهندي او خليج فولكانو عند ساحل اليابان ولكن هذا لا يستتبع ان لو ان الباقوطة زارت احدى هاتين البقعتين في موسم مطابق تالٍ لالتقت به حتماً . وقل مثل ذلك في مواقع أخرى أمّها موبي ديك للغذاء واستبان فيها للناظرين في بعض الأحايين . ولكن هذه المواقع كانت فيما يبدو مواقف عارضة وفنادق راحة يعرج عليها ولم تكن مواقع استيطان طويل . وحيث تحدثنا عن فرص آخاب في انجاز غايته حتى هذا الحين فانما ألمحنا فحسب الى ما كان أمامه من فرص جانبية او اضافية او قائمة على معرفة بالسوابق قبل ان يحرز زماناً خاصاً او مكاناً خاصاً حين تصبح كل الامكانات جميعاً احتمالات ، وكل امكان في نظر آخاب فانما كان ثانياً ليقين . وهذا الزمان المعين والمكان المعين يجتمعان معاً في تعبير فني واحـــد هو : « موسم الصيد على خط الاستواء » The Season-on-the-Line . فقد مضت عدة سنوات وموبي ديك يرى في ذلك المكان المعيّن في الزمان المعيّن يتلبث في تلك المياه فترة والشمس في دورتها السنوية تتمهل مدة مقدرة في اي برج من أبراج الفلك ، وهناك جرت معظم اللقاءات المميتة بين الصيادين والحوت الابيض ، هناك اختزنت الأمواج قصص بطولاته ، وهنالك ايضاً كان المسرح المأساوي [2] حيث وجد الشيخ المجنون دافعه الرهيب للثأر والانتقام . غير ان آخاب حين ألقى روحه المتأملة في هذا الصيد الذي لا يريد له الاخفاق لم يسمح لنفسه، وهو ذو ادراك حذر ويقظة نفاذة، ان يرسي آماله جميعاً عند تلك الحقيقة الختامية التي قدمناها مهما زينت له من تلك الآمال ولا

---

١ تقع جزائر سيشل الى الشمال الشرقي من مدغشقر .

٢ في الفصل : ٢٨ ذكر الهندي الجايهيدي ان آخاب « نزع صاريه » عند اليابان، وها هو ملفل يغير المكان هنا، فيجعله عند خط الاستواء، حيث غرقت الباقوطة في نهاية الامر .

كان في نذره الساهد ليقرّ عيناً ويفرخ روعاً بحيث يرجىء كل بحث عاجل حتى يبلغ ذلك المكان .

أبحرت الباقوطة من نانتوكت عند بداية « الموسم » . فلو ان قائدها بذل كل جهد ممكن ليقوم بالسفرة الطويلة نحو الجنوب ويدور حول رأس هورن ثم يجري ستين درجة من درجات العرض لما استطاع ان يصل المنطقة الاستوائية في المحيط الهادي في الوقت المناسب ليقوم هنالك بالطواف . ولذلك كان لا بد له من ان ينتظر الموسم من قابل . ولعلّ آخاب قد أصاب اذ اختار ان يبكر في الابحار بالباقوطة بسبب هذا التعقيد في الامور فقد كانت أمامه فترة تبلغ ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وليلة، وهي فترة يمكنه ان يقضيها في صيد متنوع بدلاً من ان يقضيها على البرّ فارغ الصبر فلعلّ الحوت الابيض أن يمضي اجازته في بحار بعيدة عن مواقع غذائه الموسمية ولعل جبهته المغضنة ان تظهر على مبعدة من خليج فارس أو في خليج البنغال او بحار الصين او أية مياه اخرى يغشاها بنو جنسه . فكل ريح سواء أكانت الرياح الموسمية او الهابة من سهول الارجنتين او كانت شمالية غربيـــة او حرامية او تجارية — كل ريح عدا الشرقية او الخماسين قد تسوق موبي ديك نحو الدائرة العالمية المتعرّجة التي ترسمها الباقوطة بخط مخرها المباحر .

ولو سلمنا بكل هذا فانك اذا تأملت الفكرة في تمعن وهدوء قلت انها ليست سوى فكرة حمقاء : في المحيط الواسع المترامي الاطراف هل يمكن للصياد الذي يبحث عن حوت واحد حتى لو واجهه ان يقول انه هو حقاً كما لو كان يبحث عن المفتي الاعظم ذي اللحية البيضاء في أسواق استانبول المكتظة الحاشدة . أجل لأن جبهة موبي ديك المتفردة ذات البياض الناصع وحردبته البيضاء كأنها الثلج لا يمكن ان تخطئها العين . وقد يتمتم آخاب لنفسه بعد ان انكب على خرائطـــه طويلاً حتى الهزيـع الاخير من الليل واستلقى غارقاً في أحلامه وهواجسه — قد يتمتم قائلاً: ألم أجعل الحوت معلماً بعلامات فأنـّى له ان ينجو؟

أليست زعانفه العريضة مخروقة مقطوشة كأنها أذن خروف قد قطعت ؟ وهنا يذهب عقله المجنون في شوط يبهر الانفاس حتى يستولي عليه الانهاك وينتابه الاعياء من كثرة التفكير فيذهب الى الهواء الطلق فوق ظهر السفينة ليستعيد قوته . رباه ! أي غشية من عذاب يقاسيها ذلك الرجل الذي استغرقته رغبة موتورة لم تتحقق ؟ انـــه لينام ويداه مقبوضتان ويستيقظ وأظافره الدامية غارزة في راحتيه .

فاذا اضطرته احلامه الليلية المضنية التي لا يطاق الحاحها الى الخروج من سريره، وهي احلام تستأنف ما كان يجول في خواطره من افكار حادة اثناء النهار، اذا حمل أحلامه بين سورات من الغضب متلاطمة ودار بها في ذهنه الملتهب حتى أصبح نبض مركز الحياة عنده عذاباً لا يطاق، حين يحدث في بعض الحالات ان تهز هذه الآلام المبرحة كيانه من أساسه ويبدو كأنما تنفتح في داخله هوة تنطلق منها شُعَب اللهيب والبرق وتومىء له العفاريت اللعينة ان يقفز بينها، حين تتثاءب هذه الجحيم في داخل نفسه ـ عندئذ تسمع صرخة شاذة خلال السفينة ويندفع آخاب من قمرته وعيناه تتوقدان كأنه يفر من سرير جعلت النار تأكله . وبدلاً من ان تكون هذه الامور اعراض ضعف كمين لم يستطع قهرها واخفاءها او أعراض خوف مما يزمع ان يحققه فانها لم تكن سوى أمارات واضحة لحدة عزمه . ففي مثل هذه الاوقات لا يكون آخاب المجنون المكب على التخطيط صياد الحوت الابيض الذي لا يلين جانبه ولا يهدهد غضبه، الذي ذهب الى سريره، هو نفس آخاب الذي انطلق من سريره مرة أخرى مرتاعاً . أما الثاني منهما فهو المبدأ الخالد الحيّ أو هو الروح فيه، وبما انه في النوم انفصل عن العقل المميز الذي استخدمه في اوقات أخرى ليكون يده الفعالة في الظاهر فانه حاول الهرب تلقائياً من مجاورته لذلك الشيء المهتاج — وهي مجاورة لافحة لاذعة — ، ولم يعد — عندئذٍ — جزءاً مكملاً له . ولكن بما ان العقل لا يوجد إلا اذا تحالف مع الروح، لذا يبدو في حالة آخاب أنه سلم أفكاره وأوهامه

جميعاً الى يد غايته العليا ، ووقفت غايته تلك بمحض ما في ارادتها من رسوخ وصمود في وجه الآلهة والشياطين واتخذت لنفسها كياناً مستقلاً . بل استطاعت ان تحيا وتتلهب في جهامة وعبوس بينا الحيوية العامة التي كانت ترتبط بها هربت مرتاعة من مولد تلك الارادة التي ليس لها أب شرعي . لذلك فان الروح المعذبة التي كانت تشع من عيون الجسد حين كان يندفع من الغرفة من يحسبه الناس آخاب إنما كانت شيئاً منسوخاً، ذاتاً لا شكل لها تمشي في نومها، شعاعاً حياً من نور، لكنها لا تقع على شيء لتضوئه ومن ثم كانت بياضاً في ذاتها . أعانك الله ايها الشيخ فقد خلقت افكارك فيك مخلوقاً، ومن جعلت أفكاره الحادة منه بروميثيوس فان النسر يغتذي من قلبه الى الابد، وذلك النسر هو المخلوق الذي خلقه .

٤٥ الاقرار بيمين

من أجل ما سردناه في هـــذا الكتاب ولمسنا به — على نحو غير مباشر — خصيصة او اثنتين ممتعتين غريبتين من عادات حوت العنبر يعتبر الفصل السابق في أجزائه الاولى ذا أهمية كأي فصل آخر هام في هذا الكتاب . غير ان مادته المجملة التي جعلناها فاتحة ، تتطلب شيئاً من التوسيع والاسهاب لكي يصح فهمها فهماً كفاءً بقيمتها ولكي نزيل عدم التصديق الذي قد يبثه في بعض العقول ما لدى أصحابها من جهل مطبق بالموضوع كله وخاصة عدم تصديقهم لليقين السليم في الأمور الرئيسية من هذا الموضوع .

ولست حريصاً على أن أؤدي هذا الجزء من مهمتي بطريقة منهجية منظمة ، وانما اكتفي بأن أحقق غايتي المرجوة بايراد مقتبسات متفرقة عن شئون خبرتها وأنا حوات ، او اعتمدت فيها على شهادة الثقات ؛ وأعتقد ان النتيجة التي أرمي اليها ستتحقق من ذاتها على نحو طبيعي بعد سرد هذه المقتبسات .

أولاً : عرفت أنا نفسي ثلاثة أمثلة ذهب فيها الحوت ناجياً بعد ان تلقى رمحاً . وبعد فترة (وكانت في احدى المرات ثلاث سنوات) ضربه الصياد نفسه مرة ثانية وذبحه ، واستخرج الحديدتين من جسمه وكلتاهما معلمة بعلامة خاصة . أما في حال الحوت الذي عاش بين الضربتين ثلاث سنوات ، او لعل الفترة كانت تزيد على ثلاث ، فان الرجل الذي قذف بالرمحين سافر أثناء الفترة الواقعة بينهما في سفينة تجارية في رحلة الى افريقية ، ونزل على الـــبر وانضم الى جماعة من

المستكشفين ، وتوغل بعيداً في الداخل حيث قضى في سفره فترة تبلغ حوالي سنتين ، وعرّض نفسه لخطر الحيات والمتوحشين والنمور والميازم السامة وسائر الاخطار العامة التي قد تعرض لمن يتجول في قلب مناطق مجهولة . وفي الوقت نفسه كان الحوت المضروب يقوم ايضاً برحلاته ، ولا بدّ ؛ ولا ريب في أنــه طوّفَ الكرة الارضية ثلاث مرات ، ومعّكَ جوانبه على جميع شواطىء افريقية دونما غاية . ثم التقى هذا الصياد وذلك الحوت مرة أخرى وقهر الاول منهما الثاني . أقول : انا نفسي عرفت ثلاثة أمثلة من هذا القبيل رأيت في حالتين منها الحوتين مضروبين ؛ وفي الهجمة الثانية رأيت السنانين اللذين حفرت فيهما علامتان متماثلتان وقد استخرجا بعد من الحوت الميت . وقد اتفق لي في الحادثين اللذين تخللتهما فترة سنوات ثلاث ان كنت في القارب في المرتين واستبنت بوضوح في المرة الثانية منهما نوعاً فذاً من خال كبير تحت عين الحوت كنت قد لحظته في المرة الاولى قبل ثلاث سنوات . أقول ثلاث سنوات وأنا على مثـــل اليقين انها كانت اكثر من ذلك . هذه اذن ثلاثة أمثلة أعرف صدقها بنفسي غير أني سمعت أمثلة كثيرة أخرى من أشخاص لا وجه للطعن في عدالتهم .

ثانياً : من المتعارف المشهور في سماكة حوت العنبر ، مهما يجهل الناس على البر أمرها ، أنه حدثت أمثلة تاريخية عديدة لا تنسى حيث رأى الصيادون حوتاً بعينه في أزمنة وأمكنة متباعدة . أما لماذا أصبح ذلك الحوت معلماً مشهوراً فأمر لا يعزى في الأصل الى صفات جسدية فيه تميزه عن سائر الحيتان ، اذ مهما يكن تفرد الحوت في تلك الصفات ، فانهم يقضون على ذلك التفرد بقتله وغليه لاستخراج زيته الثمين . لا . إنما السبب في ذلك هو ان التجارب المميتة في السماكة أفادت ان الخطورة التي يمثلها ذلك الحوت تتخذ لها في النفوس مكانة مريعة كمكانة رينالدو رينالديني ، حتى ان معظم الصيادين ليكتفون حين يميزونه بأن يمسوا قبعاتهم الترپولينية اذ يتبينون انه يتسكع قريباً منهم في البحر دون أن يحاولوا توثيق المعرفة به . وهم في ذلك يشبهون بعض شياطين الفقراء على البر

الذين اتفق لهم ان عرفوا رجلاً عظيماً سريع الغضب فهم يحيونه في الشارع من بعيد تحيات فضولية لئلا تنالهم لطمة عاجلة لتوقحهم اذا هم توغلوا في اظهار الدالـّة و الالفة .

ولا يتمتع كل حوت من تلك الحيتان المشهورة بصيت فردي عظيم فحسب — وتستطيع ان تسميه ايضاً صيتاً مديداً لأنه يمتد على مدى المحيطات ؛ ولم ينل كل حوت منها شهرته وحسب في الحياة ثم أصبح خالداً في مستودعات المنارة بعد الموت ، لا بل أحرز كل ما يستطيع الاسم العظيم ان يمنحه من حقوق وامتيازات ومميزات ، حتى أصبح حظه من الشهرة حـــظّ أصحاب الاسماء العظيمة مثل قمبيز وقيصر . أليس كذلك يا تيمور توم ايها الحوت المشهور الذي كان ذا ندوب وتواليع كجبل الجليد ، وأطال اللبث في المضايق المشرقية التي سميت باسمه ، وكانت نفاثته ترى من شاطىء أومبي ذي النخـــلات [1] ؟ أليس كذلك يا جاك زيلندة الجديدة يا من روّع كل الطوّافين الذين مخرت سفنهم بجوار بلاد تاتو ؟ أليس ذلك كذلك يا مرقان يا ملك اليابان ، يا من تتخـــذ نفاثته السامقة في الفضاء — فيما يقولون — صورة صليب ناصع البياض ؟ أليس ذلك كذلك يا دون ميخائيل أيها الحوت التشيليّ المعلم بخطوط غامضة على ظهره كأنه سلحفاة عجوز ؟ بعبارة بسيطة : هذه حيتان أربعة مشهورة لدى طلاب علم الحيتان ، شهرةَ ماريوس وسلاّ لدى طلاب تاريخ الرومان .

وليس هذا هو كل ما هنالك : وانما بعد ان أنزل كل من توم زيلندة الجديدة والدون ميخائيل نكبات بليغة في قوارب تنتمي الى مختلف السفن، بعد ذلك كله ذهبا في النهاية ، اصطادهما بعد ان طاردهما وقتلها قباطنة التحويت الشجعان

---

١ أومبي جزيرة من مجموعة الجزر التي تسمى Little Sundas في اندونيسيا الشرقية .

الذين رفعوا مراسيهم من موانيها وغايتهم هي قتلها ، مثلما ان القائد بطلر في القديم اتجه متغلغلاً في غابة نرجانست وقد انتوى ان يأسر أنـّاون المتوحش المشنوع القتـّال ، رأس المحاربين عند الملك فيليب الهندي [1] .

لست أرى موضعاً خيراً من هذا الموضع لاذكر شيئاً او شيئين آخرين يبدوان لي ذوي أهمية ، فاذا دوّنا أكدا من جميع النواحي صفة المعقولية في قصة الحوت الأبيض ، وبخاصة جانب الكارثة منها . اذ أن هذه القصة من الأمثلة المؤيسة المثبطة التي يحتاج فيها الصدق ما يحتاجه الكذب من ركائز ودعامات . ومعظم الناس على البر يجهلون أبسط عجائب الكون واكثرها واقعية ، فاذا لم تزودهم بمعلومات وتعليقات تمس الحقائق البسيطة من تاريخية وغيرها في مهنة التحويت ، فقد يسخرون هازئين من موبي ديك ويرون قصته أسطورة مرعبة ، او ربما عدوها أمثولة قصصية مخيفة لا تطاق ، وهذا أمر أسوأ من الاول وأدعى للمقت .

أولاً : لدى معظم الناس بعض أفكار غامضة عابرة عن المخاطر العامة في السماكة الكبرى ؛ إلا أنه ليس لديهم تصوّر ثابت حيوي عن تلك المخاطر وعن مدى تكرر حدوثها . وربما كان أحد الاسباب في ذلك ان تلك الكوارث والمهالك الواقعية التي تحدث عرضاً في السماكة لا يدون منها واحدة من كل خمسين في مدوّن عام ، أياً كان ذلك المدوّن موقت القيمة ينسى على التوّ . هل تظن ان ذلك المسكين الذي ربما علق به الحوت القامس في هذه اللحظة عند ساحل غينيا الجديدة وحمله الى الاعماق البحرية — هل تظن ان اسم ذلك المسكين

---

[1] أناون مقاتل هندي أسره القائد بنجامين تشرتش سنة ١٦٧٦ في رود آيلاند ، وقد نسب ملفل أمر أسره الى القائد بطلر وهذا الثاني ذهب في حملة سنة ١٧٧٨ للقبض على قائد هندي آخر اسمه جوزف برانت .

سيظهر في صفحة الوفيات بالجريدة التي تقرؤها غداً عند الفطور ؟ كلا . لان البريد غير منظم بيننا وبين غينيا الجديدة ؛ بل هل سمعت أبداً ما قد يسمى أخباراً منتظمة تجيء مباشرة او بالواسطة من غينيا الجديدة ؟ ومع ذلك فاني أخبرك عن احدى الرحلات التي قمت بها الى المحيط الهادي وقد ألقينا التحية من سفينتنا على ثلاثين سفينة أخرى بين عديد من السفن ، وفي كل واحد منها قتيل صرعه حوت وفي بعضها غير قتيل واحد ، وفقدت ثلاث منها جميع ملاحي القارب . بالله عليكم اقتصدوا بزيت قناديلكم وشموعكم ؛ ان كل جالون تحرقونه فقد هريق في سبيله على الاقل نقطة من دم انسان .

ثانياً : لدى الناس على البر حقاً فكرة غير محددة عن الحوت وأنه مخلوق هائل ذو قوة هائلة . ولكني وجدت دائماً وأنا أسرد عليهم مثلاً معيناً يصوّر هذا الهول المزدوج انهم كانوا يهنئونني على ما لديّ من ميل للدعابة والظرف بينا انا أقسم أني لا أنوي ان أتفوق في روح الدعابة على موسى حين كتب تاريخ الطواعين بمصر .

ومن حسن الحظ ان المسألة التي أريد ان أقررها في هذا المقام يمكن ان تؤيد بشواهد مستمدة من غيري . وهذه هي المسألة : يبلغ حوت العنبر في بعض الأحوال من القوة والمعرفة وإحكام الضغينة وكأنما هو يدبر الأمور قبل عملها ، مبلغاً يستطيع به ان يخرق سفينة كبرى وان يحطمها تحطيماً وأن يغرقها . وقد فعل كل ذلك .

أولاً : في عام ١٨٢٠ كانت السفينة اسكس من نانتوكت — وقبطانها بولارد — تطوّف في المحيط الهادي . فرأت ذات يوماً نفاثات فأنزلت قواربها وطاردت قطيعاً من حوت العنبر ؛ وبعد وقت غير طويل جرح عدد كثير من الحيتان ، واذا بحوت ضخم جسيم ينجو من القوارب وينطلق من القطيع وينقض

هاجماً على السفينة، ويسدد جبهته نحو هيكلها فيشقها شقاً حتى انها في أقل من «عشر دقائق» أخذت تهوي منقلبة . ومنذ تلك اللحظة لم يرَ أحد لوحاً من ألواحها ؛ وبعد أشد ضروب الهتك وصل بعض الملاحين البر في قواربهم؛ ثم لما استقر القبطان بولارد بعض الوقت في وطنه أبحر مرة أخرى نحو المحيط الهادي يقـــود سفينة اخرى ولكن الآلهة حطمت سفينته مرة أخرى فوق صخور وأمواج مجهولة . ومرة ثانية فقد سفينته تماماً فآلى على نفسه ان لا يعود للبحر ولم يحاول العودة منذ يومئذٍ . ولا يزال بولارد القبطان قاطناً في نانتوكت حتى اليوم، وقد رأيت أنا أوين شيس رئيس ضباط السفينة اسكس حين حدثت تلك المأساة وقرأت الحكاية الصريحة الصادقة التي دوّنها وتحدثت الى ابنه وكان ذلك على بعد بضعة اميال من موقع الكارثة * .

---

* اليك مقتطفات مما حكاه شيس : «كانت كل واقعة تؤكد لي مستنتجاً ان لا دخل للحظ والمصادفة في توجيه أعماله فقد قام بهجومين على السفينة بينهما فترة قصيرة وكلتاهما حسب وجهتها كانت محكمة لتوقع بنا أشد الأذى اذ كانت رأسية وبذلك تجمع سرعة الجسمين المتصادمين لدى احداث الصدمة وكي يحقق ذلك كانت التحفزات والتهيؤات التي قام بها ضرورية . كان منظره مخيفاً، وكان يعبر عن الاستياء والهياج. جاء رأساً من القطيع الذي تغلغلنا بينه قبلاً وضربنا ثلاثة منه فكأنما اشتعل بنار الانتقام من اجل آلام اصحابه». ويقول : «وفي جميع الظروف ارى ان الاحداث اذا أخذت مجتمعة، وكلها حدثت بعينيّ وانتجت حينئذ انطباعات في ذهني، بأن الحوت يعزم على ايقاع الاذى ويقدّر ويحسب (وكثير من هذه الانطباعات قد نسيته فلا أذكره) اقول: أرى ان الاحداث تغريني بأن اقنع ان رأيي كان صواباً .

وهذه هي تأملاته بعد وقت من مغادرته للسفينة اثناء ليلة مظلمة في قارب مكشوف وهو يكاد ييأس من بلوغ مرفأ امين : «لم يكن المحيط المظلم والمياه المتدافعة شيئاً مذكوراً . كذلك الخوف من ان تبتلعني عاصفة مخيفة او تقذف بي على صخور خفية وغير ذلك من الموضوعات التي تعرض لخاطر الخائف – كل ذلك لم يعلق بذهني لحظة وانما الذي ظل يخايل افكاري ويعتصرها هو التحطم الكئيب ومنظر الحوت الرهيب وثأره حتى انبلج الفجر» .

وفي موضع آخر ص : ٤٥ يتحدث عن «تلك الهجمـــة العجيبة المهلكة التي شنها ذلك الحيوان» .

ثانياً : يونيون اسم سفينة أخرى من نانتوكت فقدت عام ١٨٠٧ بازاء جزر الآزور في هجمة مماثلة ولكني لم أصادف دقائق موثوقة عن هذه الكارثة [1] وان كنت سمعت من الحواتين اشارات عارضة اليها بين الحين والحين .

ثالثاً : منذ ثمانية عشر عاماً او عشرين كان الكومودور ج [2] ... يقود شانية حربية امريكية من طراز رفيع وكان يتناول طعام الغداء مع جماعة من قباطنة التحويت على ظهر سفينة نانتوكتية في ميناء واهو بجزائر ساندويتش ، ودار الحديث عن الحيتان ، والكومودور مرتاح النفس الى التشكك فيما يرويه السادة العارفون بالحواتة من حوله عن القوة المدهشة التي تعزى للحيتان فانكر جازماً مثلاً أن يستطيع الحوت ضرب شانيته الحربية الحصينة بحيث يجعلها ترشح من الماء بما يملأ قمع الخياطة . هــذه ثقة جيدة، ولكن في زوايا الغيب خبايا . بعــد بضعة أسابيع أبحر الكومودور في تلك السفينة الحصينة الى فالباريزو لكن حوت عنبر فخماً جسيماً استوقفه في الطريق ورجاه ان يمنحه بعض لحظات من المسارّة بينهما لتسوية بعض الشئون. وكانت نتيجة تلك المناجاة لطمة سدّدها الحوت الى السفينة فتعطلت كل مضخاتها وذهب الكومودور عامداً الى أقرب ميناء لتسحب فيه السفينة ويصلح ما تعطل منها . لست ممن يؤمنون بالخرافات ولكني أعتقد ان ما جرى بين الكومودور والحوت كان تدبيراً الهياً . ألم يتنصر شاول الطرسوسي بسبب ما ألمّ به من خوف مماثل ؟ تريدون الحق ؟ ان حوت العنبر لا يطيق الفشر والهراء .

---

١ عجيب ان يقول ملفل هذا وهو الذي ينقل كثيراً عن عبيد ماسي مؤرخ نانتوكت، فقد أورد في تاريخه خبراً مفصلاً عن كارثة هذه السفينة .

٢ اكبر الظن انه الكومودور توماس أبو كاتسبي جونز الذي كان يقود « البيكوك »، في رحلة الى جزائر هواي عام ١٨٢٥ .

وأحيلكم ها هنا على « رحلات لانجزدورف » من أجل حادثة صغيرة ذات علاقة بما نحن بصدده وهي من نحو خاص تهم كاتب هذه السطور ولا بد ان تعلموا بهذه المناسبة أن لانجزدورف كان مع الاميرال الروسي كروزنشترن في البعثة الكشفية المشهورة في أوائل هذا القرن . يبدأ القبطان لانجزدورف الفصل السابع عشر من كتابه بقوله :

« في الثالث عشر من ايار (مايو) كانت سفينتنا على أهبة الابحار وفي اليوم التالي كنا في عرض البحر، في طريقنا الى أوختش . كان الجو صافياً جميلاً إلا ان البرد لا يطاق حتى اضطررنا لشدّته ان نحتفظ بما نرتديه من فرو . ومرت بضعة أيام والريح ضعيفة حتى اذا كان اليوم التاسع عشر انطلقت هبة ريح لعوب من الشمال الغربي ؛ واذا حوت جسيم ضخم يفوق في ضخامته السفينة نفسها يكاد يكون على سطح الماء، لكن احداً منا لم يره ونحن على ظهر السفينة إلا حين كادت السفينة وهي مطلقة الاشرعة ان تصادمه حتى كان من المستحيل ان نحول بينها وبين الارتطام به . ووقعنا في خطر داهم حين نصب هذا المارد الجبار ظهره فرفع السفينة مسافة ثلاثة أقدام فوق الماء فترنحت الصواري وهوت الاشرعة جميعاً ووثبنا نحن الذين كنا في العنابر حالاً الى الظهر مخمنين اننا اصطدمنا بصخرة الا انا رأينا – بدلاً من ذلك – ذلك الوحش مبحراً مبعداً في كل وقار وركانة . فأعمل القبطان ديولف المضخات على التوّ ليختبر ان كانت السفينة قد أصيبت بأي ضرر من تلك الصدمة ولكنا وجدنا لحسن حظنا أنها نجت سالمة » .

هذا القبطان ديولف المذكور الذي كان يقود السفينة المذكورة من أبناء نيو انجلند وهو اليوم يقطن قرية دورشستر على مقربة من بوسطن بعد حياة طويلة من المغامرات الفذة كان فيها قبطاناً بحرياً . ولي الشرف أن أكون أنا

ابن أخيه [1] وقد سألته بخاصة عن هذه العبارة في رحلة لانجزدورف فأمّن على كل كلمة وردت فيها وقال ان السفينة لم تكن ابداً كبيرة — كانت سفينة روسية بنيت على ساحل سيبريا واشتراها عمي بعد ان باع السفينة التي أبحر فيها من الوطن .

وقد وجدت مادة أخرى مدونة في أحد تلك الكتب الرجولية التي تقص أخبار المغامرات العتيقة وما كان فيها من صعود وهبوط — اعني رحلة ليونل ويفر احد الأغبياء البلداء من رفقاء الملاح القديم دامبير ؛ وتلك المادة تشبه ما اقتبسته من رحلة لانجزدورف حتى اني أجدني لا أملك إلا نقلها هنا لتكون مثلاً مؤيداً إن احتاج الخبر السابق الى توثيق .

ويبدو ان ليونل كان في طريقه الى جون فرناندو — وهو الاسم الذي يطلقه على ما يعرف اليوم باسم جوان فرناندز — فيقول : « في طريقنا الى ذاك المكان وكانت الساعة تقارب الرابعة صباحاً ونحن على بعد مائة وخمسين فرسخاً من الارض الامريكية أحست سفينتنا بصدمة مخيفة ألقت الرجال في حيرة حتى لا يكادون يعرفون أين هم او فيمَ يفكرون الا أن كل واحد منهم بدأ يستعد للقاء الموت ؛ وكانت الصدمة في الواقع مفاجئة بالغة العنف حتى اننا قلنا دون تردد لقـــد ارتطمت السفينة بالصخور ولكن حين انحسر عنا بعض الدهشة ألقينا المسبار لنسبر الغور فلم يلامس أرضاً ... والمفاجأة في الصدمة جعلت المدافع تثب فوق عرباتها وانطرح كثير من الرجال أرضاً من أسرتهم أما ديفر القبطان الذي كان مضطجعاً ورأسه مستند على مدفع فقد طرح خارج قمرته » . ثم يمضي

---

[1]. القبطان ديولف الثاني ترك الخدمة في البحر وهو في الثامنة والاربعين عام ١٨٢٧ وهو زوج عمة ملفل الكبرى واسمها ماري . قضى ملفل في ضيافته صيف عام ١٨٢٨ في منزله بمدينة برستول في رود آيلاند . وقد عمل مع لانجزدورف من ١٨٠٥ — ١٨٠٧ .

ليونل فيعزو الصدمة الى هزة أرضية ويبدو انه أراد ان يؤيد هذه الدعوى بالدليل فذكر ان زلزلة حدثت في مكان ما حينئذٍ وأصابت البلاد الاسبانية بأذى كبير . ولكني لا استغرب ان تكون الصدمة في غبش تلــك الساعة المبكرة قد سببها حوت لم يره البحارة أخذ يدفع هيكل السفينة من أسفلها في اتجاه قائم .

وقد أتقدم بأمثلة أخرى عديدة عرفتها من غير طريق عن قوة حوت العنبر وشدة ضغنه . وقد عرف منه في غير مثل واحد انه لا يقنع بمطاردة القوارب المهاجمة حتى يردها الى سفنها وانما يلاحــق السفينة نفسها ويقاوم الحراب المقذوفة نحوه من على ظهرها طويلاً وتستطيع السفينة الانجليزية بوسي هول ان تحكي في هذا الشأن حكاية [١] . وأما عن قوة حوت العنبر فدعوني أذكر لكم أنه حدثت أمثلة كانت فيها الحبال المربوطة به وهو هارب تنقل الى السفينة في هدوء وتحفظ فيها ، والحوت يسحب هيكلها الضخم خلال الماء مثلما يسحب الحصان عربة . وكثيراً ما لوحظ ان الحوت اذا ضرب وكانت لديه ندحة للهجوم فانه لا يتصرف تماماً في غضب أعمى وانما يتدبر كيف يقضي على مطارديه بخطط ارادية محكمة . ولعلّ مما يفصح عن طبيعته أنه اذا هوجم فانه كثيراً ما يفتح فمه ويبقيه مفتوحاً في ذلك الامتداد المخيف دقائق عديدة متوالية . ولكني اكتفي بصورة أخيرة واحدة أختم بها هذا كله ، وهي فذة متميزة ولن تعجزوا اذا تدبرتموها عن أن تروا انها أشد الاعاجيب المذكورة في هــذا الكتاب ، ليست فحسب مؤيدة بوقائع صريحة راهنة وانما هذه الاعاجيب (كسائر الاعاجيب) ليست الا تكراراً لما حدث في سالف العصور حتى اننا لنؤمن للمرة المليون على قول سليمان : « ما كان فهو يكون ، والذي صنع فهو الذي يصنع ، فليس تحت الشمس جديد » .

---

١ صادفها حوت عام ١٨٣٥ ، وحكى قصتها بنيت في المجلد الثاني ص : ٢١٨ .

في القرن السادس الميـــلادي عاش بروكوبيوس وهو حاكم مسيحي بالقسطنطينية أيام كان جستنيان امبراطوراً وبلزاريوس قائـداً . وكثيرون يعرفون انه كتب تاريخ عصره فجاء مؤلفاً ذا قيمة غير عادية من كل وجه فطالما عدّه الثقات مؤرخاً موثوقاً لا ينحو نحو الغلوّ إلا في أمر او أمرين لا يؤثران في المسألة التي أود ذكرها :

يذكر بروكوبيوس في تاريخه أنه في أثناء حكمه في القسطنطينية اصطيد وحش بحري جسيم في البحر الاسود او بحر مرمرة بعد ان حطم سفناً في تلك المياه على فترات خلال ما يزيد على خمسين عاماً . ومثل هذه الواقعة المدونة في تاريخ موثق لا يستطاع تكذيبها بسهولة ولا من سبب يدعو لذلك. ولم يذكر لنا المؤرخ من أي فصيلة كان ذلك الوحش، ولكن بما انه كان يحطم السفن، ولأسباب أخرى، فقد كان حوتاً ولا بد، وأنا أرجح بقوة أنه كان حوت عنبر وسأنبئكم عن السبب . طالما توهمت ان حوت العنبر لم يعش ابداً في البحر المتوسط والمياه العميقة المتصلة به . وأنا اليوم واثق من ان هذه البحار ليست وربما لن تكون، والأمور على هذا الوضع ، مكاناً يقيم فيه مستوطناً . غير أن البحوث المستقصاة حديثاً قد برهنت لي أنه وجدت أمثلة متفرقة تشير الى وجود حوت العنبر في البحر المتوسط؛ وقـــد أخبرني الثقة ان كومودوراً اسمه ديفز من البحرية البريطانية وجد على ساحل افريقيا الشمالية هيكل حوت عنـــبر واذا كانت السفينة الحربية تستطيع المرور خلال الدردنيل فحوت العنبر يستطيع ان يمر بنفس الطريق من البحر المتوسط الى البحر الاسود .

وليس في البحر الأسود – حسب علمي – تلك المادة الهامة التي تسمى « القشريات » brit وهي غذاء الحوت الاثين . ولكن لديّ كل ما يسوغ الاعتقاد بأن غذاء حوت العنبر – وهو السبيدج او الحبّار – يكمن في قاع ذلك البحر

اذ وجدت مخلوقات كبيرة من ذلك النوع وان لم تكن اكبر الأنواع على سطحه. فاذا وضعت هذه الحقائق معاً وضعاً ملائماً ونظّرت فيها قليلاً لحظت بوضوح ان الوحش البحري الذي ذكره بروكوبيوس وذكر انه ظلّ خمسين عاماً يخرق سفن امبراطور روماني كان ولا بد ، حسبما تقضي بذلك كل طرائق التفسير والتعليل ، حوتاً من حيتان العنبر .

٤٦

أوهام

وجّه آخاب كل أفكاره وأعماله نحو غاية واحدة كانت حرارة نارها تقتص أطراف نفسه وتأكل حشاشته ، تلك هي القضاء المبرم على موبي ديك . وكأنه كان على استعداد ليضحي بكل رغائب النفس البشرية في سبيل تلك الغاية، لولا ان الجبلة الطبيعية والتمرس الدائب غرسا في نفسه عادات الحوّات المتهمّم الصارم فمنعاه بذلك من ان يتخلى كل التخلّي عن تحقيق تلك الغايات الجانبية الاخرى في الرحلة . واذا لم يكن ذلك كذلك فلأقل انه لم تكن تعوزه دوافع أخرى حافزة. وربما كان إسرافاً في التنوّق ان أقول — وأنا أتمثل تشبثه المجنون بغايته — : لعل حقده على الحوت الأبيض قد بسط ظلّه بعض البسط على حيتان العنبر جميعاً ، فكلما استكثر من ذبح تلك الوحوش تعددت لديه الفرص في أن يكون الحوت الذي يلقاه من بعد هو ذلك الحوت البغيض الذي خرج في طلبه . غير أنا اذا استبعدنا مثل هذا التقدير حقاً بقيت لدينا اعتبارات أخرى لا أراها توازي ضراوة شهوته المستحكمة ، غير انها على ذلك لم تكن عاجزة أيضاً عن الاستبداد به .

كان على آخاب ان يستعمل أدوات ان هو شاء تحقيق غايته ؛ والرجال من بين تلك الادوات التي تستعمل في ظلال القمر هم أشدّها خروجاً على النظام . كان يعلم مثلاً ان ترؤسه على استاربك ، مهما يكن مغناطيسي التأثير من بعض النواحي ، فان ذلك الترؤس لم يستطع ان يبسط ظله على ذلك الانسان ذي النزعة الروحية بأكثر مما يستطيع التفوق الجسديّ ان يستغرق السموّ العقلي في

حومته ، ذلك أن العلاقة بين العقلي والروحي المحض تكاد تكون نوعاً من العلاقة الجسدية . كان في مقـــدور آخاب ان يحتاز جسم استاربك وإرادته المقهورة ما دام يستطيع ان يبقي مغناطيسه مسلـّطاً على عقله ، ثم هو كان يعلم ايضاً ان رئيس الضباط يمقت في قرارة نفسه مأرب قبطانه ، وأنه لو استطاع لتحلل منه مغتبطاً ، بل لحاول ان يبطله ويحولَ دونه . وقد يطول الوقت قبل ان يظهر الحوت الابيض ، وقد تعتاد استاربك ، خلال ذلك الوقت الطويل ، نزعات للاستسلام الى حوافز الثورة المستعلنة ضد رياسة قبطانه ، إلا اذا حدثت مؤثرات عادية لبيقة ظرفية وفعلت فعلها في نفسه. ولم يكن ذلك كلّ ما هنالك، بل ان الجنون الماكر الذي استولى على آخاب بصدد موبي ديك لم يتجلَّ تماماً مثلما تجلـّى في إحساسه الساطع ودهائه البارع حين نظـّر مستبصراً فرأى ان الصيد عندئذٍ يجب ان يجرّد — مؤقتاً — من ثياب الضلال والجحود التي تلبّس بها بطبيعة الحال ، وأنّ الفزع المرعب الذي تنطوي عليه الرحلة يجب ان يظل منزوياً منجحراً — (فقليل هم الناس الذين تصمد شجاعتهم طويلاً أمام التفكير والترقب الطويل الذي لا يخرج توّاً الى حيز الفعل) — وأن ضباطه ورجاله يجب ان يشغلوا أفكارهم بأمور أقرب اليهم من موبي ديـــك في مواقفهم للحراسة والرقابة في الليالي الطوال . نعم ان البحارة الهمج قد هللوا له في تلهف وتهور حين أعلن لهم عن غايته ، ولكن البحارة جميعاً ، أياً كان منتماهم ، على حظ من النزوات ونكث العهود — قلّ او كثر — فهم يعيشون في جو متقلب، ويجرعون في صدورهم أنفاس تقلـّبه ، واذا ربطت نفوسهم الى غـــاية بعيدة خواء من الكسب ، مهما يكن ما تعد به من حياة ورضى عاطفيّ ، فمن الضروري قبل كل شيء أن تهيأ لهم فيما بين ذلك مصالح ومشاغل عاجلة وتبقى نفوسهم معلقة بالضربة النهائية ، لئلا يفسدها الفراغ .

ولم يكن آخاب غافلاً عن شيء آخر : في لحظات العواطف الثائرة الجياشة يحتقر البشر حقاً كلّ الأمور المهينة ، ولكن مثل تلك اللحظات سريعة الزوال .

ولقد قال آخاب لنفسه : ان الحرص الخسيس هو الحال الملازمة التي لا ينفك منها الانسان المخلوق لانها في صميم جبلته . إذن هب ان الحوت الابيض هو الذي يلهب قلوب بحارتي ، هؤلاء الهمج ، وان التحيل على همجيتهم ووحشيتهم يولد في نفوسهم نوعاً من الفروسية السخيّة المعطاء، مع ذلك لا بد لهم ايضاً من غذاء آخر يشبع شهوتهم اليومية الدنيئة ، وان كان غرامهم بالصيد قد يحفزهم لصيد موبي ديك . حتى الصليبيون الفرسان ذوو النخوة والشهامة في العصور الخوالي لم يقنعهم ان يقطعوا ألفي ميل في البر ليحاربوا من أجل الضريح المقدس ، دون أن يقترفوا صنوف السرقة والطرارة (النشل) ويبتزوا أجور الأتقياء الآخرين في طريقهم . ولو أنهم تمسكوا تمسكاً دقيقاً بغايتهم القصوى الجذّابة لانحرف منهم كثيرون عنها نافرين مشمئزين . ولذلك قال آخاب لنفسه : لن أجرّد هؤلاء الرجال من رجائهم في ان ينالوا نقداً — نعم نقداً وعدّاً ؛ قد يزدرون النقد اليوم ولكن اذا لم يلح لأعينهم رجاء في النقد بعد مضي بضعة أشهر ، فان هذا النقد الهادىء سيتمرد دفعة واحدة ، هذا الصرف النقدي نفسه قد « يصرف » آخاب توّاً الى الاستيداع .

ولم يغب عن بال آخاب دافع آخر داعٍ الى الحيطة متصلٌ بشخصه ؛ لعلّ آخاب قد تملكه التسرع حين كشف عن الغاية الكبرى — غايته الخاصة — من سفرة الباقوطة ، ولعلّه أعلن عن ذلك قبل أوانه ، فأصبح على وعي تام بانه حين فعل ذلك قد جعل نفسه عرضة — بطريق غير مباشر — لتهمة الغصب ، وهي تهمة ليس لديه ردّ عليها ، ومن ثم يستطيع بحارته ، ان شاءوا وكانوا كفاءً بذلك ، أن يرفضوا طاعته بل ان ينزعوا الإمرة منه عنوة ، تخلصاً مما قد يصيبهم من قصاص اذا هم شايعوه في الغصب ، وذلك حق لهم من الناحيتين الاخلاقية والقانونية . ولقد كان آخاب ، ولا بد ، أشد شيء رغبة في ان يحمي نفسه من محض الالماح الى تهمة الغصب ومن النتائج الممكنة التي قد تنجم لو أن هذه الفكرة المنزوية المكبوتة قد استعلنت واستحكمت ثمة . ولا تتأتى له هذه

الحماية الا اذا سخّر دماغه المصرّف وقلبه ويده ، وشفعها جميعاً باهتمام يقظ مترصد حاسب ، يرقب كل أثر جوّي دقيق صغير يمكن ان يتعرض له بحارته .

لهذه الاسباب جميعاً ، ولأسباب أخرى لعلها أدقّ من أن يفصح المرء عنها، وجد آخاب في وضوح ان لا بد له من أن يظل مخلصاً اخلاصاً كفاءً بالغاية الطبيعية الاسمية التي تهدف اليها رحلة الباقوطة ، وان يرعى العرف المتبع ، وهذا أيضاً غير كافٍ اذ كان عليه ايضاً ان يقسر نفسه على ان تعلن عن حميته المعروفة المتضرمة في تأديته لمهمته العامة .

ومهما يكن أمر هذا كله فكثيراً ما كان يسمع صوت آخاب ينادي الواقفين على رءوس الصواري الثلاثة وينبههم الى انعام النظر الحديد ، والى ان لا يغفلوا عن الاخبار بما يلوح لأعينهم ولو كان بربوزاً . وبعد وقت غير طويل وجدت هذه الرقابة اليقظة جزاءها وفاقاً .

٤٧ النساج

يومئذٍ كان الاصيل الأول غائماً حاراً ؛ والبحارة يتسكعون على ظهر السفينة خاملين، او يحـــدقون ساهين في الأمواه التي لبست لوناً رصاصياً، وكنت أنا وكويكوج ننسج في دعة ما يسمى «حمالة السيف» لكي نضيف الى قاربنا حبلاً . وكان المشهد كله ساكناً مكمداً وان كان استهلالاً لشيء يعقبه على نحو ما، وقد انبثّ في الهواء سحر من الاستبحار حتى كأن كل بحار صامت قد غار في زوايا نفسه الخبيئة .

كنت رفيق كويكوج او وصيفه بينما كان هو منهمكاً في صنع الحبل. وحين كنت أسدّي وألحم الخيوط بين وشائع النول متخذاً من يدي «مكوكاً» ، وحين كان كويكوج — وهو في وقفته الجانبية يمرر سيفه السنديانى دون توقف بين الخيطان وينظر متكاسلاً نحو الماء، وهو يضع كل وشيعة موضعها الصحيح في غـــير اكتراث او تفكير، أقول : حينئذٍ رانت على السفينة وعلى البحر جميعاً حالة غريبة من الحلم لا يتخللها الا الصوت المتقطع البليد الذي يحدثه السيف، حتى بدا لي وكأن هذا هو «نول الزمن»، وكأني انا نفسي «مكوك» ينسج وينسج آلياً ليعلق بالأقدار. هنالك طاقات السداة المثبتة في المنسج وهي عرضة لذبذبة وحيدة متكررة أبداً غير متغيرة أبداً، وهذه الذبذبة لا تسمح الا بخيوط اللحمة كي تتشابك مع طاقات السداة المثبتة ؛ هذه السداة هي الضرورة، وأنا — كما حدثتني نفسي — أدير بيدي مكوكي وأحيك قدري خلال هذه الطاقات

التي لا تتغير ولا تتبدل، وفي الوقت نفسه يجيء سيف كويكوج، ذلك الحافز السادر، فيضرب اللحمة ضرباً مائلاً أو معوجاً، قوياً او ضعيفاً، كيفما اتفق، وبهذا الفرق في ضربة الختام يحدث مفارقة مماثلة في الطور النهائي من النسيج المستكمل ؛ وقلت لنفسي : ان سيف هذا البربري الذي يمنح الشكل الختاميّ لكل من سداة النسج ولحمته، هذا السيف الهين السادر لا بد ان يكون هـــو المصادفة — نعم المصادفة والارادة الحرة والضرورة، ثلاثة أضداد مجتمعة تعمل معاً متداخلة متضافرة : طاقات سداة الضرورة لا تحيد عن مسالكها المرسومة ولا تتمّ كل ذبذبة مراوحة فيها الا كي تعود الى مستقرها الثابت، والارادة الحرة تظـــل طليقة لكي توجه مكوكها بين الطاقات المقدرة، والمصادفة مقيدة في حركتها خلال خيوط الضرورة حين تتجه يمنة متحركة حركة جانبية بقوة الارادة الحرة، الا ان هذه المصادفة — وان كانت موجهة بقوة الاثنتين — تتحكم بدورها فيهما، وترسل الضربة التي ترسم الملامح النهائية للأحداث .

* * *

كنا ننسج مسترسلين حين أجفلتُ لدى سماع صوت بالغ الغرابة مديد وحشي الموسيقى مستنكر الوقع، حتى ان فلكة الارادة الحرة سقطت من يدي، ووقفت أشخص ببصري الى الغيوم من حيث سقط علينا ذلك الصوت كأنه حفيف أجنحة، فرأيت في الأعالي الشاهقة على مرقاة المرقب ذلك الجايهيدي الأحمق طاشطيقو . كان قد دفع جسمه الى الامام في تهوّر المتحمس، ومدّ يده كأنهـــا عصا الساحر ، ومضى يرسل صرخاته اثر لحظات قصيرة من التوقف المفاجىء . وأنا على يقين ان مثل ذلك الصوت في تلك اللحظة ربما انبعث من مئات المراقب العلوية في سفن الحواتة، وتردد في أرجاء البحار جميعاً، ولكن قل ان تجد فيها صوتاً شبيهاً بالصوت الذي كان يرسله طاشطيقو الهندي فانه استمدّ من صدر صاحبه المتمرّس المحنك في هذه الشئون وقعاً عجيباً .

ولو انك رأيته محلقاً من فوقك، معلقاً نصفه في الفضاء، محدقاً نحو الأفق في وحشية واندفاع، لظننته كاهناً او عرافاً يشهد أشباح القدر ويعلن عن قدومها بصرخاته الغريبة .

– هناك ينفث ! هناك ! هناك ! هناك، ينفث ! ينفث !

– أين ! أين !

– قبالة مستعرض السفينة وفق المهب، على بعد ميلين ،

هناك قطيع منها .

وسرعان ما أصبح كل شيء في حركة واضطراب .

ان حوت العنبر ليرسل نفثاته كدقات الساعة في وقع منتظم لا يختل ولا يضطرب، وبهذه النفثات يميز الحواتون هذا الحوت من سائر الأسر التي تنتمي الى نوعه .

وصاح طاشطيقو عندئذٍ يقول : « هـا هي الذيول تبدو » ، واختفت الحيتان .

وصرخ آخاب : « عجّل يا سفرجي ؛ الوقت ! الوقت ! »

وأسرع الغلام العجّان نازلاً، ولمح الساعة، وأعلم آخاب بالوقت .

كانت السفينة حينئذٍ قد جعلت تجري بلطف أمام الريح، وقال طاشطيقو : ان الحيتان قد قمست في الماء وفق المهب، فأخذنا نتطلع اليها واثقين من قوله، فرأيناها بعيداً على سمت مقدمة السفينة . ولحوت العنبر حيلة فذة يستعملها

أحياناً ويعرفها كلّ من تمرس بالتحويت أعني أنك قد تراه مصمم الرأس في اتجاه ما، ثم يسبر الماء ويختفي تحت سطحه ويدور دورة الطاحونة وهو ما يزال مختفياً ، ويسبح بخفة في اتجاه مضاد ، غير أنه لم يأتِ هذه الخدعة حينئذٍ ولم يكن ما يحمل على الظن بأن الحيتان التي رآها طاشطيقو قد أصيبت بالذعر او عرفت حقاً بأننا على مصاقبتها. وجاءت نوبة بديل للهندي في المرقب بأعلى الصاري الرئيسي، فنزل وحلّ محلّه أحد الذين يختارون عادة لحفظ السفينة — وهؤلاء الحفظة هم الذين لا ينزلون في قوارب الصيد . ونزل البحارة الذين كانوا عند الشراع الامامي او عند المظين ، وثبتت براميل الحبال في مواضعها، وجهزت الروافع، وقوّيت سنادة الشراع الرئيس وتدلت القوارب الثلاثة متأرجحة فوق البحر كأنها ثلاث سلال من السمار تدلت من ريد الجبل . وعلى جوانب هيكل المركب تدلى ملاحوها المتحمسون وكل منهم يمسك طرف الحاجز الحديدي باحدى يديه ويرجو ان يحطّ احدى قدميه على حرف السفين . هل رأيت صفاً طويلاً من جنود بارجة على أهبة ان يقذفوا بأنفسهم فوق سفينة العدو ؟

لكن في تلك اللحظة الحرجة سمعت صيحة مفاجئة حولت كل الابصار عن الحوت . وأجفل الجميع وهم يبصرون آخاب الأسود وقد أحاطت به خمسة أشباح قاتمة كأنما تمخض عنها الفضاء لتوّها .

٤٨ القوارب تنزل أول مرة

كانت الأشباح – وماذا أدعوها وقد بدت كذلك ؟ – تمرق على الجانب الآخر من ظهر السفينة وتفك عـــلائق القارب وأربطته ، حيث تدلـّى ، في سرعة لا حسّ فيها. وكان البحارة يظنون دائماً ان هذا القارب هو أحد القوارب الاحتياطية ، وان سموّه بالنظر الى موقعه باسم قارب القبطان ، اذ كان معلقاً بجنب ربعة الجانب الأيمن من السفينة ، وكان الزّول الواقف عند مقدمته طويلاً مكمد اللون ذا ناب واحـــد أبيض ناتىء نتوءاً مشئوماً من بين مشفريه الفولاذيتين ، وقد تسلب حول جذعه صدارة صينية « مكرمشة » من القطن الأسود وسروالاً أسود واسعاً من ذلك القماش الغامق نفسه . وكان هذا السواد الآبنوسي قد توج على نحو غريب بعمامة متلألئة بيضاء جعدة هي شعره الأصيل وقد ضفره وجعله يلتف ويتلوّى عقاصاً حول رأسه . أما رفاق هذا الزول فكانوا أقل من صاحبهم كمدة وقتاما، ذوي بشرة في صفرة النمر يتميز بها بعض السكان الأصليين من أهل جزر مانيلا ، وهو جنس مشنوع بنوع من الشيطانية في المكر والدهاء، ويظنه بعض البحارة البيض الطيبين جواسيس لدى الشيطان، سيدهم ومدبرهم ، وهم عمـــلاؤه الموثوقون في السرّ يرسلهم على وجه الماء وهو يستخدمهم ويكمن – حسب ظنهم – في موضع آخر .

وبينا كان رجال السفينة يتطلعون في دهشة نحو أولئك الغرباء كان آخاب

يهيب برئيسهم الشيخ ذي العمامة البيضاء صائحاً : « أكلّ شيء على أتم استعداد يا فيض الله [1] ؟ »

فيجيبه هذا بصوت بعضه كالصفير : « أتم استعداد » .

فيصيح آخاب عبر ظهر السفينة : « أنزلوا قواربكم اذن . أتسمعون ؟ أقول: أنزلوا قواربكم » .

كذلك كان هزيمُ صوته الراعد حتى ان الرجال ، على ما تملكهم من دهشة ، وثبوا فوق حرف السفينة ودارت البكرات في محاجئها ، وسقطت القوارب في البحر فتفاجّ لها صدر الماء . ووثب البحارة وثبة المعزى من جانب السفينة المتدحرج ، الى القوارب المتدفعة ، بجرأة رشيقة لا تعرف المبالاة ، ولا يحسنها غيرهم في أية حرفة من الحرف .

وما كادوا يبتعدون عن جسم السفينة من الجانب البعيد عن الريح حتى تبدى قارب رابع آت من الجهة المواجهة للمهب فاندفع حول المؤخرة ، وظهر الغرباء الخمسة وهم يجذفون بآخاب وقد وقف منتصباً في مؤخرة القارب ودعا استاربك واسطب وفلاسك لكي يوسعوا ضربات المجاذيف حتى يقطعوا مسافة

---

١ يمثل فيض الله الروح الشريرة التي تسلطت على آخاب ؛ وسيتضح ذلك في الفصول التالية أثناء تصوير العلاقة بين الرجلين وقد ورد اسم « فضل الله » في قصة من الف ليلة تحكى، حكايته مع امرأة اسمها زمردة لخصت الى الانجليزية . وهو ملك الموصل ذو الفضائل العظيمة الذي سعد بزواجه من زمردة ، يخدعه درويش بفكرته عن تقمص الارواح فيحل في جسده ويملك ملكه وزوجته ، اما روح فضل الله فتحل في وعل ثم في بلبل تربيه الملكة وترعاه ؛ ويبدو ان ملفل منح اسم الامير الفاضل للدرويش المحتال ، وظن الحكاية فارسية فجعل « فضل الله » او « فيض الله » مجوسياً ، غير عارف ان هذا الاسم الاسلامي لا يطلق على شخص مجوسي .

أطول على الماء . ولكن بحارة القوارب الاخرى سمروا نظراتهم في فيض الله الأسود ورفاقه فلم يمتثلوا للأمر استغراقاً .

وقال استاربك : « من ذا ؟ القبطان آخاب ؟ »

فصاح آخاب : « وسّعوا مدي التجذيف ، لا تتشددوا أنتم بحارة القوارب الاربعة جميعاً وأنت يا فلاسك ، جذّف في مَيْلٍ وفق المهب .

فصاح « الدعامة الكبرى » في جذل وهو يحوّل مجذافه الكبير الامامي : « نعم . نعم . سيدي » ثم خاطب بحارته قائلاً : « ميلوا للخلف ! ها هو ! ها هو . هناك مرة أخرى . أمامنا ينفث على خــط مستقيم أيها الفتيان ، ميلوا للخلف ! »

— « حوّل عينيك عن هؤلاء الفتيان الصفر يا آرشي » .

فقال آرشي : « سيدي . انا لا آبه لهم . لقد كنت أعرف كل هذا من قبل . ألم أسمعهم وهم في العنبر ؟ ألم أخبر كاباكو بما سمعت ؟ ما رأيك يا كاباكو ؟ لقد كانوا « مهربين » في خفية يا سيد فلاسك » .

— « جدفوا . جدفوا يا قلوب الشبان الفتية ، جدفوا أبنائي ، جدفوا يا صغاري » — كذلك كان يتنهد اسطب وهو يحفز بحارته في هذرمة ومصانعة ، اذ كان بعضهم ما يزال يبدي بعض امارات القلق والنفور : « لأي شيء توفرون أصلابكم ، لمَ لا تكسرونها نشاطاً يا فتياني ؟ فيمَ تحدقون ؟ في هؤلاء الفتيان أصحاب القارب الآخر ؟ هه ! ما هم إلا خمس أيدٍ أخرى جاءت لتساعدنا — لا يهمنا من أين جاءوا — زيادة الخير خير . جدفوا هيا ، جدفوا ؛ لا تهتموا بطلاء القار على وجوههم — فالشياطين رفاق طيبون . كذا . كذا ، أحسنتم .

تلك ضربة مجذاف تسوى ألف جنيه ، تلك ضربة تكسب الرهان وتكفل الفوز ، مرحى بكأس ذهبية من زيت العنبر يا أبطالي . مرحى ثلاثاً يا رجال يا ذوي القلوب القوية . على رسلكم ، على رسلكم . لا عجلة، لا عجلة ؛ لم توفرون مجاذيفكم فلا تقصفونها حمية يا خبثاء يا أراذل ! عضوا على شيء ما يا كلاب ! كذا . كذا إذن ، على مهلكم ، على مهلكم ! هو ذاك ، أحسنتم ، باعدوا المسافة وادفعوا بقوة . أريحوا ، أريحوا هنالك ! ركبكم الشيطان يا أفاقين يا معدمين . كلكم نائمون . أبطلوا الشخير يا نوّام وجدفوا . ادفعوا ، ألا تدفعون ؟ جدفوا ، ألا تستطيعون ؟ هيا اعملوا ، ألا تريدون ؟ جدفوا واكسروا شيئاً ما ، جدفوا واجعلوا أعينكم تندر من محاجرها شدّاً . انظروا » . -- واستل مديته الحادة من نطاقه وقال : « ليسحب كل ابن انثى منكم مديته ويجدف وهو واضع شفرتها بين أسنانه . تماماً ! هكذا ! ها أنتم قد صنعتم شيئاً يذكر ؛ مثل هذا كنت أريد ، يا شظايا الفولاذ ! اخرقوه عنفاً ! اكسروه تجديفاً ، يا معالق الفضة ، يا مخارز ! »

تسمحت بايراد « ديباجة » اسطب هذه التي كان يلقيها على بحارته ، دون ايجاز ، لانه كان ذا طريقة فذة في التحدث اليهم بعامة ، وبخاصة حين يريد أن ينقش في أذهانهم أمثولة التجذيف . ولكن اياك ان تظن اذا أنت طالعت هذا الأنموذج من أسلوبه الوعظي أنه كان يستشيط غضباً وهو يخاطب جماعته . لا شيء من ذلك أبداً ، وتلك هي ميزته الفريدة ، فربما وجه لبحارته أشدّ ضروب البذاء والسباب في نغمة تجمع بين مزيج غريب من الفكاهة والهياج ، ويجيء الهياج مقدّراً كأنه « بهار » للفكاهة ، حتى ان أي بحار يسمع هذه الدعوات الغريبة ليهبّ مجذفاً بكل ما أوتي من قوة ويجذف استطرافاً واستملاحاً . أما هو نفسه فقد كان يظل طوال الوقت هيناً ليناً ، يدير مجذافه المقدّم في دعة مسترخية وقد تثاءب او فغر فاه أحياناً حتى ان منظر ذلك الآمر المتثائب ، بقوة المفارقة المحض ، كان يفعل فعل السحر في ملاحيه . ثم ان

اسطب كان من نوع غريب من ذوي الفكاهة ، يجيء مرحهم أحياناً غامضاً على نحو غريب فيجعل مرءوسيهم على رقبة وأهبة في شئون الطاعة والامتثال .

أما استاربك فقد كان يجذف مائلاً عبر مقدمة اسطب امتثالاً لاشارة أرسلها آخاب ؛ ولما تقارب القاربان مدة دقيقة او نحوها نادى اسطب رفيقه الضابط قائلاً :

« يا سيد استاربك . يا رئيس القارب الأيسر . كلمة واحدة يا سيدي ان أذنت ! »

— « هالو » ؛ ردّ عليه استاربك دون ان يلتفت قيد شعرة وهو يتكلم ومضى يحث بحارته في حماسة هامساً . وكان وجهه ازاء وجه اسطب شبيهاً بالصوّان .

— ماذا ترى في هؤلاء الغلمان الصفر يا سيدي ؟

— مهرّبون على السفينة، على نحو ما، قبل ان تغادر الميناء (جدفوا بقوة، بقوة يا فتيان !) « أمر مؤسف يا سيد اسطب » (احموا صدر القارب، هيجوه يا شبان) « لكن لا بأس يا سيد اسطب، نرجو الخير . قل لبحارتك جميعاً ان يجدفوا بقوة وليكن ما يكون » (وثباً يا رجالي وثباً) « أمامنا براميل من زيت العنبر يا سيد اسطب وهذا ما أبحرنا من أجله » (جدفوا يا أولادي) حوت العنبر هو بغيتنا . هـــذا هو الواجب في الاقل ، والواجب والربح متلازمان ! »

فقال اسطب وكأنه يناجي نفسه حين تباعد القاربان : « أجل ! أجل !

ذلك ما فكرت فيه حين وقعت عيناي عليهم، ذلك ما ظننته، أجل ؛ ومن أجل ذلك كان يكثر التردد على العنبر الخلفي حسبما زعم الغلام العجان منذ عهد بعيد . كانوا مختبئين هنالك . والحوت الابيض هو سرّ هذا التدبير كله ؛ حسناً، حسناً، ليكن ما يكون . لا يمكن تلافيه . طيب ! أريحوا قليلاً يا رجال، ليس ما نطارده اليوم الحوت الابيض ! أريحوا قليلاً » .

من عجيب ان قدوم هؤلاء الغرباء الغلاظ في مثل تلك اللحظة الحرجة، لحظة انزال القوارب من على ظهر السفينة، لم يثر في نفوس بعض ملاحي السفينة أي دهشة اسطورية ، وعلة ذلك ان استكشاف آرشي التخميني كان قد شاع بينهم قبل زمن، فأعدّ نفوسهم لتقبل الحادثة بعض إعداد، وثلـّم حدة دهشتهم، ولهذا برئوا من الاوهام الخرافية حينئذٍ ، وساعدهم على ذلك ايضاً طريقة اسطب الواثقة حين ذهب يعلل لظهور أولئك الغرباء؛ غير ان الحادثة تركت مجالاً واسعاً لجميع أنواع الظنون الغريبة حـــول يد آخاب الأسود في الأمر منذ البداية . وتذكرت أنا – في صمت – تلك الاشباح الغريبة التي رأيتها تزحف على ظهر الباقوطة خلال الفجر الاغبش في نانتوكت، وعادت اليّ التلميحات المبهمة التي كان ينثرها ايليا السادر الغريب الشان .

وكان آخاب في الوقت نفسه قد أصبح بمنأى عما يقوله الضابطان، وقد أبعد في الانسياق نحو وجهة المهب وتقدّم بقية القوارب ، وكل ذلك كان ينبىء عن كفاية الملاحين الذين كانوا يدفعون بالتجذيف قاربه. لكأنما كان أولئك النمور صفرةً من فولاذ او عظام حوت، يقومون ويقعدون حسب ضربات من القوة منتظمة كأنهم المرازب الآلية ، فينطلق القارب في الماء كأنه مولد بخار أفقي يذهب منطلقاً من باخرة في نهر المسسبي . أما فيض الله الذي كان يُعمل مجذاف الزرّاق فكان قد ألقى عنه صدارته السوداء وكشف عن صدره العاري وعن كل ذلك الجانب من جسمه الممتد فوق حرف السفين فاتضحت معالم بنيته إزاء

الانخفاضات المتراوحة في الأفق المائي . وأما آخاب فقد كان في الطرف الآخر من القارب وقد مدّ ذراعاً واحدة كأنه مبارز وتقاعس بظهره في الفضاء كأنما يوازن بجلسته أي ميل للسقوط . كان آخاب يسيطر في ثبات على المجذاف المقدّم الموجّه، كأنه هو نفسه آخاب في المرة الألف من انزال القوارب قبل ان يذهب الحوت الابيض بساقه . ورسمت الذراع الممتدة حركة خاصة – دفعة واحدة – ثم بقيت مثبتة حيث هي واذا المجاذيف الخمسة في وقت معاً قد أصبحت كالمناسر . ووقف القارب والملاحون على الماء بلا حراك . وعلى التوّ توقفت القوارب الثلاثة المتباعدة في المؤخرة . كانت الحيتان قد استقرت دون انتظام في القاع الاخضر من غير ان تحدث أية أمارة تدل من بعد على حركتها وان كان آخاب قد لحظها لاقترابه منها .

فصاح استاربك : « لينظر كل رجل منكم على المدى في اتجاه مجذافه، قف، انت يا كويكوج ! »

وثب ذلك البربري بخفة ورشاقة على الصندوق المثلث البارز في المقدمة، ووقف هنالك منتصباً، ونظر بعينين محددتين لاهفتين نحو البقعة التي رئي فيها الصيد آخر مرة . وعلى مؤخرة القارب حيث سطح مستوٍ يصنع مع حرف القارب شكلاً مثلثاً وقف استاربك أيضاً ، وجعل يحاول ان يقف متزناً في برود وكياسة ، والماء يتلعب بتلك الخشبة التي تسمى قارباً ، وأخذ يرمق بعينيه عين الأخضر الطامي في سكون .

ولم يكن قارب فلاسك نائياً وهو منطرح مبهور على صفحة الماء ، وقد وقف قائده بغير اكتراث على قمة « المثقّلة » ، وهي نوع من الدعامة مغروسة في بطن القارب ، وترتفع نحو قـــدمين فوق مستوى دكة المؤخرة ، وتستعمل ليلتف حولها حبل التحويت ، وقمتها ليست أعرض من راحة كف الانسان ؛ وحين

وقف فلاسك على مثل تلك القاعدة بدا وكأنه قد حطّ على قمة صارٍ في سفينة غرقت جميعاً سوى دواليب روافعها . غير أن « الدعامة الكبرى » كان صغير الحجم قميئاً ، وكان ايضاً مفعماً بطموح كبير طويل حتى ان قمة « المثقلة » التي اعتلاها لم تكن لترضيه أبداً .

– لا أستطيع ان أرى مدى ثلاث موجات . أقم لنا مجذافاً هناك ودعني أقف عليه .

فلما سمع دغة هذا اتكأ بيديه الاثنتين على حرف السفين متثبتاً ، وانزلق بخفة نحو مؤخرة السفينة ، ثم انتصب واقفاً وتطوّع بجعل كتفيه مرقاة وقال :

– كمرقب الصاري يا سيدي . ألا تصعد ؟

– ذلك أريد وشكراً جزيلاً يا رفيقي المهذب . كم كنت أتمنى ان تكون أطول مما أنت بمقدار خمسين قدماً .

وعلى الأثر غرس الزنجي العملاق قدميه ضدّ لوحين متقابلين في القارب ، وطأطأ قليلاً ، وقدّم راحته مبسوطة ليضع عليها فلاسك قدمه ثم وضع يد فلاسك على رأسه الذي يشبه التابوت المعلم بالريش وأمره ان يثب اذا هو انتفض، وفي همزة رشيقة واحدة أرسى الرجل الصغير عالياً في الفضاء فوق كتفيه ، وفيما هو واقف هنالك كان دغة يرفــع له ذراعه ليتخذها حزاماً يشدّ بها صدره ويتثبت في موقفه .

ومن كان مبتدئاً في شئون البحر أدهشه في كل وقت ان يرى كيف يحتفظ الحوات بقامته منتصبة في القارب ، وكأن دربته العجيبة قد جعلت مهارته عفو الخاطر حتى حين يتأرجح به القارب في أشد المياه طغياناً وعناداً . وأغرب من

هذا كله ان يراه وقد وقف مترنحاً فوق « المثقلة » نفسها في مثل تلك الظروف .
غير ان مرأى فلاسك الصغير وقد علا فوق كتفي دغة العملاق كان أغرب
المناظر جميعاً ، فقد استطاع ذلك الزنجي الفارع ان يدع جسمه الجميل يتدحرج
في انسجام مع تدحرج الامواج ، وقد نصب نفسه في عظمة هادئة يسرة عفوية
سمحة بربرية ؛ وكان فلاسك فوق عاتقه العريض المغطى بشعر كأنه الكتان يبدو
كندفة الثلج . كانت المطية أنجد من راكبها . وكان فلاسك حقاً مرحاً صخاباً
محباً للتباهي ، الا أنه كان بين الحين والحين يدق بأخمصه في جزع وفروغ صبر
فلا يحرّك في صدر الزنجي الشامخ مزيداً من زفرة واحدة . كذلك رأيت
الشهوة والغرور تدقان بأقدامها وجـــه الارض الحية الكريمة ، فلم أرَ الارض
تغير أزمانها وفصولها بذلك .

وفي الوقت نفسه لم يبدِ اسطب الضابط الثالث اي شوق لابعاد مـــدى
الرؤية . قد تكون الحيتان قامت باحدى قمساتها المنتظمة ، ولم تغص غوصاً
مؤقتاً بداعي الفزع المحض ؛ واذا كان الامر كذلك فان اسطب يصرّ ، حسبما
تعود في مثل هذه الاحوال ، ان يبدد جهامة الزمن المتراخي بدخان غليونه ،
ولذا استخرجه من شريـــط قبعته حيث كان يضعه دائماً مائلا كأنه الريشة ،
وحشاه بالتبغ وسوّى سطحه بطرف ابهامه ، وما كاد يمرّ عود الثقاب عـــلى
سطح يده الخشن الذي يشبه « ورق الصنفرة » حتى انقض فجأة طاشطيقو
مساعده الرمّاح الذي كان قد ثبت عينيه وجهة نشوء الريح كأنهما نجمان ثابتان ،
انقض كأنه الصاعقة من وقفته المنتصبة في مقعده وهو يصرخ صرخات متلاحقة
وكأنما أصابه مسّ من عجلة :

ــ « هيا ، هيا جميعاً ، ووسعوا مدى التجديف ، فهي هناك ! »

لو ان الناظر كان رجلاً من أهل البر لما لاح لعينيه في تلك اللحظة اي حوت

او أية أمارة من سمك الرنجة ، واذن لما رأى إلا قطعة مضطربة من الماء الابيض الضارب الى الخضرة ، ونفثات متفرقة من البخار تحوّم من فوق الماء ، وتنتشر سحباً مع مهبّ الريح كأنها اندفاع مضطرب تحدثه الامواج البيض المتدحرجة . واهتز الهواء من حولها فجأة وتدافع مقشعراً كأنه الهواء الذي يكون فوق صحاف من الحديد أحميت بشدة . ومن خلال هذا التموج والتجعد الجوّي ومن خلال طبقة رقيقة من الماء كانت الحيتان تسبح ، وكانت نفثات البخار التي أرسلتها تتقدم جميع الدلائل الاخرى على وجودها ، كأنها رسلها المقدمون أمامها او طلائعها الراكضة التي انحاشت عنها بعيداً .

وكانت القوارب الأربعة حينئذٍ تقوم بمطاردة جاهدة نحو تلك البقعة التي يضطرب فيها الماء والهواء . ولكنها كانت تنأى فتفوتها ، كانت تتباعد وتمعن في التباعد كأنها مجموعة من الحبب المختلط يحملها جدول سريع منحدر من التلال .

— « جدفوا ، جدفوا يا أولادي الطيبين » ، كذلك قال استاربك لرجاله في همسة هي أشد شيء خفوتاً وأبعده تهمماً واعتمالاً ؛ بينا كانت عيناه تطلقان نظرتين مثبتتين حادتين من عند مقدم القارب في اتجاه عامد مستقيم ، وكأنهما ابرتان مرئيتان في بوصلتين دقيقتين قد أودعتا في صندوقيهما . ومع ذلك فانه لم يكثر التحدث الى ملاحيه ولم يقل له ملاحوه شيئاً ، الا ان الصمت الذي يلف القارب كانت تتخلله بين الحين والحين همسة من همساته الخاصة ، على نحو يستثير الفزع ، فتكون حيناً همسة تملؤها فظاظة الامر وحيناً نعومة الرجاء .

شتان بين استاربك وبين « الدعامة الكبرى » الصخّاب الجعجاع الذي لم يكن يكف عن الكلام : — « غنوا وقولوا شيئاً يا أعزائي . ازأروا وجدفوا أيها الصواعق . جرّوا بي ، جرّوا بي فوق ظهورها السود ايها الغلمان . افعلوا هذا فحسب اكراماً لي وسأتنازل لكم عن مزرعتي في مرتا فنيارد يا أولاد ، بما

في ذلك زوجتي وأولادي ، يا أولاد . اضجعوني هنالك ، اضجعوني ، رباه ، رباه ! سأجن وأنا أحدق : انظروا ! انظروا ذلك الماء الابيض » وما ان أرسل تلك الصيحة حتى نزع قبعته عن رأسه وأخذ يدوسها وينطّ فوقها ، ثم التقطها وطوّح بها بعيداً على الماء ، واخيراً أخذ ينهض ويغوص في مؤخرة القارب كأنه مهر مجنون من مهارى السهوب .

وكان الغليون القصير بين شفتي اسطب حينئذٍ قد انطفأ ، فظل يضغط عليه بأسنانه ، ويتابع الابحار على مسافة قصيرة من قارب فلاسك ؛ فقال وهو يهذرم منتحلاً حكمة الفيلسوف : « تأملوا ذلك الفتى . أصابته نوبة . لا ريب ان فلاسك يصاب بها . النوبات . نعم امنحوه نوبات — تلك هي الكلمة الدقيقة لتصوير حاله — اغرسوا النوبات فيه . جدفوا بمرح ، بمرح ايتها القلوب الحية ، سيكون عشاؤكم بودنج ، وأنتم تعلمون ذلك . المرح تلك هي الكلمة المناسبة . جدفوا أيها الاطفال ، جدفوا ايها الرضّع ، جدفوا جميعاً ؛ ولكن بحق الشيطان لم تستعجلون ؟ هوناً هوناً وثباتاً يا رجالي ، جدفوا فحسب ، وامضوا مجدفين ؛ لا شيء سوى ذلك . اكسروا أصـــلابكم جهداً ، وعضوا على مدياتكم حتى تقصموها وحسبنا هذا . يسّروا ولا تعسروا ، لمَ لا تيسرون — أقول ، لمَ لا تيسرون وتفجّرون اكبادكم ورئاتكم شدّاً !

لكن ما الذي قاله آخاب الغامض لبحارته الذين هم كالنمور صفرة ؟ خير لنا ان لا ندرج تلك الكلمات في هذا المقام لانكم — ايها القراء — تعيشون تحت النور المبارك الذي يشع على هذه البلاد ذات المذهب الانجيلي . ولا يصغي لمثل تلك الكلمات الا حيتان القرش الكافرة في البحار الجبّارة ، حين وثب آخاب خلف فريسته ، وجبينه كأنه الزوبعة ، وعيناه تقدحان بشرر الموت الاحمر ، وشفتاه تتدبقان بنثار الزبد .

وحينئذٍ كانت القوارب جميعاً تشدّ شدّها الجاهد . وكان فلاسك يكرر

التلميح الى الوحش الاسطوري باسم : « ذلك الحوت » ، ويقول ان ذنبه ما يزال يعابث صـــدر قاربه بالشوق المبرح الى ادراكه ؛ وكانت تلميحاته تلك تجيء أحياناً حيوية واقعية ، حتى كانت تجعل واحداً او اثنين من بحارته يسترقان نظرة خائفة الى الوراء ؛ وهذا العمل مخالف لكل قانون ، ذلك ان الجذفين لا بد لهم ان يغرسوا أعينهم أماماً دون التفات ، ويدسوا في أعناقهم سفافيـــد تصلبها عن الحركة ، فقد جرى العرف على أنه ليس لهم من جوارح الا الآذان وليس لهم من أطراف الا الاذرع في مثل تلك اللحظات الحرجة .

وكان منظراً حافلاً بالعجب والرهبة السريعين ! كل شيء فيه يحدث هزة وانتفاضاً . فهناك الامواج الهائلة في البحر الجبار ؛ والهدير الطاغي الأجوف الذي تحدثه وهي تصدم حوافي القوارب الثماني ، كأن القوارب كرات ضخمة في ملعب أخضر مترامي الأطراف ؛ والعـــذاب الوحيّ المتقطّع الذي يقاسيه القارب حين ينقلب لحظة على حافة الامواج المحددة كأنها الموسى ، وكأنها لحدتها توشك ان تشقه نصفين ؛ والغوص المفاجيء العميق في أخوار البحر وأخاديده ؛ والحث والهمز اللاهف لبلوغ قمة الموجة المقابلة، والجرف القائم الزلق في صفحتها الاخرى. أضف الى هذا كله صرخات القادة والرماحين ولهاث الجذفين المرتعد، والمنظر العجيب ـ منظر الباقوطة العاجية وهي تكاد تنقض على قواربها بأشرعة منشّرة كأنها دجاجة مفزعة تلحق كتاكيتها المصئصئة – كل ذلك كان مصدر هزة ومثار ارتعاش . فلا المتطوّع الفجّ الذي انتزع نفسه من صدر زوجته وذهب في غمرة حمّى المعركة الاولى ، ولا شبح الميت وهو يواجه اول طيف مجهول يلقاه في الدار الآخرة ، لا هذا ولا ذاك يحسان بمشاعر أغرب وأقوى من مشاعر ذلك الرجل الذي وجد نفسه لاول مرة يجذف في الدائرة المسحورة المضطربة ، دائرة صيد حوت العنبر .

وأخـــذ الماء الابيض المتراقص الذي أثارته المطاردة يتضح للأعين رويداً

رويداً ، وذلك لازدياد العتمة في ظلال السحب الداكنة التي تنطرح على وجه الماء . ولم تعد نفثات البخار تشتبك وتختلط وانما تعرجت يميناً وشمالاً ، وبدا كأنما الحيتان قد تمايزت آثار مخرها ، فازداد التباعد بين القوارب ، ولحـــق استاربك ثلاثة من الحيتان كانت تجري مستميتة وفق المهب . فنشرنا عندئذٍ شراعنا ، ومع الريح التي ما تزال هابة اندفعنا ومضى القارب في الماء بجنون حتى ان المجاذيف اليسرى لم تكد تثبت في مواقعها حين شاء البحارة ان يعملوها في سرعة كافية .

وبسرعان ما وجدنا أنفسنا نجري خلال غشاوة واسعة منشورة من الضباب فلا نرى سفينة او قارباً .

وهمس استاربك وهو ما يزال يسحب قماش شراعه نحو اليسار : « قدّموا يا رجال ، ما يزال لدينا وقت لنقتل حوتاً قبل حلول العاصف . ها هو الماء الابيض يعود ! قربوا ! اقفزوا » .

وبعيد ذلك سمعنا صرختين متلاحقتين على جانبينا دلتا على ان القوارب الاخرى قد قطعت شوطاً في سرعتها وما كدنا نسمع الصراخ حتى قال استاربك في همسة كالبرق عاجلة : « قف ! » واذا كويكوج يثب واقفاً ورمحه في يده .

ومع أنه لم يكن أحد من المجذفين يواجه خطر الحياة والموت الكائب وهو من أمام ، فان أعينهم كانت مسلطة على وجه الضابط الجاهم في مؤخرة القارب وبذلك عرفوا ان اللحظة الحاسمة قد حلـّت ، وسمعوا أيضاً صوتاً هائلاً متدفعا كأن خمسين فيلاً كانت تتململ في مضاجعها . وفي الوقت نفسه كان القارب ما يزال عائراً بين الضباب ؛ والامواج تتجعد وتصرصر من حولنا كأنها حيات مغضبة قد نفشت قنازعها .

وهمس استاربك : « تلك هي حردبته . أيوه . أيوه اغرز الحديدة فيها ! »

ومن القارب وثب صوت قصـــير مندفع ؛ تلك هي حديدة كويكوج المزروقة . ثم جاءت دفعة خفية من خلف السفينة في اضطراب مجتمع متلاحم الجنبات بينا كان القارب في الامام كأنه يصدم افريزاً ، فانهار الشراع وتشقق، وانطلقت على مقربة منا دفقة من البخار اللذّاع ، وتدحرج من تحتنـــا شيء وانقلب كأنه الزلزلة ، وكاد البحارة يختنقون حين نفضهم القارب شذر مذر في جوف العاصف المنعقد الخاثر . واختلط العاصف والحوت والرمح معاً ونجا الحوت بنفسه اذ أشْوَتِ الحديدة ولم تصب منه مقتلاً .

ومع ان القارب استنقع في المـــاء فانه لم يكد يصيبه أذى . فسبحنا من حوله ، ولممنا المجاذيف العائمة ، وربطناها عبر حرف القارب ثم انكفأنا الى مواقعنا ، وهناك جلسنا والماء يغمرنا حتى الركب ، وقد غطى كل دعامة ولوح ، حتى بدا القارب المعلق أمام نظراتنا المصوّبة قارباً مرجانياً نما بارزاً من قاع المحيط .

وأصبح صوت الريح جؤاراً ، وجمعت الامواج دروعها معاً ، وغدا العاصف كله يزأر وينشعب ويفرقع من حولنا كأنه نار بيضاء في السهوب ونحن نحترق في جوفها دون ان تحيلنا رماداً ؛ كنا خالدين بين فكي الموت ؛ ونادينا القوارب الاخرى فضاعت أصواتنا، كأننا كنا ونحن نناديها في العاصفة كمن يهيب بالفحم الذي لم يكد يعلق به الشرر من خلال مدخنة أتون لاهب . وفي الوقت نفسه زادت ظلمة البخار والطخا والضباب، تلك الثلاثة التي تزجيها الريح لحلول أشباح الليل ، فما نرى للسفينة عيناً ولا أثراً . وحال الموج المتوثب دون أية محاولة لنزح الماء من القارب ، ولم تكن المجاذيف لتجدي لو اتخذناها مرواحات للدفع ، اذ كنا قد جعلنا منها وسائل للنجاة . وبعد محاولات عديدة مخفقة قطـــع

استاربك الرباط الذي يشدّ برميل الثقاب – وهو برميل لا ينفذ منه الماء – ودبر اشعال المصباح في المنور ، ثم علقه على عود وجده لقىً ، ومدّ به الى كويكوج حامل راية ذلك الفريق المنبتّ ، فجلس هنالك وقد رفع ذلك الضوء الواهي في قلب ذلك الضياع الجبّار ؛ هنالك جلس وهو رمز انسان دون ايمان يرفع يائساً رجاءً في حومة يأسٍ محيط .

أما نحن فقد شملنا البلل وانتقعنا وأخذنا ننتفض من البرد يائسين من رؤية سفينةٍ او قارب ، أما نحن فقد رفعنا أعيننا لنواجه الفجر لدن طلوعه . كان ثوب الضباب ما يزال منشوراً على الماء ، والمصباح الناضب ملقى في قاع القارب محطماً ؛ وفجأة نهض كويكوج واقفاً وقد جوّف راحته وراء أذنه متسمعاً ، وسمعنا جميعاً صريراً خافتاً كأنه صرير حبال وسوارٍ ما تزال العاصفة تكتمه ؛ وأخذ الصوت يقترب ويقترب وانشق الضباب الكثيف من حول جسم ضخم مبهم ، وتملكنا الفزع ، غير أنا قفزنا جميعاً في الماء حين لاحت لنا السفينة بمرأى منا وهي تنقض نحونا في مدى لا يزيد كثيراً عن طولها .

وحين كنا على الثبج رأينا القارب المهجور يعوم فوق الامواج وبدا لنا في لحظة وهو ينتفض ويفهق تحت مقـــدم السفينة كأنه شظية في قاع شلال ؛ ثم تدحرج الهيكل الضخم من فوقه واحتجب عن انظارنا حتى ظهر يتقلب في المؤخرة . فسبحنا لنبلغه مرة أخرى واندفعنا نحوه بقوة المـــوج ثم ادركنا السفينة ونزلنا حماها آمنين . أما القوارب الاخرى فانها قبل ان يقترب منها العاصف كانت قد تخلت عن الصيد وعادت الى السفينة في الوقت المناسب . وأما السفينة فكانت قد يئست من العثور علينا ولكنها كانت ما تزال تطوف لعلها تقع على أمارة تدل على مصيرنا المحتوم ، كأن تعثر على مجذاف عائم او قناة رمح طافية .

٤٩

الضبع

في هــــذه الزحمة المختلطة الغريبة التي نسميها «الحياة» أوقات ومناسبات عجيبة يرى المرء فيها الكون كلّه نكتة عملية ضخمة، وان كان لا يستبين فيها براعة التندر الا استبانة باهتة، ولعله ان يكون على مثل اليقين بأنه هو نفسه محور النادرة. ومع ذلك فانه لا يرى فيها ما يثبط همته، ولا يجد ما فيها جديراً بالتنازع. فهو يزدرد كل الأحداث والنِحَل والمعتقدات والحجج وكل الأمور العسيرة مرئية كانت او خفية، لا يهمه ان تكون عقداء شاجرة، كأنه نعامــة ذات قدرة قادرة على الهضم فهي تزدرد الرصاص وشظايا الصوان. أما العقبات والهموم الصغيرة وما قد يحلّ به من مصائب مفاجئة تعرض حياته وأعضاءه للخطر، أما هذه جميعاً وأما الموت نفسه فانه لا يرى فيها الا دعابات ماكرة وإلا جمشات مرحة في الجنب يمنحه اياها الساخر الأعظم السادر المحجوب عن الأبصار. هذا اللون الغريب من المزاج المصابر العنيد، وهو ما أتحدث عنه، لا يستولي على المرء الا في أشد المصائب والمحن، فيتلبس به وهو في غمرة تفانيه حتى ان كل ما سبق له ان رآه شيئاً هاماً ذا بال ليغدو في نظره حينئذٍ جزءاً من تلك النكتة الشاملة. وليس في الأخطار ما يولد مثل هذا اللون الطليق الهين من هذه الفلسفة الرحبة الرعناء كأخطار صيد الحيتان. وبمثل هذه الفلسفة تأملت رحلة الباقوطة وتأملت غايتها الكبرى وهي صيد الحوت الابيض.

وعندما سحبوني، وبذلك سحبوا آخر رجل، الى ظهر السفينة وكنت ما أزال انفض صدارتي ليتناثر منها الماء – عندئذٍ قلت لكويكوج: «كويكوج،

يا صديقي الظريف، هل يحدث مثل هذا الذي حدث كثيراً ؟ » فأفهمني دون ان يحشو كلامه بانفعال، وان كان ما يزال مثلي ناقع الجسم والثياب بالماء، ان مثل هذا الذي حدث يحدث كثيراً .

فتحولت الى السيد اسطب ذلك الرجل البـــارع الجليل الذي كان يدخن غليونـــه في هدوء تحت المطر وقد زرّ عليه صدارته المشمّعة وقلت : « سيد اسطب، أظنني سمعتك تقول ان السيد استاربك رأس الضباط أشد من لاقيته بين جميع الحواتين حيطة وزكانة، اذن فأنا أظن ان الحمل على حوت هارب، دفعة واحدة، والشراع منشور، في عاصف كثيف الضباب، هو ذروة التبصر والتروي لدى الحوّات ؟ »

— « يقيناً ، فقد حدث ان أنزلتُ القوارب لمطـــاردة الحيتان من سفينة مشقوقة يتسرب اليها الماء أثناء ريح هوجاء هبت على مسافة من رأس هورن » .

ثم تحوّلت الى « الدعامة الكبرى » وكان يقف على مقربة منا وقلت له : « سيد فلاسك ! أنت ذو دربة ومراس في هذه الأمور، ولست أنا كذلك، فهل لك ان تخبرني يا سيد فلاسك : أهو قانون لا يتبدل ولا يتحول في حرفة الصيد أن يدقّ المجذّف صلب نفسه وهو يجذف كي يلقي نفسه ويحشر ظهره بين فكي الموت ؟ » فقال فلاسك : « ألا تستطيع ان توجز ؟ — أجل ذلك هو القانون . انني لأحب أن أرى ملاحي القارب يجذفونَ حتى تكاد ظهورهم تلامس وجه الحوت . ها . ها . ان الحوت عندئذٍ ليرد على كل غمزة من أعينهم بغمزة من عينه، لا تنسَ هذا ! »

تحصّل لدي من مشافهة هؤلاء الثقات الثلاثة العدول صورة واضحة للأمر كله . فاذا اعتبرت ان العواصف الجائحة والانقلاب في الماء، وما يتلو ذلك من بيات دون ملجأ أو وقاية على الماء، هي أمور كثيرة الحدوث في هذا النوع من المعيشة ، واذا اعتبرت انني في اللحظـــة البالغة الحرج — لحظة هجومي على

الحوت – أجعل حياتي وديعة في يدي ذلك الذي يوجه القارب – وكثيراً ما يكون في تلك اللحظة نفسها امرءاً بالغ التهوّر والاحتدام حتى ليكاد بذلك ان ينقب القارب بوطئه الهائج المحنق – واذا اعتبرت ان المحنة التي أصابت قاربنا ستعزى في المقام الاول الى اندفاع استاربك في هجومه على الحوت بحيث ألقى بنا أو كاد بين نواجذ العاصف المجنون ؛ واذا اعتبرت أن استاربك على ذلك كله كان مشهوراً بحيطته البالغة في شئون التحويت ؛ واذا اعتبرت انني كنت انتمي الى قارب استاربك ذلك القائد المعروف بحسن التدبر والزكانة ، واذا اعتبرت اخيراً أي شيطان أقحمت نفسي في مطاردته، أعني الحوت الابيض ؛ أقول اذا اعتبرت كل هذه الشئون مجتمعة وجدتني أنزل الى غرفتي واكتب مسوّدة من وصيتي . وقلت لكويكوج : « تعال معي، ستكون انت القاضي والمنفذ والوارث » .

وقد يبدو من الغريب أن يكون البحارة بين الناس جميعاً هم الذين يحرصون على تسطير وصاياهم وشهاداتهم الاخيرة ولكن ليس في العالم كله من هو مثلهم غراماً بتلك الألهية . وتلك كانت رابع مرة في حياتي أخط فيها وصيتي ، فأحسست، بعد ان انتهت المراسيم في المرة الرابعة بأني اكثر راحة وطمأنينة، كأنما انزاح عن صدري حجر كان ثقيل الوطأة فوقه . ثم ان الايام الباقية من عمري ستكون جميعاً طيبة كالأيام التي عاشها لعازر بعد ان بعث من بين الموتى، وذلك ربح اضافي نظيف لعله يبلغ شهوراً أو أسابيع، كيفما كانت الحال . لقد مددت في اجلي وأقفلت خزانة صدري على موتي ودفني ؛ وتلفتُ حولي في سكينة ورضى كأنني شبح هادىء ذو ضمير سليم يجلس وراء القضبان في قبو عائلي وادع مريح .

وقلت لنفسي، وأنا أطوي لاشعورياً أكمام صدارتي : ها أنا على أهبة أن أقوم بغوصة نحو الموت والفناء وأنا رابط الجأش هادىء النفس، حقق الشيطان الختام .

٥٠ قارب آخاب وملاحوه – فيض الله

. صاح اسطب قائلا : « من كان يتصور ذلك يا فلاسك ! لو كانت لدي رجل واحدة لما وجدتني في قارب الا ان أكون فيه لكي أسد احد الثقوب بطرف قدمي الخشبية . اوه ! انه لشيخ عجيب ! »

فقال فلاسك : « لا أراه امراً غريباً بعد كل هذا من أجل ما تقول، فلو كانت رجـــله مقطوعة من جانب الورك لكان الأمر مختلفاً، فذلك يعجزه ويقعده ، ولكن لديه ركبة وجزءاً صالحاً من ركبة اخرى كما تعلم » .

– « لست أعرف ذلك، يا رفيقي فأنا لم أره ابداً يركع» .

* * *

كثيراً ما كان موضوع حياة القبطان في التحويت موضع جدل بين الناس المعنيين بتلك الحرفة، فحياته بالغة الأهمية في إنجاح السفرة، واذن : فهل من حقه ان يجازف بها في أخطار المطاردة والصيد ؟ كذلك كثيراً ما تجادل جنود تيمورلنك والدموع تترقرق في مآقيهم : هل من حق قائدهم ان يزج بحياته الغالية في حومة القتال ؟

غير ان المسألة اتخذت وجهاً محوّراً في حال آخاب : ما دام المرء وهو ذو رجلين صحيحتين لا يعدو ان يكون مخلوقاً أقزل في أوقات الخطر، وما دامت

مطاردة الحيتان تتم تحت صعاب كبيرة فريدة على الدوام، وما دامت كل لحظة على حدة تنضح بالخطر حقاً، فهل من الحكمة في شيء تحت مثل هذه الاعتبارات أن ينزل امرؤ معطّل في قارب تحويت أثناء الصيد ؟ ان الشركاء الذين يملكون الباقوطة لم يروا ذلك الأمر — على وجهه العام — من الحكمة في شيء .

لقد كان أصدقاء آخاب في الوطن لا يستاءون من أن ينزل آخاب في أحد القوارب اثناء مرحـــلة من المطاردة غير خطرة نسبياً لكي يكون من مشهد العمل على كثب، ويلقي أوامره شخصياً، أما أن يكون لآخاب قارب مخصوص ويكون هو القائد الأعلى في الصيد، أو أن يزود آخاب بخمسة رجال آخرين ليتخذهم ملاحين في قاربه، أما ذلك فقد كان آخاب يعرف حق المعرفة انه نوع من الخيـــال السخيّ الذي لا يمكن ان يتغلغل في رءوس أصحاب الباقوطة . ولذلك لم يسألهم ان يزودوه بملاحين لأحد القوارب ولا ألمح الى رغباته في ذلك الأمر . الا أنه اتخذ تدابير خاصة من لدنه بشأن تلك المسألة ؛ وما كان للبحارة ان يتكهنوا بما دبره حتى ذاع ما اكتشفه كاباكو، وان كانت الأيدي جميعاً قد أنجزت حقاً تهيئة قوارب التحويت للعمل، وذلك عمل مألوف يتم بعد الابتعاد عن الميناء . وبعد وقت قصير كانوا يرون آخاب بين الحين والحين يشغل نفسه ويدق بيديه المسامير التي يرتكز بينها المجذاف في قارب كانوا يحسبونه أحـــد القوارب الاحتياطية ، بل كان ينجرُ — في رقبة الحذر — السفافيد الخشبية الصغيرة التي تدق فوق الميزاب في مقدم السفينة حين يرسل حبل الصيد في الماء. حين رأوا ذلك منه ورأوا بخاصة لهفته ليغلف قاع القارب بطاق آخر كأنه يريده ان يتحمل وطأة رجله العاجية المدببة، وعندما شهدوا القلق الذي أبداه وهو يصمم بدقة سناد الفخذ أو القليط الأرعن، كما يسمونه أحياناً، وهو قطعة أفقية في مقدم السفينة تشد اليها الركبة عند زرق الحوت أو طعنه ؛ وعندما لحظوا كيف يقف كثيراً في ذلك القارب وقد أثبت ركبته السليمة في التجويف النصف الدائري في القليط وقوّره بازميل النجار قليلاً هنا وسوّاه مستقيماً ،

قليـــلا هنالك ، أقول حين شهدوا هذه الأمور جميعاً ايقظت لديهم رغبةً واستطلاعاً حينئذٍ ، ولكن كاد كل امرىء منهم ان يظن بأن هذه العناية الاستعدادية الخاصة لدى آخاب انما هي رجاء صيد موبي ديك في النهاية، اذ كان قـــد أنبأهم انه ينوي هو بنفسه صيد ذلك الوحش، الذي كُتب عليه الموت . ولكن مثل هذا الظن لم يشمل بأي حال أيّ توهم بعيـــد حول وجود ملاحين معدّين لذلك القارب .

وتلاشى مـــا تبقى من عجب حين ظهر الأشباح التوابع، لان الأعاجيب تتلاشى سريعاً في قوارب التحويت . ثم ان مثل هذه النفايات التي تأتي من أمم غريبة والتي لا تجد لها تعليلاً تجيء بين الحين والحين من الزوايا المجهولة وحفر النفايات في الارض لتزيد الى الشذاذ الخارجين لصيد الحيتان، وكثيراً ما تلتقط السفن مثل هذه المخلوقات الغريبة المنبوذة التي تجدها يتلعب بها الموج فوق ألواح أو شظايا من حطام او مجاذيف او قوارب تحويت او زوارق او ينكات يابانية تصرفها الريح او أي شيء من هذا القبيل ؛ وان « بعل ذباب »[1] نفسه قد يتسلق أحد جوانب السفينة ويتقدم الى القمرة ويحادث القبطان فلا يثير ذلك في منارة السفينة دهشة مستبدة مستحكمة .

ولكن مهما يكن أمر هذا كله، فانه لمن المؤكد ان هؤلاء الاشباح التوابع وجدوا مواضعهم بين الملاحين وان ظلوا متميزين منهم على نحو ما، الا فيض الله الذي تتوج رأسه عمامة من شعر فانه ظلّ لغزاً ملففاً حتى النهاية . من أين جاء الى عالم كذلك العالم ؟ بأي نوع من رابطة لا تعليل لها وجد نفسه على التـــوّ مرتبطاً بمقدرات آخاب، منتحلاً نوعاً من نفوذ ملموح ؛ علم ذلك عند الله بل لقد

---

١ يجيء بعد الشيطان في المرتبة، في « الفردوس المفقود » وفي سفر الملوك الثاني ١ : ٢ يرد بعل زبوب اسماً لاحد الهة الفلسطينيين في عقرون .

كان فيض الله ذا سيطرة عليه؛ تلك أمور لا يعلمها أحد. غير ان المرء لا يستطيع ان يقف من أمر فيض الله منتحلاً عدم المبالاة؛ فقد كان مخلوقاً كالذي يراه أهل المنطقة المعتدلة المتمدنون الآلفون في مناماتهم، ويكاد الشبه ان يكون باهتاً، ولكن أمثاله ينسابون آونة وآونة بين المجتمعات الأسيوية غير المتغيرة وبخاصة الجزائر الشرقية الواقعة الى الشرق من القارة – تلك البلدان الجزرية الأزلية التي لا يتبدل وجهها، التي لا تزال تحتفظ حتى في هذه العصور الحديثة بكثير من الأصالة الشبحية كما تمثلها اجيال الارض البدائية حين كانت ذاكرة الانسان الأول لا تعرف النسيان، وكان كل الناس نسلاً له لا يعرفون من أين أتى، ويرمق أحدهم الآخر كأنهم أشباح حقيقية، ويسألون الشمس والقمر لِمَ خلقا ولأية غاية وحين كان الملائكة أنفسهم – كما يقول سفر التكوين [1] – يتخذون لهم زوجات من بنات الناس؛ وزعم الحاخامون المتزيـــدون ان الشياطين أيضاً انغمسوا في ضروب من العشق الارضي .

---

[1] في سفر التكوين ٦ : ٢ وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الارض وولد لهم بنات من ابناء الله رأوا بنات الناس انهن حسنات فاتخذوا لانفسهم نساء من كل ما اختاروا .

٥١ النفاثة الشبح [١]

مرّت أيام وأسابيع والباقوطة العاجية تنساب في بطء وريح ليّنة رخاء، فقطعت بذلك أربعة مجالات من مواقع التطواف : الموقع المقابل لجزر الآزور والثاني عند رأس فرد والثالث على « البلاط » — سمّي كذلك لانه على مسافة من مصب نهر ريو دي لبلاطه — وموقع كارول وهو مجال مائي مهول الى الجنوب من سنت هيلانة .

وفي احدى الليالي المقمرة كانت الامواج تتدحرج متلاحقة كأنها أدراج من الفضة، وتنشر باهتزازاتها الناعمة ثوباً من الصمت الفضي لا من العزلة الموحشة؛ وفيما السفينة تنساب خــلال الموقع الرابع من مجالات التطواف في ليلة من تلك الليالي الصامتة تجلت للأعين نفاثة فضية أمام الحبب المتكوّر قدّام السفينة، وتبدت وقد ضوّأها القمر سماوية كأنها إله متلألىء ينهض من البحر وعلى رأسه ريشة بيضاء . وكان فيض الله اول من تبينها اذ كانت عادته في هــذه الليالي الأضحيانة ان يعلو المرقاة العليا في الصاري الرئيس ويقف في رقبة هنالك، وهو يحدّق ممعناً كأنه يتولى الرقابة في النهار . ولربما رأى الحواتون في الليل زرافات

---

١ النفاثة الشبح صورة اخرى من القدر الذي ينتظر امرءاً موغلاً في ثقته بنفسه ؛ لقد كان آخاب ينتظر الدم الاسود يتدفق من الحوت فأصبح فريسة للوهم يظن النفاثة الشبح نافورة موبي ديك، فهي رمز للتغرير، رمز للأمل الرواغ، وليس من قبيل المصادفة ان يراها «فيض الله» ويوجه انتباه آخاب اليها .

من الحيتان غير انه لم يكن فيهم من كان يحدث نفسه بمغامرة النزول لهـــا في قارب . ولعلك تقدّر اية مشاعر كانت تستولي على البحارة وهم يرون هذا الشرقي العجوز قد وقف رصداً في الأعالي في مثل تلك الساعات الشاذة ، وقد أصبحت عمامته والقمر رفيقين مصطحبين في سماء واحدة . وقضى فيض الله فترة مكرورة من الترقب خلال عدة ليالٍ متوالية دون أن يتفوه بصوت واحد، ولكن حين انبعث صوته الوحشي بعد هذا الصمت كله، وسمعه البحارة يعلن عن وجود نفاثة فضية يضوئها القمر، هبّ كلُّ بحار مضطجع واقفاً على قدميه كأنما حلت روح مجنحة في حبال السفينة وأهابت بالملاحـــين للقاء أجلهم . « هنالك ينفث ! » — لو ان الصور نفخ لما عراهم من الرعشة ما عراهم ، ولم تكن رعشة فزع وانما كانت هزة ارتياح وسرور . نعم انهم لم يتعودوا الهبوب في تلك الساعة غير ان الصيحة كانت بالغة الاثارة، مشحونة بالبحران حتى كادت كل نفس على السفينة ان تتمنى انزال القوارب بدافع الغريزة .

ومشى آخاب على ظهر السفينة بخطوات سريعة حنفاء، وأمر ان تعـــدّ الأشرعة العليا النبيلة والملوكية وان تنشر الاشرعة الخفيفة الجانبية وان يتولى الدفة خير رجل في السفينة ؛ وتدحرجت السفينة المحملة امام الريح وقد استعد الرجال في المراقي العليا فوق الصواري، وعبأت النسمات الغريبة المنعشة الرافعة تجاويف كثير من الاشرعة فجعلت ظهر السفينة المراح المدوّم يحسّ وكأن الريح تريد ان تسمو به ؛ ومضت السفينة مندفعة قدماً كأن عاملين متضادين يتصارعان فيها : واحد يريد ان يتوجه بها نحو السماء وثانٍ يسوقها متثائبة الى هدف على الأفق ؛ ولو انك عاينت وجه آخاب تلك الليلة لخلت ان لديه ايضاً شيئين متباينين يعتركان، فبينما كانت رجله السليمة تبعث أصداء حية سليمة على ظهر السفينة، كانت كل دقة برجله الميتة كأنها دقة على تابوت . كان الرجـــل العجوز يمشي على رجلين من حياة وموت . ومع ان السفينة ذهبت منطلقة عجلى ومن كل عين كانت النظرات اللاهفة تنطلق كأنها سهام الا ان النفاثة الفضية

إختفت فلم تلح تلك الليلة للانظار، وكان كل بحار يقسم انه رآها مرة واحدة ولم يرها مرة ثانية .

وكادت تلك النفاثة التي تتبلج في منتصف الليل تصبح نسياً منسياً حين نادى المنادي بأنها هناك ! بعد بضعة ايام في نفس تلك الساعة الصامتة ؛ ومرة أخرى رآها جميع البحارة، وحين أبحروا لادراكها اختفت عنهم مرة أخرى كأنها لم تكن ابداً . وهكذا ظلت تخايلنا ليلة اثر ليلة حتى لم يعد احد فينا يتنبه لها إلا ليعجب من أمرها، فقد كانت تنبلج في ضوء القمر التم ّ او في ضوء النجوم، حسبما كانت الحال، ثم تختفي طوال يوم كامل او يومين او ثلاثة، وكانت في كل مرة تبدو وكأنها تتقدم ممعنة أمامنا، وكأن تلك النفاثة المتوحدة كانت تغرينا بالمضيّ قدماً .

وبعض البحارة يؤمنون بالأساطير منـــذ الازل ، وللباقوطة نفسها – فيما يبدو – رواء من الخوارق انتحلته في أمور عديدة ، وعلى ذلك لم نعدم بعض البحارة الذين كانوا يقسمون ان تلك النفاثة التي أعيانا اللحاق بها، متى شهدت وحيثما شهدت، مهما تكن الازمان والمسافات في مواطن ظهورها متباعدة، فانها هي نفاثـــة حوت واحد لا غير ، وذلك الحوت هو موبي ديك . وهيمن على النفوس، وقتاً ما، احساس برعب فريد من ذلك الشبح السابح قدّامنا كأنه كان يومىء الينا مخادعاً لنمضي وراءه كي يتحول في النهاية نحونا ويمزقنا في أشد البحار نأياً واستيحاشاً .

واستمدت هذه المخاوف العارضة، الغامضة الرهيبة في آن معاً ، من سكينة الجوّ طاقةً عجيبة ، اذ ظن بعضهم ان سحراً شيطانياً يكمن تحت هذه الوداعة الزرقاء حين أبحرنا أياماً وأياماً خلال بحار ساكنة لطيفة توحي بالاعياء والوحشة،

حتى كأن المسافات كانت تتخلى عما يعمرها من نأمة الحياة أمام مقدمة سفينتنا التي تشبه الزهرية ، رداً منها على مهمتنا الانتقامية الموتورة .

ولكن حين تحولنا أخيراً وجهة المشرق أخذت رياح « الرأس » تجأر من حولنا ، وأخذنا نعلو ونهبط فوق المياه الهائجة هنالك ؛ وحين انحنت الباقوطة ذات الخرطوم العاجي للريـــح انحناءً شديداً وطعنت قلب الأمواج السود في جنونها حتى أخـــذ نثار الزبد يتطاير فوق هيكلها كأنه صوب من شذرات الفضة ، حينئذ زال ذلك الفراغ الموحش الذي لا تعمره حياة وحلت محله مناظر أشد كآبة من ذي قبل .

على مقربة من قيدوم السفينة كانت تنطلق أشكال غريبة في الماء هنا وهناك أمام أعيننا ، وتطير في المؤخرة أسراب كثيفة من غربان الماء ، أمرها محيّر لا يدرك . وفي كل صباح كنا نجد صفوفاً من هذه الطيور قد حطت على الحواجز والدعائم . وكنا نصفر بها لننفرها فلا تزداد الا تشبثاً بالحبال ، وتظل كذلك مدة طويلة كأنها كانت تظن ان سفينتنا مركب غارق لا أنيس فيه ، وأنه مثابة للوحشة المتأبدة ، فهو من ثم يليق ان يكون مجثماً لها تأوي اليه ما دامت بلا مأوى . هذا وصدر البحر المظلم يعلو ويعلو ويظل يزفر دون ارتياح ، كأن أمواجه الشاسعة ضمير حيّ ، والروح الارضية الكبرى تتعذب نادمة على الخطيئة والعذاب اللذين ولدتها .

أيسمونك أيها الرأس : « رأس الرجاء الصالح »؟ ما أجدر ان تسمى « رأس العذاب » كما كنت تدعى في غابر الازمان ؛ ذلك انا بعد ان خلبتنا طويلاً تلك السكينة الغدّارة التي واكبت إبحارنا من قبل وجدنا أنفسنا مطروحين في هذا البحر المعذب حيث مسخت الكائنات الآثمة الى طيور وأسماك ، وكأنما كتب عليها ان تسبح الى الابد دون ان تأمل في مرفأ أمين ، وان تضرب الهواء القاتم

بأجنحتها دون ان ترى أفقاً . الا ان النفاثة المتوحدة كانت تلوح أحياناً هادئة بيضاء كالثلج ، لا تتبدل ، موجهة ينبوع رشاشها نحو الفضاء ، وتومىء الينا ان نمضي في أثرها ، مثلما كانت تفعل من قبل .

واذ كان قتام العناصر جميعاً يرين على كل شيء أخذ آخاب على عاتقه — بعض الوقت — دور الآمر الوحيد على ظهر السفينة الخطر المبلول ، غير أنه مع ذلك كان في أعتى حال من الانحياش المكتئب ونادراً ما وجه الخطاب الى ضباطه . في مثل هذه الاوقات العصيبة العاصفة ، بعد ان يؤمن القائد كل شيء على السفينة وفي أعاليها، لا يتبقى شيء يمكن عمله الا التوقع السلبي لهبوب النسمات . عندئذٍ يصبح القبطان والبحارة جبريين من الناحية العملية ؛ ولذلك كان آخاب يقضي ساعات وساعات يحدق في لهفة المستميت نحو المهبّ ، وقد أدخل قدمه العاجية في الثقب المعهود وأمسك قماش الشراع باحدى يديه إمساك المتشدد ، فلا يوافيه في وقفته تلك الا عاصف او مطر مشوب بالبرد او ثلج يعقد أهداب عينيه برداً . وفي الوقت نفسه يلوذ البحارة هاربين من صدر السفينة بسبب المياه الخطرة التي تثور منفجرة وتترامى فوق المقدمة ، ويقفون صفاً على طول الهيكل عند وسطها ، ويدسّ كل امرىء منهم نفسه في نوع من انشوطة حبل مربوط بالحاجز ، يتأرجح فيها كأنه يلف حوله حزاماً غير مشدود ، كي يحتمي من الأمواج الواثبة . ولا حديث يجري بينهم الا ان يكون بضع كلمات ، وتشق السفينة الجاهدة الصامتة طريقها قدماً خلال جنون الأمواج الشيطانية ومرحها المتوثب وكأنها لم تزوّد برجال وإنما بتماثيل منصوبة من شمع . ويسيطر هذا الخرس الانساني نفسه في الليل على السفينة في مواجهة زعيق البحر ، ويظــل الرجال يتأرجحون في أنشوطاتهم صامتين ، ويظل آخاب الأبكم واقفاً في وجه العصفات ، حتى انه لا يسعى للراحة في سريره حين تبدو الطبيعة المعيية وكأنها تتطلب الارتياح وتستدعيه . وان ينسَ استاربك فلا ينسَ منظر ذلك الشيخ ، وقد هبط استاربك الى القمرة ليقرأ مقياس الضغط الجوّي فرآه ، وقد أغلق

عينيه ، يجلس منتصباً في كرسيه المثبت بالارض، وما تزال حبات المطر وبعض البرد الذائب التي علقت به حين خلـّف العاصفة قبل قليل تتساقط في بطء عن قبعته ومعطفه ، وعلى الطاولة الى جانبه خريطة منشورة من تلك الخرائط التي تحدثنا عنها من قبل وقلنا انها تبيّن المدّ والتيارات ، ومصباحه يتأرجح في قبضته المحكمة المقفلة ؛ وعلى أن جسمه كان منتصباً فقد أمال رأسه الى الوراء حتى ان عينيه المغمضتين كانتا موجهتين نحو ابرة البوصلة التي تتأرجح من عمود مثبت في السقف .

وقال استاربك لنفسه وقد عرته قشعريرة : يا لك من شيخ رهيب ، انك لتنام في هذه العاصفة وأنت ما تزال ترمق غايتك منعماً معتزماً .

٥٢

الفطرس

الى جهة الجنوب الشرقي من « الرأس » عند جزائر كروزيت حيث مجال صالح للتطواف من اجل صيد الحوت الأثين ، لاحت أمامنا سفينة تسمى الغوني او الفطرس. وكنت أقف عالياً عند رأس الصاري الأمامي فرأيتها وهي تقترب في بطء ، وقيض لي ان أشهد عياناً منظراً فذاً لدى الحوّات المبتدىء الضارب في المصايد المائية البعيدة – منظر سفينة حواتة عـــلى الماء طال غيابها عن شواطىء الوطن .

وكأنما الامواج كانت قصّارين اذ كانت هذه السفينة مغسولة كأنها هيكل فظّ قذفته الامواج الى البر ، وكان هذا المنظر الشبحي مخططاً على جوانبـــه بقنوات طويلة من الصدأ الحمرّ ، أمـــا جميع سواريها وحبالها فكانت كأنها فروع كثيفة من شجرات كسيت بصقيع أشمط . ولم تنشر من أشرعتها الآ الاشرعة الدنيا ، وكان منظراً غريباً ان يرى المرء الحراس الطويلي اللحى عند رءوس الصواري الثلاثة ، فقد بدوا وكأنهم يرتدون جلود الوحوش ، وقـــد تمزقت ورقعت تلك الاكسية التي صابرت ما يقارب أربعة أعوام من التطواف . وكانوا يقفون في أطواق حديدية مسمّرة الى الصاري فيتمايلون ويتأرجحون فوق بحر لا قرار له ؛ وحين انسابت السفينة مقتربة من مؤخرة سفينتنا اقتربنا نحن الرجال الستة المعلقين في الفضاء بعضنا من بعض ، حتى لكدنا – لو شئنا – أن نقفز من رءوس صواري سفينة الى رءوس صواري الاخرى، غير ان أولئك الصيادين البائسين الذين طال عليهم الابـــد رمقونا حين مرّوا عنا بلطف ولم

يتفوهوا بكلمة واحدة الى رقباء سفينتنا بينا تأدى الينا من أسفل نداء ينطلق من الربعة :

« يا بحارة السفينة ! هل رأيتم الحوت الابيض ؟ »

ولكن حين همّ القبطان الغريب المستند على الهيكل الشاحب ان يضع النفير في فمه سقط من يده في الماء ، وكانت الريح تهب معاكسة فجاهد عبثاً ليبلغنا صوته . وفي الوقت نفسه كانت المسافة بين السفينتين تتسع . وبينا كان بحارة الباقوطة يرقبون في ضروب مختلفة من الصمت تلك الحادثة المشئومة تقع لسفينة أخرى لدى محض التلفظ باسم الحوت الابيض توقف آخاب لحظة وبدا كأنه يكاد ان ينزل قارباً ليلحق بالرجل الغريب لولا ان الريح الهائجة حالت دون ذلك ، غير انه استغل وجهة الريح فتناول نفيره مرة أخرى ، واذ كان يعرف من مظهر السفينة الغريبة انها نانتوكتية وانها مزمعة في وقت قصير الى الوطن ، نادى بأعلى صوته : « أنتم هناك ! هذه هي الباقوطة ، مزمعة في رحلة حول العالم . قولوا لهم ان يعنونوا جميع رسائلهم في المستقبل الى المحيط الهادي ! واذا مرت على هذه اللحظة ثلاث سنوات ولم أعد الى الوطن فقولوا لهم ان يوجهوها الى ... » .

في تلك اللحظة تقاطع مخرا السفينتين وعلى التوّ انطلقت أسراب من السمك الصغار التي لا أذى منها وكانت حسبما جرت بها عاداتها الفريدة قد سبحت على مدى بضعة أيام في اطمئنان الى جانب سفينتنا ، انطلقت مبعدة وزعانفها كأنها ترتعش ، واصطفت في طليعة ومؤخرة على جانبي السفينة الغريبة . وقد يكون آخاب خلال سفراته العديدة قد شهد مثل هذا المشهد كثيراً ولكن أيسر الهنات تحمل في طياتها معاني لاي رجل مجنون ، مستبد النزوات .

وتمتم آخاب وهو يحدق في الماء قائلاً : « تسبحين مبعدة عني ؟ أليس

كذلك ؟ » وكأن هذه الكلمات لا تحمل الا معنى يسيراً ولكن النغمة نقلت أسى عميقاً لا رجاء فيه لم يعبر عنه الشيخ المجنون كذلك من قبل . غير أنه تحول الى القائم عند الدفة وكان قد كبح السفينة في الريح ليقلل من انطلاقها العامد ، وزأر بصوت أسد هرم قائلاً : « الدفة الى أعلى ! دعها تذهب حول العالم ! »

« حول العالم ! » في هذا الصوت قسط وافر مما يوحي بالمشاعر المستكبرة ولكن الى أين يؤدي كل ذلك التطواف ؟ ليس الا خلال ما لا يحصى من المخاطر حتى نبلغ النقطة التي منها انطلقنا حيث أولئك الذين خلفناهم مطمئنين آمنين كانوا في كل حال قدّامنا .

لو كان هذا العالم سهلاً لا نهاية له وكنا اذا أبحرنا شرقاً نستطيع ان نبلغ الى الابد مسافات جديدة ونستكشف مناظر أحلى وأغرب من أي جزر تسمى ككلادس او جزر الملك سليمان ، اذن لكان في رحلتنا بشائر خير ؛ ولكن مـا دمنا نلاحق مغيبات بعيدة نحلم بها او نطارد في عذاب ذلك الشبح الشيطاني الذي يلوح سابحاً بين الحين والحين ، أمام جميع القلوب البشرية ، أقول مـا دمنا كذلك نسعى فوق هذه الكرة فان ما نطارده سيقودنا الى تيه يباب او يقف بنا في منتصف الطريق منبتّين هالكين .

٥٣ الجمة[1]

لِمَ لم يذهب آخاب الى ظهر الحوّاتة التي تحدثنا عنها ؟ السبب الظاهري في ذلك ان الريح والبحر كانا ينذران بالعواصف، ولعله لو لم تكن الحال كذلك لما ذهب اليها على اية حال ، ونحن نحكم في هذا الامر على ضوء تصرفاته التالية في مناسبات مشابهة، ان كان في سياق النداء قد تلقى على سؤاله جواباً بالنفي. فقد تبين لنا في النهاية انه لم يكن يحرص على ان ينفق خمس دقائق في محادثـــة اي قبطان غريب إلا ان كان ذلك القبطان يستطيع ان يفضي اليه بخبر عما يشغل ذهنه ويسعى لمعرفته . وقد كان في مقدورنا ان لا نعير هذا الأمر اهتماماً لولا أننا نريد ان نقول شيئاً في العادات الخاصة التي تجري عليها الحواتات حين تلقى احداها الأخرى في البحار النائية وبخاصـــة اذا تلاقتا في مجال مشترك من التطواف .

لو ان غريبين يقطعان يهاء «باين» في ولاية نيويورك او يقطعان سهل سالزبري الذي يشبهها وحشة بانجلترا، لو انهما التقيا مصادفة في مثل تلك البراري الجاهمة الشحيحة لما ضنّ أحدهما على الآخر بالتحية المتبادلة ، من اجل التشبث بالحياة ، واذن لتوقفا لحظة وتبادلا الاخبار ولربما جلسا هنيهة واستراحا في وئام . ما

---

[1] The Gam ، وقد استعملت لفظة «الجمة» في مقابلها للمشابهة ولان اللفظة العربية تحمل معاني التجمع والارتياح، وهي ايضاً من ألفاظ البحريين فجمة المركب البحري هي الموضع الذي يجتمع فيه الماء الراشح من حزوزه، عربية فصيحة، كذا جاء في اللسان .

أحرى ان تفعل ذلك سفينتان حواتتان أبصرت احداهما الاخرى عند حوافي المعمورة والتقتا في يهاء « باين » البحرية وفي سهل سالزبري البحري الذي لا تعرف له حدود — التقتا مثلاً عند جزيرة فاننج المتأبدة او عند «طواحين الملك» وهي أشد تأبداً، أقول ما أحرى هاتين السفينتين في مثل تلك الظروف ان تتبادلا النداءات لا بل ان تتقاربا في وئام ودي وثيق . ولا بد ان يبدو هذا امراً طبيعياً اذا كانت السفينتان تنتميان الى ميناء واحد يعرف قبطاناهما وضباطهما وبعض بحارتهما احدهما الآخر ولديهم لهذا كل نوع من امور الوطنية العزيزة ليتحدثوا عنها .

وقد يكون في السفينة المنطلقة في رحلتها رسائل للسفينة التي طالت غيبتها ؛ وهي على اية حال واثقة من انها تحصل منها على صحف أحدث من آخر صحيفة مهترئة مطموسة المعالم، بمقدار سنة او سنتين . وتتلقى السفينة المنطلقة في رحلتها لقاء تلك الحفاوة آخر اخبار عن التحويت من أرض التطواف التي تزمع نحوها ، وذلك أمر بالغ الاهمية لها . ويصدق هذا كله، الى حد ما، على سفن التحويت التي تعبر الواحدة منها أثر الاخرى في منطقة التطواف نفسها وان كانت مدتا غيابهما عن ارض الوطن متساويتين . إذ قد تكون احداهما تسلمت رسائل منقولة من سفينة ثالثة أصبحت حينئذٍ بعيدة نائية، وقد تكون بعض تلك الرسائل لناس في السفينة التي تلاقيها. هذا الى انهما قد تتبادلان اخبار التحويت ، وتشتركان في أحاديث مناسبة فانهما لا تلتقيان فحسب بكل ما بين البحارة من تعاطف وانما تتقابلان ايضاً بكل ضروب اللطف الناشئة عن وحدة الغاية وضروب الحرمان والاخطار المشتركة .

ثم ان اختلاف البلدان لا يصنع فرقاً جوهرياً أي ما دامت الفئتان تتكلمان لغة واحدة مثلما هي حال الامريكيين والانجليز، وان كان من الامور اليقينية ان مثل هذه اللقاءات لا تحدث كثيراً نظراً لقلة عدد الحواتات الانجليزية، فاذا

حدثت حقاً سيطر الحياء على الفئتين لان الانجليزي متحفظ مثلما ان اليانكي يظن ان ليس في الناس متحفظ إلا"ه . ثم ان الحواتات الانجليزية تنتحل احياناً نوعاً من الاستعـــلاء الذي يمارسه اهل الحاضرة على الحواتات الامريكية ، فالانجليزي يعدّ ابن نانتوكت الطويل النحيل ومنحاه الاقليمي الذي لا يوصف نوعاً من ريفيي البحار ولكن على أي اساس نشأت هذه الاستعلائية فى الحواتين الانجليز ؟ ذلك امر يصعب تقريره اذا تذكرنا ان اليانكيين مجتمعين يقتلون من الحيتان في يوم واحد اكثر مما يقتله الانجليز مجتمعين في عشرة أعوام . ولكن هذه هنة يسيرة من عيب في الحواتين الانجليز لا يأبه النانتوكتي بها كثيراً لانه يعرف ان لديه ايضاً هنات يسيرات .

من ثم نرى ان الحواتات بين سائر السفن المبحرة متفرقة في البحر اشدها حاجة الى التآلف والمؤانسة – وكذلك هي . بينا تجد بعض السفن التجارية تجتاز فوق مخر سفينة اخرى في وسط الاطلسي، وكثيراً ما تعبر ماضية دون كلمة واحدة من تعرف، واحداها تكاد تقارن الاخرى في العبور في البحار النائية وتتقاطع طريقاهما كأنهما غرنوقان في برودواي، ولعلهما ان تنهمكا كل الوقت في نقد متحذلق توجهه كل منهما لما زودت به الاخرى من أدقال وأشرعة وحبال . اما البوارج الحربية فانها اذا اتفق ان تلاقت في البحر أوغلت اولاً في سلسلة من الانخفاض والانحناء البليد اعني تبادل التحايا بخفض الاعلام حتى انه لا يبدو ان لديها نية صافية وحباً اخوياً ابداً؛ وأما فيما يتصل باللقاء بين سفن الرقيق فانها تكون جدّ معجلة حتى ان احداها لتهرب من وجه الاخرى باسرع ما تستطيع . وأما سفن القراصنة فاذا صادف ان تشاجرت ظلالها كان أول نداء يسمع منها : « كم رأساً لديكم ؟ » مثلما ان الحواتين يصيحون سائلين عند اللقاء : « كم برميلاً جمعتم ؟ » فاذا أجابت الفئة الاخرى على السؤال افترقت فئتا القراصنة اذ انهم أوغاد جهنميون في كلتا الفئتين ولا يحب أحدهم ان يمعن في رؤيته لصورة وغديته مجسمة في وجه أخيه .

ولكن تأمل الحوّاتة المتألهة الشريفة المتواضعة المضياف المؤانسة الطليقة الهينـــة اللينة ! ماذا تصنع عندما تلاقي حواتة اخرى في جوّ رحيم ؟ تصنع « جَمّة » – شيئاً لا تعرفه اطلاقاً السفن الاخرى بل انها لم تسمع باسمه، واذا سمعت بـــه اتفاقاً سخرت منه وكررت أقوالاً عابثة عن « النفاثات » وعن « مراجل الشحم » وغيرها من التعبيرات الجميلة . لِمَ كان كل بحارة السفن التجارية وكل القراصنة ورجال البوارج الحربية وملاحي سفن الرقيق ينطوون على مشاعر الاحتقار نحو سفن التحويت ؟ هذا سؤال تعسر الاجابة عنه . ولكني أقول : أود ان اعرف ان كانت حرفة القراصنة ذات مجد خاص بها مقصور عليها . نعم انها تنتهي بصاحبها أحياناً الى علوّ رفيع، إلا أنه علوّ في حبـــل المشنقة وحين يرفع المرء بتلك الطريقة الغريبة لا يكون لارتفاعه أساس صحيح اذن فأنا أرى ان القرصان حين يتبجح بأنه اعلى مقاماً من الحوات فليس لديـــه موطىء صلب لهذه الدعوى يقف عليه .

لكن ما « الجَمّة ؟» قد تبلي ابهامك وأنت تعلو به وتهبط في أعمدة المعاجم دون ان تعثر على هذه الكلمة . فالدكتور جونسون لم يبلغ به علمه اللغويّ تلك اللوذعية، وسفينة نوح وبستر لم تحمل مثلها، ومع ذلك فان هذه اللفظة المعبّرة قـــد أصبحت دارجة في الاستعمال منذ بسنوات كثيرة بين خمسة عشر ألفاً او نحوهم من اليانكيين الخلّص . ولا ريب في أنها تحتاج تعريفاً ولا بدّ من ان تدرج في المعجم ، ومن اجل هذه الغاية احاول ان أعرفها تعريفاً علمياً دقيقاً فأقول :

الجَمّة : اسم، ومعناها اجتماع ودّي بين حواتتين (او اكثر)، وغالباً ما يكون ذلك في مجالات التطواف . وبعد ان تتبادل السفينتان النداءات يقوم ملاحو القوارب بتبادل الزيارات، فيبقى القبطانان بعض الوقت على ظهر احدى السفينتين ويبقى الضابطان الرئيسان على ظهر الاخرى .

وهناك نبذة صغيرة اخرى عن الجمّة يجب ان لا ننساها في هذا المقام: لكل حرفة خصائصها الدقيقة التفصيلية وكذلك الشأن في صيد الحيتان. فحين ينزل قبطان سفينة القراصنة او البارجة الحربية او مركب الرقيق في قارب ويجذف به الملاحون الى مكان ما، يجلس دائماً عند الأشرعة الخلفية على مقعد مريح قد تكسوه حشية احياناً، وكثيراً ما يأمر ان يزود السكان برافعة لطيفة ميلانية مزينة بأشرطة وحبال زاهية الالوان؛ أما قارب الحواتة فليس فيه مقعد في المؤخرة ولا حشية من ذلك النوع ولا رافعة أبداً. ومن النادر حقاً ان تجد قباطنة التحويت يؤخذون في القوارب على «حمار خشبي» كما يحمل الشيوخ المنقرسون في محفّات. وأما الرافعة فانها مظهر مخنث تأباه قوارب التحويت؛ ولذلك يغادر السفينة طقمٌ كامل من الملاحين، كما يحدث في الجمّة، وبما ان القائم على الدفة او الرماح يعد واحداً منهم فان هذا المرءوس هو سيد الموقف في تلك المناسبة وأما القبطان فانه يؤخذ الى الزيارة واقفاً كشجرة الصنوبر اذ ليس له مكان للجلوس. وكثيراً ما تلحظ ان هذا القبطان الواقف يدرك ان أعين العالم المنظور جميعاً تتجه نحوه من جانبي السفينتين، فهو لذلك يعي أهمية احتفاظه بعزته فيظلّ مثبتاً رجليه، وليس هذا بالأمر السهل اذ ان وراءه مجذاف التوجيه البارز الضخم، يدعّه بين الحين والحين في أم ظهره، ويجيبه الجذاف الخلفي فيقرع ركبتيه من أمام. فهو «مكبوس» تماماً من خلف وقدّام، ولا يستطيع ان يمد نفسه إلا الى الجانبين وذلك بأن يحط على رجليه الممدودتين؛ إلا ان أية وثبة مفاجئة عنيفة يقوم بها القارب، كثيراً ما يبلغ بها ان تقلبه، لان طول الأساس لا ينفع دون عرض مماثل؛ فانك لو وسعت الزاوية بين عمودين لما استطعت ايقافهما ثابتين؛ ثم ان هذا القبطان الذي تفاجّت رجلاه لا يليق به ان يبدو أمام أعين الكون المحدقة وقد تماسك ادنى تماسك بالقبض على شيء ما بيديه، بل انه ليضع يديه – على وجه العموم – في جيبي سرواله اشارة الى تثبته الذاتي السجيح التام، ولكن ربما كانت يداه على وجه العموم كبيرتين ثقيلتين فهو يضعهما في جيبيه جاعلاً منهما مثقّلاً. ومع ذلك وقعت حوادث

أيضاً، شهد الثقات بصحتها، حيث صادف القبطان لحظة حرجة او اثنتين، كأن يتعرض لحاصب مثلاً، واذا به يقبض على شعر أقرب الجذفين اليه، ويظل متشبثاً به كأنه الموت العبوس.

٥٤

قصة تاونهو

(حسبما رويت في الحانة الذهبية)

رأس الرجاء الصالح وكل المنطقة المائية من حوله كأنها « جهارسوج[1] » او مربّعة تلتقي عندها طرق سلطانية وهناك تلقـى من الرحـّالة اكثر مما تلقى في أي مكان آخر .

ولم يمض وقت طويل على محادثة « الفطرس » حتى التقينا بحواتـــة اخرى مزمعة نحو الوطن اسمها « تاونهو » * وكان جلّ بحارتها من البولونيزيين . وقد اخبرتنا في « الجمّة » القصيرة التي أقمناها أخباراً ذات شأن عن موبي ديك، وكان ما جاء في قصة تاونهو سبباً في ان يزداد الاهتمام لدى بعض الناس بالحوت الابيض على نحـــو غريب ، فقد شملت القصة على نحو غامض حديثاً عن إلمامة عجيبة معكوسة كان الزائر فيها واحداً مما نسميه عادة « الاحكام الربانية » وذلك هي التي تلم — فيما يقولون — ببعض الناس أحياناً . وهذه الحادثة الاخيرة مع مـــا صاحبها من ملابسات خاصة، وهي تمثل ما قد يسمى الجانب السريّ من المأساة التي أهمّ بروايتها، لم تبلغ أذن القبطان آخاب او مسامع ضباطه، ذلك ان هذا

---

[1] من الفارسية «جهار سو» ومعناها مربع . وملتقى الطرق الأربع يسمونه «جهار سواره».

* سميت باسم الصيحة القديمة ! Town-ho عند رؤية الحوت اول مرة من رأس الصاري ولا يزال الحواتون الذين يصيدون السلحفاة النهرية المشهورة (Gallipagos Terrapin) يستعملونها . قلت : ولا احد يعرف معنى هذه الصيحة او اصلها اللغوي .

الجانب السريّ من القصة كان مجهولاً لقبطان تاونهو نفسه وانما كان يعلمه ثلاثة متعاهدون متآلفون من البحارة البيض في تلك السفينة، فأبلغه احدهم، فيما يبدو، الى طاشطيقو وأخذ عليه الايمان الغليظة بالكتمان، ولكن طاشطيقو اخذ يهذي في الليلة التالية في منامه، ونثّ من سرّه كثيراً على ذلك النحو، فلما استيقظ لم يستطع ان يتشبث بكتمان ما تبقى . ومع ذلك فقد كان لهذا الأمر تأثير بالغ في من عرفه من بحارة الباقوطة معرفة جلية كاملة حتى لقد هيمنت على نفوسهم تلك الطرفة العجيبة — ان صحّ ان نسميها كذلك — فاحتفظوا من جراء ذلك بالسرّ فيما بينهم بحيث لم يبلغ في ذيوعه وراء الصاري الرئيس في الباقوطة . ولما كنت قد نسجت هذا الخيط القاتم بالقصة كما سردت علناً على السفينة في الموضع المناسب فأنا اتقدم هاهنا لأخلّد هذه الحادثة الغريبة جميعاً بالتدوين .

وسأحتفظ — ارضاء لمزاجي — بالأسلوب الذي سردتها فيه ذات مرة في ليما على مسامع عصبة متسكعة من اصدقائي الاسبان، في أمسية عيد من اعياد احد القديسين ، ونحن ندخن على باحة الحانة الذهبية، ذات الارض المفروشة ببلاط مُذْهَب سميك . وكان السيدان الشابان بطره وسبسطيان من بين أولئك الفرسان الظرفاء أوثقهم بي علاقة ، ومن ثم جاءت الاسئلة المعترضة التي يطرحانها فأجيب عليها بما تستحقه في الحين :

« قبل حوالي سنتين من معرفتي أول مرة للأحداث التي أهمُّ بقصّها عليكم ايها السادة كانت تاونهو — وهي حواتة نانتوكتية لصيد حوت العنبر — تطوف في مياه محيطكم هذا الهادي، على ليالٍ غير عديدة الى الغرب[1] من شرفات هذه الحانة الذهبية الكريمة . وكانت في مكان ما الى الشمال من خط الصيد . وذات

---

١ في الاصل : الى الشرق، وهو خطأ بيّن .

صباح أعملت المضخات حسب العادة اليومية فلحظ الملاحون ان مقـــدار ما تسرب من الماء الى عنبرها قد تجاوز المعهود . فظنوا – ايها السادة – ان حوت الكبع المسيّف قد أوهنها، إلا ان القبطان لم يرَ الصدع خطراً، وكان لديه ما يقنعه بأن الحظ سيحالفه في تلك المواقع، فكان ينفر من مفارقتها ، ثم ان البحارة لم يجدوا أثراً للصدع حين نزلوا في العنبر الى اقصى ما يستطيعون في مثل ذلك الجو العنيف ؛ ولكل هذه الاسباب مضى الملاحون يعملون المضخات في فترات متباعدة وحماسة فاترة . إلا ان الحظّ لم يواتِ القبطان، ومضت الايام والصدع يتسع وان ظل موضعه مجهولاً ؛ عندئذٍ خاف القبطان وتوجه مبحراً يؤمّ اقرب ميناء بين تلك الجزر لكي ينزع هيكل السفينة ويؤخذ للترميم » .

« ولم تكن المسافة التي ستقطعها السفينة قصيرة ولكن إن واتاها الحظ فان القبطان لم يكن يخشى عليها ان تغرق اذ كانت المضخات سليمة، وكان البحارة يتناوبونها، وعدتهم ستة وثلاثون، وبهذا يستطيعون ان يضمنوا لها النجاة دون عناء كبير، ولا ضير عليها لو اتسع الصدع فأصبح ضعفي ما كان . والحق ان النسمات المسعفة واكبتها في اكثر رحلتها وكان في مقدورها ان تصل في سلامة تامة الى مينائها دون ان يعرض لها ما يرديها في أقل ضروب الخطر لولا عجرفية رادني الوحشية – ورادني هذا هو ضابط فنياردي الاصل – ولولا حب الانتقام الذي استثير بمـــرارة لدى استيلكلت وهو بحيريّ من بفلو متمرس بالخروج والعصيان » .

« فقال الدون سبسطيان وهو ينهض من حشيته المتأرجحة المعبأة بالحشيش : بحيري ! بفلو ! ما البحيري وأين تقع بفلو ؟ »

« تقع على الشاطىء الشرقي من بحيرة إيري ايها الدون ؛ ولكني أقول – وأنا استميحك عذراً – : لعلك ان تسمع بعيد قليل عن هذا كله . هذا البحيري

- ايها السادة — قد تربّى في قلب امريكتنا المغلف باليابسة على تذوق تلك الانطباعات الريفية القرصانية النهّابة التي يعتقدها الناس متصلة بالبحر الفسيح، حين مارس العمل في سفن مربعة الاشرعة واخرى ثلاثية الصواري تقارب في ضخامتها اي سفينة أبحرت من مينائكم القديمة كلاّو حتى مانيلا النائيـــة ؛ لان بحيراتنا العذبة العظيمة — إيري وانتاريو وهيورن وسوبيريور ومتشجن — اذ يتحد ماؤها جميعاً تكون في سعتها مشبهة سعة البحر المحيط، حائزة على كثير من خصائصه الرفيعة، وعلى ما يتمتع به من أجناس ومناخات متنوعة . فهي تحتوي على ارخبيلات ذات جزر سحرية كالأمواه البولونيزية؛ وهي في جزء كبير منها ـ كالمحيط الاطلسي ـ يعيش على ساحلها شعبان عظيمان متباينان، وهي تصلح ان تكون طرقاً بحرية طويـــلة تؤدي من جهة الشرق الى مدننا العديدة التي أنشئت على ضفافها وتطل عليها عابسة من هنا وهناك بطاريات ومدافع ناتئة كأنها الماعز من ماكيناو الشاهق [1] وقد سمعت هذه البحيرات هدير الانتصارات البحرية وأحياناً تفتح صـــدرها لبرابرة همجيين تلتمع أوجههم المغبّرة من اكواخهم المغطاة بالأهب . وعلى مدى فراسخ وفراسخ تقوم على حوافيها غابات عاديّة كثيفة لا يجرؤ على دخولها أحد، وفيها تقف اشجار الصنوبر الضامرة كأنها سلاسل متراصة من اسماء الملوك في أنساب قوطية . وهذه الغابات نفسها مأوى الوحوش المفترسة الافريقية ومأوى مخلوقات حريرية الملمس يصنع من فرائها المصدّر طيلسانات لاباطرة التتار، وعلى صفحاتها تنعكس عاصمتا بفلو وكلفلند المرصوفة شوارعها مثلما ترتسم فيها قرى ونباغو، وعلى سطحها تعوم السفينة التجارية المشحونة، وطرادة الدولة والباخرة والزورق المصنوع من

---

[1] مضايق ماكناك (وهذا هو النطق الصحيح للكلمة) تصل بين بحيرة هيورن ومتشجن، وفي المضايق جزيرة بنى عليها الفرنسيون قلعة عام ١٧١٢ واستولى عليها الانجليز سنة ١٧٦١ واتخذوها مقراً لحماية مراكزهم التجارية حتى ١٧٩٦ عندما تسلمها الامريكيون بموجب معاهدة باريس .

خشب الزان، على السواء، وتهب عليها العواصف البورية التي تحطم الصواري، شديدة مهولة كأي عاصفة تجلد أثباج الموج في البحر الملح، وهي تعرف ما معنى تحطم السفن اذ انها كثيراً ما اغرقت في منتصف الليل سفينة كاملة بكلّ من عليها من ملاحين يصيحون مستغيثين، حين تتوسطها السفينة فتغيب عن الانظار وان كانت البحيرات محفوفة بالبر من جميع النواحي . اذن فان استيلكلت – ايها السادة – وان كان ابن البرّ يعد من ابناء البحر الهيّاج: فيه ولد وفيـــه ترعرع فأصبح بحاراً مقداماً جسوراً شأنه في ذلك شأن أي بحّار . وأما رادني فقـــد نشأ في طفولته على شاطىء نانتوكت المنعزل، ومنحته مياه البحر صدر الأمّ، ولما كبر أطال التجواب في أطلسيكم الجاهم وفي محيطنا الهادي المتأمل، إلا أنه مع ذلك كله كان في تسرعه للثأر وحبه للشجار كأنه ربيب الأجمات المهجورة جاء لتوّه من تلك المناطق التي ما يزال اهلها يستعملون قرون الغزلان نصاباً لمداهم . غير ان هذا النانتوكتي كان امرءاً ذا خلال طيبة، وأما ذاك البحيري – فانه وان كان حقاً بحاراً من جنس الشياطين – فقد أخذ بالحزم المشوب بذلك التقدير لانسانيته ، – والتقدير لانسانية المرء هو أدنى حقوق العبد – أقول : حين لقي استيلكلت مثل هذه المعاملة تقلمت أظفار أذاه وغدا مطواعاً ليناً، وظل على ذلك ردحاً طويلاً، في عدة احداث وشئون . غير ان القدر كان يدفع رادني الى مصيره وأخرجه الحمق عن طوره، وأما استيلكلت...،... لا بأس سأقص عليكم ايها السادة نبأهما » .

« توجهت تاونهو وجهة مينائها الجزري الامين، ولم يكد يمضي على ذلك يوم او يومان حتى بدا وكأن صدعها قد اتسع، إلا ان ذلك كان يتطلب زيادة العمل في المضخات ساعة او غير ساعة يومياً . لا بد لكم ان تعلموا بأن بعض القباطنة لا يرون استعمال المضخات دائماً وهم يجتازون مياهاً هادئة مستكينة كمياه محيطنا هذا الاطلسي مثلاً . غير انه لو مرت بضابط الدكة ليلة ساكنة نعوس واتفق له ان نسي واجبه في هذا الصدد، لكان من المحتمل ان لا يتذكر ابداً هو ورفاقه

البحارة ما كان أنسيه من قبل لان جميعهم سيخلدون وادعين الى السكينة الابدية في قرارة البحر . وليس من الشاذ ان يظل الملاحون – ايها السادة – في البحار النائية المتوحشة البعيدة عنكم الى جهة الغرب يتناوبون « العزف » على مقابض المضخات في جوقة كاملة حتى حين تكون الرحلة ذات طول معقول، أي حين تكون على موازاة ساحل ميسور بلوغه او ان كان قد تهيأ للبحارة ان يلوذوا الى مرفأ أمين . ولا يبدأ قبطان السفينة يستشعر بعض القلق إلا ان كانت سفينته المصدوعة قد ضربت في عرض البحر وأصبح البرّ منها مناط الثريا » .

« وذلك هو عينه ما ألمّ بتاونهو . فعندما تبيّن البحارة ان صدعها قد استشرى أبدى عديدون منهم في الحق بعض اهتمام يسير وبخاصة الضابط رادني فأمر ان ترفع الاشرعة العليا جيداً وان يبالغ البحارة في نشرها من جديد ، وأن توجه بكل سبيل لتلاقح النسيم . وأنا أظن ان رادني هذا – أيها السادة – كان ينطوي على شيء من الجبن وأنه لم يكن بارئاً تماماً من أي نوع من المخاوف العصبية التي قد تلم بشخصه ، كأي مخلوق جريء متهوّر على البر او البحر في مقدور أخيلتكم أن تتصوره على هيئتها . لذا فانه حين أبدى جزع المتوجس حول سلامة السفينة قال بعض البحارة انه انمـا يفعل ذلك لانه شريكٌ في ملكيتها . وحين كانوا في ذلك المساء يُعملون المضخات جرى بينهم تندر ماكر حول ذلك الموضوع اذ كانوا يقفون والماء الصافي المتعرج يتدفق فوق أقدامهم دوماً ، صافياً كأنه ماء نبع في جبل – يا سادة – ويجري عبر ظهر السفينة وقد اندفع والحبب يعلوه من أفواه المضخات ، وينصب في دفقات متلاحقة من ثقوب المصارف في الجانب الأيسر » .

« وأنتم تعلمون علم اليقين انه ان جعل أحد الناس آمراً متسلطاً على بعض اخوانه من بني الانسان ووجد هذا الآمر أحد مأموريه يتفوق عليه فيما تبعثه

الرجولة الحق من زهو واستعلاء ، فليس من الشاذ النادر في عالمنا هذا المعروف — مائياً كان او غير ذلك — ان يضطغن الآمر نحو ذلك المأمور كراهية ومرارة لا تكبحان ، واذا أمكنته فرصة طأطأ من شموخ ذلك الملازم المرءوس وأنحى عليه دقاً وسحقاً ، وجعل مما كان حصناً سامقاً ، كومة محقورة من تراب . ومهما يكن أمر هذا التشبيه الذي أوردته — ايها السادة — فلا مشاحة في ان استيلكلت كان في كل حال حيواناً طوالاً فارعاً ذا رأس كأنه روماني ، ولحية مسترسلة ذهبية كأنها خصـــل الجلال الذي اتخذه واليكم الماضي زينة لجواده الكريم ، وهو ذو قلب وذهن ونفس — أيها السادة — تجعل منه شرلماناً آخر لو كان والد شرلمان له أباً . أما الضابط رادني فكان بشع الخلقة كالبغل ، إلا انه مقدام مثلما هو عنيد حقود . ولم يكن يحب استيلكلت وذلك شيء كان يعرفه هذا فيه » .

واذ رأى البحيريُّ الضابطَ يقترب منه حين كان يعمل جاهداً عنـــد المضخة مع سائر الرفاق ، تظاهر بأنه لا يراه واستمر يرسل دعاباته المرحة دون وجل ، ويقول :

« بلى . بلى . أيها الفتيان المرحون . هذا صدعٌ حيوي نشيط . ليعبىء أحدكم صفيحة من الماء كي نذوقه . والله انه ليستحق الحفظ في زجاجات . أقول لكم يا رجال ان المال الذي يستثمره رادني الشيخ في هذه السفينة سيدفع لقاء هذا المال . خير له ان يفصل ما يخصّه من هيكل السفينة ويسحبه عائداً الى بلده . الحق يا فتيان أن سمك الكبع المسيّف هو الذي ابتدأ هذه الدعابة . وها هو قد عاد ومعـــه عصابة من نجّاري السفن ، من سمك المنشار وسمك المبرد ، وهلم جرا . وها هي الزمرة الحاشدة مكبّة على العمل تقطع وتشق في القعر ، وأظنها تقوم بالترميات والتحسينات. لو كان « راد » الشيخ هنا لأشرت عليه ان يقفز في الماء كي يشتت شملها ، ولقلت له : انها تعيث في أملاكه فساداً

كالشياطين لكن « راد » شيخ ساذج طيب القلب – وهو ايضاً جميل الطلعة . يقال – يا فتيان – انه يستثمر بقية ماله في التجارة بالمرايا ؛ لعلني لو طلبت منه أنموذجاً عن أنفه وأنا البشع المسكين لم يكد يمنحني ذلك » .

« فهدر رادني متظاهراً بأنه لم يسمع حديث البحارة : عمى في عينيكم ! لمَ توقفت تلك المضخة عن العمل ؟ فجّروا منها أصواتاً كالرعد » .

« فقال استيلكلت وهو جذلان كأنه الصرّار : « سمعاً . سمعاً . سيدي – هيا انشطوا ، انشطوا يا فتيان ! » وما ان أتمّ قوله حتى أخذت المضخة تجلجل كأنها خمسون آلة من آلات الحريق . واشتد الرجال وهم ينصبون في إعمالها ولم يمضِ وقت طويل حتى أخذ يسمع لهاث الصدور ، ذلك الذي يدل على ان أقصى طاقات الحياة قد بلغت حدّ التوتر الكامل » .

« ثم ان البحيري غادر المضخة أخيراً هو وسائر عصبته ، وذهب الى الامام وقد استبد به اللهاث ، وجلس على الدولاب الرافع ، وقد احتقن وجهه بحمرة قانية نارية ، وعيناه تقــدحان شرراً ، وهو يمسح العرق الغزير المتصبب عن جبهته . لست أدري اي شيطان ماكر – يا سادتي – تملك رادني حتى دفعه الى ان يتطفل على ذلك الرجل وهو في مثل حالته الجسمانية المنهوكة . ولكن ذلك هو ما حــدث . فان الضابط جاء يذرع ظهر السفينة محتدّاً فارغ الصبر وأمره ان يحضر مكنسة ينظف بها الألواح ، ومجرفة يزيل بها أوساخاً ألقى بها خنزير طليق » .

« وكنس ظهر السفينة في عرض البحر – يا سادة – عمل مألوف يتم دائماً كل مساء بانتظـــام الا في أوقات العواصف الهوج . ومن المعروف انه يتم في حال السفن التي تنخرق حقاً . كذلك هي المرونة في عرف البحر وعادات الملاحــة

— يا سادة ، وكذلك هو حب النظافة السليقي في رجال البحر . فبعضهم يأبى ان يستسلم للغرق قبل ان يغسل وجهه اولاً . ولكن أمر الكنس هذا في كل سفينة موكول الى الغلمان وبه يؤمرون ، ان كان على ظهر السفينة غلمان ؛ ثم ان الذين كانوا يتناوبون العمل على المضخات مقسمين الى فئات هم أقوى الرجال في تاونهو وبما ان استيلكلت كان أقدرهم ساعداً وأقواهم جسماً فانه طالما جعل رئيساً لاحدى تلك الفئات . ومن ثم كان لزاماً على الضابط ان يعفيه من مثل ذلك العمل التافه الذي لا صلة بينه وبين الواجبات الملاحية الصحيحة ، ما دام رفاقه يعفون من ذلك . انني أذكر كل هذه التفصيلات لكي تفهموا تماماً كيف كان الموقف بين الرجلين » .

« وفي هذا الامر ما هو أدهى وأمرّ . فان العمل بالجرفة كان يعني بصراحة تحقير استيلكلت وازدراءه كأن رادني بصق في وجهه . وهذا شيء يفهمه كل من عمل بحاراً في حوّاتة ، وقد أدرك البحيري كل هذا وعرف ما هو اكثر منه عندما ألقى اليه الضابط بالأمر . وتلبث لحظة وحدّد النظر في عيني الضابط الحاقدتين ورأى فيهما اكداساً مكدسة من البارود ، والكبريتُ البطيء يقترب منها في صمت ؛ ولما رأى ما رآه بغريزته ، فان ذلك الحلم والتمنع عن اثارة الحدة الكامنة في شخص غضوب — وهو نفور يحسه الشجعان حقاً اذا اتفق ان تسرب الى نفوسهم أبداً — أقول : ان ذلك الاحساس الطيفي الذي لا يسمى تسلل — ايها السادة — الى نفس استيلكلت » .

« ولذلك أجابه في نغمة صوتية معتادة لا أثر فيها لتغيّر الا ما يتخللها من اضطراب بسبب الانهاك الجسماني المؤقت الذي ألمّ به قائلاً ان كنس السفينة ليس من شأنه وانه لن يقوم به . ومن غير ان يلمح الى العمل بالجرفة أشار الى ثلاثة فتيـــان قال انهم هم الذين يقومون بالكنس عادة وبما انهم لم يؤدوا اي دور في المضخات فان ما عملوه طوال اليوم قليل او كالمعدوم . فكان ردّ رادني

على هذا ان أطلق سباباً مقذعاً في أشد صور الغطرسة والسخط مكرراً أمره دون تحفظ . كل هذا وهو يتقدم نحو البحيري الذي ما يزال جالساً ، وقد رفع في يده مطرقة أحد صناع البراميل ، اختطفها من برميل كان منه قريباً » .

« وعلى الرغم من الشعور المتصل بالحلم والتمنع ، ذلك الشعور الذي لا نجد له اسماً ، فان استيلكلت الذي كان يتصبب عرقاً وقد حمي وهاجه الكد المضني الذي تأبضت به عروقه ، لم يستطع ان يتقبل هياج الضابط الا على مضض ؛ غير انه ظلّ يخمد لهيب النار المتصاعدة في نفسه فبقي دون ان يتكلم متشبثاً تشبث العنيد بمجلسه ، حتى اقترب رادني المهتاج وهزّ المطرقة على بعد بضع بوصات من وجهه ، وأمره والسخط يتملكه ان يطيع ما أمر به » .

« فنهض استيلكلت ، وتراجع ببطء حول الدولاب الرافع والضابط يتعقب خطاه ثابتاً ومطرقة التهديد في يده ، وقال للضابط بصوت العامد الواثق انه لن يطيع أوامره . ولما وجد ان ضبطه لأعصابه لم يكن له أدنى ثمرة أخذ يلمح الماحاً رهيباً لا تعبر عنه الكلمات بقبضة يده ويحذر الرجل الأخرق المتهوّر ، ولكن دون جدوى . وعلى هذا النحو مضى الرجلان ببطء حول الدولاب الرافع ؛ وحين حزم البحيري أمره على ان لا يتراجع خطوة واحدة أخرى اذ قدّر لنفسه أنه قد أبدى من الصبر كل ما يطيقه مزاجه ، توقف عند مدخل العنبر ، وخاطب الضابط قائلاً :

لن أطيع أوامرك يا سيد رادني . أبعد تلك المطرقة او خذ حذرك . ولكن الضابط الذي أعماه القدر ظل يقترب منه، والبحيري ثابت في موقفه، وهزّ المطرقة الثقيلة على مدى بوصة واحدة من أسنانه ، وهو في الوقت نفسه يرسل سيلاً لا يطاق من السباب واللعن . غير ان استيلكلت لم يطرف له جفن ولم يتزحزح في موقفه بما قد يبلغ واحداً في الالف من البوصة، وسدّد الى عين

الضابط. نظرة شزراء كأنهـــا خنجر لا يهتز، ثم جمع قبضته اليمنى وراء ظهره ومدّها الى الوراء منقبضة وأعلم هذا الذي يطارده ان المطرقة ان خدشت خده فانه (أي استيلكلت) سيذبحه . ولكن قوى الشياطين أيها السادة كانت قد ندبت ذلك الاحمق ليقدم على مجزرة . فقد مست المطرقة الخدّ توّاً وفي اللحظة التالية كان فك الضابط الاسفل قد انكسر ووقع على مدخل العنبر وهو يبصق دماً كأنه حوت » .

« وقبل ان تبلغ الصيحة مؤخرة السفينة كان استيلكلت يهز احدى السنادات الخلفية التي تؤدي الى اعلى حيث اثنان من رفاقه يقف كل منهما على أعلى الصاري. كان كلاهما قنالياً » .

« فصاح الدون بطره : قنالياً ؟ رأينا كثيراً من سفن التحويت في موانينا ولكننا لم نسمع شيئاً عن القناليين ؛ عفواً : من هما وما هما ؟ »

« القناليون ايهـــا السيد هم ملاحو القوارب التي تنتمي الى القنال العظيمة قنال إيري [1]. لا بد ان تكون سمعت بها » .

« لا . ايها السيد في هذه البلاد البليدة الساخنة المتكاسلة التليدة لا نعرف الا القليل عن شمالكم الحيّ العتيد » .

« أكذا هو ؟ لا بأس ايها السيد، املأ لي كأسي من جديد فان هذه «الشيشة» التي تشربونها لذيذة، وقبل أن أمضي في حديثي قدماً سأحدثكم عن هؤلاء القناليين لان مثل هذا الحديث قد يلقي أضواء جانبية على قصتي » .

---

[1] انتهى العمل في هذه القنال عام ١٨٢٠ وكان موضع دهشة وفخر لمعظم الاريكيين .

« خلال ثلاثمائة وستين ميلاً هي عرض ولاية نيويورك، خلال مدن عديدة مأهولة وقرى نامية ناجحة، خلال مستنقعات واسعة كئيبة ليس فيها سكان، خــــلال حقول خصيبة مستثمرة لا يضارعها شيء في خصبها، في غرفة للعب البليباردو واخرى لتناول الشراب، خلال « قدس اقداس » الغابات العظيمة، على القناطر الرومانية فوق الانهر الهندية، خلال الشمس والظل، في قلوب سعيدة او تاعسة ، خلال المناظر الشاسعة المتفاوتة في مقاطعات موهوك وبخاصة في صفوف المعابد البيض كأنها الثلوج، و«جرسياتها» سامقة كأنها الصوى المنصوبة: يجري جدولٌ مستمر الجريان من حياة فاسدة كأنها تنتمي الى البندقية، حياة كثيراً ما تكون خارجة على القانون . هنالك هم الأشانتي الخلّص[1] الذين تعرفون ؛ هنالك يعوي الوثنيون الذين تعلمون ، اذا فتحتم ابوابكم وجدتموهم قابعين وراءها في الافياء الوارفة وتحت كنف الكنيسة المريحة التي ترعاهم . اذ ان القدر العجيب هو الذي يجعل المذنبين ايها السادة يكثرون في حمى المعابد المقدسة مثلما ان النهابين والخاربين في المدن يتجمهرون حول قاعات المحاكم » .

« أذاك احد الرهبان ؟ قال ذلك الدون بطره وهو ينظر الى اسفل نحـــو الرحبة المكتظة بالناس ويبدي اهتماماً مرحاً » .

«فضحك الدون سبسطيان وهو يقول : ان محاكم التفتيش التي أقامتها السيدة ايزابيلا لا تطولُ – في ليما – صاحبنا الشمالي . خذ في حديثك ايها السيد » .

«فصاح واحد من الرفقة : معذرة وعلى رسلك ! باسمنا نحن جميعاً ـ ابناء ليما ـ أحب ان أنبئك يا سيدي البحار انه لم تفتنا لباقتك في انك لم تذكر ليما حيث

---

١ افريقيون يقطنون الى الشمال من ساحل الذهب، معروفون بالشجاعة والجرأة وحذقهم في الزراعة والصناعة والتجارة .

ذكرت البندقية في تلك المقارنة التي ذكرتها حول الفساد . لا تطأطىء رأسك وتبدي اندهاشاً ؛ انت تعرف المثل السائر على طول هذا الشاطىء « فاسد مثل ليما » ؛ وقولك عن البندقية ينطبق عليها. الكنائس فيها اكثر عدداً من طاولات البليارد وهي مفتوحة ابداً – والمثل يقول : « فاسد مثل ليما » ؛ كذلك هي البندقية، لقد زرتها ؛ هي مدينة الانجيلي ذي البركات القديس مرقس ! طهّرها من أدرانها يا سنت دومينيك ! كأسك ! وشكراً، ها أنا املأ كأسي مرة اخرى، وانت فصبّ لنفسك كأساً اخرى » .

« اذا اردت ان أصور لكم القنالي في حرفته – ايها السادة – في صراحة وطلاقة – قلت انه قد يتمثل في صورة بطل مسرحي ظريف، فان ما فيه من لؤم ومكر يبدو وفيراً جذاباً . انه مثل مارك انطوني قد يبحر فوق مياه نيله الاخضر المزهر اياماً واياماً في كسل واسترخاء ، وهو يداعب علناً حبيبته كليوبترة ذات الخدين الموردين ، وينضج فخذه المشمشية تحت سفعات الشمس على ظهر السفينة، فاذا نزل الى الشاطىء نحّى عنه هذا التخنث . والقنالي يتنكر في زهو وخيلاء بقناع قطاع الطرق اذ ان قبعته المنكفئة الحوافي المحاطة بشريط زاهي اللون تليق بملامحه الفخمة ؛ يفرق منه اهل القرى ذوو البسمات البريئة حين يمر بهم في قاربه، ويتجافى عن وجهه القاتم ومشيته المتبخترة أهل المدن . ولقد كنت ذات يوم متأففاً في منطقة القنال، فتلقيت من أحد أولئك القناليين خدمات جليلة، اشكره عليها من صميم الفؤاد ولعلني ألا اكون ناكراً للجميل . ولكن من أبرز الصفات التي تكفّر عما سواها في رجل العنف انه احياناً يستعمل ساعده القوي ليعين غريباً في مأزق مثلما ينهب به غنياً . وعلى الجملة فان شِرّة حياة القنال هذه – ايها السادة – تتجلى لكم في ان حرفة الحواتة العنيفة لدينا تحتوي كثيراً ممن تخرجوا في هذه المدرسة التي سميتها القنال وانه قلما تجدون جنساً من الناس لا يوليهم قباطنة الحواتة ثقتهم مثلهم، باستثناء أهالي سدني . وليس يقلل من غرابة هذا الامر ان تكون الحياة التجريبية في القنال

العظمى لدى آلاف عديدة من غلماننا وشبابنا الريفيين الذين يولدون على ضفتها هي التي تمدهم بالنقلة الوحيدة بين الحصاد الهادىء في حقل قمح مسيحي والحرث العابث في مياه البحار الهمجية النائية » .

« فقال الدون بطره في احتدام المندفع وقد دلق شراب «الشيشة» على غضونه الفضية : كذا اذن ! كذا اذن ! لا حاجة بالمرء ليرحل كي يرى الدنيا، كل العالم هو ليما ؛ لقد كنت أظن ان الاجيال في شمالكم المعتدل هادئة مبروكة ركينة كأنها الربى . هات القصة » .

« توقفت — ايها السادة — حيث كان البحيري يهز السنادة الخلفية . وما كاد يفعل ذلك حتى أحاط به الضباط الصغار الثلاثة والرماحون الاربعة وتجمهروا من حوله واضطروه للذهاب الى ظهر السفينة . غير ان القناليين انزلقا هابطين على الحبال كأنهما شهابا رجم واندفعا الى حيث الضجة ، وسعيا لينشلا صاحبهما من حومتها نحو منارة السفينة . وشاركهما بحارة آخرون في هذه المحاولة ونجم على الاثر شغب مختلط ؛ كل هذا والقبطان المقدام بمنجاة من الاذى يثب ويهبط وفي يـــده حربة من حراب الصيد ويدعو ضباطه ان يغلـّوا بأيديهم ذلك الوغد المتوقح الاثيم، وان يقودوه سريعاً الى الربعة التي خلف الدقل الاعظم ؛ وبين الحين والحين كان يقترب من الحدّ الدائري المحيط بالشغب ويحاول النفاذ الى غمرة الفتنة بحربته لكي يطعن بها خصمه الذي كان هدفاً لنقمته . ولكن استيلكلت والبواسل المستيئسين من حوله لم يكونوا لقمة سائغة فاستطاعوا ان يبلغوا الربعة عند منارة السفينة حيث عجلوا فصفـّوا ثلاثة براميل او اربعـــة كباراً معاً عند الدولاب الرافع واتخذ باريزيو البحر من هذا الحاجز « متراساً » يحتمون به » .

« فصاح القبطان هادراً وهو يهددهم بمسدسين في يديه الاثنتين : ابرزوا من حيث انتم، ايها القرصان ؛ ابرزوا من حيث انتم يا سفـّاحين ! »

« فقفز استيلكلت فوق المتراس واخذ يذرعه صاعداً هابطاً، متحدياً شرّ ما قد يفعله المسدسان ، ولكنه جعل القبطان يفهم بوضوح ان موته (اي موت استيلكلت) سيكون نذير تمرد دمويّ يتداعى اليه البحارة جميعاً ؛ وخشي القبطان في قرارة نفسه ان يصحّ هذا القول فأحجم بعض إحجام إلا انه ظلّ يأمر العصاة ان يعودوا توّاً الى واجباتهم » .

« فقال رأس العصيان : « هل تعد بأن لا تمسنا بسوء ان نحن فعلنا ؟ »
— « عودوا ! عودوا ! — لا وعـــد لديّ — الى واجباتكم ! هل تريدون ان تغرقوا السفينة بتوقفكم عن العمل في مثل هذا الوقت ؛ عودوا ! » ورفع مسدساً مرة اخرى » .

« فصاح استيلكلت : « نغرق السفينة ؟ نعم ، لتغرق ! لن يعود واحد منا الا حتى تقسم بأنك لن ترفع علينا طاقة من حبل . ما قولكم يا رجال ؟ »
-- موجهاً الخطاب الى رفاقه — فكان جوابهم هتافاً عالياً » .

« وكان البحيري حينئذٍ يحرس المتراس متطلعاً ، وعينه طوال الوقت على القبطان وهو يطلق بعض العبارات مثل قوله : « هذه ليست غلطتنا . لم نكن نريد ذلك . قلت له أبعد المطرقة . هذا تصرف صبيان . كان عليه ان يعرف من أنا قبل هذا . قلت له : الفتنة نائمة فلا توقظها . أعتقد أنني كسرت اصبعي اذ لطمت فكـّه اللعين . أليست سكاكين « الفرم » في المنارة ، يا رجال ؟ ابحثوا عن العتلات يا أحبائي . ايها القبطان بالله عليك خذ حذرك . تفوه بالوعد . لا تكن أحمق . انسَ كلّ ما حدث . نحن على استعداد لنعود . عاملنا بالحسنى ونحن رجالك . ولكننا نأبى ان نجلد » .

— « عودوا ، لا وعود لديّ ؛ أقول : عودوا ! »

« فصاح البحيري وقد بسط ذراعيه نحو القبطان : تأمل ! ها هنا عدد من البحارة (وأنا منهم) أجبروا من أجل التطواف فقط ؛ أليس كذلك ؟ وأنت تعلم يا سيدي أننا نستطيع ان نستعفي من العمل حالما نلقي المرساة ، لذا فنحن لا نريد نزاعاً ، نحن نسعى للمسالمة ، نحن على استعداد لنستأنف العمل ولكنا نأبى ان نجلد » .

« فهدر القبطان قائلاً : عودوا ! »

« فتلفت استيلكلت لحظة من حوله ثم قال : ها انا أخبرك ايها القبطان اننا لن نقتلك لانا لا نريد ان نشنق مقابل وغد خسيس فلن نبسط عليك يداً الا اذا هاجمتنا . ولكن لن نتزحزح من هذا الموقف الا اذا سمعنا وعدك بأنك لن تجلدنا » .

« اهبطوا في المنارة اذن ، عليكم اللعنة ، سأبقيكم فيها حتى تتمرر عيشتكم. اهبطوا ! »

« فصاح رأس المتمردين مخاطباً رفاقه : « هل نهبط » ؟ ولكن اكثرهم عارض ذلك ، ومن بعد تقدموا استيلكلت ، امتثالاً لأمره ، ونزلوا في المخدع المظلم ، واختفوا وهم يهمهمون كأنهم دببة في مغارة » .

« وما كاد رأس البحيري يصبح على مستوى الألواح حتى قفز القبطان وزمرته من فوق المتراس ، وسحبوا بسرعة رتاج الناروزة ، ودعموها بأيديهم مجتمعة ونادوا قيّم التموين بصوت جهوري ليحضر القفل النحاسي الثقيل الذي يعلق على سلم الهبوط ، ثم ان القبطان وارب الرتاج قليلاً وهمس شيئاً من خلال

الفتحة ثم أغلقه ثانية وأدار فيه المفتاح فحصر وراءه عشرة ولم يبقَ على السفينة الا نحو عشرين او يزيدون ظلوا طوال الوقت لا يتدخلون في النزاع » .

« وقام جميع الضباط بحراسة ساهرة طوال الليـــل في مقدمة السفينة ومؤخرتها وبخاصة حول ناروزة المنارة وحول المدخل الامامي ، اذ كانوا يخشون ان يتخذ المتمردون ذلك الباب طريقاً للانفلات ، بعد ان يشقوا طريقهم من خلال البدنة الواقية في الأسفل . غير ان ساعات الظلام مرت في أمان ، وظلّ الرجال الطلقاء يعملون جاهدين على المضخات ، وظلت صلصلتها وجلجلتها تتردد بين الحين والحين في جنبات السفينة خلال الليل الموحش في كآبة » .

« وعند شروق الشمس تقدم القبطان فدقّ على ظهر السفينة داعياً السجناء الى العمل ، الا انهم ردّوا عليه في صوت واحد بأنهم يرفضون . فأنزل لهم الماء وألقيت اليهم حفنتان من البسكويت بعده ، ثم أدير المفتاح الذي يقفـــل عليهم غيابة سجنهم وعاد القبطان الى الربعة خلف الدقل الأعظم . وقد تكرر هذا مرتين يومياً في مدى ثلاثة ايام ، حتى اذا كان صباح اليوم الرابع تأدى الى الاسماع نزاع مختلط تلاه عراك ، عندما دعي القوم للعودة حسبما جرت بذلك العادة، وفجأة انطلق من المنارة اربعة رجال وهم يقولون انهم راضون بالعودة، ذلك ان نتن الهواء الحبيس ونزورة الطعام ثم ما اجتمع اليهما من خشية القصاص في النهاية ، كل هذه العوامل اضطرتهم للاستسلام من تلقاء أنفسهم ، فاستقوى قلب القبطان اذ رأى ذلك وكرر أمره الى البقية الا ان استيلكلت صرخ فيه متوعداً منذراً بأن يكف عن هذيانه وان يرعى شئون نفسه . وفي اليوم الخامس انطلق ثلاثة آخرون من المتمردين الى الهواء الطلق ناجين من الايدي المستيئسة التي كانت تحاول ردعهم ، فلم يتبق الا ثلاثة » .

« فقال القبطان في سخرية جوفاء : « الآن ! أليس من الخير ان تعودوا ؟ »

فصاح استيلكلت : « أقفل علينا الباب اذا تفضلت ! » فقال القبطان والمفتاح يدور مقرقعاً : آه ، يقيناً ! » .

« عند هذا الحدّ ايها السادة كان السخط قد بلغ مداه لدى استيلكلت بسبب الخذلان الذي ارتكبه سبعة من رفقائه ، وقد شكّ صدره الصوت الساخر الذي سمعه آخر مرة وجن جنونه بسبب دفنه الطويل في مكان يشبه أحشاء اليأس حلكة ؛ وعندئذ اقترح على رفيقيه القناليين ، وكانا حتى ذلك الحين يوافقانه الرأي فيما يبدو ، بأن ينطلقوا جميعاً من ذلك المخدع عندما يستدعيهم الحراس للعودة في اليوم التالي وهم قد تسلحوا بسكاكين « الفرم » الحادة (وهي أدوات طويلة هلالية الشكل ثقيلة ذات مقبضين) وان يثيروا الهياج من الدقل المائل حتى أعلى الكوثل ، وان يستولوا على السفينة اذا نجحوا في مغامرة مستميتة شيطانية . وقال لهم انه هو نفسه سيفعل ذلك سواء رافقاه او تخليا عنه ، فتلك آخر ليلة يقضيها في ذلك المخدع ؛ ولم يبــدِ الرجلان أية معارضة لهذه الخطة وأقسما أنهما على استعداد لأداء ذلك او لأداء اي شيء جنوني آخر ، اي للقيام بأي شيء سوى الاستسلام . بل وألحّ كل منهما ان يتقدم رفيقه في الخروج الى ظهر السفينة حين يجيء موعد الانطلاق ، الا ان قائدهم عارض هذا بشدة محتفظاً بحق السبق لنفسه لانه كان يعلم ان أحد الرفيقين لن يتنازل للآخر في هذا الامر ، ولا يمكن ان يتقدم كلاهما معاً لان السلم لا يتسع الا لواحد . وهنا أيها السادة بدأت اللعبة الخبيثة التي أضمرها كل من هذين الخدّاعين ، وكان لا بد من ان تنكشف » .

« ذلك ان كلاً منهما حين سمع الخطة المتهورة التي وضعها القائد ، انقدحت في نفسيهما فجأة – فيما يبدو – شرارتان متماثلتان من شرر الخيانة ، فحزم كل منهما أمره على ان يكون هو اول من ينطلق ليكون اول الثلاثة استسلاماً وان كان الثلاثة هم آخر العشرة ، وبذلك يضمن اي نصيب يسير من العفو تكسبه

له هذه المبادرة . ولكن حين عرّفها استيلكلت أنه مصمم على ان يكون هو القائد حتى النهاية ، فانها على نحو ما ، استخدما كيمياء الخسة الماكرة في مزج ما زوّراه في نفسيهما من خيانة مكتومة ، فلما ذهب قائدهما في تهويمة كشف كل منهما لأخيه عن طويته في ثلاث جمل ، فقيدا الرجل النائم وكمماه بالحبال وصاحا يستدعيان القبطان في منتصف الليل » .

« واذ ظن ان القتل ميسر له ، وأن رائحة الدم تسطع في الظلام ، اندفع هو وضبـــاطه ورمّاحوه المسلحون نحو منارة السفينة ، ففتحوا الناروزة في بضع دقائق ، وأخرجوا زعيم العصيان – وكان ما يزال يريغ فكاكاً من القيد الذي جمع بين رجله ويده – الى الهواء الطلق يحمله حليفاه الغادران ، وادعيا شرف تكبيل امرىء حائن قد أينع رأسه وحان قطافه . غير أن الثلاثة جميعاً طوّقوا وسحبوا على ظهر السفينة كالغنم الميتة ، وحشروا معاً معلقين بحبال المظـــين كأن كل واحد طرف من ذبيحة وبقوا هنالك معلقين حتى الصباح والقبطان يصيح بهم وهو يخطر أمامهم جيئة وذهوباً : عليكم اللعنة ، ان الجوارح لتستنكف ان تمسّكم أيها الأراذل ! »

« وعند طلوع الشمس استدعى القبطان جميع الرجال ، وفصل الذين تمردوا عن الذين لم يشاركوا في التمرد ، وقال للأولين انه يستحسن ان يجلدهم جميعـًا وأنه يظن على وجه الجملة أنه قد يفعل ذلك – بل يجب عليه ان يفعل ذلك ، فذلك أمر تقتضيه العدالة . ولكن نظراً لأنهم استسلموا في الوقت المناسب فانه في الوقت الراهـــن سيخلي سبيلهم بعد ان يسمعهم تقريعـًا ؛ وعلى أثر ذلك أسمعهم اياه باللهجة الدارجة » .

« ثم التفت الى الرجال الثلاثة المعلقين في الحبال وقال لهم : « أما أنتم أيها الرمم الخسيسة ، اما أنتم فأنا أنوي ان أفرم لحمكم وأوزعه على المراجل » ؛ ثم

تناول حبلاً وصبّه بكل ما أوتيه من قوة على ظهري الرجلين الخائفين حتى كفّا عن الصراخ ضعفـًا ، وتدلى رأساهما كأن لا حياة فيهما ، كرأسي اللصين اللذين صلبا ، حسبما يظهران في الرسوم » .

« وصاح أخيراً : لقد أوهن رسغي ضربك ! ولكن ما يزال هناك حبل مخصص لك ، يا كتكوتي الظريف ، وهو حبل لا يصيبه الوهي . انزعوا تلك الكمامة عن فمه ولنسمع ما قد يقوله دفاعاً عن نفسه » .

« وظل المتمرد المعي لحظة وهو يحرك فكيه المتشنجين حركة مختلجة ، ثم لوى رأسه في ألم ، وقال بصوت كأنه الفحيح : هذا هو ما أقوله – وتنبه له جيداً – : اذا جلدتني ذبحتك » .

« أهكذا اذن ؟ اذن لقد أفزعتني ! – وجرّ القبطان الحبل ليضرب» .

« فعاد البحيري يفحّ قائلاً : خير لك أن لا تفعل » .

– « ولكن لا بد – ومدّ ذراعه بالحبل ليهوي به » .

« وعندئذٍ قال استيلكلت شيئـًا في صوت كالفحيح لم يسمعه أحد سوى القبطان ، وما كان أشد دهشة الواقفين جميعـًا حين أجفل القبطان متراجعـًا وذرع الدكة في سرعة مرتين او ثلاثـًا ، وفجأة ألقى الحبل من يده وقال : لن أجلده – أطلقوه – اقطعوا قيوده – أتسمعون ؟ »

« وعندما أسرع الضباط الصغار لينفذوا الامر حال بينهم وبين ما انتووه رجل شاحب اللون معصوب الرأس – ذلك هو رادني رأس الضباط ؛ كان

رادني منذ ان اصابته تلك اللكمة قد استلقى في سريره ولكنه لما سمع في ذلك الصباح ضجيجًا على الدكة زحف خارجًا وشهد المشهد كله، وكان فمه قد تأذى باللكمة حتى كان كأنمـــا يعجز عن النطق، إلا انه غمغم بكلام مفاده انه مستعد وقادر على ان يعمل ما لم يجرؤ عليه القبطان واختطف الحبل وتقدم نحو خصمه المكبل بالأصفاد».

« فهمس البحيري في فحيح : انت جبان ! »

— « نعم انا كذلك، ولكن اليك هذه مني . وكان على اهبة ان يضرب حين ارسل البحيري فحيحًا آخر، تصلبت بسببه ذراعه المرفوعة، فتوقف ثم اضرب عن التوقف، ولم يشأ ان يتخـــلى عن كلمته رغم تهديد استيلكلت مهما تكن النتائج . ثم حلت اصفاد الرجال الثلاثـــة وأنزلوا ، واتجه جميع البحارة ذوو الامزجة المتقلبة نحو المضخات الحديدية يعملونها في عناد واصرار » .

« وما كاد الظلام يحل وتنتهي اول نوبـــة في الحراسة حتى سمع صراخ في المنارة ؛ واذا الخائنان المرتعشان يجريان ويحاصران باب القمرة وهما يقولان انهما لا يجرؤان على البقاء مع البحارة . ولم ينجع الرجاء واللكم والركل في ارجاعهما، وآثرا ان يودعا في المؤخرة التحتية في السفينة طلبًا للسلامة ؛ ولم تبد اية بادرة من تمرد بـــين سائر الرجال بل انهم على النقيض من ذلك صمموا بايعاز من استيلكلت نفسه في الاكثر، ان يلتزموا بأشد حالات الهدوء، وان يطيعوا جميع الأوامر حتى النهاية، حتى اذا بلغت السفينة الميناء هجروها جماعة . ولكنهم اتفقوا جميعًا على شيء آخر رجاء ان يكفلوا تحقيق اسرع نهاية لتلك الرحلة — اتفقوا على ان لا يرفعوا اصواتهم منبهين الى وجود الحيتان ان تبينوها . ذلك ان تاونهو، رغم صدعها ورغم جميع مخاطرها الاخرى، ظلت تقيم الرقباء على اعالي صواريهـــا، وكان قبطانها على استعداد لانزال القوارب اذا رأى حوتًا في تلك

اللحظة مثلما كان في اليوم الذي حلت فيه سفينته مجال التطواف، وكان رادني على استعداد ليستبدل بسريره قاربًا ويسعى ، وفمه مكموم بالاربطة ، لكي يكمم فكّ اي حوت حيّ بكمام الموت » .

« غير ان البحيري الذي حث البحارة على ان يختاروا ذلك النوع من السلبية في تصرفاتهم ظلّ يدير الرأي في نفسه (حتى انتهى كل شيء على الاقل) حول انتقامه المناسب المحكم من الرجل الذي لدغه في صميم قلبه . وكان هو ينتمي الى نوبة رادني الضابط الاعلى، في المراقبة، وكأنما كان الرجل المخبول يسعى ليقطع ما يزيد على نصف المسافة في لقاء مصيره بعد ذلك المشهد عند الحبال حين اصرّ مخالفًا نصيحة صريحة من القبطان على ان يستأنف رئاسة المراقبة ليلاً . وعلى هـــذا الأمر وعلى حادثة او اثنتين اخريين بنى استيلكلت خطته للثأر في إحكام » .

« تعوّد رادني اثناء الليل — على غير عادة البحارة — ان يجلس على حاجز الربعة خلف الدقل ويتكىء بمرفقه على حرف القارب المشبوح هنالك، على ارتفاع يسير فوق جانب السفينة ؛ وبين القارب والسفينة فراغ من دونـــه ماء البحر، فقدر استيلكلت الوقت فوجد ان نوبته التالية عند الدفة ستكون حوالي الساعة الثانية في صباح اليوم الثالث اذا عدّ اليوم الذي خذل فيه اول يوم . فاستغلّ فترات الرقابة في الاسفل في جدل شيء ما باتقان وعلى هينة » .

« وقال له أحد الرفاق : ماذا تصنع هناك ؟ »

— « اي شيء تظن ؟ اي شيء يشبه ؟ »

« كأنه مرسة تتخذها لربط كيسك ولكنها تبدو لي غريبة . فقال البحيري وهو يمد بها ذراعه الى الامام على امتداده : نعم انها قــد توصف بالغرابة .

ولكني أظنها ستفي بالغرض . ايها الضابط ليس لدي قدر كافٍ من المصيص – هل لديك ؟ »

« لكن ليس في المنارة اي مصيص » .

« اذن لأذهب فأطلب شيئـًا من راد . ونهض ليذهب الى المؤخرة» .

« فقال احد البحارة : لا اظنك تذهب لتستجدي منه ! »

«ولِمَ لا ؟ أتظن انه يبخل عليّ بها وهو حين يعطيني فانما يعين نفسه في النهاية ايها الرفيق ؟ وذهب الى الضابط ونظر اليه في هدوء وسأله مصيصـًا يصلح به ارجوحته ، فأعطي ما سأل ، ولكن لم يرَ احد المصيص او المرسة مرة اخرى. غير انه في الليلة التالية كادت كرة حديدية قد غلفت تغليفـًا محكمـًا ان تتدحرج من جيب « صدارة السعدان » التي يلبسها البحيري ، اذ كان يطوي المعطف في ارجوحته ليتخذه وسادة له . وبعد اربع وعشرين ساعة حل موعد نوبته عند الدفة الخرساء – قريبـًا من الرجل الذي كان مقدراً له ان يهوّم فوق حافة القبر الذي حفرته الطبيعة لاستقبال البحارة على الدوام – وكان لا بد للأجل ان يحين ، وكان الضابط في خيال استيلكلت الذي قدّر وصوّر قد غدا جثة يابسة مسجّاة وقد انخسفت جبهته اذ تحطمت » .

« ولكن أحد الحمقى ، ايها السادة ، نجّى المدبّر الذي كان سيغدو قاتلاً من ارتكاب الثأر الدموي الذي كان يزمعه ، فحقق انتقامه كاملاً دون ان يثأر لنفسه بنفسه . وبفعل لون من القدر غريب تدخلت السماء نفسها فانتزعت بيديها من يديه ذلك الأمر اللعين الذي كان يزمع اقترافه» .

« في صباح اليوم التالي بين انبلاج الفجر وشروق الشمس حين كان البحارة ينضحون ظهر السفينة بالماء صاح فجأة تناريفي [1] غبي وهو يصب الماء على السلاسل الكبرى : ها هو يتدحرج هنالك ، ها هو ! يا للمسيح ! اي حوت هو ! هو موبي ديك » .

« فصاح الدون سبسطيان : موبي ديك ! بحق القديس دومينيك يا سيدي البحار هل للحيتان اسماء ؟ من الذي تسميه موبي ديك ؟ »

— « هو حوت أبيض مشهور ، وحش مخيف مرعب قد عتا على الموت ايها الدون — ولكن لو أخذنا في هذا لكان ايضاً قصة طويلة » .

« فاحتشد الاسبانيون الفتيان من حولي وصاحوا قائلين : « كيف ؟ كيف بالله عليك ؟ » — لا. لا. ايها السادة، لا يا سادتي، ابداً، ابداً، لا استطيع ان اسرد هذه القصة الآن، افسحوا قليلاً حتى يبلغني الهواء يا سادتي » .

« فصاح الدون بطره : الشيشة ! الشيشة ! ان صديقنا القوي يكاد يغمى عليه — املأوا له كأسه الفارغة ! »

— « لا حاجة بي الى ذلك يا سادة، لحظة" واستأنف حديثي ... : عندما أبصر التناريفي، يا سادة، الحوت الناصع فجأة في مدى خمسين ياردة من السفينة، رفع عقيرته عفواً وبقوة الغريزة يعلن عن وجود الوحش، وقد نسي ما تعاهد

---

[1] نسبة الى تناريف احدى جزر الكناري حيث خاض نلسون معركة بحرية عام ١٧٩٧ فقد فيها ذراعه .

عليه البحارة ، واستبد به الهياج المبادر ، هذا مع ان المراقبين على الصواري النكدة رأوه بوضوح؛ عندئذٍ استولى النزق على كل شيء فصاح القبطان والضباط والحواتون : « الحوت الابيض ! الحوت الابيض ! » ولم تمنعهم الاشاعات المخيفة من ان يتوقوا الى القبض على ذلك الحوت الشهير الغالي ، بينا وقف البحارة العاندون يلحظون، بالعيون الشزراء واللعنات المصبوبة، ذلك الجمال الخلاب الذي كان يمثله الجرم الضخم الناصع في بياض اللبن وقد سقطت عليه اشعة الشمس الافقية المتلامعة فأخذ يتحرك ويتلألأ كأنه « أبال » حي في مياه البحر الازرق الصباحي . لا ريب ايها السادة في ان قدراً غريبًا يتخلل سياق هذه الاحداث جميعًا كأنها رسمت قبل ان يسوّى الكون نفسه، فقد كان المتمرد هـو موجه القارب الذي سيركبه الضابط، فاذا طارد بقاربه حوتًا فعليه ان يجلس الى جانبه، بينا يقف رادني عند المقدمة وحربته في يده، وهو يجذب ثني الحبل او يرخيه بحسب الاوامر . فاذا انزلت القوارب الاربعة كان من حق قارب الضابط ان يتقدمها جميعًا . ولم ينطلق احد بأصوات من الجذل جآرة مثلما فعل استيلكلت وهو ينصب بجذافه، وبعد تجديفة مجهدة أسرع القارب بهم وقفز رادني الى المقدمة ورمحه في يده، وكان كلما ركب قاربًا هاجت نفسه – فيما يبدو – فصاح من وراء الكعام الذي يغلف فمه ان يقربوه بحيث ينزل على اقصى حردبة الحوت، ودون ان يبدي موجّه القارب تكرهًا او نفوراً اخذ يوجهه ويرتفع به خلال زبد يعشي الابصار، قد اختلط بياضه ببياض الحوت، حتى ارتطم القارب فجأة كأنما صادم طنفاً غارقاً، ثم انكفأ فقذف بالضابط الواقف ؛ وعندما سقط في تلك اللحظة على ظهر الحوت الزلق استقام القارب ودفعته الغمرة المنقضة الى جانب، بينا كان رادني يعلو به الماء ويهبط على الجانب الآخر من الحوت، فسعى جاهداً خلال الطش المتناثر، ولمحه رفاقه لحظة خلال تلك الغلالة وهو يحاول بجنون لكي يبعد نفسه عن عين موبي ديك . إلا ان الحوت اندفع دائراً في « شقلبة » فجائية، وأطبق فكيه على الرجل السباح، وانتصب به صعداً ثم انحدر صبباً وهو يقمس عاموديا وغاص في الاعماق» .

« وفي الوقت نفسه ارخى البحيري من طرف الثني عندما أحس اول دقة على قعر القارب كي يتجافى متأخراً عن الدوامة الحادثة ؛ ونظر في هـــدوء مروياً، فخطر له ما خطر . ولكن هزة مفاجئة مرعبة من تحت القارب جعلته يستل سكينه ويضعها فوق الحبل ؛ فجذه وذهب الحوت طليقاً، غير ان موبي ديك ظهر على مسافة ما مرة ثانية وقد علقت مزق من قميص رادني الصوفي المخضب بأنيابه التي قضت عليه . ثم هبت القوارب الاربعة تطارده إلا انه فاتها جميعاً واختفى عنها من بعد اختفاء تاماً » .

« ووصلت تاونهو ميناءها في الوقت المناسب ـ وكان مكاناً موحشاً متوحداً ـ لا يسكن فيه اي مخلوق متمدن وهناك دبر الفرار خمسة او ستة من رجـــال الصاري الرئيس عامدين يقودهم البحيري وأووا الى حائط نخيل . وقد تبين في النهاية انهم اختطفوا زورقـًا حربيـًا كبيراً مزدوجـًا من الهمج المتوحشين هنالك وأبحروا الى ميناء آخر » .

« وحين اصبح بحارة السفينة لا يجاوزون اصابع اليدين أهاب القبطان بأهل الجزيرة ليعينوه في العمل الشاق اعني ترميم السفينة ورأب صدعها . ولكن تلك العصبة الصغيرة بحاجة الى السهر المضني اتقاء لعدوان أولئك الاعوان الخطرين، ليلاً ونهاراً ، وكان العمل الشاق الذي قاموا به منهكـًا مضنيـًا حتى انهم حين اصبح المركب صالحـًا للابحار كانوا في اشد حالات الضعف والاعياء بحيث ان القبطان لم يجرؤ على ان يقلع بهم وحدهم في ذلك المركب الثقيل . وبعد ان استشار ضباطه أرسى السفينة بعيداً عن الشاطىء قدر المستطاع فعبأ مدفعين وصوّبها من مقدمة السفينة ؛ وكوّم البنادق على مؤخرة السفينة واصطحب معه احد الرجال ونشر شراع خير قارب تحويت لديه، وتوجه به عامداً مع المهبّ نحو تاهيتي، على بعد خمسمائة ميل، لكي يأتي بمدد من الرجال يضيفه الى ملاحيه» .

« ورأى الرجلان في اليوم الرابع من ابحارهما زورقاً ضخماً قد انتبذ ناحية

عند جزيرة مرجانية منخفضة ، فوجه القبطان قاربه بعيداً منه ولكن الزورق الهمجي انقض عليه، وسرعان ما تأدى اليه صوت استيلكلت يدعوه ان يتوجه نحوه والا فانه سيطوح به تحت الماء . فشهر القبطان مسدساً ، إلا ان البحيري سخر منه مزدرياً، وقد وضع قدميه على قادمتي الزورق الحربي الموثقتين؛ مؤكداً له انه لو عبث عبثاً بزناد المسدس لدفنه بين الفقاقيع والزبد » .

« فصاح القبطان : ماذا تريد مني ؟ »

« فقال استيلكلت : قل لي الى اين انت متجه ، ولأي شيء تتجه ، واياكِ ان تكذب » .

— « أنا متجه الى تاهيتي رجاء الحصول على مدد من رجال » .

— « حسناً . دعني أجيء الى قاربك ، وثق انني مسالم . وما ان نطق بهذه العبارة حتى قفز من الزورق وسبح الى القارب، وصعد الحافة ووقف وجهاً لوجه أمام القبطان » .

« ضع ذراعيك متقاطعتين يا سيدي ؛ ردّ رأسك الى الخلف . وردد بعدي: حـــالما يغادرني استيلكلت فأنا أقسم ان أرسي هذا القارب عند تلك الجزيرة وأبقى هنالك ستة أيام فاذا لم افعل اذن فلا أخطأتني الصواعق » .

« وضحك البحيري وهو يقول : « أحسنت ! ما أفصحك ! في رعاية الله يا سيد » ثم وثب في الماء وسبح عائداً الى رفاقه » .

« ووقف استيلكلت يرقب القارب حتى ساحلَ وجرّ الى جذور شجرات جوز الهند هنالك ، وعندئذٍ استأنف ابحاره ووصـــل في الوقت المناسب الى تاهيتي ، وكانت هي المكان الذي يؤم ، وهناك حالفه الحظ اذ كانت سفينتان

على أهبة الاقلاع الى فرنسا وكانتا لحسن البخت بحاجة الى ذلك العدد من الرجال الذين يرأسهم ذلك البحار، فأقلعوا فيها وبذلك أخذوا زمام المبادرة من قبطانهم ان كان يرى ابداً ان ينزل بهم القصاص المشروع » .

« وبعد ان مضت عشرة أيام على اقلاع السفينتين الفرنسيتين وصل قارب التحويت واضطر القبطان الى ان يدوّن أسماء تاهيتيين اكثر تمدناً وقد تعودوا بعض الشيء ركوب البحر ، واستأجر من هنالك شانية تاهيتية ، وعـــاد الى مركبه فوجد كل شيء فيه بخير ومن ثم استأنف تطوافه » .

« اين هو استيلكلت اليوم يا سادة ؟ لا أحد يدري لكن أرملة رادني في جزيرة نانتوكت لا تزال توجه عينيها الى البحر الذي يأبى ان يعيد الميت ، ولا تزال ترى في أحلامها الحوت الابيض الرهيب الذي قضى عليه » .

*
* *

« فقال الدون سبسطيان في هدوء : أتراك انتهيت ؟ »

— « نعم أيها الدون » .

— «اذن فأنا أتوسل اليك ان تخبرني : أهذه القصة في جوهرها حقيقية ، حسب تقديرك وتخمينك ؟ انها عجيبة ، فهل استقيتها من مصدر موثوق ؟ لا تؤاخذني ان كنت ملحفاً . وصاحت الجماعة كلها وقد استبد بها الاهتمام البالغ : ولا تؤاخذنا ايضاً يا سيدنا البحار لأنا نشارك الدون سبسطيان مطلبه » .

— « هل في الحانة الذهبية ايها السادة نسخة من الاناجيل المقدسة ؟ »

« فقال الدون سبسطيان : لا ولكني أعرف قسيساً قريب الدار يستطيع

ان يحصل لي على نسخة . وانا ذاهب لاحضارها . لكن هل أنت مطمئن الى ما ستفعله فان ذلك قد يكون خطير النتائج ؟ »

— « هل تعمل معروفاً فتحضر القسيس بصحبتك ايها الدون ؟ »

« فقال بعض الجماعة لآخر : مع ان حرق الاحياء في ليما قد بطل في هذه الايام فأنا أخشى ان يكون صديقنا البحار في خطر التصدي لرئاسة الأسقفية . لننسحب من ضوء القمر فلست أرى حاجة لذلك » .

— « معذرة للجري في أثرك يا دون سبسطيان . هل لي ان أرجوك بأن تتحرى اكبر نسخة من الاناجيل فتحضرها لنا ؟»

* * *

« قال الدون سبسطيان في وقار وقد عاد بصحبة شخص طويل وقور : هذا هو القسيس وقد جاءك بالأناجيل » .

— « اذن لأخلع قبعتي . تعال قليلاً في النور ايها القسيس المبجل وأمسك الكتاب المقدس أمامي كي أستطيع ان ألمسه ».

— « عونك يا رب. إني أقسم بشرفي ان القصة التي قصصتها عليكم ايها السادة هي في جوهرها وبنودها الكبرى صحيحة وأنا أعلم انها صحيحة . لقد وقعت على هذه الكرة ، فقد وطئت قدماي السفينة ، وعرفت الملاحين ورأيت استيلكلت وتحدثت اليه منذ ان مات رادني ».

٥٥ صور مشوهة ترسم للحيتان

سأرسم لكم عما قريب ، بقدر ما يسمح به التصوير الكلامي دون لوحة، شيئًا يشبه ان يكون الشكل الصحيح للحوت حسبما يتبدى لعيني الحوات حقـًا، حين "تجنَب" جثته على ضخامتها الى سفينة التحويت حتى ليستطيع المرء ان يطأ على الجثة مطمئنًا وهو يصعد الى السفينة . ولكن قد يكون من الجدير قبل ذلك ان ألمح الى تلك الصور الخيالية الغريبة التي ترسم له والتي ما تزال حتى اليوم تتحدى ايمان اهل البر . لقد آن الاوان كي تصحح معتقدات الناس في هذا الامر، وذلك بأن أبرهن لهم ان مثل هذه الصور للحوت كلها خاطىء .

وقد يكون المصدر الاول لهذه الاضاليل التصويرية موجوداً بين اقـــدم التماثيل الهندية والمصرية واليونانية فمنـــذ تلك العصور التي عرفت بالاختلاق والرخصة في التدقيق، حين كان الدلفين يرسم على الافاريز الرخامية في الهياكل وعلى قواعد التماثيل وعلى الدروع والمداليات والكؤوس والنقود، وتجعل له حراشف كزرد الدرع الذي كان يلبسه صلاح الدين، ورأس مقنع بالخوذة كأنه رأس مار جرجس ، منذ ذلك الحين اتسع مجال الرخصة والتساهل لا في أشد صور الحوت انتشاراً بين الناس بل في كثير من الصور العلمية التي ترسم له .

ومن العجب العجاب أنّ أقدمَ صورة بقيت، وقد قصد منها ان تكون

صورة حوت، موجودة في كهف معبد الافيال بالهند[1] . ويعتقد البرهميون ان التماثيل المنحوتة في ذلك المعبد القديم — وهي تكاد تعز على الحصر — انما وضعت لتمثل جميع الحرف والاتجاهات وكل مهنة يمكن ان تخطر في خيال الانسان وان تلك التماثيل كانت قبل ان تكون الحرف والمهن في الكون بعصور طويلة، فلا عجب اذن ان كانت مهنتنا — مهنة التحويت النبيلة — من تلك الحرف التي جرى الالماع اليها والتكهن بها قبل ان تكون . ويقع الحوت الهندي المشار اليه في جانب منعزل من الجدار حيث الصورة تمثل تجسد فشنو في شكل لوياثان يسميه العلماء ماتسي آفتار. غير ان ذلك التمثال الذي جعل نصفه انساناً ونصفه حوتاً ليس فيه من الحوت الا ذنبه، بل ان ذلك الجزء اليسير منه خطأ كله، فهو يبدو وكأنه ذنب مستدق لثعبان الانكونه باكثر مما يمثل شطيرتين عريضتين من ذنب ضخم في حوت حقيقي .

لكن اذهب الى صالات الرسوم القديمة وتأمل صور الرسام المسيحي الكبير لهذا الحوت تجد انه لا يمتاز على الرسام الهندي الذي عاش قبل الطوفان ؛ هنالك ترى صورة رسمها جويدو[2] لبرسيوس وهو يخلص اندروميدا من وحش البحر او الحوت . من اين حصل جويدو على أنموذج كهذا يمثل مثل هـــذا الحيوان الغريب ؟ وليست صورة هوجارث[3] الذي رسم المنظر نفسه في لوحة له تسمى « برسيوس هابطاً » خيراً من صورة جويدو ولا بقدر قلامة ظفر، فان الجسامة

---

١ هذا خطأ من ملفل، اذ ليس في مغارة الفيلة صورة تمثل تجسد فشنو على شكل ماتسي افتار.

٢ جويدو ريني (١٥٧٥ – ١٦٤٢) وكانت الصورة في المتحف الوطني بلندن ولعل ملفل رآها في ١٧ كانون الاول ١٨٤٩ .

٣ وليم هوجارث (١٦٩٧ – ١٧٦٤) .

الهائلة في ذلك الوحش الذي رسمه هوجارث لتترجرج على السطح وتكاد لا تهزّ مدى بوصة من ماء . ولذلك الوحش شيء كالهودج على ظهره ولو نظرت الى فمه المطوط ذي الناب، والامواج تتدحرج فيه، لحسبته « بوابة الخونة » التي تؤدي من نهر التيمس الى برج لندن في طريق مائي . وهنالك حيتان برودرومس التي رسمها سيبالد الاسكتلندي[1] في القديم، وحوت يونان كما تصوره النسخ القديمة من التوراة وكتب المبادىء الدينية القديمة . ماذا نقول في هذه الصور ؟ امـــا الحوت الذي رسمه مجلّد الكتب متعرجاً يلتف كأنه عساليج الكرمة حول عمودِ مرساة آخذة بالانحدار – كما يبدو مطبوعاً مذهباً على وجه الورقة الاولى او ظهرها في كثير من الكتب القديمة والجديدة – فانه بالغ الجمال، الا انه مخلوق خرافي محض، قد اقتبس فيما اعتقد عن شبيه له يرسم على الزهريات القديمة . وقد سماه الناس عموماً الدلفين ومع ذلك فاني اعدّ هذه السمكة التي وضعها مجلد الكتب محاولة لتصوير حوت، اذ كانت تلك هي النية عندما وضع الشكل اول مرة، وكان الذي وضعه ناشر ايطالي قديم في القرن الخامس عشر خلال « النهضة العلمية »، وفي تلك الايام وحتى فترة متأخرة نسبياً كان الناس يظنون الدلفين من فصيلة اللوياثان .

وفي رسوم العساليج وغيرها من الزينات التي كانت تزخرف بهـــا الكتب القديمة تلتقي أحياناً بلمسات غريبة جداً تكاد تنقل رسم الحوت، حيث ترى كل ضروب النفاثات وفوارات الماء والحمّات والينابيع الباردة ونبعة ساراتوجا ونوافير بادن بادن كلها تتدفق من رأسه الذي لا يعتريه الاعياء . وعلى صفحة العنوان في النسخة الأصلية من كتاب « تقدم العلم » تجد بعض الحيتان العجيبة .

ولكن لنتجاوز هذه المحاولات التي قام بها ناس غير محترفين، ولننظر الى

---

١ السير روبرت سيبالد (١٦٤١–١٧٢٢)، تحدث عن الحيتان ولكنه لم يرسم لها صوراً .

صور اللوياثان التي قصد منها ان تكون رسوماً رزينة علمية رسمها أناس عارفون. ففي المجموعة القديمة من الرحلات لهاريس بعض لوحات لحيتان انتزعت من كتاب هولندي في الرحـــلات بتاريخ ١٦٧١ وعنوانه : « رحلة تحويت الى سبتزبرجن » في سفينة اسمها « يونان في جوف الحوت » ، وريّسها هو بيتر بيترسون الفريزلاندي . وتتمثل الحيتان في احدى تلك اللوحات كرمثٍ من الاخشاب مستلقية بين جزر الجليد وعلى ظهورها الحية تجري دببة بيض . وفي لوحة أخرى غلطة كبرى هي جعل الحوت ذا ذنب عمودي الشطرين .

وهناك كتاب من قطع الربع فاخر جليل كتبه قبطان اسمه كولنيت ، وكان قبطانـًا من بعد في الاسطول الانجليزي، وعنوان الكتاب : « رحلة حول رأس هورن في البحار الجنوبية من أجل توسيع نطاق مصايد حوت العنبر » وفي هذا الكتاب رسم قصد به ان يكون « صورة للفايستر او حوت العنبر رسم بمقياس رسم عن حوت قتل على ساحل المكسيك ، في شهر آب (أغسطس ١٧٩٣) ورفع الى ظهر السفينة ». ولا ريب عندي في ان القبطان قد أخذ هذه الصورة الحقيقية من أجل ان يفيد بها جنود البحرية ولا أريد ان أذكر عنها الا شيئاً واحداً فأقول : ان فيها عيناً اذا جعلتها – حسب مقياس الرسم المرفق – عيناً لحوت عنبر جسيم ، فكأنما جعلت عين ذلك الحوت نافذة بارزة طولها حوالي خمسة أقدام . آه يا قبطاني الشهم لماذا لم ترسم يونان وهو يطلّ من تلك العين ؟

وأشد مصنفات التاريخ الطبيعي تحرزاً وتحققاً مما يكتب لفائدة الشبان واليافعين ليست بارئة من تلك الشناعة في الخطأ . انظر ذلك المؤلف المشهور : « الطبيعة الحيـــة لجولدسمث » ففي النسخة اللندنية الموجزة منه التي طبعت عام ١٨٠٧ لوحات من « حوت » مزعوم و « نرول » مزعوم . ولست أحب ان أبدو للناس جافياً ولكن هذا الحوت الكريه المنظر يبدو مثل خنزيرة مبتورة

الاطراف وأما النزول فان المرء اذا التمحه لمحاً أدهشه ان يرى الناس في هـذا الحيوان الخرافي في هذا القرن التاسع عشر صورة حقيقية يدلـّس بها على عقول اي جمهور ذكي من تلامذة المدارس .

وفي عام ١٨٢٥ نشر برنارد جرمين الملقب بكونت دي لا سيبيد ، وهو عالم طبيعي عظيم ، كتاباً علمياً منظماً عن الحوت ، وأدرج فيه عدة صور لأنواع مختلفة من اللوياثان . وليست هذه الصور جميعاً خاطئة فحسب بل ان صورة السبلحوت او حوت جرينلاند (اي الحوت الاثين) قد قال فيها اسكورسبي وهو رجل ذو دربة طويلة في شئون هذا النوع من الحيتان : انها لا يوجد لها نظير في الطبيعة .

ولكن هناك خطأ يقف من هذه الأخطاء كلها موقف التاج المشهّر ، وذلك هو ما تورط فيه العالم فردريك كوفييه أخو البارون المشهور ، ففي عام ١٨٣٦ نشر كتاباً في التاريخ الطبيعي للحيتان ، وفيه يعطي ما يسميه صورة لحوت العنبر ؛ ولكن عليك قبل ان تعرض هذه الصورة على احد أبناء نانتوكت ان تتجهز للاختفاء العاجل عن أعين الناس في ذلك البلد . وأنا أقول في ايجاز ان حوت العنبر الذي رسمه فردريك كوفييه ليس حوت عنبر وانما هو صَرْصَر . طبعاً لم يتح له ان يستمد تصوره من رحلة تحويت (وقلما يتاح ذلك لمثل هؤلاء الرجال) ولكن من أين استفاد تلك الصورة ؟ من يدري ! لعله حصل عليها من حيث حصل سلفه دزمارست[1] العالم العامل في هذا المجال العلمي نفسه على احدى مجهضاته الأصيلة أعني حصل عليه من رسم صيني ، واذا انت تأملت كثيراً من الفناجين والصحون الشاذة استطعت ان تدرك اي فتيان نشطاء الخيال هم أولئك الصينيون حين يرسمون بالقلم .

---

١ انسلم جيتان دزمارست (١٧٨٤ – ١٨٣٨) أضاف ملاحظات على كتاب لاسيبيد .

وأما الحيتان التي يرسمها رسامو الاعلانات وترى في الشوارع مدلاة فوق أبواب حوانيت الزيّاتين فماذا يقال فيها ؟ تستطيع ان تسميها بعامة حيتان رتشارد الثالث ، فهي ذات حرادب منتحلة ، وهي ايضاً شديدة التوحش ، تفطر على ثلاث او أربع من « طرطة » البحارة أعني على ثلاثة او أربعة من قوارب التحويت مزودة بملاحيها ؛ وهذه الحيتان المشوهة تكافح مناضلة في بحار من الدم والصبغ الأزرق .

ولكن هذه الاخطاء المتعددة الجوانب في تصوير الحوت ليست غريبة بعد هذا كله. تأمل! فمعظم الرسوم العلمية نقلت عن أسماك طرحها البحر، وما وجه الصواب فيها باكثر من وجه الصواب في رسم سفينة محطمة وهي مكسورة الصلب، فمثل هذا الرسم لا يمكن ان يمثل هذا الجسم النبيل في خيلائه حين يكون هيكله وصواريه سالمة غير محطمة . لقد أمكن رسم الفيلة بكامل خلقتها لانها تنتصب ماثلة أمام الرسام ، فأما الحوت الحيّ فانه لا يعوم مدة تكفي لنقل صورته ، اذ الحـــوت الحيّ في عظمته الكاملة وجلاله لا يرى في البحر الا في مياه بعيدة الغور فـــاذا عام كان حجمه الجسيم مختفياً عن الانظار كأنه سفينة حربية يغمر الماء اكثر جسمها وبسبب تلك الضخامة استحال على الانسان الى الأبد ان يرفع جسمه في الفضاء بحيث يحتفظ بكل ضروب انتفاخاته الجبارة وتموجاته . ولن أقول شيئاً في البون الشاسع في السعة بين الحوت الصغير الراضع والحوت المكتمل القارح ، ولكن هب أنك رفعت أحد تلك الحيتان الصغيرة الراضعة الى ظهر السفينة ، فانك واجد حينئذٍ ان شكله غريب كالانكليس لدن متقلب لا يستقر على حال حتى ان الشيطان نفسه لا يستطيع ان يتمثل له صورة دقيقة .

وقد يتوهم بعض الناس ان الهيكل المعروق لحوت طرحه البحر قد يمدنا بلمحات دقيقة عن شكله الحقيقي . وهذا غـــير صحيح لان من أحد الامور

العجيبة المتصلة بهذا اللوياثان ان هيكله لا يعطي عن شكله العام الا فكرة ضئيلة . انك اذا نظرت هيكل جرمي بنتام[1] معلقاً بدلاً من « الثريا » في مكتبة أحد الذين صفـّوا تركته ، وجدته ينقل بدقة فكرة شيخ مؤمن بالمذهب النفعي ضخم الجبهة ويمثل جميع الصفات الذاتية البارزة الاخرى لدى بنتام ، ولكن لا شيء من هذا القبيل يمكن استخلاصه من النظر الى عظام حوت بيّنة المفاصل . والحق ان هيكل الحوت مجرداً – كما يقول هنتر العظيم[2] – يحمل من العلاقة بالحيوان اللحيم البدين ما تحمله الحشرة من علاقة باليفعة التي تغلفها . وتتجلى هذه الميزة على نحو لافت في الرأس وذلك ما سأوضحه عرضاً في بعض أجزاء هذا الكتاب ؛ وهي تتجلى ايضاً على نحو غريب في الزعنفة الجانبية ، وعظامها تكاد تناظر عظام يد الانسان تماماً ، الا ان الابهام فيها غير موجود . فلهذه الزعنفة أربع أصابع عظمية منتظمة تقوم فيها كالسبابة والوسطى والخنصر والبنصر ، ولكنها جميعاً تظل مكنونة في غطائها اللحمي كأنها أصابع الانسان حين تدس في غطاء صناعي . قال اسطب الفكه ذات يوم : « مهما قدّم الحوت لنا من خدمات دونما اكتراث فلا يصح ان نقول فيه انه يعالجنا من دون قفازات » .

وأياً ما كانت الوجهة التي تنظر منها، فانك لا بد ان تستخلص لهذه الاسباب جميعاً ان اللوياثان العظيم هو المخلوق الوحيد في العالم الذي لا بد من ان يظـــل دون ان يرسم الى الابد. حقاً قد تجيء صورة أقرب الى الواقع من صورة اخرى ولكن لن تكون هناك صورة تحكي الواقع نفسه بقسط كبير جداً من الدقة .

---

١ جرمي بنتام (١٧٤٨ – ١٨٣٢) خلف هيكله لجامعة لندن وكان هو مؤسسها .

٢ هو الدكتور جون هنـــتر (١٧٢٨ – ١٧٩٣) وقد كتب مقالة عن تركيب الحوت (١٧٨٧) .

ليست هناك طريقة على الارض تسعفك على ان تجد بدقة كيف يكون شكل الحوت ولعـــلّ الطريقة الوحيدة التي بها تستمد فكرة مقبولة عن سعته واستفاضته هي ان تذهب انت نفسك محوّتاً . غير أنك ان فعلت ذلك لم تكن مجازفتك ميسورة لانها قد تؤدي بك الى ان يمزقك ويغرقك ومن ثمّ كان عليك فيما يخيل اليّ ان لا تكون متعنتاً في تطلعك وتشوفك الى هذا اللوياثان .

٥٦

صور للحيتان اقل اخطاء وصور صحيحة لمشاهد التحويت

أحسّ باغراء قوي – كلما خطرت لي الصور المغلوطة للحيتان – الى ان اخوض غمار الحكايات المشوهة الخاطئة التي تروى عن الحيتان في بعض الكتب قديمها وحديثها، وخاصة ما أورده بليني وبرخاس وهكلويت وهاريس وكوفييه ومن لف لفهم . لكني لن انقاد لهذا الاغراء .

لا اعرف إلا اربعة كتب موجزة منشورة تتحدث عن حوت العنبر العظيم هي : كتاب كولنت وكتاب هجنز وكتاب فردريك كوفييه وكتاب بيل ؛ وقد أشرت في الفصل السابق الى كولنت وكوفييه ؛ وها هنا أقول ان كتاب هجنز خـــير من كتابيهما، غير ان كتاب بيل هو خيرها جميعاً، وكل رسومه للحوت جيدة الا الشكل الاوسط في صورة الحيتان الثلاثة في مواقف متنوعة، وهذا الشكل يقع في رأس الفصل الثاني . ثم ان الصورة التي وضعها على الصفحة الاولى وهي تمثـــل القوارب في هجومها على حيتان العنبر، صحيحة ذات شبه بالواقع في تأثيرها العام ، وان قدرت كذلك دون ريب لتثير الريبة المهذبة في بعض رجال الصالات . وبعض صور حوت العنبر في كتاب ج. روس براون جيدة الدقة في محيطها وسعتها إلا انها قد أثبتت في وضع كئيب ولا يعد براون نفسه مسئولاً عن هذا الخطأ .

وخير الصور الاجمالية للحوت الاثين موجودة في كتاب اسكورسبي، الا ان مقياس الرسم فيها صغير جداً بحيث تعجز عن ان تترك انطباعاً مرغوباً، وليس لديه من مشاهد التحويت الا صورة واحدة وهي مثال للعجز والنقصان اذ من هذه المناظر وحدها، اذا أجيد تصويرها، يستطيع المرء ان يستمد شيئاً يشبه الفكرة الصحيحة عن الحوت الحيّ كما يراه صيادوه الاحياء .

واجمل الرسوم التي نجدها للحيتان ولمشاهد التحويت، اذا نحن اعتبرناها جملة واحدة، وان لم تكن في بعض دقائقها أدق من سواها، نقشان فرنسيّان كبيران جيدان في الاخراج، منقولان عن رسمين وضعهما شخص اسمه جارنري، والاول منهما يمثل هجوماً على حوت العنبر والثاني هجومـًا على الحوت الاثين . ويظهر في النقش الاول حوت عنبر جليل قد صور في كامل فخامته وجبروته وقد ارتفع تحت القارب من اعماق المحيط، واعتلى يحمل في الفضاء فوق ظهره حطام الالواح المهشمة . وقد ظلت مقدمة القارب في بعض اجزائها سليمة لم تحطم، ورسمت وهي تحط على صلب الوحش ؛ ويقف في المقدمة اثناء تلك اللحظة الخاطفـة العابرة احد المجذفين وقد تغلف نصفـه بالنفثات الساخنة الهائجة التي يطلقها الحوت وهو على أهبة ان يثب كأنه على شفا الهاوية . وقد نقلت الحركة في هذا المنظر كله نقلاً جيداً صحيحـًا يملك العجب . أما برميل الحبل الذي اصبح نصفه فارغـًا فانه رسم عائمـًا فوق المياه المبيضة، واما القنوات الخشبية التي كانت الحراب الناصلة مغروزة فيها فانها تغزل مواربة في الصورة . وأمـــا رءوس الملاحين الساجين فانها مبعثرة حول الحوت وعليها تعبيرات من الفزع عجيبة المفارقات، بينا السفينة في تلك المسافة السوداء العاصفة قادمة لتدخل المشهد . وقد تجد خطأ فادحاً في الدقائق التشريحية لهذا الحوت ولكن تجاوز عن هذا فاني أقرّ بانني لعمري عاجز عن ان ارسم صورة جيدة مثل هـــذه الصورة .

وأما في النقش الثاني فان القارب ذاهب ليقترب من الجانب الحلزوني لحوت اثين ضخم منسرع في جريه ، وهو يدحرج ضخامته المكسوة بالاعشاب في الماء كأنـــه صخرة مكسوة بالطحلب تتدحرج عن سفوح بتاغونيا . ونفثاته قاتمة مكتنزة سوداء كأنها السناج ، حتى انك لتظن وانت تنظر دفعات الدخان صاعدة من المدخنة ان هناك عشاءً كبيراً يطبخ في تلك الاحشاء . وقد حطت طيور البحر تنقر بمناقيرها السرطانات الصغيرة والمحارات وغيرها مما يقدمه البحر من حلويات ومعكرونة ، ويحمله الحوت الاثين احياناً على ظهره الموبوء . واثناء ذلك كله ترى اللوياثان الشنفرى يندفع خلال الماء، تاركاً اطناناً من الزبد الابيض المتلاطم المتخاثر في مخره ، فيجعل القارب الصغير الحقير يتأرجح بين التمعجات كأنه « اسكفة » علقت عند الدواليب البدالية في باخرة محيطية . وهكذا ترى ان القسم الامامي من المشهد حافل بالاضطراب الهائج . ومن المفارقات الفنية المعجبة ان القسم الخلفي سطح مائي هادىء مستوٍ كأنه لوح زجاجي، ترى فيه السفينة الخائرة وقد تهدلت اشرعتها المسترخية ، وترى كتلة هامدة من حوت ميت، قلعة استسلمت، وراية الاستسلام ترفرف مخذولة فوق عصاها التي اثبتت في وقب النفاثة .

لست أدري من كان جارنري الرسام او من يكون ولكني اشهد بأنه كان على معرفة الخبير بالموضوع فان لم يكن كذلك فقد علمه واحسن تعليمه حوات خبير . للفرنسيين حظ التفوق في الرسم. اذهب وتأمل جميع الرسوم في اوروبة فأين تجد مثل تلك الصالة من الحياة النابضة المتحركة على اللوحات إلا ان تكون تلك الصالة الباهرة في فرساي ؟ هنالك يشق المتفرج طريقه مبهوراً لاهثاً بين معارك فرنسا الحاسمة حيث كل سيف يبدو ومضة من الاضواء الشمالية، والملوك والاباطرة الدارعون يتوالون منقضين كأنهم ثلة مندفعة من حيوانات القنطورس المتوّجة . وفي تلك الصالة تستحق المعارك التي رسمها جارنري ان تجد لها مكاناً.

ان كفاية الفرنسيين في استشفاف جمال الاشياء وروعتها لتتجلى على وجه الخصوص في الرسوم والنقوش التي مثلوا فيها مشاهد التحويت، هذا مع انه ليس لديهم عشر خبرة الانجليز في صيد الحيتان، ولا واحد في الالف من دربة الامريكيين؛ ومع ذلك فانهم زودوا هذين الشعبين بالرسوم الوحيدة التي تستحق ان توصف بنقل الروح الصحيحة لمناظر الحيتان . أما رسامو الحوت من انجليز وامريكيين فانهم في معظم الامر يكتفون اكتفاءً تاماً فيما يبدو بنقل الحدود الآلية للأشياء كأن يرسموا المنظر الجانبي للحوت فارغاً . وهذا امرٌ يبلغ ان يشبه، اذا أنت اعتبرت روعة التأثير، رسم منظر جانبي للهرم. حتى اسكورسبي وهو الخبير المشهور عن جدارة في شئون الحوت الاثين بعد ان قدّم لنا صورة جاسية كاملة لحوت جرينلاند ، وثلاث صور او اربعاً مصغرة مرهفة للنرول والبربوز عاد يعرض علينا سلسلة من الرسوم الكلاسيكية تمثل صنارات القوارب وسكاكين الفرم والكلاليب، ثم وضع تحت انظار عالم يرتعش من البرد ستة وتسعين أنموذجاً طبق الاصل من بلورات ثلج المنطقة القطبية في وضع مكبّر مستعيناً في ذلك بدقة المجهر؛ ولست أقصد الى ان أستخفّ بهذا الرحالة الفذّ (فأنا احترمه لحنكته وخبرته) ولكنه في مثل هذا الامر المهم سها عن ان يحصل لكل بلورة ثلجية على شهادة موثقة بيمين معتمدة أمام محكمة السلام في جرينلاند .

وهناك نقشان فرنسيان آخران يستحقان التنويه، سوى ذينك اللذين رسمها جارنري، وقد صنعهما شخص وقّع تحتهما باسم «هـ. ديران». وأحد هذين النقشين لا ينضوي تحت غايتنا في هذا المقام، إلا أنه يذكر لاسباب اخرى، فهو صورة مشهد هادىء في الظهيرة بين جزر المحيط الهادي، وقد أرست حواتة فرنسية على الشاطىء في جو ساكن وأخذت تتزود بالماء في تراخٍ وكسل واشرعتها مرخاة، ووراءها نخــلات تهدلت اوراقها الطويلة، فالسفينة والنخلات جميعاً منحنية مسترخية في الجو الساكن . والمنظر اثر جميل اذا اعتبرناه يوحي بتمثيل حال الصيادين الاشداء في أحد مشاهد الاستجمام الشرقي ، وهو شيء نادر في

حرفتهم . اما النقش الثاني فيمثل شيئاً مختلفاً : يمثل السفينة في حال توقفها في صميم الحياة التحويتية وقد جنبت اليها حوتاً أثيناً، وبدت السفينة (في حـــال استئناف السير) وهي تتطاول مشرفة على الوحش المجنب كأنها تشرف على ميناء . وفي الصورة قارب يندفع مسرعاً مبعداً عن هذا المنظر الحيّ على أهبة ان يطارد حيتاناً اخرى بعيدة ، وقد سددت الرماح والحراب وجعلت معدة للاستعمال ، وأخذ ثلاثة من المجذفين يركزون الصاري في الثقب، وتدحرجت فجأة امواج لطمت القارب فجعلته يقف منتصباً بعض انتصاب على الماء كأنه حصان حرون يرفع يديه في الهواء . ومن السفينة يتصاعد دخان العذاب الذي يقاسيه الحوت الفائر ، كأنه دخان قرية من مصانع الحديد ؛ وقبالة المهب تنشأ سحابة سوداء تحمل نذر الحاصب والمطر، فتزيد – فيما يبدو – في حيوية الملاحين الهائجين .

٥٧ الحيتان كما تتمثل في الالوان وفي الاسنان وفي الخشب وفي صفائح الحديد وفي الحجر وفي الجبال وفي النجوم

لعلك حين تنحدر نحو دور الصناعة بلندن قد رأيت على تلة البرج شحاذاً مقعداً (او كاجاراً كما يقول البحارة) ، يمسك امامه لوحة مرسومة تمثل المنظر المؤسّي الذي فقد فيه رجله . وفي الصورة ثلاثة حيتان وثلاثة قوارب، وأحد القوارب (ويفترض انه يحتوي الرجل المفقودة كاملة) قد ضعضعه العض من فكي الحوت الامامي . وقد خبّرت ان هذا الرجل دأب على ان ينصب تلك اللوحة كل حين على مدى عشر سنوات ويعرض ذلك الجذم على عالم قليـــل التصديق . ولكن آن أوان انصافه وتصديقه فان الحيتان الثلاثة جيدة الرسم كأي حيتان رسمت ونشرت في وابنج، على اي تقدير . وجذمه كأي جذم آخر يقيني تراه من الجذوع المقتلعات في الغرب، ومع ان الحوات المسكين يعتلي أبد الدهر ذلك « الجذم » فانه لا يتخذه منبراً للخطابة ابداً وانما يقف حزيناً أسيان بعينين خفيضتين يتأمل ما أصابه من بتر .

وقد تمر خلال الباسيفيكي ونانتوكت ايضاً ونيوبدفورد وميناء ساج على رسوم حية تمثل الحيتان ومناظر صيدها حفرها الصيادون انفسهم على انياب حوت العنبر او على « مشدات » السيدات المصنوعة من عظام الحوت الاثـــنين وامثالها من تلك الطرف الصغيرة العديدة التي ينحتها البحارة بعناية من المـــادة الخام وهم في ساعات الراحة في عرض المحيط ويسمّونها Skrimshander .

ولدى بعضهم صناديق صغيرة فيها أدوات تشبه أدوات اطباء الاسنان، خاصة بهذا النوع من التلهي . ولكنهم على وجه العموم يكدون مستعملين مداهم وحدها، وهم بهذه الاداة التي تكاد تكون قادرة على كل شيء يشكّلون لك ما تريد ويخرجونه على النحو الذي يتصوره خيال البحّار .

ان طول البعاد عن دنيا المسيحية وعالم الحضارة يرد المرء حتماً الى الحال التي أوجده الله فيها أعني ما يسمى حالة البداوة الهمجية . فالحوّات الحق لا يتميز في همجيته عن البدائي الايروقوي . وأنا نفسي همجي لا أدين بالولاء إلا لسلطان آكلي لحوم البشر، مستعد في كل لحظة لان أثور على ذلك السلطان .

ومن أخص خصائص الهمجي اثنـــاء وجوده في منزله صبره العجيب على الصناعة . فهراوة الحرب الهواوية القديمة او كعوب الرماح فيما يضاف اليها من نقوش وحفر كثير متشعب محكم يعد كل منها نصباً يخلّد فضيلة الصبر الانساني، كما يخلّدها معجم لاتيني . اذ ان تلك المنعرجات الدقيقة المتشابكة المتشاجرة من الحفر على الخشب قد تمت بشظية من محارة بحرية مكسرة او بسنّ سمكة القرش، وكلّفت سنوات من الدأب الدائب والانحناء المستمر .

والهمجي الابيض – أعني البحار – شبيه بالهمجي من أبنـــاء هواي فهو يتمتع مثله بالصبر العجيب ، وبصبره هذا وبناب قرش واحد ، وباستعماله مديته البائسة الوحيدة تراه يحفر لك قطعة من تمثال عظمي ، مفعمة بالتعرجات المتشابكة في رسمها كأنها درع ذلك الهمجي الاغريقي ، أخيل ، وان لم تكن مثله اتقاناً ، وتجيء حافلة بالروح والايحاءات البربرية كأنها رسوم ذلك الهمجي الهولندي الظريف البرت دورر .

وكثيراً ما يصادف المرء في منارات الحواتات الامريكية حيتاناً خشبية او

حيتاناً شكـّل منظرها الجانبي من لوحات صغيرة قاتمة تؤخذ من خشب حربي متين يوجد في البحار الجنوبية . وبعضها ذو حظ غير قليل من الدقة .

وقد ترى في بعض البيوت الريفية ذات السقوف المسنمة حيتاناً من نحاس معلقة من أذنابها تتخذ مقرعة للابواب الشارعة على الطريق . فاذا كان البواب نائماً كان ذلك خيراً للحوت ذي الرأس السنداني . غير ان حيتان المقارع هـذه قلما تكون صوراً أمينة للاصل. وقد ترى على منائر بعض الكنائس ذات الطراز القديم حيتاناً من صفائح الحديد موضوعة هنالك لتدل على وجهة الريح، ولكنها بعيدة في ارتفاعها وكأنما قد كتب عليها ايضاً تحاشياً لكل غاية او غرض : « اللمس ممنوع » ولذلك فانك لا تستطيع ان تتفحصها عن كثب وتحكم بمدى دقتها .

وفي مفاصل الحزّان المضلـّعة حيث تنتثر عند قواعد الهضاب العالية المشققة كتل من الصخر وتكوّن على السهل رجمات جميلة خلابة، كثيراً ما تقع العين على صور تشبه أشكال اللوياثان المحنطة وقد غاب بعضها بين العشب ، فاذا كان يوم عاصف تكسر العشب من حولها أمواجاً من الزبد الاخضر .

وفي البلاد الجبلية حيث ما يزال المسافر يتمنطق بمرتفعات تستدير من حوله كأنها مسرح روماني تستطيع ان تلمح العين هنا وهناك اذا وقعت في صعيد مناسب لمحات عابرة تمثل مناظر جانبية من الحيتان شاخصة على طول السلاسل الجبلية المتموجة . ولكنك لا بد ان تكون حواتاً أصيلاً كي تتمكن من تحقق هذه المناظر ، بل لا بد لك ايضاً اذا شئت ان تعود الى ذلك المنظر ثانية من ان تتخذ الوقفة نفسها في الموقع الاول نفسه لان هـــذه الملاحظ عبر التلال عابرة خاطفة حتى ان وقفتك الاولى لتتطلب عناءً بالغاً لاستكشافها والتثبت منها ،

كأنها جزائر سولومه التي مـــا تزال غير مستثبتة وان وطئتها ذات مرة قدما مندانا ذي الجيد الأتلع وسجّلها قلم فجويرا الشيخ في القديم .

فاذا حلـّق بك موضوع الحيتان في أجواز الفضاء لم تعجز عن ان تستبين حيتاناً عظيمة في السماء ذات الحبك ، والقوارب تتعقبها مطاردة مثلما ان الاقوام الشرقية لطول مـــا امتلأت نفوسها بالتفكير في الحروب كانت ترى جيوشاً مشتبكة في ميدان القتال بين السحب ؛ وقد رأيت انا في الجهة الشمالية من الافق حوتاً وطاردته حول القطب ورأيت دورات النقاط اللامعة التي صورته لعيني اول مرة. وتحت سماء القطب الجنوبي المتلألىء دنوت من كوكب «السفينة» وشاركت في مطاردة « كوكبة القاطوس » المتلالئة بالنجوم وراء أقصى ما يمكن ان تمتد اليه « حية البحر » و « السمكة الطائرة » — سمكة الخطـّاف .

وليتني اتخذ من مراسي الفرقاطة حـَكـَمات لجامي ، وأجعل مهازيّ حزمة من حراب وأمتطي ذلك الحوت وأثب به نحو كبـــد السماء لأرى ان كانت السماوات التي يحكون لنا عنها وعن طباقاتها العديدة تقع حقيقة وراء ما يدركه بصري البشريّ الكليل .

٥٨ القشريات

بعد ان أبحرنا الى الشمال الشرقي من جزائر كروزيت وقعنا في مروج مترامية تقطنها القشريات ، وهي تلك المادة الدقيقة الصفراء التي يغتذي بها الحوت الاثين في الاكثر . وكانت تتموج من حولنا على مدى فراسخ وفراسخ حتى كأننا كنا نبحر خلال حقول مديدة من السنابل الذهبية الصفراء .

ورأينا في اليوم الثاني أعداداً من الحوت الاثين ، تسبح فاغرة الأفواه في استرخاء خلال القشريات ، اذ كانت بمأمن من هجوم حواتة كالباقوطة هدفها صيد حوت العنبر دون سواه ؛ ولما كانت القشريات تلتصق بالألياف المهدبة في تلك « الستارة البندقية » العجيبة في أفواه الحيتان فان الماء وهو يمرّ عند الشفتين لم يكن يلامسها .

وكانت تلك الوحوش الأثينية تعوم محدثة أصواتاً غريبة كأصوات المناجل في الحشيش مخلفة وراءها شمالاتٍ لا نهاية لها من الزرقة على سطح البحر الاصفر . حتى كأنها حصادون بكروا للحصاد ووقفوا جنباً الى جنب وأخذوا في تؤدة وإصرار يدفعون مناجلهم خلال الحشيش الطويل البليل في مروج رطبة نشاشة*.

---

* ان ذلك الجزء من البحر ويعرف بين الحواتين باسم « ضفاف البرازيل » لم يسمّ كذلك كما سميت « ضفاف نيوفوندلاند » بهذا الاسم لوجود مواقع ضحضاحة ، وأعماق غير بعيدة هنالك . وانما دعي بذلك لهذا المظهر الذي يشبه المرج وهو ناشىء عن منجرفات هائلة من القشريات تظل تعوم في تلك العروض حيث الصيادون كثيراً ما يطاردون الحوت الاثين .

ولم يكن فيها ما يذكر المرء بالحصادين سوى ذلك الصوت الذي كانت تحدثه وهي تشق مروج القشريات . أما اذا رآها المرء من قمم الصواري وبخاصة وهي متلبثة ساكنة لفترة من الزمن فانه يحسب أشكالها السوداء المستفيضة كتلاً من الصخور الجامدة ، لا أي شيء آخر . ومن رأى فصائل هذا اللوياثان في البحر اول مرة، كان كالغريب الذي يجوب مناطق الصيد العظيمة في الهند فانه احياناً قد يمر عن بعد بالفيلة مستلقية دون ان يميزها بل يحسب انها أكوام شاخصة مسودة من التراب. واذا أدرك المرء حقيقتها في النهاية لم يكد يصدق وهو يراها في هذه الجسامة الهائلة ان عنصر الحياة في جميع أعضائها هو نفس عنصر الحياة التي فطر عليها الكلب او الحصان .

ثم انك من بعض النواحي الأخرى لا تستطيع ان تواجه أية مخلوقات بحرية بالمشاعر عينها التي تواجه بها مخلوقات البر. نعم ذهب بعض علماء التاريخ الطبيعي القدماء الى ان لكل مخلوق على البر صنواً في البحر، والحق أيضاً انك اذا شملت بنظرك المخلوقات في العالمين البرّي والبحري وجدت هذا الرأي صحيحاً في مجمله ، ولكنك اذا أخذت تتأمل التفصيلات ألفيت الامر مختلفاً . هل يستطيع البحر ان يدعي بأن لديه سمكة صنواً في وداعتها الواثقة للكلب ؟ ان القرش وحده هو الذي يشبّه بالكلب في الخلقة ، ولكن اي شيطان مريد هو !

وابن البرّ بعامة يلحظ قطّان البحر بعين ملؤها التكره والنفور . ونحن نعلم كذلك ان البحر « ارض غفل أزلية مجهولة الهوية » ، حتى ان كولومبس لم يعنَ باكتشافها بل تجاوز في امجاره عوالم مجهولة منها لا تحصى عدداً من اجل ان يكتشف البرّ الغربي التافه الذي كان مجهولاً . ثم ان أشد الكوارث المفزعة التي وقعت للانسان منذ أقدم الازمان، وكأنما كانت خبط عشواء، قد أصابت ممن يركبون البحر عشرات الالوف او مئات الالوف . وكفى بلحظة من التأمل لتدلنا على ان هذا الانسان الصغير ، مهما يتبجح بعلمه ومهارته ، ومهما يزدد

حظه منها في مستقبل مرجوّ ، سيظل الى الابد ودهر الداهرين مهيناً ضعيفاً يهينه البحر ويقتله ويسحق أفخم فرقاطة وأصلبها من صنع يديه . ومع ذلك كله فان تكرار هذه الامور باستمرار جعل الانسان يفقد إحساسه برهبة البحر الكاملة ، تلك الرهبة التي تقترن باسم البحر منذ بدء البدء .

وأول سفينة قرأنا عنها إنما عامت على صدر طوفان — بحرٍ محيطٍ — أغرق عالماً كاملاً — كأنما ينتقم انتقاماً برتغالياً — دون أن يبقي على أرملة واحدة ، وما زال ذلك المحيط يهدر حتى اليوم ، وهو هو الذي حطم سفن العام المنصرم . أجل ايها الأحياء الحمقى ان طوفان نوح لم يغض ؛ فما يزال يغطي ثلثي هـــذا العالم الجميل .

بأي شيء يفترق البحر عن البر حتى ان المعجزة على احدهما لا تعد معجزة في الآخر ؟ : ضروب الرعب الخارق حلّت بالعبريين حين فتحت الارض فاها تحت قدمي قورح وصحبه وابتلعتهم الى الابد [1] . وها هي الشمس لا تغرب اليوم دون ان يبتلع البحر سفائن وملاحيها على النحو نفسه ، ثم لا يقال : هذه معجزة !

لا عجب ان يكون البحر عدواً للانسان فان الانسان أجنبي عنه ولكن مـــاذا تقول اذا عرفت انه شيطان مريد في معاملته لنسله وأبناء صلبه : لهو أسوأ من المضيف الفارسي الذي ذبح ضيوفه أنفسهم [2] ؛ فهو لا يوفر المخلوقات التي تنتج فيه . البحر كأنثى النمر الضارية ، هي تدوس ابناءها وتكفأهم اذ تتقلب في الغاب ؛ وهو يدفع بأقوى الحيتان نحو الصخور ويتركها لقىً الى

---

١ انظر سفر العدد : ١٦ .

٢ الاشارة غير واضحة الدلالة ، فلا نعرف من هو هذا المضيف الذي يتحدث عنه .

جانب حطام السفن المتناثرة . لا رحمة لديه ولا قوة تضبطه الا قوته ؛ البحر الشامس يغمر الارض لاهثاً ناخراً كأنه جوادُ حَرْبٍ هائج مجنون قد تجندل عنه فارسه .

ثم تأمل مكر البحر ودهاءه : معظم مخلوقاته المخوفة تنساب تحت الماء ، غير ظاهرة في اكثر الاحوال ، مستخفية استخفاء الماكر الروّاغ تحت أجمل صبغٍ من اللون اللازوردي . وتأمل ايضاً اللألاء والجمال الشيطاني لدى كثير من فصائله التي تعدّ أشدها قسوة ، شأن كثير من فصائل القرش ذات الاشكال الانيقة المبرقشة . ثم تأمل كرة أخرى القرم العام في البحر لأكل اللحوم فكل مخلوقاته يتفارسن ويخضن فيما بينهن معركة أزلية منذ بدء الخليقة .

تأمل كل هذا ثم اعطف البصر نحو هذه الارض الخضراء الوديعة الطيعة اللينة. تأملها كليها أعني البحر والبرّ ، ألا ترى فيها شبهاً غريباً لشيء مستقرٍ في نفسك ؟ اذ مثلما ان هذا المحيط المهول يحفّ بهذا البرّ الأخضر كذلك فان في روح الانسان جزيرة حافلة بالسلام والبهجة — كأنها تاهيتي — ومحفوفة برعبات هذه الحياة التي لم تكد تنجلي لنا . رعاك الله ! لا تغادر تلك الجزيرة فانك ان غادرتها فلن تعود اليها ابداً !

59

السبيدج [1]

خاضت الباقوطة مروج القشريات في أناة وتؤدة، جاعلة طريقها في اتجـــاه شمالي شرقي نحو جزيرة جاوة؛ والنسيم العليل يحثنها، فتتمايل صواريها الثلاثة السامقة في تلك السكينة الشاملة، في لطف ودعة تحت لمسات النسيم الواهن، كأنها ثلاث نخلات وديعات في بسيط من الارض . وخلال فترات متباعدة في الليالي المقمرة كانت النفاثة المتوحدة الغرّارة ما تزال تستبين .

ولكن ذات صباح أزرق شفاف وقد غشّى البحرَ سكون يكاد يتجاوز المعهود دون ان يكون مصحوباً بركود فاتر، وومض الشمس اللامع في الامواه كأنه اصبع ذهبية ممدودة تتلمس المتعة في تحسس خبايا الماء، والامواج المنتعلة تتهامس فيما بينها وهي تمشي في رقة ونعومة ؛ في تلك الهدأة العميقة التي رانت على الكون المنظور لاح لعيني دغتّة وهو في قمة الصاري الاكبر صولجان عجيب الشان .

برزت على البعد في استرخاء كتلة ضخمة بيضاء، وارتفعت واشتد ارتفاعها، وتخلصت مما أحاط بها من لون لازوردي، والتمعت أخيراً أمام سفينتنا كأنها واجهة ثلجية انزلقت لتوّها من المرتفعات . وتوهجت لحظة ثم انكمشت في بطء

---

١ Squid .

وغطست في الماء، ثم برزت مرة اخرى ولمعت في سكون، وبدت كأنها ليست حوتاً إلا ان دغة قال في نفسه : أهذا هو موبي ديك ؟ وغاص ذلك الشبح مرة اخرى ، غير انه حين تبدى ثانية صاح الزنجي صيحة كأنها الخنجر المستطيل أفزعت كل امرىء من غفوته وهو يقول : « هناك ! هناك ايضاً ! هناك يتبدى ! أمامنا تماماً ! الحوت الابيض ! الحوت الابيض ! »

وحين سمعها البحارة اندفعوا نحو سواعد الدعامات ساندات الاشرعة مثلما تندفع النحل في موسم الاشتيار نحو الاغصان . ووقف آخاب تحت وهج الشمس اللاذعـــة مكشوف الرأس عند الدقل الامامي المائل وقد دفع احدى يديه الى الوراء على أهبة تحريكها بالأوامر لقيم الدفة، وحدق بنظرته اللاهفة في الاتجاه الذي عيّنه دغة في الاعالي بذراعه الممدودة الثابتة .

أترى بروز تلك النفاثة الوحيدة المتوحدة تباعاً قد فعل فعله في نفس آخاب تدريجاً حتى لم يستغرب اللطف والدعة في منظر ذلك الحوت الذي كان يطارده حين لاح لعينيه ؟ أترى خانته لهفته ؟ اياً كان الامر فانه ما كاد يستبين تلك الكتلة البيضاء حتى ذهب في حماسة عجلى يلقي أوامره بانزال القوارب تواً .

وسرعان ما كانت القوارب الاربعة فوق الماء، وآخاب في المقدمة، والجميع يجذفون مسرعين لادراك الطريدة . وسرعان ما غطست الطريدة في المـــاء، فتوقفت مجاذيفنا هنيهة ونحن نرقب عودتها ؛ مه ! في نفس البقعة التي غطست فيها برزت مرة اخرى في بطء. ومرت بنا لحظة كدنا ننسى فيها كلّ الخواطر عن موبي ديك ، وحدقنا في أغرب ظاهرة جلاها البحر الخفيّ لعين بشر حتى ساعتئذٍ . على الماء كانت تعوم كتلة مديدة هلامية تبلغ عشرات الباردات طولاً وعرضاً، ذات لون ذي تبريق كأنه الزبدة، وقد تفرعت من وسطها أذرع طويلة لا تحصى، وهي تتمعج وتتلوى كأنها عش فيه ثعابين الانكونه، وكأنها تخبط

خبط عشواء لتمسك بأي شيء يصادف ان يكون في متناولها . وليس لها وجه واضـــح الملامح او مقدم، ولا فيها أمارة محسوسة تدل على ان لها احساساً او غريزة ، وانما هي تتموج فوق اللجج كأنها طيف من شيء حيّ ، لا شكل له، شيء لا ينتمي الى احياء هذه البسيطة وانما وقع بينها وقوع المصادفة العارضة .

واختفت مرة اخرى ببطء في صوت كامتكاك الضرع ، وكان استاربك ما يزال يحدق في الامواه المهتزة حيث غاصت، فصاح بصوت غريب : « أكاد أوثر أنني رأيت موبي ديك وحاربته على ان اكون رأيتك ايها الشبح الابيض ! »

فقال فلاسك : « أي شيء هو هذا يا سيدي ؟ »

— « هذا هو السبيدج الحي الهائل الذي يقولون فيه : ما اقل السفن التي شاهدته وكتب لها ان تعود الى موانيها لتحدث عنه » .

أما آخاب فلم يقل شيئاً، وأدار قاربه وعاد الى السفينة وتبعه الآخرون في صمت كصمته .

مهما يكن شأن الاساطير التي يقرنها صيادو حوت العنبر عموماً بمنظر هذا المخلوق فمن المستيقن ان ما يلمحونه لمحاً من شذوذ في تكوينه قد أثر في نفوسهم تأثيراً بعيداً حتى نسبوا اليه الارهاص بالويل والشؤم . وهو قلما يبدو للعيان حتى انك قلما تجد بينهم من لديه سوى أشد التصورات غموضاً حول طبيعته وشكله ، وان كانوا — وحداناً ومجتمعين — يصرّحون بأنه أضخم ذي نسمة في قطّان المحيطات . وعلى رغم [illegible] تجدهم يعتقدون انه الغذاء الوحيد الذي يقتات به حوت العنبر . [illegible] الحيتان الأخرى تجد غذاءها فوق سطح الماء فيراها الناس وهي تتناول طعامها ؛ إلا حوت العنبر من بينها فانه يصيب

طعامه في مناطق مجهولة تحت سطح الماء ، ولا أحد يستطيع ان ينبىء من اي شيء يتألف غذاؤه الا استنتاجاً ، واذا اشتدت عليه وطأة المطاردة أحياناً تقيأ ما يظن انه أشلاء من أذرع السبيدج ، وبعضها يبلـــغ طوله ما يزيد على عشرين قدماً وعلى ثلاثين . وهم يتوهمون ان الوحش الذي له مثل هذه الأذرع يتشبث بها ممسكاً قاع البحر وان حوت العنبر على خلاف الانواع الاخرى مزوّد بأنياب تمكنه من مهاجمة ذلك الوحش وتمزيقه .

ولا بـــأس على من تصوّر ان الكراكن الضخم الذي ذكره الاسقف بونتوبودان [1] قد يكون هو السبيدج . فالاسقف يقول في وصفه له انه يراوح بين البروز والغوص ؛ وهذا الذي قاله مع دقائق أخرى أوردها ايضاً تجعل وجه الشبه بين الاثنين كاملاً ؛ غير ان من الضروري ان تخفف من غلوه في تقـــدير حجمه المهول فان ما ذكره يجاوز حد التصوّر والتصديق .

وقد سمع بعض علماء التاريخي الطبيعي على نحو مبهم شائعات عن هـــذا المخلوق العجيب الذي اتحدث عنه ها هنا فأدرجوه في صنف سمك الحبّار ، وهو حقاً ينتمي الى هذا الصنف فيما يبدو اذا اعتبرنا بعض المناحي الظاهرية فيـــه ، ولكننا ان عددناه في تلك القبيلة وجب علينا ان نعده وحده « جبّارها » العملاق .

---

[1] لهذا الاسقف كتاب عنوانه « تاريخ النرويج الطبيعي » (١٧٥٢-١٧٥٣) يصف فيه الكراكن فيقول ان ظهر هذا الحيوان او الجزء العلوي منه يبدو وكأن محيطه ميل ونصف ميل (وبعض الناس يؤكدون انه اكثر من ذلك) فاذا لاح لك لاول وهلة حسبته مجموعة من جزر صغيرة محفوفة بشيء عائم كأنه اعشاب بحرية ... الخ .

٦٠ حبل الصيد

بعد قليل أصف مشهداً من مشاهد التحويت، ومن اجل ان يحسن القارىء فهم هذا المشهد وما اشبهه من مشاهد، سأتحدث عنها في مواضـــع اخرى من هـــذا الكتاب، أرى ان اتحدث في هذا المقام عن هذا الحبل السحري، حبل التحويت الذي يكون احياناً مفزعاً .

كان الحبل الذي يستعمل في السماكة اصلاً يصنع من خير أصناف القنب، وقد غُبّر ببخار القار دون ان ينقع فيه مثلما تعالج الحبال العادية . حقاً ان القار اذا استعمل استعمالاً عادياً يجعل القنب ألين مراساً لدى الحبّال، ويجعل الحبل نفسه أصلح لدى البحار في شئون الملاحة العامة ، ولكن غمس الحبل في القار ييبس حبل التحويت فيتعسر لفّه لفاً دقيقاً، وهو ما لا بد للحبل ان يؤديه . وقد يمنح القار للحبل لمعاناً وإحكاماً في الجدل، ولكن معظم البحريين اخذوا يدركون انه بعامة لا يزيد شيئاً في قوة الحبل او في طاقته على البقاء ابداً .

وفي السنوات الاخيرة كاد حبل مانيلا ان يحلّ في السماكة الامريكية محلّ القنب في صنع حبال التحويت . وحبل مانيلا أقوى وأشد نعومة ومرونة من القنب وان لم يكن مثله في طول العمر . وأحب ان ازيد على هذا بأنه اجمل وأليق بالقارب من القنب (ولا بدع في قولي «أجمل» ففي كل شيء عنصر جماليّ) . فالقنب قاتم معتم يشبه ان يكون هندياً أما « المانيلا » فانه اشقر الخصلات كأنه قفقاسي .

ويبلغ حبل التحويت في سمكه ثلثي بوصة ، وقد لا تظنه لاول وهلة قوياً حسبما هو حقاً ، فاذا اختبرته وجدت كل طاقة من طاقاته الاحدى والخمسين تحمل وزناً يبلغ مائة وعشرين رطلاً ؛ فالحبل المبروم يتحمل شداً يوازي مـــا يقرب من ثلاثة أطنان . أما طول الحبل العاديّ من حبال صيد حوت العنبر فانه يزيد على مائتي باع . وعند كوثلة السفينة يلف حلزونياً في البرميل لا كما يلتف انبوب التقطير لولبياً متعرجاً ، بل بحيث يصنع لفافة واحدة في شكل كتلة دائرية من الجبن ذات طبقات مبسوطة او حلزونيات متراكبة متحدة في المركز ، ليس فيها تجويف الا في « قلبها » ، او يكون في محور رحاها انبوب دقيق عامودي . وأقلّ تشويش او التواء في اللف قد يذهب عند ارسال الحبل بذراع هذا او رجل ذاك او جسمه كله لا محالة ، ولذلك تبذل اقصى الحيطة في ايداع الحبل في البرميل حتى ان بعض الرماحين ينفقون غداة كاملة في هـــذا الشأن ، فيحملون الحبل الى اعلى ثم يشدونه الى اسفل من خلال بكرة نحو البرميل كي ينفوا عنه عند لفّه اي التواءات او تعقصات ممكنة .

وتستعمل القوارب الانجليزية برميلين لا واحداً بحيث يلف الحبل دائماً في البرميلين كليهما ؛ وفي هذا فائدة ما ، اذ ان هذين البرميلين صغيران ومن ثم يقعان موقعاً ملائماً في القارب فلا يبهظانه كثيراً اما البرميل الواحد في القارب الامريكي فان نصف قطره يبلغ ثلاثة اقدام وله من العمق ما يناسب ذلك ، وبذلك يكون ثقيلاً على قارب لا يتجاوز سمك لوح الخشب فيه نصف بوصة . اذ ان قعر قارب التحويت يشبه الجليد المتماسك في مقاومته ، اي يتحمل قسطاً غير قليل من الوزن ان جعلته موزعاً ولكنه لا يتحمل كثيراً اذا جعلت الوزن كله في موقع واحد . فاذا غطي برميل الحبل في القارب الامريكي بالخيش المقوّى المطليّ بدا القارب وكأنه يجـــر « كعكة » عرس كبيرة ليهديها الى الحيتان .

وكلا طرفي الحبل مسيّبان ظاهران : فأما الطرف الادنى فانـــه ينتهي بأنشوطة او عروة صاعدة من القاع بمحاذاة جانب البرميل، وتتدلى على حافته طليقة دون ان تكون عالقة بأي شيء . وهذا النوع من التدبير في الطرف الادنى يعد ضرورياً لسببين، أولهما : ان يسهّل اضافة حبل آخر من قارب مجاور يربط بذلك الطرف ان كان الحوت الجريح قد نأى بعيداً في الاعماق بحيث يخشى ان يستنفد طول الحبل الاصلي المربوط بالرمح . وفي هذه الاحوال ينقل الحوت من قارب الى آخر كأنه طاسٌ من الجعة غير ان القارب الاول يظلّ دائماً يدوّم عن كثب ليعين قرينه . وثانيهما : ان هذا التدبير لا غنى عنه من اجل السلامة اذ لو ان الطرف الادنى من الحبل ربط بالقارب وجرى الحوت فاستنفد طول الحبل كله حتى نهايته في لحظة خاطفة مثلما يفعل أحياناً فانه لن يتوقف ثمة، واذن لجرّ القارب البائس حتماً الى الاعماق في أثره، وفي هذه الحال لا يستطيع من ينشد الضوالّ ان ينفعه نشدانه .

وقبل انزال القارب للمطاردة يستخرج الطرف الاعلى من البرميل نحـــو المؤخـــرة ويمرر حول المثقلة، ثم يسحب الى الامام بطول القارب بحيث يقع مستعرضاً على يد كل مجذاف حتى انه يمسّ رسغ المجذف حين يحرك مجذافه ويمر بين المجذفين ، وهم متراوحون في جلساتهم عند الحافتين، ذاهباً الى المعقفات الخطّافية المغلفـــة بالرصاص في أقصى طرف الجؤجؤ « المروّس » حيث يقوم وتد خشبي أو سفود بحجم القلم العاديّ يحول دون انفصاله . ويتدلى من المعقفات في تقويس خفيف فـــوق مقدمة القارب ثم يمرر داخل القارب ثانية، وتلف منه عشرة باعات او عشرون حول الصندوق في المقدمة (وتسمى هذه حبـــل الصندوق) ثم يمضي الى الحافة مقترباً من المؤخرة، ثم يوصل بالسداة القصيرة اعني الحبل الذي يرتبط مباشرة بالرمح، وقبل ان يتم هذا الوصل تكون السداة القصيرة قد ذهبت في مسارب ومعميات عديدة ووصف ذلك كله في اسهاب يبعث على الملل .

كذا يطوّق حبل الصيد القارب كله بين لفائفه العويصة متلنياً متمعجاً في كل وجه، وقد طوى جميع رجال التجذيف بين حناياه الخطرة ، فلو رآهم أحد ابناء البرّ الخوّارين لتمثلهم حواة من مشعبذي الهنود، والحيات الناكزة تتلعّب وتتحوّى حول أذرعهم . وليس يستطيع ابن انثى من البشر اول مرة ان يضع نفسه بين هذه الاحابيل المرّسة وان يتصوّر وهو يشدّ صلبه متوتراً عند المجذاف ان الرمح قد يزرقه زرّاقه في أية لحظة مجهولة، وان هذه الاحابيل المريعة ستدور دورتها كأنها ومضات برق دائري . لن يقع هذا الموقع دون ان تعتريه هزة تجعل النخاع نفسه في عظامه يرتعش كأنه هلام يترجرج . ولكن العادة مألفة ؛ يا للغرابة ! أي شيء تعجز العادة دونه ! انك لا تسمع وأنت على أريكة في ديوانك ملحاً مستطرفة ومرحاً عابثاً ونكتاً حارة أو أجوبة مفحمة بأكثر مما تسمعه فوق قارب التحويت الذي لا يبلغ سمك جداره الشربيني الابيض اكثر من نصف بوصة وهو مشنق في أنشوطة المنيّة، وكأن الملاحين الستة فيه هم الستة المواطنون من كاليه يقفون أمام الملك ادوارد [١]، وأولئك الملاحون يجذفون عامدين الى فكي الموت وربما قلت : وحول كل عنق من اعناقهم يلتف حبل المشنقة .

ولعلك لو وقفت تتأمل الامر على نحـــو خاطف لاستطعت ان تعلل لتلك الكوارث المكرورة في التحويت – وقليل منها هو الذي دوّن عرضاً واتفاقاً – أعني الكوارث التي تسمع فيها ان هذا المرء او ذاك قد سحبه الحبل من القارب ومضى فقيداً . اذ ان المرء اذا جلس في القارب والحبل ينطلق كان كمن يجلس وسط الأزيز المتنوع الذي ترسله الآلة البخارية وهي تعمل حيث كل ذراع طائر

---

١ بعد معركة كريسي عام ١٣٤٦ حاصر ادوارد الثالث مدينة كاليه مدة تربو على سنة، ولما اضطرت المدينة للتسليم تقدم اليه ستة من ابنائها وفي رقابهم الحبال لينقذوا المدينة من مذبحة كان يزمعها ادوارد بهذا الفداء .

أو اسطوانة دائرة او عجل دوّار كأنما ينتهب منه ويشتلي مزعاً . بل لعلّ الأمر في القارب أسوأ من ذلك لان المرء لا يستطيع ان يتلبث ساكناً دون حراك وهو في جوف تلك المخاطر ما دام القارب يتأرجح كالسرير ويميل به الى هنا والى هناك دون ان يأخذ حذره، ولولا قدر من رباطة الجأش ومن التوافق الآني بين الحزامة والدأب لما استطاع ان ينجو من ان يغدو « مازفتّا »[1] ويتطوح الى حيث لا تستطيع عين الشمس النفاذة ان تحقه .

وأقول : مثلما ان السكون العميق الذي يسبق العاصفة ويرهص بها ربما كان أحفل بالرهبة من العاصفة نفسها، لان السكون في الحق ليس إلا غلافاً وسجلاً يطوي العاصفة ويحتويها في سريرة ذاته كما تحتوي البندقية المكفوفة الاذى في ظاهرها ما فيها من بارود قاتل ورصاصة وانفجار، كذلك الحبل ابان استقراره الهاجع الظريف وهو يسترسل متعرجاً حول رجال المجاذيف قبل ان ينشط الى الحركة فان فيه وهو في هذه الحال من الرعب الاكيد اكثر من أي مظهر آخر في هذه المهنة الخطرة . ولمَ أسترسل ? كل الناس يعيشون وحبال التحويت تلتف من حولهم ، كلهم ولدوا وأواخي المشانق معقودة حول أعناقهم، ولكنهم لا يتبينون مخاطر الحياة المتلبدة الماكرة التي لا تغفل ولا تغيب ابداً الا حين يرهقهم المـــوت المفاجىء الوحيّ ويجذب الانشوطة . وان كنت فيلسوفاً وجلست في قارب تحويت لم تحسّ في قلبك قدر قلامة ظفر من الرعب اكثر مما تحسّ به وأنت جالس في المساء أمام الموقد والى جانبك سفود تقلب به النيران، لا رمح تصيد به الحيتان .

---

[1] Mazeppa : صوّره بيرون في احدى قصائده وقد ربط الى حصان شموس، وانتهره الزوج الغائر ليجري به شدّاً .

٦١ اسطب يصيد حوتاً

اذا كان استاربك قد رأى في طيف السبيدج نذيراً بالشؤم فان الامر فيه لدى كويكوج كان غير ذلك .

قال ذلك الهمجي وهو يشحذ رمحه على صدر قاربه الرابي : «عندما هو تراه البيدج، انت هو في أثره ترى حوتة أنبر» .

وكان اليوم التالي مسرفاً في السكون والقيظ، ولم يكن ملاحو الباقوطة منهمكين في أي شيء ولذلك كاد يغلبهم سحر النوم الذي كان يغريهم به هذاك البحر الفضاء . ذلك ان هذا الجزء من المحيط الهندي الذي كنا مبحرين فيه ليس هو ما يسميه الحواتون: «المجال الحافل» أي ان ما فيه من البربوز والدلفين والسمك الطيّار وغير ذلك من القطّان المرحين في بحار اخرى أشدّ توثباً واضطراباً، يُعَدُّ أقل بكثير من تلك الاصناف الموجودة على موازاة ريو دي لبلاطه او في المجال المساحل عند بيرو .

جاء دوري لاقف على مرقب الصاري الامامي فاستندت بكتفي على الاشرعة الملوكية المسترخية وأخذت أتأرجح متكاسلاً فيما حسبته جواً مسحوراً . أي حزم لا يتلاشى أمام هذا السحر ! في تلك الوقفة الحالمة فقدت كل صحو واعٍ، وبارحت روحي مسكنها الطيني في النهاية، وان ظلّ جسدي يتأرجح مدة طويلة كأنه الرقّاص بعد ان انسحبت منه القوة التي حركته اولاً .

وقبل ان تلفني غشاوة النسيان لحظت ان الرقيبين الواقفين على مرقب المظين ومرقب الصاري الرئيس قد أدركتهما سنة من نعاس، حتى كنا ثلاثتنا في النهاية نتأرجح على السواري وقد بارحتنا الحياة، وازاء كل خطرة نقوم بها خفقة يخفقها رأس الرجل القيم على الدفة وهو مستغرق في نومه، وكانت الامواج ايضاً قد تركت ذوائبها المسترخية تخفق وتنوس . وعلى مدى الماء الذي ذهب في غيبوبة مديدة كان الشرق يهز رأسه الناعس نحو الغرب، وعين الشمس تومض في الاعالي .

وفجأة أحسست الحبب يثور دون عينيّ المغلقتين، ويداي تتشبثان بالاشرعة كأنهما كلاّبتان . وقتني عناية خفية مباركة . عدت الى الحياة مذعوراً . شِمْ ! على كثب من يسارنا، على بعد لا يجاوز اربعين باعاً، يتدحرج حوت عنبر ضخم في الماء ، كأنه هيكل فرقاطة منكّس، وظهره العريض الأملس ذو اللون الحبشي يتلألأ تحت اشعة الشمس كأنه صفحة مرآة . وخيّل اليّ ان هذا الحوت وهو يتموج في ذلك الحوض المائي ويطلق في هدوء نفاثته البخارية على نحو متواصل انما يشبه مواطناً مهيباً جسيماً يدخن غليونه في عصر يوم دافىء[1] . ولكن هذا الغليون ايها الحوت المسكين كان آخر واحد تستمتع به . لكأن السفينة الناعسة وكل ناعس ينوض فيها مَسَّتْهمْ جميعاً عصا ساحر فأجفلوا مستيقظين وانطلقت عشرون حنجرة أو تزيد، من جميع جوانب السفينة هي وحناجر الرقباء الثلاثة في الاعالي، في وقت معاً، وكلها تبعث الصيحة المعهودة حين كان الحوت الجسيم ينفث، في أناة وانتظام، الماءَ الأجاج الوهاج في الفضاء .

---

١ كان ملفل وهو هولندي الدماء من ناحية الام مغرماً بهذه الصورة التي تدلّ على الدعة البرجوازية .

فصاح آخاب : « انزلوا القوارب ! صوبَ الريح ! » وأطاع أوامر نفسه فأنزل الدفة قبل ان يستطيع قيّمها ان يدير الدواليب .

الصيحات المفاجئة التي أرسلها الملاحون أفزعت الحوت، ولا بد، فقبل ان تنزل القوارب استدار في خيلاء، وسبح مبعداً في اتجاه الريح في سكينة واثقة، محدثاً بعض التغضنات في سبحه، فقدر آخاب ان الفزع لم يدركه بعد، وأمر ان تتوقف المجاذيف وان لا يتكلم احد الا همساً، وجلسنا على حوافي القوارب كأننا هنود أونتاريو ، وسرينا في اليم مسرعين صامتين اذ كان الهدوء المخيم لا يسمح بنشر الاشرعة وان كان نشرها لا يحدث صخباً ؛ وفيما نحن ننساب في هـــذه المطاردة رفع الوحش ذنبه عامودياً في الهواء على مدى أربعين قدماً وغاص محتجباً عن الانظار كأنه قلعة خسفت بها الارض .

وارتفعت الصيحة : « ها هما شطرا الذنب » وما ان سمعها اسطب حتى استخرج علبة الثقاب وأشعل غليونه اذ أصبح التمهل محموداً . وبعد ان قضى الحوت دورة القمس كاملة برز ثانية وهو متقدم امام قارب الرجل ذي الغليون وان كان أقرب اليه من سائر القوارب ، فعلل اسطب نفسه بشرف الفوز وبدا واضحاً حينئذٍ ان الحوت أدرك انه مطارد، ومن ثم غدا كل صمت طلباً للحيطة قليل الجدوى فتركنا التجذيف الهيّن وأخذنا نعمل المجاذيف الكبيرة جهرة وأخذ اسطب يشجع ملاحيه على الهجوم وهو ما يزال ينفث دخان غليونه .

نعم حلّ بالحوت تغير خطير الشأن ، فقد كان على وعي بأنه يعرض نفسه للتهلكة اذ كان يجري « بارز الرأس » وقد نتأ بانحراف ذلك الجزء منه من خلال الزبد المجنون الذي كان يمخضه * .

---

* سيرى القارىء في موضع آخر من اية مادة خفيفة يتألف القسم الداخلي من رأس حوت =

وكان اسطب يقول وهو ينفث الدخان بصوت مسموع اذ يتكلم: « ادركوه، لاحقوه يا رجال ! لا تتسرعوا، لديـــكم وقت كافٍ ولكن ادركوه ، اتبعوه كأنكم هزمات رعد ، وذلك حسبكم . ها الآن ادركوه ، نريد ضربة مديدة سديدة يا طاشطيقو . دراكِ يا طـــاش يا بني – دراكِ جميعاً . كونوا هادئي الاعصاب ، ظلّوا هادئين – في برود كشمر الخيار . هوناً، هوناً ، لكن ادركوه كأنكم الموت العبوس والشياطين المكشرة وابعثوا الموتى واقفين على أرجلهم من قبورهم يا أبنائي . هذا ما نريد . أدركوه ! »

وردّ الجايهيدي صائحاً : « وو – هو – وا – هي » مرسلاً الى عنان السماء احدى صرخات الحرب المعروفة ، وعندها وثب كل مجذف عفواً الى الامام في القارب المجهد مع الضربة الاولى الهائلة التي أرسلها الهندي اللهيف .

وأجاب آخرون على صيحاته الوحشية بصيحات مثلها فزعق دغة : « كي – هي ! كي – هي ! » وهو منتصب يميل أماماً وخلفاً في مقعده كأنه نمر يتخطر في قفصه .

وصاح كويكوج: «كا ـ لا ! كو ـ لو» كأنه يتمطق بعد ان حشا فمه بشريحة لحم . وهكذا شقت القوارب وجه الماء بالمجاذيف والصرخات بينا كان اسطب ما يزال في موقفه في الطليعة يذمر رجاله ويحفزهم على الهجوم ، وهو طوال ذلك

= العنبر الضخم ، فهو في ظاهره اكبر اجزائه حجماً ، ولكنه أشدها مرونة حتى انه ليرفعه في الفضاء بيسر، وكثيراً ما يفعل ذلك وهو ماضٍ بأقصى سرعة . ثم ان الجزء العلوي من جبهته واسع كثيراً، وتكوين الجزء السفلي الذي يشق بـــه الماء مستدق كثيراً حتى انه اذا رفع رأسه مواربا منحرفاً فقد يقال فيه انه حوّل نفسه من جليوت منتفخ الجؤجؤ مترهل الى قارب نيويوركي مستدق حاد الجؤجؤ .

كله ينفث الدخان من فمه . كانوا كالمجرمين المستيئسين يكدون ويجهدون حتى سمعوا صيحة الاستبشار : « قف طاشطيقو . عليـــك به » وطار المزراق . « تجانفوا نحو المؤخرة ! » وانحاز الجدفون للخلف وفي اللحظة نفسها ذهب شيء ساخن ذو حسيس ماراً عن معاصمهم . ذلك هو الحبل السحري ، وكان اسطب قبل لحظة قد استبقى منه في سرعة دورتين إضافيتين حول المثقلة ، ولذلك انبعث منه وقد اشتد تسارعه عند نشره ، دخانٌ قنبي أزرق اختلط بنفثات الدخان الصاعدة من الغليون . وحين مضى الحبل دائراً حول المثقلة وقبل ان يصل ذلك الحدّ ، مضى خلال يدي اسطب يجردهما ويخددهما بالجراح اذ كانت قطعتا الخيش المحشوتان اللتان تلبسان في مثل هذه الظروف لوقاية الايدي قد سقطتا مصادفة . وكان شأنه في هذا كمن يمسك سيف عدوه ذا الحدين من شفرته ، وعدوه يحاول طوال الوقت ان ينتزعه من قبضته .

« بلّ الحبل ! بلّ الحبل » — كذلك صاح اسطب للقائم عند البرميل من رجال التجديف فنزع هذا قبعته وغرف بها من ماء البحر وصبه على الحبل * ، وأرخوا الحبل دورات أخرى حتى استقر في موضعه وعندئذٍ طار القارب في الماء السامط كأنه قرش مغطى بالزعانف فحل اسطب محل طاشطيقو ، اي ذهب الى المقدمة ، ورجع طاشطيقو الى المؤخرة وليس يتم ذلك دون ترنح وتأرجح في تلك الهيعة المتمايلة .

لو انك رأيت الحبل المتذبذب ممتداً على طول الجانب العلويّ من القارب ورأيته وقد غدا مشدوداً موتراً اكثر من وتر القيثارة لظننت ان القارب له

* قد أقول هنا لادل على ان هذا أمر لا غنى عنه بأنهم كانوا يستعملون في السماكة الهولندية قديماً ممسحة يعصرون منها الماء على الحبل المسترسل كما كانت سفن كثيرة أخرى تزوّد بابريق او منشل لهذه الغاية . أما القبعة فهي أصلح الادوات جميعاً .

أرينتان: واحدة يشق بها الماء وثانية يشق بها الهواء وهو يتمخض ماضياً بين العنصرين اللذين يقاومانه معاً . وأخذ شلال دافق من الماء يلعب عند صدر القارب ودوامة تدور في المخر دون توقف ؛ وعند أية حركة خفيفة من داخل القارب ولو كانت تحريك البنصر كان القارب المتذبذب المقعقع يميل على حافته المتشنجة في الماء. كذلك اندفعوا وكل امرىء منهم تشبث بمقعده بكل ما أوتيه من قوة لكيلا ينطرح بين الزبد ، وقد تطوّى جسم طاشطيقو الفارع على الجذاف الموجّه مقرفصاً كأنه مثنيّ كي ينزل مستوى مركز الثقل ؛ وخيل اليهم أنهم اجتازوا محيطات اثر محيطات وهم منطلقون في مسيرهم حتى خفف الحوت قليلاً من سرعة هروبه .

وصاح اسطب بالرجل القائم في المقدمة : « شدّ ! شدّ ! » ثم استداروا بوجوههم نحو الحوت وأخذت كل الايدي تسحب القارب نحوه ، بينما كان القارب ما يزال ينجرّ قدماً بقوّة اندفاع الحوت فلما أصبح القارب على موازاة جانبه أثبت اسطب ركبته في القليط الأرعن وزرق الحوت الطائر بحربة اثر أخرى . ثم ألقى أمره فانحاش القارب متقاعساً عن طريق متمرّغ الحوت الرهيب ثم استدار ليحاذيه من أجل القيام بهجمة أخرى .

حينئذٍ كان الدفق الاحمر ينصب منهمراً من جميع جوانب الحوت كأنه جداول تتدفق منحدرة من التلال . ولم يكن جسمه المثخن يتقلب في زبد بل في دم يعبّ ويطفح بالنفاخات مسافة باعات كثيرة في مخر القارب ، وتموجت أشعة الشمس المائلة على هذا الحوض القرمزي في البحر فانعكست في كل وجه ، حتى ان كل من نظر منهم في وجه صاحبه حسبه أحمر اللون . وطوال ذلك كله كانت تنطلق بألم مبرح من متنفس الحوت نفثة اثر نفثة من الدخان الابيض ، ونفثة اثر نفثة من فم الرائس الثائر وهو يزرقه بالحراب ؛ وكلما جذب حربة

معوجة منها (بحبل موصول بها) قوّمها مرة بعد مرة بضربها ضربات متلاحقة على الحافة ثم قذف بها في جسم الحوت واستعادها وهلم جرّا .

فصاح اسطب عندها بالرجل القائم عند المقدمة وقد أخذ غضب الحوت الذاوي يبرد : « قرّب منه ! قرّب » فحاذى القارب جانب الحوت ، فلما بلغ اسطب المقدمة أخذ يدس ببطء حربته الطويلة النافذة في الحوت ويبقيها هنالك ويوسعه مخضاً وإنهاراً في أناة ورفق كأنه بحيطته هذه يحاول ان يتحسس ساعة ذهبية كان الحوت قد ابتلعها، ويخشى هو ان يكسرها قبل ان تعلق بها صنارته . الا ان تلك الساعة الذهبية كانت هي الحياة الدخيلة في الحوت ، وها هي قد طعنت فقد أجفل الحوت من غيبوبته وذهب في حال لا يستطاع وصفها تسمى « حلاوة الروح » فأخذ يتمرغ تمرغاً مفزعاً في دمه ، وتلفع برشاش مجنون لاذع لا يستطاع اختـــراقه ، حتى ان القارب الناشب في الاخطار انحاز على التوّ متأخراً وبذل جهداً جاهداً وهو يتخبط ليخرج من ذلك الغبش الهائج المجنون الى وضح الفضاء والهواء .

وقرّ الحوت بعد تنفض ، وانقلب بمرأى من الملاحين، من جنب الى جنب، وهو يبسط فوهة نفاثته ويقبضها على نحو متقطع بشهقات وزفرات حـــادة مصلصلة مبرحة . وأخيراً انطلقت في الهواء المفزع دفقة اثر دفقة من الدم العبيط القاني المتخثر كأنه الدرديّ الأرجواني المترسب من الخمرة الحمراء، وسقط مرة أخرى وهوى يقطـّر جانبيه الهامدين في الأمواه . ذلك قلبه قد انفجر !

قال دغة : « مات يا سيدي ! »

فقال اسطب : «نعم فان غليونيه الاثنين قد خمدا» . وسحب هو غليونه من فمه ، ونفض الرماد الهامد فوق الماء ، ووقف لحظة يتأمل الجثة الجسيمة .

٦٢ المزراق

لا بد من كلمة تقال في شيء عرضنا له في الفصل السابق .

جرت العادة المستديمة في السماكة ان يفصل قارب التحويت مبتعداً عن السفينة والرائس فيه او قاتل الحوت هو الموجه المؤقت ، والزرّاق او مقيّد الحوت هو الذي يقوم على الجذاف الأمامي ، ويسمى هذا الجذاف باسم مجذاف الزراق . وتتطلب اول حربة يقذف بها الحوت ساعداً أيداً ومتناً وثيقاً ، اذ كثيراً ما تكون المسافة التي يقذف فيها المزراق الطويل – وهو راجح ثقيل – عشرين او ثلاثين قدماً . ومهما تكن المطاردة طويلة مضنية فالمتوقع من الزراق ان يجذف أثناء ذلك بأقصى طاقة ، بل المتوقع منه ان يضرب للآخرين مثلاً على الحيوية الخارقة بالتجذيف الفذ ، وبالصيحات الجهيرة المكرورة الجسورة . ماذا يعني ان يظل المرء يصرخ بأعلى صوته بينا جميع عضلاته الاخرى متوترة ناشزة ؟ ذلك شيء لا يدركه الا من جرّبه . ولو سألتني عن حالي لقلت لك : انني لا أستطيع ان أجأر في ارتياح وان أعمل في غير اكتراث ، في آن معاً . في مثل هذه الحال من التوتر والصراخ يسمع الزراق المنهوك ، دفعة واحدة ، وظهره الى الحوت ، صوتاً مستثيراً يهيب به قائلاً : « قف . اقذفه بها » . وعليه حينئذٍ ان يفلت مجذافه دون ان يضيعه وان يدور نصف دورة حول مركزه ويخطف المزراق من **شعبته** ، ويتأتى بما فضل لديه من قوة لغرسه في جسم الحوت . لا عجب اذن اذا نحن اعتبرنا الحواتين مجتمعين ان يجيء المزراق صائباً خمس مرات في كل خمسين مرة مواتية . ولا عجب ان رأينا كثيراً من الزراقين التعساء تنصبّ

عليهم اللعنات الوبيلة وتبخس حظوظهم ؛ ولا عجب ان يعمد بعضهم الى تفجير شرايينه في القارب ؛ ولا عجب ان غابت حوّاتات العنبر أربع سنوات وعادت بأربعة براميـــل ، ولا عجب ان رأى كثير من أصحاب السفن ان التحويت صفقة خاسرة ، اذ الزراق هو الذي ينجح الرحلة واذا تسرب النفس من جسمه فكيف يجده حين يصبح في مسيس الحاجة اليه !

ثم اذا كان المزراق صائباً عمد رائس القارب والزراق في اللحظة الحرجة التالية ، اي حين يبدأ الحوت في جريه ، الى ان يتبادلا موضعيهما ، هذا يعدو نحو المقدمة وذاك نحو المؤخرة ، معرضين نفسيهما وكل من في القارب للتهلكة . فاذا تمّ التبادل وقف الرائس او رأس الضباط على القارب الصغير في موضعـــه الصحيح في مقدمة القارب .

وأنا أرى هذا كله حمقاً لا ضرورة له ، مهما يكن رأي غيري فيه . ان على الرائس ان يقف في المقـــدمة من البداية حتى النهاية وعليه ان يقذف بالرمح وبالحربة ، وليس له ان يقوم بشيء من التجذيف الا في أحوال يعرفها كل من عمل في التحويت . وانا أعلم ان هذا قد يتضمن أحياناً بعض الخسارة في جانب السرعة أثناء المطاردة ولكن التجربة الطويلة في حوّاتات مختلفة تنتمي الى غير شعب واحد قد أقنعتني ان معظم ضروب الاخفاق في التحويت لم تتأتَ من سرعة الحوت في انطلاقه بقدر ما كانت ناجمة عما يعانيه الزرّاق من انهاك ، تحدثت عنه آنفاً .

واذا شاء الصيادون ان يوفروا الكفاية المطلوبة للصيد كان على الزراقين في هـــذا العالم ان يهبوا واقفين على أقدامهم من أحضان الراحة لا من بين قيود الإعياء .

٦٣

الشعبة

من الجذع تنمو الاغصان ، ومن الاغصان تتفرع شعبها . كذلك فصول الكتاب تنمو وتتشعب في الموضوعات الحفيلة .

وتستحق « الشعبة » التي ألمعت اليهـــا في الفصل السابق تنويهاً . فهي قناة منشعبة من رأسها ، ذات شكل فريد، طولها نحو قدمين، تغرز قائمة في الحافة اليمنى من القارب قريباً من الصدر لكي تتخذ مستنداً للطرف الخشبي من الرمح، اما طرفه الآخر المشحوذ العاري فانه ينتأ في انحدار من مقدم القارب . وبهذا الوضع يكون الرمح في متناول الرمّاح الذي يقذفه ، فينتزعه من مستقره حين يحتاجه كما يتناول الصياد بندقيته عن الحائط ، وقد جرت العادة ان يركز في الشعبة رمحان يدعيان الشفرة الاولى والشفرة الثانية ولاءً .

ولكل واحد من هذين الرمحين خيط يصله بحبل التحويت، والغرض من ذلك قذف الاثنين – ان أمكن – في جسم الحوت، دون تمهل بين الضربتين حتى اذا سحبا فقد يطاوع احدهما ويستعصي الآخر . ذلك نوع من مضاعفة الفرص . ولكن بما ان الحوت يجري جرياً خاطفاً عنيفاً مضطرباً حين يتلقى الشفرة الاولى يغدو من المستحيل على الزرّاق في الغالب ان يغرس الشفرة الثانية فيه، ولو كانت حركاته خاطفة كالبرق . ومع ذلك : فان الشفرة الثانية لما كانت موصولة بالحبل ، والحبل ينساب، كان لا بد لها في جميع الاحوال من ان تقذف خارج القارب على نحو ما، صوب شيء ما ، والا أصبحت جميع الايدي عرضة لأشد

خطر . وفي مثل هذه الاحوال تلقى في الماء . ومما يضمن تحقيق هذا الأمر على وجه سليم وجود اللفائف الاحتياطية حول الصندوق (وقد ذكرتها في فصل سابق) . ولكن ما كلّ مرّة تسلم الجرة. فقد يجيء هذا التدبير الدقيق مصحوباً بكل عارض مؤسف مميت .

ثم اعلمْ ان الشفرة الثانية حين تقذف خارج القارب تصبح من ثمّ رعباً متدلياً مرهف الحدّ، وتتوثب متقلبة هنا وهناك حول القارب والحوت فتشوّش الحبال او تقطعها وتثير هياجاً هائلاً حيثما اتجهت . وليس في الامكان ضبطها إلا حتى يقتل الحوت ويصبح جثة هامدة .

تأمل اذن كيف يكون الحال حين تنازل القوارب الاربعة حوتاً فذاً في قوته ونشاطه ودرايته، حين تتدلى من حوله ثماني او عشر شفرات ثانية، في وقت معاً ، لانه يحوز تلك الصفات ولان آلافاً من الملمات قد تعرض في تلك الوقعة الباسلة . ذلك ان كل قارب مزود حقاً بعدد كثير من المزاريق تربط الى الحبل ان طاش الاول ولم يمكن استرداده . لقد راعيت وجه الامانة فيما اوردته من أمر هذه الدقائق لانها تعين على ان تجلو كثيراً من الفقرات الهامة مهما تبلغ دقتها، في مشاهد أنوي رسمها فيما يلي من فصول .

٦٤ عشاء اسطب

ذلك الحوت الذي صاده اسطب تمّ قتله بعيداً بعض الشيء عن السفينة . وكان الجو في هدأة ، فجعلنا من القوارب الثلاثة قواطر مردفة ، وأخذنا نسحب « حصيلة فوزنا » الى الباقوطة . كنا ثمانية عشر رجلاً ذوي ست وثلاثين ذراعاً ، ومائة وثمانين إصبعاً ، نجهد ساعة اثر ساعة في جرّ تلك الجثة الهامدة المترهلة ، وكأنها تكاد لا تتزحزح أبداً الا بعد فترات طويلة. ذلك شاهد قويّ على جسامة تلك الكتلة التي كنا نجرها. ذلك لان أربعة عمال او خمسة على قنال هانج – هو العظيمة – أو أياً كان اسمها [1] – في الصين يستطيعون وهم على مسرب المشاة ان يجرّوا ينكاً مشحوناً مدى ميل كل ساعة ، أما تلك « البارجة » التي كنا نجرها فقد كانت تدلف ببطء كأنها معبأة كلها بالرصاص الخام .

حـــل الظلام ، غير ان ثلاثة أضواء مثبتة في مواضع مختلفة من الاشرعة الرئيسية في الباقوطة أرشدتنا رغم خفوتها اي طريق نسلكه ؛ حتى اذا اقتربنا منها رأينا آخاب قد أنزل واحداً من القناديل العديدة على هيكل السفينة ، وحدج الحوت المسحوب لحظة بنظرة خاوية ، وأصدر أوامره المعتادة التي تقضي بالمحافظة عليه ليلاً ، وسلّم القنديل لاحد البحارة ثم مضى الى قمرته ولم يغادرها حتى الصباح .

---

[1] تسمى القنال العظمى او شا – هو او ين – هو في ولاية شانتونج .

لقد أبدى آخاب أثناء الاشراف على مطاردة الحوت حيويته المعهودة — ان صحّ ان اسميها كذلك ، فلما أصبح ذلك المخلوق جثة ميتة ، بدا وكأن استياءً غامضاً او جزعاً او يأساً قد أخذ يعمل في نفسه ، حتى كأنما كان منظر تلك الجثة يذكره بأن موبي ديك لم يقع بعد ، وأنه لو جرّ الى سفينته ألف حوت آخر فلن يخدم ذلك غايته الكبرى المجنونة قطميراً . ولو أنك سمعت الصوت على ظهر الباقوطة لقلت في الحال ان الايدي كانت تتهيأ لالقاء المرساة في الاعماق اذ كانت السلاسل الثقيلة تسحب على ظهر السفينة، وتدفع فتجلجل وهي تنفذ من المجازات في الجوانب . غير ان هذه الحلقات المجلجلة انما كانت لارساء الجثة الجسيمة نفسها لا لارساء السفينة ؛ وقد ربط رأس الحوت الى مؤخرة السفينة ، وذنبه الى مقدمتها فاضطجع هيكله الأسود الى جانب هيكل السفينة ، فلو رأيته خلال ظلام الليل الذي كان يحجب الصواري والاشرعة والحبال لحسبت الاثنين : الحوت والسفينة وكأنما ربطا معاً تحت نير واحد ثورين هائلين ، بينا اضطجع أحدهما وظل الآخر قائماً * .

ولئن كان آخاب ذو المزاج المتقلب قد غدا هادئاً صامتاً — او على الاقل ذلك هو مبلغ ما تأدى الينا من حاله ونحن على ظهر السفينة — ، فان الضابط الثاني

* قد أورد هنا نبذة يسيرة فأقول : حين يرسى الحوت الى جانب السفينة فان أقوى مقبض تمسكه منه السفينة وأوثقه انما يقـع في الجنبين او الذنب ، وبما ان هذا الجزء منه اكثف من سواه فانه يكون اثقل ايضاً (الا اذا استثنيت الزعانف الجانبية) ولذلك فان مرونته حتى في حال الموت تجعله يغطس كثيراً تحت مستوى السطح حتى ان المرء لا يستطيع ان يبلغه بيده من القارب ليضع السلسلة حوله . غير أنهم يتغلبون على هذه العقبة بلباقة وحنكة اذ يعدون حبلاً صغيراً قوياً وله في طرفه البعيد عوامة خشبية وثقل في الوسط بينا الطرف القريب مربوط الى السفينة . وحسب تدبير حاذق تجعل العوامة الخشبية بحيث ترتفع على الجانب الآخر من الكتلة بحيث أنها حين تطوق الحوت ، تشفع بها السلسلة ، فاذا انزلقت على طول الجسم ربطت ربطاً محكماً حول الجزء الادق من الذنب اي عند نقطة التقائه بالجانبين او الشطرين العريضين فيه .

اسطب زهاه النصر فأبدى من الزعل الحيوي ما لم يعهد منه، وان ظلّ زعله جميلاً طيباً . فقد تملكه انهاك غير معهود حتى ان رئيسه استاربك الهادىء الرصين وكل اليه حينئذٍ أمر التفرد بالاشراف على شئون الحوت . وسرعان ما استبان سبب صغير كانْ يستثير كل تلك الحيوية لدى اسطب . كان هذا الرجل ذا تفرّد في مطعمه شديد القرم الى لحم الحوت يتلذذ به ويستمرئه طعاماً .

« شريحةً ، شريحةً ، قبل أن أنام . دغة، اذهب واقتطع لي قطعة من العصعص » .

وليعلم ان هؤلاء الصيادين البواسل، حسبما تقضي القاعدة الحربية العظمى، لا يجعلون العدو يقوم بالنفقات الجارية التي تتطلبها الحرب (على الاقل قبل ان يتحققوا من تباشير الرحلة) الا انك مع ذلك تجد بعض هؤلاء النانتوكتيين – بين الحين والحين – يستطيبون ذلك الجزء الذي يؤثره اسطب من لحم حوت العنبر بحيث يشمل ايضاً جميع الطرف المستدق من عجب الذنب .

قطعت تلك الشريحة حوالي منتصف الليل وأعدت، ووقف اسطب راسخاً تحت ضوء قنديلين مزودين بزيت حوت العنبر يتناول عشاءه العنبري عند رأس المسحاب كأن ذلك المسحاب مائدة طعام . ولم يكن اسطب وحده هو الآدب الوحيد الذي يحتفل بأكل لحم الحوت تلك الليلة ، فقد تجمعت حول جثة اللوياثان آلاف على آلاف من أسماك القرش تمزج تمتماتها بأصوات المضغ المنبعثة من بين فكي اسطب، وتقيم وليمتها الدسمة فوق ترارته وسمنته . وكثيراً ما كان القلة النائمون في « شقادفهم » يستيقظون فزعين حين تلطم بأذنابها هيكل السفينة لطمات حادة على بعد بضع بوصات من قلوب أولئك النوّام . واذا انت حملقت من فوق الحافة رأيتها (مثلما من قبل سمعتها) تتمرغ في الامواه المعتمة المتبلدة، ثم تنكفىء على ظهورها حين تمزع قطعاً كروية ضخمة من الحوت تبلغ الواحدة

في حجمها قدر رأس الانسان . ويبدو هذا العمل الفذ الذي تقوم به القرشان معجزاً . كيف يتأتى لها، فوق مثل هذا السطح الذي يبدو في الظاهر ممتنعاً على الهجوم ، ان تقوّر هذه اللقم المتساوية في حجومها ؟ ذلك أمر يظل جزءاً من مشكلة كلية كبرى بين المشكلات . أما الاثر الذي تتركه في جسم الحوت فيمكن ان يشبّه بالتجويف الذي يحدثه النجار وهو يدوّر ثقباً يثبت فيـــه « البرغي » .

وسْط جميع الرعب الصارخ والشيطانية الهائجة في معركة بحرية ترى القرشان تحدق بشغف نحو ظهر السفينة كأنها كلاب جائعة حول مائدة يعرق عليها اللحم الاحمر عن العظم، وهي على أهبة ان تنقض على أي رجل قتيل يرمى لها . وبينا الجزارون البواسل فوق المائدة الكبرى – اعني السفينة – في نهم المستلحم القرم يسعى احدهم ليتخذ من لحم أخيه الحيّ جزراً يعرقه بسكين حادة مذهبة مزخرفة ، تكون القرشان ذات الافواه المنصّلة بالجوهر تحت المائدة، تتعارك متنازعة على الجثة الملقاة . واذا قلبت الوضع كله رأساً على عقب، فان الحال لا تتغير، أعني ان ما فوق المائدة وما تحتها عمل قرشاني مروّع يرتكبه الفريقان . وحيتان القرش ايضاً هي الرفقة الدائمة لكل سفن الرقيق التي تجتاز الاطلسي، لا تنفك تخب الى جانب السفن، لتكون في الخدمة اذا كانت هناك صرة يراد نقلها الى اي مكان او عبد ميت يراد دفنه دفناً لائقاً . وقد أستطيع ان أورد هنا مثلاً او مثلين من هذا القبيل يتناولان الشروط المقررة والاماكن والمناسبات التي يجتمع فيها شمل حيتان القرش وتولم ولائمها البهيجة ؛ ومع ذلك كله الذي قلته في حيتان القرش فان المرء لا يتصور زماناً او مناسبة تكون فيها في أعداد لا تحصر وعلى اشد ما تكون مرحاً في أمزجتها وسروراً، مثل تجمهرها حول حوت عنبر قتيل قد رفيء ليلاً الى حواتة في البحر . فاذا لم ترَ ذلك المنظر ابداً فاحبسْ عليك رأيك الذي اتخذته حول صلاحية عبادة الشيطان ، وكفّ عن أمنياتك لاستمالته واسترضائه .

ولكن اسطب، مع ذلك، لم يتنبه الى تمتمات الحفل الذي كان قائماً دونه مثلما ان اسماك القرش لم تبالِ بالتمطق الذي كانت ترسله شفتاه الشهويتان .

«طباخ يا طباخ ! – أين هو فليس العجوز ؟» – صاح اسطب بعد فترة وقد زاد المسافة ما بين رجليه تباعداً كأنما يحاول ان يجعل لعشائه قاعدة مأمونة ، وفي الوقت نفسه غرز شوكته في الصحن كأنه يطعن بحربته ، وصاح : « طباخ يا طباخ ! – أبحرْ الينا ، يا طباخ ! »

لم يكن الاسود العجوز في حال ابتهاج اذ كان من قبل قد أزعج من سريره الدافىء في غير إبّان الدعاء الملائم ، فعاد يقزل من مطبخ السفين ، اذ كان شأنه شأن كثير من السود الهرمين قد أصابه شيء في « ماعوني » ركبتيه لانه لم يكن يعتني بنظافتها عنايته بغيرهما من المواعين . جاء هذا العجوز فليس – كما كانوا يسمونه – يتثاقل ظالعاً مؤيداً خطوته بملقطه، وكان مصنوعاً من طوق حديدي مطرّق ، صناعة جاسية . ذلك الآبنوسي العتيق أتى يغالب الاعياء فلما امتثل الأمر وقف وقفة متيبسة مقابل مائدة اسطب ، وحنى ظهره المقوّس دانياً ، وقد شبك يديه قدّامه وأراح جسمه فوق الملقط المشعوب ، ومال برأسه في الوقت نفسه ناحية لعله يسمع ما يقال بأذنه السليمة .

فقال اسطب وهو يرفع بسرعة لقمة محمّرة الى فمه : « طباخ ، ألا تعتقد ان هذه الشرائح المشوية قد بولغ في انضاجها ؟ لقد أيبستها كثيراً بالتقليب يا طباخ انها شديدة الرقة . ألم تسمعني أقول دائماً ان الشرائح المشوية من لحم الحوت لا بد ان تكون سميكة كي يحسن شواؤها . هذه أسماك القرش هناك عند جانب السفينة ألا ترى أنها تفضل ان تكون الشرائح سميكة نيئة ؟ اي ضجة ترسلها الينا ! اذهب وتحدث اليها ايها الطباخ . قل لها اننا نرحب بضيافتها اذا هي كانت مهذبة معتدلة ولكن عليها ان تظل هادئة . هبلتني أمي ان كنت أستطيع

ان أسمع صوتي بـــين ضجيجها . اذهب اليها يا طباخ وبلغها رسالتي . هاك القنديل » . — وناوله قنديلاً كان على مائدته — « اذهب وألقِ عليها موعظة منك » .

تناول فليس العجوز ذلك القنديل الممدود اليه متبرماً ، وذهب يظلع عبر ظهر السفينة نحو حافتها، ثم مدّ احدى يديه بالقنديل ودلاّه فوق الماء ليضوىء له المنظر فيستبين جمهوره ، ومدّ يده الاخرى بالملقط وجعل يلوحه في رزانة وجدّ ، وانحنى انحناءة طويلة فوق جانب السفينة ، وبدأ يخاطب أسماك القرش متمتماً بينا كان اسطب ، وقد تسلل من ورائه ، يسمع كلّ ما يقول :

« اكواني المكلوقات : انا مأمور ان أقول إنه توقفوا ديك الدوشة الملئون هناك . سمئتوا ؟ اوقفوا ديك طق طق الملئون من الشفتين . سي اسطب يقول انكوا تقدروا تملأوا كروش ملئونة بتاءكوا حتى فم الكروش . لكن وربّينا لازم توقفوا ديك الدوشة الملئون » .

فقاطعه اسطب وهو يشفع خطابه بخبطة مفاجئة على كتفـــه : « طباخ يا طباخ ! أعمى الله عينيك ، لا تشتم وأنت تلقي موعظة . ليست هذه طريقة صالحة لترد المذنبين الى التوبة والندم ، ايها الطباخ » .

فاستدار الطباخ متبرماً يهم بالذهاب وقال : « من دا ؟ ما دام كده، انت تقول وأظة بنفسك » .

— « لا يا طباخ ، بل امضِ انت في وعظك ، امضِ » .

— « جميل . ايتها المكلوقات ، الإكوان المهبوبين ... » .

فصاح اسطب مستحسناً : « أحسنت ! تملقها بمثل هذا ، جرّب هـــذه الطريقة » فمضى فليس يكلمها :

« انتو هيوانات قرش وهو بطبئه شره كتـــير ، لكن برده أقول لكم يا إكواني انه الشره داك — امنأوا اللطم بالدنب ! كيف ممكن تسمأوا ان كان بقيتوا مستمرين في اللطم والأض الملئون هناك ؟ »

فصاح اسطب وهو يشدّ على رقبته : « أيها الطباخ لا أحب ان أسمع تلك الشتائم . تحدث اليها حسب الاصول » .

واستأنف الموعظة مرة أخرى :

« ان الشره بتاءكم يا إكواني لا ألومكم كتير من أجله . دا طبيئة ، والواهد منا أسير الطبيئة ، لكن لازم هو يتهكم في داك الطبأ الشرير . دا هي المسألة . انتو هيوانات قرش — مؤكد ؛ لكن اذا انتو تهكمتو في القرش اللي فيكو بقيتو ملايكة ، لان الملاك هو قرش تهكمه الارادة القوية . إكواني : هاولوا انكم تكونوا مهذبين وانتو بتاكلوا من الهوت داك . أقول : لا تمزقوا الشهم من فم جاركو . مش كل قرش له هق مثل القرش التاني في الهوت ؟ لكن والله ما واهد فيكم له هق في الهوت . داك الهوت من هق زول غيركو . أنا آرف انه في منكو ناس الكشم بتاؤهم كبير، اكبر من الكشم بتاء تانيين لكن اهياناً اللي كشمه كبير بكون كرشه زغير . وهذا مأناه انو كبر الكشم مش أشان انه الواهد يبلأ لقمة كبير ، لكن أشان يقطأ شهم ويطأم القرش الزغير اللي ما يقدر يزاهم السمكات الكبار » .

فقال اسطب : «أحسنت يا فليس، تلك روح مسيحية . امضِ في وعظك» .

— « مفيش فايدة . أولاد كلب ملئونين راه يبقوا يتزاهموا ويتلاطموا يا سي

اسطب. ما بيسمئوا ولا كلمة واهدة. ما في فايدة من الوأظ للهيوانات السفاهين دول – زي انت ما سميتوهم – هتى كروشهم تبقى مليانة ، لكن كروشهم ما ليها هدود ، بدون قرار . لكن اذا ملوهم كان ما فيهم يسمئوا نصيهة ، لأنهم بيروهو يغطسوا في المويه وبينوموا فوق المرجان نوم شديد وما بيسمئوا اي شي أبداً أبداً » .

– « لعمري انني لأكاد أكون من رأيك في هذه المسألة . لذلك أختم انت بنثر البركات يا فليس ثم أذهب انا لتناول العشاء » .

ولما سمع فليس هذا شبك يديه أمامه فوق رءوس جمهوره السمكي ورفع صوته الأجش صائحاً :

– « اكواني الملئونين . املوا دوشة ملئونة كتير قد ما انتو تريدوا . ملوا كروشكم الملئونة هتى تنفجر ثم تموتوا » .

فقال اسطب وهو يستأنف عشاءه عند المسحاب : « والآن ايها الطباخ قف حيث كنت تقف قبلاً ، هنالك ، قبالتي وكن على انتباه » .

– « كلي انتباه » – ذلك ما قاله فليس وانحنى ثانية فوق ملقطه في وضع كالذي أمر به سيده .

وانطلقت يد اسطب في الطعام وهو يقول : « سأعود الى موضوع هـــذه الشرائح مرة أخرى . أولاً : كم عمرك ، أيها الطباخ ؟ »

فقال الاسود العجوز في برم : « شنو دخل الأمر في مسألة الشّرايـِه ؟ »

– « اخرس ! كم عمرك ؟ »

فتمتم مكتئباً : « تسئين تقريباً – كدا بيقولوا » .

— « أعمّرت هذا العمر كله حتى ناهزت المائة ، أيها الطباخ ، ثم لا تعرف كيف تشوي شرائح حوت ؟ » ثم ملأ فمه بلقمة أخرى بعد ان لفظ آخر كلمة ، حتى كانت اللقمة كأنها تكملة للسؤال . « أين ولدت يا طباخ ؟ »

— « وراء باب الأنبر في مشدية تثوم في روانوك » .

— « ولدت في معدية ؟ هذا غريب ايضاً . أريد ان أعرف اي بلد ولدت فيه يا طباخ ؟ »

فصاح بحدة : « مش قلت لك في منطقة روانوك ؟ »

— « لا ، لم تقل ذلك ايها الطباخ . ولكني سأخبرك بما استخلصته يا طباخ. عليك ان تعود الى وطنك لتولد من جديد . انك لا تزال تجهل كيف تسوّي شرائح الحوت » .

فحرد واستدار ليذهب وهو يقول مبربراً : « أليّ لأنة ان سوّيت واهدة تانية » .

— « ارجع يا طباخ — هات الملقط ، خذ هذه الشريحة وقل لي هل تظن أنها مسوّاة كما يجب ؟ خذها ، أقول — » ومدّ اليه بالملقط — « خذها وذقها » .

فوضع الزنجي العجوز قطعة اللحم بين شفتيه لحظة وتلمسها ثم تمتم :

« أهسن شريهة دقتها في هياتي . طرية ، رخصة جداً » .

واعتدل اسطب متوازناً مرة أخرى وقال : « هل تنتمي الى الكنيسة يا طباخ ؟ » فقال العجوز متبرماً : « مريت بكنيسة مرة في كيب تاون » .

«اذن مررت مرة في حياتك بكنيسة مقدسة في كيب تاون ولا ريب أنك سمعت الراعي الصالح فيها يخاطب مستمعيه بقوله : اخواني المحبوبين أليس

كذلك يا طباخ ؟ ومع ذلك فأنت تأتي هنا وتكذب عليّ هذه الكذبة الشنعاء، أليس كذلك ؟ » وأردف قائلاً : « أين تراك تتوقع ان تذهب ؟ »

فتمتم وقد استدار نصف دورة قائلا : « اذهب الى السرير هالاً » .

— « قف ! — ارسِ ! — أعني حــين تموت يا طباخ . سؤال رهيب فما جوابك عليه ؟ »

فقال الزنجي في بطء وقد غيّر هيأته وسحنته : « لما الأسود الأجوز دا بيموت هو نفسه مــا داير يروه مكان لكن فيه واهد ملاك مبروك بيجي ياكده » .

— « يأخذه ؟ كيف ؟ في عجــلة تجرها أربعة خيول كما أخذوا ايليا ؟ ويأخذونه الى أين ؟ »

— « فوق » قال فليس ، ورفع ملقطه مستقيماً فوق رأسه ، وأبقاه هنالك في خشوع شديد .

ـ « كذا اذن تتوقع ان تذهب الى قمة الصاري الرئيس، اكذاك هو يا طباخ حين تموت ؟ لكن ألا تعلم انك كلما أبعدت في الارتفاع زادت شدة البرد ـ قمة الصاري الرئيس ، أكذاك ؟ »

فقال فليس وقد عاد اليه تبرمه : « داك أنا ما قلته أبداً » .

ـ « قلت : فوق ، أليس كذلك ؟ والآن انظر انت نفسك الى اين يشير ملقطك . ولكن لعلك تتوقع ان تصل الى السماء زحفاً من خلال « الثقب الأعلى » يا طباخ . لا . لا يا طباخ لن تبلغ هناك الا بالطريق المستقيم اي ان تدور وتذهب من ناحية الاشرعة والحبال . عمل محفوف بالمجازفة ولكن لا بد من ادائه والا فلا ذهاب . لكن لم يذهب أحد منا الى السماء بعد . أنزل

ملقطك يا طباخ واستمع الى أوامري . أتسمع ؟ أمسك قبعتك باحدى يديك ، وضع الأخرى على قمة قلبك حين ألقي اليك أوامري يا طباخ . ماذا ! أهذا موضع قلبك هناك ؟ — ذلك هو حوصلتك . ارفع . الى أعلى — أي نعم — ها قد وجدته ؛ ضع يدك هنالك وانتبه » .

« كلي انتباه » — ذلك ما قاله الاسود العجوز وقد لبّى ما أمره به سيده ، وهو يلوي رأسه الاشمط كأنه يريد ان يضع أذنيه الاثنتين أمامه معاً في آن واحد .

« أنت ترى أيها الطباخ ان هذه الشرائح التي صنعتها كانت غاية في الرداءة ، ولذلك غيبتها انا عن الانظار بأسرع ما أستطيع ، أنت ترى ذلك ، أليس كذلك؟ لذا اذا سوّيت لي شرائح من لحم الحوت في المستقبل لتقدمها الى مائدتي هذه الخاصة — أعني المسحاب — فاني أخبرك ما يجب عليك ان تصنعه كي لا تزيد في إنضاجها . ارفع الشرائح في يد وضع فحمة حية في يدك الاخرى فاذا فعلت ذلك فاشوها . فهمت ؟ وغداً يا طباخ حين نأخذ في تقطيع الحوت كن على مقربة مني لكي أعطيك رءوس زعانفه ، فتضعها في الخلـــل أما أطراف شطري الذنب فعليك ان تتبّلها ، يا طباخ . هذا كل ما هنالك . تستطيع ان تذهب » .

وما كاد فليس يبعد ثلاث خطوات حتى استدعاه اليه وقال: «أريد كستلاتة في عشائي غداً مساءً في النوبة الوسطى . سامع ؟ أبحر عني اذن . هالو ! قف ! انحنِ قبل ان تذهب . كف عن الحركة مرة أخرى . بيض الحوت لفطوري — لا تنسَ » .

فتمتم الرجل العجوز وهو يظلع مدبراً : « والله كنت أحب ان الهوت ياكله بدل هو ما ياكل الهوت . ملئون آنا ان لم يكن هو قرش اكتر من سيد القرشان كلها » — قال هذه القولة الحكيمة ومضى الى مضجعه .

٦٥ الحوت بين الوان الطعام

قد يكون من المستغرب المستهجن ان يغتذي المرء بالحيوان الذي يغـــذي بشحمه قنديله، وان يأكله — كما فعل اسطب — على ضوء شحمه المحترق ؛ ولما كان هذا الامر غريباً فلا بد لي من ان أسهب في تبيان شيء من تاريخـــه ومن الفلسفة الكامنة وراءه .

في الروايات ان لسان الحوت الاثين كان يعد في فرنسا منذ ثلاثة قرون طرفةً لذيذة، ويكلف طاعمه غالياً . وان طاهياً في بلاط هنري الثامن حصل على مكافأة لطيفة لانه ابتكر مرقاً شهياً يؤخذ مع البربوز المشوي ، وانتم تذكرون ان البربوز من فصيلة الحيتان . ولا يزال حوت البربوز حتى اليوم يعد حقاً أكلة لذيذة اذ يكبّب لحمه في كرات بحجم كرات البليارد، وتتبل وتمزج بالبهارات حتى ليحسبها من رآها كرات لحم السلحفاة او لحم العجل . وكان الرهبان القدامى في دنفرملاين مغرمين بها، وكان الملك يمنحهم منحة كبيرة من اجل الحصول على البربوز .

والحق ان جميع صيادي الحوت — على الاقل — يعدون لحمه لوناً رفيعاً من الطعام لو لم يكن مبذولاً لهم بكثرة . ولكن المرء يفقد شهوته الى الاكل حين يجلس ازاء سنبوسكة من اللحم تكاد تبلغ مائة قدم طولاً . ولذلك لا يقبل على اكل لحم الحوت في ايامنا إلا من كان بعيداً عن التنوق المسرف مثل اسطب ؛ أما الأسكيمو فليسوا على حظ من التنوق ونحن جميعاً نعلم انهم يعيشون على أكل

لحم الحيتان، ولديهم غلة عتيقة نادرة من زيت القطارات المعتق الفاخر . ويصف زغرندا — وهو من اشهر اطبائهم — قطعـــاً من الشحم للاطفال لانها رخصة مغذية [1] . وهذا يذكرني ببعض الانجليز الذين اتفق ان خلفتهم حواتة في جزيرة جرينلاند منذ عهد بعيد فقد عاش هؤلاء حقاً على كسر وفضلات مفرغـــة من حيتان القيت على الشاطىء بعد انتزاع الشحم، وظلوا على ذلك اشهرا عديدة . وهـــذه الفضلات يسميها الهولنديون « الفراطر » — الفاكهة المقلية بالدهن — وهي حقاً تشبهها كثيراً لانها دهماء هشة ورائحتها كرائحة الجوز المعجون او الكعك الهش المبسوس بالدهن، وهي طازجة لدى ربات البيوت باستردام منذ عهد . ولها منظر مطمع بالأكل حتى ان اشد المتعيفين ممن لا يعرفونها يكادون لا يستطيعون ان يكفّوا ايديهم عنها .

ولكن مما يبخس حظ الحوت فيحرمه من ان يكون لوناً تثني عليه الحضارة هـــو ترارته وسمنته الفائقة . فهو في البحر كالثور الذي يسمّن لينال صاحبه الجائزة، تحول شحومته دون الاستمتاع به . تأمل حردبته، فلعلها كانت طيبة للأكل كحردبة الجاموس (وهي تعد لوناً نادر المثال) لو لم تكن هرماً شامخاً من الشحم . أما زيت الحوت نفسه فما أشد عذوبته وزبديته، كأنه لب جوز الهند الابيض الشفاف الذي انعقد بعضه هلاماً في الشهر الثالث من عمره، الا انه بالغ الدسم فلا يصلح بديلاً من الزبدة . ومع ذلك فان كثيراً من الحواتين لديهـــم طريقة من خلطه بمادة اخرى ثم الافادة منه . فالبحارة في نوبات الرقابة الطويلة ليلاً كثيراً ما يغمسون البسكويت في مراجل الزيت الضخمة ويقلونها فيه زمناً؛ وكم من عشاء لذيذ صنعته لنفسي كذلك .

أما اذا كان حوت العنبر صغيراً فان مخه يعد لوناً لذيذاً من الطعام، اذ يكسر

---

[1] هذه المعلومات عن الاسكيمو استمدها ملفل من اسكورسبي، اما اسم الطبيب فلعله واحد من الاسماء التي وضعها للسخرية من اسكورسبي نفسه مثل « القبطان سليت » وغيره .

قحفه بفأس، ويسقط شطرا المخ، وتسحب الفلقتان اللتان يغلب عليهما البياض (وكأنهما صحنان كبيران من المهلبية) ثم يخلط بهما الدقيق، وتسوّى منهما أشهى أكلة، تشبه في طعمها طعم رءوس العجول، وهي لون محبب الى نفوس اهـــل اللذائذ البوهيميين، وكلنا يعلم ان بعض الفتيان الفارهين من البوهيميين يكثرون من تناول مخ العجول وبذلك يصبح للواحد منهم تدريجاً مخه الصغير الخاص به، فيمكنه حينئذٍ ان يميز بين رأس العجل ورأس نفسه ، وهو أمر يتطلب قدرة فائقة على التمييز دون ريب . وهذا هو السر في أنّ الفتى العبل الفاره الذي نال قسطاً من الذكاء يمثل — اذ يوضع رأس العجل قدامه — منظراً باعثاً على الحزن لا مثيل له . ذلك ان الرأس كأنما ينظر نحوه ويقول له بلسان الحال : « حتى انت يا بروتس ! »

وأبناء البرّ ينظرون الى أكل الحوت في تقزز ونفور، ولعل هذا غير ناجم من ان الحوت كله دهني . وانما ينشأ فيما يبدو من اعتبار سبق ذكره وهو ان المرء يحب ان يأكل شيئاً من صيد البحر طازجاً وان يأكله على ضوءٍ مستمد منه . لكن لا ريب في ان اول رجل ذبح ثوراً عدّ قاتلاً ولعله شنق، واذا كان الذين حاكموه ثيراناً فمن المؤكد انهم حكموا عليه بالموت شنقاً، وهو يستأهـــل ذلك المصير دون ريب ان كان القاتل يستأهل الاعدام . اذهب الى سوق اللحم مساء السبت وانظر الحيوانات التي تمشي على رجلين تحدق في صفوف الحيوانات الميتة ذوات الارجل الاربع . أليس هذا المنظر ينتزع ضرساً من فك امرىء قرم الى أكل لحوم البشر ؟ أكلة لحوم البشر ؟ أي امرىء ليس كذلك ؟ لو ان امرءاً همجياً من فيجي ملّح مبشّراً نحيفاً وحفظه في بيته ليكون زاداً في مجاعة متوقعة، لو ان هذا الهمجي الحريص فعل ذلك لكان فعله مقبولاً محتملاً يوم يقوم الناس للحساب اكثر من عملك انت ايها النهم العفج المتحضر المستنير، انت يا من تطرح الاوز ارضاً وتولم على أكبادها المنتفخة حين تتناول : مكبباً من اكباد الاوز السمينة وقد طبق بالشحم والكمأة .

غير ان اسطب يأكل الحوت على ضوء زيته؛ أليس كذلك ؟ فهو يضفي اهانة على الأذى ، أليس كذلك ؟ انظر الى مقبض مديتك يا عزيزي النهم المتحضر المستنير وأنت تأكل لحم البقر المحمر ، من أي شيء صنع ذلك المقبض؟ — ألم يصنع من عظام شقيق الثور الذي تأكله ؟ وبأي شيء تخلل اسنانك بعد ان تلتهم إوزة سمينة ؟ بريشة من ذلك الطائر نفسه . وبأي قلم يخط سكرتير جماعة مكافحة الظلم والتعذيب الواقع على الاوز منشوراته الرسمية ؟ ان الجمعية لم تقرر استعمال قلم الصلب (استيليو) وحده دون سواه إلا منذ الشهر الماضي او الشهرين الماضيين .

٦٦ مذبحة بين اسماك القرش

حين يصاد حوت العنبر بعد العناء الطويل المضني ، في رحلة صيد بالبحار الجنوبية ، فانه يجنب الى السفينة في ساعة متأخرة من الليل ، واذن فليس في المعتاد – بعامة – ان يبدأ البحارة بتقطيعه وتجزئته . لان هذا عمل شاق لا يتم في سرعة ويتطلب تعاون الايدي جميعاً . ولذلك جرت العادة ان تطلق الاشرعة جميعاً وان تثبت الدفة متجهة نحو اليسار ، وأن يؤمر كل فرد بالتوجه الى مضجعه حتى ينبلج الصبح مع تحفظ واحد : هو ان تبقى حراسة المرساة مستمرة حتى يحين ذلك الوقت اي ان البحارة يظلون مثنى مثنى دورياً يصعدون الى ظهر السفينة ليروا ان كل شيء يجري على ما يرام .

ولكن هذه الخطة لا تفلح أحياناً وبخاصة على خط الصيد في المحيط الهادي، لان جيوش القرش التي لا تحصى تجتمع حول الجثة المرفأة ، فلو تركت كذلك نحو ستّ ساعات مثلاً متمددة لما بقي حتى الصباح شيء سوى هيكلها. أما في اكثر الجهات الاخرى من المحيط نفسه حيث لا تتكاثر هذه الحيوانات الى هذا الحد فان وحشيتها العجيبة يمكن تجنبها والتقليل منها وذلك بالتهويب عليها بمجارف التحويت الحادة ، وهو عمل قد لا ينتج عنه سوى اغرائها ببذل مزيد من النشاط ولكن الحال لم يكن كذلك في حال أسماك القرش التي احتشدت حول الباقوطة ، مع ان اي امرىء لم يتعود مثل هذه المناظر لو أشرف على جانبها تلك الليلة لأدركه الظن بأن البحر المحيط بها كله انما هو قطعة كبيرة من الجبن وان القرشان هي ديدان متولدة فيها .

ومع ذلك فان الهياج بين هذه القرشان لم يكن ضئيلاً حين تقدم اسطب الى

حراسة المرسى بعد ان انتهى من عشائه، وحين ظهر كويكوج وبحار من القائمين في المقدمة على ظهر السفينة ؛ ذلك ان هذين البحارين حالما أوقفا مراحل القطع من فوق جانب السفينة ودليا ثلاثة قناديل حتى تلقي أشعة طويلة المدى على البحر العكر ، أخذا يزرقان بجارف التحويت الطويلة ويقتلان القرشان قتلاً ذريعاً متواصلاً * وذلك بأن يضربا الفولاذ الحادّ ضرباً نافذاً في جماجمها ، وهي الجزء الحيوي الوحيد منها فيما يبدو . ولكن في ذلك المضطرب المزبد الذي تتقلب فيه جيوش مختلطة متدافعة لم يستطع الراميان ان يصيبا الرمي دائماً . وهـــذا ما أوحى لهما بايحاءات جديدة عن مدى الوحشية البالغة في خصمهما اللدود . فقد كانت تنهس بمكر وخبث لا لتنزع أمعاء بعضها البعض فحسب وانما كانت كأنها توجه الضربات المرنة وتدور منحنية كأنها تريـــد ان تعض أمعاء نفسها ، حتى بدت تلك الاحشاء وكأنها ابتلعت مرة اثر مرة ، والفم الذي يبتلعها واحد لا يتغيّر ، ثم هو يفرغ ما ابتلع عن طريق الجرح المقابل المفتوح. ولم يقف الامر عند هذا ، بل ان معالجة جثثها وأشباحها لم تكن شيئاً مأموناً ، فقد كانت تعتلج في صميم مفاصلها وعظامها ، فيما يبدو ، قوة شاملة كبرى بعد ان تكون الحياة الجزئية قد بارحتها . فان واحداً من أسماك القرش بعد ان قتل ورفع الى ظهر السفينة لأجل أخذ جلده ، كاد ينتزع يد كويكوج حين حاول ان يطبق مغلق فكه القاتل .

فقال ذلك الهمجي وهو يرفع يده وينزلها متألماً : « كويكوج لا يهتم اي إله صنعه قرشاً سواء أكان رباً من فيجي او من نانتوكت . لكن الرب الذي صنع قرشاً لا بد ان يكون آلة ملعونة » .

---

* مجرفة التحويت التي تستعمل للتحويش مصنوعة من اجود الفولاذ . حجمها حجم يدي رجل مبسوطتين . وشكلها العام يشبه المجرفة المستعملة في الجنائن الا ان جانبيها مسطحان ونهايتها العليا أضيق من السفلى . وتظل هذه الاداة على غاية من الحدة والمضاء فاذا استعملت عرضاً فانها تشحذ كموسى الحلاقة . اما مقبضها فانه عمود صلب يابس يغرس في نقرتها وطوله يتراوح بين عشرين وثلاثين قدماً .

٦٧ تقطيع شحم الحوت

ليلة الاحد؛ وأية راحة أعقبتها ! ان العلماء الأعلام الذين يعتدون في الاحد بحكم الوظيفة هم الحواتون جميعاً. تحوّلت الباقوطة العاجية الى ما يشبه «السلخانة» وأصبح كل بحار فيها جزاراً، ولو رأيتنا لحسبتنا نقدم عشرة آلاف ثور ذبيح الى آلهة البحار .

أما اولاً فقد عالـيْنا مرفاعي الجزارة الضخمين وغيرهما من الاشياء الثقيلة، أعني مجموعة من البكرات مطلية باللون الاخضر، لا يستطيع رجل واحد ان يرفعها — عالينا ذلك العنقود العنبي الضخم الى قمة الصاري الرئيس وربطناه ربطاً محكماً الى رأس الصاري القصير، وهو أقوى نقطة فوق ظهر السفينة؛ ثم أوصلنا نهاية الحبل الذي يشبه الماصر بعد ان ذهب متعرجاً خلال تلك المسارب الدقيقة المعقدة الى الدولاب الرافع، وجعلنا المحالة الضخمة الدنيا في المرفاع تتأرجح فوق الحوت، ووصلنا كلـّوب التشحيم الضخم وهو يزن ما يقرب من مائة رطل بتلك المحالة الضخمة، وتعلق كلّ من استاربك واسطب فوق درجتين متفاوتتين على جانب السفينة وقد حملا مجرفتيها الطويلتين وأخذا يجوفان حفرة في جسم الحوت ليغرزا فيها الكلـّوب عند أقرب نقطة من الزعانف الجانبية . ولما انجزا ذلك حزّا حول الحفرة حزّاً نصف دائري، ثم أعلقا الكلـّوب، وأخذت عصبة البحارة تصدح أناشيدها الغريبة وهي تأخذ في الرفع يداً واحدة

١ هذا فذ بين فصول القصة لانه لا يرمز لشيء وانما هو محض وصف ظاهري .

عند الدولاب الرافع . وسرعان ما مالت السفينة كلها على جنبها وأخذ كل دسار فيها يفتأ كأنه مِسَكّ المسمار في بيت قديم تعرض لجوّ صقيعي . فهي ترتجف وتتقضقض، وتنوض رءوس صواريها المفزّعة نحو السماء . وما تزال تميل نحو الحوت بينا كل خفقة لاهثة من الدولاب الرافع تجيب عليها الامواج بخفقة مسعفة . وأخيراً سمع صوت فرقعة سريعة مثيرة، حينئذٍ تدحرجت السفينة الى أعلى والى الخلف في اندفاق صاخب مبتعدة عن الحوت وأخذ المرفاع المنتصر يعلو أمام الانظار وهو يسحب وراءه الطرف النصف الدائري لأول قديدة شحم نزعت وسلخت عن الحوت . وبما ان الشحم يغلف الحوت كما يغلف البرتقالة لحاؤها ، كذلك فانه يسلخ عن جسمه مثلما يقشر لحاء البرتقالة عنها على نحو حلزوني . لان قوّة الشدّ التي يمارسها الدولاب الرافع باستمرار تجعل الحوت يتقلب في الماء فينسلخ عنه الشحم بذلك على طول الحزّ الذي يسمونه «الوشاح» وهــــو الذي يحزّه في الوقت نفسه الضابطان استاربك واسطب بمجرفتيهما . وبنفس السرعة التي يتم بها السلخ ، وبالسلخ نفسه ، يظلّ الحوت طوال الوقت يرفع ويرفع الى اعلى حتى يلامس طرفه العلوي قمة الصاري الرئيس، وعندئذ يتوقف الرجال عند الدولاب الرافع عن السحب، وتظل الكتلة الضخمة التي تقطر بالدم مدة دقيقة او دقيقتين تتأرجح جيئة وذهاباً كأنها مدلاّة من الفضاء، وعلى كل امرىء حاضر ذلك المشهد ان يحرص على ان يتفادى تأرجحها والا صكت صدغه وقذفت به رأسياً من فوق ظهر السفينة .

وعندئذ يتقدم احد الزرّاقين الحاضرين ثمة بسلاح طويل حادّ يسمى «سيف التخزين»، وينتهز الفرصة المواتية فيحدث برشاقة تجويفاً ذا سعة في الجزء السفلي من الكتلة المتأرجحة ، ثم يدخل في هذا التجويف طرف المرفاع الثاني البديل ويعلقه به بحيث يستبقي الشحم استعداداً لما سيلي، وعلى الاثر يحذر هذا السيّاف جميع الرجال بأن يبعدوا، ثم يندفع اندفاعة محكمة نحو الكتلة ويضربها بضع ضربات جانبية مستيئسة نافذة، فيقطعها نصفين ؛ وبينا الجزء السفلي القصير ما

يزال مثبتاً فان القطعة العليا الطويلة وتسمى « قطعة البطانية » تتأرجح حرة على أهبة استنزالها، فيستأنف الرافعون في الامام اناشيدهم، وبينا يمضي احد المرفاعين في سلخ قطعة ثانية من الحوت ورفعها ، يرتخي المرفاع الثاني ببطء، وتسقط القديدة الأولى من باب العنبر الكبير الى فضاء خالٍ لا أثاث فيه يدعى غرفـــة الشحم، وتظل الايدي العديدة الرشيقة في غبش تلـــك الغرفة تطوي « قطعة البطانية » هـــذه كأنها كتلة ''حيّة'' من الحيات المتلوية . هكذا يمضي العمل : المرفاعان يرتفعان ويهبطان بالتناوب، والحوت والدولاب الرافع كلاهما يتحركان صاعدين، والساحبون ينشدون، والرجال في غرفة الشحم يطوون، والضباط يحززون وشاحاً ، والسفينة تتوتر مشدودة ، وكل البحارة يشتمون بين الحين والحين كأنهم يخففون بلزوجة شتائمهم مقدار الاحتكاك العام .

٦٨ البطانية

ليس قليلاً هو ذلك الاهتمام الذي تناولت به مسألة جلد الحوت، وهي مسألة كانت محط جدل، فقد جادلت في شأنها حواتين من ذوي الدربة ونحن في البحر، وناظرت حولها علماء طبيعيين مرموقين ونحن على البر، وظلّ رأيي الاصيل فيها ثابتاً لم يتبدل، الا انه رأيٌ وحسب .

ما هو جلد الحوت وأين هو ؟ تلك هي المسألة ؛ فقد تقدم الحديث عن شحمه وبذلك أصبحت ماهيته معروفة ؛ ذلك الشحم يشبه ان يكون لحم بقر متين وثيق الالياف، إلا انه أصلب من لحم البقر واشدّ مرونة واكتنازاً، ويتراوح سمكه بين ثماني او عشر بوصات الى اثنتي عشرة او خمس عشرة بوصة .

قد يبدو من المحال لاول وهلة ان يتحدث المرء عن جلد حيوان ما، ثم يقول فيه انــــه بمثل هذا التركيب وذلك السُّمك، ولكن هذا في الواقع ليس حجة ناقضة تنفي كونه جلداً، ذلك ان طبقة الشحم اذا نزعت عن الحوت لم تبق هناك أي طبقة كثيفة اخرى تلفّه ويمكن نزعها عن جسده، واذا كان الحيوان ملفوفاً بطبقة خارجية — مهما تكن كثافتها — فأي شيء تسمى هذه الطبقة ان لم تسمَّ جلداً؟ نعم انك لتستطيع ان تكشط بيدك عن جثة الحوت السليمة التي لم يصبها تشويه مادة غاية في الرقة والشفافية ، تشبه من نحو ما أسخف مزقة من غراء السمك، إلا انها تكاد تشبه في نعومتها ومرونتها « الساتان » — اعني قبل ان تجف — فاذا جفت صلبت وأصبحت هشة فضلاً عن انها تنكمش ويشتد سمكها،

ولدي عدد كثير من هذه الجذاذات الجافة أستخدمها فواصل في كتبي التي تتناول الحيتان . وهي شفافة كما قلت قبلاً، فكنت اذا وضعتها على الصفحة المطبوعة، أمتع نفسي اذ أتوهم انها ذات قدرة على التكبير . على أي حال، من اللاذّ ان يطالع المرء ما كتب عن الحيتان بنظارات حوتية، ان صحّ التعبير . ولكن ما أرمي اليه في هذا المقام هو ان هذه المادة الغروية السخيفة التي أقرّ انها تتلبس جسم الحوت كله لا تصلح ان تعدّ جلداً له، وانما قد نعدها جلد الجلد، ان جاز ان اقول ذلك ، اذ من المضحك ان يقال ان جلد هذا الحيوان الهائل أوهى وأرق من بشرة طفل حديث الولادة . وحسبنا هذا .

فاذا سلمنا ان هذا الشحم هو جلد الحوت، واذا كان هذا الجلد في حال حوت عنبر ضخم ينتج من الزيت ما يملأ مائة برميل، واذا اعتبرنا ان هذه الكمية او وزن ذلك الزيت الذي ذكرناه لم يؤخذ إلا من ثلاثة أرباع الجلد كله، عندئذ نستطيع ان نكوّن لنا فكرة عن ضخامة تلك الكتلة الحية، التي يمنحنا محض جزء من إهابها مثل هذه البحيرة من الزيت . فاذا قدرنا ان كل عشرة براميل تساوي طناً واحداً كان لدينا عشرة اطنان صافية تؤخذ من ثلاثة ارباع المادة التي منها يتكون الجلد كله .

والسطح الظاهر من حوت العنبر لا يعد بين العجائب أقلّها، — على كثرة ما لديه من عجائب — ؛ فيكاد هذا السطح كله ان يكون معلماً بعلامات مستقيمة لا تحصى تذهب في جُدُدٍ عريضة ، وتنحرف فتتقاطع وتتقاطع متشاجرة، كأنها أجمل خطوط النقش الايطالية . إلا ان هذه العلامات لا تبدو وكأنها طبعت على القشرة الغروية التي ذكرتها آنفاً وانما تبدو وكأنها ترى من خلالها أي كأنها منقوشة على الجسم نفسه . وليس هذا فحسب بل ان العين التي تبصر الامور بسرعة خاطفة قد لا ترى في هذه العلامات المخططة سوى مرسم صالح لتنطبع عليه صور اخرى، كما هي الحال في فنون النقش الواقعي . تلك رموز

هيروغليفية إعني انك ان دعوت تلك النقوش العجيبة على جدران الاهرام خطوطاً هيروغليفية، فهذه هي الكلمة التي تصلح ان تستعمل في هذا الصـــدد ايضاً . لقد علقت بذاكرتي الواعية صورة هذه النقوش الهيروغليفية على احد حيتان العنبر، ولشدّ ما أثر فيّ ولفت انتباهي صحن يمثل الشخوص الهندية القديمـــة التي نقشت على الحسائك الهيروغليفية المشهورة على ضفاف المسسبي الاعلى . وما من احد استطاع ان يفك طلاسم تلك الصخور وكذلك حال هذه العلامات الغريبة على الحوت فانها ظلت مغلقة لا تجد من يحلّ معمّاها . وهذه الاشارة الى الصخور الهندية تذكرني بشيء آخر . فالسطح الظاهري من حوت العنبر يمثل للعين عدة ظواهر منها : ان ظهره، وبخاصة حوافي الظهر، تبدو في كثير من الاحيان وقد طمس ما عليها من جدد وخطوط منتظمة او طمس معظمها ، وذلك من أثر الكدمات العديدة العنيفة ، فيجيء منظرها شاذاً نادر المثال. وأقول ان تلك الصخور الساحلية في نيوانجلند تلك التي تصَوَّرَ أجاسيز انها تحمل علامات من الكشط العنيف بسبب احتكاكها بجبال عائمة من الجليد، أقول : ان هذه الصخور غير ضعيفة الشبه بحوت العنبر في هذا المضمار . ويبدو لي ايضاً ان مثل هذه الكدمات في الحوت ربما كانت بسبب احتكاكه بحيتان اخرى معادية، لاني وجدتها اكثر شيء ظهوراً في الحيتان الضخمة القارحة لا في صغار الحيتان .

لا بد من كلمة او اثنتين حول مسألة جلد الحوت او شحمه . لقد قدمت القول بأنه ينزع عنه في قدائد طويلة تسمى الواحدة « قطعة البطانية » . وهذه تسمية موفقة جيدة الدلالة مثـــل معظم المصطلحات البحرية ، اذ ان الحوت ملفوف حقاً بشحمه كما لو أنه ملفوف ببطانية حقيقية او عباءة . او قل : انه قد لبس على رأسه وشاحاً هندياً وأرسله حتى غطى سائر جسده ، وبسبب هذه الشملة المريحة التي غطت جسمه استطاع ان يظل مرتاح البال في كل الاجواء والبحار والازمنة والتيارات . ماذا كان يحصل لحوت جرينلاند في بحار الشمال

الجليدية الزمهريرية لو لم يكن له تلك العباءة النافعة ؟ نعم ان أسماكاً أخرى تكون بالغة الحيوية والرشاقة في مياه الشمال الاقصى ، ولكن علينا ان نذكر بأنها أسماك باردة الدم لا رئات لها ، تتخذ من معدها أدوات تبريـــد ؛ هي مخلوقات تدفىء نفسها في ظل جبل من جبال الجليد مثلما يجلس الرحالة في الشتاء ليصطلي أمام موقد في فندق . أما الحوت فانه كالانسان ذو رئتين ودم حار ، فلو جمد دمه لمات . ما أعجب ان يألف هذا الحيوان الكبير الذي لا غنى له كالانسان عن دفء الجسد ، ما أعجب ان يألف المياه القطبية ويظل فيها مغموساً حتى مشفريه . مع ان البحارة اذا سقطوا عن ظهور سفنهم وجدوا احياناً بعد أشهر وقد تجمدوا قائمين في صميم حقول الجليد ، كأن احدهم ذبابة علقت في كتلة دبق . ولكن اذا عرف السبب زال العجب ؛ على ان الأعجب من ذلك هو ان نعلم — حسبما شهدت به التجربة — ان دم الحوت القطبي اكثر حرارة من دم زنجي بورنوي في إبان القيظ .

يبدو لي أننا في هذا نرى فضيلة الحيوية المتفردة ، وفضيلة الجدران السميكة ، وفضيلة السعة الداخلية ، وكلها فضائل فذة نادرة . يا ابن آدم ، امتلىء اعجاباً بالحوت واجعله لك مثالاً ، كن أنت أيضاً حار الدم وسط الجليد ، عش في هذا العالم وكأنك غريب عنه . على خط الاستواء ابق مبترداً ناعماً ، وفي القطب احفظ دماءك سيالة في عروقك غير متجمدة ؛ احتفظ أيها الانسان في جميع الفصول بدرجة حرارية واحدة كأنك قبة كنيسة القديس بطرس العظمى او كأنك الحوت العظيم !

ما أسهل أن تلقي هذه النصيحة الجميلة وما أضأل الرجاء في الإفادة منها ؛ فما أقل المباني التي أثلتْ على مثال قبة القديس بطرس ! وما أندر المخلوقات التي تشبه الحوت ضخامة واتساعاً !

٦٩ الجنازة

«جروا السلاسل ! دعوا الجثة تتجه نحو الخلف»

لقد أنجز المرفاعان الكبيران مهمتهما ، وأخذ الجسد الابيض المسلوخ المقطوع الرأس يلتمع كأنه ضريح رخامي؛ تغيّر لونه الا أنه لم يفقد شيئاً في تقدير البصر من حجمه ، ما يزال جبّار الجسامة يعوم ببطء مبتعداً نائياً ، وحيتان القرش الجائعة تشق الماء وترششه من حوله ، والطيور النائعة تحوّم تحويماتها الضارية المستلحمة فتكدر الهواء من فوقه ، وتندسّ مناقيرها في جنبه كأنها خناجر إهانة متوالية ، والشبح الضخم الابيض الذي احتز رأسه يعوم متنائياً متباعداً عن السفينة ، وكلما ابتعد عنها ذراعاً طولاً ، كانت حيتان القرش من حوله كأنها عشرات الاذرع المربعة ، والطيور كأنها عشرات الاذرع المكعبة تزيد من طنين الهلاك ، وظلّ هذا المنظر المخيف يلوح لأعين من في السفينة التي كانت كأنها ثابتة لا تجري ، مدى ساعات وساعات ؛ وتحت سماء صافية لازورديّة وادعة ، وعلى وجه البحر الساجي الوديع ، تلامسه النسمات الجذلى ، ظلت هذه الكتلة الضخمة من الموت تعوم حتى اختفت في أحضان المدى اللانهائي .

تلك جنازة محزنة ساخرة موغلة في ما تبعثه من أسى وسخر ! نسور البحر في كآبة سوداء خاشعة ، وقرشان الجوّ في سلابها او ثيابها البقعاء كما يستدعي الحداد . لقلما هرعت لعون الحوت — فيما أخمن — وهو على قيد الحياة لو انه احتاج منها عوناً ، ولكنها جميعاً اندفعت تشهد في خشوع مأدبة جنازته ؛ يا للضراوة المفزعة فيك أيتها الارض ، حتى أقوى الحيتان لا ينجو منها سالماً .

وليست هذه هي النهاية . فما دامت حرمة الجسد قد انتهكت ، فان شبحاً منتقماً يبقى فوقه محلقاً يثير الفزع . فإذا رأته من بعيد بارجة منخوبة أو سفينة كاشفة واهمة ، وقد أبهم البعد رؤية الطيور المحتشدة ، وظلت الكتلة البيضاء ترى عائمة تحت الشمس، والرشاش الابيض يتعالى ازاءها ، عندئذٍ يفزع المسجل تواً الى سجل الرحلة ، فيقيد انه رأى – وما رأى سوى جثة الحوت المستسلمة – بأصابع مرتعشة : « شعاباً ، وصخوراً وموجات كباراً في تلك النواحي – حذارِ ! » ولعل السفن على مدى سنوات بعد ذلك تظل تجانب ذلك الموقع ، فتقفز عنه مثلما تقفز الاغنام الغبية فوق الفراغ لان راعيها قفز أصلاً وهو يحمل عصا في يده . ذلك هو قانون السوابق ، ذلك هو استغلال التقاليد ، تلك هي قصة البقاء المتشبث العنيد الذي تتمسك به المعتقدات القديمة، تلك التي لا جذور لها في الارض ، بل وليست سابحة في الفضاء ! تلك هي السنن !

كذا اذن : جسم الحوت العظيم في حال الحياة : قد يكون مصدر رعب حقيقي لأعدائه ، وشبحه في حال الموت يصبح رعباً وهمياً لكونٍ كامل .

أأنت ممن يؤمنون بالاشباح يا صديقي ؟ في الكون أشباح أخرى سوى شبح كوك – لين ورجال أبعد فكراً من الدكتور جونسون يؤمنون بها [1] .

---

[1] حكى بوزول كيف ان جونسون غضب من اشاعـــة نسبت اليه أنه رأى شبحاً في كوك – لين ، وكتب مقالة في دحضها .

٧٠ أبو الهول

ما كان يجوز لي ان أتجاوز عن ذكر قطع رأس اللوياثان قبل ان يتم سلخه كاملاً . وقطع رأسه عمل علمي تشريحي يزهو به جرّاحو الحيتان المدربون كثيراً ، ومن حقهم ان يفعلوا .

اعلم أنه ليس للحوت ما قـــد يسمى رقبة ، بل ان أغلظ جزء فيه انما هو ذلك الموضع الذي يلتقي فيه رأسه بجسمه ، وتذكـّر ان الجرّاح لا بد ان يأتيه من علٍ ، فيكون بينه وبين الجثة ثمانية أقدام او عشرة ، وهذه الجثة تكاد تكون مختفية في ماء عكر متضرّب ، كثيراً ما يكون صخاباً خبيط الامواج . ولا تنسَ ايضاً ان عليه تحت هذه الظروف المنحوسة ان يبلغ حزّهُ عدة أقدام عمقاً في لحم الحوت ، وفي حالة هذا الاندفان الغائر لا يستطيع ان ينال نظرة واحدة من الجرح الرغيب المتشنج الذي أحدثه ، ومع ذلك فان عليه ان يتحاشى بمهارة الأجزاء الجـــانبية المجاورة للحز ، التي يحرم عليه ضربها ، وأن يسدد الضربة بحيث يشق النخاع في النقطة المبتغاة عند بداية دخوله في الجمجمة ، دون طيش او خلل . اذا عرفت كل ذلك وعيته أفليس من حقك ان تعجب وأنت تسمع اسطب يتبجح قائلاً انه لا يحتاج الا الى عشر دقائق كي يحتز رأس حوت العنبر ؟

ما إن يقطع الرأس حتى يدحرج نحو الكوثلة ويظل هنالك ممسكاً بحبل الى ان يتم سلخ الجلد ، فاذا تمّ ذلك وكان الرأس رأس حوت صغير رفع على

ظهر السفينة حتى يجري تدبيره في تبصر وأناة ، غير أن هذا أمر مستحيل ان كان اللوياثان قارحاً كبيراً لان رأس حوت العنبر يبلغ ما يقرب من ثلث حجمه كله ، ومن العبث ان يحاول أحد تعليق مثل هـــذا الوزن ، حتى ولو كانت العلائق هي المرفاعين الضخمين في حوّاتة ، فمثل هذا يشبه من يحاول أن يزن هُرْياً هولندياً بميزان الجوهريّ .

أما حوت الباقوطة فان رأسه ، بعد ان فصل عنه وسلخ جلده ، رفع ازاء جانب السفينة – فظهر نحو نصفه فوق الماء بحيث يظل محمولاً في معظمه على المادة التي ألفها . وهناك يظل الرأس الذي يقطر دماً معلقاً على خصر الباقوطة كأنه رأس المارد هولوفرنس يتدلى من نطاق يوديت [1] ، بينا الباقوطة مشدودة منحنية بانحدار فوقه بسبب الانحناء العنيف الذي مال فيه الصاري الادنى وقد نتأت كل دعـــامة ساندة فيها على ذلك الجانب كأنها « ونش » مشرف على الامواج .

كان الوقت ظهراً حـــين نجزت هذه المهمة الاخيرة ونزل البحارة لتناول الغداء ، وخيّم الصمت على ظهر السفينة الذي كان من قبل صاخباً فأصبح خلاء مهجوراً – ؛ رهوٌ نحاسي راسخ كأنه نيلوفر أصفر غامر ، كان ما يزال يفتح أوراقه الخرساء الفضفاضة المترامية فوق وجه البحر .

ومرّت فترة قصيرة واذا بآخاب وحده يصعد من قمته الى أحضان هـــذا

---

١ سفر يوديت من الاسفار الابوكريفية ، وهو يقص قصة غزو الملك الاشوري هولوفرنس وحصاره لمدينة بيتولية ، وكيف ذهبت الارملة يوديت وخادمتها لاغرائه ولما سكر في مأدبة أقيمت في اليوم الرابع قطعت رأسه وحملته في جراب الطعام الى المدينة ، فتشجع العبرانيون وطردوا الاشوريين .

الصمت العميق . فدار بضع دورات على الربعة خلف الدقل الاعظم ، ثم توقف يحدق عند جانب السفينة ، ثم تخطى ببطء الى السلاسل الكبرى وتناول مجرفة اسطب الطويلة ــ وكانت ما تزال هنالك بعد ان فصل رأس الحوت عن جسده ــ وغرزها في الجزء الادنى من الكتلة المعلقة نصف تعليق ، ثم وضـــع طرفها الآخر مثلما يوضع العكاز تحت أحد ذراعيه ووقف متكئاً وعيناه مسلطتان في تنبه شديد على ذلك الرأس .

كان رأساً أسود مقلّساً ، معلقاً في وسط تلك الهدأة العميقة فبدا وكأنه رأس أبي الهول في الصحراء ؛ فتمتم آخاب قائلاً : « تكلم أيها الرأس الرؤاسي الوقور ، فان لم يكن لك لحية تزينك فانك تبدو هنا وهناك أشيب بما علقك من طحلب ، تحدث ايها الجبار وخبرنا عن السرّ فيك . انت بين القامسين أبعدهم قمساً . ذلك الرأس الذي تتلألأ الآن فوقه الشمس العلوية قد جاب قرارة الكون حيث اسماء غفل وأساطيل مجهولة يعلوها الصدأ ، حيث آمال حبيسة ومراسٍ كثيرة يدركها البلى ، حيث هذه الارض الفرقاطة قد تطرّمت في وقفتها المهلكة بعظام الملايين الذين غرقوا ؛ هنالك في دنيا الماء الرهيبة هنالك كان موطنك خير موطن تألفه . لقد كنت حيث لا يبلغ صوت جرس او جسم غاطس ، كنت تنام الى جانب كثير من البحارة ، بينما الأمهات مسهدات يمنحن حياتهن رجاء ان يلحدن جثثهم . ولقد رأيت الحبيبين الحبيسين يقفزان من السفينة المحترقة ، غرقا والقلب على القلب بين الامواج المصطفقة ، صدقا العهد حين تبدت السماء لهما كاذبة ؛ رأيت الضابط القتيل يقذف به القرصان في منتصف الليل عن ظهر السفينة ؛ ساعات قضاها وهو ينحدر في ظلمة الفك الناهم وما يزال قتلته يبحرون سالمين ــ بينا البروق الخاطفة تهز السفينة المجاورة التي كان في مقدورها ان تحمل الزوج الامين الى ذراعين مبسوطتين مشتاقتين . آه أيها الرأس لقـــد رأيت ما يكفي ليشق الكواكب ويجعل من ابراهيم الحنيف جانفاً ولم تنبس بحرف « واحد » .

وصاح صوت مزهو من أعلى الصاري الرئيس : « هذاك شراع ! » فصاح آخاب وقد انتصب فجأة : « صحيح ؟ هذا شيء مفرح » وأخذت تنزاح الغمائم الراعدة عن جبهته جانباً وأضاف : « هذه الصيحة الناعشة في هذا السكون الراكد قد تحوّل رجلاً خيراً مني عن معتقده — كم تبعد ؟ »

— « ثلاث درجات عن يمين المقدمة يا سيدي وهي ترافق النسمات نحونا » .

— « خير وأبقى يا رجل . ليت القديس بولس جاء معها وجاءني بالنسمات لتنعش ركودي . آه ايتها الطبيعة ، وأنت يا روح الانسان ما أبعد وفاقاتك المترابطة عن ان يحققها تعبير ؛ ليس في الكون ذرة تتحرك وتعيش على هذه الكرة إلا ولها صنو ذكي يعيش في العقل » .

٧١ قصة السفينة يربعام

انطلقت السفينة والنسمات يداً بيد مصطحبتين، إلا ان النسمات جاءت أسرع من السفينة، فأخذت الباقوطة تتمايل .

ومن خلل المنظار تبين لنا – تدريجاً – ان قارب اولئك الغرباء ومَراقب الصواري المزودة بحراسها في سفينتهم تدلّ على انها سفينة تحويت، ولكن حيث انها كانت مبعدة نحو مهبّ الريح، منطلقة، غادية فيما يبدو الى مجال صيد آخر، فان الباقوطة لم تكن ترجو ان تبلغها، ولذلك رفعت شارتها لتعرف اي جواب تتلقاه .

لا بد من ان أقول في هذا المقام ان لكل سفينة من سفن اسطول التحويت الامريكي شارتها الخاصة ، شأنها في ذلك شأن السفن الحربية ، وكل الشارات مدونة في كتاب ، وإزاء كل واحدة اسم السفينة التي تحملها، وقد زوّد كل قبطان بنسخة منه، ومن ثم كان في مقدور قباطنة التحويت ان يميزوا السفن وهي في البحر، على مسافة غير قصيرة، بقدر غير قليل من اليسر .

أجابت السفينة الغريبة اخيراً على شارة الباقوطة حين رفعت شارتها، فاذا بها سفينة اسمها « يربعام » من نانتوكت . وبعد ان بسطت سواريها المصوبة نحو الخلف ، تحرّفت قليلاً وجعلت وجهتها على زاوية قائمة ضد المهب من الباقوطة وأنزلت قارباً ثم اقتربت، فأمر استاربك ان يهيأ السلم الجانبي ليكفل صعود

القبطان الزائر، وعندئذ لوح هذا الغريب بيده من مؤخرة قاربه بما يفهم منه ان هذا الاجراء غير ضروري أبداً، وتبين ان مرضاً معدياً قد انتشر في يربعام وان قبطانها مايهيو يخشى ان تنتقل العدوى الى عصبة الباقوطة . نعم انه هـــو وملاحو قاربه ظلوا سالمين ، وكانت سفينته على بعد نصف طلقة من الباقوطة والبحر والهواء الواقيان يتدحرجان ويجريان فيما بين الفريقين ، الا انه امتثل بوحي ضميره لاجراءات الحجر الصحي على البر فأبى اباءً مطلقاً ان يقارب الباقوطة مقاربة المتصافحين .

ولكن هذا لم يحل ابداً دون الاتصال ، فقد ظلّت مسافة بضع ياردات تفصل بين قارب يربعام والباقوطة، وظلّ ملاحو القارب باستخدامهم للمجاذيف حيناً بعد حين، يدبرون بقاء القارب موازياً للباقوطة، فيما هي تتحرك متثاقلة في الماء (وكانت النسمات قد هبت حينئذ منعشة)، وشراع قمة الصاري الرئيس متقاعس للخلف . هذا وان كان القارب احياناً ينساق بعيداً امامها اذا فاجأته موجة كبيرة مندفعة ، إلا ان ملاحيه الماهرين كانوا يعيدونـــه تواً الى وضعه الصحيح . وجرت بين الفريقين محادثة كانت عرضة لمثل هذا ولغيره من اسباب الانقطاع . واحياناً اخرى كان توقف هذه المحادثة ناشئاً عن اسباب اخرى جدّ مباينة للأولى :

فقد كان احد الملاحين في قارب يربعام رجلاً ذا مظهر فريد، يتجلى تفرده حتى في حياة التحويت نفسها حيث التفرد هو مجمل كل شيء . كان صغيراً قصيراً أميل الى الشباب ، منقـّط الوجه بالكلف ، يلبس شعراً اصفر سابغاً كثيفاً . ويلتف حوله معطف طويل مفصل تفصيلاً غريباً شاذاً، ذو لون كلون الجوز باهت، وقد طوى كمّيه الفائضين فانحسرا عن معصميه، وفي عينيه سهوم عميق مستقر حادّ .

وما كاد اسطب يبصر هذا الرجل حتى هتف : « ها هو ! ها هو ! المهرج

ذو المعطف الطويل الذي أنبأنا عنه بحارة تاونهو ! » وكان اسطب يشير بذلك الى قصة غريبة رويت عن «يربعام» وعن احد الرجال بين ملاحيها، في وقت مضى حين جرى الحديث بين الباقوطة وتاونهو. وحسب هذه القصة، ثم ما عرف من بعد، بدا ان هذا المهرج المذكور قد احرز سلطاناً بعيداً عجيباً على كل امرىء في يربعام . وهذه هي قصته :

تربى في الاصل في مجتمع ملتاث مؤلف من الدراويش الرقاصين (Shakers) في نسكيونا [1]، فكان بينهم متنبئاً كبيراً، وكثيراً ما هبط عليهم من السماء في اجتماعاتهم السرية الهاذية من طاقة في السقف، معلناً أنه يفتتح على التوّ الجام السابع [2] الذي يحمله في جيب صدارته ، إلا انه من المفروض ان يحتوي على الافيون بدلاً من مسحوق البارود ؛ وقد تملكته نزوة رسالة فغادر نسكيونا الى نانتوكت، حيث انتحل بقوة الخبث الذي يمتاز به الجنون مظهراً عاقلاً ركيناً، وتقدم في هيئة بحّار غرّ ليكون احد الذاهبين في رحلة يربعام للتحويت، فقبلوه؛ ولكن ما كادت السفينة تغيب عن البرّ حتى انفجر جنونه فياضاً فادعى انه جبريل رأس الملائكة وأمر القبطان ان يقفز من فوق ظهر السفينة، وأذاع بياناً نصب به نفسه منقذاً لجزائر البحر، وكاهناً عاماً على كل الاوقيانوسات . وقد اعلن هذا كله في رصانة راسخة لا تهن، واتحدت هذه الرصانة مع اطوار خياله

---

١ نسكيونا على نحو ثمانية اميال الى الشمال من ألباني (نيويورك) ؛ هنالك أسست آن لي واتباعها اول جمعية شيكرية سنة ١٧٧٦، وكان الاتباع يرون فيها تجسداً ثانياً للمسيح في صورة امرأة، وقد جعلوا الملكية مشاعاً بينهم ونذروا التبتـّل، وقال بعض من كتبوا عنهم بروح عدائية: انهم يشبهون المانوية ويرقصون عراة ويجلدون بعضهم بعضاً عراة كذلك .

٢ انظر رؤيا يوحنا ١٦ : ١٧ «ثم سكب الملاك السابع جامه على الهواء فخرج صوت عظيم من هيكل السماء من العرش، قائلاً : قد تم» . ويرى بعض الشراح ان هذا يرمز الى الاعلام بسقوط رومة .

القاتم الجسور المسهّد الثائر، ومع كل المفزعات الخارقة التي يولدها البحران الهاذي فأكسبت « جبريل » هذا في عقل الاغلبية من الملاحين الجهلاء جواً من القداسة. أضف الى ذلك انهم كانوا يخشونه؛ ولما كان مثل هذا الرجل غير ذي نفع عملي على السفينة، وبخاصة انه كان يأبى ان يعمل الا حين يشاء، فقد كان القبطان الذي لا يؤخذ بمثل شعوذته على استعداد لان يتخلص منه، وحين أبلغ رأس الملائكة ان هدف القبطان هو ان ينزله في اول مرفأ ملائم فتح كل مختوماته وجاماته، ودعا على السفينة وكل من فيها بالهلاك المطلق اذا نفذ ذلك الهدف. وكان اثره على حوارييه بين الملاحين بالغاً حتى انهم ذهبوا اخيراً مجتمعين الى القبطان وأخبروه انه لن يبقى في السفينة منهم احد اذا هو أبعد جبريل عنها. لذلك اضطر الى ان يتخلى عن خطته. ثم انهم آلوا ألا يسمحوا بان يتعرض جبريل لمعاملة سيئة أياً كان ما يفعله او يقوله، حتى اتفق ان احرز جبريل حرية كاملة في السفينة؛ وكانت نتيجة ذلك كله ان رئيس الملائكة قلما احتفل بشأن القبطان والضباط، ومنذ ان انتشر المرض المعدي زادت سطوته اكثر من ذي قبل معلناً ان الطاعون — وهو الذي سمّاه كذلك — تحت أمره ونهيه، وانه لن يتدخل في إيقافه إلا حين يروق له ذلك. فكان البحارة، أولئك البؤساء المساكين، يتملقونه متذللين وبعضهم يداهنه اذا حضر. وأحياناً كانوا يؤدون له فروض الولاء امتثالاً لتعاليمه كأنهم في حضرة اله. مثل هذه الامور قد تبدو غير قابلة للتصديق ولكنها صحيحة مهما تكن عجيبة. وتاريخ المشعوذين لا يبلغ في اثارته من حيث ما يمارسه المشعوذ نفسه من خداع ذاتي لا يحصر، إلا مبلغاً يسيراً اذا قيس بقدرته التي لا تحد على مخادعة الآخرين وخلبهم. لكن حان الوقت لنعود الى الباقوطة.

قال القبطان آخاب من حافة السفينة يخاطب القبطان مايهيو الذي كان يقف في مؤخرة القارب « أنا لا أخشى هذا المرض المعدي ايها الرجل، تعال، اصعد الى السفينة ».

فهب جبريل واقفاً على قدميه، وقال :

« اذكر الحمى، الصفراء منها والصفراوية، واحذر الطاعون المخيف » .

فصاح القبطان مايهيو : « جبريل ! جبريل ! عليك إمّا ... » .

وفي تلك اللحظة دفعت موجة عامدة القارب بعيداً الى الامام وأغرقت وشوشتها كل حديث .

فقال آخاب حين عاد القارب الى موضعه : « هل رأيت الحوت الابيض ؟ »

— « اذكر كيف ينشق قارب التحويت ويغرق . احذر الذنب المرعب » .

— « أقول لك يا جبريل مرة أخرى ... » واندفع القارب مرة ثانية الى الامام كأنما تجره الأبالسة ، ولم يقل أحد شيئاً خلال لحظات، بينما كانت تتوالى موجات صاخبة في تدحرجها ، لا ترفع القارب وانما تحاول ان تقلبه ، حسبما تجيء أحياناً بعض نزوات البحر العارضة . وفي الوقت نفسه كان رأس الحوت المرفوع يتأرجح بعنف ، وكان جبريل يلحظه بوعي لا تبيحه كثيراً طبيعته الملائكية .

ولما ان انتهت هذه الفاصلة بـــدأ القبطان مايهيو يقص قصة قاتمة عن موبي ديك ، ولم يمضِ حديثه مسترسلاً دون مقاطعة من جبريل، حين كان اسمه يذكر ، ومن البحر المجنون الذي كان كأنه متحالف معه .

وتبدى ان « يربعام » لم تكن قد غادرت الوطن منذ مدة طويلة وأنها تحدثت الى حوّاتة أخرى ، فعلم ناسها علماً يقينياً بوجود موبي ديك والدمار الذي أوقعه . وتشرب جبريل هذه الاخبار في جشع فأخذ يحذّر القبطان في

جد رصين من مهاجمة الحوت الابيض، اذا ما ظهر ذلك الوحش ذات يوم، معلناً في جنونه الهاذي ان الحوت الابيض ليس سوى تجسد يمثل الرب الذي يؤمن به الدراويش الرقاصون ، والدراويش يتلقون التوراة . ولكن بعد سنة او سنتين رؤي موبي ديك من مراقب الصواري وأخذ ماسي رأس الضباط يتحرق شوقاً وحماسة للقائه ، وكان القبطان نفسه يرغب في ان لا يحرمه من تلك الفرصة ؛ ورغم شكاوى رأس الملائكة ونذره ، فقد استطاع ماسي ان يقنع خمسة من الملاحين بمرافقته في قاربه ، فاندفع معهم ، ووفق أخيراً – بعد تجذيف كثير مضن وهجمات عديدة خطيرة مخفقة – في ان يحقق ضربة صائبة واحدة . وفي الوقت نفسه كان جبريل قد صعد الى قمة الصاري الملوكي وأخذ يقلب ذراعه في حركات محنقة ويقذف بالتنبؤات عن المصير العاجل للمهاجمين الجزارين الذين يتعقبون ما زعمه رباً . وبينما كان ماسي الضابط يقف في مقدمة قاربه وهو ينفث هتافاته الوحشية ضدّ الحوت ، بكل ما أوتيه من طاقة سادرة عرفت بها قبيلته ، ويتأتى لعله يصادف سانحة يقذف فيها حربته المسددة ، عندئذٍ يا للهول ! ارتفع من الماء شبح ابيض عريض ، استل الانفاس من أجسام المجذفين مؤقتاً بحركته السريعة الخطّارة ؛ وفي اللحظة التالية طار الضابط المنكود وهو ممتلىء حياة متوقدة ، في الفضاء ، ثم هوى في انحناءة طويلة القوس وسقط في البحر على مسافة تبعد حوالي خمسين ياردة عن القارب ؛ لم تمس شذرة من القارب ولا شعرة في رأس اي مجذف بأذى وانما غطس الضابط وغاب الى الابد .

ولا بأس ان استطرد في هذا المقام على سبيل التوضيح فأقول ان هذا النوع من الحوادث المهلكة في صيد حوت العنبر ربما كان مثل غيره من الحوادث الاخرى من حيث تكرره ، فأحياناً لا يصيب الأذى إلا الرجل الذي حاق به الهلاك ، وأحياناً أخرى يفصل مقدم القارب عن جسمه او ينفصل اللوح الذي يقف عليه رائس القارب من موضعه ويذهب مرافقاً جثة الرائس، ولكن أغرب

شيء في الأمر في غير حادثة أنه حين تسترد الجثة لا يرى فيها اي أثر لعنف وانما كل ما هنالك ان الرجل مات متخشباً .

رأى من في السفينة ذلك المصاب كله وشهدوا كيف هوى ماسي بوضوح . وصاح جبريل بالملاحين الذين ضرب الخوف على قلوبهم يحذرهم من التمادي في صيد الحوت هاتفاً ، « الجام ! الجام ! » وهذه الحادثة المفزعة وشحت رأس الملائكة بمزيد من نفوذ لانّ حوارييه السذج اعتقدوا انه تكهن بالحادث عينه بدلاً من ان يعتقدوا انه أرسل نبوءة عامة يستطيع ان يرسل مثلها اي انسان ، واتفق له ان أصاب علامة من بين العلامات الكثيرة التي تقع في مجال الرماية . ومن ثم أصبح رعباً راعباً على السفينة .

وما ان ختم مايهيو قصته حتى طرح آخاب عليه اسئلة لم يملك القبطان الغريب معها الا ان يتساءل : أيهدف آخاب الى صيد الحوت الابيض ان سنحت لذلك فرصة ؟ فأجابه آخاب : « أجل » ، فانتصب جبريل على التو واقفاً مرة أخرى وحدّق في الرجل العجوز وصاح بصوت حاد وإصبعه تشير الى الماء : « اذكر ، اذكر الكافر الجاحد — مات ، وغيّبته الاعماق ! احذر سوء خاتمة كخاتمة الكافر الجاحد ! »

فاستدار آخاب جانباً ببلادة ، ثم قال لمايهيو : « ايها القبطان ، ها لقد خطرت ببالي الآن حقيبة الرسائل ، ففيها رسالة لأحد ضباطك ان لم أكن مخطئاً . استاربك هاتها من الحقيبة » .

كل حوّاتة تحتقب عدداً غير قليل من الرسائل لناسٍ على سفن مختلفة ويعتمد تسليمها لاصحابها على المصادفة التي قد تيسر اللقاء بين السفينتين في عرض المحيطات الاربعة ، ولذا فان معظم الرسائل لا تصل الى حيث وجهت ، وكثير منها لا يتسلمه أصحابه إلا بعد ان يبلغ من العمر سنتين او ثلاث سنوات او اكثر .

عاد استاربك تواً وفي يده رسالة ؛ كانت مشنّاة مكسرة الحواشي رطبة، مغطاة بطبقة من العفونة الكابية البقعاء المخضوضرة لانها أودعت في قمطر مظلم في القمرة . رسالة، يصلح ان يكون ساعي البريد الذي يحمل مثلها هو الموت نفسه .

فقال آخاب : « ألا تستطيع ان تقرأ العنوان ؟ هاتها يا رجل . نعم، نعم انه خطّ باهت – ما هذا ؟ » وبينا كان يمعن فيها النظر تناول استاربك عصا مجرفة الجزارة الطويلة، ومشق بسكينه طرفها ليدخله في طرف الغلاف وبذلك يسلمها للقارب، دون ان يقترب دانياً من السفينة .

وفي الوقت نفسه كان آخاب يتمتم وهو يرفع الرسالة بيده: «مستر هار، نعم هاري (هذا خط دقيق كتبته امرأة – اراهن انها زوجته) نعم : مستر هاري ماسي، السفينة يربعام – لكن هذه باسم ماسي، وماسي قد مات ! »

فتنهد مايهيو قائلا : « مسكين ! مسكين ! ومن زوجه أيضاً، لكن لا بأس هاتها » .

فهتف جبريل بآخاب : « لا . احتفظ بها لنفسك فانك سائر في الأثر عمـــا قريب » .

فصرخ آخاب : « خنقتك اللعنات ! – قف يا قبطان مايهيو ازائي حتى تتناولها »، وأخذ الرسالة المشئومة من يد استاربك، ودس طرف العصا فيها، ثم مدّها بها الى القارب. وحين فعل ذلك توقف الجذفون شاخصين عن التجذيف فانساق القارب قليلا نحو مؤخرة السفينة حتى اصبحت الرسالة فجأة ، وكأن ذلك تم بفعل السحر، قريبة من يد جبريل المتلهفة ، فأطبق عليها يـــده تواً،

وتناول سكين القارب، وغرزها في الرسالة، ثم ارسلهما معاً الى السفينة، فوقعتا عند قدمي آخاب ، ثم زعق جبريل في رفاقه ان يباعدوا التجذيف، وعلى هذا النحو جرى القارب المتمرد مندفعاً نائياً عن الباقوطة .

وحين استأنف البحارة — بعد هذه الوقفة — عملهم في جلد الحوت ألمحوا الى كثير من الاشياء الغريبة وهم يومئون الى هذا الحادث العجيب .

٧٢ حبل القرد

يكثر الملاحون من الجري رائحين غادين أثناء العمل الصاخب في تقطيع الحوت وحراسته . فقـــد يتطلب العمل وجود عمال هنا ، ثم يعود فيتطلب وجودهم هنالك ، ولذلك لا يقر قرارهم في موضع واحد ، اذ لا بد من انجاز كل شيء أينما كان في وقت معاً . وهذا هو نفسه ما يلمّ بمن يحاول ان يصف ذلك المشهد ، ولذا كان علينا ان نعاود الخطى قليلاً ، فقد ذكرنا ان كلّوب التشحيم يوثق في التجويف الأصـــلي الذي أحدثته مجارف الضباط حين جوّفت ظهر الحوت اول مرة . لكن كيف يمكن لكتلة ثقيلة راجحة كذلك الكلوب ان تعلق في ذلك التجويف ؟ لقد أدخلها فيه صديقي الحميم كويكوج وكانت وظيفته من حيث هو زرّاق ان يهبط على ظهر الوحش من أجل تحقيق تلك الغاية المشار اليها ، وتتطلب الظروف – في حالات متعددة – أن يبقى الزرّاق فوق الحوت حتى تتمّ عملية تأريب الحوت او سلخه كاملة . وليعلم ان الحوت يستلقي وهو يكاد يكون مغموراً كله بالماء الا الاجزاء المواجهة التي تجري فيها عملية السلخ او التأريب . وبذا يجهد الحوات المسكين جهده وهو في الاسفل على بعد نحو عشرة أقدام تحت مستوى ظهر السفينة ونصفه على الحوت ونصفه في الماء كلما دارت الكتلة الجسيمة من تحته كأنها الطاحونـــة . أما في هذه المناسبة التي نحن بصددها فان كويكوج تزيا بزي أهـــل المرتفعات ، اي لبس قميصاً وجرباناً ، وبدا لعيني – ان لم يكن في عيون الآخرين – وقد أفاد كثيراً من زيه الجديد ، ولم يتح لأحد مثلي ان يرى ذلك كما رأيته ، وذلك ما سأبينه بعد قليل .

ولما كنت أنا الملاح المقدّم في قارب هذا الهمجي، اي الشخص الذي يحرك المجذاف الواقع عند مقدمة قاربه (وهو الثاني من أمام) ، كانت مهمتي البهيجة ان أرعاه وهو يقوم بزحفه العسير المتشبث الكدّام على ظهر جثة الحوت . لعلك رأيت غلماناً إيطاليين يعزفون وهم يرقصون قرداً مربوطاً بحبل طويل . كذلك ايضاً وأنا عند شفا جانب السفينة المنحدر ، أرسلت كويكوج أسفل مني في البحر مربوطاً بحبل يسمّونه في حرفة التحويت « حبل القرد » ، وهو موثق بقطعة قوية من الخيش تمنطق كويكوج بها حول خصره .

وكان العمل خطراً لكلينا على نحو ساخر عابث ، اذ عليّ ان أقول قبل المضيّ قدماً إن حبل القرد كان معقوداً من كلا طرفيه : معقوداً حول نطاق كويكوج الخيشي العريض ومعقوداً بنطاقي الجلدي الدقيق . ولخيرٍ او لشرٍّ أصبحنا موقتاً مقترنين معقوداً فيما بيننا ، فلو ان كويكوج المسكين غطس فلم يبرز أبداً لتطلبت العهود الوثيقة والعادة العريقة ان انجرّ في أثره لا ان أبتّ حبل الوصل بيننا ، كان يربط بيننا – اذن – رباط سيامي مديد . وكان كويكوج أخاً توأماً لي لا ينفصل مني ، وأنا عاجزٌ عن ان أتخلص من المحتملات الخطرة التي تترتب على ذلك الوثاق القنبيّ .

وتأملت في حالي حينئذٍ تأملاً قوياً فلسفياً وانا أرقب حركاته في اهتمام ، فكأنني أدركت بوضوح ان فرديتي انغمرت في شركة متضامنة قوامها اثنان ، وان ارادتي الحرة قد أصيبت بطعنة نجلاء مميتة ، وان خطأ امرىء آخر او سوء طالعه قد يغمس ذاتي البريئة في غمرة هلكة وموت دون جناية أجنيها . لذلك رأيت في هذا الموقف « فترة خلاء » او توقف في العناية الالهية ، لان يد المساواة السوية لديها لا يمكن ان تجيز مثل هذا الظلم الصراح . ومضيت في التأمل وأنا أنتشله حيناً بعد حين ، من بين الحوت والسفين ، حيث قد يعتصر حشراً ، أقول : مضيت في التأمل فرأيت موقفي هذا هو موقف كل حيّ ذي نسمة تماماً،

الا ان هذا الحيّ ، في أغلب الأحوال ، يكون مربوطاً بالوثاق السيامي ذاك الى كثرة كاثرة من الاحياء لا الى واحد فقط . فاذا أفلس البنك الذي يعامله أصيب هو بالانهيار ، واذا أرسل له الصيدلاني السمّ خطأً في حبات الدواء قضى نحبه . حقاً قد تقول لي ان المرء قد ينجو بالحيطة البالغة من مثل هذه المصادفات السيئة في الحياة ومن كثير غيرها . لكن لو أنه أمسك حبل القرد الذي يرتبط به كويكوج في حيطة وتنبه مثلما فعلت أنا ، فهل تراه ناجياً ؟ لقد كان كويكوج يشده أحياناً حتى أكاد أنزلق من فوق ظهر السفينة ؛ ولم يبارح خاطري قط، مهما تناسيت الامر ، أنني لم أكن أملك التصرف الا بطرف واحد من ذلك الحبل * .

ألمعت الى انني كثيراً ما كنت أنتشل كويكوج المسكين ، من بين الحوت والسفين ، حيث كان يهوي حيناً بعد حين ، بسبب تدحرج الاثنين وتأرجحها . ولكن لم يكن الهلاك عصراً وضغطاً هو كل ما يتعرض له . ذلك ان القرشان لم تفزعها المجزرة التي جرت لها أثناء الليل فعادت تحفزها وتغري لهفتها من جديد رؤية الدم الذي بدأ يتدفق من الجثة بعد ان كان فيها حبيساً ، فاحتشدت تلك الحيوانات المسعورة حولها كأنها النحل في الخلية .

وكان كويكوج واقعاً في حومة ذلك الحشد الحاشد من القرشان ، وكثيراً ما كان يصدها عن نفسه بقدميه الجاهدتين . ذلك شيء يكاد يعز على التصديق لولا ان القرشان المستكلبة التي تنهس اي لحم كان في سائر الاحوال اذا هي أقبلت على فريسة مثل جثة حوت — تلك القرشان قلما تمس انساناً .

---

* كل الحواتات مزودة بحبل القرد هذا ، ولكن الباقوطة انفردت دون الحواتات بربط « القرد والقرّاد » في قرن ، ومثل هذا التحسين على العادة المتبعة انما ابتكره شخص في مثل كفاية اسطب ، لكي يهيىء للزراق المحفوف بالخطر أقوى ما يمكن من فرص السلامة ، وذلك عن طريق الرقابة الامينة التي يقوم بها ممسك حبل القرد من الطرف الآخر .

على اي حال ما دام لها في كل عرس قرص فمن الحكمة ان يأخذ المرء حذره منها ويتوقاها بعين يقظة . ولم يكن حبل القرد وحده وسيلة وقاية للمحافظة على كويكوج ، نعم كنت أنتشل به ذلك الرفيق المسكين من جوار فكّ قرش أحسبه قرشاً ضارياً بالغ الضراوة ، ولكنه كان ايضاً مزوداً بوسيلة أخرى من وسائل الحماية ، فقد تعلق كل من طاشطيقو ودغة على درجة من درجات جانب السفينة وظلا يلوحـــان فوق رأسه بجرفتين ماضيتين من مجارف التحويت ، فيذبحان بذلك كل ما قد يقع في متناول أيديهما من القرشان . وكان هذا الذي يقومان به عملاً كريماً خـــلواً من الغرض ، وأنا أقر أنهما كانا يهدفان الى صالح كويكوج وسعادته ، ولكن بجرفتيهما الرعناوين ، وهما في حماستهما المتهورة لحمايته والذب عنه ، ربما أطاحتا خبط عشواء برجل إنسان لا بذنب قرش خصوصاً وان كويكوج كان يختفي هـــو والقرشان احياناً تحت المـــاء الكدر المختلط بالدماء . غير أني أقدر ان كويكوج المسكين ، فيما هو يتشدد ويلهث ومعه الكلّوب الحديدي الضخم – كويكوج المسكين ، فيما أقدر ، لم يصنع شيئاً سوى انه كان يصلي لإلهه يوجو وقد ترك حياته وديعة في أيدي آلهته .

وكنت أقول في نفسي اذ اسحب الحبـــل ثم أرخيه كلما أخبّ البحر : طيب طيب يا رفيقي وأخي التوأم . ما همّك بعد كل ذلـــك ؟ ألست أنت الصورة الغالبة لكل واحد فينا ولنا مجتمعين نحن الرجال في دنيا التحويت ؟ ذلك الاوقيانوس الذي لا قرار له وأنت تلهث فيه هو الحياة ، وهذه القرشان هي أعداؤك ، وهذه المجارف هي أصدقاؤك ، وبين القرشان والمجارف تقف انت ايها الفتى المسكين بين الحرج والخطر المؤسفين .

لكن ثباتِ ! فما يزال أمامك تهلل مخبوء من أجلك يا كويكوج ؛ ذلك ان هذا الهمجي المضنى تسلق السلاسل اخـــيراً ، وشفتاه زرقاوان وعيناه محمرتان ، ووقف وهو يقطر ماء والرعشة تهزه عند جنب السفينة ؛ ويتقدم

أمين المؤن منه وهو يلحظه بنظرات الطيبة والتهوين ويسلـّمه — ماذا يا ترى ؟ أيسلمه بعض جرع من كونياك لاذع ؟ كلا ! بل يسلمه أيها الارباب ، يسلـّمه كأساً من الزنجبيل الفاتر المدوف في الماء !

وقرّب اسطب وتساءل في ريبة : « زنجبيل ؟ أتراني أشم رائحة زنجبيل ؟» وحدق في الكأس التي لم تلمسها شفتا كويكوج بعد . ثم وقف كأنه لا يصدق عينيه ، ثم مشى هادئاً نحو النادل المذعور وقال في بطء : « زنجبيل ؟ زنجبيل ؟ هل تتكرم فتخبرني ايها السيد العجّان ما هي ميزة الزنجبيل ؟ زنجبيل ! أهو نوع من الوقود الذي تستعمله ايها الغلام العجان لتشعل النار في هذا الهمجي الذي ترعشه البرداء ؟ زنجبيل ؟ بحق الشيطان ما الزنجبيل ؟ فحم البحار ؟ خشب النار ؟ كبريت الشيطان ؟ حرّاق ؟ بارود ؟ أقول بحق الشيطان ما الزنجبيل هذا الذي تقدمه في كأس لكويكوج المسكين هنا ؟ »

ثم أضاف فجأة : « في تقديم الزنجبيل مـــا يشعر بدسيسة تحيكها جمعية الدعوة الى تحريم الكحول» ، ثم تقدم من استاربك وكان قد عاد لتوّه من أمام وقال : « ألا تنظر في هذا العقار يا سيدي ؟ شمّه من فضلك » ثم أضاف وهو يراقب وجه الضابط : « ان امين المؤن يا سيد استاربك قد بلغ من القحة بحيث يقدم هذا الكالوميل والجلاب لكويكوج ، وقد عاد لتوه من عند الحوت . هل امين المؤن صيدلاني يا سيدي ؟ وهل لي ان أسأل ان كان هـــذا النوع من المشروب هو الذي تُبعث به الحياة في جسم رجل نصف ميت غرقاً؟ »

فقال استاربك : « لا أظن ذلك . فهـــذا شراب بائس جداً » . فصاح اسطب : « أجل أجل أيها العجّان سنعلمك كيف تداوي زراقاً . دعنا من أدويتك وطبك ها هنا . تريد ان تسممنا أليس كذلك ؟ لديك وثائق تأميناتنا على الحياة ولذلك تريد ان تقتلنا جميعاً ، وتحصل على التعويضات . مش كده ؟»

فصاح الغلام العجان : « لست انا الذي جلبت الزنجبيل . العمة إحسان هي التي جاءت به الى ظهر السفينة ، وأمرتني ألا أعطي الزراقين اي قطرة من الكحول ، وانما أعطيهم جرأة زنجبيل (يريد جرعة) » .

« جرأة زنجبيل . يا وغد بشدة امتثالك لأمرها ، خذه، وعُدْ به حالاً الى الخزانة وجيء بما هو خير منه . أرجو ألا أكون مخطئاً بهذا التصرف يا سيد استاربك. انها أوامر القبطان : ان يعطى الزراق جروكا»[1] .

فأجاب استاربك : « حسبك . لكن لا تصفعه مرة أخرى وانما ... »

— « أوه انا لا أسبب الألم حين أضرب الا اذا ضربت حوتاً او شيئاً من نوعه ، وانما هذا الغلام ابن عرس . ماذا كنت تريد ان تقول يا سيدي ؟»

« كنت أقول : اذهب معه وأحضر ما تريده انت نفسك » .

فلما عاد اسطب كان يحمل في احدى يديه قنينة سوداء وفي الاخرى نوعاً من علب الشاي ، اما الاولى فتحوي كحولاً قوياً وقد سلمها الى كويكوج ، وأما الثانية فكانت التحفة التي جاءت بها العمة احسان وقد أهديت عن طيب خاطر للامواج .

---

١ grog : مشروب روحي قوي .

٧٣ اسطب وفلاسك يصيدان واحداً من الحيتان الاثينة ثم يشرطان عنده في حديث

لا بد للقارىء من ان يتذكر بأنه كان لدينا طوال هذا الوقت كله رأس ضخم لحوت عنبر، معلق على جنب الباقوطة . ولا بد لنا من ان نبقيه مدلـّىً هنالك فترة من الزمن حتى تسنح لنا الفرصة فنوليه اهتماماً . أما في الحال الراهنة فان اموراً اخرى تلح علينا، وخير ما نصنعه الآن من اجل الرأس ان ندعو الله بان يظل المرفاعان يتحملان وطأة ثقله .

كانت الباقوطة قد انسابت تدريجاً في الماء خلال الليلة الماضية والغداة التي أعقبتها، وكانت تلوح على الماء بقع متناثرة من القشريات الصفراء فتدل دلالة غير مألوفة في ذلك الموسم بأن الحيتان الاثينة موجودة عن كثب، وهي فصيلة من اللوياثان قلما يظن أحد انها تتربص في هذا الموسم في أي مكان قريب . وكان البحارة جميعاً يأنفون من صيد هذه الحيوانات الوضيعة احتقاراً لشأنها، ولم تكن الباقوطة مفوّضة لتجوب مناطق الصيد طلباً لها أبداً، وقد مرت بأعداد كبيرة منها قرب جزائر كروزيت دون ان تنزل لصيدها قارباً واحداً، ومع ذلك كله فمذ أصبح حوت العنبر مجنباً الى السفينة مفصول الرأس فقد صدر الاعلان الذي أدهش الجميع بأن صيد حوت اثين في ذلك اليوم أمر لا بد منه إن سنحت فرصة لذلك .

وسرعان ما سنحت الفرصة ، فقد رؤيت نفاثات طويلة في اتجاه الريح، ونزل قاربا اسطب وفلاسك لمطاردتها ، وظل الملاحون يجذفون مبعدين حتى كادت رؤية القاربين تعز على الحراس القائمين فوق المراقب ؛ وفجأة رأوا على بعــــدٍ عرمة ً عالية من الماء الابيض المختبط، وجاء النبأ بعد ذلك من الاعالي يقول ان احد القاربين او كليهما قد علق بالحوت ؛ ومرت فترة والقاربان واضحان للأنظار وكأن الحوت يسحبهما على استقامة نحو السفينة ؛ واقترب الوحش من هيكل السفينة كثيراً حتى خيل للناظرين انه يدبر مكيدة، ولكنه انقض فجأة في دردور مائي على مسافة ثلاثة أذرع من الالواح واختفى عن الانظار تماماً كأنه قمس تحت قاع السفينة ، فانبعثت صيحة من السفينة تقول للقاربين : « اقطعوا الحبل، اقطعوا » وكان القاربان في لحظة على وشك ان يصطدما بجنب السفينة اصطدامة قاضية ولكن كان ما يزال لدى القاربين فضل من حبليهما في البرميلين، ولم يكن قمس الحوت بالغ السرعة ، فحلا ّ ما فضل من الحبلـــين، وجذفا في الوقت نفسه، بكل ما لديهما من قوة ليسبقا السفينة، وكان هذا الجهاد في مدى بضع دقائق حرجاً بالغ الحرج اذ لما كان الحبلان المشدودان يرخيان في اتجاه واحد ، والمجاذيف تعمل في اتجاه آخر، فقد كان الشد المعاكس يهددهما بالانزلاق تحت السفينة ولكن كل ما كانا يريدان كسبه هو بضعة أقدام يفوتان بها السفينة ، فظلا متشبثين بذلك حتى احرزاه . وعلى التو أحست السفينة برجفة سريعة تسري كالبرق على طول قاعها حين كان الحبل المشدود يحتُ من تحتها، ثم فجأة ظهر للانظار تحت مقدمتها وهو يكدم ويهتز، ثم اخذت القطرات ترفض عنه حتى كانت كأنها كسر من زجاج تتساقط على المـــاء، بينا ظهر الحوت للانظار ايضاً بعيداً عنهما . ومرة اخرى اصبح القاربان طليقين قادرين على اللحاق . إلا ان الحوت المعيي خفف من سرعته ، وغيّر وجهته على غير هدى وذهب حول مؤخرة السفينة وهو يجر القاربين خلفه حتى انها جميعاً كونت دائرة كاملة .

وزاد الملاحون في الوقت نفسه من جـــرّ الحبلين حتى جانبا الحوت من ناحيتيه وأغمد فيه كل من اسطب وفلاسك حربتيهما بالتناوب، وظلت المعركة تدور حول الباقوطة، بينما اندفعت جموع القرشان التي كانت تحتشد من قبـــل حول جثة حوت العنبر نحو الدم العبيط المهراق ثمة، وهي تجرع جرعات الظامىء من كل دفقة جديدة، مثلما فعل الاسرائيليون العطاش عندما انبجست لهم اثنتا عشرة عيناً من الحجر الذي ضربه موسى بعصاه .

وأخيراً تكاثف نفثه وتقلب وتقيأ على نحو مخيف، واستقر على ظهره جثة هامدة .

وبينا كان رائسا القاربين منهمكين في إعداد حبال لربط ذنبه، وهما يحاولان بوسائل اخرى ان يضعا الجثة وضعاً يمكن من جرّها، جرى بينهما حديث ذو شجون :

قال اسطب دون ان يبارحه بعض الاشمئزاز اذ تصور انه صاد حوتاً وضيعاً: «عجباً ما الذي يريده الرجل العجوز من هذه الكتلة من الشحم الخنزيري القذر» .

فأجابه فلاسك وهو يلف حبلاً احتياطياً في مقدم القارب : « ماذا يريد به؟ ألم تسمع ابداً ان السفينة التي ترفع رأس حوت عنبر على جانبها الأيمن ورأس حوت أثين في الوقت نفسه على جانبها الأيسر، ألم تسمع ابداً يا اسطب انها من بعد لا تنقلب ابداً ؟ »

— « ولمَ لا ؟ »

— « لا أدري ولكني سمعت ذلك الشبح الصمغي الأمغر فيض الله يقول

ذلك ، ويبدو انه يعرف كل شيء عن سحر السفن وتعاويذها ، ولكني احياناً أحسب انه سيسحر السفينة الى ما لا تحمد عقباه . أنا لا أميل الى ذلك الفتى يا اسطب. هل لحظت أنّ عمامة شعره مضفورة في صورة رأس ثعبان يا اسطب؟»

— « داهية تغرقه ! انا لا انظر اليه أبداً، ولكن ان أتيحت لي ليلة مظلمة وكان هـــو عند الحافّة ولم يكن ثمة أحد ... . انظر الى اسفل يا فلاسك » — وأشار الى الماء وهو يحرك يديه كلتيهما حركة غريبة « أيوه ! أأفعل ذلك يا فلاسك ؟ أنا أرى فيض الله هذا شيطاناً متنكراً . هل تصدق تلك الحكاية الخرافية التي شاعت عن انه أخفي مهرّباً على السفينة ؟ انا اقول انه الشيطان . أما لماذا لا ترى ذنبه فذلك لانه يخفيه عن الانظار وأظن انه يحمل ذنبه ملفوفاً في جيبه؛ عليه اللعنة ! خطر لي الآن وأنا اتصور حاله انـــه يحتاج دائماً دسراً ليحشوها في «بوز» حذائه » .

— « انه ينام في حذائه، أليس كذلك، اذ ليس لديه ارجوحة ولكني رأيته الليالي يضطجع في كبة حبل ملفوف » .

— « لا ريب في ذلك ، وكله بسبب ذيله اللعين ، فهو يلفه في نقرة الكبة الملفوفة » .

— « ترى اي شيء يفيده منه الرجل العجوز ؟ »

— « لعله يبغي مقايضة او مساومة فيما أظن » .

— « مساومة ؟ في أي شيء ؟ »

— « انك لتعلم ان الرجل العجوز متوجه الهمة نحو ذلك الحوت الابيض،

والشيطان يحاول ان يلعب بعقله ويجعله يقايض بساعته الفضية او بروحه او بأي شيء من هذا القبيل وعندئذ يسلمه موبي ديك » .

— « أف يا اسطب انك لتوغل بعيداً في تفكيرك؟ كيف يستطيع فيض الله ان يفعل ذلك ؟ »

— « لست أدري يا فلاسك ولكن أقول لك ان الشيطان فتى غريب، شرير كذلك، انهم ليخبرون كيف ذهب يتجول في سفينة العلم القديمة ذات مرة وهو يبصبص ذنبه بطريقة شيطانية يسرة كأنه احد السادة وسأل ان كان الحاكم العجوز في البيت. وكان حقاً في البيت، فسأل الشيطان ماذا تريد ؟ فتقدم الشيطان وهو يتلعب بحوافره وقال له : « أريد جون » . فقال الحاكم العجوز : « لأي غرض ؟ » فقال الشيطان وقد تنمر غضباً : « وما شأنك انت ؟ أريد ان استخدمه » . فقال الحاكم : « خذه » . وحق الاله يا فلاسك، لئن كان الشيطان لم يعطِ جون الكوليرا الأسيوية قبل ان يستطيع استمالته فاني رهن بأكل هذا الحوت في لقمة واحدة . لكن حدد البصر — ألم تستعدوا أنتم بعد ؟ حسن، اذن فلنتقدم مجدفين وليبقَ الحوت على موازاتنا » .

فقال فلاسك حين اخذ القاربان يتقدمان ببطء ومعهما حملهما نحو السفينة : « أظنني سمعت مثل هذه القصة التي حكيتها ولكن لا اذكر اين سمعتها » .

— « في الاسبانيين الثلاثة ؟ في مغامرات الجنود الحمقى الثلاثة ؟ هل قرأتها هنالك يا فلاسك ؟ أظنك هناك قرأتها » .

— «لا، لم أرَ هذا الكتاب أبداً، غير اني سمعت به . لكن خبرني يا اسطب هل الشيطان الذي كنت تتحدث عنه آنفاً هو نفس الشيطان الموجود على الباقوطة ؟ »

« هل انا نفس الرجل الذي أعان على قتل هذا الحوت ؟ أليس الشيطان يعيش الى الابد ؟ من سمع ابداً ان الشيطان مات ؟ هل رأيت قسيساً تسلّب ثياب الحداد من اجل الشيطان ؟ واذا كان لدى الشيطان مفتاح يدخل به الى قمرة امير البحر أفلا تظن انه يستطيع ان يتسلل من ثغرة في سفينة ؟ ما قولك في هذا يا سيد فلاسك ؟ »

« كم تقدر عمر فيض الله يا اسطب ؟ »

فأشار الى السفينة وقال : « هل ترى الصاري الرئيس هناك ؟ حسن . هذا هو العدد واحد . خذ كل الاطواق الموجودة في عنبر الباقوطة ثم اقرنها معاً في صف مع ذلك الصاري لتعد أصفاراً، فان هذا لا يمثل رقم البداية في عمر فيض الله ؛ ولو حشدت الحدادين جميعاً ليصنعوا أطواقاً كل طوق منها بمثابة صفر ، لما كانت الاطواق في الكون كافية لتمثل المطلوب من الاصفار » .

- « لكن افهم يا اسطب، أظنني قبل قليل سمعتك تتبجح بأنك تريد ان تقذف بفيض الله الى البحر، ان سنحت لك فرصة مواتية . فان كان هو معمّراً بقدر هذه الاطواق التي تحكي عنها، وان كان سيعيش الى الابد فما جدوى ان تلقيه عن ظهر السفينة ؟ خبرني » .

- « أغمسه غمسة ممتازة على اية حال » .

- « لكنه سيزحف ثانية » .

- « اغمسه مرة اخرى، وأظل اغمسه كلما ظهر » .

- « هب انه خطر في رأسه ان يغمسك انت ، نعم وان يغرقك ، فماذا لديك ؟ »

– « كم أود ان أراه يجرب ذلك، اذن لحملقت فيه بعينين حمراوين حتى انه لن يجرؤ على ان يبرز وجهه في قمرة امير سفينتنا مرة اخرى لفترة طويلة، واذن لظل وحيداً في اسفل عنبر[1] هناك حيث يقطن، فلا يظهر على الربعات العليا هنا حيث يتسلل كثيراً . لعن الله الشيطان يا فلاسك . أتظنني أخشى الشيطان ؟ من ذا الذي يخافه سوى الحاكم العجوز الذي لا يجرؤ ان يقبض عليه ويغلّ يديه باصفاد مضاعفة، وذلك هو ما يستأهله، وانما يخليه طليقاً يخطف الناس، أجل بل وعقد عهداً معه يقضي بأن كل من اختطفه الشيطان شواه هو له ؛ اي حاكم هو ! »

– « هل تظن ان فيض الله سيخطف القبطان آخاب ؟ »

– «هل أظن؟ عمـــا قليل ستعلم ذلك يا فلاسك، لكني الآن ذاهب لأسلط عليه عيناً يقظة، واذا رأيت شيئاً مريباً يجري أمسكت به من مخنـّقه وقلت : اسمع يا « بعل ذباب » اياك ان تفعل ذلك، واذا أتى بأي لغط، فوالله لأدسنّ خطافاً في جيبه بحثاً عن ذنبه ثم آخذها الى المسحاب، وهناك ألويه لياً عنيفاً وأدفعه دفعاً حتى ينقطع ذنبه من معقده، سامع ؟ وأنا اقدّر انه حين يجد نفسه أبتر بهـــذه الطريقة الملتوية فانه سينسلّ هارباً دون ان يحسّ بلذة الرضى عن وجود ذنبه بين رجليه .

– « وماذا ستصنع بالذنب يا اسطب ؟ »

– « اصنع به ؟ أبيعه سوطاً وأقول انـــه سوط بقريّ حين نعود للوطن، وماذا غير ذلك ؟ »

---

[1] orlop وهو اوطى ربعة في السفينة .

— « هل تعني ما تقول وما كنت تقوله طوال هذه العودة يا اسطب ؟ »

— « أعني او لا اعني، ها نحن وصلنا السفينة » .

نودي على القاربين ان يسحبا الحوت الى الجانب الأيسر من السفينة حيث سلاسل الكلاليب وغيرها من الضروريات كانت قد أعدت لتأمين ربطه .

فقال فلاسك : « ألم أقل لك ذلك ؟ نعم سترى رأس هذا الحوت الاثين قد رفع تواً إزاء رأس حوت العنبر » .

وقد صدق قول فلاسك في الوقت المناسب . وبعد ان كانت الباقوطة تميل بانحدار شديد نحو رأس حوت العنبر استعادت استواءها كما كانت قبلاً حين توازن الرأسان ، وان كانت تئن تحت هذا العبء الثقيل . انك اذا علقت على احد جانبيك رأس الفيلسوف لوك ملت الى ذلك الجانب وعندئذ ما عليك الا ان ترفع رأس الفيلسوف كانت، على الجانب الآخر فيتم التوازن، ولكنك تقع في ورطة بائسة . بعض العقول تظل الى الابد وهي تراعي هـــذا التوازن في حمولتها ؛ يا لكم من حمقى ! ألقوا هذه الرءوس التي تشبه الغيم المتلبد من فوق ظهر السفينة وعندئذ تعومون بخفة ولا تضلّـون .

ان ما اتبع من اجراءات تمهيدية في التخلص من جثة حوت العنبر، يجري ايضاً في حال جثة الحوت الاثين حين يجنب الى السفينة . الا ان رأس حوت العنبر يقطع جملة واحدة، اما رأس الحوت الاثين فيؤخذ منه المشفران واللسان، وترفع جميعاً الى ظهر السفينة مع تلك العظمة السوداء المعروفة المتصلة بما يسمى « التاج » . ولكن البحارة لم يعملوا أي شيء من هذا القبيل حينئذ وانما علقت الجثتان كلتاهما وتدلتا عند الكوثلة، فأصبحت السفينة المحملة بالرأسين تشبـــه بغلاً يحمل عِدْلين باهظين .

وطوال ذلك كله كان فيض الله يلحظ رأس الحوت الاثين في سكون، وينقل نظراته دائماً وابداً من التغضنات العميقة هنالك الى الخطوط في رأسه ؛ واتفق ان وقف آخاب بحيث انطبق ذلك البارسي على خياله، واذا كان للبارسي خيال اي خيال فانه اشتبك مع خيال آخاب وزاد في طوله . وحين مضى الملاحون يجهدون كانوا يتطارحون الحديث في تأملات لابية [1] حول الامور التي مرت جميعاً .

---

[1] نسبة الى (اللاب) سكان لابلاند، واللاب كلمة سويدية تعني (البدو) وهم في الاصل قبيلة مغولية ، ألجأتهم الهجمات المتوالية الى أقاصي الشمال من اسكندنافيا وروسيا ؛ وقد جعلهم تجوالهم ومناخ بلادهم والحرف التي يحترفون يؤمنون بالسحرة والسواحر والتمائم والرق .

٧٤ رأس حوت العنبر - موضع مفارقة

ثمة حـــوتان كبيران تجاور رأساهما فلنربطهما معاً ولنقرن اليهما رأساً من رءوسنا . وحوت العنبر والحوت الاثين حسب الجسامة هما أبرز الحيتان ، وهما الحوتان الوحيدان اللذان يصيدهما الانسان بانتظام ، ويمثـــلان لدى الحوات النانتوكتي طرفي الانواع المعروفة من الحيتان جميعاً . وبما ان الاختلاف الظاهري بينهما ملحـــوظ على أشده في الرأسين ، وبما ان كلا الرأسين متدل من جانب الباقوطة في هذه اللحظة ، وبما أننا نستطيع ان نتنقل بحرية بين الواحد والثاني وذلك بأن نعبر ظهر السفينة وحسب ، فاني أحب ان أعرف أين يمكنك ان تنال فرصة خيراً من هذه لتدرس علم الحيتان دراسة عملية ؟

وأول ما يلفتك هو المفارقة العامة القائمة بين هذين الرأسين : كلاهما جسيم دون ريب الا ان في رأس حوت العنبر اتساقاً رياضياً ، يفتقر اليه رأس الاثين افتقاراً مؤسفاً . وفي رأس حوت العنبر حظ أوفر من قوة الشخصية فاذا رأيته حكمت له لا ارادياً بالتفوق الهائل في أمر الرفعة الشاملة ؛ ومما يزيد من هذه الرفعة في الظرف الراهن لون رأسه الهجان عند قمته فهو يشبه مزيجاً من الفلفل والملح ، وتلك شارة السنّ العالية والتجربة الواسعة . فهو — بايجاز — ما يسميه الصيادون في مصطلحهم « حوت أشيب » .

ثم لنلحظ أقلّ أوجه التباين بين الرأسين أعني أهمّ جارحتين وهما العـــين والأذن : في مكان قصي على جانبي الرأس ، وفي موضع نازل قرب الزاويتين عند

فكي الحوت اذا فتشت بدقة وجدت آخر الأمر عينين لا أهداب لهما ولقد تحسبهما عيني مهر صغير ، وهما لا يتناسبان في صغرهما أبداً مع ضخامة الرأس .

وبما ان عيني الحوت قد ركبتا في جانبي رأسه فمن الواضح أنه لا يستطيع ان يرى شيئاً واقعاً أمامه تماماً ، مثلما أنه لا يستطيع ايضاً ان يرى ما خلفه ، أعني أن موضع عينيه حيث تقع أذنا الانسان ؛ وتستطيع أن تتخيل كيف تكون حالتك وأنت تتملى الاشياء الجانبية بأذنيك ، وستجد أنك لا تقدر ان تحرز سيطرة بصرية الا على نحو ثلاثين درجة من الرؤية أمام الخط الجانبي المستقيم للنظر ، وثلاثين درجة الى الوراء ، واذا كان عدوك يتجـه نحوك عامودياً من أمامك ، وقد رفع خنجره في وضح النهار ، لم تستطع أن تراه ، بأكثر مما تراه لو كان يتسلل إليك من ورائك ؛ واذن لـكان لك وراءان ، ان صح التعبير ، إلا أن لـــك في الوقت نفسه أمامين (جانبيين) اذ ما الذي يجعل الأمام أماماً بالنسبة للانسان ، ماذا سوى عينيه حقاً ؟

ثم إن أكثر الحيوانات الأخرى التي تخطر على بالي قد ركبت العينان فيها بحيث تمتزج فيهما قوة النظر حتى تتكون لدى الدماغ فيها صورة واحـــدة لا صورتان ، أما الموقع الفذ لعيني الحوت ، وقد فصلت بينهما عدة أقدام من رأس مصمت ناتيء بينهما كأنه جبل كبير يفصل بين بحيرتين في واديين ، فانه يفصل تماماً الانطباعين اللذين تتلقاهما الجارحتان كلٌ على حدة . ولذلك فلا بد للحوت من ان يرى صورة واضحة من هذا الجانب وأخرى واضحة من ذلك الجانب بينا يكون ما بينهما ظلام عميق أو خلاء مديد ؛ واذن فقد نقول : ان الانسان ينظر الى الكون من مرقب كالصندوق فيه نافذة واحدة ذات فروازين . أما الفروازان عند الحوت فقد وضعا منفصلين فخلقا بذلك نافذتين متمايزتين، وشوها المنظر على نحو مؤسف . وهذه الميزة في عيني الحوت شيء لا بد من تذكره في التحويت ، ولا بد للقاريء من ان يتذكره في بعض المناظر التالية .

وقد نأخذ هنا في ذكر مسألة غريبة محيّرة كثيراً تتعلق بهذا الأمر البصري المتصل باللوياثان ، غير أني سأقنع في هذا المقام بلمحة يسيرة فأقول : ما دامت عينا الانسان مفتوحتين في الضوء فالرؤية عمل غير اختياري ، اي أنه لا يملك الا أن يرى آلياً ما قد يقع أمامه من أشياء . ومع هذا فان تجربة أي امرىء تدله بأنه يستحيل عليه ان يتفحص شيئين تفحصاً دقيقاً كاملاً — كبيرين كانا او صغيرين — في لحظة واحدة ولو كان الشيئان متجاورين متلامسين ، وان كان يستطيع في لمحة واحدة ان يشمل جميع ما يقع تحت عينيه . ولكن اذا فصل الشيئين أحدهما عن الآخر، ورسم دائرة عميقة السواد حول كل منهما، فانه ان شاء ان يرى أحدهما بحيث لا ينساه أبداً كان عليه ان ينفي الشيء الآخر من وعيه نفياً تاماً . فكيف يكون الأمر اذن في حال الحوت ؟ حقاً ان عينيه كلتيهما لا بد أن تعملا في وقت معاً ولكن هل يكون دماغه يا ترى أشد إحاطة وجمعاً ولباقة من دماغ الانسان حتى انه ليستطيع في نفس اللحظة من الزمن أن يتفحص في دقة منظورين متمايزين يقع أحدهما على أحد جانبيه ويقع الآخر على الجانب المضاد ؟ فان كان يستطيع ذلك فذلك فيه شيء عجيب ، كالرجل الذي يقدر ان يتغلغل في مسألتين رياضيتين متمايزتين من مسائل اقليدس ، في وقت معاً . واذا أنت تدبرت هذه المقارنة بدقة لم تجدها نابية مفتعلة .

وبعض الحيتان اذا هاجمتها ثلاثة قوارب او اربعة أخذت تتقلب وتتذبذب في حركتها على نحو شاذ غريب، وأدركها الهلع واستبدت بها المخاوف المستغربة كثيراً ، وأنا أظن أن هذا ينجم بطريقة غير مباشرة من الحيرة المحيّرة الجازعة التي تعتري ارادتها ، وهي حيرة يوقعها فيها انقسام قوة الابصار في اتجاهين متضادين ؛ ولعل هذا الرأي خاطرة من خطرات الوهم ، إلا أنها كثيراً ما كانت تبدو لي تفسيراً لما يصيب بعض الحيتان من هلع .

ولا تقل أذن الحوت في غرابتها عن عينه ؛ واذا لم يكن لك معرفة وثيقة

بجنس الحيتان فانك قد تجوب بنظرك جميع نواحي هذين الرأسين مدة ساعات ثم لا يقع نظرك على أذنه . فليس للأذن أي صوان خارجي ، وقناتها صغيرة دقيقة حتى لا يكاد القلم يدخل فيها ، وموقعها على مسافة قليلة خلف العين ، وبين الحوتين ، العنبر والأثين، فرق في الأذن لا بد من مراعاته : فأذن حوت العنبر ذات فتحة خارجية ظاهرة أما أذن الثاني فانها مختفية وراء غشاء حتى لا ترى من خارج .

أليس عجيباً ان لا يبصر الكونَ مخلوقٌ جسيمٌ كالحوت إلا بعين كعينه صغراً ، ولا يسمعُ الرعدَ إلا بأذنٍ أصغر من أذن الأرنب ؟ ولكن لو كانت عيناه واسعتين كعدستي تلسكوب هرشل الضخم [1] ، وكانت أذناه رحبتين كدهاليز الكاتدرائيات ، أكان ذلك يجعل نظره أبعد مدى وسمعه أحدّ ؟ أبداً . إذن فلم تسعى أن « توسّع » عقلك ؟ خير لك أن تجعله دقيقاً نحيلاً .

ثم تعال بنا نستعمل كل ما لدينا من عتلات وآلات بخارية كي نقلب رأس حوت العنبر حتى يصبح عاليه سافله ، ثم لنصعد الى قمته على سلّم ونحدق النظر في فمه ؛ — ولولا أن الجسم قد فصل منه لاستطعنا على ضوء قنديل ان نهبط الى معدته التي تشبه كهف الماموث بكونتكي [2] ، وهو كهف وسيع . ولكن دعنا نستمسك بهذا الناب ونلقي النظر حيث نحن على ما حولنا . ما أجمل هذا الفم الطاهر البريء ! انه مخطط من أدناه الى أعلاه ، او قل مغلف بغشاء أبيض وضّاء أملس مصقول كأنه ثوب الزفاف .

---

[1] هو السير وليم هرشل (١٧٣٨ – ١٨٢٢) صنع تلسكوباً كبيراً عام ١٧٨٩ وبه اكتشف الفلك السابع للكوكب زحل .

[2] اكتشف هذا الكهف ادمند لي عام ١٨٣٤ – ١٨٣٥ .

ولكن هيا اخرج من موضعك وانظر الى هذا الفك السفلي المشئوم الذي يبدو كأنه غطاء طويل ضيق فوق صندوق سعوط ضخم ، ذو عضادة عند احدى نهايتيه بدلاً من جانب واحد . فاذا رفعته حتى جعلته فوق مستوى رأسك وعرضت أمامك صفي أنيابه بدا لك وكأنه متراس فظيع ، وهو كذلك -- ويا للأسف -- لدى كثير من الآدميين المساكين في حرفة التحويت حين تطبق عليهم هذه « الرزّات » بقوة نفاذة . ولكنه أشد فظاعة ، حين تبصره حوتاً ضجراً وأنت على بعد قامات تحت الماء ، وقد عام هنالك معلقاً ، وفكه الهائل الذي يبلغ طوله خمسة عشر قدماً معلق مدلّى على زاوية قائمة مع جسده كأنه صاري البوم في السفينة . هذا الحوت ليس ميتاً وانما هو فاتر العزم وحسب ، أو لعله منحرف المزاج ، سوداوي . وهو متراخ منبطح حتى ان عضادتي فكيه قد استرختا ، وجعلتاه يبدو في ذلك اللون من الورطة القبيحة عاراً على بني جنسه ، وهم دون ريب يستنزلون عليه داء الكزاز ، ولا بدّ .

واذا حضر فنان في شئون الحيتان فانه يستطيع ان يفكّ عضادتي هذا الفكّ بسهولة ، وبذلك يُفصل هذا الفك السفلي في معظم الأحوال ويرفع الى ظهر السفينة لانتزاع الانياب العاجية وللحصول على تلك العظمة الحوتية الصلبة التي يبدع بها الصيادون جميع أنواع الأدوات العجيبة ومنها : القنوات وقوائم المظلات ومقابض سياط الخيّالة .

ويجر الفكّ صعداً على نحو طويل شاق كأنه الأنجر . وحين يحل الوقت المناسب ، أي بعد بضعة أيام تنقضي على الأعمال الأخرى ، يبدأ أطباء الأسنان المتمرسون وهم كويكوج ودغة وطاشطيقو بسحب أنيابه ، فيحسر كويكوج

اللثة بمجرفة جزارة حادة ، ثم يربطون الفك الى حلقات في الدسر ، ثم يسلطون عليه مرفاعاً موثقاً من الأعلى ويسحبون بقوته الأسنان مثلما تسحب ثيران متشجن جذم السنديانات الهرمة من الغابات البرية . وتبلغ الأسنان اثنتين وأربعين وتكون في الحيتان الهرمة نخرة دون ان تتعفن ، غير ان الحيتان لا تحشوها حسبما يفعل الآدميون . ثم ينشر الفكّ بعد ذلك في صفائح ويكدّس كما تكدّس الدعامات لبناء الدور .

٧٥ رأس الحوت الاثين – موضع مفارقة

لنلق نظرة طويلة كاشفة ونحن نعبر ظهر السفينة على رأس الحوت الاثين . مثلما ان رأس حوت العنبر النبيل قد يقارن في شكله العام بعربة الحرب الرومانية (وخاصة المقدمة حيث يستدير في سعة واستفاضة) فكذلك رأس الحوت الاثين لدى النظرة الشاملة يحمل شبهاً جافياً بحذاء ضخم ذي «بوز» كأنه مقدّم الجليوت . ومنذ مائتي سنة شبه شكله رحالة هولندي بقالب الحذّاء، وفي هذا القالب او الحذاء تستطيع تلك المرأة العجوز التي تذكر في حكايات الاطفال ان تسكن آمنة مطمئنة هي وجميع ذريتها .

وما ان تقترب من هذا الرأس الكبير حتى يتخذ له جوانب مختلفة حسب موقفك وأنت تنظر اليه، فاذا وقفت عند ذروته وتطلعت الى وقبي نفثه اللذين شقا على شكل f حسبت الرأس كله كاناً ضخماً جهيراً، وحسبت الوقبين ثقبين في الصندوق الذي يخـــرج منه الرنين . ثم اذا أثبت عينيك في ذلك التطعيم الغريب المقنزع الذي يشبه المشط، على قمة الرأس – ذلك الشيء الاخضر المحازن الذي يسميه أهل جرينلاند: «تاج» الحوت الاثين ويسميه صيادو البحار الجنوبية « قلنسوة » ذلك الحوت – اذا أثبت بصرك على هـــذا الشيء وحده حسبت الرأس جذع سنديانة ضخمة في مَفْرَعها عش طائر . وأنت على اي حال اذا رقبت هذه السرطانات الحية التي تعشش في قلنسوته فلا بد من ان يخطر لك مثل ذلك الخاطر إلا ان كان خيالك قد قيدته لفظة «تاج» التي تطلق عليه ايضاً، وفي مثل هذه الحال سيلذك ان تفكر كيف ان هذا الحيوان الجبار ملك متوج من

ملوك البحار وقد عصّب باكليله على هذا النحو العجيب . ولكن ان يكن هذا الحوت ملكاً فانه امرؤ متبرم عبوس لا يشرّفُ تاجاً او اكليلاً . تأمل هذه الجحفلة المدلاّة : أي عبوس وتجهم مستفيض هنالك ! عبوس وتجهم لو قاس النجار مداهما لجاء حوالي عشرين قدماً في الطول وخمسة أقدام في السُّمك، عبوس وتجهم تبلغ غلّته خمسمائة جالون من الزيت او تزيد .

ومن المؤسف ان يكون هذا الحوت المنكود أعلم الشفة، ويبلغ عَلَمُهُ قدماً واحداً في سعته، ولعلّ أمّـــه ذات يوم من أيام الحمل كانت تبحر عند ساحل بيرو، حين شقت الزلازل الشاطىء فانفهق . ومن فوق هذه الشفة العلماء ننزلق في داخل فمه كما نفعل فوق عتبة زلقة، ولعمري لو كنت في ماكناو لحسبت هذا الفم فضاءَ كوخٍ هندي . رباه ! أهذه هي الطريق التي سلكها يونان ؟ سقفه يبلغ حوالي اثني عشر قدماً وينتهي بزاوية حادة كأن هنالك رافدة رئيسة ؛ أما الجوانب المضلعة المقوّسة الشَّعْراء فانها تقدم لنا تلك الألواح التي تشبه السيف العريض من عظم الحوت وهي نصف رأسية، ومنهـــا على كل جانب ثلاثمائة، أصولها في الجزء العلوي من الرأس او عظمة التاج او ما سميته «الستارة البندقية» وذكرته عابراً من قبل . وقد هدّبت أطراف هذه العظام بألياف شعرية يصفي الحوت الاثين الماء من خلالها، وبين مشابكها يحتفظ بالسمك الصغار حين يتجه مفتوح الفم خلال حقول من القشريات في موسم الغذاء . وفي الستائر العظمية الوسطى، حسبما هو ترتيبها الطبيعي، علامات وانحناءات وتجويفات وقنن كلها غريبة ومنها جميعاً يحسب بعض البحارة عمر ذلك الحيوان، كما يقدر عمر السنديانة من رؤية الحلقات الدائرية في جذعها . وهذا التقدير غير موثوق كثيراً ولكن فيه رائحة من الاحتمال القياسي ؛ واذا سلمنا به – على أية حال – فعلينا ان نقدر للحوت الاثين عمراً كبيراً لا توحي به النظرة الاولى ولا تجده معقولاً .

ويبدو ان الناس حين فكروا في هذه «الستائر» ، في الايام الغابرة ، ذهبوا

فيها مذاهب من الوهم غريبة ممعنة في الغرابة فقد دعاها رحالة في مجموعة بركاس « المجاسّ » العجيبة داخل فم الحوت، ودعاها آخر « شعرات الخنازير » وقال ثالث في بعض رحلات هكليوت مستخدماً لغـــة أنيقة : « على كل جانب من جانبي هذه المعلمة العليا ما يقرب من مائتي زعنفة وخمسين، وتتقوس فوق لسانه على جانبي فمه » .

هذه « الزعانف » او « شعرات الخنازير » او « المجاس » او « الستائر » او أياً ما دعوتها هي – كما يعلم الناس جميعاً – تزوّد السيدات بالمشادّ، وغيرها من وسائل « التخصير والتكوير » . إلا ان الطلب على هذا النوع بخاصة آخذ منذ عهد بعيد بالتناقص، وقد بلغت عظام الحوت ذروة مجدها في عصر الملكة آن ، اذ كان لبس الفرنقل حينئذ شائعاً . وكانت السيدات في تلك الايام يتخطرن برشاقة بين فكي حوت – ان جاز القول – ونحن اليوم بمثل انسيابهنّ السادر نطير عند سقوط المطر متخذين فكي الحوت أداة وقاية اذ ما المظلة الا خيمة منشورة على عمود من تلك العظام .

لكن انسَ لحظة كل ما قيل عن «الستائر» والمجسّات، وانظر وأنت واقف في فم الحوت الاثين حولك مستأنفاً : فاذا رأيت هذه الاعمدة ذات الاقواس من العظم مرتبة على نسق ألا تظن انك داخل أرغن هارلم [1] وأنت تحدق في الالوف من أنابيبه ؟ اما البساط الذي يفترشه الارغن فانـــه سجادة من أنعم ريش الدندي – هو اللسان الذي يلتصق بباطن الفم . فهو سمين رخص قابل لأن يتمزق قطعاً اذا رفعته الى ظهر السفينة. هذا هو اللسان نفسه أمام أعيننا أشمله بلمحة وأقول انه « غلاّل ستة » أعني انه يعطي من الزيت ما يملأ ستة براميل .

---

١ أقيم هذا الارغن ١٧٣٥ - ١٧٣٨ وفيه ٥٠٠٠ أنبوبة، قطر الغليظة منها ١٥ انشاً وأطولها تبلغ ٣٢ قدماً .

وكان عليك قبل ذلك ان تستوضح لنفسك صدق ما بدأت به — اعني حين قلت ان رأسي حوت العنبر والحوت الاثين يكادان يكونان مختلفين تماماً. وأجمل ما فصلته فأقول: ليس في رأس الحوت الاثين نبع غزير من الزيت ولا أنياب عاجية وليس فكه الاسفل على صورة ضبة طويلة نحيلة . وليس في حوت العنبر ستائر من العظم ولا جحفلة ضخمة ويكاد ان يكون دون لسان ثم ان للحوت الاثين وقبين للنفث، وليس لحوت العنبر إلا وقب واحد .

ألق آخر نظرة على هذين الرأسين الوقورين المقلسين ما داما هنا معاً لأن أحدهما سيغطس في الماء بعد قليل لينسى أبداً ولن يتأخر الثاني بعده طويلاً .

هل تستطيع ان تتصور التعبير على وجه حوت العنبر ؟ انه التعبير الذي مات وهو يحمله ، إلا بعض التجميدات المستطيلة في جبهته فانها قد انبسطت ؛ وأنا أظن ان جبهته العريضة مليئة بالاطمئنان كأنها سهب من السهوب، وأنها تولدت عن لامبالاته التأملية نحو الموت ؛ لكن الحظ التعبير على رأس الحوت الآخر : انظر تلك الشفة السفلى المدهشة وقد لزّت عرضاً الى جانب المركب حتى أصبحت تعانق الفك بقوة أسْر ، ألا يحدثك هذا الرأس كله عن تصميم عملي هائل في مواجهة الموت ؟ أنا أرى ان هذا الحوت الاثين كان رواقياً وان حوت العنبر كان افلاطونياً يمكن ان يعتنق مذهب اسبنوزا في السنوات الاخيرة من عمره .

٧٦

المنجنيق

قبل ان نغادر في هذا المجال رأس حوت العنبر أودّ لك، وأنت الفسيولوجي العاقل، أن تنتبه بخاصة الى جانبه الأمامي في اكتنازه وتحشده ، وأرى أن تستطلعه رجاء ان تكوّن لنفسك تقديراً معتدلاً لبيقاً عن اي قوة منجنيق مستقرة فيه . ها هنا مسألة حيوية فاما أن تسوي هذا الأمر بنفسك او تظل كافراً بحدث قد يكون من أشد الاحداث رعباً في التاريخ المدوّن وإن لم يكن أقلها حظاً من الصحة .

انك لتلحظ أن مقدم رأس حوت العنبر وهو سابح في وضعه العاديّ يمثل خطاً يكاد يكون رأسياً على الماء ، وأنت تلحظ أن الجزء السفلي من ذلك المقدم ينحدر متقاعساً بعض الشيء نحو الخلف كي يهيىء مدخلاً يندس فيه الثقب الذي يتلقى الفك السفلي الشبيه بالسارية ، وأنت تلحظ أن الفم واقع تماماً تحت الرأس ، كما لو كان فمك تحت ذقنك ، ثم انت ترى فوق ذلك كله أن ليس للحوت أنف ظاهر ، وأن ما لديه من أنف – وهو وقب النفث – واقع في قمة رأسه ، وترى أن عينيه وأذنيه على جانبي الرأس على بعد يساوي ثلث طوله من أمام ، ومن ثم تجد ان مقدم رأس حوت العنبر حائط مصمت جامد ليس فيه جارحة ما أو نتوء حساس من اي نوع كان . زد على ذلك أنك لا بد لك من أن تقدر أن ليس ثمة اي أثر طفيف للعظم إلا في الطرف السفلي المنحدر المتجه نحو الخلف من مقدم رأس الحوت، وأنك لا تبلغ التطوّر الحقفي الكامل الا بعد ان تقطع ما يقرب من عشرين قدماً من الجبهة ، فهذه الكتلة الضخمة

اللاعظمية تشبه حزمة واحدة . وسنتحدث عما قليل في أنها تحتوي ألطف أنواع الزيت ، ولكن لنحدثك ها هنا عن طبيعة المادة التي تغلف هذا التأنث الظاهري بغلاف منيع لا ينفذ فيه شيء . وصفت لك في موضع سابق كيف ان الشحم يتلبس جسم الحوت مثلما يغلف اللحاء البرتقالة ، وكذلك هو الحال في الرأس مع فرق واحد ، وهو أن هذا الغلاف حول الرأس غير كثيف ولا يعتمد في جساوته على عظم ، وذلك شيء لا يستطيع ان يقدره حق قدره من لم يتمرس به . فلو قذف بأمضى شباة سنان وبأنفذ حربة ، وكان الزراق أقوى الناس ذراعاً ، لندّت عنه طائشة عاجزة حتى كأن جبهة الحوت قد رصفت بحوافر الخيل ، ولست أظن أن فيها إحساساً ما .

ثم تصور لنفسك شيئاً آخر : عندما يصادف ان تندفع سفينتان من سفن شركة الهند الشرقية ضخمتان مشحونتان احداهما نحو الأخرى في أحواض السفن فماذا يصنع البحارة ؟ انهم لا يضعون بينهما عند وشك الاحتكاك المرتقب أية مادة صلبة كالحديد او الخشب ، لا . وانما يمسكون حزمة ضخمة مستديرة من الحبال والفلين ملفوفة في أكثف نوع وأمتنه من جلد الثور ، فتلك الحزمة تمتصّ – بشجاعة ودون ان يصيبها أذى – كل ارتطام لو حدث لكسر ما فيهما من أخال سنديانية وعتلات حديدية ، وهذا في ذاته يكفي ليوضح هذه الحقيقة الناصعة التي أرمي اليها ، ولكني أضيف شيئاً آخر : لقد خطر لي افتراضاً شيء استنتجته من ان في السمك العادي ما قد يسمى مثانة العوم وهي قابلة لان تنبسط وتنقبض حين تشاء ، وليس للحوت مثل هذه الأداة فيما أعلم ؛ غير أني أعلم أنه ينزل رأسه كله تحت سطح الماء ثم يرفعه تواً ويسبح وهو قد أخرجه عالياً من الماء وذلك شيء لا يفسر ان لم تكن مثانة العوم فيه ؛ وحين قدرت هذا وقدرت المرونة الطليقة في غلافه وقدرت الداخل الفذّ من رأسه ، أقول : حين قدرت هذه الأمور خطر لي افتراضاً أن تلك الخلايا الرئوية الغريبة قد تكون ذات صلة بالهواء الخارجي ، صلة لا ريب فيها وإن ظلت حتى اليوم

مجهولة ، فذلك هو الذي يجعلها قابلة للانبساط والانقباض الهوائي . واذا كان ذلك كذلك فتخيل لنفسك صمود تلك القوة التي يسهم فيها أشد العناصر لطافة وقدرة على التخريب .

تأمل ما هنالك : من خارجٍ جدار جامد عاتٍ لا يخترقه شيء ولا يصيبه أذى ، ومن داخـــلٍ شيء بالغ الخفة والطفوّ ، وكونهما معاً كذلك أمر مثير يقيناً ، ووراء ذلك كله تعوم كتلة من الحياة الهائلة ، لا تحتاج في تقدير الانسان من التقدير إلا الى ما تحتاجه حزمة الحطب ، لا تحتاج إلا حبلاً يطوّقها ، وكل هذه الكتلة الهائلة تخضع لحركة واحدة كأنها أصغر حشرة . فاذا فصلت لك من بعد كل مميزات القدرة الحالـّة في هذا الحيوان المديد وكلّ المراكز التي تتجمع فيها عندما اريـــك بعض منجزاته الفكرية التي لا يعيرها الناس اهتماماً فانني واثق من أنك حينئذٍ تكون قد نفضت عنك كل تسرع الى التكذيب الجاهل وأخذت تركن الى ما أقول : فان قلت لك إن حوت العنبر قد شق طريقاً خلال برزخ بنما ومزج الأطلسي بالهادي فانك لن يطرف لك جفن استغراباً . ذلك أنك ان لم تملك الحوت فانك في جانب الحقيقة ما تزال غراً ريفياً او فتى عاطفياً ، ولكن الحقيقة الناصعة شيء لا يواجهه إلا مَرَدَة السمندل فما أقل نصيب الأغرار منها ! ما الذي حدث للشاب المضعوف الذي رفع الحجاب المخوف عن وجه الالاهة في سيس [1] ؟

---

[1] في الاصل : ليس، وهو خطأ ؛ والقصة من قصيدة لشلر تحكي حكاية شاب ساذج ذهب الى سيس بمصر ليدرس أسرار الكهان . وقد حذروه من تمثال « الحقيقة » الملفع بحجاب فما أصاخ لهم ؛ وفي اليوم التالي وجده الكهنة ممدداً غائباً عن الوعي أمام تمثال ايزيس .

٧٧ دن هيدلبرج الكبير

آن لنا أن نصف كيف تفرغ « دنية » الحوت ولكن عليك أن تعلم شيئاً عن التركيب الداخلي لهذا الذي يجري فيه التفريغ حتى يحيط به فهمك . فاذا اعتبرت رأس الحوت مستطيلاً صلباً فقد تستطيع أن تقسمه على سطح مائل في إسفينيْ زاوية quoin * يمثل الأدنى منهما التركيب العظمي وهو يؤلف الحقف والفكين ، ويمثل الأعلى كتلة دهنية لا عظام فيها أبداً ، ونهايتها العريضة تشكل جبهة الحوت المديدة الرأسية في ظاهرها . وعند منتصف الجبهة ينقسم اسفين الزاوية الأعلى أفقياً في قسمين متساويين او يكادان ، وهما من قبل ينقسمان قسمة طبيعية بجدار داخلي من مادة وترية كثيفة .

والجزء السفلي من هذين القسمين يسمى « القرص » وهو خلـــية كبيرة من الزيت تتكون من التعارض والتشابك الذي يتمّ بين عشرة آلاف من خلايا مرشّحة ، ومادتها في جميع أجزائها نسائج بيض مرنة متينة ، ويسمى القسم العلويّ منهما « الدنيّة » وقد تعد بمثابة دن هيدلبرج الكبير في حوت العنبر . وبما أن هذا الصهريج الكبير المشهور واقع في تجويف الرأس الأمامي فان جبهة

---

* ان هذا المصطلح quoin ليس مما وضعه اقليدس . وانما ينتمي الى الرياضيات البحرية ، ولا أعرف أحداً عرفه من قبل ، وهو جسم صلب يختلف عن الاسفين العاديّ في ان حدّه الحادّ يميل ميلا منحـــدراً من جانب بدلاً من أن يكون الاستدقاق من جانبيه ، وهو شيء يستعمله أصحاب المطابع .

الحوت الواسعة المتغضنة تمثل وسائل غريبة لا تحصى لتزيين هذا الدن العجيب بزينة تعد شعاراً عليه . ومثلما ان دن هيدلبرج [1] كان دائماً طافحاً بأجود خمور وديان الراين ، فكذلك دن الحوت يحوي أثمن غلة زيتية فيه ، أعني ما يسمى « زيت الحوت » الذي يغالي الناس فيه ، في حالته الصافية الخالصة العطرة . ولا توجد هذه المادة الثمينة بهذا الصفاء في أي جزء آخر من أجزاء الحوت . وما دام الحيوان حياً فانها تظل سيّالة تماماً فاذا عرضت للهواء بعد الموت فسرعان ما تأخذ في التصلب مرسلة فروعاً بلورية كالتي يكوّنها الثلج الرقيق اللطيف على الماء أول ما يأخذ في التجمد . واذا كان الحوت كبيراً غلّت «دنيّته» ما يقرب من خمسمائة جالون من الزيت وان كان قسط منها يندلق او ينز او يتقطر او يضيع دون ان يمكن استرجاعه أثناء العمل المحفوف بالحرص على استنزافه دون تضييع كثير ، لأسباب وظروف لا يستطاع توقّيها .

بأي مادة رقيقة ثمينة كانوا يبطنون دن هيدلبرج من داخل ؟ لست أدري ولكن تلــك البطانة في نعومتها وفراهتها لا يمكن ان توازى بذلك الغشاء البلوري الحريري الذي يكوّن الطبقة الداخلية في « دنية.» حوت العنبر كأنه بطانة من « البليس » المرهف الرقيق .

واذا تأملنا تلك الدنية في حوت العنبر وجدناها تحتضن قمة الرأس كله على طولها ، ورأس الحوت – كما ذكرنا من قبل – يمثل ثلث طول الحيوان كله ، فاذا قدرنا طول حوت ذي حجم معقول بثمانين قدماً كان عمق دنيته يزيد على ستة وعشرين قدماً حين يرفع طولاً عند جنب السفينة .

---

[1] وصف هذا الدن Tun بأن طوله ٣١ قدماً وارتفاعه ٢١ قدماً .

وعند فصل رأس الحوت عن جسده يقرّب الجزار أداته من الموضع الذي تخرق فيه من بعد فوهة لخزان الزيت، ولذلك كان عليه ان يكون شديد الحيطة لئلا تنقض ضربة من ضرباته المعجلة الطائشة فتهاجم ذلك المعبد وتدلق ما فيه من محتويات بالغة القيمة ، وهذا الطرف المفصول هو الذي يرفع أخيراً من الماء ويظل كذلك بقوة مرفاعي الجزارة اللذين تمثل أربطتها القنبية على جانب منه غابة من الحبال في تلك الجهة .

وحسبنا ما قلنا ، ولذا أرجو أن تتنبه الى تلك العملية العجيبة ، التي تكاد تكون ضربة قاضية ، أعني حين يُبْزَل ذلك الدن الهيدلبرجي الكبير .

٧٨

حوض ودلاء

يصعد طاشطيقو الى أعلى رشيقاً كأنه قطة، ويجري مستقيماً على نهاية ساعد الباحة الكبرى المشرفة، الى الجزء الناتيء منها فوق الدن المرفوع، دون أن يحني قامته المنتصبة، ومعه مرفاع خفيف يسمونه «السوط» يتركب من جزءين فقط ويمر من خلال كتلة فيها بكرة واحدة، ويدلي هذه الكتلة بحيث تتعلق من نهاية الباحة، ويراوح أحد طرفي الحبل حتى يعلق مستمسكاً بيد تلتقطه على ظهر السفينة، ثم يهوي الهندي في الفضاء وقد وضع يداً على يد نازلاً الى الجزء الآخر حتى يحط في رشاقة على قمة الرأس، وهناك يظل عالياً ومن دونه سائر أفراد عصبته وهو يصرخ نحوهم طروباً مرحاً، كأنه مؤذن يدعو الصالحين للصلاة من قمة مئذنة. وترسل اليه مجرفة حادة قصيرة المقبض، فيفتش مجتهداً عن المكان الملائم الذي يبدأ عنده فتح ثغرة في الدن. ويأخذ في هذا العمل بأشد حيطة كأنه باحث عن ركاز في بيت قديم فهو يدق على الجدران ليعلم أين أودع الذهب. وحين ينتهي هذا البحث الحذر يُربَط دلو قوي مطوق بالحديد، يشبه دلو الآبار تماماً، الى احد طرفي «السوط»، ويمد الطرف الثاني عبر ظهر السفينة، وتمسكه هنالك يدان او ثلاث أيدٍ لبيقة، فترفع الدلو بحيث يصبح في متناول الهندي الذي قد أوصل اليه رجل آخر سارية طويلة، فيدخل طاشطيقو السارية في الدلو، وينزله الى داخل الدن حتى يختفي فيه تماماً ثم يلقي أمره الى البحارة الواقفين عند السوط فيرتفع الدلو ثانية وقد طفح كأنه سجل ملأته الخادم الحلابة بالحليب الطازج. وينزل الدلو المفعم من هذا الارتفاع بحرص فتمسك به يد متأهبة لتلقيه وتفرغه في برميل كبير، ثم يعود مرتفعاً صاعداً

ويقوم بالدورة نفسها حتى لا يبقى في الحوض العميق شيء ؛ وقبيل النهاية يدس طاشطيقو السارية الطويلة ويدفعها بشدة ويعمق السّبر في الدن حتى يغيب منها فيه نحو عشرين قدماً .

أمضى أفراد عصبة الباقوطة بعض الوقت في التفريغ والتعبئة على هذا النحو حتى ملأوا عدداً كبيراً من البراميل بالزيت الشذيّ ، وعندئذ حدثت حادثة غريبة : أكان طاشطيقو ذلك الهندي المتوحش ساهياً قليل الاكتراث فجعل قبضته ترتخي أو تنزلق عن المرفاعين الكبيرين المربوطين بالحبال اللذين يشدّان الرأس؟ أكان الموضع الذي يقف فيه خوّاناً موحلاً ؟ هل أراد الشيطان الشرير ان يقع ما وقع دون ان يبدي أسباباً لذلك ؟ كيف حدث ما حدث ؟ لا أحد يدري ، ولكن فجأة فيما كان الدلو الثمانون او التسعون يصعد فاهقاً — رباه ! يا لطاشطيقو المسكين ! لقد هوى على أم رأسه في الدن الهيدلبرجي ، واختفى عن الانظار في بقبقة زيتية مفزعة ، كأنه الدلو الثاني الهابط في بئر حقيقية .

وكان دغة اول من فاء الى نفسه من ذلك الموقف المذهل الذي ملك الانظار جميعاً فصاح : « أنت في الأعلى ، راوح الدلو تلك الوجهة » ووضع احدى قدميه فيه ، كي يثبت قبضة يده اللزجة على « السوط » نفسه ، وجرت الروافع به صاعداً الى قمة الرأس قبيل ان يبلغ طاشطيقو قعره الادنى . وفي الوقت نفسه جرى هياط ومياط ، فقد تطلع البحارة من فوق حافة السفينة فرأوا الرأس الذي كان ميتاً جامداً ينبض ويتحرك تحت مستوى السطح المائي بقليل ، كأنه قد تملكته في تلك اللحظة فكرة خطيرة ؛ مع ان كل ما حدث هو ان طاشطيقو المسكين كان دون وعي يكشف بذلك الكفاح الذي يبذله عن مدى خطورة العمق الذي انحدر اليه .

وفي تلك اللحظة ، بينا كان دغة على قمة الرأس ينظف السوط الذي علق به

بعض الأثر من مرفاعي الجزارة، سمعت صرخة تصدع حادة، ويا للفزع الشامل الذي لا يحـــده وصف ! إنفلت أحد الكلوبين الكبيرين اللذين يمسكان الرأس، فأخذت الكتلة الضخمة تتأرجح متراوحة في اهتزازات عنيفة، حتى ترنحت السفينة السكرى واضطربت، كأنما صدمها جبل من جليد، وبدا الكلوب العالق الذي يعتمد عليه الشدّ كله على وشك ان ينفلت ، وذلك أمر غير بعيد لشدة حركة الرأس .

فهتف البحارة بدغة : « انزل، انزل » . ولكن دغة جعل احدى يديه تمسك أحد المرفاعين الثقيلين فاذا سقط الرأس ظلّ هو معلقاً، وبعد ان نظف الرجل الزنجي الحبل الملوث، قذف الدلو في البئر التي تهاوت، وهدفه ان يمسك الزرّاق الدفين بالدلو ثم ينتشله .

فصاح اسطب : « بحق السماء ايها الرجل أأنت تقذف « خرطوشة » لتصيب هدفاً ؟ كفّ ! كيف يمكن لك ان تعينه وانت تحشر هذا الدلو المطوق بالحديد على قمة رأسه، حسبك يا هذا ! »

فانبعث صوت كأنه انفجار صاروخ يقول : « ابعد عن المرفاع » .

في تلك اللحظة نفسها هوت الكتلة الضخمة في الماء بصوت كهزيم الرعد كما لو ان الصخرة الافقية في نياجرا انحدرت في دوّامة [١]، وذهب الهيكل المنفلت منها فجأة مبعداً حتى غمر الماء طوقه النحاسي المتلألىء، وحبس جميع البحارة أنفاسهم ودغة يتأرجح فتارة هو فوق رءوسهم وتارة هو فوق الماء، وهم يرونه

---

١ سقطت قطعة من هذه الصخرة في الشلالات، في ٢٥ حزيران ١٨٥٠ .

خلال ضباب الرذاذ الكثيف رؤية خافتة متشبثاً بالمرفاع الخطّار بينما كان طاشطيقو المرزّأ الموءود يغطس في القرارة السحيقة . وما كاد الضباب المغشي ينجلي حتى رأى البحارة زولاً عارياً يحمل في يده سيف التخزين ، وهو محلق لحظة فوق الحافة . وفي اللحظة التالية اصطفق الجسم بالماء فدلّ الاصطفاق على ان صديقي كويكوج الجريء المقدام قد غاص لينتشل الغريق، فاندفع البحارة جملة الى جانب السفينة وأحصت كل عين كلّ حركة تمعج، حين ولت اللحظة في أثر اختها ، دون ان يبدو للغارق او للغاطس أدنى أثر . ووثب بعض الرجال عندئذ في قارب وجذّفوا به مبعدين قليلاً عن السفينة .

فصاح دغة دفعة واحدة من محطّه الهادىء المترجح فوق الرءوس : « ها ! ها ! » ونظرنا بعيداً من عند جنب السفينة فرأينا ذراعاً تشق الامواج الزرق ؛ منظر غريب ان يراه المرء كأن ذراعاً برزت من بين الحشيش النامي فوق بعض القبور .

فصرخ دغة صراخاً مرحاً مستبشراً وهو يقول : « هما معاً ! الاثنان، الاثنان!» وبعد هنيهة رأينا كويكوج يكافح جريئاً مقدماً بيد واحدة وهو يمسك شعر الهندي الطويل باليد الاخرى، وسحب الرجلان الى القارب ونقلا تواً الى ظهر السفينة أما طاشطيقو فأبطأ في الافاقة، وأما كويكوج فكأنما بارحت الخفة الرشيقة جسمه .

كيف تمّ هذا الانقاذ السامي النبيل؟ بعد ان غطس كويكوج وراء الرأس الهابط في بطء، أحدث بسيفه الماضي طعنات جانبية قريباً من القعر كي يشق فوهة كبيرة هنالك، ثم اغمد سيفه وأخذ يطعن بذراعه الطويلة ، في قرار ذلك التجويف ونحو سقفه ، وبذلك استخرج منه طاش البائس جرّاً برأسه ، وقد أقر انه حين مدّ ذراعه يبحث عنه أول مرة، علقت يده برجلِ طاش وكان

يعلم ان سحبه برجله عمل غير صحيح وأنه ذو عواقب وخيمة، فردّ الرّجلَ وأخذ يدفع الهندي ويميله حتى قلب وضعه، فلما جرّب إخراجه مرة اخرى ولد ولادة طبيعية، اي خرج رأسه أولاً ولم يولد يتناً. أما الرأس الكبير نفسه فانه وفى بما يتوقع منه .

وبفضل شجاعة كويكوج ومهارته العظيمة في فن التوليد تم خلاص طاشطيقو أو استخلاصه بنجاح في وجه أشد العقبات شكاسة وأبعثها على اليأس، وذلك درس يجب ألا ينسى بحال ؛ ولا بد من أن يدرّس التوليد حيث تدرّس فنون النزال والملاكمة وركوب الخيل والتجديف .

إني لأعلم ان بعض الناس من أهل البرّ لا يصدقون هذه المغامرة الغريبة التي قام بها الجايهيدي، وان كانوا هم أنفسهم قد رأوا او سمعوا بسقوط أحد الناس في صهريج او بئر، فتلك حادثة غير نادرة الوقوع، وفيها من أسباب الانزلاق أقلّ مما في قصة هذا الرجل الهنديّ، اذا نحن قدرنا الزلق البالغ في حافة البئر العنبريّ .

ولعلّ قائلاً أريباً يقول، كيف كان ذلك ؟ لقد كنا نظن ان رأس حوت العنبر — وهو الجزء المصفّى المحكم الألياف — هو أخف اجزاء الحوت، وأشدها قابلية للطفو كالفلين ، فكيف جملته يغطس في عنصر أشدّ منه كثافة نوعية ؟ هذه واحدة نأخذها عليك ! فأقول : كلا بل هذه « قفشة » في صالحي ضدّكم . لأن طاش المسكين حين وقع، كانت دنية الحوت قد أفرغت تقريباً مما فيها من مادة خفيفة ولم يبق فيها إلا شيء يسير سوى جدار البئر الكثيف العضلي — وهي مادة مزدوجة اللحام مطرّقة — كما ذكرت قبلاً — أثقل كثيراً من ماء البحر، وقطعة منها تهوي فيه غائصة كأنها الرصاص . ولكن نزوع هذه المادة للغوص السريع في الحادثة الراهنة كان يعوقه مادياً اجزاء اخرى من الرأس بقيت دون

ان تنزع منه ولذلك غاصت في بطء شديد وأناة بالغة، فمنحت كويكوج فرصة صالحة لكي يؤدي عملية التوليد الرشيقة « على الحارك » — إن صحّ القول — فالحق انها كانت ولادة سريعة .

ولو ان طاشطيقو هلك في ذلك الرأس لكان هلاكه ثميناً نفيساً اذ يكون قد ضمخ بأشد زيت عنبر شذيّ بياضاً وألقاً، ويكون قد كفن وألحد ودفن في الغرفة السرية الداخلية في قدس أقداس الحوت ، ولا تفوق هذه الخاتمـــة في عذوبتها الا خاتمة اخرى — هي ذلك الموت اللذيذ الذي واجهه مشتار عسل في أوهايو، فقد كان يبحث عن العسل في شعبة شجرة جوفاء فوجد منه كمية وفيرة، حتى انـــه حين مال عليها وبالغ في الميل تشبثت به وامتصته في جوفها فمات محنطاً مطيباً ؛ كم من الناس فيما تظنون سقطوا بالمثل في رأس افلاطون العسليّ وهلكوا هذا الهلاك المستعذب ؟

٧٩ جبهة كالسهوب اتساعاً

لم يقم حتى اليوم عالم بالقوى العقلية او عارف بالفراسة بقراءة الخطوط على وجه الحوت والنتوءات في رأسه ، ومثل هذا العمل ذو ثمرات مرجوة كأن يتفهم لافاتر الغضون في جبل طارق او كأن يصعد جول سلماً ويمارس النظر في قبة البانثيون . ثم ان لافاتر لم يهتم فحسب بمختلف وجوه الآدميين في مؤلفه المشهور بل درس بامعان وجوه الخيول والطيور والافاعي والأسماك . وأسهب في تبيان صور التعبير التي استبانها ثمة . وكذلك جول وتلميذه سبورتزهايم [١] فانهما لم يعجزا عن إلقاء بعض اللمحات حول الخصائص العقلية في كائنات أخرى عدا الانسان . ولذا سأبذل جهدي لتطبيق هـذين الفرعين الشبه العلميين على الحوت ، وان لم يكن لديّ من القدرة ما يجعلني طليعة الباحثين في هذا الباب ، لكني أجرب كل شيء وأنجز من ذلك قدر الطاقة .

اذا تأملت الحوت من زاوية الفراسة وجدته مخلوقاً شاذاً غريباً اذ ليس له أنف متحيّز ، والأنف ملتقى الملامح وأبرزها وضوحاً ، وربما كان هو الذي يعدّل فيما توحي به الملامح مجتمعة من تعبير ويسيطر في النهاية عليه ، فاذا لم يكن له وجود ، أي اذا لم يصبح بارزاً ظاهراً فان ذلك يؤثر في قسمات الحوت

---

١ لافاتر (١٧٤١ – ١٨٠١) وجول (١٧٥٨ – ١٨٢٨) وسبورتزهايم (١٧٧٦ – ١٨٢٨) والأول ألف في الفراسة والاثنان الآخران كانا طبيبين في فينا يعملان دراسات على وظائف الدماغ .

تأثيراً كبيراً . ولا يتسق اي وجه من الناحية الفراسية دون عرنين أشمّ مثلما أن المنظر الطبيعي لا يكتمل دون مسلّة او قبة او نصب . اجدع أنف زيوس من التمثال الرخامي الذي صنعه فيدياس ، فأية بقية جدعاء محزنة تبقى منه !! ومــع ذلك فان اللوياثان ذو جسامة جبارة وتناسب متسق جليل حتى ان النقص الذي يبدو بشعاً كريهاً في تمثال زيوس لا يعد وصماً في الحوت أبداً . بل انه يضفي عليه عظمة وجــلالاً ، ولو كان له أنف لكان حشواً منفراً . واذا قمت برحلة فراسية حول رأسه الضخم في « فلوكتك » فان تصوراتك الرفيعة عنه لن تلحقها زراية أبداً إذا خطر لك أنه ذو أنف راغم . ذلك تصوّر وبيل ولكنه قد يكون ملحفاً في تطفله على خاطرك حتى وأنت تبصر أعظم الآمرين جبروتاً فوق عرشه .

ولعلّ أبلغ منظر أثراً في النفس من ناحية الفراسة ومن بعض وجوهه الخاصة في حوت العنبر هو المنظر الكامل لمقدّم رأسه ، فذلك شيء رائع جليل .

اذا شئت أن تتصور جبهة الآدمي حين تكون جميلة وجدتها تشبه المشرق حين يوقظه الصباح؛ ولجبهة الثور الجعدة وهو في هدأة المرعى مسحة من جلال ؛ وجبهة الفيل ذات فخامة وهو يدفع مدفعاً ثقيلاً بين شعاف الجبال . وسواء أكانت الجبهة العجيبة لآدمي او لحيوان فانها تشبه الطرة الذهبية الضخمة التي كان أباطرة الرومان يثبتونها على « فرماناتهم » ، ومغزاها : « الله — صنعته اليوم يدي » . ولكن الجبهة في اكثر المخلوقات وفي الانسان نفسه كثيراً مــا تكون شريطاً من بروز جبلي ممتد على طول خط الجليد ، وقلما ترتفع الجباه سامقة ارتفاع جبهة شيكسبير او ملانكثون [١] ، ثم تهبط هبوطاً دانياً حتى

---

١ فيليب ملانكثون أحد المصلحين ، وقد عرضت صورة رأسه في أحد كتب الفراسة (في القرن التاسع عشر) والى جانبها صورة رأس أحد المجرمين .

تكون العينان مثل بحيرتين جبليتين صافيتين خالدتين لا تموج فيهما ، وكأنك تقتفي في تجاعيد الجبهة فوقهما أثر الافكار الوعلية التي نزلت هناك لتشرب كما يقتفي صيادو المرتفعات آثار أقدام الوعول في الثلوج . ولكن هـــذه العزة المستعلية المتألهة المستقرة في جبهة حوت العنبر الكبير قد امتدت واتسعت ، حتى انك اذا حدقت فيها وأنت تواجه الرأس من أمام شعرت بالإله والقوى الجبارة هنالك بأكثر مما تشعر بها وأنت تنظر الى أي شيء آخر في الطبيعة الحية . ذلك لأن نظرك لا يقع على شيء واحد اذ لا ينكشف له أي ملمح على حدة ، فلست ترى أنفـــاً او عينين او أذنين او فماً ، لست ترى وجهاً ، اذ ليس للحوت وجه محدد السمات ، ليس له إلا "جلـد" عريض واحد يسمى جبهة ، وقد غضنته الألغاز ، وكتبت في أخاديده الصامتة مصاير القوارب والسفن والناس . واذا أخذته بنظرك من جانبه لم يختفِ عنك شيء من هـــذه الجبهة العجيبة ، وان كانت أبهته ، ان أنت نظرت اليه من جانب ، أقل أثراً في نفسك ، اذ أن النظر من جانب يجعلك ترى بوضوح ذلك الانخساف الأفقي الشبه الهلالي في منتصف الجبهة ، وهو ما يعده لافاتر في الانسان سمة على العبقرية .

أنّى ذلك ؟ عبقرية في حوت العنبر ؟ هـل حدث ان ألّف حوت العنبر كتاباً او ألقى خطاباً ؟ كلا بل ان عبقريته العظيمة لتتجلى في امتناعه عن أداء ما يثبت وجودها فيه . وأشدّ ما يعلن عنها صمته الهرمي ؛ وهذا يذكرني بأهل الشرق القديم في مطلع التاريخ ، فلو أنهم عرفوا حوت العنبر لألهته أفكارهم الطفولية الوثنية ، فقد ألـّهوا التمساح في النيل لأنه لا لسان له ، وحوت العنبر دون لسان أو ذو لسان موغل في الدقة والصغر حتى انه لا يستطيع ان يبرزه؛ فلو أن شعباً عظيم الثقافة خيالي النزعة انجذب بعد اليوم الى عهد طفولته وعاد إلى آلهته وعصرها الذهبي الجميل ، وبعثها من رقدتها وأمطاها العرش فى هذه السماء التي غدت اليوم أنانية ، في هـــذا الريد الذي لم تعد تسكنه الأرواح والأشباح ، فكن على يقين من ان حوت العنبر سيحرز بينهـــا قصب السبق ويستوي على عرش زيوس نفسه .

لقد فكّ شمبوليون [1] معميات التجاعيد الهيروغليفية فوق جباه الغرانيت ، ولكن أنّى لنا بشمبوليون آخر كي يفك الأحرف الهيروغليفية في وجـه كل انسان وكل مخلوق . ما الفراسة إلا خرافة عابرة ، كسائر علوم الانسان . فاذا عجز السير وليم جونز [2] الذي كان يقرأ في ثلاثين لغة عن قراءة أبسط وجه لريفي ساذج في معانيه العميقة المتوارية فكم رجل من مثل اسماعيل الأمّي يرجو ان يقرأ الخطوط المسمارية الرهيبة على جبهة الحوت ! انني لأضع هذه الجبهة تحت أعينكم فاقرأوها ان قدرتم .

---

١ جان فرنسوا شمبوليون (١٧٩٠ – ١٨٣٢) قرأ حجر رشيد .

٢ مستشرق انجليزي (١٧٤٦ – ١٧٩٤) ترجم كثـيراً من الادب العربي والفارسي والهندي الى الانجليزية .

٨٠ لب الجوزة

إن كان حوت العنبر من الناحية الفراسية أبا هول فان دماغه في رأي عالم القوى العقلية ليبدو انه الدائرة التي يستحيل تربيعها .

في الحوت الذي اكتمل نموه يبلغ طول الجمجمة عشرين قدماً على الاقـــل . افصل الفك الاسفل يصبح المنظر الجانبي لهذه الجمجمة كالمنظر الجانبي لسطح مائل ميلا معتدلاً ، مستند كله الى قاعدة مستوية ، وقد رأينا فيما سبق ان هذا السطح المائل أثناء الحياة مملوء حتى أقصى ميله وأنه يكاد يكون مربعاً بكتلة هائـــلة متراكبة من اللحم والزيت . وعند النهاية العليا تكون الجمجمة وعاء يفترشه ذلك الجزء من تلك الكتلة ؛ وتحت قاعدة هذا الوعاء، حيث يوجد تجويف آخر نادراً ما يزيد على عشر بوصات طولاً ومثلها عمقاً ، يستقر دماغ هذا الحيوان وهو لا يتجاوز الحفنة في حجمه . ويقع الدماغ على بعد عشرين قدماً على الأقل من جبهته الظاهرة فقد اختبأ وراء استحكامات واسعة كأنه القلعة الجوانية في حصون كويبك المترامية الأطراف . فكأنه علبة جواهر نفيسة قد أودعت في صوانها حتى اني عرفت بعض الحواتين ينكرون جازمين ان يكون لحوت العنبر اي دماغ سوى ذلك الشبيه الملموس الذي يمثله خزان الزيت ومساحته بضع ياردات مكعبة ، وبما ان هذا الجزء العجيب منه يقع في مكامن ومسارب وتلافيف غريبة فانه يبدو لهم مركزاً لذكائه فذلك أنسب لمـــا يتصورونه عن مبلغ جبروته وقوته .

من الواضح اذن ان رأس هذا اللوياثان من ناحية علم القوى العقلية ، وهو في حال الحياة السليمة ، انما هو خداع محض فأنت لا تستطيع ان ترى أية أمارات على دماغه الحقيقي ولا تستطيع ان تحس بها ، فالحوت ككل الاشياء التي تتميز بالقوة يلبس للعالم وجهاً خادعاً .

ولو أفرغت جمجمته من حمولتها الزيتية وألقيت نظرة من خلف على الطرف الخلفي ، وهو الطرف الاعلى ، لراعك الشبه بين هذه الجمجمة والجمجمة الآدمية اذا نظرت اليها من ناحية القذال ومن زاوية مشابهة . حقاً إنك لو وضعت هذه الجمجمة المعكوسة (بعد ان تجعل لها مقياساً قريباً من حجم الجمجمة الآدمية) بين صف من جماجم الآدميين لما استطعت – رغماً عنك – ان تميزها منها واذا رأيت الانخسافات على أحد أجزاء قمحدوته فانك تقول في صيغة فراسية : هذا الانسان ليس لديه تقدير واحترام ذاتي . واذا نفيت عنه هاتين الصفتين وتدبرت معهما الصفة الايجابية فيه من جسامة وقوة استطعت أن تكوّن لنفسك – على خير ما تستطيع – أصدق تصور عما تعنيه القوة أسمى القوة وان لم يكن ذلك أشد التصورات اثارة للسرور والابتهاج .

ولكن ان كنت تظن ان الحوت لا يمكن وضعه في صنف لائق به بسبب من الابعاد النسبية في دماغه نفسه ، فاني اقترح عليك فكرة أخرى : اذا تأملت في امعان السلسلة الفقرية في جلّ ذوات الاربع هالك الشبه بين الفقرات وبين عقد منظوم من جماجم قميئة ممسوخة ، وكلها تشبه الجمجمة الحق شبهاً عارضاً، وقد تصوّر الالمان ان الفقرات جماجم توقف تطوّرها ولكن الشبه العجيب الظاهري الذي أقول به لم يكن الالمان اول من لحظوه . بل نبهني اليه ذات مرة صديق أجنبي في هيكل عدوّ له كان قد قتله وكان يرصع بفقراته مقدّم زورقه الاشغى كأنه يتخذ منها نقشاً بارزاً . وأنا أقدر أن علماء القوى العقلية قـــد أغفلوا شيئاً هاماً حين لم يدفعوا بحثهم قدماً من المخيخ نحو القناة الشوكية ، لاني

أعتقد ان جانباً كبيراً من طبع المرء إنما يدلّ عليه عظم فقاره ؛ ولو خيرت لتفحصت صلب المرء بدلاً من جمجمته أياً كان هو ، وأنا أرى ان خيطاً دقيقاً من سلسلة الظهر لا يمكن ان يحمل روحاً مكتملة سامية . واني لاشعر بالابتهاج من سلسلة ظهري مثلما أبتهج بالعصا الجريئة التي أرفع عليها ذلك العلم كي يراه العالم .

طبّق هذا الفرع الفقري من علم القوى العقلية على حوت العنبر : أمـــا تجويفه القحفي فانه مستمر مع الفقرة العنقية الاولى ، وتمتد قاعدة القناة الشوكية في تلك الفقرة على عرض يبلغ عشر بوصات ، وارتفاعها ثماني ، وهي تؤلف مع القاعدة شكلاً مثلثاً ، فاذا مرت القناة الشوكية خلال سائر الفقرات أخذت تستدق حجماً إلا أنها تظل على مدى مسافة غير قليلة ذات سعة كبيرة . ولا ريب في أن هذه القناة ممتلئة بتلك المادة الغريبة نفسها ذات الالياف – أي النخاع الشوكي – شأنها في ذلك شأن الدماغ ، ولها بالدماغ صلة مباشرة؛ ثم ان النخاع الشوكي يظل، على مدى عدة أقدام بعد انبثاقه من تجويف الدماغ ، ذا محيط متسق لا يتناقص ويكاد يكون محيطه مساوياً لمحيط الدماغ ؛ وفي مثل هذه الظروف أيكون من غير المعقول ان نتعرف الى صلب الحوت من زاوية علم القوى العقلية ونرسم له صورة ? اننا اذا نظرنا اليه من هذه الزاوية وجدنا الجسامة النسبية في نخاعه الشوكي تعوّض عن الصغر النسبي في دماغه نفسه .

غير اني أترك هذه اللمحة لتفعل فعلها كيف شاءت لدى علماء القوى العقلية ، واتخذ هذه النظرية التي تدور حول النخاع الشوكي لحظة لاطبقها على حردبة حوت العنبر ، فاذا لم أكن مخطئاً قلت : ان هذه الحردبة الجليلة تقوم فوق احدى الفقرات الضخمة واذن فهي من وجه ما التحدب الخارجي لتلك الفقرة ، وبسبب موقع تلك الفقرة العالية سوف أدعوهـا عضو الثبات ، عضو رباطة الجأش في حوت العنبر ، وسوف يأتيك النبأ اليقين عن ركانة الحوت العظيم ورباطة جأشه .

٨١ الباقوطة تلتقي بالسفينة «العذراء»

حــــلّ اليوم الموعود والتقينا السفينة «العذراء» – يونجفراو –، ورائسها اسمه دريك دي دير من مدينة برمن. لقد كان الالمان والهولنديون ذات يوم هم سادة مهنة التحويت، أما اليوم فقد أصبحوا من أقل الناس فيها شأناً، إلا أنك ما تزال ترى عَرَضاً هنا وهناك على عروض وأطوال متباعدة علماً ألمانيـــاً او هولندياً في المحيط الهادي.

وكانت «العذراء» لسبب ما، توّاقة لكي تلتقي بنا وتسلّم علينا، وقد كانت على مسافة من الباقوطة حين دارت وأنزل بحارتها قارباً، وعمد قبطانها نحونا واقفاً في جزع ولهفة عند مقدمة القارب بدل ان يقف في مؤخرته.

فصاح استاربك وهو يشير الى شيء كان يتأرجح في يد الالماني: «ماذا في يده؟ مستحيل! جهاز التزييت!»

فقال اسطب: «لا. ليس هو. هذه غلاية قهوة يا سيد استاربك؛ لقد جاء ليقدم لنا قهوتنا، ذلك البرمان. ألست ترى تلك الصفيحة الكبيرة التي يحملها على جنبه، هذا وعاء الماء المغلي لقد أصاب البرمان وعرف ما نحتاج».

فصاح فلاسك: «دع ترهاتك؛ هذا جهاز تزييت وتلك صفيحة للزيت، لقد نفد الزيت لديهم وجاء يستجدينا منه شيئاً».

قد يبدو غريباً أن تستمدّ سفينة زيت زيتاً في مجال من مجالات التحويت، ومهما يناقض هذا الوضع المثل القديم القائل : « كناقل التمر الى هجر – والفحم الى نيوكاسل »، فانه أمر يحدث أحياناً ؛ وكان القبطان دريك دي دير في تلك الحال يحمل دون جدال جهاز تزييت كما قال فلاسك .

فلما اعتلى ظهر السفينة حيّاه آخاب تحية مقتضبة دون ان يتنبه الى ما يحمله في يده، ولكن الرجل الالماني سرعان ما دلّ في لهجته المكسرة على جهله التام بشأن الحوت الابيض، وأدار دفة الحديث نحو جهاز التزييت وصفيحة الزيت، وألمع الى أنه أحياناً يذهب الى سريره ليلاً في ظلام دامس – فقد نفدت آخر قطرة لديه من زيت برمن، ولم يصيدوا أية سمكة عابرة تزودهم بما يعوزهم، وختم كلامه بأن ألمح الى ان السفينة هي حقاً ما يسمونه في حرفة السماكة باسم «السفينة النظيفة » (أي الخالية) وأنها لذلك تستحق ان تسمى العذراء او يونجفراو .

وغادر السفينة بعد ان زوّد بما يحتاجه، ولكنه لم يكن قد بلغ جانب سفينته حتى ارتفعت النداءات من قمم صواري السفينتين في وقت معاً بأن الحيتان هناك، وكان دريك جـــدّ تواق للمطاردة، حتى انه لم يتوقف ليودع صفيحة الزيت والمزيتة على ظهر السفينة، بل استدار بقاربه ولحق بالحيتان وهي اجهزة التزييت الحقيقي .

وبما ان الطرائد شوهدت في الجانب الايسر وفق المهب فقد استطاع قاربه والقوارب الالمانية الثلاثة الاخرى التي لحقت به تواً أن تحوز السبق أمام قوارب الباقوطة . وكانت الحيتان ثمانية عدداً، وهو سرب معتدل لا هو كبير ولا هو صغير ؛ واذ أحست بالخطر تقدمت معاً بسرعة فائقة أمام الريح وجوانبها تحتك متقاربة كأنها أزواج من الخيول في وثاق . وخلفت وراءها مخراً واسعاً كبيراً كأنها كانت تفرش على وجه الماء رقاً كبيرًا واسعاً .

وعلى بعد عدة قامات في المؤخرة، في حومة ذلك المخر السريع، كان يسبح حوت ضخم محدّب مسن ، وبدا لبطئه النسبي في تقدمه وللرصعات الصفراء الشاذة التي تعلوه كأنما هو مصاب باليرقان او بمرض آخر . وربما لم يكن هـذا الحوت ينتمي الى الرعيل المتقدم، اذ ليس في طباع هذه الحيتان الوقورة ان تنتحل مظاهر التبجيل والاحترام . ومع ذلك فقد لزم مخرها لا يبرحه وان كان الماء الذي تدفعه تلك الحيتان كان يعيقه اذ كانت العظمة البيضاء، وهي البروز النادّ عند خطمه العريض، قد تفرطحت كأنها البروز الذي يتكون حين يلتقي تياران متضادان . وكانت نفثته قصيرة بطيئة مجهدة، تنبعث كأنها دفقة مختنقة، وتصير الى مزق متناثرة ، تتلوهـا اضطرابات شيطانية غريبة فيه ، فتؤثر على طرفه الآخر المغموس في الماء، فتجعل الماء من خلفه ينعقد حبباً .

وقال اسطب : « من لديه دواء مسكّن ؟ هذا الحوت تؤلمه معدته؛ رباه ! تصوروا ان يشمل الالم معدة حجمها نصف فدان . الرياح الوبيلة تقيم في جوفه عيداً جنونياً ايها الفتيان . هذه اول ريح رديئة أعرفها تهب من خلف . تأملوا أرأيتم حوتاً ضلّ ضلاله من قبـل ؟ يقيناً لقد فقد سكانه الذي يهديه سواء السبيل » .

ومضى هذا الحوت الهرم ينهض متثاقلا بعبء السنين كأنه بارجة تطرّمت بالمشحونات ذاهبة في ساحل هندوستان ، وقد حملت على ظهرها ملئه من خيول مُفزّعة ، فهي تميل وتنغمس وتتدحرج وتترنح في طريقها ؛ وبين الحين والحين كان ذلك الحوت يدور دورة جزئية على أطراف أضلاعه المعوّقة ، فيبيّن أن سبب الانحراف في مخره إنما تأتّى عن أن زعنفته اليمنى لم يبقَ منها إلا جذم شاذ . هل فقد تلك الزعنفة في احدى المعارك ، او ولد دون زعنفة ؟ من العسير ان يجزم المرء في ذلك .

فقال فلاسك القاسي القلب وهو يشير الى حبـــل التحويت الموضوع الى جانبه : « انتظر قليلاً أيها الفتى الفاني وسأعوضك عن ذراعك المهيض مقلاعاً ».

فصاح استاربك : « احذر ان يقلعك به . هيّا هيّا والا أدركه الالمـــاني دونك » .

قصدت القوارب المتنافسة مجتمعة محتشدة العزيمة قصد ذلك الحوت ، اذ كان هو اكبر الحيتان ومن ثم أغزرها غلةً وقيمة ، ثم كان هو أدناها من القوارب ، بينا كانت الحيتان الاخرى تجري بأقصى سرعة ، حتى كانت تكاد تتحدى في تلك الوهلة كل رجاء بادراكها ؛ وعند تلك النقطة مرقت قوارب الباقوطة مخلفة وراءها القوارب الالمانية الثلاثة التي أنزلت متأخرة ، إلا أن الانطلاقة الاولى التي ذهب فيـــها قارب دريك ، جعلته يبقى في الطليعة ، وان كانت كل لحظة تدني منافسيه الاجانب منه ، وكان كل ما يخشونه ، لشدة اقترابه من هدفه ، أن يقذف بحديدته قبل ان يدركوه ويتقدموه ؛ فأما دريك نفسه فيبدو أنه كان واثقاً من ان الامر في صالحه ، ولذا كان بين الحين والحين يهز المزيتة في وجه القوارب الاخرى في إيماءة ساخرة .

فصاح استاربك : « يا للكلب الفـــظ المنكر للجميل ! انه ليسخر مني ويهاجمني بالمزيتة البائسة نفسها التي ملأتها له قبل دقائق » — ثم عاد الى همساته الجادة القديمة يقول : « باعدوا التجديف يا كلاب الصيد ! هيا استكلبوا ! » .

فقال اسطب يخاطب ملاحيه : « سأخبركم بحقيقة الامر يا رجال . حقيقة الامر أن الهياج الاحمق ليس من مبدإي ، غير اني لا أمانع في أن ألتهم ذلـــك الوغد البرمان – ادفعوا – ألا تريدون ؟ هل تسمحون لهذا الخبيث أن يسبقكم؟ أتحبون شرب البراندي؟ اذن فان المتميزين فيكم سيحصلون على برميل منه . هيا

لم لا يفجر بعضكم شرايينه حميّة؟ من ذا الذي منكم قد ألقى مرساة في الماء فنحن كأننا قد رسونا ، لا نتحرك قيـــد أنملة ، لقد سكنت قواربنا . هيلا ! هذا حشيش قد نما في قعر القارب لطول لبثه ، وحق الربّ لقد أخذ الصاري لطول انغراسه الساكن يرسل براعم . لا يا فتيان هذا لا يحقق شيئاً ، انظروا الى ذلك البرمان ! المسألة برمتها يا رجال هي : هل تنفثون النار شدّاً وحماسة او لا تنفثون ؟ »

فصاح فلاسك وهو ينطّ صاعداً هابطاً : « آه انظروا الزبد الذي يكوّنه — يا لها من حردبة كأنها قرمة ضخمة من خشب. احتشدوا حول اللحم الحنيذ، هيّا . آه يا فتياني ! اقفزوا ! سيكون عشاؤكم من كعك الجردك والحلزون ، أنتم تعلمون يا فتياني ، الحلزون المشويّ وفطير المفين . بربكم اقفزوا ثبوا ، هذا الحوت من ذوات المائة برميل ، اياكم ان يفلتكم ، بالله لا تدعوه يفلتكم ! انظروا الى ذلك البرمـــان ! آه ، ألا تجدفون من أجل نصيبكم من العصيدة يا فتياني ! يا له من نقيع ! يا له من منتقع ! ألا تحبون زيت العنبر ، ها هي ثلاثة آلاف دولار من الزيت يا رجال ! أمامكم بنك ، بنك كامل ، بنك انجلترا هيا ! هيا ! هيا ، لأي شيء يتأهب البرمان الآن ؟ »

في تلك اللحظة كان دريك يهمّ ان يطرح المزيتة على القوارب المتقدمة ، ويلقي عليها بصفيحة الزيت ، ولعـــلّ غايته كانت مزدوجة أي أن يعوّق منافسيه وأن يزيد من سرعة قاربه بما تحدثه الرجة الخلفية فيه من زخم للاندفاع قدماً .

فصاح اسْطب : « يا له من قارب هولندي لا خلاق له ! جدفوا يا رجال كأنكم خمسون ألف صف من شواني حربية بحارتها شياطين حمر الشعور . ما قولك يا طاشطيقو ؟ أأنت المرء يكسر عموده الفقري اثنتين وعشرين قطعة من أجل اسم بلدك العريق ؟ ما قولك ؟ »

فصرخ الهندي : « أقول : جدفوا كأن لعنة الله حلت بكم ! »

بدأت قوارب الباقوطة الثلاثة وقد هاجها زجر الالماني تصطف جنباً لجنب حتى تكاد تـدنو منه صفاً واحداً ، وهي على ذلك النسق ، وبقف الضباط الثلاثة في خيلاء ، وقفة رائس القارب حين يكون في موقف جميل طليق بطولي وهو يدنو من فريسته ، وهم بين الحين والحين يسندون صاحب الجذاف من ورائه بصيحة جذلى قائلين : « هنالك ينزلق الحوت ، مرحى للنسمات التي تعـين المجاديف ! ليسقط اليرمان ، ادفعوا قواربكم من فوقه ! »

لكن دريك ذهب في انطلاقة أصيلة مصممة حتى كاد يكون رغم كل ما أبداه منافسوه من بطولة هو الفائز في السباق ، لولا أن القدر العادل نزل عليه في صورة سرطان علق صاحب الجذاف الاوسط. وبينا كان هذا الملاح «العبيط» يحاول ان يخلص مجذافه ويكاد قارب دريك ينقلب من تلك المحاولة وهو يرعد نحو رجاله في غضب هائج ، كان ذلك كله فرصة طيبة يغتنمها كل من استاربك واسطب وفلاسك ، فانقضوا الى الامام انقضاضة مستيئسة — دون صخب — واصطفوا أمام موقع الالماني في صف موارب وبعد لحظة كانت القوارب الاربعة في المخر القريب من ذنب الحوت معاً في اتجاه كأنه قطر المربع ، بينا كانت تتناثر على الجانبين منها نفاخات الزبد الذي يثيره اندفاعه .

كان منظراً مفزعاً هائجاً داعياً للاشفاق والرثاء ، اذ كان الحوت عندئذ يشتد وقد أخرج رأسه ، وأخذت نفاثته تبعث أمامه بنفثات متكررة متألمة ، بينا كانت زعنفته الوحيدة البائسة ترف على جانبه في عذاب الفزع . وكان هو في هربه المتلجلج المضطرب يهيم متلدداً تارة لليمين وتارة لليسار ، وكلما هدّ موجة مخبّة غاص في البحر متشنجاً او قلب على أحد جانبيه زعنفته الوحيدة الرفافة نحو الفضاء . لقد رأيت طيراً مقصوص الجناح يدوّم في الفضاء تدويماً

مفزعاً متردداً محاولاً دون جدوى ان ينجو من مخالب الشواهين القناصة . غير ان للطائر صوتاً فهو يعبر بصيحاته الحزينة عن خوفه ، أما خوف هذا الوحش البحري الاخرس الجسيم ، فانه كان محبوساً مسحوراً فيه اذ لم يكن له صوت إلا الشهقات المختنقة من خلال فويهة التنفس ، وهذا ما جعل منظره مثيراً للرثاء الى حد يعجز عنه التعبير ، ومع ذلك فقد كان في جسامته المدهشة وفكه المتـراسيّ وذنبه الهائل ما يفزع أقوى امرىء مشفق .

ولما رأى دريك أنه لم يبقَ إلا بضع لحظات حتى تكسب قوارب الباقوطة الجولة دونه وبذلك ينهزم خائباً دون طريدته آثر أن يجازف بإلقاء ما قد يبدو له رمية بعيدة قبل ان تفوته آخر فرصة الى الابد .

ومـا كاد زرّاقه يقف لتسديد الضربة حتى قفز النمور الثلاثة كويكوج وطاشطيقو ودغة ، بدافع الغريزة ، على أقدامهم ووقفوا صفاً مواربا ، وسددوا حرابهم في الوقت نفسه ، وقـذفوا من فوق رأس الزرّاق الالماني بحرابهم النانتوكتية الثلاث فانغرزت في جسم الحوت ؛ وارتفعت أبخرة الزبد والنار البيضاء تعشي العيون ! وارتطمت القوارب الثلاثة لدى هياج الحوت عند أول انطلاقة رأسية يأتيها بالقارب الالماني ارتطاماً قوياً حتى ان دريك وزرّاقه المغلوب على أمره اندلقا منه ، ومرت من فوقهما القوارب الثلاثة الطائرة .

واذ ألقى عليهما اسطب نظرة عابرة. وهو منطلق صاح بهما : « لا تخافا أيها العزيزان ، يا علبتي الزبد ، ستجدان من يلتقطكما تواً ، تمهّلا ، فقد رأيت بعض القرشان في المؤخرة — تلك الكلاب التي نذرت نفسها لخدمـة القديس برنارد كما تعلمان — وهي تنقذ المسافرين التعساء ! مرحى ، فهذا هو السبيل الذي نسلكه الآن ، كل قارب فانما هو شعاع من أشعة الشمس يهدينا سواء السبيل ، مرحى ! — ها هنا نحن نجري كأننا ثلاث « غلايات » من القصدير

معلقة في ذيل كوجر (أسد جبلي) مجنون . هذا يذكرني كيف يربط المرء الى الفيل في التلبار على أحد السهول؛ هذا يجعل برامق العجلات تطير، أيها الشبان، حين يكون الربط على هذا النحو . وقد ينتثر المرء من عربة التلبار حين تصطدم بتلة . مرحى ! هذا ما يشعر به المرء وهو ذاهب الى دافي جونز — وهو منطلق على سطح مائل لا آخر له . مرحى ! فهذا الحوت يحمل البريد السرمديّ ! »

إلا ان منطلق ذلك الحيوان كان قصيراً فقد شهق فجأة وقمس في هرج وضجيج وطارت الحبال الثلاثة في اندفاعة ذات صرير حول المثقّلات بقوة كأنها تريد ان تفرز فيها حزّاً ، وبلغ الخوف من الزراقين مبلغاً اذ خشوا أن يستنفد هذا القمس السريع بقية الحبال، فاستخدموا كل قوتهم اللبيقة فأمسكوا بالثنايات المطوية التي تبعث الدخان كي يعوقوا استرسال الحبل، وأخيراً أصبحت حوافي المقادم مستوية والمـــاء أو تكاد ، وارتفعت كوثلاتها في الفضاء عالية ، وذلك بسبب الشد العامودي الذي تحدثه الخطاطيف المروسة بالرصاص في القوارب من حيث تسترسل الحبال الثلاثة على استقامة في الماء .

وبقي الملاحون بعض الوقت على تلك الحال حين كف الحوت عن الغوص وهم يخشون ان يرخوا مزيداً من الثنايات، وان كان الموقف حرجاً بعض الشيء. ومع ان القوارب قد كان يمكن ان تهوي ويذهب أثرها بهذه الطريقة فان هذه « الوقفة » كما يسمونها ، ان هذا الجذب الى أعلى بقوة الحراب الحادة التي نفذت في لحمه الحيّ من خلف ، هو ما يعذب اللوياثان في الغالب ويضطره الى البروز من الماء كي يتلقى الحربة النفاذة من أيدي أعدائه . ولا حاجة بنا الى الحديث عن ما في هذا الامر من أخطار ولكن هناك من يرتاب في ان تكون هذه الطريقة خير الطرق جميعاً ، اذ من المعقول ان يفترض المفترضون أنه كلما طال بقاء الحوت الجريـــح تحت الماء زاد حظه من الانهاك ؛ لان امتداد سطحه — وسطحه اذا كان حوت عنبر كبيراً مكتمل النمو لا يقل عن ألفي قـــدم

مربع — يجعل ضغط الماء عليه كبيراً . ونحن نعلم أي ضغط جوي مدهش نقع تحته ونحن هنا فوق الارض لا في الماء ، فأي عبء كبير يتحمله حوت ، وقد احتقب فوق ظهره امتداداً يبلغ مائتي قامة من الماء ، انه ولا شك ضغط يساوي وزن خمسين ضغطاً جوياً، وقد قدّر أحد الحواتين أنه يبلغ وزن عشرين سفينة حربية بكل ما فيها من مدافع ومخازن ورجال .

واضطجعت القوارب الثلاثة هنالك في رفق على سطح الماء المتدحرج وهي تحدق في الظهيرة الابدية الزرقاء، ولم تنبعث من أعماق الزُرْقةِ أنة او صيحة ما، لا ولم تنطلق اهتزازة او نفاخة ماء ؛ فلو ان احد ابناء البر شهد هذا المشهد أكان يخطر له أن أشد الحيوانات البحرية وحشية يتلوّى ويتعقص بالعذاب المبرح تحت ظاهر ذلك الصمت وتلك السكينة المطمئنة ؟ كان الحبل كله عند مقدم القوارب قد غاص تحت الماء فلا يرى منه عامودياً فوق السطح اكثر من ثماني بوصات . من يصدق ان تلك الخيوط الثلاثة السحيلة كانت تعلـّق ذلك اللوياثان الجسيم كما يعلق وزن كبير الى ساعة ... يعلق ؟ وبأي شيء يعلق ؟ بثلاث قطع من الخشب . أهذا هو الحيوان الذي قيل فيه ذات مرة بلهجة مزهوّة : «أتملأ جلده حراباً ورأسه بألال السمك ؟ (ايوب ٤١ : ٧) — سيف الذي يلحقه لا يقوم ، ولا رمح ولا زراق ولا درع . يحسب الحديد كالتبن والنحاس كالعود النخر، لا يستفزه نبل القوس ، حجارة المقلاع ترجع عنه كالقش، يحسب المقمعة كقش، ويضحك على اهتزاز الرمح » (ايوب ٤١ : ٢٦ — ٢٩) . أهذا هو ذلك الحيوان ؟ أحقاً أنـه هو؟ ما أعسر ان تخيب نبوءة الانبياء، ذلك ان هذا اللوياثان الذي تبلغ قوة ذنبه قوة ألف فخذ مجتمعة قد وارى رأسه تحت جبال من الماء ليحتمي من حراب السماكة في الباقوطة !

في تلك الساعة من الأصيل، وقد أخذت أشعة الشمس تنحدر، كانت الاخيلة التي ترسلها القوارب الثلاثة تحت الماء طويلة عريضة بحيث تظلل نصف الخميس

الذي كان يقوده أحشويرش . من يدري كم كانت تلك الاشباح الضخمة مفزعة للحوت الجريح وهي تمرق فوق رأسه !

« تأهبوا يا رجال، فانه يتحرك » – ذلك ما قاله استاربك عندما أخذت الحبال الثلاثة تتذبذب فجأة في الماء، وهي تنقل الى السطح بوضوح – كأنها أسلاك مغناطيسية – نبضات الحياة والموت في الحوت ، حتى لأحسّ بها كل مجذّف في مقعده . وفي اللحظة التالية، ارتاحت القوارب الثلاثة بعض الشيء من قوة الشد عند مقدماتها الى أسفل، فانتفضت في وثبة مفاجئة، مثلما ينهال كثيب من جليد حين يفزع منه قطيع كثيف من الدببة البيض منطلقاً نحو البحر .

فصاح استاربك مرة اخرى : « اسحبوا، اجذبوا فهو يصعد » . قبل لحظة لم يكن يسحب من الحبال ما يزيد على شبر، ولكن سرعان ما تطوّت في لفافات سريعة طويلة وألقيت وهي تقطر ماء في القوارب ، وسرعان ما شق الحوت سطح الماء على بعد من الصيادين يساوي طول سفينتين معاً .

وقد دلت حركاته بوضوح على ما أصابه من اعياء بالغ . في اكثر حيوانات البر صمامات في كثير من عروقها ، فاذا جرحت حصر الدم مؤقتاً في بعض الاتجاهات فلم ينزف جملة، وليس كذلك الحوت، فان من خصائصه ان عروق الدماء فيه ليس لها صمامات، فلو نفذ فيه حد صغير كرأس الرمح، أصيب حالاً بنزيف قاتل يأتي على كل ما في شرايينه وأوردته، فاذا تذكرت شدة وطأة الماء فوقه وهو على عمق بعيد تحت السطح قلت ان حياته تنسكب منه في جداول مسترسلة . ولكن كمية الدم فيه كبيرة ومنابعها الداخلية فيه عديدة بعيدة الغور حتى ليظل ينزف وينزف مدة غير قصيرة، كالنهر في اليباب القاحل يظل يجري ومنابعه من آبار نائية غامضة في التلال . حتى حين جذبته القوارب وغامرت بالاقتراب من شطري ذنبه المتناوحين، وقذف الزراقون حرابهم فيه،

حتى حينئذ أخذت تنطلق في الاثر نفثات دموية دائبة تخرج من الجرح الجديد، وظلّ النزيف مستمراً، اما نفاثته الطبيعية في رأسه فانها كانت ترسل بين فترات متتابعة بخارها المنزع في الفضاء، ولم يخرج من تلك الفوهة الفوهاء اي دم حتى ذلك الحين، ومعنى ذلك ان كل الضربات لم تصب جانباً حيوياً فيه، اي ان الضربات لم تمسّ « حياته » — كما يقولون بحق .

وعندما أحاطت به القوارب مقتربة انكشف كل الجزء العلوي من جثته، وكان اكثره يبقى في العادة منغمساً في الماء . وبدت للناظر عيناه او المكانان اللذان كانت فيهما عيناه . حين تنطرح على الارض اعتى اشجار الزان يتجمع في ثقوب عقدها كتل غريبة سيئة النشأة . كذلك من المحجرين اللذين كانت تحتلها عينا الحوت جحظت نفاختان ضريرتان، من رآهما قدّر ان الحوت يستحق الرثاء على نحو فظيع . ولكن لا رثاء ولا شفقة . رغم شيخوخته وأنه أقطع ذو ذراع واحدة، أعمى سملت عيناه، لا بد ان يعانق الموت وان يذبح لكي ينوّر ليالي الاعراس ، وغيرها من افراح الناس ، ولكي يبعث الضياء في الكنائس المقدسة التي تبشر بالتسامح والتراحم المطلق بين المخلوقات جميعاً . مـــا زال يتقلب في دمائه . واخيراً كشف — بعض الكشف — عن هنة بارزة او نتوء غريب غير ذي لون في أسفل جنبه بقدر حجم «البوشل» .

فصاح فلاسك : « هدف جميل، خلوني أنخسه فيه مرة واحدة » .

وصاح استاربك : « كفى ! لا حاجة لذلك ! »

لكن استاربك ذا القلب الرحيم كان قد أبطأ متوانياً ، وانطلق مزراق فلاسك فأنهرَ جرحاً رغيباً فيها وأخذ الدم المتقيح يثعب منها كأنه نفاثـــة ، فأصاب الحوت من الحد النافذ ألم لا يطاق، وانقض على غير هدى وقد تملكه غضب جامح ، والدم الكثيف المتخثر ما يزال يتدفق منه، انقض على القوارب

وهو يلطخها وملاحيها المنتشين بوابل من الدم العبيط ، وقلب قارب فلاسك وهشم مقدمته . كانت ضربة الموت . ذلك ان الاعياء حينئذ كان قد استنزف قواه لكثرة ما فقد من دماء، فتدحرج بعيداً عن الحطام الذي أحدثه خائراً مكدوداً، واستلقى على جنبه لاهثاً وهو يرف بجذم زعنفته في عجز، ثم تدحرج وتقلب كأنه دنيا آفلة، وبرزت أحشاؤه البيضاء للعيان، وتمدد كالحشية وقضى نحبه . تلك الشهقة الاخيرة تثير الرحمة والرثاء . كانت نفثة الموت الطويلـــة الاخيرة التي أسلم بها الروح كأنها نافورة قوية تحركها أيدٍ خفية لتستخرج منها الماء تدريجاً ، فاذا بالرشاش فيها يهبط ويهبط حتى الارض مرسلاً غرغرات حزينة شبه مختنقة .

وبينما كان البحارة يرقبون وصول السفينة، أبدت جثة الحوت أمارات تدلّ على انها تغوص وذخائرها جميعاً مودعة فيها . وفي الحال أمر استاربك ان يحاط بالحبال في مواضع مختلفة، وبذلك اصبح كل قارب مَعْلم عوم، وأصبح الحوت الغاطس معلقاً بالحبال على مدى بضع بوصات دون مستوى القوارب . وعندما اقتربت السفينة نقل الحوت الى جانبها بمنتهى الحكمة والأناة، وربط اليها ربطاً محكماً باقوى السلاسل الجانبية وأصلبها اذ كان من الواضح ان الجثة اذا لم تربط ربطاً مصطنعاً فانها ستغوص الى الاعماق .

واتفق انه حين بدأ التقطيع فيه بالجرفة، وجد رمح مريش مهترىء بطوله الكامل متغلغلاً في لحمه في الجزء الاسفل من تلك الهنة الناتئة التي تقدم ذكرها . ان بقايا الرماح كثيراً ما توجد في جثث الحيتان المصيدة وقد التأم اللحم من حولها تماماً ، ولا يحدث نتوء من اي نوع يدل عليها ؛ لذا كان لا بد من وجود سبب مجهول في الحالة الراهنة يفسّر التقيح الذي مرت الاشارة اليه . وأغرب من ذلك ان وجد سن حربة من الصخر فيه غير بعيد عن الحديدة المدفونة،

واللحم من حولها صلب سليم . من قذف بتلك الحربة الحجرية ؟ ومتى كان ذلك ؟ قد يكون الذي قذفها هندياً شمالياً غربياً قبل ان تستكشف امريكا .

من يدري اي أعاجيب أخرى كان يمكن ان تستخرج من ذلك المخدع الوحشي ؟ لكن العمل في الاستكشاف والتنقيب توقف فجأة اذ جرت السفينة – وهو أمر لا سابقة له – الى عرض البحر جرًا جانبياً، وذلك لان ثقل الجثة جعلها تتجه بشدة نحو الغرق . غير ان استاربك الذي كان يوجه الامور التزمها حتى النهاية، التزم بهـــا بعزم واصرار حقاً، حتى ان السفينة حين أصبحت في النهاية على وشك ان تنقلب اذا ظلت مرتبطة السواعد الى جثة الحوت، وحين صدر الامر بالابتعاد عنها، كانت قوة الشدّ على رءوس الخشبات التي ترتبط بها سلاسل الجنب والحبال كبيرة، حتى كان من المحال طرحها ؛ وفي الوقت نفسه اصبح كل شيء في الباقوطة مائـــلا . وكان الاجتياز الى الجانب الآخر من ظهر السفينة يشبه المشي صعداً على سقف بيت هرميّ . وأنـّت السفينة وتقطعت أنفاسها متحشرجة . ونفـــر كثير من زينتها العاجية المرصعة في هيكلها وفي غرفها ، من مواضعها، بسبب وضعها الشاذّ . وجلبت الأمخال والعتلات لتعمل في سلاسل الجانب التي لا تتحرك ، لكي تتحرك فيعتدل جنوحها من رءوس الاخشاب ، فذهبت المحاولة سدى . وكان مستوى الحوت قد انخفض حتى ان الاقتراب من طرفيه المغمورين لم يكن ممكناً، بينا كان يبدو في كل لحظة ان أطناناً كاملة من الوزن كانت تضاف الى الثقل الغائص، وبدت السفينة وكأنها تهم ان تنقلب .

فصاح اسطب مخاطباً الجثة : « توقفي ! توقفي ! بحقك لا تتملكك سرعة شيطانية للغرق ! وحق الرعد يا رجال لا بد ان نعمل شيئاً وإلا رحنا في داهية ؛ دعوا التحريك بالأمخال هنالك . كفى، توقفوا عن العمل بالعتلات، وليذهب أحدكم مسرعاً ويحضر كتاب الصلوات، وسكيناً صغيرة يقطع بها السلاسل » .

« سكين ؟ ايوه ايوه » كذلك صرخ كويكوج ثم أمسك بلطة النجار الثقيلة ثم مدّ جسمه من احد المجازات الجانبية وأعمل الفولاذ في الحديد وبدأ يقطع اكبر السلاسل الجانبية وبعد ضربات قليلة يقدح منها الشرر أثر الشدّ الزائد في بقيـــة السلاسل، وعام كل رباط على الماء في انفصام مخيف واعتدلت السفينة وغاصت الجثة في الأعماق .

ان الغوص العارض المحتوم الذي تعرض له هذا الحوت العنبري المصيد حديثاً شيء غريب حقاً، ولم يستطع أي صياد ان يجد له تعليلاً مقبولاً، ذلك ان حوت العنبر يعوم في العادة بخفة كبيرة، وقد ارتفع جانبه أو كرشه فوق سطح الماء . فاذا كانت الحيتان الوحيدة التي تغوص هي المعمرة الهرمة الهزيلة الكسيرة القلب لان دثارها من الشحم قد تناقص وثقلت عظامها وأصبحت منقرسة فانك تستطيع ان تؤكد بأن غوصها ناجم عن كثافة نوعية غير عادية نتيجة لفقدانها المادة المخفـّة فيها ؛ لكن الأمر ليس كذلك، فان الحيتان الفتيان — هـــؤلاء الابطال الأنجاد الرشيقون — وهم في خير أحوال الصحة، وضروب الطموح تملأ نفوسهم — يغوصون ايضاً حين يقتتلون في ربان العمر وزهرة الحياة والشحم يكنفهم طبقاً فوق طبق .

وقد يقال ان حوت العنبر أقل تعرضاً لمثل هذا الحادث من حيتان الفصائل الاخرى ، فاذا غاص حوت عنبر واحد، غاصَ في مقابله عشرون من الحوت الاثين، وهذا الفرق في الانواع يعود دون ريب ولحد كبير الى كبر حجم العظم في الحوت الاثين، فان « ستائره » وحدها تزن احياناً ما يزيد على طن، وهذا عائق قد بريء منه حوت العنبر تماماً . غير ان هناك أمثلة يرتفع فيها الحوت الغائص مرة اخرى بعد مضي عدة ساعات او عدة ايام، وهو اكثر خفة مما كان حين كان على قيد الحياة، وسبب هذا واضح جلي، اذ تتولد فيه الغازات فينتفخ ويتمدد حجمه كثيراً ويصبح كأنه منطاد حيواني، ولو سلطت عليه مجموعة من

سفن الحرب لعجزت عن ان تبقيه تحت الماء . واذا ابدى الحوت الاثين أمارة على انه اخذ يغوص، في التحويت الساحلي او في مواطن السبر بين خلجان نيوزيلندة، فانهم يربطون به معوّمات وكثيراً من الحبال حتى اذا غاب الجسم في الاعماق عرفوا أين يبحثون عنه اذا هو ارتفع مرة اخرى .

ولم يمض وقت طويل على غرق تلك الجثة حتى ارتفعت صيحة من قمم صواري الباقوطة معلنة ان السفينة يونجفراو قد اخذت تنزل قواربها من جديد. وان كانت النفاثة الوحيدة التي لاحت بمرأى من البحارة لم تكن سوى نفاثة الحوت المسنم ، وهو ينتمي الى نوع من الحيتان لا يصاد لقدرته الخارقة على السباحة ؛ ومع ذلك فان نفاثة الحوت المسنم شبيهة بنفاثة حوت العنبر حتى ليخلط بينهما الصيادون الأغرار ؛ ومن ثم أصبح دريك وكل جماعته في طراد جريء لذلك الوحش الجسور المقدام، وحشدت « العذراء » كل أشرعتها التي صنعت بحيث تناسب أرنياتها الأربع واختفى الكلّ في وجهة الريح بعيداً في مطاردة جريئة مفعمة بالآمال .

واهاً يا صديق ! ما اكثر الحيتان المسنمة وما اكثر القباطنة من أمثال دريك !

٨٢ ما في التحويت من شرف ومجد[١]

بعض الاشياء تكون فيها الفوضى العامدة هي المنهج الصحيح .

كلما غصت في أمر التحويت ودفعت أبحاثي قدماً الى « رأس النبع » ازددت اعجاباً بمبلغ ما فيه من شرف عظيم تليد ؛ وحين أجد بخاصة أرباباً وأبطالاً وأنبياء من جميع الانواع قد سكبوا عليه تمجيداً وتمييزاً يطير بي الخاطر الى أنني أنتمي الى تلك الاخوة المزخرفة بالامجاد وان لم أكن من أرومتها في الصميم .

كان برسيوس الشهم ابن جوبتر أول حوات ، ومن دواعي الشرف الازلي في حرفتنا ان أول حوت هاجمه إخواننا الاسلاف لم يقتل بدافع خسيس . تلك الايام كانت أيام فروسية في حرفتنا حين كنا لا نحمل السلاح إلا لنغيث الملهوف والمكروب لا لنملأ المزايت للناس . وكل امرىء يعرف تلك القصة الجميلة ، قصة برسيوس وأندروميده ، وكيف ان أندروميده الجميلة ابنة أحد الملوك ربطت الى صخرة على ساحل البحر ، وبينا كان اللوياثان يهم بأخذها تقدم برسيوس أمير الحواتين بجأش رابط ، وزرق الوحش برمحه ، وخلّص الفتاة منه وتزوجها . ذلك عمل فني مثير للاعجاب قل ان يؤديه خير الزراقين في أيامنا هذه ، أعني ان يذبح أحدهم الحوت بزراق واحد ضربة واحدة . وليس لاحد ان يرتاب في هذه

---

١ عدّ ملفل في الفصل : ٢٤ من كتبوا عن الحيتان وفي الفصل : ٤٥ أشهر الحيتان ، وها هو في هذا الفصل يتحدث عن أشهر الحواتين .

القصة التي تنتمي الى عهد نوح . اذ ظلّ الهيكل الجسيم من أحد الحيتان شاهداً على مدى أجيال عديدة في أحد المعابد الوثنية بمدينة يوبا ، وهي يافا الحديثة على الساحل الشامي ، وكانت أساطير تلك المدينة وجميع سكانها يؤكدون ان ذلك الهيكل هو عظام الوحش الذي قتله برسيوس . وعندما استولى الرومان على يافا حملوا ذلك الهيكل العظمي معهم في موكب النصر . أما ما يبدو فريداً هاماً – على نحوٍ لافت – في القصة فهو هذا : من يوبا نفسها أبحر يونان .

وتشبه مغامرة برسيوس واندروميده قصة أخرى شهيرة يظنها بعض الناس في الحق مستمدة منها على نحو غير مباشر، تلك هي قصة القديس جورج والتنين؛ وأنا أزعم أن ذلك التنين كان حوتاً ، اذ أن التواريخ القديمة تخلط بين الحوت والتنين على نحو غريب ، وكثيراً ما يكون الواحد منهما بديلاً للآخر . يقول حزقيال : « أنت تشبه أسد الامواه وتنـــين البحر[1] » ، وهو يعني الحوت – صراحة – . وفي الحق ان بعض نسخ التوراة ترد فيها لفظة « حوت » نفسها. ثم انه لمما ينقص من مجد العمل الخطير الذي قام به القديس جورج ان يتصدى لزاحف من زواحف البر بدلاً من أن ينازل وحش الاعماق الكبير ، فان اي امرىء قد يقتل أفعى ولكن ليس في صدر أحد قلب يمشي مشية باسلة الى حوت الا ان يكون امرءاً من قبيل برسيوس او القديس جورج او كوفن .

وليس للرسوم الحديثة التي تمثل هذا المنظر ان تضللنا ، اذ ان المخلوق الذي واجهه ذلك الحوات الجسور في غابر الايام يرسم على صورة مبهمة تشبه العنقاء ، وتمثل المعركة في البرّ والقديس على ظهر جواد، بل علينا أن نعتبر الجهل الكبير الذي كان يسود تلك الايام حين كان الفنانون يجهلون الشكل الصحيح للحوت ،

---

[1] في حزقيال ٣٢ : ٢ « أشبهت شبل الامم وأنت نظير تمساح في البحار » .

وأن نتصور ان حوت القديس جورج قد يكون زحف من البحر الى الشاطىء ، وأن نقدر ان الحيوان الذي كان القديس يمتطيه قد يكون صيلاً ضخماً أو حصان بحر ، فاذا تذكرنا كل هذه التقديرات كان من حقنا ان نعتقد بأن ما يسمى التنين لم يكن سوى اللوياثان العظيم نفسه ، وان اعتقادنا هذا لا يبدو متنافراً وتلك القصة المقدسة ، معارضاً لاقدم رسوم ذلك المشهد . بـــل الحق لو أنك وضعت القصة كلها أمام الحقيقة الصارمة النافذة لجاءت مثل ذلك الصنم الذي كان يمثل السمكة والانسان والطير ، صنم الفلسطينيين الذي كانوا يسمونه داجون [1] ، وقد نصب أمام تابوت العهد الاسرائيلي ، وقد سقط منه رأس حصانه وراحتا يديه ولم يبقَ إلا جذمه او ذلك الجزء السمكي منه . فمن أرومتنا النبيلة حوات يعد حامياً قيماً على انجلترا ونحن — حواتي نانتوكت — يجب ان ندرج أسماءنا في جمعية القديس جورج النبيلة المحتد . ولذا وجب على الفرسان المنتمين الى تلك الجماعة الشريفة (وأجرؤ ان أقول : ليس لاحد منهم اي شأن بالحوت كما كان حال راعيهم) ان لا يرمقوا نانتوكتياً باحتقار ، اذ أننا حتى في ستراتنا الصوفية وسراويلنا المقيّرة أحق بشعار القديس جورج منهم .

وأنا في حيرة من أمري هل أسمح لهرقل ان يعد واحداً منا او لا يعد . نعم ان الاساطير اليونانية تقول ان هذا البطل القديم الذي يشبه كروكت وكت كارسون من أبطالنا [2] ، ذلك المفتول الساعـــد الذي اضطلع بتحقيق الاعمال البهيجة المجيدة قد ابتلعه الحوت ثم قذف به ؛ ولكن ترى اذا دققنا في الامر

---

١ انظر سفر القضاة ١٦ : ٢٣ وصموئيل الاول ٥ : ٢ — ٥ .

٢ دافيـــد كروكت (١٧٨٦ — ١٨٣٦) وكت كارسون (١٨٠٩ — ١٨٦٨) الاول صياد دببة انتخب في الكونجرس رغم أنه أمي ، اما كارسون فذهب في رحلات استكشافية عديدة الى كاليفورنيا وشارك في الحرب المكسيكية .

فهل هذا يجعل منه حواتاً ؟ ذلك شيء يظل محطاً للجدل . إذ ليس فيا بلغنا أنه زرق الحوت برمحه إلا ان يكون فعل ذلك وهو في جوفه ، ومع ذلك فقد نعده حواتاً على نحو لا ارادي ، وعلى أية حال فان الحوت أمسك به ، وان لم يمسك هو بالحوت ، وأنا أميل الى أن أدعيه واحداً من بني عشيرتنا .

غير أن الثقات – على تضارب في الرأي فيا بينهم – فريقان : فريق يرى ان هذه القصة الاغريقية عن هرقل والحوت مستمدة من قصة عبرية أقدم منها عن يونان والحوت ، وفريق يقول بل القصة العبرية مقتبسة عن اليونانية ، وكلا القولين متشابهان وما دمنا ندّعي البطل الذي يشبه الآلهة فلمَ لا ندعي النبي ؟

ليس الأبطال والقديسون وأشباه الأرباب والأنبياء هم وحدهم الذين يشتمل عليهم سجل عائلتنا ، ولا بد ان نذكر اسم سيدنا المظيم ذلك ان نبع اخوتنا لا يتقاعس عن منزلة الأرباب العظام كما كان الملوك في غابر الأيام . تلك القصة الشرقية العجيبة يجب ان تتلى على الاسماع نقلاً عن الشاستر الذي يمنحنا فشنو المخوف أحد ثلاثة أشخاص يتجسدها ربّ الهندوس ، وفشنو هذا الآلهي هو سيدنا ، فشنو هو الذي فصل الحوت وميزه وجعله مقدساً الى الأبد في التجسد الأول من تجسداته الارضية العشرة . ويقول الشاستر : عندما قرّر براهما رب الأرباب أن يعيد خلق العالم بعد أحد انحلالاته الدورية ، ولد فشنو ليهيمن على هذا العمل؛ ولكن الفيدا او أسفار الحكمة الغيبية التي كانت قراءتها أمراً لزاماً على فشنو قبل ان يبدأ الخلق ، والتي كانت تحتوي ولا بــــد أشياء في صورة تلميحات عملية للمهندسين المعماريين الشبان ، أقول : هذه الكتب كانت في قاع البحر فتجسد فشنو حوتاً وقمس فيه الى قرارة الأعماق السحيقة وخلـّص تلك الكتب المقدسة . ألم يكن فشنو هذا حواتاً ، إذن ، مثلما يسمى راكب الفرس فارساً ؟

برسيوس ، القديس جورج ، هرقل ، يونان ، فشنو ! هذا سجل العضوية لك أيها الحوات . أي نادٍ إلا ويستطيع نادي الحواتين ان يبذّه ؟

٨٣ النظر في يونان من زاوية تاريخية

في الفصل السابق جرت الاشارة الى القصة التاريخية ، قصة يونان والحوت . غير أن بعض أهالي نانتوكت لا يثقون في تلك القصة . لكن كان في الاغريق والرومان أيضاً شكيون برزوا من بين الوثنيين المستقيمين أبناء زمانهم، وشكوا في قصة هرقل والحوت وفي آريون والدلفين [١] ، ورغم ذلك فان شكهم لم يحوّل تلك الموروثات قيد شعرة عن كونها حقائق واقعة .

وأبدى حوات عجوز من ميناء ساج سبباً كبيراً استدعى منه التشكك في القصة العبرية وذلك هو : كان لديه نسخة أنيقة من هذا الطراز القديم الذي كانت تكتب به نسخ التوراة مزينة بلوحات عجيبة غير علمية ، تمثل احداها حوت يونان وفي رأسه نفاثتان — وهي خاصية لا تصـــدق إلا على نوع اللوياثان (أي الحوت الأثين وأنواع فصيلته) وقال الصيادون فيما يتصل به : « لو دحرجت في حلقه قطعة نقود لاختنق » إذ أن بلعومه بالغ الصغر . إلا أن الاسقف جب كان لديه جواب قَـبْلِيّ جاهز يردّ به على هذا الاعتراض . يقول الاسقف : ليس من الضروري أن نقول ان يونان قبر في جوف الحوت وانما ركن مؤقتاً في جانب من فمه . وهذا شيء جد معقول من الأسقف الطيب ، اذ الحق أن فم الحوت الأثين

---

١ تقول الاسطورة ان آريون الشاعر قذف بنفسه في البحر هرباً من الملاحين الذين حاولوا ان يبتزوه ما معه ، لكن قبل أن يقفز عزف على عوده فاجتمع عدد من الدلافن حول السفينة ، فامتطى ظهر أحدها ونجا به سالماً الى البرّ .

يتسع لزوج من مائدتي الورق يجلس حولهما اللاعبون مرتاحين . ومن الممكن أيضاً ان يونان انجحر في تجويف ضرس، ولكن حين نتدبر الامر ونخلـّي الظنون نرى ان الحوت الاثين ليس له أضراس .

وسبب آخر قدمه ذلك الساجيّ (اي المنتمي الى ميناء ساج) يعلل به قلة ايمانه بأمر هذا النبي، شيء يشير في غموض الى جسده المحتبس المخنوق والعصارات المعدية التي يفرزها الحوت ، إلا أن هذا الاعتراض يتهاوى على الارض لان أحد المفسّرين الألمان يظن ان يونان لجأ ولا بد الى جسم حوت ميت عائم ، مثلما أن الجنود الفرنسيين في حملتهم على روسيا جعلوا من جثث خيولهم خياماً وقبعوا تحتها . ثم ان بعض الشرّاح المفسرين في القارة الاوروبية قد حدسوا بأن يونان حـــين ألقي عن ظهر السفينة المقلعة من يافا دبّر الهرب تواً الى سفينة أخرى قريبة ، سفينة لها رأس في شكل الحوت ، وأنا أضيف أنها ربما كانت تسمى « الحوت » مثلمـــا ان بعض السفن اليوم تسمى « القرش » او « النورس » او « النسر ». ولم تعدم القصة مؤولين علماء ارتأوا ان الحوت المذكور في سفر يونان انما يعني « حافظ الحياة » — أي كيس منتفخ بالهواء سبح اليه النبي حين أحاطت به الاخطار فنجا من الموت بالماء . مسكين هو ذلك الساجي ، فقد هزم في كل مجال إلا أن لديه سبباً آخر يسوغ به عدم ايمانه وهذا هو ان لم تخني الذاكرة : ان الحوت ابتلع يونان في البحر المتوسط وبعد ثلاثة أيام قذف به الحوت على بعد ثلاثة أيام من نينوى — وهي مدينة على نهر دجلة — وهي تبعد عن أول ميناء على ساحل البحر المتوسط بأكثر من ثلاثة أيام . فكيف كان ذلك ؟

لكن ألم يكن لدى الحوت من طريقة أخرى يقذف بها النبي الى البر في مدى تلك المسافة القصيرة من نينوى ؟ نعم لعله حمله ودار به عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولكن هب أننا تجاوزنا عن رحلته قاطعاً المتوسط ثم رحلته في البحر الأحمر والخليج الفارسي ، فمثل هذا الظن يشمل ابحاراً كاملاً حول

افريقية في ثلاثة أيام هذا اذا أغضينا أيضاً عن ان مياه دجلة عند موقع نينوى ضحلة جداً لا تسمح لحوت اي حوت بالعوم فيها . ثم ان القول بأن يونان دار حول رأس الرجاء الصالح في مثل ذلك التاريخ المبكر ينتزع شرف استكشافه من بارتولميو دياز مكتشفه المشهور ويجعل من التاريخ الحديث زوراً كاذباً .

إلا أن جميع هذه الحجج الحمقاء التي قدمها ذلك الساجي العجوز انما تشهد بالخيلاء الجوفاء في عقله ، وهو أمر لا يزال يستدعي الشجب والتقريع اذ لم يكن لديه من العلم إلا القليل الذي التقطه من يد الشمس والبحر . أقول إنه إنما يبدي كبرياءه الحمقاء المارقة ، وثورته الكريهة الشيطانية ضدّ رجال الدين المبجلين، اذ أن قسيساً برتغالياً كاثوليكياً قدّم الفكرة التي تقول : بأن يونان ذهب الى نينوى عن طريق رأس الرجاء الصالح مثبتاً بذلك حصول المعجزة على نحو ضخم . وكذلك كان . ثم ان المسلمين الاتراك المتدينين من ذوي البصيرة المستنيرة لا يزالون حتى اليوم يؤمنون بقصة يونان التاريخية . ومنذ حوالي ثلاثة قرون ذكر رحالة انجليزي وردت رحلته في « رحلات هاريس » أن مسجداً بني باسم يونان وكان فيه قنديل معجز يضيء دون زيت [١] .

---

١ ليس في الرحلة المشار اليها اي شيء عن قنديل معجز ، وانما كل ما ورد فيها أن المسجد فيه شمعدانات كبيرة في زواياه الاربع وفيه قناديل عديدة ؛ والمكان الذي يتحدث عنه الرحالة يقع على مقربة من نينوى .

٨٤ قذف الحربة

اذا أريد لدواليب العربات أن تجري في يسر وسرعة دهنت بالشحم ، ولمثل هذه الغاية نفسها يقوم بعض الحواتين بعمل مشابه لقواربهم اذ يشحمون قواعدها. وهو عمل لا ضرر منه ولعله يكون ذا فائدة لا يستهان بها ، دون ريب ، اذا تذكرنا أن الزيت والماء خصمان لا يتمازجان ، وأن الزيت سهل الانزلاق ، وأن الغاية من التزييت هي جعل القارب ينساب منزلقاً في إقدام . وقد كان كويكوج شديد الايمان بتشحيم قاربه ، وذات صباح أنفق جهداً غير عادي في هذا السبيل بعيد ان اختفت السفينة الالمانية «العذراء» عن الانظار ، فزحف من تحت قاعدته حيث كان مدلّى من جانب السفينة ، ودهنه باعتناء كأنه كان يبحث جاهداً ليحصل على خصلة من شعر في سطحه الأصلع ، وبدا كأنه يعمل امتثالاً لنـُذرٍ ما ، وهذا ما صدقته الاحداث من بعد .

ظهرت الحيتان قرب الظهيرة ؛ وحالما اتجهت السفينة مبحرة نحوها دارت وهربت في سرعة بالغة ، هربت في اضطراب كأنها سفن كليوبترة هاربة من اكتيوم .

ومع ذلك استمرت القوارب في ملاحقتها ، وفي مقدمتها قارب اسطب ؛ وبعد نصب ناصب استطاع طاشطيقو ان يغرس في أحد الحيتان رمحاً . لكن الحوت المصاب لم يقمس غائصاً وانما مضى في هربه الأفقي ، وقد زاد من سرعته . واذ استمر الضغط متوالياً على الشفرة المغروسة فيه كان من المحتوم ، إن عاجلاً

او آجلاً ، أن تنقلع من جسمه، وأصبح لزاماً زرق الحوت الهارب بالحراب أو الرضى بتضييعه ، ولكن دفع القارب نحو جنبه أمر مستحيل اذ كان يسبح بشدة وهياج . فماذا بقي ؟

لدى الحوات المدرب شئون عجيبة وأفانين من المهارة والخداع وخفة اليد وما لا يحصى من الحيل ، يضطر لاستغلالها عند الحاجة ، ولكن لا شيء فيها يفوق تلك الحركة البارعة بالحربة ، ويسمونها « قذف الحربة » pitchpoling . وليس يدانيها في هذا سيف صغير او سيف عريض في كل ما يمكن ان يؤديه من فنون . وليست هي لازمة إلا في حال حوت عامد هارب ؛ وأعظم ما فيها أنها تقذف مسددة فلا تطيش ، على مسافة عجيبة ، من قارب يترجرج ويضطرب في عنف ، في أقصى حالات المخر شدّاً . واذا حسبت النصل الفولاذي والقناة فيها وجدت طولها معاً بين عشرة أقدام واثني عشر ، والقناة فيها أشد دقة من قناة الرمح ، وتصنع من خشب خفيف هو الصنوبر ، ويربط بها حبل صغير يسمونه : « السداة » ، ذو طول غير قليل يمكّن قاذفها من جرّها الى يده بعد أن تصيب هدفها .

وقبل أن نمضي خطوة أخرى ، من الهام أن نذكر في هذا المقام أن الرمح يمكن غرسه بالطريقة نفسها مع الحربة ولكن ذلك قلما يحدث، فاذا حدث كان النجاح فيه نادراً ، وذلك لثقل الرمح وقصره إذا قورن بالحربة ، والثقل والقصر يصبحان نقصين خطيرين عندئذٍ . ولذا كان من المسلّم به ان يسرع الصيادون للحاق بالحوت قبل أن يحاولوا « قذف الحربة » .

تأمل اسطب . ذلك رجل ، في بروده الساخر العامد وفي اتزانه لدى أعق الأخطار، كان يعد متميز المهارة في قذف الحربة . انظر اليه ، انه يقف منتصباً في المقدمة المترجرجة من القارب الطائر ، وعلى بعد أربعين قدماً أمامه يمضي

الحوت ساحباً ما وراءه وقد غاب في بياض الزبد . يروز اسطب الحربة الطويلة في خفة ، ويرمق طولها مرة او مرتين ليرى ان كانت مستقيمة ، ثم يلف السداة في يد وهو يصفر ، لكي يبقى طرفها الآخر في قبضته تاركاً بقيتها دون ان يعوقها عائق ، ثم يمسك بالحربة أمام وسط حزامه تماماً ويصوبها نحو الحوت ، فاذا وثق أنه بمرمىً منه ، خفض طرفها الخشبي في يده وبذلك يرفع حدها حتى تقف متزنة على راحته ، على ارتفاع خمسة عشر قدماً في الفضاء . وهو يذكرك بالحاوي الذي يوقف عصا طويلة فوق ذقنه . وفي اللحظة التالية تقطع الشفرة اللامعة المسافة المزبدة في دفعة سريعة لا توصف ، وفي حركة قوسية رفيعة ، وتهتز متأطرة في بؤرة الحياة من جسم الحوت ، فينفث الدم القاني بدلاً من الماء الناصع .

وصاح اسطب : « تلك الضربة قد أطارت السدادة عن فوهته . هذا هو اليوم الرابع من تموز ، اليوم الخالد ، وكل الينابيع تتحول خمراً اليوم ! يا ليت هذا الدفق كان ويسكي أورليانز المعتق او ويسكي أوهايو او ذلك الويسكي العتيق الذي يعجز الوصاف في مونتجاهيلا [1] . اذن طاشطيقو ، أيها الفتى لجعلتك تمسك صفحة تتلقى فيها دفق النفاثة ، ودارت علينا جميعاً الراح . أجل أيتها القلوب الحيوية اذن لقطّرنا البنش المختار في رحى الوقب من نفاثته ، وجعلنا منها كأساً حياً وعببنا منها الشراب الحيّ عباً » .

وفيما يمضي هذا الحديث اللاهي يعاد قذف الحربة مرة اثر مرة ، وتعود الى صاحبها عودة كلب الصيد حين يكون مربوطاً في وثاق . ويخبو هياج الحوت المعذب ، ويرتخي حبل الجرّ ، ويعتزل قاذف الحربة نحو المؤخرة ، ويطوي يديه ويرقب الحوت في صمت وهو يلفظ أنفاسه .

---

[1] في بنسلفانيا الغربية .

٨٥ النافورة

على مدى ستة آلاف عام ـ ولا أحد يدري كم مليوناً من الاجيال قبل ذلك ـ ظلت الحيتان العظيمة تبعث نفثاتها في عروض البحار جميعاً ، وترسل الرذاذ والسحب فوق حدائق الاعماق بما لديها من أوعية تطلق السحاب ورشاشات تنثر القطرات . وعلى مدى بضعة قرون ماضية ظل آلاف الصيادين يشهدون عن كثب نافورة الحوت، ويرون الى ما تقوم به من طش ورش ؛ وذلك ما كان وما هو كائن حتى هذه اللحظة المباركة (الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة عشرة والربع من بعد ظهر السادس عشر من شهر كانون الاول – ديسمبر – عام ١٨٥١ بعد الميلاد) ومع ذلك فلا يزال السؤال قائماً : أهذه النفثات ماء حقاً – بعد كل ذلك – أم ليست إلا بخاراً ؟ ذلك امر يستحق التنويه يقيناً .

لننظر الى هذه المسألة مع بعض أمور اخرى هامة ، تصحبها اتفاقاً . كل امرىء يعلم ان الفصائل المزعنفة تتنفس عامة – حسب تكوين الاكياس الرئوية فيها – الهواءَ الذائب في المادة التي تسبح فيها، ومن ثم فان سمكة الرنجة او الكد قد تعيش قرناً من الزمان دون ان ترفع رأسها مرة واحدة فوق سطح الماء ؛ أما الحوت فان بنيته الداخلية الفريدة قد جعلت له رئة عادية تشبه رئة الانسان، ولذلك فانه لا يحيا إلا اذا استنشق الهواء الطليق من الجو، ولذا يضطر الى ان يزور العالم العلويّ زورات دورية، ولكنه لا يستطيع ان يستنشق الهواء ابداً عن طريق فمه، لانه ان كان حوت العنبر في حال طبيعية كان فمه دفيناً على

بعد ثمانية أقدام من سطح الماء ؛ كذلك فان قصبته الهوائية غير متصلة بفمه ولذا فانه لا يتنفس إلا من خلال فوهة التنفس وحدها، وتقع هذه في قمة رأسه .

فاذا قلت ان التنفس لدى أي مخلوق انما هو وظيفة لا غنى عنها للحياة بمقدار ما يستطيع ان يستخلص من الهواء عنصراً معيناً، يصبح في التالي على صلة بالدم، فيعطي الدم مبدأ الحياة، فلست أظنني مجانباً للصواب، وان كان في مقدوري ان استعمل حشواً من الالفاظ العلمية . فاذا صدقت ذلك، استتبع هذا انه لو كان دم الانسان كله يمكن «تهويته» بنفس واحد لاستطاع ان يختم على خيشومه، فلا يستدعي نفساً آخر الا بعد قسط كبير من الزمن . أي لاستطاع ان يعيش دون تنفس . قد يبدو هذا شيئاً غريباً ولكنه على وجه الدقة هو حال الحوت ، فانه يبقى — بين فترات التنفس — على وجه منظم ساعة كاملة او اكثر (في قعر المحيط) دون ان يسحب نفساً واحداً او يستنشق ذرة من هواء ؛ ولا تنس انه ليست لديه اكياس رئوية . فكيف كان ذلك ؟ بين اضلاعه وعلى كل جانب من جانبي عموده الفقري تجده مزوداً بشبكة فذة معقدة من الاوعية الشعرية، وهذه الاوعية تنتفخ تماماً — عندما يغادر سطح الماء — بدم مشبع بالاكسجين، وبذلك يحمل مخزوناً فائضاً من الحياة فيه لمدة ساعة او اكثر تحت آلاف القامات من الماء ، مثلما ان الجمل الذي يجتاز اليباب القفر يحمل مخزوناً من الماء في معده الاربع الزائدة كي يستعمله عند الحاجة . ان هذه الشبكة المعقدة أمر يقيني لا مشاحة فيه ، وأما ان الفرض المبني عليها يبدو معقولاً صحيحاً فيبدو لي اكثر شيء اقناعاً حين اتأمل اصرار ذلك الحوت على ان « يبرز نفاثاته » كما يقـــول البحارة، وهو اصرار لا أجد له وجهاً آخر من تفسير . وهذا هو ما أعنيه : اذا صعد حوت العنبر الى السطح دون ان يدفعه تحرش او ازعاج ، فانه يبقى هناك فترة من الوقت تضاهي تماماً فترات بقائه الاخرى حين يصعد مطمئناً دون تحرش او ازعاج . افرض انه يقف احدى عشرة دقيقة ، وينفث سبعين مرة، أي يستنشق سبعين نفساً، فاذا صعد الى السطح مرة اخرى فهو على يقين

من انه لا بد ان يسحب سبعين نفساً دون نقص او زيادة : فاذا أفزعته بعد ان تزود ببضعة أنفاس واضطررته الى الغوص فانه يتسلل دائماً الى اعلى ليستوفي نصيبه الكامل من الهواء، ولن يعود في النهاية ليقضي الدورة التي يقضيها تحت الماء إلا اذا استكمل الانفاس السبعين . ثم لاحظ ان هذه النسب تختلف من فرد لفرد ، ولكن الفرد الواحد يحتفظ بنسبة لا تتغير . لم يصر الحوت على ان « يبرز نفاثاته » إلا ان يكون هدفه هو ان يملأ مستودع الهواء لديه قبل ان يذهب الى الاعماق للمكث الطويل ؟ من الجلي ايضاً ان اضطراره الى الصعود يعرضه لكل المخاطر المميتة التي يتمخض عنها الصيد، اذ لا يمكن لهذا اللوياثان الجسيم المديد ان يصاد بالصنارة او بالشبكة حين يبحر على عمق ألف قامة بعيداً عن ضوء الشمس ؛ ليست مهارتك اذن – ايها الصياد – هي التي تكفل لك النصر، وانما هي الضرورات الكبيرة .

والتنفس في الانسان مستمر، وكل نفس يدوم ضربتين او ثلاثاً من ضربات القلب، فمها وجه الانسان اهتمامه الى عمل آخر، مستيقظاً او نائماً، كان لا بد له من ان يتنفس والا قضى نحبه ؛ أمـــا حوت العنبر فانه لا ينفق في التنفس إلا سُبْعَ عمره .

لقد قلنا ان الحوت لا يتنفس إلا من خلال فوهة النفث، فاذا صحّ ان نقول ان نفثاته ممتزجة بالماء فاني ارتأي اننا هنا نقع على السبب الذي جعل حاسة الشم عنده معطلة ، اذ ليس فيه عضو يوازي الانف إلا فوهة النفث، وما دام يسدّ منفذها عنصران فلا يتوقع لها ان تكون فيها القدرة على الشمّ . ولكن بما ان النفث لغز – أهو ماء او بخار – فليس هناك يقين مطلق يمكن ان نبلغه حول هذه القضية، ومع ذلك فمن المتيقن ان ليس للحوت أدوات للشمّ متميزة، ولكن ما حاجته اليها وليس في البحر ورد او بنفسج او عطر الكولونيا ؟

ثم ليس للحوت صوت . وذلك لان قصبته الهوائية لا تفتح إلا على انبوب

القناة النفاثة ، وتلك القناة الطويلة – مثل قناة إيري العظمى – مزودة بنوع من الهويسات (تنفتح وتنغلق) لتحتفظ بالهواء في الاسفل وتطرد الماء صعداً ؛ لهذا لم يكن له صوت، ألا ان تهينه فتقول حين تسمعه يدمدم على نحو غريب : انه أخنف يتحدث من أنفه . ولكن – مرة اخرى – ما شأن الحوت بالكلام؟ لقلّما عرفت كائناً عميقاً لديه ما يقوله لهذا العالم إلا ان اضطر ليتمتم شيئاً يعنيه ليحصل على وسيلة عيش . آه : ما اسعد ان يكون العالم ذا أذن صاغية واعية !

وقناة النفث في حوت العنبر انما غايتها الكبرى هي نقل الهواء، فهي تمتد على مـــدى عدة أقدام امتداداً افقياً تحت السطح الاعلى من رأسه مباشرة، منحرفة بعض الشيء الى احد الجانبين ؛ وهذه القناة الغريبة تشبه انبوب الغاز الذي يمدّ في احد جانبي شارع من شوارع مدينة من المدن . ثم يعود السؤال : هل أنبوب الغاز هذا أنبوب للماء ايضاً ؟ اي بعبارة اخرى : هل نفثة حوت العنبر انما هي الزفير المطرود او ان هذا الزفير يخلط بالماء عند الفم ويطرد من خلال الفوهة ؟ من المؤكد الثابت ان الفم يتصل – على نحو غير مباشر – بقناة النفث ، ولكن لا يمكن ان نثبت ان هذه الصلة انما هي للتخلص من الماء من خلال الفوهة . ذلك لان اقصى الضرورات التي تضطر الحوت ان يفعل ذلك انما تتم حين يتغذى فيأخذ قسطاً من الماء عرضاً ، غير ان طعام حوت العنبر بعيد جداً عن سطح الماء ، وهناك لا يستطيع ان ينفث حتى لو شاء ان يفعل . ثم انك اذا تأملته عن كثب، وعينت الوقت بساعتك حين لا يكون عرضة للتحرش والازعاج، وجدتّ تناوباً لا يختل بين فترات نفثه والفترات العادية من تنفسه .

ولكن لم تـُعْنِيتُ الناسَ بكل هذا التفلسف حول الموضوع ؟ أفصح ! لقد رأيته ينفث، اذن فقل جهراً ما هو نفثه، ألا تستطيع ان تميز الماء من الهواء ؟ سيدي العزيز ليس من السهل في هذا العالم ان تقطع بقول فصل في هذه الشئون

الواضحة . لطالما وجدت ان الشؤون الواضحة أعقد الشئون، أما نفاثة الحوت فقد تقف فيها ثم تظل حائراً في أمرها وماهيتها .

جسمها الاوسط مختفٍ في الضباب الثلجي اللامع الذي يغلّفها . وكيف تستيقن ان كان الذي ينبعث منها ماء ، وأنت حين تقارب الحوت لترى نفاثته بدقة فانه يكون دائماً في هياج هائل، والماء يعبّ حوله من كل جانب كأنه شلاّل . واذا ظننت في مثل هذه الاحوال انك قد لحظت حقاً قطرات من الرطوبة في النفاثة، فكيف تعلم انها لم تتكثف من بخاره، او كيف تعلم انها ليست القطرات المماثلة التي تندسّ من خارج في نسيج فوهة النفث، وهي مندسة في القمة من رأس الحوت ؟ فهو دائماً يحمل حوضاً صغيراً من الماء فوق رأسه مثلما ترى تحت الشمس المتوهجة احياناً قلتاً في صخر يملأه ماء المطر، وهو يحمل ذلك الحوض الصغير حتى وهو يسبح مطمئناً في صفاء الظهيرة وهدأة الكون ، وحردبته سامقة قد جففتها الشمس كأنها سنام الجمل في الصحراء .

وليس من باب الكياسة في الصياد ان يزداد فضوله حول الطبيعة الحق لنفاثة الحوت . اذ ليس مما يغني عنه ان يحملق فيها او ان يدس فيها أنفه . انك لا تستطيع ان تذهب بجرّتك الى هذه النافورة وتملأها وتعود بها . اذ انك حتى حين تقترب اقتراباً غير كبير من المزق الخارجية ذات الابخرة في النفاثة، وهذا أمر يحدث كثيراً، فان جلدك يؤلمك ألماً مبرحاً من لذع الشيء الذي لامسه . وأنا أعرف شخصاً اقترب من النفاثة كثيراً — ولا أدري هل كانت غايته علمية او غير علمية — فتسلخ جلده عن خده وساعده . ومن ثم ذهب الحواتون الى انّ نفاثة الحوت سامة فهم يحاولون ان يتجنبوها ما استطاعوا . وشيء آخر : سمعتهم يقولون ولا أشك فيما قالوه : اذا أرسلت النفاثة نفثها في العينين اصابتهما بالعمى . يبدو لي اذن ان احكم ما يمكن ان يصنعه الباحث هو ان يترك هذه النفاثة القاتلة في حال سبيلها .

واذا عجزنا عن البرهان والتأكيد فانا لن نعجز عن الفرض. وهذا هو الفرض الذي اطرحه : ان النفث ليس إلا ضباباً، وقد توصلت الى هذا الاستنتاج عن طريق تأملات تمسّ الرفعة العظيمة والروعة البالغة لدى حوت العنبر طبعاً وسليقة ؛ هذا الى اسباب اخرى . فأنا لا أعد هذا الحوت كائناً عادياً ضحلاً مستيقناً من ذلك بمثل يقيني الذي لا ينازعني فيه مجادل انه لا يوجد عند الشواطىء او على مقربة من البر ؛ اما سائر الحيتان فانها قد تفعل ذلك احياناً فهو اذن يجمع بين الثقل والعمق وأنا مقتنع ان رءوس الكائنات الثقيلة العميقة، مثل افلاطون وبيرون [1] والشيطان وجوبتر ودانتي، يخرج منها دائماً بخار شبه منظور حين تأخذ في التفكير العميق . وحين كنت أكتب مقالاً في الخلود دفعني الفضول الى ان أنصب مرآة امامي وقبل وقت طويل رأيت في المرآة تلوياً متعقداً غريباً وتموجاً في الجوّ من فوق رأسي ؛ كان ذلك هو رطوبة شعري التي لا تتبدل وأنا مستغرق في الفكر العميق بعد ستة اكواب من الشاي الساخن في المقصورة العلوية المسقوفة بالخشب في بيتي . هذه – فيما يبدو – حجة تؤيد الفرض الذي وضعته آنفاً .

وما أشد ما يسمو بخيالنا عن الوحش القويّ ذي النفث الضبابي ان نراه يسبح في جلال خلال هدأة البحار الاستوائية، وقد تظلل رأسه الجريم اللطيف بظلّة من بخار ولّدته أفكاره التي لا يمكنه ابلاغها لغيره ، وان ذلك البخار يرى احياناً وقد وشحه قوس قزح، حتى كأن السماء نفسها أمّنت على افكاره ووقّعت بالقبول ؛ ولعلك تعلم ان قوس قزح لا يلم بالفضاء الصافي وانما يبعث الألق في البخار ، وكذلك اذا تكاثف ضباب الشكوك القاتمة في عقلي تخللته

---

[1] Pyrrho فيلسوف يوناني (حوالي ٣٦٠ – ٢٧٠ ق. م.) كان يقول من المحال معرفة الاشياء في ماهياتها .

انوار الحدس الآلهية منوّرة ذلك الضباب بشعاع سماوي . شكراً لله على هذا لان الناس جميعاً تعتريهم الشكوك ، وكثير منهم يعتريهم الجحود، ولكن قلّ ان تجد في الناس من ينالون الحدس مع الشك او الجحود. الشكوك في الامور الارضية، والحدس في الامور السماوية . هذا المزيج لا يصنع مؤمناً خالصاً ولا كافراً خالصاً وانما يصنع انساناً يرى الحالتين دون تفرقة او تمييز .

٨٦ الذنب

غيري من الشعراء قد نظموا قصائد غزل يتغنون فيها بعين الغزال الساجية ، وبريش الطير الجميل الذي يظل أبداً محلقاً ، أما أنا فاني سأتغنى بذنب ، وهو نصيب أقلّ مجداً .

اذا قدرت ان اكبر ذنب حجماً في حوت عنبر ، يبدأ من حيث يصبح جذعه يستدق بحيث يغدو في مثل محيط الجسم الانساني ، فانه يضم على سطحه وحده مساحة تبلغ خمسين قدماً مربعاً على الاقل . وعند العجب ينشطر الجسم المستدير المكتنز في شطرين او راحتين عريضتين ثابتتين مسطحتين ، يستدقان تدريجاً حتى يصبح سمكهما أقل من بوصة واحدة ، وعند موضع الانشعاب تتداخل هاتان الشطيرتان قليلاً ثم تتجافيان احداهما عن الاخرى كالجناحين ، مخلفتين فيما بينهما فضاء واسعاً ؛ ولن تجد في أي شيء حي خطوط جمال محددة المعالم في حسن بديع كما تراها في الحوافي الهلالية من هاتين الشطيرتين؛ ويزيد الذنب في أقصى ما يبلغه من عرض في حوت مكتمل النمو على أربعين قدماً .

ويبدو هذا العضو كله طبقة كثيفة منسوجة من عضلات متلاحمة ، ولكن اقطع فيها قطعاً تجد أنها تتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا . أما الأنسجة في الطبقتين العليا والدنيا فانها طويلة أفقية ، وأما التي في الطبقة الوسطى فانها بالغة القصر متجهة اتجاهاً عرضياً بين الطبقتين المحيطتين بها . وهذا التركيب الثلاثي يمنح الذنب قوة ، شأنه شأن أي تركيب آخر . ومن كان يعرف الاسوار

الرومانية القديمة وجد ان الطبقة الوسطى توازي على نحو غريب الصف الرفيع من البلاط الذي يتناوب دائماً مع الحجر في تلك الآثار العجيبة من مخلفات القدامى، وهو ولا ريب ذو أثر كبير في القوة العظيمة التي تتمتع بها تلك الأسوار.

ولكن كأنما هذه القوة المحلية الكبيرة في الذنب الوتري غير كافية ,لذلك كان جسم اللوياثان كله مزوداً بسدىً ولحم من الانسجة والالياف العضلية تمر من كل جانب من جانبي أحشائه، وتمضي حتى شطيرتي الذنب ، وتمتزج في أنسجتها وتسهم في منحها القوة كثيراً ، حتى ليبدو ان قوة الحوت كله ، المترافدة التي لا يستطاع قياسها ، كأنما تتجمع في الذنب عند بؤرة واحدة . ولو كانت المادة تصاب بالفناء فهذه المادة موضع ذلك .

وهذه القوة المدهشة لا تنحو أبداً لعرقلة التثني الرشيق في حركاته ، حيث اليسر الرشيق يتموج من خلال جبروت القوة . بل العكس هو الصحيح : فان تلك الحركات تستمد جمالها الباهر منها، فالقوة الحق لا تشوه الجمال او الانسجام وانما تمنحها للشيء القوي ؛ وفي كل شيء جميـــل آسر الجمال تلعب القوة دوراً سحرياً . أزل الاوتار العضلية الملتفة التي يبدو وكأنها تريد ان تنفر من الرخام في تمثال هرقل فقد يضيع سحره بذلك . وعندما أزاح اكرمان التقيّ المخلص الكفن الكتاني عن جثة جوته العارية هاله ان يرى صدره الضخم، وبدا له كأنه قوس نصر روماني [١] . وعندما يرسم أنجلو صورة الإله في شكل إنساني فتأمل ما فيه من قوة وعنفوان . ومهما تبرز الصور الايطالية الخنثوية الناعمة المتموجة من حب إلهي في صورة المسيح ، وهي الصور التي تجسدت فيها فكرة المسيح

---

١ يقول اكرمان : « سجي الجسم عارياً لا يلفه الا كفن أبيض ... وأزاح فردريك الكفن عنه فهالتني الروعة المتألهة في الاعضاء ، كان الصدر قوياً واسعاً مقوّساً ... أمامي إنسان كامل في جمال رائع » .

تجسداً موفقاً ، فانها – لخلوها من كل عضل مفتول – لا توحي بشيء من القوة إلا القوة السالبة المؤنثة ، قوة الخضوع والصبر التي أجمع العارفون على أنها تمثل الفضائل العملية المتميزة في تعاليمه .

وهذا العضو الذي أتحدث عنه قد بلغ من المرونة اللبيقة حداً بعيداً ، حتى لو تحرك في لهو او جد او غضب او في اي حال ، فان تثنياته موسومة برشاقة بالغة لا تختل ، وفي هذه الرشاقة لا تفوقها حتى سواعد الجنّيات .

وتختص به خمس حركات كبيرات ، أولاها : حين يستعمل زعنفة تعين على الحركة والتقدم ، وثانيتها : حين يتخذ كاسراً للدرع في الحرب ، والثالثة في الجرف والكسح ، والرابعة في استرخائه ، والخامسة في رفع الشطيرتين على اتجاه عامودي .

أولاً : بما أن ذنب اللوياثان أفقي في وضعه فانه يتحرك على نحو يختلف عن أذناب جميع الحيوانات البحرية الاخرى . فانه لا يتعقص ابداً فالتعقص في الانسان والسمك من أمارات النقص . أما الحوت فان ذنبه هو وسيلته الوحيدة للدفع ، وبما أنه يلتف كالدّرج أماماً تحت الجسم ، ثم يقفز بسرعة الى الخلف فهو الذي يمكن الحوت من حركة الانطلاق الفريد الواثب حين يسبح بعنف وهياج . اما زعانفه الجانبية فانها تعينه على المخر ليس إلا .

ثانياً : ربما كان أمراً ذا أهمية ما أن نعلم بأن حوت العنبر حين يقاتل حوت عنبر آخر فانه لا يستخدم إلا رأسه وفكيه ، ومع ذلك فانه في صراعه مع الانسان لا يستخدم إلا ذنبه – في الدرجة الاولى – في استهانة وازدراء . فاذا ضرب قارباً حنى شطري ذنبه بسرعة عنه ، ثم سدّد الضربة اليه عند التراجع فقط . فاذا تمت الضربة في الهواء الطلق وبخاصة اذا هوت على هدفها فانها ضربة

لا تصد ولا تقاوم، وتعجز عن ان تتحملها أضلاع الانسان وألواح القارب، ولا نجاة للمرء إلا بأن يتحاشاها، ولكن ان وقعت جانبية خلال الماء الدافع فان النتيجة الخطيرة التي تنجم عنها بعامة لخفة قارب التحويت من ناحية ولمرونة مادتها من ناحية اخرى انما هي كسر ضلع او خلع لوح او اثنين او احداث وخز في الجنب، وكثيراً ما تحدث هذه الضربات الجانبية خلال الماء في حرفة التحويت حتى انها لتعد عبث اطفال، فقد يخلع احدهم سترته ويسدّ الجرح او الثقب .

ثالثاً : يبدو لي، وان كان ما يبدو أمراً اعجز عن تأييده بالحجة، ان حاسة الشم في الحوت ترتكز في ذنبه، اذ فيه — من هذه الناحية — رهافة لا يوازيها الا الفراهة في خرطوم الفيل، وتتجلى هذه الرهافة على نحو كبير في الجرف والكنس حين يحرك الحوت، بلطف العذارى وبأناة ناعمة، شطيرتي ذنبه الضخمتين من جانب الى جانب على سطح الماء؛ ولو انه أحس بشاربي بحار فويل لذلك البحار ولشاربيه ولكل ما لديه . ماذا في تلك اللمسة التحسسية من رقة وارهاف ! لو كان في ذلك الذنب قوة ممسكة لأخطرتْ تواً على بالي فيل درموندس الذي كان يتردد على سوق الازهار، وينحني محيياً العذارى ويقدم لهن طاقات من الزهر، ويداعب حجزاتهن [1] . وفي غير مناسبة واحدة يشعر المرء بالرثاء ان لا يكون ذلك الذنب ذا قوة على القبض والامساك، ذلك أني سمعت بفيل آخر كان اذا جرح في القتال، طوى خرطومه وانتزع به النصل من جسمه .

رابعاً : اذا تسللت خلسة نحو الحوت وهو يظن نفسه آمناً مطمئناً في وسط البحار النائية وجدته صليباً لا ينفك من الاستشعار بعزته وجسامتها الجسيمة، وهو يلعب على المحيط كأنه السنور وكأن المحيط مصطلاه . ولكنك ترى قوته

---

[1] مثل هذه القصة عن الفيل روى مونتين وكذلك تجدها عند بليني وفلوطارخس، ولكن لم يذكر احد منهم هذا الاسم « درموندس » .

في لعبه ، فانه يرفع الراحتين العريضتين من ذنبه عاليتين في الفضاء، ثم يلطم وجه الماء فيتردد هزيم اللطمة على مدى اميال حتى لتظن ان مدفعاً ضخماً قد انطلق، واذا لحظت الاكاليل الخفيفة من البخار الصاعد من الفوهة في طرفه الآخر ظننت ان هذا هو الدخان المنبعث من الثقب حيث تدس النار في البارود.

خامساً : حين يكون الحوت في وضع عاديّ من العوم، تكون الشطيرتان على بعـــد غير قليل تحت مستوى ظهره ، ولذلك تكونان محجوبتين تماماً عن الانظار تحت الماء ؛ فاذا همّ ان يغوص في الاعماق نصب شطيرتي الذنب مـــع ثلاثين قدماً — على الاقل — من جسمه في الفضاء وبقي يتذبذب كذلك لحظة حتى يغوص سائره مختفياً عن النظر . واذا انت استثنيت قفزته الرائعة خارجاً من الماء — وذلك مـــا سوف أصفه في موضع آخر — فان رفعه لشطيرتي ذنبه منصوبتين في الفضـــاء ربما كان اعظم منظر يراه المرء في الطبيعة الحية . من الاعماق التي لا قرارة لها يبدو الذنب الضخم وكأنه يحاول ان يتشبث متشنجاً بالسماء السابعة . كذلك رأيت الشيطان المهيب في أحلامي يدفع بمخلبه المعذب الجسيم من خلال بحار النار في السعير، ولكن الحكم في مثل هذه الامور وانت ترمقها هو حالك النفسية عندئذ فان كنت في حالة دانتية خطرت لك الشياطين وان كنت في مثل مزاج اشعيا تذكرت الملائكة الابرار . ذات مرت كنت اقف على قمة الصاري في سفينتي عند الشروق وقد صبغت الشمسُ الأفقَ والبحر بلون قرمزي ، فرأيت قطيعاً كبيراً من الحيتان قِبَلَ المشرق كلها عامدة في وجهتها نحو الشمس، وظلت لحظة تتذبذب في انسجام وشطائر اذنابها منتصبة، وقد خطر لي حينئذ ان مثل هذا التجسد العظيم لعبادة الآلهة لم يشهد له مثيل ولا حتى في فارس موطن عباد النيران . ومثلما ان بطليموس محب الاب قد شهد للفيل الافريقي [1] فاني عندئذ شهدت للحوت بأنه أشد المخلوقات تقوى

[1] يقول فلوطارخس ان بطليموس هذا شهد بأن الآلهة تحب هذا الحيوان — اي الفيل — وقال يوبا انه يعبدها ويغتسل متطهراً في البحر ويعبد الشمس الشارقة موجهاً نحوها خرطومه .

وورعاً . اذ يقول الملك يوبا ان الافيال الحربية في القديم كثيراً ما كانت تستقبل الصباح وخراطيمها مرفوعة وهي في اعمق سكون .

ان هذه السانحة للمقارنة بين الحوت والفيل في هذا الفصل، من حيث بعض مظاهر الذنب في احدهما والخرطوم في الآخر، يجب ألا تجعل هذين العضوين المتضادين موضع المساواة، او تجعل صاحبيهما كذلك، وشتان ما هما، لان اقوى فيل لا يعدو ان يكون كلباً صغيراً إزاء الحوت، ولا يعدو خرطومه اذا قارنته بذنب الحوت ان يكون سويقة زنبقة. واذا قارنت ضربة الفيل بضربة الحوت، وجدت اعتى ضربة للفيل بخرطومه لا تعدو ان تكون هشة عابثة بمروحة، أما شطيرتا ذنب الحوت الثقيلتان فانها تحدثان دماراً وتحطيماً، وكم من مرة أطارتا في الفضاء قوارب كاملة بكل ما فيها من مجاذيف وملاحين مثلما يقذف الحاوي الهندي الكرات * .

وكلما ازددت تأملاً في هذا الذنب الجبّار زاد أسفي لعجزي عن وصفه . فله حركات في بعض الاحيان لو تلبست يد انسان لزانتها ومع ذلك تظل لغزاً لا يفسّر . وهي حركات وايماءات صوفية يمارسها في القطيع الكبير احياناً على نحو فذ، حتى لقد سمعت بعض الصيادين يقولون انها شبيهة بالاشارات والرموز التي يستعملها الماسونيون، وان الحوت حقاً يتحدث بهذه الوسائل الى الكون في ذكاء وفطنة . وليست تعوز الحوت حركات اخرى في جسمه بعامة، حافلة بالغرابة ولا يستطيع تعليلها امهر مهاجميه، فكيفما اخذته بالتحليل والتشريح لم أتجاوز في العمق سمك بشرته، فأنا اجهله وسأظل اجهله ابداً واذ لم اعرف حتى

* كل مقارنة في الجسامة عامة بين الحوت والفيل منافية للطبيعة، اذ الفيل انما يقف من الحوت مثلما يقف الكلب من الفيل، ومع ذلك فان بعض اوجه الشبه العجيب متوفرة ثمة، ومنها النفث فمن المعروف ان الفيل يأخذ الماء او الغبار بخرطومه ثم يرفعه وينفثه مسترسلاً .

ذنبه فكيف افهم رأسه ؟ ثم – وهذا ابلغ – كيف أدرك وجهه حين لا يكون له وجه ؟ ويبدو لي انه يقول : سترى اجزائي الخلفية، سترى ذنبي اما وجهي فلن تراه [1]، ولكني لا استطيع ان أستبين اجزاءه الخلفية تمام الاستبانة ومهما يقل هو عن وجهه فاني اقول ثانية انه لا وجه له .

---

[1] قارن هذا بما جاء في سفر الخروج ٣٣ : ٢٣ «وقال الرب هوذا عندي مكان، فتقف على الصخرة، ويكون متى اجتاز مجدي اني اضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى اجتاز، ثم ارفع يدي فتنظر ورائي، وأما وجهي فلا يرى» .

٨٧

اسطول ضخم من الحيتان

تكوّن شبه جزيرة مالقة الطويلة الضيقة في امتـــدادها جنوباً شرقياً من مقاطعات برما آخر نقطة جنوبية في آسيا جميعاً ، ويمتد من شبه الجزيرة تلك على خط مسترسل ، جزائر سومطرة وجاوة وبالي وتيمور ، وهي تكوّن مع جزائر أخرى كثيرة سداً مديداً او برزخاً يربط ربطاً طولياً بين آسيا واستراليا، ويفصل بين المحيط الهندي المديـــد المسترسل والأرخبيلات المشرقية المرصعة ترصيعاً كثيفاً . وتتخلل هذا البرزخ موانىء خفية عديدة تفيد منها السفن والحيتان ، ومن أبرزها مضايق سندا ومالقة ؛ فالسفن العامدة نحو الصين مـن الغرب تنفذ على وجه الخصوص من مضايق سندا الى البحار الصينية .

ومضايق سندا الضيقة هذه تفصل سومطرة عن جاوة ، وتتوسط البرزخ الجزري المديد ، ويرفدها نتوء بارز أخضر يعرفه البحارة باسم رأس جاوة ، وهي تمثل بوابة متوسطة شارعة نحو امبراطورية شاسعة مسوّرة ، واذا اعتبرنا الثروة الثرّة التي تتمتع بها آلاف الجزر في ذلك البحر الشرقي من أفاويه وحرائر وذهب وجواهر وعاج فيبدو أن من عناية الطبيعة ذات المغزى ان تكون هذه الكنوز حسب طبيعة تكوين البلاد تحمل مظهراً على الاقل – وان كان قليل الغناء – يدل على أنها محروسة من جشع العالم الغربي. وليس على سواحل مضايق سندا مثل تلك القلاع المسيطرة التي تحرس مداخل البحر المتوسط وبحر البلطيق والبحر الاسود. فهؤلاء الشرقيون على خلاف الدنمركيين لا يتطلبون الولاء الخانع الذي تبديه مواكب السفن المسترسلة حين تخفض أشرعتها العليا أمام الريح ،

وهي السفن التي ظلت على مدى قرون في الماضي تمر ليلاً ونهاراً بين جزيرتي سومطرة وجاوة ، محملة بأغلى بضائع الشرق . ولكن ان كان هؤلاء الشرقيون يتنازلون راضين عن مثل هذه الشعائر فانهم لا يتنازلون أبداً عن استدعاء جزية أيهظ .

فمنذ زمن غابر لا تحققه الذاكرة كانت زوارق القرصنة الملايوية تهجم وهي كامنة بين الكهوف والمنافذ المظللة من جزيرة سومطرة على المراكب المبحرة خلال المضايق ، مطالبة في إلحاف وعنف بجزية تحصلها على رءوس الحراب ؛ وكم نال هؤلاء من عقوبات دموية متكررة على أيدي المراكب الاوروبية الجوابة ، تضاءلت بها قحة هؤلاء القراصنة في السنوات الاخيرة ، إلا أننا حتى اليوم ما نزال نسمع ان مراكب انجليزية وأمريكية وقعت في تلك المياه فهوجمت ونهبت دونما رحمة .

كانت السفينة الباقوطة تدنو من تلك المضايق في ريح طلقة رخاء ، وآخاب يهدف الى أن ينفذ خلالها الى بحر جاوة ثم يذهب في التطواف شمالاً في مياه يعرف البحارة أنها مثابة حوت العنبر هنا وهنالك ، ثم يساحل موازياً جزائر الفلبين ويقترب من شاطىء اليابان البعيد لكي يدرك موسم التحويت في إبانه . وبذلك تكون الباقوطة الجوّابة قد ألمت بجلّ مواقع التطواف المعروفة لصيد حوت العنبر في العالم ، قبل ان تهبط على خط الصيد في المحيط الهادي حيث كان آخاب يقدر في اصرار أنه سينازل موبي ديك ، وان أدركته الخيبة في مطاردته له في سائر المواقع ، سينازله في البحر الذي شهر بأنه يعتاده وفي موسم يفترض دون شطط أنه يلمّ به .

وأنى ذاك ؟ في هذا البحث الدائري ألا يريـــد آخاب ان يفيء الى البر ؟ أيشرب بحارته هواء ؟ يقيناً لا بد له من أن يتوقف للحصول على الماء . كلا

ان الشمس التي تجري لمستقر لها ظلت طويلاً تجري في فلكها اللاهب ولا تريد زاداً إلا زادها الكامن في نفسها . وكذلك هو آخاب . تأملوا هذا الأمر في الحواتات ايضاً . بينا تحمّل سائر السفن بمواد غريبة لكي تنقـــل الى أرصفة الموانىء الأجنبية فان سفينة التحويت التي تجوب العالم لا تحمل من المشحونات إلا نفسها وملاحيها ، وأسلحتهم وحاجاتهم ، وقد عبأت في عنبرها الوسيع ماء بحيرة كاملة . لقد تطرمت بالمواد النافعة ولكن لم تزود بما لا تحتاج اليه من صوابير الرصاص الخام والحديد المطاوع . انها تحمل زاد سنوات من الماء ، ماء نانتوكت الصافي الفاخر ، وهو ماء يؤثر النانتوكتي في المحيط الهادي بعد ان يبحر ثلاث سنوات ان يشربه دون السائل الأجاج الذي عبىء أمس فحسب في البراميل من جداول بيرو او الهند . ومن ثمّ فان السفن الاخرى قد تذهب من نيويورك الى الصين وتؤوب فتقف عند عشرين ميناء ، أما سفينة التحويت فانها طوال فترة تجوالها قد لا ترى ذرة واحدة من اليابسة ، وقد لا يرى بحارتها من الناس إلا من كان بحاراً مثلهم في عرض البحر ، حتى لو انك أخبرتهم ان طوفاناً جديداً قد طغى على الارض لأجابوك قائلين : « حسناً أيها الفتيان ها نحن لدينا سفينة نوح ! »

اصطيدت حيتان عنبر كثيرة بازاء الساحل الغربي من جاوة في الجـــوار القريب من مضايق سندا ؛ وكانت معظم المواقع من حول ذلك الموقع لدى الصيادين محطاً ممتازاً للتطواف حقاً . ولذا فان الباقوطة كانت كلما اقتربت من رأس جاوة ذكـّر الرقباء مراراً وأنذروا بأن يظلوا على رقبة واعية . وأطلت الهضاب الخضر النخيلية من اليابسة عن ميمنة القيدوم ، وأخذ البحارة يتنسمون بأنوف جذلى أرواح القرفة دون ان تبدو للأعين نفاثة واحدة . وكادوا ينفون من أذهانهم كل خاطرة بالانقضاض على صيد ما في تلك النواحي ، وقاربت السفينة ان تدخل المضايق ، حـــين ارتفعت الصيحة المعتادة المنعشة من قمم الصواري ، وقبل وقت طويل اكتحلت أبصارنا بمرأى ذي مغزى فريد .

ولأستهل الحديث هنا فأقول : بما أن هماً لا تنكل توجهت الى صيد حيتان في الايام الاخـــيرة ، هماً طاردتها في عرض المحيطات الاربعة جميعاً فان تلك الحيتان لم تعد تحافظ على خطتها بالابحار في شراذم صغيرة متباعدة - كما كانت تفعل فيما مضى — وانما أصبح الصيادون يواجهونها كثيراً وهي سائرة في قطعان كبيرة تضم أحياناً أعداداً كثيرة ، حتى لتكاد توحي بأن شعوباً عديدة منها قد أقسمت بمحرجات الايمان وتعاهدت قاطعة على أنفسها أغلظ المواثيق على ان تتبادل فيما بينها العون والحماية . والى تجمع حوت العنبر في قوافل ضخمة يمكن ان يعزى عدم ظهورها في خير مواقع التطواف ، حتى انك قد تبحر أحياناً أسابيع وأشهراً جملة دون ان تحيّي نظرك نفاثة واحدة ؛ وفجأة يحييك أحياناً ما قد يبدو لعينيك آلافاً وآلافاً .

كانت سلسلة مسترسلة من نفاثات الحيتان مرتفعة تلتمع في فضاء الظهيرة ، مديدة على طول المقدمتين ، على مسافة نحو ميلين او ثلاثة ، مكونة نصف دائرة واسعة المحيط ، محتضنة نصف مستوى الافق . ونفاثة حوت العنبر المفردة المائلة الى الامام تمثل غابة ملتفة كثيفة من الضباب الابيض ، وتظل ترتفع وتهبط في اتجاه الريح ، وهي بـــذلك لا تشبه نفاثة الحوت الاثين المستقيمة العامودية المزدوجة التي تنشطر عند القمة ثم تهبط في فرعين كأنها غصنان متشعبان ساقطان عن شجرة الصفصاف .

وعندما رأينا ذلك الحشد من النفاثات البخارية، من على ظهر الباقوطة وهي تسمو فوق هضبة بحرية ، والنفاثات تتلوى كل على حدة في الفضاء ، وتتجلى من خلال جو مختلط من سديم مـــائل الى الزرقة ، رأيناها كأنما هي آلاف من المداخن الجذلى في عاصمـــة مكتظة بالسكان يرقبها امرؤ يركب جواده فوق الاعالي ، في صباح يوم عاطر من ايام الخريف .

ومثلما تتقدم الجيوش الزاحفة نحو مضيق محفوف بالخطر في الجبال ، فتزيد من سرعتها وكلها لهفـــة لكي تخلف ذلك الممر الخطر وراءها وتفضي الى الاطمئنان النسبي فوق السهل ، كذلك بدا ذلك الاسطول الضخم من الحيتان مسرعاً في تقدمه خلال المضايق ، مضيّقاً جناحي الدائرة النصفية سابحاً قدماً حول مركز ثابت إلا انه هلالي الشكل .

واذ حشدت الباقوطة كل أشرعتها شدّت في آثارها ، وتناول الزراقون رماحهم وأخذوا يجهرون بالهتاف من عند رءوس قواربهم التي ما تزال معلقة ، ولم يكن لديهم ريب في ان لو استمرت الريح ، فان ذلك الجيش اللجب الذي كان يطارد خلال مضايق سندا سينتشر في البحار المشرقية ليشهد فحسب القضاء على عدد غير قليل من أفراده . ومن يدري ان موبي ديك نفسه قد يكون سابحاً سبحاً طويلاً في تلك القافلة المحتشدة ، كأنه الفيل الابيض المعبود في موكب التتويج عند السياميين ! وهكذا أبحرنا قدماً وقد كدسنا الاشرعة الخفيفة الجانبية أحدها فوق الآخر ، ونحن نسوق تلك الحيتان أمامنا ، وفجأة سمعنا صوت طاشطيقو ينبهنا جهراً بأن شيئاً يجري في أثرنا .

وتطلعنا الى الخلف فرأينا هلالاً آخر كالذي كان يتقدمنا ؛ وبدا كأنه مصنوع من أبخرة بيضاء متباعدة ، ترتفع وتهبط بما يشبه نفثات الحيتان ، إلا أنها لا تجيء تماماً وتذهب ، وانما تظـــل شاخصة دون ان تختفي في النهاية . وصوّب آخاب منظاره نحو المنظر ، فأدار نفسه بعجلة حول رجله المندّسة في محجأها وصاح : « هيـــا اصعدوا ، وهيئوا الارشية والدلاء لبلّ الاشرعة — هؤلاء من أبناء الملايو ، سيدي ، وهم في أعقابنا » .

كان أولئك الاسيويون الخبثاء عندئذٍ في طراد متحمس ، كأنما كانوا قـــد أطالوا الكمون خلف ألسنة البرّ الى ان أتيح للباقوطة ان تلج المضايق ، فهم

بحماستهم يعوضون عما فوّته عليهم الغــــلوّ في الحذر . ولكن عندما دخلت الباقوطة السريعة نفسها بعون من ريح مسعفة في طراد وشدّ ، فما كان ألطف أولئك الصحم المفعمين بالاخوة والحب لبني الانسان وهم يعينونها على الاسراع نحو هدفها المبتغى — وهم سياط ومهاميز تحثها وتسوطها . ووضع آخاب المنظار تحت إبطه وأخـــذ يذرع ظهر السفينة ذاهباً جائياً ، فاذا أدار وجهه صوب المقدمة رأى الوحوش التي يطاردها ، واذا انفتل نحو المؤخرة رأى القرصان الظامئين للدماء يطاردونه؛ مثل هذه الخواطر مرت بباله . وعندما رمق بطرفه الاسوار الخضر على جانبي الممر الذي كانت السفينة تبحر فيه ، وتصور لنفسه ان طريقه الى الانتقام تمتد خلال تلك البوابة وكيف أنه من كان خلالها يُطارِد ويطارَد الى مصيره المحتوم ، وأن الامر لم يقف عند هذا الحد ، بل ان قطيعاً من القراصنة المتوحشين الغلاظ والشياطين الدهريين اللاإنسانيين كانوا يهيجونه ويحمسونه بلعناتهم الجهنمية — أقول : عندما مرت هذه الاخيلة جميعاً خلال رأسه أصبح جبينه شاحباً عبوساً كأنه الشاطىء الرمليّ الاسود بعد مدّ طاغٍ كان يأكل من جوانبه ، دون ان يقدر ذلك المدّ على جرّه من مـــكانه لانه ثابت مكين .

إلا أن أفكاراً كهذه لم تزعج البحارة السادرين إلا قليلاً ؛ وعندما مضت الباقوطة في شوطها وسقط القراصنة في مؤخرتها إعياءً وتخاذلاً ، وانطلقت أخيراً من جانب رأس كوكاتو الاخضر على ساحل سومطرة نافذة في النهاية على صدر المياه الرحيب من دونها ، عندئذٍ بدا أن الزراقين أسفوا لان الحيتان فاتت السفينة بأكثر مما ابتهجوا لان السفينة قد كسبت الجولة من أبناء الملايو . ولكنا مضينا في آثار الحيتان وقد بدا لنا أنها عندئذٍ قد خففت من سرعتها ، فاقتربت السفينة منها تدريجاً ؛ وسكنت الريح، فصدرت الاوامر بأن نقفز نحو القوارب ؛ وما كاد قطيع الحيتان — بغريزة عجيبة فيما أقدّر — يحس بالقوارب الثلاثة تلاحقه ، وان كانت المسافة بينها وبينه تبلغ ميلاً ، حتى انتظمت صفوفه

من جديد وتشكلت في صفوف وطوابير متلاصقة ، وبدت نفاثاتها جميعاً وكأنها صفوف لامعة من « السنجات » المكدسة ومضت في شدّها مضاعفة من سرعتها.

وشمرنا عن سواعدنا وسيقاننا وقفزنا نحو القوارب الدردارية ، وبعد عدة ساعات من التجديف كدنا نجنح الى التخلي عن المطاردة ، حين حدثت حركة اضطراب عامة معوّقة بين الحيتان ، فجاءت أمارة شاحذة للهمم تحدثنا ان الحيتان قد أصبحت أخيراً تحت تأثير ذلك النوع من الحيرة الغريبة التي يمليها التردد القاصر ، واذا لحظها الصيادون في الحوت قالوا إنه قد ثارت به الصفراء . واذا تلك الصفوف العسكرية المتراصة التي كانت تتقـــدم حتى ذلك الحين في سرعة وثبات قد اختلت فأصبحت كأنها فلّ منهزم شرّ انهزام ، وبدت كأنما قد جنّت ذعراً وذهولاً ، كأنها أفيال الملك بورس في المعركة الهندية بينه وبين الاسكندر[1] ؛ وتشتّتت في جميع الوجهات على شكل دوائر مضطربة تسبح هنا وهناك دون هدى ، وتنفث نفثات قصيرة كثيفة ، وتفضح بذلك كله ارتباكها الناجم عن الهلع . ولعل أغرب ما عايناه هو ان بعضها كأنما أصيب بالشلل ، فعام على الماء منطرحاً مخذولاً كأنه سفن على الماء محطمة معطلة . ولو كانت تلك الحيتان قطيعاً من الضائنة الحمقاء ، وقد طاردتها في مرعاها ثلاثة من الذئاب الشرسة ، لما انفضح فيها هذا الهلع البالغ على هذا النحو ، ولكن هذا الخور العارض سمة تكاد تعم كل الكائنات التي تعيش في القطيع ، فالجواميس البرية في الغرب الامريكي ، ذات الاعراف كألباد الاسود تحتشد في اعداد تبلغ عشرات الالوف ، وتفر هاربة أمام خيّال واحد . وتأمل أيضاً جميع بني البشر ، كيف يكونون محتشدين في حظـــيرة يسمونها قاعة المسرح فاذا أنذروا محض إنذار طفيف باشتعال النار اندفعوا في هياط ومياط نحو المنافذ ، متجمهرين متكدسين

---

[1] حدثت المعركة عند نهر Hydaspes عام ٣٢٧ ق. م.

يطأ بعضهم بعضاً ، ويدفع أحدهم الآخر الى الموت دون إشفاق . خير لك إذن ان تحبس دهشتك اذا رأيت منظر الحيتان الغريب وقد ثارت بها الصفراء ، اذ ليس في حيوانات الارض حمقٌ إلا وطيشُ الانسان يبذّه على قدر لا يحدّ .

ومع ان كثيراً من الحيتان – حسبما تقدم القول – كانت تتحرك حركة عنيفة ، فعلينا ان نلحظ ان القطيع من حيث هو لم يتقدم ولم يتأخر وانما بقي مجتمعاً في مكان واحد . فتفرقت القوارب حالاً ، كما يحدث في مثل هـــذه الاحوال، وكل منها يعمد الى حوت منفرد في طرف من أطراف القطيع . وبعد حوالي ثلاث دقائق كان رمح كويكوج قد انطلق ، فنثر الحوت المصاب رذاذاً معشياً في وجوهنا ، ثم انطلق يجري بنا كأنه البرق عامداً نحو قلب القطيع ؛ ولم تكن تلك الحركة من الحوت المضروب في تلك الظروف أمراً غير مألوف بل انها شيء يتوقعه المرء حيناً بعـــد حين ، إلا أنها تمثل الجانب الاخطر من صروف حرفة الصيد ؛ اذ كلما جرّك الحيوان المنطلق متوغلاً بك في أعماق القطيع الهائج فقد ودّعتَ حياة الحذر والحيطة ، ولم يعد لك وجود إلا في اختلاجة من البحران الهاذي .

وفي حالة من العمى والصمم انطلق الحوت غائصاً كأنما محض القدرة على الاسراع تخلصه من العلقة الحديدية التي ألحت عليه ، أما نحن فشققنا في جسم البحر جرحاً أبيض ونحن في انطلاقنا مهددون ، من جميع الجوانب، بالحيوانات المهتاجة الممسوسة التي تندفع حولنا يمنة ويسرة ، وقاربُنا المحصور كأنه سفينة تألبت عليها جزر الجليد في عاصفة ، فجهدت كي تمخر خلال القنوات والمضايق المعقدة ، وهي لا تدري في أية لحظة يطبق عليها الجليد ويحطمها .

ولكن كويكوج لم يعرف الخوف ابداً فمضى بنا في جسارة ورجولية ، آناً يزورّ عن هذا الوحش الذي اعترض طريقنا عامداً لدى تقدمنا ، وآناً يحيد

عن ذاك الذي جعل شطيرتيه الضخمتين مشبوحتين الى أعلى، بينا وقف استاربك طوال ذلك الوقت كله في مقدمة القارب ، والحربة في يده ، يبعد من طريقنا بالوخز والنخس اي حيتان يمكن ان تبلغها النصال القصيرة ، اذ لم يكن الوقت يسمح باستعمال الطويلة منها . هذا ولم يكن القائمون على المجاذيف متوانين خاملين وان كانت مهمتهم المعتادة قد أصبحت غير لازمة ، فوجهوا همهم في الدرجة الاولى الى إرسال الصيحات : « ابعد يا كومودور ! » — كذلك صاح أحدهم في « هجين » ضخم ارتفـــع جسمه فجأة فوق سطح الماء ، وكاد في لحظة خاطفة يغطنا في البحر ؛ — « انزل ذنبك يا هذا » — ذلك ما قاله آخر مخاطباً هجيناً آخر كان على مقربة من الحافة يروّح في هدوء عن نفسه بطرفه الآخر الذي يشبه المروحة .

كل قوارب التحويت مزودة بوسائل غريبة اخترعها في الاصل هنود نانتوكت وسمّوها : « الدرق » ، والدرقة مربعان ثخينان من الخشب متساويان في الحجم يسمّران بقوة معاً حتى يتقاطعا عند جانبيها في زاوية قائمة ، ثم يوصل بوسط هذه الدرقة حبل ذو حظ من الطول، ويجعل الطرف الآخر من الحبل في صورة أنشوطة حتى يمكن ان يوثق برمح في لحظة . وهذه الدرقة تستعمل اكثر ما تستعمل بين الحيتان التي ثارت بها الصفراء ؛ اذ حينئذٍ تكون الحيتان القريبة من حول الصيادين مما لا يستطيعون مطاردته في آن واحد . ثم ان حيتان العنبر لا تصادَف كل يوم فعليهم اذن ان يقتلوا منها ما يقدرون على قتله، واذا لم يقتلوها حالاً كان عليهم ان يهيضوا أجنحتها حتى يقتلوها من بعد على هينتهم . ومن ثم كانت الدرق في مثل هذه الاوقات شيئاً ضرورياً . وكان قاربنا مزوداً بثلاث درقات ، وفقنا في قذف الاولى والثانية منها ، ورأينا الحيتان تندّ مترنحة وقد قيدتها المقاومة الجانبية الهائلة من الدرقة التي تشدّها . فتشنجت كأنها مجرمون ربطوا بالسلاسل والكلبشات ، ولكنا حين شئنا ان نطرح الثالثة علقت ونحن نهم بقذف تلك القطعة الخشبية الخشناء ، تحت أحد مقاعد القارب فنزعته معها

وذهبت به ، وأسقطت الجذّف في قاع القارب حين انزلق المقعد من تحته ، وهجم البحر من الجانبين على الالواح الجريحة ولكننا حشونا في الثقب ثلاثة من السراويل والقمصان وحلنا دون تسرّب الماء آنئذٍ .

كان شيئاً يشبه المستحيل ان نلقي بتلك الرماح الموصولة بالدرقات لولا اننا حين تقدمنا خلال القطيع ضاقت الطريق بنا وبالحوت . ثم اننا حين اوغلنا في التقدم من محيط الاضطراب بدت لنا الفوضى المفزعة آخذة بالاضمحلال، حتى اننا حين نزعنا اخيراً الرمح المتأطر واختفى الحوت الذي يجرنا في اتجاه جانبي ، انسابت بنا الطريق، بتلاشي القوة من زخمه المتبدد، بين حوتين في صميم القطيع كأننا انحدرنا فوق سيل جبلي الى بحيرة مطمئنة في سرارة الوادي . هنالك كنا نسمع العواصف في الوهدات المزمجرة بين حيتان الظواهر والاطراف ولكن لا نلمسها ؛ وكان البحر في هذه الرحبة المتوسطة قد لبس سطحاً ناعماً رقيقاً كأنه الساتان، وهو ما يسمونه « السطح المصقول » وهو ينجم عن الرطوبة الدقيقة التي يقذفها الحوت في حالات هدوئه . أجل، كنا في تلك الهدأة المسحورة التي يقولون انها تكمن في وسط العاصفة والاضطراب . ومن تلك المسافة المذهولة رأينا تضرُّبَ الدوائر الخارجية المتحدة في مركزها، وشاهدنا أصورة متتالية من الحيتان، في كل صوار ثمانية او عشرة، تدور وتدور في سرعة كأنها ازواج كثيرة من الخيول تدور في حلقة، وتصاقبت جنباً لجنب حتى ان اي فارس ميدان جبار قد يستطيع في يسر ان ينحني فيمس الوسطى منها ويتنقل على ظهورها ذاهباً جائياً . وتكاثفت جماهير الحيتان المطمئنة، وزاد في الحال عدد التي احاطت بمحور القطيع المحصور، لذا لم تكن لتسنح لنا في الحال فرصة ممكنة للهرب . وكان علينا ان نرقب ثغرة في ذلك الجدار الحيّ الذي يسدّ علينا الطريق، ذلك الجدار الذي أذن لنا بالدخول لينغلق من حولنا ويجعلنا سجناء . واذ لبثنا في وسط البحيرة كانت تعتادنا بين الحين والحين بقرات وعجول أليفة صغيرة، اعني إناثَ القطيع المنهزم وأطفاله .

واذا اخذنا في حسابنا المسافات الواسعة التي تعرض بين الدوائر الخارجية الدوّارة، والمسافات بين الأصورة المختلفة في كل دائرة من تلك الدوائر، كانت المساحة الكلية التي يشغلها كل ذلك الرعيل في تلك الآونة تضم ميلين مربعين او ثلاثة اميال مربعة، على الاقل . وعلى اي حال فقد كان يمكننا ان نستكشف، من قاربنا الواطي، نفاثات حيتان تتلاعب في الفضاء وتكاد تمس حافة الافق، غير ان مثل هذا في مثل ذلك الوقت قد يكون شيئاً خادعاً مضللاً . وأنا اذكر هــذه الحادثة لان البقرات والعجول كانت كأنما وضعت عن قصد في وسط الحظيرة وصينت فيها ، وكأنما الامتداد الشاسع الذي يشغله القطيع إنما منعها من ان تفهم وجه العلة في توقفه ، او لعلها لحداثة اسنانها وغرارتها وبراءتها وضعف تجاربهــا ، أو لأي سبب آخر، كانت تجيء من حوافي البحيرة لتزور قاربنا الذي اضطر للاستقرار، وتبدي جرأة وثقة عجيبتين او تبدي هلعــاً مسحوراً ليس من الممكن ان لا يندهش له الرائي . كانت ككلاب المنازل تجيء لتتشمم من حولنا وتعمد الى حوافي قواربنا فتمسها، حتى لكدت أظن ان ضرباً من السحر قد دجّنها فجأة، وكان كويكوج يربت على جباهها، وكان استاربك يخدش بحربته ظهورها إلا انه تجنب ان يزرقها مؤقتاً تحسباً للنتائج .

غير ان عالماً آخر تحت هذا العالم العجيب الواقع على السطح ، عالماً اغرب وأعجب، واجه اعيننا ونحن نحدق فوق جانب القارب ؛ في تلك الاقبية المائية تعلقت عائمة اشكال من أمهات الحيتان المرضعات ، واخريات تدل استفاضة خصورهن على انهن سيصبحن امهات عن قريب . وكانت البحيرة كما ألمحت ، شفافة كثيراً على مدى عمق غير قليل ؛ ومثلما ان اطفال الآدميين يحدقون في هــدوء وثبات بعيداً عن الثدي وهم يرضعون كأنما يحيون حياتين في آن معاً، وبينما هم يمتكون الغذاء الجسدي ما يزالون روحياً يستطيبون ذكريات غير ارضية، كذلك كان يفعل صغار أولئك الحيتان ؛ كانوا كأنما ينظرون نحونا الى اعلى ولكنهم لا ينظروننا كأننا كنا عشبة من اعشاب الخليج في انظارهم الوليدة

الحديثة العهد بالنظر . اما الامهات فكن عائمات على جوانبهن وكن يبدون ايضاً وكأنمـــا ينظرن الينا نظراً ساجياً . وقد يبلغ احد اولئك الاطفال — وبعض الدلائل الغريبة توحي بأن عمره لا يتجاوز يوماً واحداً — اربعة عشر قدماً طولاً ونحو ستة اقدام عرضاً . كان مرحاً بعض المرح وان لم يكد جسمه ينفلت من ذلك الوضع المتعب الذي كان قد اعتاده وهو في المشيمة، حيث الحوت الجنين يلتقي رأسه والذنب ويتحفز للانطلاقة الاخيرة ، وهو مستلقٍ كأنه قوس محارب تتري . اما زعانفه الجانبية الرقيقة وراحتا شطيرتيه فما تزال تحمل ذلك المظهر المتغضن المتكرمش الذي تحمله اذنا طفل حديث عهد بالمجيء من تلك المناطق الخفية .

وصاح كويكوج وهـــو ينظر من فوق حافة القارب : « حبل ! حبل ! بسرعة ، بسرعة . من ربطه . من أثبته ؟ حوتان واحد كبير وواحد صغير ! »

فصاح استاربك : « ما يكربك ايها الرجل ؟ »

فقال كويكوج وهو يشير الى اسفل : « انظر — ه — هنا » .

مثلما ان الحوت المصاب قد يحـــلّ من الحبل الملفوف في البرميل مئات القامات، ومثلما انه بعد القمس العميق يعوم ثانية ويرجع الحبل الملتف مسترخياً مترفعاً في خفة متلوياً نحو الفضاء، كذلك شاهد استاربك لفافات طويلة من حبل السرّة في « السيدة لوياثان »، لا يزال الوليد الرضيع يبدو موثقاً بها الى أمه . وليس ينذر في الصروف العاجلة من حياة الصيد ان يصبح هذا الحبل الطبيعي، وقد انفلت الطرف المتصل بالأم منه، عالقاً متشبكاً بحبل القنب، وبهذا يقع الوليد في الاحبولة . لقد انكشفت لنا أدق أسرار البحر في تلك البركة

المسحورة ، ورأينا مناظر العشق والوصال في الماء بين الفتيان والفتيات من الحيتان * .

هكذا كانت تلك الحيوانات الغامضة في المركز مقبلة على التمتع بشئون السلم والطمأنينة في حرية ودون وجل بل تعربد جادّة في التبذل والطرب، مع انها محاطة بدائرة وراء دائرة من الهلع والمخاوف . وحتى في هذا أراني انا نفسي وسط هادر إعصاريّ من ذاتي، ما ازال الى الابد ألهو في سكينة مطمئنة، وبينا تدور من حولي أفلاك ثقيلة الجرم من ويلٍ لا يأفل ، فاني ما ازال انقع نفسي – هناك في الاعماق وفي قرارة الذات – في وداعة الجذل الخالد .

وبينا سبحنا كذلك في غيبوبة كانت المناظر المفاجئة العارضة الهائجة على البعد تدلّ على نشاط القوارب الاخرى التي ما تزال منهمكة في قذف الحيتان بالدرقات عند الحـــدّ الذي تقف عنده جيوش الحوت . او لعلها ما تزال تشن الغارة خلال الدائرة الاولى، حيث المكان واسع والتقهقر المناسب ميسور لها . ولكن منظر الحيتان المغضبة المضروبة بالدرقات، وهي بين الحين والحين تنطلق على غير هدى عبر الدوائر جيئة وذهوباً، لم يكن شيئاً بالنسبة لما علقت به ابصارنا اخيراً . من العادة احياناً حين يصمم الصياد نحو حوت مسرف في القوة والحركة

---

* ليس للولادة لدى حوت العنبر، كما هي الحال لدى سائر فصائل الحيتان، موسم معين، وهو بذلك يختلف عن معظم الاسماك، فبعد حمل لعله يبلغ تسعة اشهر تلد انثى الحوت واحداً ، وان كانت هناك إمثلة قليلة معروفة وضعت فيها توأمين – حدث تتهيأ له من اجل الرضاع حلمتان تقعان في وضع غريب، كل واحدة منهما على جانب من جانبي الاست ؛ اما الثديان نفساهما فيمتدان الى اعلى من ذلك الموقع . فاذا اتفق ان قطعت هذه الاجزاء الحيوية في المرضع بضربة من حربة الصياد فان لبن الام المنسكب ودمها يخضبان الماء بالتناوب على مدى قصبات عديدة . واللبن حلو بالغ الحلاوة دسم، وقد ذاقه الآدميون، وقد يحسن لو مزج بشراب الفريز . واذا فاض بالحيتان التقدير المتبادل فيما بينها حيت بعضها قائلة : « الموت للانسان ! »

بقدر يزيد على المألوف ان يسعى لان يعرقله – ان صحّ القول – وذلك بأن يقطع اطناب ذنبه الهائلة او يشوهها، وهذا يتمّ بقذف مجرفة قاطعة ذات نصاب قصير مربوط اليها حبل للسحب ثانية . وقد علمنا من بعد ان حوتاً جرح في ذلك الجزء من جسمه جرحاً مُشوِياً غير بالغ – فيما يبدو – فندّ منطلقاً من وجه القارب حاملاً معه نصف حبل الرمح، واخذ يندفع بين الدوائر الدوارة بسبب الألم المبرح في جرحه كأنه آرنولد الارعن راكباً وحده في معركة سرتوغا حاملاً الوبال معه أنى توجه [1] .

لقد كان جرح ذلك الحوت مؤلماً وكان منظره مخيفاً مفزعاً على اية حال، غير ان الرعب الذي يبدو انه بثه في سائر القطيع انما كان ناجماً عن سبب خفي علينا بادىء الامر، ونحن على بعدٍ يحول دون معرفته . ولكن بعد برهة لحظنا ان هذا الحوت، بقوة مصادفة من اغرب المصادفات التي لا يبلغها الخيال في حرفة التحويت، قد اصبح محتبلاً بحبل الرمح الذي كان يجره معه . وانه ايضاً هرب والمجرفة القاطعة قد غرزت فيه، وبينا كان الطرف المنفلت من الحبل المربوط بذلك الرمح قد امتسك ثابتاً في لفائف حبل الرمح حول ذنبه، فان المجرفة القاطعة نفسها قد انفلتت من لحمه، حتى اذا خرج به الالم الى حد الجنون أصبح يتضرب خلال الماء داقاً بذنبه المرن دقاً عنيفاً، مؤرجحاً المجرفة الحادة من حوله، جارحاً وقاتلاً رفاقه انفسهم .

ويبدو ان هذا المنظر المرعب قد أيقظ جميع القطيع من فزعه الساكن، فبدأت اولاً الحيتان التي تمثل إطار بحيرتنا تتجمهر بعض تجمهر، ويرتطم احدها

---

[1] هو بندكت آرنولد، وكانت المعركة المذكورة عام ١٧٧٧ وقد اتهم بأنه كان يومئذ مخموراً، فعرض نفسه بحماقة للكتيبة الالمانية .

بالآخر، كأنما ترفعها امواج شبه معيية من بعيد؛ ثم بدأت البحيرة نفسها ترتفع وتتمعج في فتور، واختفت عن الانظار مخادع الاعراس وغرف الحضانة القائمة تحت الماء، وبدأت الحيتان في الدوائر المركزية تقصّر مداراتها وتسبح في جموع متكاثفة. اجـــل بدأت الهدأة الطويلة تزول وسمعت في الحال همهمة تأتي خافتة، وجاء جيش الحيتان كله يتهاوى على المركز الداخلي كأنما كانت الحيتان تريد ان تكدس نفسها في جبل واحد، كأنها كتل صاخبة من جبال الثلج حين يجري بها نهر هدسن العظيم في الربيع. وعلى التو تبادل استاربك وكويكوج مكانيهما، فحلّ استاربك في المؤخرة.

وهمس في حماسة وقد امسك بالدفة: «المجاذيف! المجاذيف! اقبضوا على مجاذيفكم وأمسكوا ارواحكم، الآن، يا لله يا رجال، تأهبوا! ردّه يا كويكوج! الحوت هناك! انخسه! اضربه! قف – قف وابق واقفاً – ثبوا يا رجال، جدفوا يا رجال ولا تخشوا ظهورها، اسحجوها، دقوها!»

اصبح القارب بين جرمين أسودين جسيمين لو تقاربا لسحقاه، ولكن ظلّ بين طوليها المديدين مضيق ضيق؛ غير أنا في محاولة مستيئسة انطلقنا اخيراً نحو منفذ فسيح مؤقت، ثم جذفنا بسرعة وتطلعنا بجدّ في الوقت نفسه لبلوغ منفذ آخر، وبعد عدة مرات نجونا فيها ولم نكد، انساب بنا القارب بسرعة في النهـــاية الى دائرة كانت قبل قليل احدى الدوائر الخارجية، ولكن اخذت تجتازها آنئذٍ الحيتان التائهة وهي تهدف جميعاً الى مركز واحد. وقد اشترينا هذه النجاة الموفقة بثمن بخس هو فقدان قبعة كويكوج، اذ بينا كان في مقدم القارب ينخس الحيتان الهاربة طارت قبعته عن رأسه في دوامة هوائية احدثتها شطيرتا ذنب عريضتان كانتا قريبتين منه حين تموجتا فجأة.

وعلى ما كان التقلقل العام يحمل من فوضى واضطراب فانه سرعان ما تمخض

عمّا بدا حركة منتظمة ؛ اذ ما ان احتشدت الحيتان اخيراً معاً، في بنيان متراص حتى استعادت هربها قدماً بسرعة متزايدة ، واصبحت كل مطاردة دون جدوى ؛ ولكن القوارب ظلت تتلبث في آثارها لتلتقط الحيتان التي قد تسقط في المؤخرة من جـــراء الضرب بالدرق ولكي تؤمن الاستيلاء على حوت كان فلاسك قـــد قتله وأعلمه ؛ والعلم في هذا المقام عمود في رأسه خرقة ، يحمل منه كل قارب ثلاثة او اربعة ، فاذا كان هناك مزيد من الصيد غرس قائماً في الجسم العائم — جسم الحوت القتيل — لكي يدل على مكانه في البحر ولكي يكون امارة على السبق الى الاحتياز لو اقتربت منه قوارب اية سفينة اخرى .

كانت نتيجة هذه المطاردة تصور الى حد ما صدق تلك القولة الحكيمة في حرفة الصيد : « كلما كثرت الحيتان قلّ الصيد »، فانه لم يقتل من الحيتان التي قذفت بالدرق إلا واحد، اما سائرها فدبرت النجاة عندئذ، وسنرى من بعد أنها كانت من نصيب مركب آخر غير الباقوطة .

٨٨ مدارس ونظارها

قدّم لنا الفصل السابق خبراً عن قطيع حيتان العنبر ، وهنالك أيضاً ورد ذكر السبب المحتمل الذي يغري الحيتان بهذه التجمعات الضخمة .

وقد يصادف البحارة مثل تلك الحشود الكبيرة أحياناً ولكن لعلّ القارىء قد عرف ان هناك عصابات صغيرة متباعدة لا تزال حتى اليوم ترى بين الحين والحين ، وتضم الواحدة منها من عشرين الى خمسين حوتاً . وهذه العصائب تسمى « مدارس » وهي بعامة نوعان : نوع مؤلف كله من اناث الحوت ، ونوع لا يأوي اليه الا الفتيان الاشداء او « الثيران » حسبما تسمى في مألوف البحارة .

ولا بد لك من ان ترى في الاشراف الفروسي على مدرسة الاناث ذكراً ناضجاً غير مسنّ اذا ألمّ ما يفزع ابدى عن شهامته بالانحياز في المؤخرة ، وضمن هرب السيّدات آمنات تحت حمايته . والحق ان هذا السيد تركيٌ مترف يسبح خلال العالم المائي وقد أحاط به كل ما في « الحريم » من مسلّيات وتوددات . والفارق بين هذا التركي وجواريه لافت للنظر ذلك انه دائماً من ذوي الجسامة المفرطة اما السيدات فلا يبلغن اكثر من ثلث حجم حوت عاديّ وهن في أشد أحوالهن نضجاً . غير أنهن اذا قورن به رقيقات مرهفات وأستطيع ان أقول ان الخصر منهن لا يتجاوز ست ياردات ، ومع ذلك لا يستطيع احد ان ينكر ان لهن الحق عن طريق الوراثة — على الجملة — بنيل تقدير جيد في باب السمنة .

ومن الامور العجيبة المثيرة ان يرقب المرء هذا الحريم وسيده وهم في تجوالاتهم

المسترخية ، وهم كعشاق البدع والازياء يتنقلون دائماً في بحث متمهل عن التنوع؛ تراهم على خط الصيد في الوقت المناسب، طلباً لموسم الغذاء في المناطق الاستوائية وهو في ربّانه ، ولعلهم ان يكونوا قد عادوا لتوهم من قضاء صيف في البحار الشمالية وبذا يتحاشون كل ما قد يجيء به الصيف من اعياء وحرارة مزعجة . فاذا قطعوا النزهة عند خط الاستواء وقتاً ما ، ذاهبين آيبين في تسكع ، عمدوا الى المياه الشرقية يستبقون فصل الابتراد هنالك وبذلك يتجنبون ايضاً شدة الحرارة في ما تبقى من العام .

وفيما هم يتقدمون باطمئنان في احدى هذه الرحلات ترى « سيدي » الحوت اذا رأى اي مناظر غريبة مريبة يضع على أسرته الظريفة عين اليقظان الحذر ، فلو ان حوتاً شاباً متوقحاً لا يحسب حساب النتائج جاء في تلك الطريق وتجرأ فاقترب اقتراب السرار من احدى السيدات فأي غضب مريع ذاك الذي يلم بالباشا فيهاجمه ويطرده بعيداً ! حقاً لم يئن الاوان بعد لمثله من الفتيان الجامحين الخلعاء ان يؤذن لهم بالعدوان على قداسة السعادة المنزلية . ولكن مهما تكن غيرة الباشا فانه لا يستطيع ان يصد أشد الفتاك عن فراشه اذ ان فراش الحيتان وا أسفاه مشاع ! وكثيراً ما تكون السيدات سبباً في اشد انواع المبارزات وأهولها بين المعجبين المتنافسين ؛ وكما هي الحال على البرّ كذلك يحدث بين الحيتان فانهم كثيراً ما يقتتلون حتى الموت في سبيل الحب . فيتبارزون بالفك الأسفل الطويل وأحياناً يشبكون الفكين السفليين احدهما بالآخر، ويكافحون من اجل السيادة كأنهم حيوانات العلك التي تعترك فتتشابك شعاب قرونها لدى اعتراكها . وغير قليلة هي الحيتان التي يحرزها الصيادون وفيها جراح عميقة من جراء هذه العراكات — من رءوس مثلمة ، وأضراس مكسرة ، وزعانف مبتورة . وفي بعض الأحايين ، أفواه محرّفة ملوية عن مواضعها .

ولكن هب ان الذي يغزو السعادة المنزلية ولّى هارباً عند اول اندفاعة

قام بها سيد الحريم ، فان مراقبة ذلك السيد في تلك الحال امر سار ممتع . فهو يدس جثته الجسيمة بلطف بين حريمه وهناك يقضي وطره في عربدة ومرح ، وقتاً ما ، وهو ما يزال بمرأى من الشابّ يعذبه بما لم ينل ، كأنه سليمان التقي يتعبد في خشوع بين جواريه الالف . فاذا كانت بعض الحيتان الاخرى بمرأى من الصيادين فانهم قلما يطاردون هذه الحيتان التي يشبه احدها التركي الجليل ، لان أمثال هذا التركي الجليل يسرفون في تبديد مُنَّتهم ولذلك يكون دهنهم قليلا . اما الابناء والبنات الذين يرزقون بهم فعليهم ان يعنوا بأنفسهم ، او قل انهم لا ينالون الا عطف الامومة . اذ ان سيدي الحوت، كبعض العشاق الجوابين من الحيوانات المنهومة الرمّامة الاخرى التي يمكن ان نسميها بأسمائها، ليس لديه ميل لتربية الاطفال ، مهما يكن ميله لخدع الحب كبيراً . وبما انه رحالة كبير فانه يخلف أبناءه المجهولين في جميع أنحاء العالم ، وكل طفل منهم غريب . ومع ذلك فانه في الوقت المناسب حين تخبو فيه حميـــة الشباب وحين تزداد السنين والعثرات ، وحين يهجم التأمل بالسهوم والوجوم ، وباختصار : حين يستولي على التركي المتخم الاسترخاء العام والخمول عندئذٍ فان حبّ الراحة والفضيلة يَعْقُب لديه حب العذارى ، ويدخل التركي في دور العفة والتوبة والندم ، من أدوار عمره ، فيطلق حريمه ويسرحهن؛ واذ يغدو قدوة في سلوكه ، امرءاً عجوزاً متبرماً ، فانه يذهب وحيداً بين خطوط الزوال وخطوط العرض مردداً أدعيته وصلواته ، محذراً كل حوت شاب من أخطاء الحب وورطاته .

واذ يسمي الصيادون حريم الحوت باسم « المدرسة » فانهم يسمّون سيد تلك المدرسة وراعيها باسم « ناظر المدرسة » . واذن فليس من الرعة والخلق النبيل ان ينطلق بعد ان كان هو نفسه في المدرسة ، ليفشي في الناس وجه الحماقة والجهل فيما تعلمه ، دون ان يبث ما تعلمه على وجهه ، مهما يكن موقفه جذاباً في صورته النقدية اللاذعة . اما تلقيبه بلقب ناظر المدرسة فيبدو انه اكتسبه على نحو طبيعي من الاسم الذي أطلق على الحريم أنفسهن ولكن بعضهم استنتج ان

المرء الذي أضفى عليه هذا اللقب اول مرة قرأ ، ولا بد ، مذكرات فيدوك [1] وعلم اي نوع من نظار المدارس الريفية كان ذلك الفرنسي المشهور في شبابه ، وماذا كانت طبيعة تلك الدروس السحرية الغامضة التي كان يبثها بين بعض تلامذته .

وهذه العزلة والوحدة التي يفيء اليها ناظر المدرسة في سن كبيرة تصدق على كل حيتان العنبر التي أدركها الهرم . فاذا وجدت حوتاً منفرداً — وهم يسمونه اللوياثان الناسك — فقدر بوجه عام انه حوت عجوز وهو مثل دانيال بون [2] المبجل ذو اللحية المطحلبة لا يطيق أحداً على مقربة منه سوى الطبيعة نفسها ، اما التي يتخذها له زوجاً في متأبد المياه الموحشة ، فهي خير الزوجات ، وان كانت تحتفظ بأسرار ونزوات متقلبة .

اما المدارس التي لا تضم سوى ذكور شباب اقوياء ، ممن تقدم ذكرهم ، فانها تمثل مفارقة بالغة لمدارس الحريم ، اذ بينا نجد اناث الحيتان خوّارة هلوعة على نحو جـــليّ متميز فان الحيتان الشبان — او الثيران ذوات الاربعين برميلاً كما يسميهم الصيادون — هم اشد الحيتان شراسة وعناداً واشدها خطراً عند اللقاء ، حتى كانت مضرب المثل في ذلك ، واذا استثنيت تلك الحيتـــان الغريبة ذات

---

١ فرنسوا يوجين فيدوك (١٧٧٥ — ١٨٥٧) قضى فترة عسكرياً مغامراً ثم انضم لبوليس باريس عام ١٨٠٩ وبعد استعفائه بقليل ظهر كتاب عنوانه « مذكرات فيدوك » (١٨٢٨) يقص كيف أصبح معلماً في مدرسة ريفية للبنات متنكراً في لبوس راهب ويقدم نصائح فاضحة .

٢ دانيال بون (١٧٣٤ — ١٨٢٠) معمّر ، كان قد بلغ الثانية والتسعين من العمر عندما هاجر من كنتوكي الى مسوري لان الـــولاية الاولى اكتظت بالسكان فأصبح فيها عشرة لكل ميل مربع !!

الرءوس الشمطاء المجللة بالشيب التي قـــد تصادفها احياناً فان هذه الحيتان الفتية تقاتلك كأنها شياطين عابسة قد اسخطها نقرس نزل بها عقاباً .

ومدارس الثـــيران ذوات الاربعين برميلا اكبر من مدارس الحريم، وهم كجمهور من طلبة الكليات الشبان متترعون الى القتال والمرح والعبث، يتعثرون حول العالم على مستوى بالغ من قلة المبالاة والعبث، حتى ان اي صاحب شركة تأمين ذكي فطن لا يؤمن لهم على حياتهم باكثر مما يؤمن على حياة فتى خليع من طلبة ييل او هارفارد. وسرعان ما يكفون عن هذا الهياج الفائر فاذا كبروا بقدر ثلاثة ارباع النمو الكامل فان شملهم يتصدع ويذهبون فرادى بحثاً عن الاستقرار، اعني بحثاً عن حريم .

وثمة مسألة اخرى من الفرق بين مدارس الذكور ومدارس الاناث تميز جنساً عن جنس . هب انك ضربت ثوراً ذا اربعين برميلا – يا للشيطان المسكين ! فـــان جميع رفاقه يتخلون عنه ، ولكن اضرب واحدة من افراد مدرسة الحريم تجد صواحبها يلتففن حولها بكل امارات الاهتمام، واحياناً يتلبثن على مقربة منهـــا ويبقين كذلك مدة طويلة حتى يقعن هن انفسهن فرائس للصيادين .

٨٩ سمكة موثقة وسمكة مخلاة

ان الاشارة التي تناولنا بها الاعلام وعصا العلم في الفصل الواقع قبل الفصل الاخير لتتطلب بعض بيان عن قوانين حرفة التحويت وأنظمتها، لان العلم فيها قد يحسب رمزاً كبيراً وشارة فخيمة .

كثيراً ما يحدث حين تكون عدة سفن آخذة في التطواف مجتمعة ان تصيب احداها حوتاً ما وينجو هارباً ، فتلقاه في النهاية سفينة اخرى ويقتله بحارتها ويجرونه اليها ، وهذا نفسه يتضمن على نحو غير مباشر عدة احداث وسوانح صغيرة تشترك جميعاً في هذا المظهر العظيم . فمثلاً – بعد مطاردة للحوت مضنية محفوفة بالخطر وبعد أسره – قد تنفلت جثته من السفينة بسبب عاصفة عنيفة فتنجرف بعيداً في اتجاه الريح ، فتستعيدها حواتة اخرى تربطها الى جنبها في هدأة الريح بكل ارتياح دون ان تغامر بحياة امرىء او بقطعة حبل . وهكذا كان من الممكن ان تثور بين الصيادين أشد ضروب الكدر والمنازعات الحادة لولا ان هناك قوانين مكتوبة او غير مكتوبة، قوانين عامة لا ينازع فيها احد، تطبق على جميع القضايا والاحوال .

ولعل القانون الرسمي الوحيد للتحويت الذي سنته سلطة تشريعية هو القانون الهولندي ، فقد اصدره مجلس الطبقات عام ١٦٩٥ ب. م. وليس هناك شعب آخر قد كتب قانوناً للتحويت ابداً ومع ذلك فان للصيادين الامريكيين مشرّعيهم وقضاتهم في هذه المسألة . فقد اوجدوا نظاماً يفوق في شموله ومحكم عبارته

مجموعة قوانين جستنيان ، وقوانين الجمعية الصينية، لقمع التدخل في شئون الآخرين ؛ اجل ان تلك القوانين يمكن ان تحفر على دانق من عملة الملكة آن او على كلاّب رمح التحويت وقد تلبس حول العنق لشدة صغرها :

(١) السمكة الموثقة تنتمي الى الفريق الذي اوثقها .

(٢) السمكة المخلاّة صيد حلال لمن اسرع الى صيدها .

ولكن مما يجلب الاذى في هذا القانون الطريف ذلك الايجاز المعجب فيه اذ يحتاج مجلداً ضخماً من التعليقات لشرحه وتفسيره .

أولاً : ما السمكة الموثقة ؟ تعد السمكة موثقة سواء أكانت حية او ميتة حين تكون موصولة بسفينة فيها ناس او قارب، موصولة بأية وسيلة يمكن ان يسيطر عليها القائم في السفينة او القارب او القائمون فيها، وقد تكون تلك الوسيلة صارياً او مجذافاً او حبلاً طوله تسع بوصات او سلك تلغراف او خيطاً من نسيج العنكبوت، فذلك كله سواء . وكذلك فان السمكة موثقة حين تحمل علماً او اي رمز آخر معترف به يدل على التملك ما دام الفريق الذي أعلمها يبدي بصراحة قدرته في اي وقت على ان يأخذها فيجنبها الى سفينته كما يبدي نيته في ذلك .

هذه تعليقات علمية، غير ان تعليقات الحواتين انفسهم تشمل احياناً كلمات نابية ولكمات ضارية بجمع اليد . حقاً ان هناك تسامحاً في بعض الاحوال بين المستقيمين الشرفاء من الحواتين، حيث يكون من الظلم الاخلاقي الصراح ان يدعي فريق امتلاك حوت كان طارده من قبل او اصطاده فريق آخر . ولكن بعضهم ليس حيّ الضمير بأية حال .

منذ حوالي خمسين سنة كانت هناك قضية غريبة حول حوت لـُقْطة، جرى التراقع فيها بانجلترا حيث عرض المدّعون انهم بعد مطاردة شاقة لأحد الحيتان في البحار الشمالية وعندما وفقوا – هم المدعين – حقاً في زرق الحوت برماحهم اضطروا اخيراً بسبب خوفهم من المجازفة بحياتهم ان يهجروا قاربهم نفسه فضلاً عن الحبال. وبعد وقت احضر المدَّعَى عليهم (وهم بحارة سفينة اخرى) الحوت مضروباً مقتولاً موثقاً وعرضوه آخر الامر امام أعين المدعين . وعندما ووجه المـدعى عليهم بالاحتجاج قام قبطانهم يكايد المدعين، وأكد لهم، أنه قد يحتفظ بحبلهم ورماحهم وقاربهم وهي التي بقيت عالقة بالحوت وقت القبض عليه على نحو يشبه الترنيمة التمجيدية للعمل الذي قام به، وعلى ذلك طالب المدعون برد قيمة الحوت والحبل والرماح والقارب .

وكان السيد ارسكين محامياً للمدعي عليهم، وكان القاضي هو اللورد إلنبره، وفي سياق الدفاع ذهب ارسكين الفطن ليوضح موقفه بالاشارة الى قضية زنا، اخفق الزوج فيها عن ان يرد زوجته عن غيها ، فتركها اخيراً على وجه بحر الحياة، ومرت السنون، فادركته الندامة على ما فعل، وشرع في اجراء يستعيد بموجبه ملكيتها، غير ان ارسكين كان في جانب الزوجة وقد أيد موقفه بقوله : صحيح ان الزوج « اصطاد » زوجته في البداية وانه قد « اوثقها » اليه برباط، وانه لم يهجرها اخيراً الا حين ازدادت وطأة خلاعتها وانغماسها فيها، ولكنه هجرهـــا ما في ذلك ريب حتى اصبحت سمكة مخلاّة مسرّحة، ولذا فحين اصطادها رجـــل آخر ، اصبحت تلك السيدة ملكاً لذلك الرجل مع اي رمح وجد مغروساً فيها .

في هذه القضية الراهنة احتج ارسكين بان مثل الحوت والسيدة يوضح احدهما الآخر بالتبادل .

واذ استمع القاضي المتبحر الى هذه المرافعة والى المرافعة المعاكسة قرّر جازماً ما يلي : — اما القارب فانه يحكم به للمدّعين لانهم لم يغادروه الا طلباً للنجاة بأنفسهم ، وأما فيما يتصل بالحوت موضع التنازع وكذلك الرماح والحبل فانها من حق المدعى عليهم : الحوت لانه كان سمكة مخلاّة حين وقع عليه الاحتياز الاخير ، والرماح والحبل ، لان الحوت حين هرب بها فقد اوقع عليها حق التملك الذاتي ، وكل من استولى على الحوت من بعـــد كان له حق فيها . فالمدّعون استولوا من بعد على الحوت ، اذن فتلك الادوات المذكورة من حقهم .

لو ان امرءاً عادياً نظر في هذا القرار الذي اصدره ذلك القاضي المتبحر فقد يعترض عليه ولكن اذا تعمق المرء المسألة حتى جذورها وجد ان المبدأين الكبيرين اللذين جعلا مادتين في شريعة التحويت ، وسبق ايرادهما ، وهما اللذان طبقها وبينها اللورد النبره في القضية المذكورة اعلاه ، اقول هذان القانونان اللذان يتعلقان بالسمكة الموثقة والسمكة المخـــلاّة اذا تدبرهما المرء وجدهما اساسين في كل التشريعات الانسانية ، اذ ان هيكل التشريع ، على تعقيد الزخارف في مبناه ، يشبه هيكل الفلسطينيين في انه لا يقوم الا على دعامتين اثنتين .

أليس معنى هذا اننا نقول بكل لسان : التملك نصف القانون بغض النظر كيف حدث التملك ؟ ولكن كثيراً ما يكون التملك هو القانون كله . ما هي اعصاب الأرقاء الروسيين والعبيد الجمهوريين ، وارواحهم ، سوى ان تعدّ سمكة موثقة ، والتملك فيها هو كل القانون ؟ وأي شيء هي تلك البناية الرخامية المعلمة على بابها بصفحة معدنية تحمل اسم الأفقيّ الذي يملكها دون ان يطاله قانون ، أليست هي سمكة موثقـــة ؟ وما هي تلك الفائدة الهدّامة التي يتقاضاها « مردخاي » السمسار من « تعيس افندي » المفلس على قرض يريد به تعيس افندي ان ينقذ عائلته من الموت جوعاً ، اي شيء هي تلك الفائدة الهدامة الا ان تكون سمكة موثقة ؟ وما هو دخل رئيس اساقفة « خلاص النفوس » البالغ

مائة الف دولار الذي يبتزه من الخبز العزيز والجبنة النادرة مما يتغذى به مئات الالوف من العمال المهيضي الاجنحة (وكلهم واثق من بلوغ السماء دون عون من «خلاص النفوس») ما هي تلك المائة الألف المكوّرة الا ان تكون سمكة موثقة ؟ والمدن والقرى التي ورثها دوق دندر أليست هي سمكة موثقة ؟ وماذا يرى ذلك الحوات المشهور ، جون بل[1] ، في ارلندة ، سوى ان تكون سمكة موثقة ؟ وأي شيء هي تكساس لدى ذلك الحرّاب الرسولي، الاخ يوناثان[2] ، الا انها سمكة موثقة ؟ أليس التملك فيما يتعلق بهؤلاء جميعاً هو القانون كله ؟

واذا كان مبدأ السمكة الموثقة ينطبق على هذا النحو ، فان صنوه مبدأ السمكة المخلاّة اكثر انطباقاً اعني انه ينطبق انطباقاً عاماً شاملاً .

هل كانت امريكا عام ١٤٩٢ الا سمكة مخلاّة غرز فيها كولمبوس العلم الاسباني ليعلمها ويحتازها من اجل سيده وسيدته ؟ وماذا كانت بولندة لدى القيصر ؟ ويونان لدى تركيا ، والهند عند انجلترا ؟ وماذا تكون مكسيكو في النهاية لدى الولايات المتحدة ؟ كل هذه اسماك مخلاّة .

وهل حقوق الانسان وحريات العالم الا سمكة مخلاّة ؟ وهل عقول الناس جميعاً وآراؤهم الا سمكة مخلاّة ؟ واي شيء هو مبدأ الايمان الديني فيهم الا ان يكون سمكة مخلاّة ؟ وما هي افكار المفكرين في نظر ذوي الشقشقة اللاغية الخادعين، أليست هي سمكة مخلاّة ؟ والكرة الارضية العظمى نفسها أليست سمكة مخلاّة . وانت ايها القارىء، هل انت الا سمكة مخلاّة وسمكة موثقة ايضاً[3] ؟

---

١ اسم يطلق على انجلترا .

٢ اسم يطلق على الولايات المتحدة . وقد ضمت تكساس الى الاتحاد عام ١٨٤٥ .

٣ لو طبقنا هذا على آخاب واسماعيل، لكان آخاب سمكة موثقة قد غرس الكون فيه حربة وأعلمه، ولكان اسماعيل سمكة مخلاّة .

٩٠ رءوس أو أذناب

«De balena vero sufficit, si rex habeat caput, et regina caudam»
Bracton I. 3. c. 3

الجملة اللاتينية المقتبسة من كتب القوانين الانجليزية اذا أخذت في قرائنها تعني ان البلينة (الحيتان) التي يصطادها اي صياد على ساحل تلك البلاد ، لا بد ان يكون الرأس منها للملك الحوات الاعظم ، ورئيس الشرف للحواتين ، أما الملكة فيقدم لها الذنب في احترام . وهي قسمة في الحوت تشبه قسمة التفاحة في نصفين ، لا تبقي على شيء بعد ذلك . وبما ان هذا القانون ، في صورة معدلة، لا يزال ساري المفعول بانجلترا حتى اليوم ، وبما أنه يمثـــل من جوانب مختلفة شذوذاً غريباً على القانون العام المتصل بالسمكة الموثقة والخلاة ، فاني أرى ان أتصدى له في هذا المقام في فصـــل مستقل على نفس المبدأ الرقيق الذي يدفع السكك الحديدية الانجليزية لان تكون على حساب عربة منفصلة ، تجعل خصيصاً للعائلة المالكة . وكي أبرهن – وان كان برهاناً غريباً – على ان القانون المذكور ما يزال ساري المفعول أتقدم في المقام الاول لأضع بين أيديكم حادثة جرت خلال السنتين الاخيرتين :

يبدو ان بعض البحارة الشرفاء من دوفر او ساندوتش او لعلهم من سانك بور (الموانى الخمسة) وفقوا بعد مطاردة قاسية الى قتل حوت لطيف وجرّه الى الشاطىء بعد ان رأوه عن بعد وهم على البرّ . والموانى الخمسة تعد جزئياً او على نحو ما تحت حكم رجل شرطة او « قوّاص » اسمه لورد واردن . وبما أنه يتسلم

منصبه من التاج مباشرة ، فيما أعتقد ، فان جميع الارباح التي تدرّها مقاطعات الموانئ الخمسة تصبح له بموجب التنازل . وهذه وظيفـــة يسميها بعض الكتاب « السنقور » – وظيفة بمرتب دون عمل مكافىء – ولكنها ليست كذلك لان لورد واردن ينشغل منهمكاً أحياناً في الاحتيال على احتياز العوائد والاجور التي هي له بحكم احتياله على احتيازها .

هؤلاء الملاحون المساكين الحفاة الذين لوحتهم الشمس ، وشمروا سراويلهم فوق سيقانهم النحيلة التي تشبه سمك الانكليس ، جرّوا السمكة السمينة حتى طرحوها على البر ، وقد رجوا لانفسهم مبلغ ١٥٠ جنيهاً من زيتها وعظمها ، وأخذوا وهم سابحون في خيالاتهم يحتسون الشاي العزيز مع زوجاتهم ، والجعة الطيبة مع ندمائهم ، بقوة ما يخص كلاً منهم من نصيب ، وعندئذ تقدم منهم سيد عالم مسيحي ممعن، وله في الاحسان قدم، يحمل تحت إبطه نسخة من قوانين بلاكستون ووضعها على رأس الحوت وقال : « كفوا عنه ايديكم ! هذا الحوت يا سادتي حوت موثق ، وأنا أحوزه باسم لورد واردن » . وعلى الاثر أخذ كل واحد من هؤلاء البحارة المساكين وهم في حيرة مشوبة باحترام – فهم يمثلون الخلـــق الانجليزي الاصيل – يحك رأسه بشدة دون ان يعرف ما يقول ، وينقل نظره في الوقت نفسه كئيباً بين الحوت والرجل الغريب . ولكن هـــذا كله لم يحسّن الوضع بحال ولا رقّق القلب القاسي بين أضلاع ذلك العالم الغريب الذي يحمـل نسخة من تشريعات بلاكستون ؛ وبعد هنيهة تجرأ أحدهم على الكلام بعد ان حك رأسه طويلاً مستثيراً أفكاره :

– عفواً سيدي من هو اللورد واردن ؟

– هو الدوق .

– ولكن الدوق لا شأن له بأخذ هذه السمكة .

– انها له .

-- لقد تحملنا التعب الكبير والخطر والكلفة ، فهل يذهب هذا كله لمنفعة الدوق ولا نتقاضى شيئاً لقاء الألم والتعب الا الدمامل والقروح ؟

ـــ انها له .

ـــ هل الدوق من الفقر بحيث يضطر الى هذه الطريقة المستيئسة للحصول على الكفاف ؟

ـــ انها له .

ـــ لقد كنت أرجو ان أنقذ أمي التي طال بها العهد وهي طريحة الفراش بما أناله من حصة في هذا الحوت .

ـــ انها له .

ـــ ألا يقنع الدوق بربعها او بنصفها ؟

ـــ انها له .

بايجاز أخذ الحوت وبيع وتسلّم النقود « جناب » دوق ولنجتون . وسمع بالقصة قسيس شريف بالمدينة فظن انه اذا نظر اليها تحت أضواء معينة فانها قد تبدو قضية تعسة تحت تلك الظروف، ولو الى حد قليل ، فرفع باحترام خطاباً الى جناب الدوق يرجوه ان يولي قضية البحارين التعساء شيئاً من نظر ، فأجاب الدوق بما معناه (وكلتا الرسالتين نشرتا على الناس) انه قد فعل ما فعل ، وتسلم المال ، وهو يكون ممتناً للقسيس المبجل لو انه في المستقبل كفّ (اي القسيس المبجل) عن التدخل في شئون الآخرين . أهـــذا هو العسكري العجوز الذي يقف عند زوايا الممالك الثلاث يبتز الصدقات من الشحاذين في كل وجه ؟

لا بد ان يدرك القارىء ان الحق المزعوم للدوق في هذه القضية انمـــا هو مستمد من حق الملك نفسه ، وعلينا ان نبحث بأي مبدأ منح الملك في الاصل

ذلك الحق . اما القانون فقد قدّمنا ذكره ، واما السبب فيه فقد قدمه بلودون حين قال : « الحوت المصيد حق للملك والملكة » ، لامتيازه وتفوقه في الجودة، ويرى أعمق الشرّاح ان هذا التفسير كان هو الحجة المعتمدة في مثـــل هذه الشئون .

ولكن لم يختص الملك بالرأس والملكة بالذنب ؟ هاتوا سبباً لذلك يا حضرات المشرعين !

هنالك مؤلف اسمه وليم برين ، وهو أحد المؤلفين في شئون القضاء الملكي ، كتب مقالاً في مال الملكة وفي حق النفقة للملكة ، وكان مما قاله : « الذنب من نصيب الملكة حتى تمتلىء خزانتها بعظم الحوت » . هذا شيء كتب يوم كان العظم الاسود اللون في الحوت الاثين — او حوت جرينلاند — يتخذ كثيراً في صدارات السيدات . ولكن هذا العظم نفسه لا يوجد في الذنب وانما في الرأس وهو خطأ مؤسف لقانوني حكيم مثل برين . لكن هل الملكة حورية بحر يا ترى حتى تزوّد بذنب ؟ قد يكمن في هذا كله معنى رمزي .

هناك سمكتان يسميها كتّاب القانون الانجليز سمكتين ملكيتين وهما : الحوت والحفش ، وكلتاهما من الاملاك الملكية في ظروف معينة ، وهما اسمياً يعدان دخــل التاج العادي بالعشر العاشر ، ولا أعرف اي مؤلف آخر ألمح الى هذه المسألة ، ولكن يبدو لي استنتاجاً ان سمكة الحفش يجب ان تقسم كما يقسم الحوت ، فيأخذ الملك رأسها وهو شديد الكثافة مرن ، واذا اتخذنا ذلك رمزاً فقد نزعم من زاوية فكهة ان هناك تشابهاً وتناظراً بين الرأسين ، وهكذا يبدو ان لكل شيء سبباً حتى في القانون .

٩١ الباقوطة تلتقي ببرعم الوردة

«كان من العبث ان نفتش عن العنبر في كرش ذلك الحوت،
وان كان النتن الخانق لا يحول دون التفتيش» ١ .
السير ت. براون .V. E

مضى اسبوع او اثنان على آخر منظر وصفته من مناظر التحويت وكنا نبحر في بطء فـــوق بحر هامد كثير البخار في منتصف النهار، حتى برهنت الانوف الكثيرة فوق ظهر الباقوطة على ان قدرتها على اليقظة والاستكشاف اكبر من قدرة العيون الست في الاعالي فقد شممنا في البحر رائحة متميزة غير ممتعة كثيراً .

فقال اسطب : « اراهن الآن ان من حولنا في مكان ما بعض الحيتان التي اصبناها امس بالدرق، وقد كنت اقدر انها ستنقلب قبل مضي وقت طويل » .

وفي الحال انقشعت الابخرة من امامنا الى جانب، ورأينا على بعدٍ سفينةً دلـّتْ اشرعتها المنشورة على انها قد أجنبتْ اليها حوتاً. واذ اقتربنا منها منسابين رأينا في قمتها علماً فرنسياً، واتضح لنا من عصائب طيور البحر الرخمية المدومة كأنها سحب، الملتفـّة المرنقة المنقضة من فوق الحوت المجنب، ان ذلك الحوت لا بد من ان يكون ما يسميه الصيادون « الحوت المنفجر »، اي الحوت الذي مات في البحر دون ان يصيبه اذى وعام جثة مشاعاً فوق الماء . وقد يدرك المرء اية

---

١ اخطأ ملفل هنا فادرج في هذه الاقتباسة كلمة « لا » .

رائحة كريهة كانت تفح بها تلك الكتلة ، لعلها اسوأ من رائحة مدينة آشورية في ايام الطاعون حين يعجز الاحياء فيها عن دفن الموتى . وبعض الناس يرونها في الحق شيئاً لا يطاق حتى انه ليست ثمة شهوة تغريهم بان يرسوا سفينتهم الى جانبها، غير ان هناك من يرضون بذلك على الرغم من ان الزيت الذي يؤخذ من مثلها من صنف حقير القيمة ولا علاقة له ابداً بعطر الورد في طبيعته .

وعندما اقتربنا منها على هبات النسيم المتلاشي رأينا تلك الحواتة الفرنسية قد أجنبت اليها حوتاً ثانياً، وبدا لنا ان هذا الثاني اشد نتناً من الاول، بل تجلى لنا في الحقيقة انه نوع من تلك الحيتان التي تستثير الريبة اذ يبدو انها تجف وتموت بسبب نوع مهول من سوء الهضم او عسره، فتظل اجسامها الميتة مفلسة تماماً او تكاد من اية قطرة زيت، ومع ذلك فسوف نعرف في موضع ملائم من هذا الكتاب كيف ان الصياد العارف لن يشيح بوجهه عن مثل هذا الحوت، مهما يتجنب الحيتان المنفجرة بعامة .

وقد كاثبت الباقوطة تلك السفينة الغريبة الى حد ان اسطب اقسم انه تعرف الى عصا مجرفته القاطعة مشتبكة في حبال كانت معقودة حول ذنب احد هذين الحوتين .

وضحك في تماجن وهو يقف في مقدم السفينة وقال : « ها ان فتى ظريفاً يعرض لكم، ذلك ثعلب ماكر ! انا اعلم حق العلم ان هؤلاء «الضفادع» الذين نسميهم الفرنسيين قليلو الدربة في شئون الصيد ، احياناً ينزلون قواربهم وراء الموجات الكبيرة ظناً منهم انها نفاثات حيتان العنبر، نعم واحياناً يبحرون من مينائهم وعنبر سفينتهم مليء بصناديق من شمع الشحم وحقائب من مقاريض الذبالة اذ يتكهنون بان الزيت الذي يحصلون عليه لن يكفي ليغطي الذبالة التي يستعملها القبطان . اجل نحن جميعاً نعرف هذه الامور، ولكن انظروا ها هنا « ضفدع»

بائس قد قنع بما خلفناه اعني الحوت الذي ضربناه بالدرق، نعم وهو قانع بان يقشر العظـــام الجافة من تلك السمكة الثمينة التي حصل عليها هنالك . يا للمسكين البائس، اقول ليأتِ احدكم بقبعته ويمرها علينا ونقدم له فيها هدية من زيت قليل على سبيل الاحسان، اذ ان اي زيت سيحصل عليه من ذلك الحوت المضروب بالدرق لن يصلح للوقود في سجن، لا ولا في زنزانة امرىء محكوم بالاعدام ، فأما الحوت الآخر فأنا ارى انني احصل على كمية من الزيت اكثر من التي يحصل عليها هو من تلك الرزمة من العظام اذا انا قطعت هذه الصواري الثلاثة من سفينتنا وعصرت ما فيها من زيت . ويخطر لي الآن انه قد يحوي شيئاً اثمن من الزيت بكثير، أعني العنبر، ترى هل فكر صاحبنا الشيخ في هذا ؟ ذلك امر يستحق التجربة، اجل ، انا لها » . وما ان اكمل حديثه حتى توجه نحو الربعة خلف الدقل الاعظم .

في هذا الوقت كان الهواء الفاتر الضعيف قد استحال الى سكون تام، حتى ان الباقوطة شاءت ام ابت وقعت ضمن ربقة الرائحة المنتنة ، ولم يكن لها من امـــل في النجاة منها الا اذا انتعش هبوب النسيم . فخرج اسطب من القمرة ونادى ملاحي قاربه وجذفوا متجهين نحو السفينة الغريبة ؛ واذ كان يعترض مقدمتها لحـــظ ان الجزء العلوي من رأس مقدمها (حسب ما يمليه الذوق الفرنسي الذي يحب البهرجة) محفورٌ على شكل سويقة ، ضخمة منكسة الرأس، مدهونة باللون الاخضر وتحمل في موضع الشوك ابراً من نحاس قد نتأت منها هنا وهناك، وتنتهي جميعاً ببصيلة منتظمة مطبقة ذات لون احمر لامع ، وعلى اللافتة القائمة عند رأسها قرأ بحروف كبيرة مذهبة « زرّ الورد » او برعم الورد، وقد كان هذا اسماً رومنطيقياً لتلك السفينة العطرة .

ومع ان اسطب لم يفهم الكلمة الفرنسية التي تعني « زرّ » في ذلك النقش فان كلمة « ورد » وصورة البرعم البصيلي في رأسها ، حين وضعها جنباً الى جنب ، وضحا له كل شيء توضيحاً كافياً .

فصاح وهو يزم انفه بيده : « برعم ورد خشبي، أليس كذلك ؟ هذا احسن ولكن اية رائحة تنبعث من هذه الوردة ! ! »

ومن اجل ان يقيم اتصالاً مباشراً بينه وبين الناس على ظهر تلك السفينة كان عليه ان يجذّف حول صدر السفينة الى الجهة اليمنى منها، وبذلك يقترب من الحوت المنفجر ويرسل الحديث من فوقه .

وحين بلغ هذا الموقع واحدى يديه ما تزال على انفه جأر قائلاً : « انتم يا زر الورد ! أفيكم يا زر الورد احد يتكلم الانجليزية ؟ »

— «نعم» أجابه من حافة السفينة رجل من اهالي جزر بحر المانش، واستبان من بعد انه رأس الضباط .

— اذن فيا برعم زر الورد، هل رأيتم الحوت الابيض ؟

— اي حوت ؟

— الحوت الابيض، حوت عنبر، موبي ديك، هل رأيتموه ؟

— لم نسمع بمثل هذا الحوت ابداً، القشلوط الابيض ! الحوت الابيض، كلا .

— حسناً، وداعاً الآن، وسأعود اليكم ثانية بعد قليل .

ثم جذف مسرعاً نحو الباقوطة ورأى آخاب منحنياً فـــوق افريز الربعة خلف الدقل منتظراً جوابه، فاتخذ من يديه بوقاً وصاح «كلا يا سيدي، كلا ! » وعلى الاثر انسحب آخاب وعاد اسطب الى السفينة الفرنسية .

وحينئذ لحظ ان ذلك الرجل المانشي الذي كان قد تغلغل بين السلاسل واخذ يستعمل المجرفة القاطعة قد وضع انفه في ما يشبه الكيس .

فقال له اسطب : « ما بال انفك ؟ هل هشمته ؟ » فأجابه الرجل المانشي الذي لم يكن يستسيغ كثيراً المهمة الموكولة اليه قائلا : « لتمنيت انه كان مهشماً او انه لم يكن لي انف ابداً ! ولكن ما بالك تمسك انفك انت ؟ »

— « آه، لا شيء، انه انف من شمع ولا بد لي ان اضع عليه يدي لئلا يسقط. يوم جميل ، أليس كذلك ؟ اقول ان الهواء كأنه مرّ على روضة حَزْن، ألقِ الينا ضميمة من الزهر بحقك يا زرّ الورد » .

فاستبد بالمانشي غضب مفاجىء وجأر قائلاً : « بحق الشيطان ماذا تريد منا ؟ »

— « آه رُوقْ رُوقْ، نعم، هذه هي الكلمة، لم لا تكدس هذين الحوتين في الثلج وانت تعمل فيهما . دعنا من المزاح . هل تعلم يا برعم الورد ان من العبث ان تجرب الحصول على شيء من زيت من مثل هذين الحوتين ؟ اما ذلك الذي جفّ وتقدّد فليس في جثته كلها ملء محجم من زيت » .

— « أعرف ذلك جيداً ولكن من لي بالقبطان فانه لا يصدق ذلك ؛ هذه أولى سفراته وكان من قبلها يصنع عطر الكولونيا ، لكن اصعد الينا وواجهه فلعله يصدقك ان لم يصدقني، وبذلك تخلصني من هذا السمج القذر » .

— « في خدمتك بكل معروف يرضيك يا صديقي العذب الظريف » ذلك ما قاله اسطب وصعد على الأثر الى ظهر السفينة وهناك عرض مشهد غريب . فقد كان البحارة يلبسون قبعات مزخرفة بخيوط صوف حمراء على شكل خصل مزهرة ، وهم يأخذون المرافع استعداداً لرفع الحوتين الا انهم كانوا يعملون في بطء ويتكلمون في عجلة ومهما قلت فيهم لم تعدم ان تراهم منحرفي المزاج ، قد

صعّدوا انوفهم جميعاً من وجوههم الى اعلى كأنها صواري البوم وبين الحين والحين يكف كل اثنين منهم معاً عن العمل ويجريان نحو قمة الصاري لينتشقا الهواء الطلق ، وبعضهم يظنون انهم سيصابون بالطاعون، فهم يغمسون الدّسر في قار الفحم ويرفعونها عند خياشيمهم بين فترة واخرى . وآخرون قد كسروا اعواد غلايينهم وجعلوها قصيرة جداً لا تتعدى احواض الغلايين الا ما يطبق عليه الفم وجعلوا ينفخون دخان التبغ بقوة حتى يظل يملأ انوفهم على الدوام .

انصب على رأس اسطب سيل من الصيحات واللعنات صادرة من غرفة القبطان عند الكوثلة ، فتطلع في تلك الوجهة فرأى وجهاً محتقناً بالغضب يطل من خلف الباب وكان موارب الفتحة من داخل ؛ ذلك هو الجراح المعذب الذي احتج على تلك الاجراءات في ذلك اليـــوم ، وعبثاً ما فعل، فانزوى في غرفة القبطان (وهو يسميها الكابينه cabinet) لكي يتجنب الوبأ الا انه لم يكف عن ان يجهر بتوسلاته وتسخطاته احياناً .

واذ رأى اسطب ذلك كله دبّر خطته في احكام، والتفت الى المانشي وحادثه قليلاً، وفي اثناء الحديث كشف الضابط الغريب عن مقته لقبطانه، ونعته بأنه جاهل مغرور ، جرّهم جميعاً في تلك الحمأة الردغة المنتنة التي لن تجدي عليهم شيئاً، وسبر اسطب غوره بعناية فادرك ان هذا المانشي ليست لديه ادنى خاطرة عن شيء اسمه العنبر فطوى كل شيء عن هذا الموضوع في صدره، اما فيما عـــدا ذلك فكان صريحاً معه يبادله الثقة التامة ، حتى دبّر الاثنان في سرعة خطة صغيرة لكي يخدعا القبطان ويعبثا به في آن معّا دون ان يعنّ له ابداً ان يتشكك في اخلاصهما . وتقضي هـــذه الخطة الصغيرة ان يقف المانشي فيقول للقبطان — تحت ستار الترجمة لما يقوله اسطب — كل ما يبغي ان يقوله على انه كلام اسطب نفسه، واما اسطب فينطق بأي هذر يسبق الى طرف لسانه خلال تلك المقابلة .

حينئذ برز ضحيتهما المرتقب من قمرته، فاذا به رجل اسمر قميء الا انه سمح التقاطيع اذا قسته الى قباطنة البحر، وله سبلة كبيرة وشاربان ويلبس رداء مخمليًا احمر قطنيًا وعلى جنبه أختام تتدلى من سلسلة ساعته . فقام المانشي بتعريف اسطب الى هـذا السيد في جوّ مهذب، واتخذ المانشي صورة المترجم بينهما ظاهريًا وقال : « ماذا اقول له ؟ »

فقال اسطب وهو يحدج الرداء المخملي والساعة والاختام : « لك ان تبدأ القول بان تخبره ان منظره يبدو لي منظر طفل وان كنت لا ادعي اني اصلح حكمًا » .

فقال المانشي بالفرنسية وهو يحول نظره نحو قبطانه : « يقول لك انـــه بالامس فقط تحدثت سفينته الى سفينة مات قبطانها ورأس ضباطها وستة من ملاحيها بسبب حمى علقت بهم من حوت منفجر أجنبوه الى سفينتهم » .

فأجفل القبطان لدى سماعه ذلك واستبد به التلهف لمعرفة المزيد . فقال المانشي لاسطب : « ثم ماذا ؟ »

– « ما دام يستسهل المسألة فأخبره انني حدقت فيه البصر باهتمام واصبحت واثقاً انـــه لا يصلح لقيادة سفينة باكثر مما يصلح لذلك قرد من سنتياغو . بل الحقّ اخبره على لساني انه قرد من نوع البابون » .

– « انه ليحلف غير آلٍ ايها السيد ان الحوت الثاني اي الذي جف وتقدد اخطر كثيراً من المنفجر ، وباختصار انه – ايها السيد – ليستحلفنا اذا كان لحياتنا من قيمة لدينا ان نسيّب ذلك الحوت » .

وعلى التوّ جرى القبطان الى الامام وأمر ملاحيه بصوت جهير ان يتوقفوا عن رفع المرافع وان يرخوا الحبال والسلاسل التي تربط الحوتين الى السفينة .

وعندما عاد القبطان اليهما قال الرجل المانشي : «ثم ماذا ؟ »

— « دعني ارى؛ اجل، تستطيع ان تقول له الآن انني ، في الواقع ، اخبره انني قد ضحكت عليه وانني (منتحياً جانباً متحدثاً لنفسه) ربما ضحكت ايضاً على شخص آخر » .

— « يقول يا سيدي انه ليحس بالسعادة اذ استطاع ان يؤدي لنا معروفاً» .

فلما سمع القبطان ذلك أقسم انهما هما الممتنان الشاكران (يعني نفسه والضابط) وانهى كلامه بدعوة اسطب الى قمرته ليشرب زجاجة من نبيذ بوردو .

قال المترجم : « يريدك ان تشرب معه زجاجة نبيذ » .

— « ابلغه شكري القلبي ولكن قل له انه ليس من مبدأي ان انادم رجلاً خدعته وضحكت عليه، قل له في الواقع انني لا بد ان انصرف » .

— « يقول يا سيدي ان مبادئه لا تسمح له بأن يشرب، ولكن ان كان لا بد لسيدي ان يعيش يوماً آخر ليشرب فيه فمن الخير له ان ينزل القوارب الاربعة لتسحب السفينة بعيداً عن هذين الحوتين ، لانهما لن يبتعدا بسبب سكون الهواء » .

في هذا الوقت كان اسطب قد اصبح فوق جانب السفينة ونزل في قاربه، ونادى الرجل المانشي يقول له — بما ان لديه حبلَ جرٍّ طويلاً في قاربه فانه

سيبذل ما في وسعه لمساعدتهم بجرّ اخفّ الحوتين من جانب السفينة ، وبينا انهمكت القوارب الفرنسية في سحب السفينة بعيداً في وجه، كان اسطب بكرمِ نفسٍ يجر الحوت في وجه آخر، وقد تظاهر بانه يرخي حبلاً طويلاً مفرط الطول .

وسرعان ما انبعث النسيم، وتظاهر اسطب بأنه قد نأى عن الحوت، ورفعت القوارب الفرنسية الى السفينة فازدادت بعداً، بينا انسابت الباقوطة بين السفينة الفرنسية وقارب اسطب؛ وعلى الاثر جدف اسطب بسرعة متجهاً نحو الجثة العائمة ونادى الباقوطة لينبئها بما انتواه، وابتدأ تواً يحصد ثمرة مكره الملتوي . فأمسك بجرفة قاربه الحادة وابتدأ التنقيب في الجثة في مكان يقع خلف الزعنفة الجانبية قليلاً، ولو رأيته لكدت تتصوره يحفر مخدعاً هنالك في الماء؛ وعندما امضى وقتاً وهو يضرب بجرفته على الاضلاع الضامرة كان كمن يستلّ بلاطاً وخزفاً رومانياً قديماً مدفوناً في طَفَلٍ انجليزي كثيف . وقد كان ملاحو قاربه في هياج شديد يعينون رئيسهم باحتدام ورغبة، ويبدو عليهم القلق والترقب كأنهم باحثون عن الذهب .

وطوال ذلك كله كانت طيور لا تحصى تخوت وتنفض وتصرخ وتزعق وتتقاتل من حولهم، واخذت خيبة الامل تبدو على ملامح اسطب وبخاصة حين ازداد سطوع النتن الفظيع، ولكن فجأة من جوف هذا الطاعون الوبيء انسلّ جدول دقيق من العطر جرى خلال مدّ الروائح الكريهة دون ان يختلط بها مثلما ان نهراً يجري في آخر ويحاذيه ويمضي وقتٌ قبل ان يتمازج النهران ويتلاشى احدهما في الآخر .

فصاح اسطب في سرور وهو يتحسس شيئاً في المناطق الداخلية : « وجدته، وجدته، هميان ! هميان ! »

وألقى مجرفته ودس في الداخل كلتا يديه فعادتا بحفنتين من شيء يبدو منتفخاً كأنه صابون وندسور المكتنز او جبنة قديمة دسمة رقشاء ، اذا اطلعت عليه رأيته دهني القوام طيب الشذا، وقد يثوخ فيه ابهامك في يسر ولونه بين الصفرة ودكنة الرماد . هذا ايها الرفاق الطيبون هو العنبر، وكل أوقية منه تسوى لدى اي صيدلي جنيهاً ذهبياً . وقد استخلص اسطب منه حوالي ست حفنات الا ان ما فقد منه في البحر – دون اهمال – كان اكثر، وكان من الممكن الحصول على ما هو اكثر من ذلك لولا أوامر آخاب الجهورية الجازعة الى اسطب بأن يكف ويعود الى ظهر السفينة وإلا قالت لهم السفينة : وداعاً .

٩٢ العنبر الرمادي

هذا العنبر مادة غريبة بالغة الغرابة الا انها سلعة هامة في التجارة حتى ان قبطاناً من اسرة « التابوتيين » في نانتوكت جرى استجوابه حولها عام ١٧٩١ في قفص الاتهام بمجلس العموم البريطاني. ذلك ان الاصل الصحيح للعنبر الرمادي كان في ذلك الحين وظل الى تاريخ متأخر نسبياً ، مشكلة لدى العلماء ، مثل العنبر نفسه ، والكلمة الدالة عليه هي ambergris وهي مركبة من كلمتين amber بمعنى العنبر ، و gris كلمة فرنسية تعني الرماديّ . فالعنبر بعامة قد يوجد احياناً على ساحل البحر ، وقد يستخرج من الارض في البر ، اما العنبر الرمادي فلا يوجد الا في البحر ، ثم ان العنبر بعامة مادة صلبة شفافة هشة لا رائحة لها تتخذ منها انابيب الغلايين وانواع من الخرز والزينة ، واما العنبر الرمادي فانه ناعم شمعي ذو رائحة نفاذة وشذا طيب حتى انه يستعمل على الاكثر في العطور وكرات البخور والشموع الثمينة والمساحيق والادهنة المستعملة للشعر. ويستعمله الاتراك في الطبخ ويأخذونه معهم ايضاً الى مكة لنفس الغاية التي يحمل المسيحيون من اجلها البخور الى كنيسة القديس بطرس في روما ، وبعض تجار النبيذ يضعون منه في النبيذ حبات يسيرات لتطيب رائحته .

من كان يظن ان السيدات الجميلات والسادة المتأنقين يتلذذون بخلاصة عطرية توجد في الاحشاء المهينة من حوت عليل ! ولكن ذلك هو واقع الامر . وبعض الناس يظنون ان العنبر هو سبب عسر الهضم في الحوت وبعضهم يظنونه نتيجة له . ومن العسير ان نقول كيف يمكن معالجة ذلك المرض ، الا اذا جرّعناه

ملء ثلاثة قوارب او اربعة من أقراص براندرث ، ثم هربنا من وجه الخطر كما يفعل العمال لدى تفجير الصخور .

وقد أنسيت ان اقول انه وجدت في هذا العنبر الرمادي اقراص صلبة مستديرة عظمية ظنها اسطب بادىء الامر أزرار سراويل بعض البحارة ، ثم تبيّن بعد ذلك أنها ليست سوى قطع من عظام السبيدج الصغير حنّطت على ذلك الوجه .

أقليل هذا ؟ أقليل ان يوجد عدم الفساد من هـذا العنبر الرمادي العطر الشاذي في صميم ذلك الفساد ؟ تفكروا في قول القديس بولس في رسالته الى أهل كورنثوس حول الفساد وعدم الفساد (١ كورنثوس : ٤٢) وكيف أننا نزرع في هوان ونقام في مجد (٤٣). وهو كذلك يذكرنا بقول براكيلسس حول ماهية الشيء الذي يستخرج منه أجود المسك[1] . كذلك لا تنسوا الحقيقة الغريبة وهي ان ماء الكولونيا بين جميع الاشياء ذات الرائحة الكريهة هو اردؤها جميعاً في مراحل صنعه الاولية .

قد كنت أرغب في ان أختم هذا الفصل بالاستشهاد المتقدم ولكني لا أستطيع نظراً لاني تواق لأنقض تهمة توجه كثيراً الى الحواتين وقد يعدها بعض أصحاب العقول القائمة على التحيز مؤيدة على نحو غير مباشر بما ذكرناه عن الحوتين اللذين كانا مجنبين الى السفينة الفرنسية . في موضع آخر من هذا الكتاب أبطلنا الطعن العياب القائل إن مهنة التحويت عمل قذر دنس في مجمله ، غير ان هناك شيئاً آخر ننقضه بالبرهان ، فالناس يلمحون الى ان جميع الحيتان دائماً كريهة الرائحة فكيف نشأت هذه الوصمة البغيضة ؟

---

١ يشير الى قوله : من البراز والروث يستخرج أجود المسك .

أرى أنها تعود بصراحة الى أول مرة وصلت فيها سفن التحويت من جرينلاند الى لندن قبل ما يزيد على قرنين . ذلك ان هؤلاء الحواتين لم يكونوا يستخرجون الزيت — ولا هم يستخرجونه حتى اليوم — وهم في عرض البحر ، كما تفعل السفن في البحار الجنوبية دائماً ، وانما هم يقطعون الشحم الطازج في قطع صغيرة ويدسونه من خلال ثقوب مقدّمة في براميل كبيرة ويحملونه الى الوطن على هذه الحـــال . لان قصر الموسم في تلك البحار الجليدية وتعرض الحواتين لهبوب العواصف العنيفة فجأة يحول دون ايثار طريقة اخرى . وتكون النتيجة ان الملاحين اذا دخلوا المستودع وأنزلوا واحدة من تلك المقابر الحوتية في حوض جرينلاند انبعثت رائحة تشبه بعض الشيء الرائحة التي تنطلق عند حفر مقبرة قديمة لتأسيس مستشفى للولادة .

وأنا أستخلص ـ من بعض النواحي ـ ان هذه التهمة الخبيثة ضد الحواتات قد تعزى بالمثل الى وجود قرية هولندية على ساحل جرينلاند في الايام المواضي ، تدعى شميرنبرج او سميرنبرج والاسم الثاني هو الذي يستعمله العلامة فوجو فون سلاك [١] في كتابه الضخم في الروائح ، وهو كتاب معتمد في ذلك الموضوع . واسمه يوحي (اذ ان كلمة سمير تعني الشحم وبرج تعني نزع) ان هذه القرية قد أنشئت هنالك لكي تكون موقعاً صالحاً لنزع شحم الحيتان واذابتها ، ممـــا يصيده أسطول التحويت الهولندي ، دون الحاجة الى أخذها لهولنده لتحقيق تلك الغاية ، وكانت القرية مجموعة من المواقد ومراجل غلي اللحم وعنابر الزيت ، وعندما كانت الاعمال فيها تقوم على قدم وساق فانها كانت تبث في الواقع رائحة غير مريحة او ممتعة . ولكن هذا كله يختلف تماماً عن سفينة التحويت التي تصيد حوت العنبر في البحار الجنوبية فهي اذا قامت برحلة مداها أربع سنوات ،

---

١ اسم من اسماء السخرية التي أطلقها ملفل على اسكورسبي .

فانها بعد ان يطفح عنبرها بالزيت ربما لم تستنفد خمسين يوماً في شئون الغليان ، فاذا أصبح الزيت معبأ في البراميل فانه يصبح دون رائحة تقريباً . والحق ان فصيلة الحيتان ، حية كانت او ميتة ، اذا عولجت معالجة نظيفة فانها ليست من الكائنات ذوات الرائحة المستكرهة ولا الحواتون يميزون بقوة الشمّ مثلما كان أهل القرون الوسطى يميزون اليهودي من سواه في الجمهور . ولا يمكن للحوت ان يكون في الحق الا شذي الرائحة مـــا دام يتمتع بصحة جيدة ويأخذ نفسه بالرياضة الكثيرة وهو يعيش طليقاً غير حبيس في بيت ، وان كان قلما يتاح له حقاً ان يكون في الهواء الطلق ؛ وأنا أقول ان شطيرتي ذنب حوت العنبر حين تنتصبان فوق الماء ترسلان رائحة كالتي تنبعث من سيدة مضمخة بالمسك تجر ذيولها في بهو دافىء . فاذا تمثلت ضخامة الحوت فبأي شيء أشبهه من حيث شذاه العطر ؟ ألا أشبهه بذلك الفيل الشهير ذي النابين الجوهرين المضمخ بالمر الذي خرج به الهنود من احـــدى مدنهم ليستقبلوا به الاسكندر الكبير مرحبين [1] ؟

---

[1] بعد قهر بورس قدم كثير من أمراء الهند الطاعة للاسكندر ، وأهدوه عدداً من الافيال .

٩٣ طريح بين الامواج

لم يمضِ على لقائنا للحواتة الفرنسية الا بضعة أيام حين وقعت حادثة مشهّرة هامة لأقل الملاحين على الباقوطة أهمية وشهرة . حادثة مؤسفة جد مؤسفة ، انتهت الى ان تزود السفينة ، التي خط القدر لها مصيرها المحتوم والتي كانت تغدو أحياناً طياشة في مرحها وحبورها ، بنبوءة حية لا تنفك تصاحبها أنى اتجهت عن أية عاقبة محطّمة قد تكون من نصيبها .

ليس كل امرىء في الحواتة يبلغ ان ينزل في القوارب وانما يبقى بعض العاملين الذين يسمون «قوّام السفينة» ومجالهم ان يُعملوها حين تأخذ القوارب في مطاردة الحوت . وهؤلاء القوام بعامة من الاشداء كالذين تتألف منهم عصبة الملاحين في القوارب ؛ فاذا اتفق ان كان في السفينة امرؤ بالغ النحافة ، عوير رعديد ، فمن اليقيني ان يظل مثل هذا المرء مع القوّام ، وهذا هو ما حدث في الباقوطة للزنجي القميء المسمى باسم بيبين ، فاذا رخّم أصبح بيب . مسكين هو بيب ! لقد سمعتم به من قبل ، ولا بد أنكم تذكرون طنبوره في تلك الليلة الصاخبة التي كانت مشبعة بالمرح والكآبة معاً .

واذا اطلعت على ظاهر الرجلين : بيب والعجان وجدتهما «مهري رهان» أحدهما مهر سيسي أسود والآخر أبيض ، حجهان متشابهان وان اختلف اللونان ، وقد أطلقا في شوط دائري واحد . ولكن بينما كان الفتى العجان المنكود بليداً خامل الذكاء جبلة وطبعاً ، كان بيب في أعماقه ذكياً ألمعياً ـ وان

ان مسرفاً في رقة القلب ـ وألمعيته من ذلك النوع الطريف الأصيل المرح الذي تميز به قبيلته . وهي قبيلة تستمتع بجميع أيام الاجازات والاعياد استمتاعاً جميلاً طليقاً لا توازيها فيه أية قبيلة أخرى . اذ ان التقويم السنويّ لدى السود يجب ألا يكون سوى ثلاثمائة وخمسة وستين نيروزاً وذكرى حرية. ولا تبتسموا ساخرين اذا قلت ان هـــذا الأسيود كان ألمعياً ذكياً لان للسواد نفسه لمعاناً : وشاهدي على ذلك الابنوس اللامع الذي تزين به غرف الملك . غير ان بيب كان يحب الحياة وما تكفله الحياة من ضمانات مطمئنة، حتى ان العمل المرعب الذي وجد نفسه في ربقته، على نحو ما دون ان يجد لذلك تعليلاً، قد شوّه لمعانه تشويهاً مؤسفاً ؛ هذا مع أنني سأبيّن بعد قليل ان ما أخمد فيه مؤقتاً قدر له في النهاية ان يضوىء في شحوب بقوة نيران شاذة غريبة ، فاذا لمعانه يصبح، على نحو لا يصــــدق، عشرة أمثال ما كان له من لألاء طبيعي يوم كان يحيي ليالي الطرب الكثيرة على العشب الاخضر في مقاطعة تولاند من نانتوكت . وعلى المدّ المستوي النغم قد حوّل، بهأهأته المرحة، جميع الافق المستدير الى طنبور واحد تدق فيه أجراس النجوم . في وضح النهار تتألق النقطة الماسية الصافية بلألاء سليم اذا جعلتها معلقة ازاء عنق أزرق العروق . غير ان الجواهري الذكي يعرض عليك الماسة في أشد أحوالها لألاء أخّاذاً حين يضعها ازاء جسم معتم ثم يسلط عليها ضوءاً من الغازات الصناعية لا ضوءاً من أشعة الشمس، ثم ينبعث ذلك الاشراق الناري المتوهج ، الرائع على انه ابن الارض ، ثم تبدو الماسة التي تشع اشعاعاً شطانياً وكأنها جوهرة تاج سرقت من أحد ملوك الجحيم بعد أن كانت أقدس رمز للسماوات البلورية . ولكن لنعد الى سياق القصة .

واتفق ان المجذف في المؤخرة من قارب اسطب في حادث استخلاص العنبر الرمادي أوهى يده ، وعجز عن العمل ، فعهد الى بيب ان يخـــلفه مؤقتاً في القارب .

وأبدى بيب أول مرة نزل فيها في القارب بصحبة اسطب كثيراً من التوتر العصبي (النرفزة) ولكنه لحسن حظه حينئذٍ نجا من احتكاك مباشر بالحوت ، ولذا انتهى دون ان يعلق به خزي كبير ، وان كان اسطب اهتم من بعد وقد لحظ حاله بان يشجعه كي يستثير شجاعته الى أقصاها اذ قد يجد نفسه بحاجة اليها .

وعند انزال القوارب كرة أخرى ، جذف الملاحون به نحو الحوت فلما تلقى هذا الحديدة المزروقة ردّ عليها باللطمة المعهودة منه واتفق ان وقعت تماماً حينئذٍ تحت مقعد بيب المسكين . فجعله الفزع اللاارادي في تلك اللحظة يقفز من القارب والجذاف في يده وبهذه الطريقة وقع ذلك الجزء من حبل التحويت المسترخي فوق صدره إذ جرّه على صدره وهو يهوي ، فاذا هو محتبل به حين ذهب يغوص في الماء . في تلك اللحظة أخذ الحوت المصاب يجري بشدة ، وأخذ الحبل يشتد مستقيماً بسرعة . وعلى التو جاء بيب التعس مكللاً بالزبد عند معقفات القارب الخطافية وقد جره الحبل الى هنالك دون شفقة بعد ان لفّ عدة لفات حول صدره وعنقه .

كان طاشطيقو يقف في مقدمة القارب ، وكانت تملأ صدره حرارة الصيد ، وكان يمقت بيب اذ يرى فيه رعديداً جباناً ، ولكنه استل مدية القارب من غمدها وسدّد شفرتها فوق الحبل والتفت الى اسطب وصاح متسائلاً : « أقطع ؟» بينما كان وجه بيب المزرقّ المختنق كأنما يقول له : « اقطع بالله عليك» . كل شيء مرّ لمحاً . في أقل من نصف دقيقة حدث كل ذلك .

«لعينَ . اقطع ! » – بذلك زجر اسطب ، وبذلك ضاع الحوت ونجا بيب .

وما ان عاد الزنجي القميء المسكين الى وعيـــه حتى احتوشته صيحات الملاحين ولعناتهم ، وفي هدوء ترك اسطب هذه اللعنات المصبوبة على غير نظام تتبخر ، ثم تناول بيب بلعنة الرئيس للمرءوس ، على نحو واضح صريح مقيّد بتقاليد المهنة ، وان كان مشوباً بشيء من الفكاهة ، ثم قدّم اليه وقد انتهى من ذلك ما يقدمه الرفيق للرفيق من نصيحة نافعة . وخلاصة تلك النصيحة : لا تقفز من القارب يا بيب إلا – ثم كان ما ورد بعد « إلا » غير محدد شأن أعمق النصائح دائماً . حقاً ان الشعار الحق للملاّح بعامة هو « الزم القارب » ولكن في بعض الحالات يصبح : « اقفز من القارب » خيراً منه . غير أن اسطب كأنما كان يدرك في النهاية أنه ان قدم لبيب نصيحة مركزة قائمة على وحي الضمير الحساس فانه يترك له ندحة ليقفز في المستقبل ولذا فانه تخلى فجأة عن النصح وختم كلامه بأمر جازم : « الزم القارب يا بيب والا وحق الاله لا أنقذتك اذا قفزت . تذكر هذا . لسنا لنفقد الحيتان بسبب أمثالك ؛ الحوت يأتينا بثمن يبلغ ثلاثين مرة قدر ثمنك في ألباما يا بيب ! لا تنس ذلك واياك ان تقفز مرة أخرى » . ولعل اسطب كان يلمح بطريق غير مباشر الى ان المرء قد يحب أخاه الانسان ، غير ان الانسان حيوان جمّاعُ مال ، وهذا الميل فيه يعترض ما فيه من حنوّ وطيبة .

لكن المقدّر كائن ، فقد قفز بيب مرة أخرى في ظروف شبيهة بظروف الحادث الأول إلا ان الحبل لم يصدّره في الثاني ، ومن ثم فان الحوت أخـــذ يجري شدّاً فخلف بيب على سطح الماء كأنه حقيبة مسافر منسية . واأسفاه ! فقد كان اسطب وفياً بما قال . كان يوماً جميلاً كريماً أزرق اللون ، والبحر اللامع الصقيل هادىء منعش ممتد على انبساط دائري حتى حواشي الأفق كأنه الغشاء الداخلي لأمعاء الثور وقد مدّ الى أقصاه . وبدا رأس بيب الأبنوسي وهو يصعد ويهبط في ذلك الماء كأنه رأس من القرنفل، ولم ترتفع أية مدية حين سقط سريعاً نحو مؤخرة القارب ، وأدار له اسطب ظهره الجافي المتزمت ، أما الحوت فغدا

مهيض الجناح . وفي مدى دقائق ثلاث أصبح يفصل بين بيب واسطب ميل من محيط لا شاطىء له . ومن وسط البحر حوّل بيب المسكين رأسه الاسود الهش المعقوص نحو الشمس ، طريح موج آخر وحيداً ، وان كان أسمى الطريحين وأشدهما لمعاناً .

اذا كان الجو ساكناً كانت السباحة في المحيط الرحب سهلة على السباح الدرب ، كالركوب في عربة في الربيع على البرّ . إلا ان الشعور بالوحدة الموحشة لا يطاق ، يا لله ! من يدري كيف يكون الانطواء الذاتي الحادّ في قلب تلك الابعاد القاسية التي لا قلب لها . تأملوا البحارة حين يستحمون في هدأة الجو في رحبة البحر ، تأملوا كيف ينشبون أيديهم في سفينتهم ولا يبارحون جوانبها .

أترى اسطب خلّى ذلك الزنجي الصغير المسكين يواجه مصيره حقاً ؟ كلا ، بل انه لم يقصد ذلك على الاقل . كان على أثره قاربان وظن دون ريب أنهما سيسرعان الى بيب ويلتقطانه ، هذا مع ان تعريض المجذفين انفسهم للتهلكة بسبب من جبن او هلع أمر لا يظهره الصيادون دائماً في مثل هذه الاحوال ، ومثل هذه الاحوال تعرض على غير قلة . ويكاد الناس يجمعون في حرفة الصيد على ان من يسمى جباناً يقابل بالمقت الصارخ الذي يقابل به الجبان في الأساطيل الحربية والجيوش .

ولكن اتفق ان هذين القاربين رأيا فجأة حيتاناً قريبة من أحد الجانبين فاستدارا دون ان يريا بيب ، وأخذا يطاردان الحيتان ، وأصبح قارب اسطب عندئذ نائياً ، وكان هو وملاحوه متهممين عامدين نحو الحوت ، فبدأ أفق بيب المستدير ينداح من حوله وينبسط على نحو تاعس . وبمحض المصادفة أنقذته السفينة نفسها أخيراً . ومنذ ذلك الحين أصبح الزنجي الصغير أبله ممروراً ، او هذا هو ما قالوه فيه على الاقل . لقد ردّ البحر جسده المحدود في سخرية ،

ولكنه أغرق اللامحدود من روحه وان لم يغرقه اغراقاً تاماً . بل أوثر ان أقول انه انساق حياً الى الاعماق العجيبة حيث أشكال غريبة من العالم الاولي العاري تنساب يمنة ويسرة أمام عينيه الشاخصتين . واذا الحكمة، ذلك الانسان البحري البخيل ، قد فتحت له كنوزها المكنوزة، وبين ابعاد الخلود الجذلة التي لا قلب لها ولا تشيخ أبداً رأى بيب الحشرات المرجانية الكثيرة التي حلت فيها الألوهية ، والتي تخرج من َجلـَد الماء وتدفع الأفلاك الهائلة . رأى قدم الاله على دوّاسة الحياكة في المنسج وناجاها . ومن ثم دعاه رفاقه مجنوناً . وجنون ُ الانسان لدنيّةُ السماء . فاذا انخلع عن العقل وصل الى الكشف السماوي الذي يبدو في نظر العقل هذياناً وجنوناً ، وسواء أكان ذلك لخير او لشر فانه يشعر أنه كالإله لا يبالي ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

أما فيما تبقى فلا تعنفوا كثيراً في لوم اسطب . فمثــــل هذا أمر مألوف في حرفة الصيد ، وسوف أقص عليكم في سياق قصتي هذه ما أصابني انا من شعور بالضياع والخذلان .

٩٤ عصر الاكر الشحمية

كلّف حوت اسطب غالياً ولذلك جرّ الى جانب الباقوطة وجرت عليه عمليات التقطيع والرفع التي وصفت من قبل حسب نظام لا يختل حتى لقد تم استخراج ما في دن هيدلبرج او « دنية الحوت » .

وبينا كان بعض الرجال منهمكاً في هذه المهمة الاخيرة كان آخرون يعملون في جرّ البراميل الكبرى حالما تملأ بالزيت ، وحين يحل الوقت الملائم فان هذا الزيت يدبر بعناية قبل ان يذهب الى مصانع التصفية وهي ما سنتحدث عنه عما قليل .

كان الزيت قد برد وتكورت فيه البلورات حتى انني حين جلست امـــام حوض كبير منه (كأنه حمام قسطنطين) انا وعدد من الآخرين ، وجدته قد تجسد كُتلاً تتدحرج هنا وهناك في القسم السائل منه . وكانت مهمتنا ان نعتصر تلك الكتل حتى تصبح سائلة، مهمة عذبة دهنية ! لا عجب ان كان هذا الزيت في الايام الخوالي دهاناً للزينة اثيراً . اي منظّف ! اي مزيّن ! اي ملطّف ! اي مهدىء لذيذ ! بعد ان وضعت يديّ فيه بضع دقائق احسست اصابعي كأنها سمك الانكليس فقد بدأت تتلوّى وتتمعج .

كنت اجلس على الدكة متقاطع الرجلين في ارتياح، بعد الانهاك المرير عند الدولاب الرافع، تحت سماء ناعمة زرقاء، والسفينة تحت شراع مسترخٍ تنساب

في جلال ؛ كنت اغسل يدي بين تلك الكرات الناعمة اللطيفة من تلك الانسجة المنقّاة ، التي تحاك في خلال ساعة او تكاد ؛ كانت تتعلق تحت اصابعي وتمجّ كل خصبها كما تدفق الاعناب الناضجة خمرها ؛ كنت استنشي ذلك العطر الخالص الذي لم تشبه شائبة – حقاً وصدقاً – كأنه رائحة البنفسج في الربيع . أصدقكم القول انني عشت لحظة وكأني في حقلٍ مسكيّ ؛ نسيت كل شيء عن قسمنا المفزع الذي اقسمناه ؛ في ذلك الزيت الذي لا يحـــده تعبير غسلت من القسم المعقود يديّ وقلبي معاً ؛ لكدت أومن بالاسطورة البراقليسية القديمة التي تقول ان زيت العنبر ذو فضل فذ في تخفيف حدة الغضب ؛ حين كنت أستحم في ذلك الحمام شعرت، شعوراً سماوياً – بأني بارىء من كل نية سيئة او من كل نكد او حقد او اي شيء من ذلك .

عصراً ! عصراً ! عصراً ! طوال الصباح كله . عصرت ذلك الشحم حتى كدت أذوب فيه ؛ عصرت ذلك الشحم حتى استولى عليّ نوع فذ من الجنون، ووجدتني اعتصر – دون ان ادري – ايدي زملائي العاملين معي في الحوض، ظاناً ان ايديهم كرات لطيفة . ولـّد هذا العمل فيّ شعوراً فياضاً ودياً حبيباً متحبباً حتى انني في النهاية اصبحت اشد على ايديهم وانظر في عيونهم في حنان كأنني اقول لهم : آه يا رفاقي الاعزاء لم نظل بعد اليوم نستطعم اي صور الجفاء الاجتماعي او نتعرف الى اقل الحسد او نكد الطبع ! هيا بنا نشد على ايدي بعضنا بعضاً ، لا بل نعتصر انفسنا بعضها في بعض ، لنعتصر انفسنا جميعاً نحن الآدميين في حليب اللطف الوديع وزيته .

ليتني استطعت ان اظل اعتصر ذلك الشحم الى الابد ! اذ دلتني التجارب الكثيرة الطويلة المكرورة ان المرء في كل الاحوال يجب ان يطامن في آخر الامر من خياله الواهم الذي يزين له ان الغبطة امر ميسور ؛ او على الاقل ان ينقل هذا الخيال عنها الى مجال آخر، عليه ان لا يطلب الغبطة في شئون الفكر او الخيال

وانما يطلبها في الزوجة والقلب والفراش والمائدة والسَّرج والموقد والريف؛ ومذ ادركت ذلك كله اصبحت على استعداد لحالة الاعتصار ابداً . وفي تخيلاتي عن رؤى الليل رأيت صفاً طويلاً من الملائكة في الفردوس وفي يد كل ملك منهم جرة من زيت حوت العنبر .

* * *

يحسن بي ان أحدثكم، في معرض حديثي عن زيت حوت العنبر، عن اشياء ذات صلة وثيقة به، تعرض في اعداد حوت العنبر لاعمال الاذابة والتصفية .

يجيء اولاً ما يسمى « الردهة البيضاء » وتؤخذ من الجزء المستدق من الحوت ومن الاجزاء الاكثر سمكاً في شطيرتي ذنبه؛ وهي صلبة متينة ذات ألياف متعقدة — حزمة من العضل — ولكنها مع ذلك تحتوي بعض الزيت، وبعد ان تفصل هذه « الردهة البيضاء » عن الحوت تقطع في مستطيلات يمكن نقلها قبل ان تذهب الى المفرمة، وهذه المستطيلات تبدو كأنها قطع من رخام بركشير .

اما « حلاوة البرقوق » فهو الاسم الذي يطلقونه على نوع من المزع من لحم الحوت، تظل عالقة هنا وهناك ببطانية الشحم وكثيراً ما تشاركها دهنيتها الى حد غير قليل . وهذه « الحلاوة » شيء منعش بهيج جميل للناظر، وهي — حسبما يوحي اسمها — ذات صبغ بالغ الخصب والبقع، وقاعدتها ثلجية ذهبية مولّعة، منقطة ببقع من اعمق لون قرمزي وارجواني، انها برقوق من اليواقيت في صور من البرتقال . وقد ينهاك العقل عن اكلها فلا تكاد تملك نفسك دون ذلك، واني لاعترف اني تسللت خلف الصاري الامامي لاجرب طعمها، واذ ذقتها تصورت ان مذاقها يمكن ان يكون كمذاق شريحة لحم ملكي انتزعت من فخذ لويس السمين اذا افترضت انه قتل اول يوم بعد موسم صيد الغزلان، وان ذلك الموسم عينه كان معاصراً لقطاف جميل غير عادي من الكروم في مقاطعة شمبانيا .

وهناك مادة اخرى فريدة غاية في تفردها، تبرز خلال هذا العمل ولكنني احس بالحرج من ان اصفها وصفاً كفاء بتحديدها ؛ يسمونها « الردغية »، وهو اسم من وضع الحواتين وينطبق على طبيعة تلك المادة فهي ردغية نشاشة غروية يقصر عنها التعبير ، واكثر ما توجد في براميل الزيت بعد العصر الطويل وما يتلوه من تعبئة ، وانا اراها الاغشية الرقيقة المدهشة في رقتها، المتمزقة التي تكون في القحف، وقد تضامّت والتحمت .

«والغري» كلمة صالحة في حال الحوت الاثين ولكن يستعملها احياناً صيادو حـــوت العنبر، وهي تدل على مادة سوداء لزجة غروية تنزع عن ظهر حوت جرينلاند او الحوت الاثين ، وكثير منها يغطي قمم تلك النفوس المتدنية التي تذهب لصيد ذلك اللوياثان المهين .

ثم النتاش : وهي لفظة ليست من صميم معجم التحويت ولكن اذا استعملها الحواتون اصبحت كذلك، والنتاش لدى الحوات شريحة قصيرة ركينة من مادة ليفية تقطع من الجزء المستدق من ذنب الحوت ومعدل سمكها بوصة واحدة، اما سائرها فيكون في حجم الجزء الحديدي من الفأس، فاذا حركت حدّها على ظهر السفينة الزيتي عملت عمل المِكْشَط الجلدي الذي تحتُّ به بقايا الدهن والشحم واذا دلكت بها متلطفاً كشطت كلّ زهومةٍ عالقة ، كأنها تفعل ذلك بقوة السّحر .

ولكن خير طريقة تعلم بها جميع هذه المسائل الخفية هي ان تهبط حالاً الى غرفة الشحم وتتحدث حديثاً طويلاً الى نزلائها . لقد قلنا من قبل ان هـــذا المكان هو الموضع الذي تتسلم فيه قطع «البطانية» حين تنزع وتسلخ عن الحوت، وحين يجيء الوقت الصالح لتقطيع محتوياتها تصبح هذه الغرفة مشهد رعب لدى كل مبتدىء وبخاصة في الليل، وقد تركت على احد الجوانب فسحة يضيئها قنديل

باهت، فارغة ليحتلها العمال، وهم عادة يذهبون اثنين اثنين احدهما يحمل حربة وخطافاً والآخر يحمل مجرفة . وحربة التحويت تشبه سلاحاً للتخزين يستعملونه في الفرقاطة ويسمونه حربة ايضاً. اما الخطاف فيشبه صنارة القارب، وصاحب الخطاف يعلق خطافه بقطعة من الشحم، ويحاول ان يحول دون انزلاقها، بينا السفينة تتأرجح وتتمايل . وفي الوقت نفسه يقف صاحب المجرفة على القطعة نفسها فيجزئها عامودياً في قطع كبيرة يستطاع حملها . وهذه المجرفة حادة بقدر ما يستطيع المسنّ شحذها ويكون صاحب المجرفة حافي القدمين، وقد ينزلق الشيء الذي يقف عليه احياناً دون ان يستطيع تثبيته، فهل تستغرب كثيراً ان يقطع احد اصابع قدميه او اقدام مساعديه ؟ ان اصابع الرجلين قليلة لدى رجال غرفة الشحم المجربين .

٩٥ الطازاك [1]

لو أنك خطوت على ظهر الباقوطة في لحظة حرجة بعد صلاة الجنازة على ذلك الحوت ، ولو تمشيت حتى بلغت قريباً من الدولاب الرافع ، فأنا على مثل اليقين أنك كنت ترى ، بقسط غير قليل من الفضول ، شيئاً غريباً لغزياً بالغ الغرابة ، تراه هنالك وقد تمدد طولاً على المصارف اليمنى . ولو انـــك شهدت النافورة العجيبة في رأس الحوت الضخم ، او ضخامة فكه السفلي الذي يتحرك على غير عقب ، او المعجزة الماثلة في ذنبه المنتظم ، لم يدهشك أحد هذه الامور كما تدهشك التماحة عابرة ترى فيها ذلك المخروط الذي لا تجد له تعليلاً ، أطول من أطول رجل كنتوكي ، قطره عنـــد القاعدة يقارب القدم ، أسود حالك السواد مثل يوجو ذلك الصنم الابنوسي الذي كان يتعبد له كويكوج . والحق أنه صنم او قل كان يشبه الصنم في الايام القديمة كذلك الصنم الذي وجد في الحدائق السرية التي كانت تملكها الملكة معكة في يهوذا ، وبما انها كانت تعبده فقد خلعها ابنها آسا من الملك وقطع معبودها وأحرقه لاظهار مقته له في وادي قدرون ، حسبما قصّ علينا ذلك سفر الملوك الاول في الاصحاح الخامس عشر ، على نحو مبهم .

تأمل البحار الذي يسمونه « الفرّام » ، يأتي عامداً ومعه اثنان يساعدانه ، ويحمل « المعظـّم » كما يسميه الملاحون ، ويترنح تحته وظهره محنيّ ويمضي متثاقلاً كأنه جندي يحمل رفيقاً له سقط ميتاً في الميدان . ثم يمـــده على ربعة المنارة ويأخذ بازالة اهابه الاسود عنه على نحو أسطواني مثلما يسلخ الصياد الافريقي

---

١ Cassock وهو رداء القسيس .

جلد الحية الكبيرة . فاذا فعل ذلك قلب الجلد مثلما تقلب رجل السروال فمطّها ما امتدت حتى يجعل قطرها ضعفي ما كان ، وأخيراً يعلقها ممدودة على الحبال كي تجف، وبعيد قليل ينزلها ويزيل منها نحـــو ثلاثة أقدام من جهة الطرف المستدق ، ثم يثقب فيها شقين لدخول الذراعين في الطرف الآخر ثم ينساب فيها طولاً . وعندئذٍ يقف « الفرّام » أمامك وقد ارتدى ما تتطلبه شعائر حرفته من زيّ كهنوتي . ولا أحد من أبناء مذهبه يعرف متى اتخذ هذا الزيّ ، إلا أنـه الرداء الوحيد الذي يقيه وقاية كافية حين يذهب في اداء ما تتطلبه وظيفته من مهات .

وتشمل تلك الوظيفة فرم القطع الكبيرة من الشحم لتوضع في المراجل ، وهو عمل يقوم به « الفرام » فوق وضمٍ خشبي في شكل حصان قد غرس من آخره في هيكل السفينة ، وتحته برميل واسع تسقط فيه القطع المفرومة سريعاً كأنها صفحات تسقط عن منصة خطيب سابح في ملكوت الغيب . رجل يلبس الزيّ الاسود الوقور وقد وقف على منبر سامٍ وأكب على صفحات التوراة ، ما أجدر هذا الفرام ان يكون مرشحاً لرئاسة الاساقفة ، ما أحراه ان يكون فتى في حاشية البابا * !

* صحائف التوراة ! صحائف التوراة ! تلك هي الصيحة الراسخة التي يرسلها الضباط الى الفرام ، وهي تحثه على ان يكون شديد العناية فتجيء القطعة أرق ما تكون ، فبهذا يمكن الاسراع في غلي الشحم ، وزيادة الكمية المأخوذة منه زيادة ملحوظة وربما أعان ذلك على تحسين نوعه .

٩٦ معامل التصفية

تتميز الحواتة الامريكية تميزاً ظاهراً بما فيها من معامل تصفية فضلاً عن ان قواربها تكون مرفوعة . فهي تقدم للناظر اغرب شذوذ تقع عليه عيناه في صورة مبنى مرصوص قوي مجاور للخشب والقنب، ومنها جميعًا تتكون السفينة كاملة ؛ وكأنما نقل اليها من الحقل الفضاء أتون آجر وجُعل فوق ألواحها .

وتقع معامل التصفية بين الصاري الامامي والصاري الرئيس وهو اوسع جزء في ظهر السفينة ، والاخشاب تحتها ذات قوة متميزة صالحة لحمل ثقلٍ من كتلة صلبة من الآجر والملاط تبلغ نحو عشرة أقدام طولاً في ثمانية عرضاً في خمسة ارتفاعاً . ولا ينفذ الاساس في ألواح الظهر غير ان المبنى مؤمن الثبات على السطح بزوايا ثقيلة من الحديد تطوقها من جميع جوانبها وتثبتها بالدسر الراسخة في الخشب . اما حوافيها فانها محفوفة بخشب وعند القمة تغطيها تماماً فوهة واسعة منحدرة مسدودة، فاذا رفع سدادها ظهر مرجلان من مراجل التصفية، وكل واحد منهما يتسع لعدة براميل . فاذا لم يكونا في حال استعمال ظلاّ نظيفين على نحو فذ . واحياناً يجليان بحجر الصابون والرمل حتى يلتمع داخلهما كأنهما قدحا فضة يتخذان للشراب . ويندس فيهما في نوبات الحراسة الليلية بعض شيوخ الملاحين الأوغاد ويتطوون طلباً لسنة من نوم . وحين يستخدم الرجال في « تبييض » المرجلين وفي كل مرجل رجل، تجري بينهما وهما متصاقبان مناجيات بأسرار كثيرة فوق الحوافي الحديدية ؛ وهذا ايضاً مكان صالح للتأمل الرياضي العميق، ففي مرجل التصفية الايسر بالباقوطة وحجر الصابون يلتف دائراً من حــــولي

بنشاط، خطرت لي اول مرة بطريقة غير مباشرة حقيقة فذة في الهندسة وهي ان جميع الاجسام التي تنساب على قوس، كحجر الصابون الذي استعمله مثلاً، ستسقط من اية نقطة في الوقت نفسه بالضبط .

فاذا أزيل لوح النار من امام معامل التصفية، انكشف المبنى العاري من ذلك الجانب وقد نفذت فيه فوهتان حديديتان للتنانير تحت المراجل مباشرة، وقد نصب على هاتين الفوهتين بابان ثقيلان من حديد، ويحال بين حرارة النار الشديدة وبين الوصول الى ظهر السفينة بواسطة حوض ضحل يمتد تحت جميع السطح الذي يحدق بالمعامل، ويظل هذا الحوض يمد بالماء بسرعة كسرعة تبخره عن طريق نفق نافذ من الخلف، وليس هناك مداخن نافذة الى الخارج، وانما تنفتح مباشرة من الجدار الخلفي ؛ وهنا لنعد لحظة .

حوالي الساعة التاسعة ليلاً بدأت معامل التصفية في الباقوطة عملها، اول مرة في هذه الرحلة الراهنة، وكان قد عهد الى اسطب ان يشرف على العمل .

« أأنتم جميعاً مستعدون هناك ؟ انزعوا سداد الكوّة، وابدأوا ؛ وانت ايها الطباخ، أشعل النار » . وكان ذلك أمراً سهلاً لان النجار كان يلقي النشارة طوال الرحلة في الأتون؛ ولنقل في هذا المقام ان اول نار توقد في معامل التصفية في سفرة التحويت لا بد ان تمدّ بالخشب بعض الوقت، ثم لا يستعمل الخشب ابداً الا ان يكون وسيلة لاشعال الوقود الرئيسي في سرعة . وفي ايجاز اقول ان الشحم الهش المتكمش الذي اصبح يسمى المِزَع او الأرب ما يزال فيه قسط وفير من خصائصه الدهنية، وهذه المزع تتخذ وقوداً للنيران ، وهكذا يمد الحوت النيران بوقوده ويحترق بلهيب جسمه كأنه شهيد ألقي في النار فهو يغذيها بدمه، او كأنه كاره للبشر فهو يستهلك ذاته في أتون كرهه . ليت الحوت يستهلك دخان ذاته، لان دخانه مرعب اذا استنشي، ولا بد للمرء من ان يملأ به صدره، وليس هذا فحسب بل عليه ان يعيش فيه بعض الوقت؛ وله

رائحة هندية غريبـــة لا توصف كالرائحة التي تكمن في جوار محارق الجثث . رائحته كرائحة الجانب الايسر من يوم الحساب، وهي حجة تشهد بهول جهنم .

وعند منتصف الليل كانت المعامل في أقصى نشاطها، فقد تخلصنا من جثة الحوت، وأبحرنا، والريح رخاء وظلام المحيط الموحش متراكم حالك، ولكن ألسنة اللهب الحادة لعقتْ ذلك الظلام، وكانت بين الحين والحين تمتد متطاولة من الوقود السناجي وتضوىء كل حبل عالٍ من حبائل السفينة كأنها النار اليونانية المشهورة . ومضت السفينة اللاهبة في طريقها كأنما قد فوض اليها القيام بعمل انتقامي؛ كذلك السفن الصغيرة المحملة بالقار والكبريت، سفن كاناريس الهيدري الجسور وقد انطلقت في منتصف الليل من موانيها جاعلة صفحات اللهيب عوضاً عن الاشرعة، انقضت على الفرقاطات التركية وطوتها في احشاء النيران [1] .

وحين أزيل السداد عن فوهة المعامل، أصبح امامها موقد واسع ، يقف عنده الزراقون الوثنيون الذين يشبهون التتر في صورهم، وهم دائماً الوقادون في سفن التحويت، وفي أيديهم سفافيد ضخمة مشعبة بها يلقون في المراجل السامطة كتلاً من الشحم ذات أطيط او يؤرثون بها النيران تحت المراجل حتى تنطلق أفاعي اللهيب متلوية متحوّية من الابواب وتنهس اقدامهم . والدخان يتحشد منطلقاً دفعاً دفعاً في لون كدريّ ، وكلما مالت السفينة ميلة مال معها الزيت المغـــليّ، وبدا كأنه ذو لهفة ليثب في وجوههم ، وفي مقابل فوهة المعامل على الجانب الآخر من الموقد الخشبي الوسيع يقوم الدولاب الرافع، ويتخذ مرتفقاً او مضطجعاً ؛ هنالك يحوم الحرّاس حين لا يكون لديهم عمل آخر وهم يحدقون في

---

١ قسطنطين كاناريس (١٧٩٠ – ١٨٧٧) هاجم في ١٨–١٩ حزيران ١٨٢٢ السفن التركية، والهيدري نسبة الى Hydra التي اتخذها الثوار اليونان مركزاً لهم .

حمرة النار اللاهبة حتى تحس أعينهم أنها تلذعت في محاجرها . وعلى ضوء اللهيب المتقلّب المتموج في المعامل ظهرت – ظهوراً غريباً – ملامح أولئك البحارة الصحم وقد سوّدها الدخان والعرق، وتبدت لحاهم المتلبدة، على مفارقة ساطعة ازاء اللمعان الوحشي في أسنانهم ؛ وقص احدهم على الآخر قصة مغامراتـــه المستهترة، وحكوا حكايات الرعب في كلمات ضاحكة، وتموّج ضحكهم الوحشي صعداً من افواههم كأنه ألسنة اللهيب في الأتون، وفي الطليعة وقف الزراقون يحركون اجسامهم وفق تحريكهم للاشواك الضخمة المشعبة والمغارف ؛ كل هذا والريح تجأر والبحر يتوثب والسفينة تئن وتغوص، ثم رغم ذلك تطلق جهنمَ التي في جوفها بعيداً بعيداً في حلكة البحر والليل، وتعلك اللجام العظمي الابيض في فمها ، باستخفاف، وتبصق من حولها في جميع الجهات ، باستهتار : هـــذه الباقوطة المشحونة بالمتوحشين ، المحملة بالنار وبجثة تحترق، الغائصة في حلكة الظلمات بدت وكأنها الصنو الماديّ لروح آمرها المجنون المتشبث في جنونه بغاية لا يحيد عنها .

كذلك تبدت لي حين وقفت عند دفتها وظللت الساعات الطوال أوجه في صمت تلك السفينة النارية في طريقها على الماء وكان الظلام حينئذٍ يلفني انا أيضاً بردائه ، فاستطعت ان أستبين من موقفي مـــا يسبح فيه الآخرون من حمرة وجنون وصفرة كالحة. . واسترسل أمامي منظر الاشكال الشيطانية ، وهي تثب ونصفها في الدخان ، ونصفها الآخر في النيران ، فولدت رؤيتها في روحي رؤى مماثلة حالما بدأت استسلم لذلك النعاس الذي لا أجد له تعليلاً ، النعاس الذي يعقد أجفاني كلما كنت عند الدفة في منتصف الليل .

لكن في تلك الليلة بخاصة حدث لي شيء غريب (ومنذ ذلك الحين ظل لغزاً لا أستطيع تفسيره) ، أجفلت من نومة غرارٍ وانا واقف فاستيقظ شعوري على شيءٍ خاطىء فادح خطؤه، كنت أستند بجنبي على المحل الذي يدير السكان، وهو

من عظم فك الحوت، فأفقت على لطمة منه، وعلى طنين الأشرعة المهمهم في أذني وقد بدأت الريح تهزها ؛ ظننت عيني مفتوحتين ، وفي شيء بين الوعي والمنام وضعت أصابعي على الاجفان وباعدت ما بين الجفنين لأفتحها ، ورغم ذلك كله لم أستطع ان أرى أمامي بوصلة أتوجه بحسبها ، وان بدا لي أني كنت أنظر الى اللوحة قبيل دقيقة واحدة ، على ضوء مصباح صندوق البوصلة الدائم الذي يلقي عليها نوره ؛ لم يبد أمامي شيء سوى ظلمة سوداء لامعة تزداد ويلاً بومضات من الاحمرار ، وفي أم رأسي وجدتني أتصور أنه مهما يكن الشيء الذي أقف عليه سريعاً مندفعاً فانه غير عامد الى ميناء أمين أمامه ، بمقدار ما هو هارب من كل الموانىء الامينة من خلفه . وتملكني شعورٌ حيران متيبس كأنه الشعور بالموت . قَبَضَتْ يداي في تشنج على المخل الذي يوجه السكان وأنا أتخيل تخيل الملتاث ان ذلك المخل قد قلب ، بطريقة سحرية ؛ رباه ! ما بالي ماذا جرى لي ؟ مه ! ها أنا في تلك النومة القصـــيرة حوّلت وجهي فأصبحت أواجه مؤخرة السفينة وأصبح ظهري نحو مقدمها يواجه البوصلة ، واستدرت في لحظة في الوقت المناسب لكي أمنع السفينة من ان تطير في قلب الريح ، ولو فعلت فربما انقلبت ؛ ما اكبر سروري وما أشد امتناني للخلاص من الهلاس المرور في ذلك الليل ، والنجاة من تلك السانحة القاتلة التي كانت ستجعلنا تحت رحمة الريح !

يا ابن آدم ! لا تحدق طويلاً في صفحة النار، واياك ان تحلم ويدك على الدفة، لا تدر ظهرك للبوصلة ، تقبل أول غمزة يغمزك بها المخـــل الجاذب ، لا تصدق النار المصطنعة حين تجعل حمرتها كل شيء يبدو شاحباً مخيفاً ؛ غداً تحت ضوء الشمس الاصيلة تصبح السماوات صافية ، ومن كانوا يتألقون كالشياطين في ضوء اللهب المتموج سيبرزهم الصباح في وضع آخر ، أحبّ وألطف . القنديل الحق ـ الفجر الصادق ـ هو تلك الشمس المجيدة الذهبية الجذلى، وما عداها فانه فجر كاذب .

ومع ذلــك فان الشمس لا تخفي المستنقع المشئوم في فرجينيا ، وكامبانيا الملعونة في روما ، والصحارى المترامية وملايين الاميال من الجدب والحزن الواقعين تحت ضــوء القمر . الشمس لا تخفي المحيط ، ذلك الجانب المظلم من الارض وهو يبلغ ثلثي مساحتها ؛ ولذلك فان الانسان الذي كتب عليه الفناء ، الانسان الذي يستطعم السرور اكثر من الأسى، ذلك الفاني، لا يمكن ان يكون صادقاً مع ذاته – انه غير صادق غــير راقٍ في التطوّر . والامر في الكتب كذلك . أصدق الرجال « رجل الاحزان » ، وأصدق الكتب سفر سليمان ، وفولاذ الحزن الرقيق المطرّق هــو سفر الجامعة : « كل ذلك باطل » – كله أجمع ؛ ان هذا العالم العنيد لم يقع بعد على حكمة سليمان ، وهي حكمة غير مسيحية . ولكن من يتفادى المستشفيات والسجون ويسرع وهو يعبر المقابر ويؤثر ان يتحدث عن الاوبرا لا عن جهنم ويدعو كوبر ويونج وبسكال وروسو مساكين تعساء من المرضى وفي أثنــاء لهوه يحلف براباليه انه من العقلاء وانه لذلك مفراح جذل – فمثل ذلك المرء ليس هو الذي يصلح ان يجلس على أحجار القبور ويشق ذلك القالب الرطب المخضوضر بعمق كعمق حكمة سليمان المتأملة التي لا يسبر غورها .

ولكن سليمان نفسه يقول (أمثال ٢١ ، ١٦) : « الرجل الضال عن طريق المعرفة يسكن (اي وهو ما يزال حياً) بين جماعة الأخيلة (يعني مجتمع الموتى) » . لا تسلم نفسك الى النار لئلا تقلبك وتميتك مثلما فعلت بي مؤقتاً . ثمة حكمة هي ويل ولكن ثمة ويلاً هو جنون ؛ وفي بعض الارواح نسر (كنسر كاتسكل) يستطيع ان يخوت في أشد المنفهقات ظلاماً وأن يحلق صاعداً منها حتى لا يحقه البصر في مجال الشمس؛ ولو أنه ظل في المنفهق مدوماً الى الابد ، فان ذلك المنفهق ، انما يقوم بين الجبال ، فالنسر الجبلي في أدنى هوّيه أعلى من سائر الطيور التي على السهل وان ارتفعت في الافق محلّقة .

٩٧

المصباح

لو أنك هبطت من معامـــل التصفية في الباقوطة الى منارتها حيث ينام الحراس الذين أدّوا نوبتهم لظننت لحظة، او كدت تظن، أنك تقف في ضريح منوّر دفن فيه ملوك شرعيون ومستشارون. هنالك يستلقي الملاحون في أقبيتهم الخشبية المثلثة الاشكال ، وكل واحد منهم كأنه صمت محفور في موضعه ، وعلى رأسه المقلّس يلتمع عشرون مصباحاً .

الزيت في السفن التجارية نادر لا ينـــاله البحّار وكأنه أندر من حليب الملكات ، وقد كتب على ذلك البحار ان يلبس في الظلام ويأكل في الظلام ، ويتعثر في الظلام نحو فراشه ، أما الحوات فانه يعيش في الضوء لانه يفتش عن غذاء القناديل ، فهو يجعل من سريره مصباح علاء الدين ويلقي بنفسه فيه حتى ان هيكل السفينة لا يزال يؤوي ضوءاً في أشد الليالي سواداً كأنها القار .

تأمل بأية حرية يأخذ الحوّات ملء يده من المصابيح — وعادة لا تكون إلا زجاجات وقوارير قديمة — الى المبرّد النحاسي في معامل التصفية ويملؤها هنالك مثلما تملأ أباريق الجعة من الدن ، وهو يوقد أنقى زيت في حالته الخام اي قبل ان يفسد ، وذلك الزيت سائـــل لا تعرفه المبتكرات الشمسية او القمرية او النجومية على البرّ ، عذب كأنه زبدة الريف التي تجيء في بواكير الربيـع . انه ليذهب متلمساً زيته لكي يكون على ثقة من أنه أصيـــل طازج مثلما يتلمس المسافر في السهوب صيداً يتخذه عشاء .

٩٨ التعبئة والتفريغ

قد قصصنا عليك كيف يُرى اللوياثان العظيم من رأس الصاري عن بعـــد سحيق ، وكيف يطارد فوق المروج المائية ويذبح في وديان البحر، وكيف يجر، ويحتز رأسه وكيف (قياساً على المبدأ الذي يخول الجلاد في العصور القديمة ان يأخذ ملابس القتيل الذي قطع رأسه) تصبح عباءته المحشوة ملكاً لجلاده ، وكيف يحكم عليه بالنزول في المراجل ، في الوقت المناسب ، وكيف يمر زيته وعظمه مثل شدرخ وميشخ وعبدنغو الى النار دون ان يصيبه أذى [1] ، ويتبقى عليّ ان أجيء بالفصل الاخير لهذا الجزء من الوصف بأن أرتل ـ او ان استطعت ان أغني -- تلك العملية الرومنطيقية من تعبئة زيته في البراميل ، وحشدها في العنبر حيث يرجع الحوت مرة اخرى الى الاعماق المألوفة ، منزلقاً دون مستوى السطح كما كان يفعل من قبـــل ، ولكنه وأسفاه لن يبرز مرة أخرى ويرسل نفثاته أبداً !

ويؤخذ الزيت وهو ساخن كشراب البنش الساخن ويعبأ في الخزانات التي يتسع الواحد منها لستة براميل ، وبينا تتطوح السفينة وتتأرجح يمنة ويسرة في البحر عند منتصف الليـــل تتثنى الخزانات الضخمة وتنقلب رأساً على عقب

---

١ اشارة الى ما ورد في سفر دانيال عن هؤلاء الثلاثة وكيف رفضوا السجود لتمثال الذهب الذي نصبه نبوخذنصر ، فأمر بهم الى الأتون فألقوا فيـــه فخرجوا من النار دون ان تصيبهم بأذى (انظر الاصحاح الرابع من سفر دانيال) .

وأحياناً تهرب متزحلقة – في خطر الانفجار على ظهر السفينة اللزج ككثير من الاجسام المتدحرجة على السطوح المائلة في البر حتى يتلقاها أحد الرجال ويوقفها عن تدحرجها ؛ ومن حول الاطواق تمضي المطارق دقاً دقاً مهما يكن عددها اذ كل بحار بحكم الوضع الراهن يصبح صانع براميل .

وعندما تعبأ آخر قطرة من الزيت ، بعد وقت ، ويفتر كل شيء، تفتح المنافذ الواسعة ، وتتكشف أحشاء السفينة وتلقى الخزانات لتستقر في القاع ـ مستقرها الاخير ـ فاذا تم ذلك سدّت المنافذ وأغلقت كأنها صومعة قد بنيت من حولها الأسوار .

ربما كانت هذه الحادثة في صيد الحيتان من أبرز الحوادث في مهنة التحويت جميعاً: في أحد الايام تعج الألواح بجدول من الدم والزيت الناضرين، وعلى الربعة المقدسة تكوّم كتل ضخمة من رءوس الحوت دون احترام؛ وتستلقي هنا وهناك خزانات ضخمة صدئة كأنها في ساحة مصنع للخمور، ويصبغ الدخان المتصاعد من معامل التصفية هيكل السفينة بالسناج ، ويتنقل البحارة وهم قد تخضبوا بالدهن والوضر ، وتبدو السفينة وكأنها اللوياثان العظيم نفسه ، بينما العمال يصدرون في عملهم طنيناً يصم الآذان .

ولكنك تتلفت حولك بعد يوم او يومين وترهف سمعك في السفينة نفسها ، ولولا القوارب ومعامل التصفية التي قد تنبئك بما كان لحلفت جهد يمينك انك انما وقعت في سفينة تجارية وفيها رائس نظيف البزة، مشهّر النظافة . ان زيت الحوت الخام ذو قدرة فذة على التنظيف ولهذا السبب لا يبدو ظهر السفينة ناصعاً مثلما يبدو بعيد ما يسمونه أعمال استخراج الزيت . ثم انهم يصنعون على التوّ من رماد الفضلات الحوتية المحترقة ماء رمادٍ قلوياً قوياً، فاذا بقيت اية لزوجة من ظهر الحوت عالقة بالجنب فان ذلك الماء يستأصلها . وتمضي الايدي نشيطة على جوانب

السفينة وهيكلها وتدلق عليها أسجال الماء وتعمل فيها المماسح فتعيدها الى سابق نظافتها، ويزال السناج بالفرشة عن الحبائل الدنيا؛ وكل الادوات العديدة التي استعملت تنظف كذلك تنظيفاً دقيقاً وتودع في مواضعها ، ويفرك غطاء الفوهة الكبرى ثم يوضع فوق معامل التصفية وبذلك يستر المراجل تماماً ، ويودع كل خزان بعيداً عن الانظار ، وكل الروافع تلف في زوايا خفية، وحين تختتم هذه المهمة الحساسة بعون من جميع عصبة السفينة مجتمعين وفي وقت واحد ، يتوجه البحارة الى الاغتسال ويغيرون ملابسهم من قمة الرأس حتى أخمص القدم وأخيراً يتوجهون الى الدكة الطهور ناضرين متألقين كأنهم عرسان برزوا لتوّهم في أبهى زيّ وأجمل حلـّة .

ثم يذرعون الألواح في خيلاء مثنى مثنى وثلاث ثلاث ويتحدثون في مرح عن القاعات والطنافس والسجاد والقماش الابيض الناعم، ويقترحون ان يفرشوا ظهر السفينة بالبسط ، ويرون ان القمة لا بد ان يكون فيها مشاجب، ويقولون لا بأس بشرب الشاي في ضوء القمر على باحة المنارة . من القحة العارمة ان تلمح الى هؤلاء البحارة الذين يعبق بهم المسك عن الزيت والعظم والشحم ، انهم لا يعرفون شيئاً عما تلمح اليه . هيا اذهب وهات لنا الفوط والمناشف !

لكن تأمل . في الأعالي هنالك ، عند رءوس الصواري الثلاثة يقف ثلاثة رجال محملقين في حدة لعلهم يرون مزيداً من الحيتان ، ولو أنهم أمسكوها للوثت هذا الاثاث الخشبي العتيق مرة أخرى ، وألقت على الاقل بقعة واحدة من الشحم في مكان ما ، أجل . بعد أعمال قاسية لا تفتر ولا يعرف فيها سبات وتستمر كذلك ستاً وتسعين ساعة دون انقطاع ، ما اكثر مـــا يخطو هؤلاء الملاحون ، من القارب حيث انتفخت أرساغهم من التجذيف على خط الصيد طوال اليوم ، منتقلـــين الى ظهر السفينة ليحملوا السلاسل الضخمة ويرفعوا الدولاب الرافع الثقيل، ويقطعوا ويؤربوا، أجل والعرق ينضح منهم، والدخان

يلفهم والنيران تلسعهم ، نيران شمس الاستواء وأتون معامـــل التصفية ، ثم يذهبون في أعقاب ذلك كله وينهضون بأنفسهم اخـيراً لتنظيف السفينة فيجعلون منها غرفة ناصعة لا بقعة فيها ؛ وما اكثر ما تفزع هؤلاء المساكين – وهم يزررون بنائق صدائرهم النظيفة – صيحة تقول : « ذاك هو ينفث » فيهبون سراعاً للقاء حوت آخر ويستأنفون العمل المضني ويمضون فيه مرة أخرى. أواه يا أصدقائي هـــذا شيء قاتل ! ولكن هذه هي الحياة، اذ ما نكاد، نحن الفانين، نستخلص بعد الكد والجهد من هذا العالم الجسيم زيته الثمين ثم ننظف أنفسنا من أوضاره في صبر مضنٍ ونتعلم كيف نعيش هنا في هياكل الروح النظيفة ، ما نكاد نفعل ذلك حتى يصيح بنا المنادي : « ذاك هو ينفث ! » – لقد انبثقت نفثات الشبح ، فاليه نبحر كي نكافح عالماً آخر، ونتغلغل في الروتين القديم الذي تستدعيه حياة الشباب مرة أخرى .

آه يا للتناسخ ! أواه يا فيثاغورس ! يا من مت منذ ألفي سنة في يونان المتألقة ، مت فاضلاً حكيماً وديعاً . لقد أبحرت معك الرحلة الاخيرة على طول ساحل بيرو ، وعلمتك انا الأحمق ، انا الغلام الساذج الفج ، كيف تفتل حبلاً !

٩٩ الدبلون او الدينار الاسباني

قبل هذا قصصت عليك كيف تعوّد آخاب ان يذرع الربعة خلف الدقل الاعظم، مستديراً استدارة منتظمة عند كل طرف من الطرفين: عند صندوق الابرة المغناطيسية والصاري الرئيس، ولكن في غمار الاشياء الاخرى التي تستدعي ان اسردها لم أقل لك كيف تعود في بعض تلك التمشيات، حين يكون اشد شيء استغراقاً في حاله، ان يتوقف عند كل موقع من الموقعين بدوره، ويشخص هنالك محدقاً في ما يعرض لعينيه تحديقاً غريباً؛ وحين كان يقف امام صندوق الابرة، وقد حدّد طرفه في الابرة ذات الرأس الدقيق في البوصلة، كانت نظرته تنطلق كالسهم مع الحدة الحادة التي ينطوي عليها هدفه. فاذا استأنف سيره توقف ثانية امام الصاري الرئيس، وركز النظرة المحكمة على القطعة الذهبية المثبتة هناك، وهو ما يزال يحمل مظهر التصميم النافذ الا انه يسوطه توقان وحشي ان لم نقل رجاء آمل.

وحين تحول ذات صباح ليمرّ بالدبلون «الدينار الاسباني» بدا وكأنه مجذوب انجذاباً طارئاً الى الاشكال والنقوش الغريبة المطبوعة عليه كأنما هو قد بدأ لاول مرة يؤول لنفسه، على نحو ملتاث مجنون، المغزى الذي قد يكمن فيها. وفي الاشياء كلها مغزى كمين والا لكانت جميع الاشياء ذات قيمة هينة، ولكان العالم المستدير نفسه لا يعدو ان يكون صفراً اجوف، لا ينفع الا ليباع بالجملة، كما تباع التلال حول بوسطن، ليملأ ارضاً بوراً في نهر المجرة.

كان هذا الدينار الاسباني من الذهب البكر الخالص اقتطع من جوف التلال الضخمة حيث تجري مياه كثير من الانهار – كنهر بقطولس [1] – شرقاً وغرباً على رمال حافلة بالتبر ، وقد سمّر وسط كل ضرب من صدأ المسامير الحديدية وزنجارة البراغي النحاسية، الا انـــه ظل يحتفظ بلألائه الكيتوي لانه كان نائياً عن ان يمس او ان يدنس بأي قذر او نجاسة . وقد وضع بين اشد الملاحين فظاظة ، وكانت تمر به كل ساعة اخشن الايدي، وخلال الليالي الطوال كانت تغلفه الظلمات الكثيفة التي قد تحجب كل تسلل وتلصص، ومع ذلك فان كل شروق كان يشهده حيث تركته شمس الامس عند الغروب . ذلك انه ميز من اجـــل غاية محددة تبعث الرهبة، ومن اجلها « كرّس » وجوده . ومهما يكن البحارة زرافات ووحداناً مستهترين في نظرتهم فانهم أولوه القداسة والاحترام اذ رأوا فيه طلسم الحوت الابيض، وكانوا احياناً يتحدثون عنه في ليالي الحراسة المضنية ويتساءلون في دهشة من نصيب مَنْ سيكون في آخر الامر وهل يعيش من يناله لينفقه ابداً ؟

هذه العملة الذهبية الرفيعة من عملة امريكا الجنوبية انما هي كالمداليات التي تمثل تدويرة الشمس، والقطع الاستوائية التي تتخذ للذكريات الهامة، فيها اشجار الكاكاو وحيوانات الالباكا والبراكين، قد طبعت عليها في وفرة مترفة اقراص الشمس والنجوم، فيها مناظر الكسوف والقرون رمز الوفرة، واعلام كثيرة الالوان متموجة [2] ،

---

١ هذا النهر ذكره هيرودوت وقال انه يحمل معه التبر في ولاية ليديا ويصب في نهر هرمس . واصبح النهر ذهباً خالصاً – في زعم الاسطورة – حين استحم فيه ميداس، وقيل ان ثروة قارون جاءت منه .

٢ كل رمز يشير الى بلد : اشجار الكاكاو (بوليفيا) ، الالباكا (بوليفيا وبيرو) ، البراكين (جنوب بيرو وتشيلي)، اقراص الشمس (الارجنتين)، النجوم (بوليفيا والاكوادور) ، الكسوف (البرازيل)، القرون (بوليفيا وبيرو)، الاعلام (بيرو) .

حتى كأنما الذهب الغالي يكاد يستمد قيمة زائدة وألقاً اضافياً بمروره خلال دار السكة العجيبة، التي تحمل شاعرية اسبانية .

واتفق ان كان الدينار الاسباني مثلاً على وفرة هذه الامور فيه فعلى حافته المستديرة كتبت هذه الكلمات «جمهورية اكوادور : كيتو» اذن فهذا الدينار المتلألىء قد جاء من بلد مغروس في نصف العالم دون خط الاستواء، وباسمه سمي [لان اكوادور تعني الاستواء]، وسك في المنطقة الوسطى فوق جبال الانديز في ذلك المناخ السرمد الذي لا يعرف خريفاً، وفي داخل هذه الجملة الدائرية ترى شبهاً بثلاثٍ من قمم الانديز ، احداها يتصاعد منها لهب، وعلى الاخرى برج، وعلى الثالثة ديك يصيح . ويستدير فوق الجميع قوس يمثل قطاعاً من منطقة البروج مجزأة الاقسام، وقد أُعلم كل برج برموزه، والشمس – وهي حجر الزاوية في المنظر – تهم ان تحلّ النقطة الاستوائية في برج الميزان .

كان آخاب يقف امام هذه القطعة النقدية الاستوائية، دون ان تمضي وقفته غير ملحوظة من الآخرين :

« هناك دائماً شيء عجرفيّ في قمم الجبال والابراج وفي سائر الاشياء الفخيمة الرفيعة، تأمــــل هذا . هذه ثلاث قمم مستكبرة كأنها الشيطان ؛ ذلك البرج الراسخ، ذلك هو آخاب، وذلك البركان الثائر، وهو آخاب، وذلك الديك الفائز الشجاع الجسور، ذلك هو آخاب ايضاً ؛ كل الثلاثة آخاب، وهذه القطعة الذهبية المستديرة انما هي صورة الكرة التي هي اكثر استدارة منها تلك الكرة التي تشبه مرآة الساحر في انهـــا تحكي لكل امرىء على حدة صورة نفسه العجيبة ؛ ان من سألوا العالم ان يحلّ لهم سرّ الآلام الكبرى خرجوا بقليل من جدوى، فالعالم يعجز عن ان يفسر نفسه ؛ تصور هذه الشمس المحفورة على قطعة نقد تلبس وجهاً أحمر، تأملها، أجل، انها تدخل برج العواصف، تدخل المنطقة

الاستوائية، وقبل ستة اشهر كانت تدور خارجة من منطقة اخرى استوائية في برج الحمل . من عاصفة الى عاصفة ! ليكن الحال كذلك . من اللائق ان يعيش الانسان في الآلام ويعاني عند الموت سكراته ما دام يولد من بين آلام المخاض ! ليكن الامر كذلك ! هذه مادة قوية يفعل فيها الحزن والاسى فعله ؛ ليكن الامر – اذن – كذلك ! »

وتمتم استاربك لنفسه وهو يستند الى حافة السفينة، « لا اظن أصابع حورية قد ضغطت على هذه القطعة الذهبية ، وانما مخالب الشيطان قد تركت عليها طوابعها مذ أمس . يبدو ان الرجل العجوز يقرأ كتابة بيلشاصر الرهيبة [١] ، لم اتأمل هذه القطعة النقدية معايناً ، ها هو قد هبط الى اسفل فلأقرأ ما عليها : وادٍ معتم بين ثلاث قمم جبارة تحتضن السماء كأنها الاقانيم الثلاثة متمثلة في رمز ارضي واهٍ ؛ في وادي الموت هذا يطوقنا الله من كل ناحية، وعلى جميع احزاننا ما تزال شمس الحق تشرق هادياً ورجاء . فاذا أرخينا أبصارنا الى اسفل رأينا الوادي المعتم يبرز لنا ترابه المتعفن، فاذا رفعناهـــا الى اعلى واجهت الشمس نظراتنا في منتصف المسافة، لتشجعنا وتهز أريحيتنا، لكن واهاً للشمس العظمى فانها غير ثابتة في مستقرها ولو اننا في منتصف الليل خطر لنا ان نسترق عزاء عذباً من لدنها لطال ترقبنا دون جدوى ! هذه القطعة النقدية تتحدث بحكمة ولطف وصدق ولكنها تحدثني في أسىً ؛ سأغادرها لئلا تهزني الحقيقة فتكشف زيفي » .

وناجى اسطب نفسه عند معامل التصفية قائلاً : « ذلك هو المغولي العجوز ؛

---

١ هي : « منا منا تقيل وفرسين » وهذا تفسير الكلام : منا : احصى الله ملكوتك وانهاه . تقيل : وزنت بالموازين فوجدت ناقصاً ؛ فرسين : قسمت مملكتك واعطيت لمادي وفارس (دانيال ٥ : ٢٥-٢٨) .

كان يتأمل القطعة الذهبية، وها هو استاربك ينصرف ايضاً عنها وكلاهما يحمل وجهاً أستطيع ان أقول فيه انه قد يكون ممطوط « البوز » مطّاً لا يتعدى تسع قامات . وكل ذلك من النظر الى قطعة من ذهب، لو كانت لديّ وأنا في « تلة الزنوج » او في « ثنيّة كورلير » لما نظرت اليها طويلاً قبل ان انفقها . أف ! في رأيي العاجز الضعيف اعتبر هذا شيئاً شاذاً ؛ لقد رأيت في رحلاتي دنانير ذهبية من قبل : دنانير اسبانيا القديمة ، ودنانير بيرو ، ودنانير شيلي ، ودنانير بوليفيا ودنانير بوبايان [1] ورأيت عدداً وفيراً من العملة البرتغالية الذهبية والعملة الاسبانية القديمة والعملة البرتغالية الذهبية التي تسمى « جو » وانصاف « الجو » وارباعه . فماذا في هذا الدبلون الاستوائي، ماذا فيه مما يعجب الرائين الى درجة ان يسلب ألبابهم؟ ذلك الشيء هو الذي يسميه بودتش[2] في «موجزه» باسم منطقة البروج ، والتقويم في القمرة يسميه كذلك ايضاً ، سأجيء بالتقويم وسأعمل فيه يدي لاستخرج معنى من هـــذه الالتواءات الغريبة ها هنا مع « أجندة » مساشوست، مثلما سمعتهم يقولون ان الشياطين قد تستخرج بحساب دابُل". هيا نتبصر ما هنالك ! اشارات وعجائب، والشمس، الشمس بينها دائماً. ها . ها . ها. ها هي هنا – ها هي جميعاً، جميعاً قائمة: الحمل والثور والجوزاء، هذه هي الجوزاء نفسها. حسنًا . والشمس تدور بينها، أجل ها هي على القطعة النقدية تعبر او تهم بعبور العتبة القائمة بين منزلتين من اثنتي عشرة منزلة قائمة في حلقة واحدة ؛ ايها الكتاب ! انك لتكذب ؛ الحق ايتها الكتب انه يجب عليك ان تعرفي حدّك، انت تعطيننا الكلمات والحقائق العارية ولكننا نحن نملؤها بالافكار . الى هنا تبلغ تجربتي المتواضعة فيما يتصل بأجندة مساشوست وزيج

---

١ بوبايان : مدينة في كولمبيا .

٢ هو الرياضي الامريكي ناثانيل بودتش (١٧٧٣ – ١٨٣٨) نشر موجزاً في الملاحـــة عام ١٨٠٢ .

بودتش وحساب دابل . اشارات وعجائب، أليس كذلك ؟ ما اتعس ان لا يكون في الاشارات شيء عجيب، وفي العجائب سرّ هام ! لا بد من مفتاح للسر قائم في مكان ما . مهلاً، صه ! وحق جوبتر لقد وجدته، انظر ايها الدينار الاسباني ان منطقة بروجك هي حياة الانسان في فصل واحد مستدير وسأقرأ هذا الفصل من الكتاب تواً . تعال ايها التقويم الي" لنبدأ . ها هو الحمل، كلب داعر يلدنا . ثم الثور، يلزّنا بقرنيه اول ما ينطح، ثم الجوزاء، التوأمان من فضيلة ورذيلة، نحاول ان نبلغ الفضيلة فاذا السرطان يعترض ويجرنا الى الخلف، وهنا — وقد تحوّل عن الفضيلة — أسد يزأر مستلقيًا في الطريق — يعض عضات منكرة ويلطم، ماكراً، بمخلبه، فننجو من شره وننادي السنبلة البكر العذراء اي اول حبّ لنا ، ونتزوج ونظن اننا سنسعد وأيّ سعادة ! وفجأة يبرز الميزان ، فيزن السعادة، فيجدها خفيفة ناقصة، فنستشعر الاسف لذلك ، وحين يبلغ بنا الاسف الغاية، رباه ! ننطّ فجأة عندما تلدغنا عقرب في القفا ، فنأخذ في معالجة الجرح ، واذا السهام من كل صوب تمطرنا ؛ ربّ « القوس » يتسلى، وننزع السهام، وننتحي جانبًا فاذا بالجدي يبدو، محدداً روقيه وينقض علينا نطحًا وطعنًا حتى ينكسنا رأسًا على عقب، واذا الدلو يسكب طوفانه الغامر ويغرقنا، فننام كي نتمكن من التدحرج مع « الحوت » . في السماء العليا موعظة مكتوبة، تخترقها الشمس كل عام وتخرج منها حية مستبشرة؛ في الاعالي هناك تدور مرحة طروبًا خلال الجهد والاضطراب، وفي الأداني يفعل اسطب مثلها ؛ «طروب» تلك هي الكلمة المعبّرة ؛ وداعًا ايها الدينار ! لكن مهلاً ها هو « الدعامة الكبرى » يجيء ، لأتسللْ حول معامل التصفية وأتسمع ما يقول . ها هو امامه، سيتفوه بشيء على التوّ . كذا، كذا، ها هو يبدأ :

— « لا أرى ها هنا الا شيئًا مدوّراً من ذهب، ومن اصطاد حوتًا معينًا أصبح هـــذا الشيء المدوّر من نصيبه ، فلمَ قام مَنْ قبلي بكل هذا التأمل

والتحديق ؟ نعم انه دينار قيمته ستة عشر دولاراً، هذا صحيح، والسيجار يكلف سنتين اثنين، اي انه يكفي لشراء تسعمائة وستين سيجاراً، أنا لا احب الغلايين القذرة التي يحبها اسطب وانما احب السيجار وها لديّ منه تسعمائة وستون ؛ وها هو فلاسك يصعد الى اعلى ليرصدها .

« هل ادعو هذا حكمة او حماقة . ان كانت حكمة فان لها سمة من حماقة وان كانت حماقة حقّا فان لها بعض سمة من حكمة . لكن على رسلك ؛ ها هو الشيخ ابن جزيرة مان يظهر — ذلك الذي كان سائقًا لعربات الجنائز اعني انه لا بد كان كذلك قبل ان يجتذبه البحر . ها هو يتوجه نحو الدينار الذهبي . هالو ! وها هو يدور حول الجهة الثانية من الصاري، ففي ذلك الجانب قد سمرت حدوة حصان وها هو يعود ثانية . ماذا يعني ذلك ؟ صه ! انه يتمتم — صوت كأنه منبعث من طاحونة قهوة عتيقة بالية . حدد اذنيك وتسمّع ! »

— « ان كان الحوت الابيض سيظهر للعيان فلا بد ان يكون ذلك في شهر ويوم حين تحل الشمس في احد هذه الابراج . لقد درست الابراج وعرفت دلالاتها، لقد عُلـّمتها قبل اربعين عامـًا مضت، علـّمتنيها الساحرة العجوز في كوبنهاجن . في اي برج ستحل الشمس يا ترى ؟ في ما يشبه حذاء الحصان لانها هنالك في مقابل الدينار الذهبي ؟ وما هي علامة حذاء الحصان ؟ الأسد هو برج حدوة الحصان — الاسد الفرّاس ذو الزئير . سفينتي يا سفينتي العتيقة ! ان رأسي العجوز ليهتز حين يفكر فيك » .

« ها هنا الآن تفسير جديد لنصّ واحد لا يتغير . عالم واحد يحتوي اصنافاً متنوعة من الناس، أليس كذلك ؟ حسّ مشي ! ها هو كويكوج . موشوم كله، كأنما هـــو نفسه أبراج الفلك . ترى ماذا سيقول هذا المتوحش ؟ انه لعمري يقارن ما هو مكتوب على جسمه بما هو مكتوب على العملة ؛ انه ينظر الى عظم

فخذه، يظن ان الشمس في الفخذ او في عضلة الساق او في الاحشاء ، فيما اظن كما تتحدث العجائز عن علم الفلك في الريف النائي . وحق جوبتر لقد وجد شيئاً لصق فخذه أظنه برج القوس، كلا! انه لا يدري كيف يفهم ذلك الدينار، يحسبه زرّاً قديماً سقط من سروال بعض الملوك . ولكن تنحّ مرة اخرى ها هو فيض الله ذلك الشبح الشيطان يتقدم، ذنبه مطويّ مخفيّ عن الانظار كالعادة، والدُّسر في أصابع نعله كالعادة، ترى ماذا تعبّر نظرته تلك ؟ آه انه يشير للبرج وينحني له . على قطعة النقد شمس صدقني يا عابد النار ! أف ! زاد العدد، ها هو بيب يحضر — يا للغلام المسكين ليته مات أو مت أنا ؛ منظره لديّ لا يخلو من رعب، لقد راقب ايضاً جميع الذين حاولوا قراءة هذا النقد — وأنا منهم — فانظر اليه، فقد جاء يقرأ بوجهه الابله الذي لا ينتمي الى الارض ، تنحّ جانباً مرة اخرى وتسمع ما يقول . أصخ ! »

— « أنظر، تنظر، ينظر، ننظر، تنظرون، ينظرون » .

— « وحق روحي انه كان يدرس كتاب الصرف[1] ! كان يحسّن ذهنه، المسكين ! صه . ترى ماذا يقول الآن ! »

— « أنظر — تنظر — ينظر — ننظر — تنظرون ، ينظرون » .

— « أحسنت والله فانك حفظتها غيباً . صه، وأصخ له مرة اخرى » .

— « أنظر — تنظر — ينظر — ننظر — تنظرون ، ينظرون » .

---

[1] في الاصل: Murray's Grammar وهو لندلي مري (١٧٤٥–١٨٢٦) كويكري من بنسلفانيا ومؤلف « قواعد اللغة الانجليزية » وكان شائع الاستعمال في المدارس الامريكية خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر .

« هذا شيء مضحك ! »

– « وانا وانت وهو ونحن وانتم وهم جميعاً خفافيش ؛ وأنا غراب وخصوصاً عند ما أقف فوق هذا الجذع السندياني هنالك ؛ غاق! غاق! غاق! غاق ! غاق! غاق ! ألست غراباً ؟ وأين « الزوال »[1] ؟ ذلك هو عظمتان قد حشرتا في رجلي سروال قديم وعظمتان اخريان قد دسّتا في كمي صدارة عتيقة ».

– « أتراه يعنيني ؟ هذا إطراء ! يا للفتى المسكين ! لقد استطيع أشنق نفسي على اي حال، سأبعد من جوار بيب في اللحظة الراهنة واستطيع ان أتحمل بقية المعلقين لان لديهم ذكاءً مألوفاً اما هو فان ذكاءه من النوع الذي لا يبلغه عقلي . كذا كذا، اتركه وهو يتمتم » .

– « ها هي سرة السفينة، أعني هذا الدينار، وكلهم متحمسون لكي ينزعوه ، ولكنك اذا نزعت سرتك فماذا تكون العاقبة[2] ؟ غير انه ان بقي هنالك كان ايضاً منظراً بشعاً لانك حين تسمّر بالصاري شيئاً فقد جعلت الامور تبدو مستيئسة ها ! ها ! يا آخاب العجوز ! الحوت الابيض ! سيسمرك ! فهذه شجرة سرو . والدي في بلاد تولاند قطع ذات مرة شجرة سرو ووجد فيها خاتمـــاً فضياً، لعله خاتم زواج احد الزنوج، ولكن كيف بلغ الخاتم ذلك المكان ؟ وكذلك سيقولون يوم الحشر حين يجيئون ليأخذوا هذا الصاري العتيق ويجدون ديناراً ذهبياً قد عشش فيه وحواليه محار قد اندس في اللحاء المشعث ؛ آه يا للذهب ! الذهب الغالي الثمين ! البخيل الغرّ سيضيفك تواً الى مكنوزاته . صمتاً ! صمتاً ان الله يتخلل العوالم ناهباً سالباً، طباخ يا طباخ، اطبخنا يا جني هاي هاي هاي جني جني ! وأسرع بصنع كعكة ! »

---

١ scare-crow : شبح ينصب في المزارع لتخويف الطير من غراب وغيره .

٢ قارن هذا بما جاء في سفر ايوب ٤٠ : ١٦ « هوذا بهيموث . . . ها هي قوته في متنيه، وشدته في عضل بطنه » .

١٠٠ ساق وذراع . الباقوطة النانتوكتية تلتقي بصوموئيل اندربي اللندنية

— « أنت ايتها السفينة هناك ! هل رأيت الحوت الابيض ؟ »

كذلك صرخ آخاب وهو يهتف مرة اخرى بسفينة ترفع علماً انجليزياً ؛ كان الرجل العجوز يقف ، وقد جعل البوق في فمه ، عند قاربه المرفوع وقد انكشفت رجله العاجية للقبطان الاجنبي الذي كان متكئاً بغير مبالاة عند مقدم قاربه ؛ كان رجلاً غامق البشرة بديناً دمث الاخلاق جميل الطلعة يبلغ الستين او يناهزها ، وقد ارتدى جاكتة واسعة تدلت عليه وقد وشحت بزخارف من قماش البحارة الازرق وأحد أكامها خالٍ يتدلى وراءه كأنه كم فضفاض مزخرف من عباءة يلبسها .

— « هل رأيت الحوت الابيض ؟ »

— « أترى هذه ؟ » وسحبها من بين الثنايا التي تخفيها واذا بذراع بيضاء من عظم حوت العنبر ينتهي طرفها برأس خشبي يشبه الدقماق .

— فصاح آخاب ، وقد استبد به الحرص اللهيف ، وقذف بالجاذيف القريبة منه : « أعدوا قاربي ! قربوا لانزاله ! »

وفي أقلّ من دقيقة — ودون ان يترك قاربه الصغير — كان هو وبحارته قد نزلوا الى الماء واصبحوا تواً على محاذاة السفينة الغريبة . لكن صعوبة غريبة عرضت عندئذ، فقد نسي آخاب في حومة انفعاله في تلك اللحظة انه منذ فقد رجله لم يصعد الى سفينة في البحر الا سفينته، وان ذلك كان دائماً يتم بوسيلة آلية فذة ميسرة مقصورة على الباقوطة ، وان ذلك شيء لا تتوفر له الحبـــال والوسائل في اية سفينة اخرى في مدى لحظة . وليس من الهيّن الميسّر لكل انسان ـ إلا لأولئك الذين مارسوا الامر كل ساعة او كادوا من امثال الحواتين ـ ان يتسلقوا جانب سفينة صاعدين اليها من قارب في عرض البحر، لان الامواج الهائلة ترفع القارب الى اعلى نحو هيكل السفينة ثم تهوي به على التو الى ان يبلغ منتصف المسافة من الكلزون . واذ كان آخاب قد حرم احدى رجليه وكانت السفينة الاجنبية — طبعاً — غير مزودة ابداً بالوسيلة الرفيقة التي تعوّدها، فانه وجد نفسه وقد تحوّل في زراية الى رجل عاجز من رجال البرّ ، يرمق العلو المتقلب النائي في يأس، ويكاد لا يدركه الرجاء انه بالغه .

لعلني ألمحت من قبل الى ان كل حادثة صغيرة مثيرة ألمت بآخاب وكانت ناجمة — بطريقة غير مباشرة — عن الآفة المحدودة التي اصابته فانها كانت دائماً تستفزه او تأخذ بخناقه، ومما زاده استفزازاً في الحادث الراهن انه رأى ضابطي السفينة الغريبة وقـــد انحنيا فوق جانب السفينة عند سلّم عامودي مسمّر هنالك وهما يطوحان نحوه زوجين من الحبال الجانبية التي زخرفت بمهارة وحسن ذوق، اذ انهما بادىء بدء لم يبد انهما يتصوران ان رجلاً ذا رجل واحدة لا بد ان يكون مقعداً بحيث يستعمل الدرابزين البحري الذي لديهما . الا ان هذا الخُـرق المحرج لم يستمر الا لحظة اذ لحظ القبطان الغريب في لمحة كيف حال الامور فصاح : « فهمت ! فهمت ! توقفوا عن الرفع هنالك ! اقفزوا ايها الغلمان وطوحوا مرفع القطع » .

ومن حسن الحظ انهم كانوا قبل يوم او يومين قد أجنبوا حوتاً الى سفينتهم فكانت المرافع العظمى ما تزال منصوبة، وكانت كلابة الشحم الجسيمة المتقوسة ما تزال مربوطة الى طرفها وقد أصبحت نظيفة جافة، فانزلوها نحو آخاب في سرعة، ففهم على التوّ ما هنالك، ودسّ فخذه الوحيدة في قوس الكلابة (كان ذلك كالجلوس في كلابة المرساة او في مشعب شجرة تفاح) ثم اعطى الامر بالسحب ووقف ثابتاً مستمسكاً، وفي الوقت نفسه أعان على رفع ثقله بان جرّ — واضعًا يداً فوق يد — احد الاجزاء الصاعدة من المرفع وعلى التوّ تطوح بعناية الى داخل الهيكل العالي وحطّ بلطف على قمة المسحاب. وتقدم اليه القبطان الآخر ماداً ذراعه العاجية مرحبًا في انفتاح، فقدم آخاب رجله العاجية وسايف بها الذراع العاجية (كأنها شفرتا سمكتين سيفيتين) وصاح بطريقته التي تشبه طريقة حيوان الفظ: «أجل! أجل يا عزيزي لنتصافح العظمتان! ذراع ورجل — ذراع لا يمكن لها ان تنثني ورجل لا يمكن لها ان تجري — اين رأيت الحوت الابيض؟ — منذ متى؟»

فقال الرجل الانجليزي مشيراً بذراعه العاجية نحو المشرق ناظراً على طولها نظرة كئيبة كأنها تلسكوب: «الحوت الابيض — هنالك رأيته، على خط الصيد في الموسم الفائت».

وسأله آخاب وهو ينزلق نازلاً من رأس المسحاب متكئاً على كتف الانجليزي عند ذلك: «وهو الذي انتزع تلك الذراع. أليس كذلك؟»

— «أجل كان هو على الاقل سببًا في انتزاعها. اكذلك هو الامر بالنسبة لتلك الرجل ايضًا؟»

— «اسرد علي قصتك. كيف حدث ذلك؟»

فقال الانجليزي : « كانت اول مرة في حياتي أطوف فيها على خط الصيد وكنت حينئذ أجهل كل شيء من امر الحوت الابيض . وذات يوم انزلنا قواربنا لملاحقة صوارٍ من حيتان يبلغ اربعة او خمسة عدداً ، وعلق قاربي بأحدها . كان فرس رهان مدربًا ذهب يدور ويدور حتى ان بحارة قاربي لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئًا سوى ان يجلسوا متحلقين، وذلك ان يجعل كل منهم مؤخرته على الحافة الخارجية . وعلى التوّ انبثق من قاع البحر حوت عظيم منقض ذو رأس وحردبة في بياض اللبن وكأنما كان جسمه كله مغطى بالغضون والمناسر» .

فصاح آخاب وقد أطلق فجأة أنفاسه المحبوسة : « ذلك هو ! ذلك هو ! »

— « وعلى مقربة من زعنفته اليمنى مزارق مغروسة » .

— « أجل، أجل! هي مزارقي، هي الحدائد التي قذفته بها» — كذلك صرخ آخاب في زهو — « ولكن خذ في حديثك » !

فقال الانجليزي في فكاهة طيبة : « لكن أعطني الفرصة لأكمل حديثي . أقول : ذلك الجدّ المعمر ذو الرأس الابيض والحردبة البيضاء كان يجري وقد تغشاه الزبد بين القطيع ، وأخذ ينهش الحبل المتين بجردٍ حارد » .

— « أجل ! فهمت يريد ان يفصمه ، لينجي الحوت العالق به — حيلة قديمة من حيله — فانا أعرفه حق المعرفة » .

فمضى القبطان ذو الذراع الواحدة يقول : « كيف حدث ذلك ؟ ذلك شيء لا أدريه بالضبط . ولكنه في عضه للحبل أوهاه بأنيابه وقد أمسكه بها حيناً من الزمن ، غير أنا لم ندرك ذلك في حينه ، فحين جررنا الحبل من بعـــد ،

انتفضنا واثبـــين فجأة على حردبته بدلاً من حردبة الحوت الآخر الذي انطلق هارباً مع مهب الريح يخبط في عشواء . ولما استبنت الأمر على حقيقته ، وأي حوت جسيم فخيم هو – أضخم ما رأيته من الحيتان وأفخمها – طوال حياتي – يا سيدي ، عزمت على أسره رغم الغضب الهائـــج الذي كان يبدو فيه ؛ واذ ظننت ان الحبل المطوّح قد ينفلت او ان السن العالقة به قد تتراجع (اذ كان لديّ عصبة من مردة الملاحين في القارب كي يجروا حبل التحويت) أقول : عندما رأيت ذلك كله قفزت في قارب رأس الضباط – أعني السيد مونتتوب (بهذه المناسبة أعرف أحدكما للآخر : يا قبطان – هذا هو مونتتوب ؛ يا مونتتوب ، هذا هو القبطان) ، كنت أقـــول : قفزت في قارب مونتتوب وهو – طال عمرك – قد كان لصيق قاربي جنباً الى جنب عندئذٍ واختطفت اول رمح عرض وقذفت به ذلك الجدّ الهرم . ولكن رباه ، حنانيك يا سيدي – وحق القلوب والارواح الحية ، أيها الرجل – في اللحظة التالية ، على التوّ وجدتني أعمى كأنني خفاش – قد جحظت عيناي معاً – قد غشاهما وأطفأ النور منهما زبد أسود – ومن خلال الزبد ينتصب ذنب الحوت عامودياً في الفضاء كأنه منارة من رخام . لا جدوى في التراجع حينئذٍ ، ولكنني بينما كنت أتلمس في رائعة النهار وكأنما فوقي شمس تعشي العيون ، لها لألاء كلألاء تاج مرصـــع بالجواهر ، أقول: بينما كنت أتلمس الحديدة الثانية لأقذفه بها، هبط الذنب كأنه برج ليما ، شاقاً قاربي نصفين، تاركاً كل نصف منها شظايا ، وبعـــد ان هبطت شطيرتا الذنب تبعتها الحردبة البيضاء ساربة من خلال الحطام كأنها تجري مكسوة بطبقة من الشظايا . وانتفضنا جميعاً متطوحين ومن أجل ان اتقي ضرباته المريعة قبضت بكلتا يدي على قناة الرمح المنغرس فيه وتعلقت به لحظة كأنني سمكة من سمك اليمصوص ، إلا ان الموجات المتدحرجة دفعتني بعيداً وفي اللحظة نفسها مضى الحوت طلقاً كبيراً الى الامام ثم هبط كأنه التماعة برق، واذا بثعلبة ذلك الزجّ الثاني الملعون تنجذب منحنية على مقربة مني فتعلق بي هنا (وعندئذٍ أمسك يده أدنى قليلاً من الكتف) – نعم ، علقت بي في هذا

المكان بالضبط ، حتى لتصورت انها حملتني هابطة الى نيران الجحيم ، وفجأة ، والحمد لله الرحيم شقت الثعلبة طريقها على طول اللحم – على امتداد ذراعي كلها – وانطلقت على مقربة من رسغي ، واذا بي أصعد عائماً – وذلك السيد هناك سيحكي لك بقية القصة (هذه سانحة للتعارف ، أيها القبطان هـــذا هو الطبيب بنجر جراح السفينة ، بنجر أيها الفتى هذا هو القبطان) والآن ، بنجر أيها الفتى أكمل ما يخصك من غزل في هذا النول » .

كان الطبيب الذي أشار اليه القبطان دون كلفة يقف طوال الوقت عـــلى مقربة منهم ، وليس فيه من المميزات الواضحة ما يكشف عن منزلته على ظهر السفينة ، كان وجهه بالغ الاستدارة إلا انه كان وجهاً رزيناً ، وكان يلبس صدارة او قميصاً صوفياً حائل اللون وسروالاً مرقعاً ، وكان يقسم اللحظ بين خرز يحمله في احدى يديه وبين علبة دواء يضمها في الاخرى ، مرسلاً بين الحين والحين نظرة فاحصة الى العضوين العاجيين لدى القبطانين المصابين ، ولكن عندما عرفه رئيسه الى آخاب ، انحنى في أدب ، ومضى يؤدي ما أمره به قبطانه دون تردد .

بدأ الجراح يقول : « كان جرحاً مروعاً خبيثاً ، ونصحت القبطان بومر أن يبحر بصومي العتيقة – »

فقاطعه القبطان ذو اليد الواحدة مخاطباً آخاب قائـــلاً : « صومي ترخيم صوموئيل ، وسفينتي اسمها صوموئيل اندربي » .

– « ان يبحر بصومي العتيقة بعيداً نحو الشمال كي يخرج من هذا الجو الحار المتوهج على خط الصيد ، ففعل ، ولكن ذلك لم يجده نفعاً – أنفدت كل طاقتي ، سهرت الى جانبه الليالي ، كنت شديد القسوة في أمر الحمية – »

فرن صوت المريض نفسه يقول : «آه : شديد القسوة !» ثم غيّر صوته فجأة وقال : «كان يشرب شراب الرم الساخن معي كل ليلة حتى يعجز عن ان يرى أين يضع الاربطة ثم يرسلني الى السرير حوالي الثالثة صباحاً وأنا أتتعتع سكراً، آء ايتها النجوم لقد كان يسهر معي حقاً وكان شديد القسوة في أمر الحمية . اوه ان الدكتور بنجر رقيب لا يغفل وهو قاسٍ في شئون الحمية ! (بنجر أيها الكلب جلنجيل بالضحك ! مالك لا تفعل؟ أنت تعلم أنك عيّار ظريف أثير) امض في حديثك ايها الفتى اني لأوثر ان اقتل بيدك على ان أظلّ حياً بيد اي امرىء سواك » .

فقال بنجر الرصين ذو المظهر الورع : « ان قبطاني ، كما لعلك لحظت قبل هذا يا سيدي المحترم ، ذو ميل لان يكون ذا دعابة أحياناً ، فهو ينسج لنا من خياله أشياء كثيرة بارعة من هذا القبيل ، ولكن اسمح لي ان أقول – en passant كما يقول الفرنسيون – بأنني انا نفسي أعني انا جاك بنجر ، نسل القساوسة المبجلين – انا ممن يحرم الخمر على نفسه فلا يقربها ، أعني انني لا أشرب – »

فصاح القبطان «لا يشرب الماء ، انه لا يشربه ابداً ، شرب الماء يلقيه في نوبات ؛ الماء القراح يبعث فيه مرض الفزع من الماء ، لكن امضِ – امضِ في حديثك عن قصة الذراع » .

فقال الجراح في برود : « هذا ما كنت أريد ان أحكيه . كنت أريد ان أنوه يا سيدي – قبل ان يقاطعني القبطان بومر بدعاباته – بأنه رغم محاولاتي المخلصة الشديدة ظلّ الجرح يتطوّر من سيىء الى أسوأ ، والحق يا سيدي أنه كان جرحاً فاغراً بشعاً كأقبح ما رآه جرّاح في حياتـــه ، يزيد طوله على قدمين وعدة بوصات فقد قسته بحبل الرصاص ودون تطويل أقول إنه أسود ،

كنت أعرف العاقبة فجاءت كما قدرتها ولكن لم تكن لي يــــد في وضع تلك الذراع العاجية هنالك فذلك مخالف لكل قاعدة » – وأشار اليها بالمخرز الذي يحمله – « ذلك من صنع القبطان نفسه لا من صنعي ، فقد أمر النجار ان يصنعها ، وعند طرفها وضع تلك المطرقة لكي ينثر بها دماغ من يريد – فيما أظن – كما فعل ذات مرة معي ، ذلك أنه أحياناً يهيج هيجان الشياطين . هل ترى هذه النقرة هنا يا سيدي » – ورفع قبعته وحوّل شعره الى جنب وكشف عن نقرة مجوفة كالطاس في جمجمته ولكن ليس فيها اي أثر لجرح مهما يكن طفيفاً ولا أية علامة تدل على أنها كانت جرحاً – « لا بأس ، فالقبطان سيخبرك كيف حدثت ، فهو يعرف ذلك » .

فقال القبطان : « لا لست أعرف ، إلا ان أمه تعرف فقد ولد بها ، آه ايها الأفقي الوقور يا بنجر ! هل لك مثيل أبداً في عالم المياه ؟ حين تموت يا بنجر فيجب ان تموت في المخللات يا كلب ، يجب ان تحفظ للاجيال القادمة ايها العيّار » .

– « ماذا حدث للحوت الابيض ؟ » كذلك صاح آخاب وقد أصغى حتى تلك اللحظة فارغ الصبر لهذا الحوار الاستطرادي بين الانجليزيين .

فصاح القبطان ذو الذراع : « آه ، حقاً ، أجل ! بعد ان غطس في الاعماق غاب عن أنظارنا بعض الوقت ، والواقع أنني كما ألمعت من قبل لم أعرف اي حوت لعب عليّ هذه الحيلة حتى مضى زمن ما وعدت الى خط الصيد فسمعنا عن موبي ديك – كما يسميه بعضهم – وعندئذٍ عرفت انه هو » .

– « هل عبرت خطّ مخره مرة أخرى ؟ »

– « مرتين » .

— « ولكنك عجزت عن أن تضبطه . »

— « لم أرد ان أجرب ذلك. أليس في عضو واحد عبرة؟ ما نفعي لو فقدت الذراع الأخرى ؟ وانا أظن ان موبي ديك لا يضرّس بأنيابه ، وهو يبتلع ما يلتهمه » .

فقاطعه بنجر قائلاً : « حسن اذن ، اعطه ذراعك اليسرى طُعماً لتسترد اليمنى ، هل تعرفان ايها السيدان » — وانحنى في خشوع وتقدير مقدّر لكل واحد من القبطانين على حدة — « هل تعرفان ايها السيدان ان جهاز الهضم في الحوت قد ركبته العناية الالهية على نحو غامض لا يدرك حتى ليستحيل عليه ان يتم هضم ذراع انسان ؟ وهو يعرف ذلك ايضاً ، حتى ان ما تعده حقد الحوت الابيض إنما هو قلة حيلته لانه لا يهدف الى ان يبتلع اي عضو وانما يريد ان يبث الرعب بالخدع ، غير انه أحياناً كذلك المشعوذ الذي كان فيما مضى أحد من عالجتهم في سيلان ، كان يوهم الناس أنه يبلع السكاكين ، ومرة ترك احداها تسقط في جوفه حقيقة لا وهماً فاستقرت هنالك اثني عشر شهراً او اكثر فسقيته مقيئاً فقذف بها قطعاً صغيرة . لا سبيل له الى ان يهضم سكيناً وان يتمثلها في بنيته . أجل، بومر ايها القبطان، ان كنت متعجلاً الامر وترغب في ان ترهن ذراعاً من أجل ان يكون لك حق دفن الاخرى دفناً شريفاً ففي هذه الحال أنت صاحب الأمر في المسألة ، اذ الذراع ذراعك ، ما عليك إلا ان تسمح للحوت بفرصة أخرى في القريب العاجل ، وذلك كل ما هنالك » .

فقال القبطان الانجليزي : « لا وشكراً يا بنجر، هنيئاً له بالذراع التي اخذها ما دمت لا أملك ان استردها — ولم اكن اعرفه حينئذ — ولكني لن اجازف بالاخرى . لا اريد حيتاناً بيضاً بعد اليوم، لقد طاردته مرة وذلك حسبي ؛ قد يكون في قتله مجد عظيم، ذلك ما أدريه، وفيه ملء سفينة من العنبر

الثمين ولكن أصغ لي، من الخير ان يترك في حال سبيله، ألست تعتقد ذلك ايها القبطان ؟ » — ولحظ الرجل العاجية .

— « صحيح . ولكن سيظل هنالك من يطارده رغم ذلك . كان تركه في حال سبيله أولى لولا ان ذلك الحيوان اللعين شديد الاغراء والجاذبية، كأنه جسم من المغناطيس . منذ متى رأيته آخر مرة ؟ وفي اي طريق كان يتوجه؟»

فصاح بنجر وهو ينحني دائراً حول آخاب متشممًا، على نحو غريب كأنه كلب : « بارك اللهم روحي والعن الشيطان الرجيم — دم هذا الرجل — هاتوا ميزان الحرارة ! قد بلغ دمه درجة الغليان ! نبضه يهز ألواح السفينة — سيدي ! » واستخرج من جيبه مبضعًا واقترب من ذراع آخاب .

فزأر آخاب وهو يدفعه نحو حافة السفينة : « اليك عني ! هيئوا القارب ! في اي وجهة مضى ؟ »

فصاح القبطان الانجليزي وكان السؤال موجهًا اليه : «يا رب يا رحيم ! ماذا دهاه ؟ أظنه كان متوجهًا شرقًا — » ثم همس يسأل فيض الله : « هل قبطانكم مجنون ؟ »

ولكن فيض الله وضع اصبعه على شفتيه ، وانزلق عن حافة السفينة لكي يقوم على المجذاف الرئيسي في القارب، وطوّح آخاب بالمرفاع نحوه آمراً بحارة السفينة ان يقفوا على مقربة منه لانزاله .

وبعد لحظة كان يقف في مؤخرة القارب وكان ابناء مانيلا يثبون نحو مجاذيفهم. وناداه القبطان الانجليزي، فطارت نداءاته في الفضاء . لقد ادار آخاب ظهره للسفينة الغريبة ، وصوب نظره كأنه الصوّان نحو سفينته، ووقف منتصبًا حتى حاذى قاربه الباقوطة .

١٠١ القارورة

لأدوّن في هذا المقام قبـــل ان تغيب السفينة الانجليزية عن الانظار أنها صَدَرت من لندن وأنها سميت باسم المتوفـّى صوموئيل اندربي أحد تجار تلك المدينة ومؤسس أسرة التحويت المشهورة التي تسمى « أسرة اندربي وأولاده » ؛ وهي أسرة لا تتخلف كثيراً في رأي حوات متواضع مثلي وراء آل تيودور وبوربون مجتمعين ، في أهميتها التاريخية . ان وثائق الصيد العديدة التي في حوزتي لا توضح متى وجدت هذه الأسرة التحويتية الكبرى ، ولكنها في عام ١٧٧٥ جَهزت اول سفن انجليزية بدأت صيد حوت العنبر بانتظام مع انه قبل حوالي أربعة عقود من هـــذا التاريخ (اي منذ ١٧٢٦) كان آل كوفن وماسي البواسل من نانتوكت وفنيارد قد طاردوا ذلك اللوياثان في أساطيل ضخمة مقتصرين في صيـــدهم على الأطلسي الشمالي والجنوبي دون ان يتعدوهما؛ ولكن الوثائق تفيد ان أبناء نانتوكت كانوا اول الناس الذين مارسوا قذف حوت العنبر بالفولاذ المثقف ، وأنهم ظلوا على مدى نصف قرن وحدهم من بين أبناء الكرة الارضية هم الذين يصيدونه على هذا النحو .

وفي عام ١٧٧٨ [١] خرجت سفينة لطيفة تسمى أميليا لغاية محددة ، على نفقة آل أندربي النشطاء ، فدارت بجسارة حول رأس هورن ، وكانت اول سفينة تنزل قارب تحويت من أي نوع في البحر الجنوبي الكبير . وكانت الرحلة ماهرة

---

١ أخطأ ملفل النقل هنا والصواب ١٧٨٨ .

مجدودة ، اذ عادت أميليا الى مرفأها وقد امتلأ عنبرها بزيت العنبر الثمين ، وسرعان ما حذت حذوها سفن أخرى انجليزية وأمريكية ، فانفتحت بذلك مجالات الصيد الفسيحة في المحيط الهادي لاقتناص حوت العنـــبر ، ولكن آل أندربي الذين لا يدركهم الاعياء والفتور لم يقنعوا بهذا العمل الجليل بل انهم همّوا من جديد : صوموئيل وأبناؤه – كم كان عددهم ؟ أمهم وحدها تعلم ذلك – وتحت إشرافهم المبـاشر ، وأظن أنهم تكفلوا بقسم من النفقات – اقتنعت الحكومة البريطانية بأن ترسل السفينة راتلر – وهي حربية ذات مدفع – في رحلة تحويت للاستكشاف في البحار الجنوبية ، يقودها قبطان أصبح فيما بعد من قباطنة الاسطول، فقامت (واسمها يعني الجلجلة) برحلة مجلجلة وأدت شيئاً ما، ولكن ما أدته غير معروف على وجه الدقة . ولم يكن هذا هو كل ما هنالك . بل ان آل اندربي جهزوا من أنفسهم عام ١٨١٩ سفينة تحويت للاستكشاف ، كي تذهب في جولة استطلاعية الى بحار اليابان النائية وقد قامت تلك السفينة – وبحق سميت Syren – بتجواب تجريبي رفيع الشان، وعن طريقها أصبح الناس يعرفون مجالات التحويت اليابانية الكبرى لاول مرة . وكان قبطانها في هذه الرحلة نانتوكتياً من آل كوفن .

ما أحرى آل اندربي لهذا بالتمجيد والاشادة ، ولا يزال بيتهم فيما أظن قائماً حتى اليوم ، ولكن لا ريب في ان صوموئيل جدّ هذه الاسرة قد زلقت رجله عن حبل سفينته وهو ذاهب الى البحار الجنوبية في العالم الآخر منذ عهد طويل .

وكانت السفينة التي سميت باسمه جديرة بذلك الشرف لانها كانت سريعة نبيلة من كل وجه ، وقد ركبت فيها ذات مرة عند منتصف الليل على مبعدة من ساحل بتاغونيا ، وشربت في منارتها مزراً لذيذاً ؛ كانت عصبة ظريفة وكان كل من فيها – كل نفس على ظهر السفينة – أخاً في الضرّاء . عاشوا حياة قصيرة

وماتوا موتاً جميلاً ، وتلك العصبة التي عرفتها – بعد وقت طويل طويل من ملامسة آخاب الشيخ لالواحهـــا بكعبه العاجي – تذكرني بذلك الكرم السكسوني النبيل المتأصل في تلك السفينة ، نسيني راعيّ وتذكرني الشيطان ان هي غابت عن ناظري أبداً . مزراً ؟ هل قلت : شربنا مزراً ؟ أجل وقد « مزرناه » بنسبة عشرة جالونات في الساعة . وعندما هبت العاصف (والجو كثير العواصف ازاء بتاغونيا) ودعي جميع الموجودين – من ضيوف وغيرهم – ليلفوا الاشرعة العليا كنا قد أصبحنا متعتعين سكراً حتى كان على الواحد منا ان يطوح بالآخر عالياً في حبال الاشرعة كأنه يدفعه في أرجوحة . ويجهل منا لففنا حوافي صدائرنا في الاشرعة ، فتعلقنا هنالك ملفوفين مشبوحين في العاصف العاوي ، نذيراً يعتبر به كل بحار مخمور . ومهما يكن من شيء فان الصواري لم تهبط على ظهر السفينة ورويداً رويداً نزلنا زاحفين ، وقـــد طار السكر من رءوسنا حتى لعدنا ندير المزر مرة أخرى ، ولكن الرذاذ الملح الشرس الذي كان ينقض نحو ناروزة المنارة جعلني أحس ان المزر قد خفّ حدة وتملّح طعماً حين مازجه الرذاذ .

أما لحم البقر فكان لذيذاً – كان جاسياً بعض الشيء ولكنه كان مكتنزاً حنيذاً ، قالوا انه لحم عجل وقال بعضهم بل هو لحم ثور هجين ، ولكني لا أدري كيف كان ذلك على وجه اليقين ، وكان لديهم فطير سكري ايضاً ، صغير إلا انه غني كروي تام الكرية لا يسهل كسره . ولقد خيل إلي ان المرء قد يحس بكراته ويديرها في جوفه بعـــد ان يبتلعها ؛ واذا انحنى كثيراً الى الامام فربما انطلقت من جوفه كأنها كرات البليارد . والخبز وما ادراك ما الخبز ؟ كان فيه ما يمنع فساد الدم وبايجاز كان الخبز يحوي الغذاء الوحيد الذي يمد لديهم طازجاً، إلا ان المنارة لم تكن حسنة الاضاءة كثيراً، فكان من السهل على المرء ان ينحاز الى زاوية معتمة اذا أخذ يأكله. لكن اذا اعتبرت صوموئيل اندربي من كوثلها حتى دفتها وقدّرت ابعاد المراجل التي لدى طباخها وعددت

فيها مرجله الحي[3] ، أقول : ان صوموئيل اندربي من حيث رمقتها وجدتها سفينة ظريفة : الغذاء فيها طيب وفير ، والمزر قوي لذيذ ، والزملاء ظرفاء ، كل امرىء فيهم ممتاز من أخمص قدمه حتى مفرق رأسه .

ولكن لمّ كانت ـ فيا تخمّن ـ صوموئيل اندربي وبعض الحواتات الانجليزية الاخرى التي أعرفها ـ لا كلها ـ سفناً مشهورة مضيافة ، تقدم لحم البقر والخبز والكأس والنادرة ولا يدركها السأم من الاكل والشرب والضحك ؟ سأخبرك . ان هذا المرح الوفير في الحواتات الانجليزية مسألة تحتاج بحثاً تاريخياً ولم أكن انا ابداً متلكئاً بالبحث التاريخي في شئون الحيتان والتحويت ان بدا ذلك أمراً مطلوباً .

ان الهولنديين والزيلنديين والدنماركيين سبقوا الانجليز في التحويت، ومن هذه الامم استعار الانجليز مصطلحات كثيرة لا تزال مستعملة في حرفة الصيد، بل استعاروا منهم عاداتهم القديمة في الاكثار من الاكل والشراب اذ ان السفن التجارية الانجليزية تقلل عدد الملاحين اقتصاداً ، ولكن الامر ليس كذلك في الحواتات ؛ واذن فان هذا المرح والتفنق لدى الانجليز في التحويت غير عادي وغير طبيعي وانما هو عارض وخاص ولذلك كان لا بد له من أصل، وقد بينت أصله في هذا المقام وسأوليه تبياناً فيا يلي .

اثناء بحثي في تواريخ الحيتان وقعت على كتاب هولندي قديم [2] وعرفت من رائحة العفونة التحويتية فيه انه لا بد ان يكون عن الحواتات؛ كان عنوانه «دان كوبمان» فاستنتجت انه لا بد ان يكون مذكرات باللغة القيمة كتبها صانع براميل أمستردامي يعمل في الحواتة، اذ كل حوّاتة لا بد ان يكون فيها مثل

---

١ يعني معدته .

٢ ها هنا يحاكي ملفل طريقة اسكورسبي واحصاءاته ساخراً في هذه الفقرة.

هذا الصانع، وقوّى هذا الرأي لدي حين وجدته من تأليف « فتز الحداد » غير ان صديقي الدكتور زنودهد وهو عالم ضليع واستاذ للهولندية والالمانية في كلية سنتاكلوز وسنت بوتس، وقد سلمته الكتاب ليترجمه وأعطيته لقاء تعبه صندوقاً من شمع حوت العنبر – هذا الدكتور زنودهد نفسه ما ان القى نظرة على الكتاب حتى أكد لي ان « دان كوبمان » لا تعني «صانع البراميل» وانما تعني «التاجر». وبايجاز اقول ان هذا الكتاب الهولندي العتيق العميق يعالج تجارة هولندة، وفيه – بين سائر ما فيه – خبر هام ممتع عن التحويت وفي هذا الفصل منـــه وعنوانه « الشحم » وجدت قائمة طويلة تحتوي اسماء المواد التي تودع في مخازن ومخادع ١٨٠ سفينة من الحواتات الهولندية وأنا أثبت من القائمة ما يلي، حسبما ترجمها الدكتور زنودهد :

٤٠٠ ٠٠٠ رطل من لحم البقر

٦٠ ٠٠٠ رطل من لحم خنزير فريزلاند

١٥٠ ٠٠٠ رطل من السمك القديد

٥٥٠ ٠٠٠ رطل من البسكويت

٧٢ ٠٠٠ رطل من الخبز الناعم

٢ ٨٠٠ فركين (ربعة) من الزبدة

٢٠ ٠٠٠ رطل من جبنة تكسل وليدن

١٤٤ ٠٠٠ رطل جبنة (لعلها أقل جودة من الجبنة السابقة)

٥٥٠ أنكر من الجن (الأنكر = ١٠ جالونات)

١٠ ٨٠٠ برميل من البيرة .

اكثر القوائم الاحصائية جاف متيبس لدى القراءة، الا ان هذه القائمة بخلاف ذلك حيث يغرق القارىء بين دفق من انابيب وبراميل وربعات وجداول من شراب الجن والمرح الطيبين .

في ذلك الوقت أنفقت ثلاثة ايام وأنا أحاول جاهداً ان اهضم كل هذه البيرة ولحم البقر والخبز فعرض لي في اثناء ذلك كثير من الافكار العميقة يمكن ان تتقبل التطبيق الافلاطوني والتجريدي، ثم اني اضفت جداول اخرى استكملتها بنفسي، تتناول كمية السمك القديد وغيره من المواد التي يستهلكها كل حوات هولندي في الحواتة القديمة عند جرينلاند وسبتزبرجن، وتبدى لي لاول وهلة ان كمية ما يستهلك من الزبدة وجبنة تكسل وليدن كمية مذهلة، وعزوتها من ثمّ الى طبائعهم الدهنية — بطبيعتها — وقد زادت دهنيتها بطبيعة الحرفة نفسها، وبخاصة لمطاردتهم الحيتان في البحار القطبية المتجمدة قريباً من سواحل منطقة الاسكيمو حيث سكان تلك البلاد المرحون يشرب احدهم نخب الآخر كؤوساً من زيت الاسماك أو الحيتان .

كذلك كمية البيرة كبيرة جداً، أعني ١٠٨٠٠ برميل . فاذا عرفت ان التحويت في المناطق القطبية لا يمكن اجراؤه الا في الفترة القصيرة التي يسمونها صيفاً في ذلك المناخ حتى ان الرحلة التي تقوم بها احدى الحواتات الهولندية بما في ذلك السفرة القصيرة من بحر سبتزبرجن ذهاباً واياباً لا تتجاوز ثلاثة اشهر بكثير ، واذا قدرت ثلاثين رجلاً لكل سفينة في اسطولهم ذي الـ ١٨٠ سفينة كان لديك ٥٤٠٠ بحار . لذلك اقول فان كل شخص يصيبه على وجه الدقة برميلان من البيرة يصرفان له في خلال اثني عشر اسبوعاً، هذا دون ان نحسب ما يخصه من الـ ٥٥٠ أنكر من شراب الجن . ترى هل هؤلاء الحواتون الذين تملأوا بيرة وجناً — وقد افرطوا في السكر حسبما قد يتخيلهم المرء — هم الناس الصالحون ليقفوا عند رأس القارب ويسددوا الرماح نحو الحيتان الطائرة.

قد يبدو هذا مجاوزاً للاحتمال بعض الشيء . ولكنهم طالما سددوا اليها الرماح وأصابوها . غير ان علينا ان نذكر بان هذا كان في اقصى الشمال حيث البيرة تناسب البيئة . اما على خط الاستواء – في المجالات الجنوبية – فان البيرة ترمي الحوات بالنعاس اذا كان في قمة الصاري، وتجمله نشوان وهو في قاربه ، ومثل هذا يجر خسارة بالغة على نانتوكت ونيوبدفورد .

لا مزيد . لقد أشبعت القول لأبين ان الحواتات الهولندية القديمة قبل قرنين او ثلاثة قرون كانت تتفنن في الترف وان الحواتات الانجليزية لم تغفل هذا المثال الطيب . وفي المثـــل : اذا كنت تطوف البحار في سفينة فارغة فاستخرج من العالم عشاء طيباً على الاقل ان عجزت عن استخلاص ما هو خير من ذلك . بهذا تفرغ الجعبة، وتصفِرُ القارورة .

١٠٢ ظن في البلاد الارسكية

قصرت اكثر اهتمامي – حتى هذا الحدّ ، وأنا أعالج حوت العنبر واصفاً – على أعاجيب مظهره الخارجي ، وعلى بعض الملامح الداخلية في بنيته، وتناولت هذه الاخيرة في مواضع متفرقة وفي شيء من الاسهاب ، ولكن يخلق بي من أجل الاحاطة الشاملة والفهم المحيط المستفيض ان أفك عنه سائر الأزرار وأن أمزق معاقد جوربيه ، وان أحل أربطة ساقيه ، وأرخي الاوتار والمحاجىء في مفاصل عظامه الموغلة في بنية جسده ، وأبرزه لكم في عريه الكامل ، أعني في هيكله الذي انحسرت عنه القيود والأعلاق .

ولكن أنّى لك ذلك يا اسماعيل ؟ كيف تـــدعي وأنت محض مجذّف في حرفة التحويت أنك تعرف شيئاً عن الاجزاء الدخيلة في الحوت ؟ هل امتطى اسطب اللوذعي الاريب مسحاب قاربك وألقى محاضرات في تشريح الحيتان ، وبعون الدولاب الرافع اتخذ أحد الاضلاع وسيلة للتوضيح والبيان ؟ أفصح عن نفسك يا اسماعيل . هـــل تستطيع ان تطرح على ظهر سفينتك حوتاً للفحص والاختبار مثلما يجزىء الطباخ الخنزير المشويّ ؟ طبعاً لا . حتى هذا الحـــد كنت يا اسماعيل شاهداً موثّقاً ، ولكن تدبر كيف تحتاز الميزة التي استقلّ بها يونان وحده ، ميزة الحديث عن الدعائم والعمد والعوارض وسنادات الجسور والاسرة ومواد التأسيس جميعاً في بنية الحوت ، وعن خوابي الشحم وغرف اللبن وحوانيت الخبز والزبدة ودكاكين الجبن في أحشائه .

بعد عاصفة غاضبة ثائرة طال بها الغضب والهياج ، وقد استند رأسه الى شجرة جوز الهند فبدت ثنياتها المقنزعة التي تشبه الريش كأنها نفائته المخضوضرة وحين انـتزع الجسم الجسيم اخيراً من بين المواد التي تكتنفه وهي تبلغ القامة ارتفاعاً وأصبحت العظام جافة كيبيس الثرى تحت الشمس نقل الهيكل باعتناء الى وهدة بوبلا حيث يقيه اليوم هيكل عظيم من النخل العمّ الطوال .

أما الاضلاع فعلقت عليها أسلاب النصر ، وأما الفقارات فنقشت فيها التواريخ الارسكيدية في خطوط غريبة ؛ وأما الجمجمة فقد وضع فيها الكهنة شعلة شذية لا تنطفىء حتى ان الرأس العجيب ظلّ يرسل نفثاته البخارية بينا علق الفك الاسفل المريع من احد الاغصان ليتذبذب فـــوق رءوس العابدين الاتقياء كأنه السيف المفزع المعلق بشعرة فوق رأس داموقليس .

كان منظراً عجباً : الغابـــة خضراء كأنها طحالب الوهدة الجليدية ، والاشجار سامقة مستكبرة تحسّ عصارتها الحية ، والارض الكدود من دونها كأنها نول النساج وعليه بساط رائع فاخر ، وعساليج الكرمة الارضية تمثل السداة واللحمة ، والازهار الحية تمثل الزخارف والرسوم ؛ كل شيء لا يكف عن النشاط والحيوية : كل الاشجار وكلّ ما فيها من غصون مثقلة، كل الاعشاب والسرخس والحشائش ، والهواء الذي ينقل بينها الرسالات . والشمس العظيمة تبدو بين فجوات الاوراق وشيعة تنسج الخضرة التي لا يدركها حؤول . آه ايها الحائك المنهمك ، ايها الحائك الخفيّ ! توقف ، لي اليك كلمة ! الى أين يفيض هذا النسيج ، اي قصر قد يزين؟ ما غاية هذا الكد الدائب؟ أجب ايها الحائك. أوقف يدك ! لي اليك كلمة واحدة ! لا ... ان المكوك يدور ، والزخارف تفيض عن النول والبساط المندفع كالجدول يظل ينزلق بعيداً. اما الرب الحائك فيمضي في حياكته ، ويصمّه النسج فلا يسمع صوتاً بشرياً ، ونحن الذين ننظر الى النول يصمّنا الطنين ، ولا نسمع آلاف الاصوات التي تتحدث من خلاله إلا

اذا نجونا من ربقته ، وكذاك هو الحال في جميع المصانع المادية : فان الكلمات المنطوقة التي لا تسمع بين المغازل الدائرة هي نفسها تسمع بوضوح وراء الجدران مندفعة من خلال المنافذ المفتوحة . على هذا النحو اكتشفت الدسائس ؛ فتنبه اذن يا ابن آدم اذ ان أدق أفكارك وأخفاها في ضجيج هذا النول الكوني قد يكون مسموعاً من بعيد .

وسط هــذا النول الأخضر ، نول الحياة التي لا تعرف الفتور في الغابة الارسكيدية يقع ذلك الهيكل الجسيم المعبود كسولاً مسترخياً – هو كسلان هائل ؛ ولكن بينا تلتقي السداة واللحمة المخضوضرتان اللتان لا تكفان عن التداخل والتلاقي والطنين من حــوله فان ذلك الكسلان القوي يبدو وكأنه الحائك الذكي وهو نفسه ينسج حول نفسه عساليج الكرمــة ، وفي كل شهر ينتحل لنفسه خضرة جديدة أشدّ من سابقتها اخضراراً ، إلا انه لا يعدو ان يكون هيكلاً . الحياة تغلف الموت ؛ الموت ينسج الحياة ، والرب الجاهم يعرس بالحياة الناضرة الفتية فينجبان أمجاداً مجعدة الشعور .

وحين زرت هذا الحوت العجيب في صحبة ترانكو سليل الملوك ورأيت الجمجمة قد جعلت مذبحاً والدخان يتصاعد من حيث تنبثق النفثات الحقيقية عجبت للملك كيف يعتبر المعبد موضعاً للفضيلة ، فضحك ؛ ولكن عجبي زاد حين عرفت ان الكهنة يقسمون ان نفاثته المدخنة كانت أصيلة لا مصنوعة . خطوت أمام هذا الهيكل ذاهباً آيباً ، أزحت عنه عساليج النبات ، تغلغلت داخل الاضلاع ، وتجولت فيه وانا أحمل كبة من خيوط القنب الارسكيدي ، وطوفت في منعطفاته الكثيرة ومساربه وعرائشه الظليلة ولكن سرعان ما نفد الطـّوَل المرخى فعدت أتتبعه وخرجت من الفتحة التي منها دخلت فلم أرَ فيه شيئاً حياً ، ولم يكن هنالك شيء سوى العظام .

وأنا أعترف انه قلما أتيح لأحد من الحواتين ، بعد يونان ، ان يتغلغل بعيداً وراء إهاب الحوت الفتيّ ، ومع ذلك فقد سنحت لي الفرصة لكي أشرّحَ صورة منه مصغرة . كنت في احدى السفن فرفع الى ظهرها ذات مرة حوت عنبر صغير طلباً لجرابه أو كيسه لتصنع منه أغماد لثعالب الرماح وظبا الحراب ، فهل تظنني ادع هذه الفرصة تفلت من يدي دون ان استعمل بلطتي الصغيرة ومديتي ، فأفض الختام واقرأ كل ما هو مكتوب في ذلك الحُوَيْت ؟

وأما معرفتي الدقيقة بعظام اللوياثان في حال اكتمالها نمواً وضخامة فأنا مدين بتلك المعرفة النادرة الفذة الى صديقي الراحل ترانكو ملك ترانكه احدى الجزر الارسكيدية [1] . ذلك أني منذ سنوات كنت في ترانكه اذ كنت تابعاً للسفينة التجارية « صبغة الجزائر » فدعيت لقضاء جانب من عطلتي الارسكيدية مع عاهل ترانكه ، في قصره البعيد المحفوف بالنخيل في بوبلاّ ، وهدة عند البحر لا تبعد كثيراً عما يدعوه ملاحونا مدينة البامبو عاصمته .

وصديقي ترانكو ربيب المُلكِ قد وهب بين ما وهبه من صفات ظريفة حباً مكيناً لكلّ ما يتصل بالفضائل البربرية فحشد في بوبلا كل الطرف النادرة التي استطاع الافذاذ من بني قومه ابتكارها ، وبخاصة الخشب المحفور في أشكال عجيبة والاصداف المنحوتة والحراب المرصعة والمجاذيف الثمينة والزوارق الشذية ، وكل هذه قد وزعت بين ما اتفق وجوده من عجائب طبيعية تحملها الامواج حمّالة العجائب وتؤديها جزية لذلك الملك على شواطىء بلاده .

ومن أبرز هذه العجائب الطبيعية حوت عنبر جسيم وجد ميتاً مطروحاً ،

---

[1] مجموعة من الجزر عند الطرف الجنوبي من جزائر سليمان ، وليست ترانكه منها وانما هي جزيرة صغيرة على مسافة من شاطئ شيلي .

وقطعت قضيباً أخضر يصلـــح ان يتخذ مقياساً وغصت في الهيكل مرة أخرى فرآني الكهنة من شق في الجمجمة أقيس طول الضلع الأخيرة ، فصاحوا بي : « كيف تجرؤ على ان تقيس الهنا . هذا لنا وحدنا » فقلت : « صدقتم أيها الكهنة ولكن كم تقدرون طوله إذن ؟ » وهنا ثار بينهم جدل حادّ حول الاقدام والبوصات ، فكسروا رءوس بعضهم بعضاً بعصيّهم ، ورددت الجمجمة الضخمة الصدى ، فانتهزت هذه الفرصة السعيدة وأنهيت مسرعاً قياساتي .

هذه القياسات هي ما أزمع الآن ان اضعه أمام أعينكم ولكن لأقرّر هاهنا اولاً أنني في هذا الامر غير حرّ لاتفوه بأي تقدير مزعوم أشاؤه، لان لديكم ثقات في شئون الهياكل تستطيعون الاحتكام اليهم لتختبروا دقتي . فقد أخبرت ان في مدينة هل بانجلترا — وهي احـــدى موانىء التحويت في تلك البلاد — متحفاً للحيتان فيه عينات ونماذج لطيفة من الحيتان المزعنفة والحيتان الاخرى. وسمعت ايضاً ان في متحف مانشستر في نيوهامبشير ما يسميه المالكون له : « العينة الوحيدة الكاملة من حوت جرينلاند او حوت النهر في الولايات المتحدة» ثم ان في مكان بيوركشير في انجلترا اسمه بيرتون كونستابل رجلاً يدعى سير كلفورد كونستابل وهو يملك هيكل حوت عنبر إلا انه ذو حجم معتدل وهو لا يبلغ بأي حال مبلغ الحوت المكتمل الذي لدى صديقي الملك ترانكو .

وفي الحالين تتشابه الاسس التي تم بموجبها أصلاً امتلاك هذين الحوتين اللذين طرحهما البحر وأخذ منهما الهيكلان . اما الملك ترانكو فقد استولى على الحوت الذي حازه لانه بحاجة اليه ، واما السير كلفورد فقد استأثر به لانه كان رب السلطة في تلك النواحي ؛ وقد فصّل حوت السير كلفورد في جميع أجزائه فأصبحت تستطيع ان تفتحه وتغلقه في كل فجواته العظمية كأنه صندوق ضخم من الادراج وتمدّ اضلاعه كالمروحة الضخمة وتتأرجح طوال اليوم على فكه الاسفل . وستوضع الاقفال على بعض مغالقه وأبوابه المسحورة ، وسيكون

دليل الزوار في المستقبل رجلاً يعلق حزمة من المفاتيح على جنبه، ويرى السير كلفورد ان يتقاضى بنسين على من يطلّ في السقيفة الهامسة في العمود الفقري ، وثلاثة بنسات على سماع الصدى في تجويف المخيخ ، وستة على المنظر الفذ الذي لا يضاهى من جهة جبهته .

وأبعاد الهيكل التي سآخذ في تقييدها هاهنا قد نسختها حرفياً عن ذراعي اليمنى حيث كنت قد سجلتها بالوشم ، اذ لم يكن لدي في سفراتي المغامرة يومئذ اي طريقة مأمونة اخرى تكفل الاحتفاظ بهذه الاحصاءات القيمة ؛ ولكن بما أن المساحة كانت متضايقة ، وكنت أرغب في ان أبقي سائر أجزاء جسدي صفحة بيضاء لاكتب عليها قصيدة كنت أنظمها حينئذٍ – او على الاقل اكتبها على ما تبقى من أجزاء غير موشومة – لذلك لم أعنّ نفسي بتقييد البوصات ، والحق ان البوصات يجب ألا تدخل في أي مقياس مناسب يؤخذ للحوت .

١٠٣ قياس هيكل الحوت

أريد ان اضع بين أيديكم – في المقام الاول – تقريراً خاصاً واضحاً حول البنية الحية لهذا اللوياثان الذي سأعرض عليكم هيكله في ايجاز، فقد يكون هذا التقرير في هذا الموطن مفيداً .

حسب التقدير الدقيق الذي قمت به وبنيته – من بعض نواحيه – على قول القبطان اسكورسبي : ان اكبر حوت اثين (حوت جرينلاند) يبلغ ستين قدماً في الطول فانه يزن سبعين طناً، أقول : حسب تقديري الدقيق ان اضخم حوت عنبر يقع بين ٨٥ – ٩٠ قدماً في الطول وان محيطه في أعرض المواضع اقل قليلاً من اربعين قدماً وان مثل هذا الحوت يزن تسعين طناً على الاقل فاذا قدرت لكل طن ثلاثة عشر رجلاً فانه يرجح كثيراً بسكان قرية كاملة مجتمعين يعدون ألفاً ومائة نسمة .

ألا ترى معي انه لا بد من وضع أدمغة كثيرة في هذا اللوياثان ، كالبقر التي تضعها تحت النير، كي تجعله يتزحزح فيدخل في خيال اي واحد من ابناء الارض؟

وبما انه قد سبق لي ان وضعت امامك جمجمته وقب نفاثته وفكه واسنانه وذنبه وجبهته وزعانفه واجزاء اخرى متنوعة منه فاني اكتفي هنا بأن ابين اشد ما يثير الاهتمام في الحجم العام من عظامه التي لا يعترض دونها عارض؛ وبما ان الجمجمة الجسيمة تحتل نسبة كبيرة جداً من طول الهيكل الكلي مثلما انها اشد اجزائه تعقيداً، وبما اني لن اكرر شيئاً عنها في هذا الفصل فلا أرينك تعجز

عن حملها في ذهنك او تحت ابطك فيما نحن نذهب قدماً، وإلا لم تستطع ان تكسب فكرة كاملة عن بنيته العامة التي سنلقي عليها النظر بعيد قليل .

كان طول هيكل حوت العنبر في ترانكه اثنين وسبعين قدماً، فاذا كسوته اللحم والاهاب وجعلته يمتد حياً كان طوله تسعين قدماً ولا بد ؛ لان هيكل الحوت يفقد حوالي خُمس طوله اذا قيس ببنيته وهو حيّ . وتساوي جمجمته وفكه عشرين قدماً من طوله كله، ويبقى خمسون قدماً تمثل العمود الفقري ؛ ويتصل بهذا العمود – على طول يبلغ اقل من ثلث طوله الكلي – قفص دائري هائل من الاضلاع كانت تضم ذات مرة اعضاءه الهامة .

وكنت ارى هذا الصدر ذا الحنايا العاجية وذلك الصلب الطويل الموثق به يمتد طويلاً في خط مستقيم فأرى شيئاً يشبه هيكل سفينة ضخمة قد وضعت حديثاً على الالواح ولم يصف الصناع من اضلاعها العارية سوى عشرين او نحوها، فأما أرينتها فما تعدو ان تكون في ذلك الحين ، خشباً طويلاً غير موصول الاواصر .

وعلى كل جهة عشرة اضلاع وأولها – اذا بدأنا العدّ من جهة العنق – يبلغ ما يقرب من ستة اقدام طولاً، والثاني اطول منه وكذلك الثالث والرابع على التوالي ، حتى تبلغ ذروة الضلع الخامس او واحداً من الاضلاع الوسطى وطول الواحد منها ثمانية اقدام وبضع بوصات، ومن ثمّ تتناقص اطوال الاضلاع الباقية حتى العاشر آخرها، وهو لا يبلغ سوى خمسة اقدام وبضع بوصات . وأما في السمك فانهـــا جميعاً ذات سمك مناسب لاطوالها ، وأشدها تقوساً الاضلاع الوسطى، وهي تستعمل في بعض جهات الاراضي الارسكية عوارض تمد فوقها الجسور للعبور فوق الجداول .

وحين تأملت هذه الاضلاع لم املك الا ان أعجب عجباً مستأنفاً من الامر الذي أبدأت فيه وأعدت في هذا الكتاب وهو ان هيكل الحوت لا يمثل شكله الكلي وهو مطبّق لحماً وشحماً ، واكبر اضلاع الحوت الذي رأيته في ترانكه – وهو احد الاضلاع الوسطى – يشغل ذلك الجزء الذي يعد في الحوت – وهو حي – أبعد الاجزاء غوراً ؛ واعظم غور لجسم ذلك الحوت قبل ان يجرّد من اهابه يبلغ ستين قدماً، في الاقل، بينا لا يبلغ طول الضلع المصاقب لذلك الغور إلا ثمانية اقدام او أزيد قليلاً، فهذا الضلع لا ينقل الينا من حقيقة الغور في ذلك الجزء من الحوت الحيّ إلا نصفها، ثم ان الموضع الذي لم أرَ فيه الا فقاراً عارياً كان مكسواً ذات يوم بأطنان من اللحم والعضل والدم والاحشاء تزيد من ضخامته . زد على ذلك اني لم أرَ مكان الزعانف المستعرضة الا بضعة مفاصل مفككة ، وما رأيت في موضع الشطيرتين الراجحتين الفخمتين اللتين لا عظم فيهما شيئاً سوى فراغ مديد .

وقلت لنفسي حينئذ : ما احمق واجهل المرء الفروقة الذي لم يتمرس بالاسفار وهو يجرب ان يتصوّر هذا الحوت العجيب تصوراً شاملاً صحيحاً بالاستغراق في تأمل هيكله الميت المهزول وهو ممتد في هذه الغابة الآمنة . كلا ! لا يدرك احد الحوت وهو في كامل لبوسه ادراكاً صحيحاً حيًّا إلا في وهو قلب الخطر الوحيّ، إلا وهو دون خطران شطيرتيه الغاضبتين، إلا وهو على أثباج البحر العميق المترامي .

والعمود الفقري وما ادراك ما هو! خير وضع تتأمله فيه وتقدر جسامته هو ان تكدس الفقرات فيه صعداً بقوة المرفاع . عملٌ لا يتمّ لحمًا . ولكن اذا كان في الامكان اتمامه بدا لك وكأنه سارية بومبي [1] .

---

[1] طولها ٦٧ قدماً على قاعدة تبلغ ٢١ قدماً وتقع على بعد $\frac{٣}{٤}$ ميل من الاسكندرية .

وعدد الفقرات اربعون ونيف غير موثقة في الهيكل معًا وانما تتراءى كالقطع الحجرية العقداء في مسلّة قوطية وتشكل مداميك صلبة من بناء راسخ؛ واكبرها احدى الفقرات الوسطى ويبلغ اتساعها اقل من ثلاثة اقدام بقليل وتزيـــد في الارتفاع على اربعة، واصغرها حيث يستدق العمود الفقري عند الذنب تبلغ القدمين اتساعًا وتبدو كأنها كرة بليارد بيضاء وقد قيل لي ان هناك فقرات اصغر منهـــا ولكن استطارها بعض الجنّ الصغار العابثين اعني تلامذة القسيس الذين سرقوها ليلعبوا بها لعبة الأكر . وهكذا نرى ان فقار اضخم الموجودات الحية تستدق حتى تصبح في النهاية لعبة في يد طفل .

١٠٤ الحوت في حالة تحجر

ان جسامة الحوت لتجعل منه موضوعاً غاية في الامتاع يمكن ان يمتد ويتسع ويسترسل اسهاباً واطناباً، ولو شئت ان توجز فيه لما قدرت، فمن حقه ان لا يكتب عنـــه إلا اضخم المجلدات لا لتعيد القول في الابعاد الممتدة بين مخطمه وذنبه والمسافـــة التي يبلغها محيطه عند وسطه وانما فكـّر فحسب في تلافيف احشائه الهائلة حيث ترقد في جوفه كأنها حبال ومواصر غليظة قد تطوّت والتفت في أغوار العنبر الاسفل من سفينة حربية .

وبما اني قد اخذت على عاتقي أن أدير هذا الحوت بيدي فمن الجدير بي ان اكون كفاءً بهذا العمل وان أحيط به احاطة العالم الذي احصى كل شيء فيه علماً، فلا أغفل أصغر جرثومة منوية في دمه، وأنشر تلافيف احشائه امـــام الانظار حتى آخرها . وبما اني قد وصفته في خصائصه البيئية والتشريحية، فانه يتبقى عليّ ان الحظه من زاوية علم الآثار وأراه مستحجراً في أحافير كانت قبل عهد الطوفان . واذا انت استعملت هذه الالفاظ الفخمة — مثل الآثار والاستحجار والأحافير وما قبل الطوفان — وانت تتحدث عن مخلوق آخر سوى هذا اللوياثان، كأن يكون نملة او برغوثاً ظنّ الناس — بحق — انك تجعل من الحبة قبة، وتنتحل تفصحاً وتضجعاً لا يجد له مسوغاً . ولكن ان كان اللوياثان هو موضوع حديثك فقد اختلفت القضية . لشد ما تملأ الغبطة جوانحي وأنا أترنح نحو هذه المغامرة تحت وطأة اثقل الالفاظ في القاموس : ولأقرر في هذا الموطن انني كلما وجدت من المناسب أن أراجع قاموساً في سياق هـــذه

المقالات فانني على الدوام استعمل طبعة ضخمة من قاموس الدكتور جونسون اشتريتها لهذه الغاية، اقولها دون مواربة، لان حجم ذلك اللغوي المشهور، وهو حجم غير عادي في ضخامته ، قد أهله خير تأهيل لتصنيف قاموس يستعمله مؤلف عن الحيتان مثلي .

وكثيراً ما يسمع المرء عن كتاب ارتفعوا وتضخموا عن طريق موضوعهم وان كان يبدو موضوعاً عادياً مألوفاً فكيف يكون حالي اذن وأنا اكتب عن اللوياثان ؟ ان خطي ليمتد حينئذٍ لاشعورياً حتى يغدو حروفاً كبيرة كالتي تخط بها الاعلانات . أعطوني ريشة من ريش نسر الانديز اكتب بها ! هاتوا لي فوهة بركان فيزوف لأتخذها دواة ! أعينوا ساعدي ايها الاصدقاء ! اذ انني وأنا أحصر أفكاري حول هذا اللوياثان محض حصر تثقلني وتعجزني، فيغمى عليّ من غمرتها المترامية وهي تعبّ عباً فائضاً كأنني أحاول ان أحيط بدائرة العلوم جميعاً وبكل اجيال الحيتان والناس والمستودونات في الماضي والحاضر والمستقبل، وبكل مجالي هذا الكون الارضي الدوّار ومن خلل العالم كله، لا أستثني من ذلك ضواحيه . ذلك هو فضل الموضوع الضخم الطليق وذلك هو الكبر الذي ينفح به النفس فنحن نمتد حتى نناظره حجماً ، واذا شئت ان تؤلف كتاباً جسيماً فعليك ان تختار موضوعاً جسيماً ولكنك لن تستطيع ان تكتب مجلداً عظيماً خالداً عن البرغوث وان كان من حاولوا هذا ناساً كثيرين .

وقبل ان آخذ في موضوع الحيتان المتحجرة أقدم الوثائق التي تثبت اني عالم جيولوجي فأقرر انني في اوقات متعددة متفاوتة كنت بناءً بالحجر وحفّاراً عظيماً للخنادق والقنوات والآبار وأقبية الخمر والمخادع والصهاريج من كل نوع [1] ؛ ثم أحب – على سبيل التقدمة – ان اذكر القارىء انه بينما توجد في

---

١ انفق ملفل عدة اشهر من عامي ١٨٣٨ – ١٨٣٩ يدرس الهندسة والمساحة واستعان بجاه عمه ليكسب وظيفة في قنال إيري واخفق فسافر الى لفربول على السفينة « سنت لورنس » .

الطبقات الجيولوجية القديمة متحجرات وحوش انقرضت او كادت فان الآثار التالية التي استكشفت فيما يسمى « التكوينات الثلثية » تبدو وكأنها صلة الوصل – او على اي حال الحلقات المتوسطة – بين المخلوقات التي وجدت قبل التاريخ والمخلوقات التي يقال ان نسلها البعيد قد دخل السفينة مع نوح . وكل الحيتان المتحجرة التي كشفت حتى اليوم تنتمي الى الفترة الثلثية وهي الاخيرة التي تسبق التكوينات السطحية ، وليس في هذه الحيتان ما يطابق بدقة اي فصيلة من الفصائل الباقية حتى يومنا هذا غير انها قريبة الشبه منها في مظاهر عامة قرابة تسوغ عدّها متحجرات حوتية .

وجدت متحجرات متفرقة مهشمة لحيتان قبل عهد آدم وهي شظايا من عظامها وهياكلها ، وجدت خلال السنوات الثلاثين الماضية وفي فترات متعاقبة عند قاعدة جبال الألب وفي لمبارديا وفرنسا وانجلترا وسكوتلنده وفي ولايات لويزيانا ومسسبي وألباما . ولعلّ من أغرب ما وجد منها جزءاً من جمجمة استخرج عام ١٧٧٩ من شارع دوفينيه بباريس وهو شارع قصير يكاد يفضي رأساً الى قصر التويلري ؛ وعظاماً استخرجت أثناء حفر أحواض السفن بمدينة أنتورب في ايام نابليون . وقد صرّح كوفييه ان هذه الشظايا تنتمي الى فصيلة من فصائل اللوياثان غير معروفة أبداً .

ولكن أشد الآثار الحوتية جميعاً اثارة للدهشة والعجب هيكل ضخم يكاد ان يكون كاملاً لوحش بائد وجد عام ١٨٤٢ في مزرعة القاضي كريج بولاية ألباما وقد ظنه العبيد السذّج في المنطقة المجاورة الذين تملكتهم الرهبة لدى رؤيته عظامَ أحد الملائكة الذين هووا من السماء ، أما علماء ألباما فقالوا انه زاحف من الزواحف ضخم ودعوه باسم بسيلوساورس ولكن عيّنات من عظامه نقلت بحراً الى أون عالم التشريح الانجليزي فاذا بهذا الزاحف المزعوم حوت وان كان من فصيلة بائدة، وهذا شاهد فذ على الحقيقة التي طالما رددناها في هذا

الكتاب أعني ان هيكل الحوت لا يهيىء إلا دليلاً صغيراً على الشكل الحقيقي للحوت الحيّ . وأعـــاد أون تسميته فسمّاه زيوجلودون وقال في بحثه الذي ألقاه أمام الجمعية الجيولوجية اللندنية انه في جـــوهره من أغرب المخلوقات الغريبة ، التي طمسها من الوجود تقلبات الكرة الارضية .

وأقف بين هذه الهياكل والجماجم والانياب والفكوك والاضلاع والفقرات ، وكلها جسيم هائل ، وكلها ذات شبه جزئي للسلالات الباقية من وحوش البحر ، إلا انها في الوقت نفسه تحمل مشابه باللوياثانات الدارسة المنقرضة التي وجدت قبل عهد التاريخ ، تلك اللوياثانات التي تمثل جدودها العليا التي تعز على الحصر والاحصاء . وحين أقف بينها يحملني طوفان عوداً الى تلك الحقبة العجيبة قبل ان يبدأ الزمن نفسه ، ان صح القول ، لان الزمن بدأ بظهور الانسان . ثمة يعب فوق رأسي العماء الرمـادي الذي ينشره زحل وأحظى بالتماعات معتمة مرتعشة في تلك الازليات القطبية حين كانت الابراج المتراكبة من الجليد ترهص بوطأتها ما يسمى اليوم المناطق الاستوائية ولم يكن ليرى في مدى الاميال التي تمثـــل محيط الكون (وعددها ٢٥ ألفاً) عرض الراحة من أرض مأهولة . يومئذ كان العالم كله عالماً للحوت ، وترك وهو ملك المخلوقات أثره على طول الخطوط الراهنة في جبال الانديز والهملايا . من ذا يستطيع ان يدلّ بنسب كنسب الحوت؟ لقـــد أهرقت حربة آخاب دماً أبعد في العتق والقدم من دم فرعون . وأما متوشالح فانه ليس ازاءه الا طالباً صغيراً . وانظر حولي لأصافح سام بن نوح ، ويملأ الرعب قلبي وأنا انظر الى ويلات الحوت التي لا يمكن الافصاح عنها ، ويـلاته التي كان وجودها الذي لا يعرف مبتدأه قبل عهد موسى ، ويلات وجدت قبل ان يكون الزمن ولا بد ان تظل بعد ان تنطوي العصور الانسانية .

ولم يترك هذا اللوياثان آثاره القبـــل آدمية فحسب مطبوعة على صفحات الطبيعة ، ولم يخلف قاعدته القديمة في الجير والثرى الكلسي فحسب ، وانما نجد

طوابع لا تخطئها العين دمغتها زعنفته على الالواح المصرية التي اكتسب لها قدمها طابع المتحجرات او كاد : منذ خمسين سنة استكشفت في احدى غرف الهيكل الكبير في دندره على السقف الجرانيتي خريطة للبروج منحوتة مدهونة وقد حفلت بصورة السنطور والعنقاوات والدلافن تشبه الصور العجيبة على الكرة السماوية لدى المحدثين ، وينساب بينها اللوياثان القديم سابحاً كما كان يفعل في سالف الازمان . أكانت هناك سباحة في خريطة البروج قبل قرون من وضع سليمان في المهد ؟

وعلينا ان لا نتناسى شاهداً آخر غريباً على قدم الحوت في كيانه العظمي التالي لعهد الطوفان كما دوّنه جون ليو المحترم رحالة شمال افريقية :

« وغير بعيد من ساحل البحر يقوم لهم هيكل عوارضه وعمده مصنوعة من عظام الحوت ، اذ ان حيتاناً ذات حجوم هائلة كثيراً ما يقذف بها البحر ميتة على الساحل ويعتقد العامة ان لا حوت يستطيع ان يجاوز ذلك الهيكل دون ان يدركه الموت الوحيّ وذلك من سرّ قوة أودعها الله في ذلك الهيكل . وحقيقة الامر ان على جانبي الهيكل صخوراً تمتد في البحر على مدى ميلين وهي تجرح الحيتان كلما حطت فوقها . وهم يتخذون ضلع حوت ذي طول بالغ من أجل اظهار المعجزة وهذا الضلع على الارض وجانبه الحدب في أعلى ، وبذا أصبح قنطرة لا يستطيع ان يبلغ ذروتها رجل يمتطي جملاً » . ويقول جون ليو « ان هذا الضلع كان هناك منذ مئات السنين قبل ان أراه، ويؤكد مؤرخوهم ان نبياً بشر بظهور محمد خرج من ذلك الهيكل ، وبعضهم لا يتورع عن ان يؤكد بأن النبي يونان [ذا النون] قد ألقى به الحوت عند قاعدة ذلك الهيكل » .

في هذا الهيكل الافريقي – هيكل الحوت – أتركك أيها القارىء واذا كنت من أهالي نانتوكت وكنت حواتاً جلست هنالك تتعبد في صمت .

١٠٥

هل ينقص جرم الحوت ؟ أتراه يندرس ؟

بقدر ما يبذل الحوت من جهد منحدراً الينا من منابع الابدية ، يليق بنا ان نسأل : أتراه في السياق الطويل لاجياله لم يتضاءل حجماً بالنسبة لحجم أجداده أصلاً ؟

ولكنا لدى البحث لا نجد فحسب ان حيتان العصر الحاضر أسمى جرماً من تلك التي بقيت منها، في صورة متحجرات، بقايا في العصر الثلثي (اي في فترة جيولوجية متميزة قبل ان يكون الانسان) بل نجد ان الحيتان التي وجدت في الفترة المتأخرة من العصر الثلثي تفوق في حجمها الحيتان التي وجدت في الفترات الاولى من ذلك العصر .

وأضخم الحيتان التي استخرجت وهي تنتمي الى عصر ما قبل آدم حوت الباما الذي ذكرته في الفصل السابق ، وطول هيكله أقل من سبعين قدماً، بينا قد رأينا ان المقياس يشير الى ان هيكل الحوت الحديث ذي الجرم الضخم يبلغ اثنين وسبعين قدماً ، وقد سمعت والعهدة على الحواتين أنهم صادوا حيتان عنبر بلغت مئة قدم طولاً وقت صيدها .

ولكن ان كانت الحيتان في الايام الراهنة قد زادت في الجرم على حيتان جميع الفترات الجيولوجية السابقة ألا يصح ان تكون الحيتان منذ عهد آدم حتى اليوم قد تضاءلت حجوماً ؟

يقيناً لا بد من ان نقر بهذه النتيجة ان نحن صدقنا أخبار سيد مثل بليني ومؤرخي الطبيعة القدماء بعامة ، اذ يخبرنا بليني عن حيتان كانت تفترش أفدنة وهي حية ، ويحدثنا الدروفاندس عن حيتان أخرى يبلغ طول أحدها ثمانمائة قدم – كأنما هي حبال ممدودة او أنفاق ممتدة تحت نهر التيمس . بل حتى في أيام بانكس وسولاندر المؤرخين الطبيعيين المرافقين لكوك نجد عضواً دنمركياً في أكاديمية العلوم يقول ان بعض حيتان ايسلنده (من ذوات الكروش المغضنة) تبلغ ١٢٠ ياردة أي ٣٦٠ قـــدماً . ويقول لاسيبيد العالم الطبيعي الفرنسي في كتابه المفصل عن تاريخ الحيتان ، وفي فاتحة الكتاب نفسها، على الصفحة الثالثة ان الحوت الاثين يبلغ مائة متر اي ٣٢٨ قدماً ؛ وقـــد نشر هذا الكتاب في عام ١٨٢٥ .

ولكن أيصدق اي حوات مثل هذه القصص ؟ كلا ، فحوت الايام الحاضرة يبلغ في الحجم مبلغ أجداده الذين عاشوا في أيام بليني واذا قدر لي ان أذهب أبداً الى حيث يقيم بليني فاني انا الحوات (ولم يبلغ هو في ذلك مبلغي) سأتجرأ وأخبره بما أعتقده. لاني لست أفهم كيف ان المومياءات المصرية التي ألحدت قبـل آلاف السنين ، قبل ان يولد بليني نفسه، لا تزيد لو أنك قست طولها وهي في لحودها عن طول فرد من أهالي كنتوكي وهو مرتد جوربه ؛ وكيف ان الماشية وغيرها من الحيوانات المنحوتة على الالواح المصرية والاشورية القديمة حسب مقاييس الرسم النسبية التي رسمت فيها ، تبرهن بوضوح على ان ماشية سمثفيلد [1] التي يجري التحري في تناتجها ، وتقدم لها التغذية في مذاودها ، وتعرض لنيل الجوائز ، لا تساوي فحسب ، بل تبذ في جرمها ، أسمن ما كان لدى فرعون من بقر حنيذ ؛ لست أفهم كيف يكون ذلك كذلك ثم يرجى مني ان أقر بأن الحوت وحده من بين جميع الحيوانات قد تضاءل جرماً .

---

١ سوق المواشي بلندن منذ عام ١١٥٠ او قبل ذلك .

ويلبقى سؤال آخر ، سؤال كثيراً مـا يثيره أبناء نانتوكت ذوو الغموض والابهام : ما دامت الحواتات مزودة بمراقب عند رءوس الصواري عليها رقباء كأنما لا تخفى عليهم خافية وهي تتغلغل نافذة حتى من مضيق برنج وفي أقصى مسارب العالم المائي ومغالقه ، وما دامت آلاف الرماح والحراب تقذف على طول السواحل القارية جميعاً : ما دام الامر كذلك فالنقطة التي يدور حولها الجدل هي : هل يظل اللوياثان يتحمل هذه المطاردة الواسعة وهذه الابادة التي لا تشوبها رحمة ؟ أليس مصيره ولا بد في النهاية ان يستأصل من البحار ، وآخر حوت كآخر إنسان ينفث دخان غليونه ثم يتلاشى هو نفسه في النفثة الاخيرة ؟

لنقارن بين القطعان ذوات الحرادب من الحيتان وقطعان الجاموس البري ذوات الحرادب ايضاً فماذا توحي المقارنة ؟ كانت هذه الثانية قبل ما يقلّ عن أربعين عاماً منتشرة في عشرات الالوف على وجه السهوب في الينوي ومسوري وتهز معارفها الحديدية وتعقد جباهها المتجهمة التي كأنما ساطها الرعد فوق مواقع ما أصبح عواصم نهرية كثيفة السكان ، حيث يبيعك السمسار المهذب كل بوصة من أرض بمبلغ دولار . مثل هذه المقارنة قد تهيىء حجة دامغة لا نجد لها نقضاً ، اذ تدلّ على ان الحوت المصيد لن ينجو من مثل هذا الفناء السريع .

ولكن علينا ان ننظر الى الامر من جميع وجوهه . حقاً إن عدد الجاموس البري في الينوي منذ مدة قصيرة – لا تحسن ان تسمى عمراً – كان يربو على عدد الناس اليوم في لندن ؛ وأنك لا ترى اليوم في كل تلك المنطقة ظلفاً او قرناً باقياً؛ وأن سبب هذا الاستئصال المذهل انما هو حربة الانسان؛ كل هذا صحيح، غير ان طبيعة صيد الحوت المباينة لصيد الجاموس تحول حتماً بين الحوت ومثل هذا المصير المزري . أربعون رجلاً في سفينة تصطاد حوت العنبر مدة ثمانية وأربعين شهراً قد يحسبون أنهم أحسنوا صنعاً ويحمدون الله ان عادوا الى وطنهم في النهاية وهم يحملون زيت أربعين حوتاً. أما في أيام الصيادين الكنديين والهنود

القدماء وناصبي الاشراك من أبناء الغرب، حين كان الغرب (الذي لا تزال الشموس تطلع في مغربه) قفراً بكراً فان العدد نفسه من الرجال ذوي الاحذية المقسينية ينفقون عدداً مساوياً من الشهور ويعودون وقد ذبحوا أربعين ألفاً من الجواميس او تزيد، لا أربعين عدداً، وتلك حقيقة يمكن ان تدعم عن طريق الاحصاءات ان شاء أحد ذلك.

بل انك اذا تأملت هذه الحجة على وجهها الصحيح لم تكن دليلاً يؤيد القول بالفناء المتدرج لحوت العنبر مثلاً، ففي السنوات السابقة (الفترة الاخيرة من القرن الماضي على سبيل المثال) كان الحواتون يرون هذا الحوت في أصورة صغيرة بأكثر مما يرونه اليوم، ومن ثم لم تكن رحلاتهم تطول كما أنها كانت دارّة بخير وفير، ذلك ان هذه الحيتان كما لحظنا في غير هذا الموضع سيطرت عليها فكرة عن السلامة والنجاة فهي اليوم تمخر عباب البحار في قوافل كبيرة بحيث تقول، وقولك لا يباعد الصواب، بأن الحيتان المفردة وأزواج الحيتان، والاصورة، وفئات الايام الاولى أخذت اليوم تتجمع على شكل جيوش كثيفة ضخمة وان كانت جيوشاً متباعدة. ذلك كل مـــا هنالك. ويستوي مع تلك الحجة في تضليلها توهم من ظنّ أن الحيتان البلينية وقد كفت عن التردد على مجالات كانت من قبل حافلة بها فهي إذن فصيلة آخذة بالانحدار. ذلك انها إنما طُردَتْ من أكمة بحرية الى رأس بحري، واذا لم يعد أحد الشواطىء ينتعش بنفاثاتها فكن على يقين من ان هناك سِيفاً آخر أنأى منه قد أصبح منذ عهد قريب مفزّعاً بذلك المنظر الغريب.

ثم ان لدى هذه الحيتان التي ذكرتها أخيراً قلعتين ثابلتين ركينتين ستظلان، على وجه ما يقدره بنو الانسان من احتمالات، عاتيتين منيعتين أبد الدهر. حين تعرضت وديان سويسرا للهجمات تراجع السويسريون أبناء الصقيع الى جبالهم وهكذا الحيتان البلينية: اذا طاردها الصيادون من سهوب البحار الوسطى

ومساربها استطاعت ان تأوي الى حِصْنَيْها القطبيين وأن تغوص تحت الحواجز والجدران الزجاجية القصوى ، وأن تبرز بين حقول الجليد والأطواف الثلجية ، فاذا تجرم الحول وعاد اليها كانون الاول العائد أبداً ، تحدت كل مطاردة يقوم بها الانسان .

وكلما اصطاد الحواتون خمسين من الحيتان البلينية صادوا في مقابلها قشلوطاً عنبرياً واحداً ، ولهذا استنتج بعض فلاسفة المنارة ان هذه الابادة قد أنقصت من كتائبها إنقاصاً بالغاً . حقاً كان ما يصاد من هذه الحيتان ، طوال مدة ماضية ، لا يقل عن ثلاثة عشر ألفاً كل عام على الساحل الشمالي الغربي من الامريكتين وحدهما ، ولكن هناك اعتبارات تجعل هذا الامر نفسه قليل القيمة او معدومها في اتخاذه حجة مضادة في هذه القضية .

من الطبيعي ان نتردد في تصديق كثرة الحيوانات الضخمة على ظهر الكرة الارضية : ولكن ماذا نقول لهارتو مؤرخ جوا حين يخبرنا ان ملك سيام اصطاد في مرة واحدة أربعمائة فيل ، وأن الفيلة في تلك النواحي عديدة كقطعان الماشية في المناطق المعتدلة . واذا كانت الفيلة التي مرت عليها آلاف السنين وهي تصاد — صادتها سميراميس وبورس وهنيبال وجميع من تلاهم من ملوك الشرق — اذا كانت ما تزال باقية في أعداد كبيرة ، فان الحوت العظيم أجدر ان يبقى رغم المطاردات ، ولا سبب يدعونا الى ان نرتاب في ذلك ، ما دام لديه مرعى ينتشر فيه ، مرعى يساوي ضعفي آسيا كلها ومعهما قارتا امريكا وأوروبة وافريقية وهولنده الجديدة وجزر البحر مجتمعة .

ثم ان الحوت يطول به العمر كثيراً وهذا يجعلنا نقدر ان الواحد منها قد يعيش قرناً او اكثر ، واذن ففي حقبة واحدة من الزمن ، تكون أجيال كثيرة متمايزة من الحيتان الفتية متعاصرة ، وانا لنستطيع ان نكوّن فكرة عما تعنيه هذه

الحقيقة اذا نحن تخيلنا المقابر والجبانات والفستقيات وهي تبعث من في بطونها أحياء من رجال ونساء وأطفال كانوا على قيد الحياة قبل خمسة وسبعين عاماً ، وتضيف هذا الجيش العرمرم الى السكان الاحياء فوق ظهر الارض .

لأجل هذه الامور جميعاً نعد الحوت خالداً زرافات وفصائل مهما يكن الفناء من نصيبه افراداً، لقد كان يجوب البحار قبل ان ينشق الماء عن القارات ، وكان ذات يوم يسبح فوق موقع التويلري وقلعة وندسر والكرملين . ويوم عمَّ الكون طوفان نوح ازدرى سفينته؛ فاذا غمر الطوفان العالم مرة أخرى ، كما تنغمر أراضي هولندة ، ليقتل ما فيه من جرذان فان الحوت الخالد سيقاوم الفناء ، وسوف يرسل نفثاته المزبدة متحدياً السماء وهو محمول على أعلى قمة في الطوفان الاستوائي .

١٠٦

رجل آخاب

تلك الطريقة العجلى المتهوّرة التي غادر بها آخاب السفينة صومويل أندربي اللندنية كانت مصحوبة ببعض العنف اليسير الذي اصاب شخصه، فقد نزل على مقعد المجذاف في قاربه باندفاع حتى ان رجله العاجية تلقت صدمة كادت تشظّيها وعندما اصبح على ظهر سفينته ووضع رجله في الثقب المحوري دار دورة حادة وهو يلقي امراً عاجلاً الى القائم على الدفة (كان خطؤه هو الخطأ المعتاد في انه لم ينحنِ بدفته انحناءً كافياً)؛ عندئذ تلقت العاجة التي اوهنتها الصدمة الاولى وثياً وليًّا جديداً، ومع انها ظلت في ظاهرها سليمة قوية فان آخاب لم يعد يرى انه يمكن ان يوليها ثقته الكاملة.

والحق ان آخاب احيانًا رغم تهوّره الاحمق الغالب وقلّة توقيه كان يولي حال هذه الرجل الميتة التي يتحامل بجانب من جسمه فوقها عناية فائقة، وتلك مسألة صغيرة لكنها لا تخلو من اثارة العجب؛ فقبل وقت غير طويل من مغادرة الباقوطة لميناء نانتوكت وجد آخاب ذات ليلة منبطحًا على الارض فاقداً وعيه. وقد انتثر عضوه العاجي من مكانه بعنف حتى انه ضرب برأسه طرف وركه وكاد يخترقه، وبعد جهد جهيد شفي من جرحه الأليم. اما كيف حدث ذلك فذلك يعزى الى قدر مجهول لا يستطاع تفسيره ولا يمكن تصوره.

ورسخ في ذهنه المرور يومئذ ان جميع العذاب الناجم عن ذلك الألم الراهن انما كان وليد بلية سابقة، ويبدو انه استبان لنفسه ان كل الاحداث التعيسة تلد

– بطبيعة الامر – اشباهها ، مثلما ان اشد الزواحف أذى وسمّا في المستنقع وأحبّ الطيور المغردة في الحديقة يخلد كل منها نوعه بالتوالد، على نحو محتوم، ويتم هذا التوالد في صور الخير والشر جميعًا على قدر واحد من الهناءة والغبطة . بل ان آخاب قال لنفسه : على قدرين متفاوتين، اذ ان نسل الاسى يعمّر اكثر من نسل الفرح، لا اعني انني ألمح الى ما جاء في بعض حكم التوراة اذ ورد فيها ان بعض الافراح الطبيعية لا تنجب لها اولاداً في العالم الآخر، انما الفرح العقيم سيتلوه كل يأس جهنم، بينا بعض التعاسات البشرية الآثمة ستكون ولوداً فتنجب الى الابد نسلاً من الحزن، وراء القبر ؛ لا لست ألمح ابداً الى هذه الحكمة، انما على ذلك لا يزال أمر الحزن والفرح اذا حللتهما قائمًا على عدم التساوي، وقد قال آخاب لنفسه : ان أرفع المسرات الارضية تحتوي على تفاهة تافهة كامنة فيها أما احزان القلب فان في اغوارها اهمية مغيبة ولها لدى بعض الناس رفعة ملائكية. وعلى هذا فان نتاجها اللازب لا يكذب هذا الاستنتاج الواضح. واذا شئنا ان نتتبع نسب هذه التعاسات الانسانية العليا نقلنا ذلك اخيراً الى الابناء البكر المنسوبين الى الآلهة والذين جاءوا من لا أين، حتى نقر امام وجه الشموس الجذلى التي تصنع الحدائق وأمام وجوه الاقمار المرنّمة المستديرة التي تنضج الجنى ، ان الآلهة انفسهم لا يخايلهم السرور الى الابد . فعلامة الميلاد الحزينة المدموغة دمغًا لا يطمس على جباه الناس انما هي طابع الأسى في نفوس الذين طبعوها هنالك .

ها قد أفشينا في هذا الموطن سراً ، دون ان نتفطن لذلك ، وربما كان من الانسب لو كشفنا عنه من قبل على نحو عامد : لِمَ مكث آخاب مختفيًا قبل ان تغادر الباقوطة الميناء وبعد ان غادرته، مدة من الزمن، في وحدة كأنها وحدة

اللاما الجليل [١]، ولمَ لاذ الى وحدة صامتة في تلك الفترة بين مجمع الرخام الذي يضمّ الموتى ؟ ذلك أمر ظلّ، مع امور اخرى تتصل بآخاب، سرًا خفيًا لدى بعضهم . اما السبب المختلق الذي أشاعه القبطان فالج حول هذا الامر فلم يكن مقنعًا بحال وان كان كل كشف يمسّ الجوانب الأعمق من آخاب يعود بنصيب من الظلام المميز اكثر من الضياء الكاشف . غير ان كل شيء اتضح في النهاية او قل ان هذا الامر في الاقل انكشف، فقد كانت تلك الحادثة المحزنة هي السبب في عزلته المؤقتة، ولم يقف الامر عند هذا الحدّ بل ان العصبة التي كانت تتناقص ويقل عدد افرادها على الشاطىء، العصبة الذين كان لهم، لأي سبب، حق يبيح لهم ان يقتربوا منه اكثر من سواهم، تلك العصبة الخوّارة تلبست لها تلك الحادثة التي ذكرتها آنفًا بلبوس الرعب وذهب بهم خيالهم الى انها قد تكون من عمل الاشباح ومن دنيا الاتراح ، أما آخاب نفسه فانه لم يقدم لما أصابه تعليلاً وان ظلّ مكدر النفس به، ومن خلال حماسة تلك العصبة له اتفقوا فيما بينهم ما دام العلم بالامر مقصورًا عليهم، ان يطووه في صدورهم عن الآخرين؛ وهكذا لم يذع فوق ظهر الباقوطة إلا بعد مضي فترة غير قصيرة من الزمن .

وليكن من كل هذا ما يكون : سواء أكان الذي تمرس – او لم يتمرس – بآخاب ابن الارض مجمع غامض محجوب في الفضاء او أسياد النار وسدنتها المنتقمون، أقول مهما يكن من امر فان آخاب في هذا الامر المتعلق برجله لجأ الى طرق عملية – اعني انه استدعى النجار .

وحين حضر ذلك العامل بين يديه أمره ان يشرع في صنع رجل جديدة،

---

١ يقولون ان اللاما في بلاد التبت لا تقع عليه عين .

دون ابطاء ، وأمر ضباطه ان يراعوا انه قد زود بكل الدسر والمسامير من الفك العاجي (فك حوت العنبر) مما كانوا قد جمعوه اثناء الرحلة حتى ينتقي منها اقواها وأمتنها وأنصعها وأصفاها من العروق، وحين تم ذلك تلقى النجار أوامر بأن ينجز صنع الرجل في تلك الليلة وان يزودها بكل مستلزماتها دون اعتماد على الادوات التي كانت مستعملة في الرجل الموثوءة الواهية، ثم أمر ان ترفع عدة الحداد من حيث تقبع في العنبر وأمر الحداد، رغبة في الاسراع، ان يبدأ حالاً بصنع ما يحتاج اليه من أدوات حديدية .

١٠٧ النجار

اتخذ لنفسك عرشًا سلطانيًا وجلسة متعاظمة بين أقمار زحل، وتخيل الانسان من زاوية تجريدية سامية يتبدى لك عجبًا وجلالاً وويلاً، ثم اعتبر بني الانسان جملة وسيبدون لك في معظم الحال رعاعًا من صور مكرورة بعضها حديث وبعضها قديم. غير ان نجار الباقوطة لم يكن صورة مكرورة، على انه متواضع لا يمكن ان يتخذ مثالاً لتجريد انساني سامٍ، ولذا يظهر على هذا المسرح وحده.

كان هذا النجار ككل النجارين في السفن التي تجتاب البحار، وبخاصة من كان منهم ينتمي الى الحواتات، ذا خبرة في حرف وصناعات عديدة الى جانب حرفتـــه، وكان يمارسها الى حدّ عملي في سهولة ودون تعمّل، إلا ان حرفة النجارة كانت هي الجذع القديم الذي تتفرّع منه بقية الحرف اليدوية المتصلة – اتصالاً كثيراً او قليلاً – بمادة الخشب من حيث هي مادة فرعية؛ وزيادة على الملحظ العام الذي أضفيناه على نجار الباقوطة فيما تقدم نقول انه كان ينفرد في كفايته في ممارسة تلك الامور الطارئة الآلية التي تبلغ الالف عدداً ولا تحمل اسماء مميزة لها، وهي امور تجري مراراً وتكراراً في السفينة الكبيرة حين تقضي في رحلتها ثلاث سنوات او اربعاً في بحار موحشة نائية. دع عنك ذكر استعداده لانجاز الشئون العادية من اصلاح القوارب المشقوقة والسواري المتخلعة واصلاح اشكال المجاديف التي كلّ حدها وتركيب الكوى في ظهر السفينة وغرز الخوابير الجديدة في الالواح الجانبية وغير ذلك من المواد المختلفة المتصلة مباشرة بصنعته،

دع ذلك كله تجد أنه زيادة عليه كان ماهراً دون تردد في كل انواع الاهليات المتضاربة سواء في ذلك المفيد منها او الذي يتولد عن نزوة .

وكان المرسح الذي يمثل عليه كل هذه الفصول المتعددة هو الدكة ذات الملزمات ، وهي طاولة طويلة خشنة ثقيلة مزودة بملزمات عـــديدة من حجوم مختلفة بعضها من حديد وبعضها من خشب، وهذه الدكة تظل في جميع الاوقات مربوطة بالعرض الى جانب السفينة ربطاً وثيقاً في مواجهة مؤخرة مصانع التصفية إلا حين تكون الحيتان مجنبة الى المركب .

هذا وتد للحبال اكبر من ان يدخل بسهولة في الثقب، فالنجار « يلزمه » بـــين فكي واحدة من ملزماته المعدة ابدًا وعلى التوّ يسحل منه وتدًا اصغر . وذلك طير من طيور البر ضال ذو ريش غريب فهو يتلدد حائرًا على ظهر السفينة ويؤخذ أسيرًا : فالنجار يصنع له قفصاً على هيئة الباغوده « المعبد الهندي » من قضبان مجردة معروقة بيضاء تتخذ من عظم الحوت الاثين تعارضها قضبان اخرى من عـــاج حوت العنبر . ويوهي أحد الجذفين رسغه فيطبخ له النجار غسولاً مسكناً . ويتوق اسطب الى ان يرى على شفرة كل مجذاف لديه صور النجوم مدهونة بالزنجفر ، فيلزم النجار كل مجذاف في ملزمته الخشبية الكبيرة ويزوده في انتظام بالصور النجومية ؛ ويرغب احد البحارة في ان يعلق في أذنيه شنوفاً من عظم القرش فيثقب النجار له حجوتي أذنيه . وهذا آخر يشكو ألماً في ضرسه فيبرز النجار ملقطه ويلزم احدى يديه الى الدكة ويأمره ان يجلس هنالك، غـــير ان الفتى المسكين يتوجع متلوياً متفلتاً أثناء العملية قبل ان تبلغ الختـــام، أما النجار فيدير مقبض الملزم الخشبي ويومىء اليه النجار ان يدخل فكه فيه ان شاء ان يقتلع النجار ضرسه .

وهكذا كان النجار مستعدًا في جميع الامور، وكان في أدائها جميعاً قليل

المبالاة قليل الرعة على حد سواء: كان يحسب الاضراس نتفاً من العاج، والرءوس بكرات في قمم الصواري، وكان يحسب الرجال انفسهم في استخفاف مساحب في سفينة، ولكن بما أنه كان يعمل في ميدان واسع وينجز هذه المتنوعات بحيوية في المهارة فكل هذا قد يوحي بأنه كان ذا حظ فذ من الذكاء. ولكن الأمر ليس كذلك على وجه الدقة، اذ لم يكن هذا الرجل يتميز بشيء اكثر من بلادة بليدة مجردة من الحسّ الشخصي؛ أقول مجردة من الحس الشخصي لانها كانت تلقي ظلها على ما لا يحصر من الاشياء المحيطة حتى لترى وكأنها جزء لا يتجزأ من البلادة العامة التي نتحققها في جميع العالم المنظور، وهي قد تكون نشيطة دائبة في أحوال لا تحصى ولكنها مطمئنة قارّة أبد الدهر تتجاهلك حتى ولو كنت تحفر أسساً للكاتدرائيات. إلا ان هذه البلادة التي قد تروّع بعض ارتياع فيه تشمل ايضاً فيما يظهر قسوة قلب متشعبة في جميع الوجهات غير انها كانت تنهرها على وجه غريب احياناً روح فكاهة كأنها العكاز عريقة شهدت ما قبل الطوفان تجيء هادرة صافرة تتخللها بين الحين والحين التماعات فضية من الفطنة، قد تكون من قبيل تلك الفكاهة الصالحة لازجاء الوقت الواقع خلال رقابة منتصف الليل في المنارة المدببة من سفينة نوح. أكان ذلك لان هذا النجار العجوز كان جواباً مدى الحياة فكان اهتزازه وراء وأماماً سبباً في انه لم يجعل الطحلب يعلق به، بل زاد فحتّ عنه اي عوالق خارجية قد تكون في الاصل عالقة به؟ كان تجريداً مجرداً؛ عدداً صحيحاً من غير كسر؛ نادّاً عنيداً كأنه وليد؛ يحيا دون انتماء مبيّت الى هذا العالم او العالم الآخر. وربما كدت تقول ان هذا النداد الغريب فيه يتضمن نوعاً من الغباء اذ لم يكن يبدو انه يمارس حرفه العديدة بالعقل او بالغريزة او لانه درب فيها محض تدريب او بمزيج من هذه الامور كلها، سواء أكان مزيجاً متعادلاً او غير متعادل، وانما كان يؤدي ما يؤديه على نحو أصم أخرس تلقائي حرفي. كان محض امرىء صناع، اما ذهنه، ان كان له ذهن أبداً، فقد ترشح في عضلات أصابعه. كان شأنه شأن احدى ادوات شفيلد المبتكرة، مفيدة كبيرة الفائدة ولا عقل

لها ـ «متعدد في مفرد» ـ تتخذ ظاهر موسى الجيب المعروفة وان كانت اكثر منها انتفاخاً، لا تحتوي فحسب عـــلى شفرات من جميع الحجوم وانما تحتوي ايضاً مثبتات القلاووظ والبرائم والملاقط والمخارز والاقلام والمساطر ومبارد المسامير وسكاكين التخويش . فاذا أراد أسياد النجار ان يستغلوه مثبتاً بقلاووظ فكل ما عليهم ان يفعلوه هو ان يفتحوا ذلك الجانب منه، واذا بالقلاووظ ثابت في موضعه ، واذا شاءوا اتخاذه ملقطاً رفعوه من رجليه فاذا هو ملقط في ايديهم .

ولكن هذا النجار الحريف المتعدد الادوات الذي يعمل بالفتح والاغلاق لم يكن ـ حسبما سبق ان ألمحنا ـ محض آلة ذاتية الحركة. فاذا لم يكن ثمة روح منبثة فيه فقد كان فيه شيء خفي يعمل عمل الروح على نحو شاذ . ماذا كان ذلك الشيء ؟ أكان روح الزئبق او بضع قطرات من ايدرات الامونيوم ؟ ذلك ما لا احد يدريه، غير انه كان ثمة ؛ وثمة عاش نحو ستين عاماً او تزيد . وكان مبدأ الحياة هذا الماكر المتدسس فيـــه الذي لا نجد له تعليلاً وتفسيراً، ذلك المبدأ هو الذي جعله يقضي اكثر الوقت مناجياً نفسه، الا انه ليس إلا كالدولاب الجماد الذي يناجي نفسه بالطنين، او قل ان جسمه كان مأوى الحارس وكان هذا المناجي حارساً فيه فهو يتحدث طوال الوقت ليبقى مستيقظاً .

١٠٨ آخاب والنجار

ظهر السفينة – النوبة الاولى من الحراسة الليلية

«النجار واقف أمام دكته ذات اللازم وهو منهمك في برد دسار عاجي من أجل الرجل على ضوء قنديلين ، والدسار مثبت في الملزمة ، وتنتثر حول الطاولة شظايا من العاج وقطع الجلد واللباد والبراغي ومختلف الادوات من كل نوع . والى الامام تلوح نار الحدادة حيث القين منكب على العمل» .

المبرد يصيء والعظمة تصيء . صلبة هي التي يجب ان تكون رقيقة ، ورقيق هو الذي يجب ان يكون صلباً ، كذلك بختنا نحن الذين نـــبرد الفكوك القديمة والظنابيب . لنجرب واحدة أخرى . أجل ، هذه أحسن (يعطس) هالو ، غبار العظم هذا (يعطس) ، ولكن (يعطس) نعم انه (يعطس) رحمة الله على روحي ان العطاس لا يدعني أتكلم ، هذا ما يجنيه رجل عجوز يعمل في خشب موات . انشرْ شجرة حية فانك لا تصادف هذا الغبار ، اقطع عظمة حية فلا تجده ايضاً (يعطس) . هيا . هيا يا اسمط العجوز أعطني يدك ودعنا نأخذ تلك الهراوة وبرغي الابزيم. سأكون مستعداً لها في الحال. من حسن الحظ (يعطس) أننا لن نصنع مفصل ركبة فذلك يحير بعض الشيء وانما نصنع قصبة ساق – وهذا أمر سهل كصنع مساند الدوالي ، إلا أني أحتاج ان أصقلها جيداً . المهم هو الوقت ، الوقت ، لو كان لدي وقت لجعلت منه رجلاً صالحة كخير (يعطس) رجل انحنت لسيدة في قاعة . تلك الارجـــل المصنوعة من جلود الغزلان او

العجول ، رأيتها في فترينات الحوانيت ولا أقارنها بها . انها تتشرب الماء ، انها تتشرب وتصبح سبباً في الروماتزم ولا بد من تطبيبها (يعطس) بالغسول والماء كالارجل الحية . قدك ؛ قبل ان أنجزها لا بد ان أدعو « جنابه » وأرى ان كان الطول مناسباً ، لعلها أقصر من اللازم — فيما أخمّن — ان كان يعتورها شيء . ها . ذلك هو الكمب ! نحن محظوظون . ها هو قادم او لعله غيره ما في قدوم أحد من ريب .

آخاب [متقدماً] .

[خلال المنظر التالي يعتاد العطس النجارَ بين الحين والحين] .

— هلا يا صانع الآدميين !

— في الوقت المناسب جئت يا سيدي ؛ ان سمح القبطان فاني أقيس الطول ، دعني آخذ القياس سيدي .

— تقيس طول الرجل ! حسناً ؛ ليست هذه أول مرة . هيا ! تنبـــه دع اصبعك عليها ؛ هذه ملزمة مفحمة تلك التي لديك هنا أيها النجار ، دعني أحس قبضتها مرة . كذا . كذا . انها لتؤذي بالقرص بعض الشيء .

— أواه يا سيدي انها تكسر العظام ، حذار ! حذار !

— لا تخف انا أحب القبضة المحكمة ، أحب ان أحس شيئاً في هـــذا العالم الزلق يتشبث ويقبض باحكام ، ايها الرجل . ماذا يفعل بروميثيوس هنالك — أعني الحداد — فيم هو ؟

— لا بد أنه يصنع برغي الابزيم .

— صدقت . هذه مشاركة فهو يصنع الجزء العضلي . انه يوقد شعلة حمراء قوية !

– أجل سيدي ؛ لا بد من ان تكون لديه الحرارة البيضاء من أجل هذا النوع من العمل الدقيق .

– ها . ها . لا بد له . اظن هذا شيئاً حافلاً بالمغزى، أعني ان الاغريقي القديم بروميثيوس الذي صنع الناس كان حداداً، ولا بـــد، ووضع فيهم نسمة الحياة من النار لان ما يصنع من النار لا بد ان ينتمي الى النار ، فوجود جهنم أمر محتمل . كيف يتطاير السناج ! لا بد ان تكون هذه هي الحثالة التي صنع بروميثيوس منها الافريقيين . نجار ! حين ينتهي من صنع الابزيم فقل له ان يصنع زوجاً من الاكتاف الفولاذية فعلى ظهر السفينة تاجر جواب يحمل حملاً يقض الظهر .

– سيدي ؟

– أمسك عليك ؛ ما دام بروميثيوس في الميدان فاني سآمر بصنع انسان كامل حسب أنموذج مرغوب . أولاً طوله وهو في جوربه خمسون قدماً ، وأما الصدر فيسوى على نسق نفق التيمس وللرجلين جذور تقفان عليها في مكان واحد ، والذراعان : محيط الواحد منها عند الرسغ ثلاثة أقدام ، لا قلب أبداً. جبهة نحاسية وحوالي ربع فدان من المخ الرقيق ، ثم دعني أنظر – أأوصي بعينين تريان الى خارج ؟ كلا وانما أضع ناروزة في يافوخه لتضيء نحو الداخل . ويحك تلقّ الأمر وامضِ به !

– ترى عم يتكلم ولمن يتكلم ، أود ان أعرف ؟ أأظل واقفاً هنا ؟ (منتحياً جانباً) .

– من يصنع قبة دون كوة فانما ذلك منه عـــدم مبالاة في فنه المعماري لا . لا . لا . لا بد من قنديل .

– ها . ها . ها هو . ها هما اثنان يا سيدي فأنا يكفيني واحد منهما في عملي .

– لم تزجّ كشاف اللصوص في وجهي يا رجل ؟ ألست تعلم ان دفع الضوء في الوجه أسوأ من اهداء المسدسات .

– طننتك سيدي تكلمت الى النجار .

– النجار ؟ ذلك – لكن لا – أقول : هذا عمل متقن جداً مهذب غاية في التهذيب ، ذلك الذي تقوم به أيها النجار – او تحب ان تكون مادتك هي الصلصال ؟

– سيدي ؟ الصلصال ؟ تقول الصلصال يا سيدي ؟ ذلك طين ، ونحن نترك الطين لحفاري الخنادق يا سيدي !

– يا له من فتى زنديق ! ما بك تعطس كثيراً ؟

– العظم مغبّر يا سيدي .

– اتعظ اذن ، وحين تموت لا تدفن نفسك دون أنوف الناس الاحياء .

– سيدي ؟ اوه ! آه ! ذلك ما أخمنه – نعم – رباه !

– اسمع ايها النجار . لا غرابة اذا قلت لك إنك تدعو نفسك عاملا صناعاً متقناً كأنك عامل ، أليس كذلك ؟ طيب . اذن اذا أحسست عندما امتطي هذه الرجل التي تصنعها ان هناك رجلا أخرى في نفس المكان معها فهل يكون هذا ثناء على عملك ؟ وأعني بالرجل الثانية يا نجار رجلي القديمة المفقودة ، أعني ذات اللحم والدم . ألا تستطيع ان تطرد هذا الاحساس عني كما طرد آدم من الجنة ؟

– حقاً سيدي أخذ بصيص من الفهم يتسرب الى رأسي . نعم ، سمعت شيئاً غريباً من هذا القبيل يا سيدي وكيف ان الرجل الذي انحطم صاريه لا يفقد الاحساس تماماً بصاريه القديم بل يظل الصاري يخزه أحياناً . أيجوز لي ان أسأل في تواضع يا سيدي أحقاً ان الحال كذلك ؟

– هو كذلك ايها الرجل . اسمع . ضع رجلك الحية هنا في الموضع الذي كانت فيه رجلي . ها هنا رجل واحدة في نظر العين ولكن الروح تبصر ثنتين. حيث تحس انت بالحياة التي تخز هناك ، تماماً ، هناك ، هناك أحس بها أنا ايضاً في أدق صورها . أهذا لغز ؟

– بل اسميه في تواضع معضلة ، يا سيدي .

– أصخ اذن . كيف تعرف ان شيئاً حياً مفكراً لا يقف خفياً متغلغلاً بالضبط حيث تقف أنت الآن ؟ أجل ، بل يقف هنالك رغماً عنك ؟ في أشد ساعات الوحدة اذن ألا تخشى من يسترقون السمع ؟ أمسك ، لا تتكلم . واذا كنت انا ما أزال أحس وخز رجلي المحطومة ، وان طال العهد على انفصالها عني ، فلمَ لا تحس أنت ايها النجار آلام جهنم النارية الى الابد ودون ان يكون لك جسم ؟ ما قولك ؟

– رباه ! حقاً ، سيدي ، ان كان الامر يبلغ ذلك فلا بد من ان أعيد الحساب ، أظنني لم أحتقب منه رقماً صغيراً يا سيدي .

– اسمع . ان الرءوس التي في شكل البودنج ليس لها ان تقدم المقدمات المنطقية – كم يستغرق انجاز الرجل ؟

– لعله يحتاج ساعة يا سيدي .

– جرّب غباءك في انجازها وأحضرها اليّ (يدور ذاهباً) آه أيتها الحياة . ها أنا مستكبر كأحد الارباب الاغريقية ومع هذا أراني مديوناً لهذا الغبي من أجل عظمة أقف عليها ، لعن هذا التقارض البشري الذي لا يستغني عن دفاتر الحسابات ؛ أستطيع ان اكون طليقاً كالهواء ، وها انا مقيد في دفاتر العالم كلها. انا غني حتى لقد كنت أستطيع ان أقف نــداً لأغنى البريتوريين في مزاد الامبراطورية الرومانية (وكانت يومئذٍ هي العالم) ومع ذلك فأنا مدين باللحم في اللسان الذي أتشدق به؛ وحق السماء لأحضرن بوتقة وأدخل فيها وأتلاشى حتى أحولَ عظمة فقارية صغيرة موجزة .

النجار [مستأنفاً عمله] :

« حيلك ! حيلك ! اسطب خــير من يعرفه ، ويقول اسطب دائماً انه طوريّ[1] . لا يقول شيئاً سوى هذه الكلمة الصغــيرة الجامعة : « طوريّ » . يقول اسطب فيه : طوري ؛ هو طوري – طوري، طوريّ ولا يفتأ يدندن بها في اذن السيد استاربــك طول الوقت – سيدي هو طوري ، طوري ، طوري ، طوري جداً . وها هي رجله ! أجل ، كلما فكرت فيها وجدت فيها رفيقته في الفراش ! انه اتخذ عصا من عظم فك الحوت زوجة ؛ وهذه هي رجله ، سيقف على هذه . كيف قال ان رجلاً واحدة تقف في ثلاثة مواضع ، والمواضع الثلاثة جميعاً تقف في جهنم ، كيف كان ذلك ؟ آه . لا أعجب اذا نظر اليّ بازدراء . انا انسان غريب التفكير أحياناً ، هكــذا يقولون عني ، ولكن هذا لا يجيء إلا من قبيل المصادفة . ان قامة قصيرة قميئة مثل قامتي يجب ألا تضطلع بالخوض في المياه العميقة مــع القباطنة الفارعين ذوي البنية السامقة كبنية مالك الحزين ؛ مثلي اذا نزل في الماء داعبه الماء تحت ذقنه في

---

[1] طوريّ : متقلب المزاج .

سرعة ، فأرسل صرخة عالية يطلب قوارب النجاة . وها هي رجل مالك الحزين ، طويلة دقيقة ، بالتأكيد ! اكثر الناس لديهم رجلان تعيشان العمر كله وما ذلك الا لانهم يستعملونها في شفقة مثلما تستعمل العجوز ذات القلب الرقيق حصاني عربتها العجوزين المرتجفين كبراً وهزالاً . أما آخاب ، أواه ، انــه سواقٌ مُحطّم . طرح ساق احدى رجليه الى الموت وعرقب الاخرى طول الحياة، وها هو الآن يلبس أرجلاً عظمية يربطها بالخيوط . هالو انت يا اسمط ! مدّ يدك بتلك البراغي ولنتنهِ من هذه الرجل قبل ان يجيء نافخ الصور داعياً بصوره جميع الارجل ، أصلية كانت او مصنوعة ، مثلما يدور رجال المعاصر ليجمعوا براميل البيرة القديمة كي يملأوها مرة أخرى . أي رجل هي ! تبدو وكأنها رجل حية ، قد تلاشت على الصقل فلم يبقَ الا لبها . سيقف عليها غداً، وسيذرع بها المسافات . هالو ! كدت أنسى قطعة الاردواز البيضوية الصغيرة أعني قطعة العاج الملساء حيث يقيــد المسافات . كذا . كذا الى الازميل ، الآن ، والمبرد وورق الصنفرة !

١٠٩ آخاب واستاربك في القمرة

كانوا يضخون السفينة حسبما جرت العادة في الصباح التالي وها هو الزيت الذي ذهب مع الماء غير قليل . لا بد ان تكون البراميل في الاسفل قد اصيبت بعطب فتسرب الزيت منها . وأبدى القوم كثيراً من الاهتمام ونزل استاربك الى القمرة لينقل هذا الخبر المزعج * .

عندئذ كانت الباقوطة من الجنوب والغرب تقترب من فرموزه وجزائر باشي التي يقع بينها احد المنافذ الاستوائية المؤدية من المياه الصينية الى المحيط الهادي . فلما دخل استاربك على آخاب وجده قد نشر امامه خريطة عامة للأرخبيلات المشرقية، وخريطة اخرى منفصلة تمثل الشواطىء الشرقية من الجزائر اليابانية – نيفون وماتسمي وسيكوكه . وكان الرجل العجيب قد قطب جبينه وهـــو يتتبع طرقه القديمة ، وقد جعل رجله العاجية الجديدة الناصعة تطوق قائمـــة الطاولة المثبتة بالبراغي وحمل في يده مدية ذات كلاّب طويل للتقليم، وجعل ظهره نحو الباب الشارع على الممرّ .

---

* في حواتات العنبر التي حملت اية كمية غير قليلة من الزيت جرت العادة كل نصف اسبوع – دون اخلال – ان يمدّ خرطوم في العنبر، وتبلـــل البراميل بماء البحر، ثم يصرف هذا في فترات متفاوتة من بعد بمضخات السفينة، بهذا العمل يريدون ليحفظوا البراميل متماسكة محكمة بالترطيب، بينا يستطيع الملاحون ان يستكشفوا اي صدع خطير في هذه الشحنة الثمينة وذلك اذا تغيرت طبيعة الماء الذي يسحبونه .

عن هؤلاء التعساء كأن اصحابها هم ضميري . اعلم ان صاحب الشيء هو آمره الموجّه . وأصغ يا هـــذا فان ضميري في أرينة هذه السفينة – عد الى ظهر السفينة ! »

فقال الضابط المحمرّ خجلاً وهـــو يتقدم في القمرة بجرأة غريبة في توقيرها وحذرها حتى لكادت تبدو انها تحاول بكل وجه ان تتجنب أبسط ضروب الاعلان عن نفسها وانها ايضـًا في داخل النفس لتبدو قليلة الثقة بذاتها : « رجل افضل مني قد يغرس في نفسك ما قد يستنكره – على عجل – في من هو اصغر منك سنـًا، اجل، وفي من هو اكثر منك سعادة، يا قبطان آخاب » .

– « يا للشياطين ! ابلغت بك الجرأة حدّ ان تنظر الي ناقداً ؟ انصرف الى ظهر السفينة ! »

– « لا يا سيدي ، لم يحن اوان انصرافي ، ارجوك واتوسل ؛ وأنا أجرؤ يا سيدي – على ان امتنع عن الامتثال ! ألن يفهم احدنا الآخر فهمـًا خيراً مما كنا فيه حتى اليوم يا قبطان آخاب ؟ »

تناول آخاب غدارة محشوة من وقب في الصندوق ذي الكوى (وهـــو يشكل جزءًا في اكـــثر الاثاث المزودة به قمرات من يسافرون في المحيط الجنوبي) وصوبها نحو استاربك وهتف : « هناك اله واحـــد هو سيد الارض وقبطان واحد هو سيد الباقوطة، عد الى ظهر السفينة ! »

لو رأيت لحظة عيني الضابط وهما تومضان وخديه الملتهبين لكدت تظن انه حقـًا اقتبس وهجـًا من الانبوب المصوّب نحوه . ولكنه ضبط مشاعره ونهض في بعض هدوء وتوقف لحظة وهو يغادر القمرة وقال : « لقد هجت غضبي ولم

وعندما سمع وقع الخطى صاح دون ان يلتفت : « من هذا ؟ عد الى ظهر السفينة ! انصرف ! »

– « القبطان آخاب مخطىء ؛ هذا أنا . الزيت في العنبر يرشح متسرباً يا سيدي . علينا ان نرفع مرافع الاثقال البرتونية ونستخرج البراميل لمعاينتها » .

– «نرفع مرافع الاثقال البرتونية ونستخرج البراميل؟ أهذا ونحن نقترب من اليابان ؟ نوقف السفينة أسبوعاً هنا، لنرأب مجموعة من الاطواق العتيقة ؟»

– «اما ان نفعل هذا يا سيدي او نضيع زيتاً في يوم اكثر مما قد نكسبه في عام . ان ما قطعنا عشرين الف ميل للحصول عليه يستحق الحرص يا سيدي » .

– « صحيح، هو كذلك ان استطعنا ان نحصل عليه » .

– « كنت أتحدث عن الزيت في العنبر يا سيدي » .

– « وأنا لم اكن اتحدث عن هذا او افكر فيه ابداً . انصرف ! دعه يرشح، أنا نفسي ارشح . اجل رشحات في رشحات . لست فحسب مليئاً ببراميل ترشح وانما هذه البراميل الراشحة مودعة في سفينة مشقوقة . وهذه ورطة اسوأ من حال الباقوطة ايها الرجل . ولكنني لا أقف لأرأب الصدع الذي فيّ، اذ من ذا الذي يستطيع ان يجد الصدع في الهيكل المثقل وكيف يمكن رأبه اذا وجدته في عاصف الحياة العاوي ؟ استاربك ! لن آمر برفع مرافع الاثقال البرتونية » .

– « ماذا يقول اصحاب السفينة يا سيدي ؟ »

– « ليقفوا على شاطىء نانتوكت ويتفوقوا على صوت الزعزع بصراخهم . ماذا يهم آخاب ؟ اصحاب السفينة، اصحاب السفينة ؟ دائماً تهرف لي يا استاربك

تحقرني يا سيدي ، وانا اسألك ألا تأخذ حذرك مني لذلك ، قد تضحك ولكن ليكن آخاب على حذر من آخاب . حذار من نفسك ايها الشيخ » .

فتمتم آخاب حين توارى عنه استاربك: « انه يزداد شجاعة ولكنه مع ذلك يطيع . تلك شجاعة محترزة شديدة التوقي ! ما الذي قاله – ليكن آخاب على حذر من آخاب – في كلامه خبيء ! »

ثم اتخذ الغدارة عكازًا – دون ان يشعر – واخذ يذرع القمرة الصغيرة جيئة وذهوبًا وجبينه مقطب صارم وسرعان ما اخذت الغضون الكثيفة فوق جبهته تملّس فأرجع الغدارة الى كوّتها وصعد الى ظهر السفينة .

واقترب من الضابط استاربك وقال له بصوت خفيض : « انت نعم الرفيق » ثم رفع صوته مخاطبًا البحارة وقال : « انشروا الاشرعة النبيلة العليا، ولفوا الاشرعة العليا أماماً وخلفًا ؛ اسندوا الدعامة الساندة الكبرى، عالوا مرافع الثقل البرتونية، وانشلوا البراميل من العنبر الرئيس » .

ربما كان من العبث ان نستنتج على وجه الدقة لم تصرف آخاب كذلك فيما يتصل باستاربك ؛ لعل ذلك كان ومضة من النزاهة فيه او كان سياسة ذكية بصيرة حجبت بصلف في تلك الحادثة ادنى عرض من اعراض الكراهية المصرّحة، مهما تكن عابرة مؤقتة – نحو رأس الضباط في سفينته . وأيًا كان الامر فان اوامره نفذت ورفعت مرافع الثقل البرتونية .

١١٠ كويكوج في تابوته

وعند التفتيش وجـــدوا ان البراميل التي أودعوها اخيراً في العنبر كانت سليمة لا عيب فيها ، وأن الصدع لا بد ان يكون بعيداً في البراميل الجوّانية . ولما كان الجو هادئاً مضوا يستخرجونها موغلين وهم يوقظون البراميل الضخمة الكبيرة اللاصقة بالأرض من سباتها ، ويرسلون تلك المناجذ الجسيمة من حلكة الليل الى ضياء النهار في أعلى السفينة . وتوغـلوا متعمقين ، وتراءت البراميل الدنيا قديمة متهرئة مطحلبة حتى ان من كان يراها ليكاد ان يتوقع بعدها خابية حجرية في الزاوية تحتوي نقود القبطان نوح قد لصقت عليها صور من اعلانات ضخمة تحذر العالم العجوز المتصابي من الطوفان فيضيع تحذيرها سدًى . ورفعوا برميلاً اثر برميل مليئة بالماء والخبز ولحم البقر وقطع السواري وحزماً حديدية من الاطواق ، حتى أصبحت الربعات عند ظهر السفينة مكتظة لا يستطاع التنقل فيها ، وأصبح الهيكل الخالي دونها يردد الصدى تحت وطأة الاقدام ، كأنما يدوس المرء على رموس خاوية ، وأخذت السفينة تترنح وتتدحرج في البحر كأنها دمجانة معبأة بالهواء . وثقل رأسها حتى كانت كأنها طالب خاوي المعدة وقد حشا كل فلسفة أرسطوطاليس في رأسه . ومن حسن الحظ ان الزعزع الهوجاء لم تقم بزيارة البحارة أثناء ذلك .

في هذا الوقت نفسه أصيب كويكوج رفيقي الوثني المسكين وصديقي الحميم بحمى قربته كثيراً من النهاية التي لا تعرف نهاية .

ولا بد من أن أقول هنا ان مهنة التحويت ليس فيها موظفون فخريون ،

يتقاضون الأجر ولا يعملون ، بل ان الارتقاء في مناصبها والخطر توأمان لا يفترقان ، وكلما اعتليت في المنصب بذلت قسطاً اكبر من الجهد الى ان تصبح قبطاناً . وكذلك كان حال كويكوج المسكين ، فهو زراق ليس يجب عليه فحسب ان يواجه هياج الحوت الحي ولكن عليه ــ حسبما رأينا من قبل ــ ان يمتطي ظهره وهو ميت في البحر المتضرب ، وأخيراً عليه ان يهبط في ظلمة العنبر ، وينضح العرق بمرارة طوال النهار في ذلك المحبس التحتاني ، ويستخرج بعزم أبشع البراميل ويفحص تعبئتها . وأقول بايجاز ان الزراقين بين الحواتين هم « القَـوَّمة » ــ وكذلك يسمون .

يا لكويكوج المسكين ! عندما انتزع نصف احشاء السفينة ، او قرابة ذلك ، كان حرياً بك ان تنحني فوق الكوة وان تطل عليه لتراه وقد تجرد من ثيابه فلم يبقَ عليه الا التبان الصوفي ، وأخذ ذلك المتوحش الموشوم يزحف في وسط الرطوبة واللزوجة كأنه سمــــلاة خضراء بقعاء في قعر بئر . وقد دلَّ المستودع على انه كان بالنسبة لذلك الوثني المسكين بئرًا او بيتاً من الجليد . اذ رغم الحرارة الناجمة عن جهاده أصيب ــ وما أغرب ذلك ــ بقشعريرة مفزعة تحولت الى حمّى ، وأخيرًا وبعد عذاب دام بضعة ايام، أضجعوه في أرجوحته قريباً من عتبة باب الموت . كيف ذوى وأدركه الهزال في تلك الايام القليلة البطيئة حتى بدا وكأن ما بقي منه ــ عدا هيكله ووشمه ــ شيء ضئيل . كل شيء ما عدا هذين هزل وزاد بروز وجنتيه حدة ، أما عيناه فبدا أنهما ــ رغم ذلك ــ تستديران وتكتملان وأصبح لهما نعومة في البريق غريبة ، واذا رأيتهما وهما تنظران اليك في دعة وعمق من وسط المرض والاعياء وجدت فيهما شهادة عجيبة على تلك العافية الخالدة فيه التي لا تموت ولا يدركها الوهن . وبدت عيناه تستديران وتستديران كحلقات الابدية ، مثلما ان الدوائر في الماء تمتد وتنداح حين تصبح باهتة ضعيفة . ولقد تتسلل اليك رهبة لا يمكن ان توصف او تسمى ، وأنت تجلس الى جانب ذلك المتوحش الشاحب الذاوي وتبصر في وجهه أشياء

غريبة كالتي رآها من شهدوا موت زرادشت [1] . ذلك ان ما هو عجيب مخيف حقاً في الانسان لم يصنع بعد في كلمات ولم يدوّن في كتاب . والاقـتراب من الموت وهو مصوب نحـــو الناس جميعاً يطبع الناس جميعاً بانكشاف نهائي لا يستطيع ان ينبئنا عن حقيقته إلا مؤلف يجيئنا من عـــالم الموتى . ولنقل مرة أخرى : ان اي كلداني او اغريقي محتضر لم يملك لدى احتضاره أفكاراً أعلى وأقدس من تلك الافكار التي كنت ترى ظلالها الغريبة زاحفة فوق وجـــه كويكوج المسكين وهو مضطجع في سكون في أرجوحته الخطّارة والبحر المتدحرج يهدهده بلطف الى راحته الابدية، وتيار المحيط الخفي يرفعه أعلى فأعلى نحو سمائه المقدورة .

ولم يبقَ أحد في البحارة إلا وأدركه اليأس من شفائه . أما ما كان كويكوج نفسه يحمله من رأي حول وضعه حينئذٍ فقد دلت عليه بشدة أكرومة غريبة سألها رفاقه . فقد دعا اليه أحد الرفاق في نوبة الصباح الرماديّ حين كان الفجر ينبلج وأمسك بيده وقال انه حين كان في نانتوكت اتفق له ان رأى زوارق صغيرة مصنوعة من خشب أسود كخشب الحرب الكثير الذي يستعمل في وطنه ، وسأل عنه فعلم ان جميع الحواتين الذين مـــاتوا في نانتوكت وضعوا في تلك الزوارق السوداء نفسها وقد سرّه كثيراً أن يتصور نفسه مسجىً في واحد منها ، فذلك أمرٌ لم يكن مبايناً للعادة المتبعة بين بني قومه ، ذلك أنهم كانوا بعد ان يحنطوا المحارب الراحل يسجّونه في زورقه ، ويتركونه ليعوم بعيداً نحو أرخبيلات النجوم ، اذ كانوا يعتقدون ان النجوم جزر ، وان بحارهم الوديعة التي لا تحدها يابسة تتداخل مياهها بعيداً وراء جميع الآفاق المرئية ، مـــع السماوات الزرقاء، ومن هذا التداخل تتكوّن الامواج الكبيرة البيضاء في نهر

---

[1] نزل برق من السماء ، فارتفع فيه كأنه نجم وغاب عن الانظار ...

المجرة . وأضاف يقول : انه اقشعرّ وهو يتصور أنهم سيضعونه في أرجوحته حسب العادة البحرية المألوفة ، ويقذفون به كأنه شيء كريه الى اسماك القرش التي تلتهم الموت لو عرض لها . كلا انه ليرغب في زورق كتلك الزوارق في نانتوكت ، فذلك أقرب الى طبيعته وأشكل بأمثاله ، فانه حوات وهذه الزوارق المتخذة توابيت تشبه قوارب التحويت من حيث أنها دون أرينة ، وان كان هذا يعني ضلالاً في الاتجاه ، واذعاناً للريح حتى تنحدر بالزورق في خضم العصور المبهمة .

وحين علم من في مؤخرة السفينة بهذا المطلب الغريب ألقوا الأمر الى النجار على التو ليلبي ما أمر به كويكوج أياً كان فحواه مادياً ومعنوياً . وكان على ظهر السفينة خشبة عتيقة ذات سمة وثنية ولون كلون التوابيت ، قطعت في رحلة طويلة سابقة من الغابات الاصلية في جزائر لاكادي [1] ، فأوصي النجار ان يصنع التابوت من تلك الألواح السود . وما كاد النجار يتلقى هذا الامر حتى تناول آلة القياس ، ثم توجه بكل ما في طبيعته من استجابة سادرة الى المنارة ، وقدّر مقياس كويكوج بمنتهى الدقة والضبط وهو يخط على جسمه بالطباشير ، دون اخلال ، كلما نقل آلة القياس .

وانبعث بحار لونج آيلاند يقول : « آه يا للمسكين ! عليه ان يموت الآن » .

وعاد النجار الى دكته ذات الملازم فقاس عليها — اهتماماً بالاصلح وطلباً لنموذج يعود اليه في عمله — طول التابوت الذي سيصنعه وتيقن ان صورة النموذج لن تنطمس حين حزّ حزّين في طرفي الدكة . وحين انتهى من ذلك أحضر الالواح والادوات وشرع يعمل .

---

[1] لعله يعني جزائر لاكاديف على مسافة من الساحل الجنوبي الغربي من الهند ، وقد عرفها البحارة العرب منذ عهد بعيد وسموها المائة ألف جزيرة .

وحين دق آخر مسمار في ذلك النعش وسحج غطاءه بالفأرة وثبته في مكانه ، حمل التابوت – بخفة – على كتفه ، وتقدم به ، متسائلاً أتراهم في ذلك الصوب على استعداد لتلقيه .

وتأدى الى سمع كويكوج صرخات الناس المستائين الذين يمازج استياءهم بعض الدعابة ، حين أرادوا وهم على ظهر السفينة ان يبعدوا التابوت ، فأمر – مثيراً الذهول في كل نفس – ان يحضروا اليه ذلك الشيء على التوّ ، فلم يحرموه ما طلب ، لان بعض المحتضرين من بين جميع البشر أشدهم جبروتاً وطغياناً ، وبما ان عهد تنكيدهم للاحياء لن يطول ، فان هؤلاء المساكين يجب ان يقابلوا بالهوادة والتدليل .

وانحنى فوق التابوت من حافة أرجوحته وتأمله طويلاً بعين فاحصة ، ثم دعا برمحه ونزع منه القناة وجعـــل السنان في التابوت مع واحد من بدالات قاربه . وتلبية لرجائه ايضاً صفت قطع البسكويت حول الجوانب من داخل ، وعند الرأس وضعت زجاجة من ماء قراح ، وعند التجويف المخصص للقدمين ثبت جراب صغير من التراب المخلوط بالخشب ، وطويت قطعـــة من قماش الأشرعة وجعلت وسادة ، ورجاهم كويكوج ان يرفعوه ويضعوه في سريره الاخير ، ليجرب ما فيه من بواعث الراحة ان كان فيه شيء منها ؛ واضطجع هنالك بضع دقائق دون حراك ثم سأل أحدهم ان يذهب الى حقيبته ويستخرج منها إلهه الصغير يوجو ثم عارض ما بين ذراعيه فوق صدره ويوجو بينهما وسألهم ان يضعوا فوقه غطاء التابوت (كان يسميه باب التابوت) ، وكان الجزء الواقع جهة الرأس من ذلك الغطاء يدور على عقب من جلد ، فأدير ، وتمدد كويكوج في تابوته لا يبدو منه شيء سوى وجهه المطمئن الهادىء . وتمتم أخيراً بلغته Rarmai : (معقول ـ هين) ثم أشار لهم كي ينقلوه الى أرجوحته .

ولكن قبل ان يتم نقله جاء اليه بيب وكان ما يزال يحوم قريباً منه في مكرّ

- طوال ذلك الوقت - فاقترب من حيث يضطجع وأمسك بيده وهو يرسل تنهدات رقيقة ، أما في يده الأخرى فكان يحمل طنبوره :

« أيها الجواب المسكين ! أتراك لن تنتهي من تجوابك المضني ؟ الى أين تمضي ؟ ان حملتك التيارات الى جزائر الانتيل العذبة حيث الشواطىء لا تنبت الا زنابق الماء فهل لك ان تؤدي لي رسالة صغيرة ؟ فتش عن شخص اسمه بيب فقد منذ زمن بعيد ؛ انا أظنه في تلك الجزر النائية ، اذا وجدته فطيّب خاطره وطمئنه اذ انه ولا بـــد أسيان حزين ، ذلك انه خلف طنبوره وراءه ، وأنا وجدته رج - آ - دج - دج - دج ! مت يا كويكوج وسأعزف لك لحن الجناز » .

تمتم استاربك وهو يحدق من الناروزة الى ما دونه : « سمعت ان الناس في الحمى العنيفة وقد استبدت بهم الغيبوبة يتحدثون بلغات قديمة ، وحين تسبر سرّ الأمر يتكشف لك دائماً ان هذه اللغات القديمة كانت تحكى في طفولتهم المنسيّة وكانوا يسمعون بعض العلماء العلويين يتحدثون بها؛ وأرى حسب معتقدي العميق هذا ان بيب في هذه الحلاوة الغريبة من لوثته يأتي بشواهد سماوية من جميع بيوتنا السماوية . أين تعلم ذلك الا ان يكون قد تعلمه هنالك ؟ أصخ . ها هوذا يستأنف حديثه على نحو اكثر غرابة وشروداً » .

- « صفوا اثنين اثنين . لنحيّه تحية القائد . أين رمحـــه . عارضوا به . رج - آ - دج - دج دج . هزّاه ! ليت لدينا ديكاً رابط الجأش يقعد على رأسه ويصيح ! يموت كويكوج رابط الجأش ! تأملوا هذا ! يموت كويكوج رابط الجأش . تأملوا جيداً هذا ! يموت كويكوج رابط الجأش . أقول : رابـــط الجأش ، الجأش ، الجأش اما بيب القميء الحقير فمات رعديداً . مات وهو يرتعش . هيا اهجموا على بيب ! أنصت ، اذا وجدت بيب فخبر كل جزائر

الانتيل انه هارب. جبان ، جبان، جبان ! قل لهم انه قفز من قارب التحويت. لن أحرك طنبوري من أجل بيب الحقير ، لن أحييه تحية القائد اذا قدر له ان يحتضر مرة أخرى في هـــذا المكان . لا . لا . على كل الجبناء العار والشنار ! ركبهم العار ! ليغرقوا كما غرق بيب الذي قفز من قارب التحويت . العار والشنار ! »

كان كويكوج أثناء ذلك كله مغمض العينين كأنه في حلم ، وأبعد بيب عنه وأعيد الرجل المريض الى أرجوحته .

وبينا كان كويكوج قد أخذ كل أهبة الموت ، وبينا وجد ان تابوته صالح له ، ادركه الانتعاش فجأة وبدا على التوّ ان لا حاجة به لصندوق النجار، وعلى الاثر قال ما محصّله ـ حين أبدى بعضهم دهشة جذلى ـ ان سبب نقاهته المفاجئة هو هذا : في لحظة حرجة تذكر ان لديه على البر واجباً صغيراً تركه دون انجاز ، ولذلك غيّر رأيه في الوفاة ، وأقرّ بأنه لا يستطيع ان يموت حينئذٍ ، فسألوه: هل الحياة والموت من صنع ارادته المهيمنة ؟ فأجاب: يقيناً ؛ ولأقـول بايجاز ان كويكوج كان يتصور ان المرء اذا حزم أمره على ان يظلّ حياً فان المرض لا يستطيع ان يقتله ، لا يقتله إلا حوت او عاصف او مخرّب من هذا القبيل عنيف عاثر غبي .

بين المتوحش والمتمدن فرق يستحق التنويه : ان المتمدن المريض قد يستغرق ستة أشهر في دور النقاهة ، اما المتوحش المريض فانه — بوجه عام — يستعيد اكثر عافيته في يوم ، وهكذا استعاد صديقي كويكوج قوته في وقت صالح ، وبعد ان جلس على الدولاب الرافع بضعة أيام مسترخية متكاسلة (متناولاً الطعام بشهوة قوية) وثب فجأة واقفاً على قدميه وتمطى بيديه ورجليه ، ومطّ قامته وتثاءب قليلاً ثم قفز في رأس قاربه المعلق ، اعتقل رمحاً ، وقال انه مستعد للقتال .

وأدركته نزوة غريبة فاتخذ من تابوته صواناً أفرغ فيه ما كان في جرابه الخيشي من ثياب ونضدها هنالك . وكم من الساعات أنفقها وهو يحفر على الغطاء جميع الصنوف الغريبة من الاشكال والرسوم، ويبدو انه كان يحاول بطريقته الفجة ان ينسخ نماذج من الوشوم المتلوية فوق جسمه ، وكانت تلك الوشوم من صنع نبي عرّاف راحل في جزيرته ، كتب بتلك العلامات الهيروغليفية على جسمه نظرية كاملة عن السموات والارض، ومقالة ً صوفية ً عن فن بلوغ الحقيقة، وبذا كان كويكوج في شخصه وكيانه أحجية تتطلب حلاً ، مؤلـَّفاً عجيباً في مجلد واحد ، ولكنه هو نفسه يعجز عن قراءة أسرار ذلك المؤلف ، وان كان قلبه الحيّ ينبض عند تلك الاسرار ، وكان مقدوراً لهذه الاسرار ، من ثمّ ، ان تبلى مع الرقّ الحيّ الذي رقمت عليه ، وتستعصي على الحل حتى النهاية ؛ ولعل هذه الفكرة هي التي أوحت لآخاب بتلك الهتفة الغريبة حين أشاح ببصره ذات صباح عن كويكوج بعد ان تفحصه وهو يقول : « آه يا عذاباً شيطانياً بالأمل أرسلته الآلهة » .

١١١ المحيط الهادي

حين انسابت بنا السفينة عند جزائر باشي دخلنا اخيراً في حومة المحيط الجنـــوبي العظيم ؛ ولولا أمور اخرى لازجيت لصديقي العزيز المحيط الهادي شكراً لا يبلغه حصر لان ضراعات شبابي التي طال بي انتظارها قد استجيبت، فذلك المحيط الوقور كان يتدحرج الى الشرق مني على مدى آلاف الفراسخ من الزرقة .

في هذا البحر سرٌ غريب عذب لا يدرك كنهه الانسان فكأن وثباتـــه الرهيبة الرفيقة تتحدث عن روح خبيئة تحتها كتلك التموجات الاسطورية في مروج افسوس فوق قبر القديس يوحنا الانجيلي[١] ؛ وما أنسب ما ترتفع الامواج وتهبط وتنبسط وتنحسر دون توقف فوق هذه المروج المائية والسهوب البحرية المترامیـــة وحقول بوترز الشاسعة المنتمية الى القارات الاربع جميعاً . هنالك ملايين الاخيلة والظلال المتمازجة والاحلام الغارقة ، وحالات المشي اثناء النوم، والنشوات ، وكل ما ندعوه حيوات وارواحاً، هنالك تقبع جميعاً حالمة حالمة هادئة، وتظل الامواج متقلبة ابداً كالنوّام في أسرتهم، بسبب من تضربها دونها .

هذا المحيط الهادىء المطمئن لو رأته مرة عين المجوسي المتأمل لظلٌ من بعدُ

---

١ اشارة الى ما كان يعتقده بعض السذج من اهالي افسوس – حسبما قصّ ذلك القديس أوغسطين – من ان يوحنا لم يكن ميتاً وانما كان يتخذ قبره مثلما يتخذ الحيّ سريره وان القبر كان يصعد او يهبط كما يصعد السرير ويهبط .

البحرَ الذي تؤثره نفسه . فهو الذي يحرك أشد الامواه توسطاً في العالم، وليس المحيط الهندي والاطلسي إلا ذراعين له . وهذه الموجات نفسها تغسل حواجز المرافىء التي بنيت حديثاً في مدن كاليفورنيا ، التي لم تغرسها احدث اجناس الناس الا امس القريب ، وترحض حوافي البلاد الآسيوية الشاحبة التي ما تزال تحتفظ بفتنتها، تلك البلاد الاقدم من ابراهيم عهداً ؛ وبين هذا كله تعوم مجرّات من جزر المرجان وأرخبيلات وطيئة مجهولة لا نهاية لها وجزائر كجزائر اليابان مستغلقة لا يستطاع ارتيادها . هكذا يطوق المحيط الهادىء المتأله المنطوي على الاسرار جسمَ العالم كله ويجعل جميع السواحل خليجاً واحداً له ويتبدى وكأنه قلب الارض النابض بالمدّ، واذا ارتفعت فوق هذه الاسنمة الخالدة، انتميت الى رب مضلّ، وعنا وجهك للرب بان Pan .

ولكن الخواطر عن «بان» قلما استثارت ذهن آخاب وهو واقف كتمثال من حديد في موضعه المعتاد الى جانب حبال المظين فاستنشق بأحد وقبي منخريه – لا واعياً – المسك المعسول من جزائر باشي (وفي غاباتها العذبة عشاق دمثون يتمشون حينئذ ولا بد)، واستنشى بالثاني – واعياً – النفس الملح من البحر الذي دخل حديثاً في حومته، البحر الذي كان الحوت الابيض البغيض يعوم ولا بد فيه حينئذ . وحين انساق الرجل الشيخ على طول الامواه التي تكاد تعد نهائية، وانساب نحو ارض التطواف اليابانية، ترسخت غايته نفسها وتمكنت . والتقت شفتاه كما يلتقي حدّا المِلْزَم، وانتفخت دال عروق جبهته كأنها جداول قد طفحت، وفي نومه نفسه انطلقت صيحته من خلال هيكل السفينة المقبب : « الى الوراء جميعاً ! ها هو الحوت الابيض ينفث دماً متخثراً ! »

١١٢ الحداد

أما برث الحدّاد العجوز القرحان الملطخ بالسواد فقد اغتنم الجو الوديع الصيفي البرود الذي ران على تلك البقاع واستعدّ لمواجهة التكليفات اللازمة المتوقعة منه بعيد وقت قصير، فلم ينقل عدته المحمولة الى العنبر بعد ان انتهى من نصيبه في تسوية رجل آخاب، وانما استبقاها على ظهر السفينة مربوطة ربطاً محكماً الى المزلاج الحلقي عند الصاري الامامي، اذ كان الرؤساء والزراقون وأرباب القوارب لا يفتأون يستثيرونه ليؤدي لهم هذا العمل الصغير او ذاك، فهو يغير او يصلح او يثقف اسلحتهم المتنوعة وأثاث قواربهم، وكثيراً ما كانت تحف به حلقة من المتلهفين وكلهم ينتظر دوره من خدماته، هذا يمسك بجرفة قارب، وذاك رأس حربة، وثالث يمسك مزراقاً، ورابع حربة، وكلهم يرقب في تململ حركته السحماء وهو دائب جاهد. وعلى الرغم من ذلك كانت مطرقة هذا الشيخ مطرقة صبوراً تصرّفها ذراع صبور، فلا تذمر ولا جزع، ولا نكد يصدر عنه، وانما هو صامت بطيء جاهم يزيد في انحناء ظهره المنكسر تحت وطأة الزمن، ويجهد جهده كأن الجهد هو الحياة نفسها، ووقع المطرقة الثقيل هو نبض قلبه البطيء. وكذلك كان الامر – ما أتعسه!

مشية خاصة كان يمشيها هذا الشيخ، مظهر طفيف لكنه مؤلم فاغر في مشيته، أثار في الملاحين في دور مبكر من الرحلة فضولاً وأذعن لالحاف اسئلتهم الملحة في النهاية وهكذا حدث ان عرف كل واحد القصة المشينة، قصة حظه التاعس المنكود.

في منتصف ليلة مريرة من ليالي الشتاء تأخر الحداد — ولم يكن تأخره بريئاً طاهراً — على طريق تمرّ بين قريتين، فأحسّ — احساساً لا تنقصه البلادة — ان الخدر المميت يستبد به، فسعى الى مخزن مهدم يريد ان ينقض واتخذ فيه ملاذاً . فكانت نتيجة ذلك ان فقد أطراف قدميه . وبعد هذه الفاتحة جاءت اخيراً الفصول الاربعة من السرور — مشهداً مشهداً — ثم تلاها الفصل الخامس الطويل — فصل الحزن في مسرحية حياته — وان لم يختم بعد بكارثة الختام .

كان شيخاً واجه في سن تناهز الستين ذلك الشيء الذي ارجأته له الايام من اساليب الحزن الذي يسمونه الدمار، فقد كان صانعاً ذا مهارة مشهورة وعمل وفير، فملك بيتاً وحديقة، ورزق بزوجة شابة عروبٍ في سن ابنته وبثلاثة اطفال مرحين موردي الخدود . وفي كل يوم أحد كانوا يذهبون الى كنيسة مغروسة في حديقة منظرها مجلى للعين ؛ وذات ليلة تحت جنح الظلام تسلل لصّ مستيئس، زاده تنكره الخبيث الماكر اختفاء وتستّراً، الى بيته السعيد وجرده من كل ما فيه . وأشد حلكة من الظلام ان يكون الحداد نفسه هو الذي هدى ذلك اللص — في جهالة — الى قلب أسرته ؛ كان هو العرّاف الذي يفتح القمقم [١]، وحين طار ذلك السداد المميت أفلت الشيطان من محبسه وطوى بيتـــه تحت جناحه . كانت دكان الحداد — لاسباب معقولة حكيمة اقتصادية — تقع في الدور الارضي من مسكنه الا انها ذات مدخل مستقل، وكانت الزوجة الشابة العروب الريّا تنصت دائماً بقلق سعيد ولذة شديدة الى الطرقات القوية تحدثها مطرقة زوجها الشيخ ذي الذراع الفتيّ، وتتخافت ذبذبات المطرقة حين تمر من خَلَل الابواب والجدران فتتأدى اليها في شيء من عذوبة، وهي في غرفة

---

١ واضح ان الصورة مأخوذة من بعض قصص ألف ليلة وليلة .

أطفالها . وهكذا كان اطفال الحدّاد يهدهدون للنوم بترنيمة حديدية يغنيها رب العمل العصلي .

اواه يا ويلاً على ويل ! آه ايها الموت لمَ لا تستطيع احياناً ان تجيء في أوانك ؟ لو انك اخذت الحدّاد العجوز اليك قبل ان يحلّ به الدمار الكامل إذن لوجدتْ ارملته الشابة حزناً لذيذاً، ولوجد يتاماه أباً محترماً اسطورياً يحلمون به في مقبل السنين، وكلا الامرين كفاء بالهمّ يستطيع ان يصرعه. ولكن الموت انتزع اخاً اكبر فاضلاً كانت مسئوليات عائلة اخرى معلقة بكدّه اليومي الصافر، وترك العجوز الذي لا نفع فيه ماثلاً حتى يجعله بِلى الحياة الكريه اسهل لدى الجنى .

ولمَ نسرد القصة كلها ؟ ان ضربات المطرقة في الدور الارضي اخذت تتضاءل وتخفت، واصبحت كل ضربة في كل يوم اشد خفوتاً من آخر ضربة، وجلست الزوجة متجمدة الاطراف عند النافذة، وعيونها لا تسكب دمعة، تحدق بألق في وجـــوه اطفالها الباكين، وخبا الكير وامتلأ مصنع الحداد بالرماد، وبيع البيت ، وغاصت الأم تحت العشب الطويل في باحة الكنيسة، ولحق بها ابناؤها مرتين، وذهب العجوز الطريد الشريد الوحيد متلدداً في أسماله، مصيبته لا يأبه بها احد، وشيبه يهزأ بكل الضفائر التي تشبه الكتان .

ولعل الموت هو خير عاقبة يتمناها من بلغ هذا الحد، ولكن الموت ليس فحسب إبحاراً في منطقة تسمى « المجهول الغريب »، انه التحية الاولى لامكانات النائي المديد والموحش والمائيّ وما لا ساحل له . لذلك فان العيون التي تشتاق الموت – عيون الرجال الذين تبقّى فيهم شيء من وخز الضمير ضد الانتحار – يمدّ لها المحيط المضياف الفاتح ذراعيه كل مجاله الصالح لمغامرات لا يدركها الخيال،

مغامرات مليئة بالمخاوف عجيبة تعِدُ بحياة جديدة، وتغني لها آلاف الحوريات البحرية من قلوب المحيطات الهوادي اللامحدودة : « تعالوا الي يا كسيري القلوب، ها هنا حياة لا يتخللها اثم من موت وسيط . ها هنا عجائب خارقة لا يدركها الموت . تعالوا اليّ . ادفنوا انفسكم في حياة اشدّ اغفالاً ونسياناً من الموت اذا قستموها الى عالمكم الكاره المكروه . تعالوا اليّ ! ضعوا شاهد قبركم ايضاً في باحة الكنيسة وتعالوا اليّ، الى ان نتحد معاً ! »

اجابت روح الحداد هذه النداءات حين اصغت اليها، شرقاً وغرباً، عند طلوع الشمس وعند حلول المساء، وقالت ها انا ذَا آتية ! وهكذا ذهب بيرث في رحلة التحويت .

١١٣ نار الحداد

كان بيرث يقف وقد تلبدت لحيته والتفّ في فوطة جاسية من جلد القرش ، قبيل انتصاف النهار ، بين النار والسندان – وهذا الثاني كان موضوعاً على وضم خشبي حديدي – ويده الواحدة تمسك رأس حربة مدسوسة في الجمر ، ويده الأخرى على الكير ، واذا بآخاب يقبل حاملاً في يده جراباً جلدياً صغيراً في لون الصدأ ، وعندما أصبح آخاب المتقلب المزاج على مسافة قصيرة من النار توقف ، وأخيراً سحب بيرث الحديدة من النار وأخذ يطرّقها على السندان ، وأخذت الكتلة الحمراء ترسل شرراً يتطاير رفوفاً متكاثفة طار بعضها حتى اقترب من آخاب .

– « أهذه فراخ العجوز كاري[١] يا بيرث ؟ انها دائماً تطير في أثرك ، طيور سانحة ميمونة ولكنها ليست كذلك لجميع الناس . انظر انها تحرق ، ولكنك تعيش بينها دون ان تلذعك » .

فأجابه بيرث وقد اتكأ لحظة فوق مطرقته : « ذلك لأني محرّق في سائر جسدي ، لقد عتوت على اللذع . ليس من السهـــل ان تلذع جلداً تبلـّد من التحريق » .

- « طيب . طيب . كفى . ان صوتك المنقبض ليتأدى اليّ في هدوء ويبلغني

١ طيور كالسنونو يقولون ان ورودها ارهاص بجـــو عاصف ، وبها يشبه آخاب الشرر المتطاير .

في تعقّله مهموماً مكروباً . وبما أني لست في الفردوس ولا في رياض النعيم فأنا أجزع من كل تعاسة في الآخرين ليست مجنونة . لا بـــد ان تصبح مجنوناً أيها الحداد ؛ قل لي لماذا لا تغدو مجنوناً ؟ كيف تطيق ما تطيقه دون ان تكون مجنوناً ؟ أما تزال السموات تمقتك فهي تحرمك الجنون؟ ماذا كنت تصنع هنا ؟»

— « كنت أُلحم وأسوّي رأس حربة قديمة يا سيدي فقد كانت فيه نقب وأخاديد » .

— « وهل تستطيع ان تسوّيه أملس مستوياً أيها الحداد بعد ان تجرّش في الشدّات واللزبات؟»

— « أظن ذلك يا سيدي » .

— «وأنا أظن انك لا تستطيع ان تسوّي اي نقب او تحزيز . أتستطيع دون اكتراث منك بصلابة المعدن يا حداد ؟»

— « نعم يا سيدي أظنني استطيع . أستطيع ان أسوّي كل النقب والتحزيزات إلا واحدة» .

فصرخ آخاب — وهو يقترب منفعلاً واستند بكلتا يديه فوق كتفي بيرث : «انظر هنـــا اذن ، انظر هنا — هنا — أتستطيع ان تسوي نقبة كهذه يا حداد ؟ » وجرّ راحته فوق جبينه المغضن — « اذا كنت تستطيع يا حداد ، وضعت رأسي راضياً جذلان فوق سندانك ، وتلقيت أثقل مطرقة لديك بين عيني . أجب ! أتستطيع ان تجتلي هذه النقبة او تسوّي التحزيز ؟ »

— « آه يا سيدي هذه هي الواحدة . ألم اقل انني استطيع تسوية كل النقب والتحزيزات الا واحدة ؟»

— « صدقت يا حداد انها الواحدة التي لا تسوّى . اجـــل يا رجل انها لا تجتلى ، صحيح انك تراها بارزة في لحمي ولكنها قد تغلغلت في عظام جمجمتي — وجمجمتي كلها غضون ! ولكن دع عنـــك لعب الاطفال هذا ! لا تسوية لخطاطيف وحراب اليوم . انظر هنا ! » — وأخذ يخشخش بالجراب الجلدي كأنه مـــليء بالقطع الذهبية : « انا ايضاً اريد ان تصنع لي رمحاً ، واحداً لا يستطيع الفا شيطان ان يكسروه يا بيرث ، رمحاً ينغرز في الحوت مكيناً كأنه عظم زعنفته ، وها هي المادة » — وطرح الجراب على السندان — « تنبه ايها الحداد هذه اعقاب مسامير جمعت من النعال الفولاذية التي تنتعلها خيول الرهان » .

— « اعقاب نعال الخيل يا سيدي ؟ اذن فان لديك هنا يا قبطان آخاب خير مادة نعمل فيها واشدها مراساً » .

— « اعرفها ايها الشيخ . هذه الاعقاب ستلتحم معاً كالغراء الذي يؤخذ من عظام القتلة بعد ان تذاب . عجل ! اصنع لي الرمح ، واصنع لي اولاً اثني عشر قضيباً لتكون له كعباً ، ثم افتل وابرم.وطرّق هذه القضبان معاً كأنها وشائع وجدائل الكرور ، اسرع ! وها انا انفخ على النار » .

وحين خرجت القضبان الاثنا عشر اخيراً جرّبها آخاب واحداً بعد واحد، وذلك بأن يلفها بيده على شكل حلزوني حول وتد حديدي طويل ثقيل، ثم ردّ الاخير منها قائلاً : « هذا مختلّ ! اصنعه من جديد ، يا بيرث » .

ولما انتهى بيرث من اصلاحه كان على وشك ان يبدأ ملاحمة القضبان ليجعل منها واحداً حين اوقف آخاب يده وقال انه هو نفسه سيلحم رمحه ، واخذ يطرّق الحديد على السندان في همهات متقطعة منتظمة وبيرث يوصـــل اليه القضبان المتوهجة واحداً بعد آخر ، والنار التي يؤرها الكير تطلق لهبها الشديد

صعدًا ، وعندئذٍ مرّ الرجل البارسي في صمت فأحنى رأسه للنار وكأنما هو يستنزل لعنة او بركة على هذا العمل ، فلما رفع آخاب رأسه انتحى البارسي جانباً .

وتمتم اسطب وهو ينظر من المنارة : « ماذا تصنع عصبة الشياطين هذه اذ تروغ وتتسلل هنالك ؟ هذا البارسي يشم النار كأنها ثقاب الأمن ومنه تضوع رائحتها كأنه خزان البندقية الساخن » .

واخيرًا تلقت ضفيرة الكعب وقد غدت في صورة قضيب واحد آخر إحماء، ولما ان شاء بيرث ان يسقي حديدها فدسها وهي تهسهس في برميل الماء القريب، انطلق البخار السامط في وجه آخاب المكب فوقها .

« اتريد ان تعلمني بوسمٍ يا بيرث ؟ » واجفل متوجعاً لحظة من الألم ثم اردف : « أكنت اذن اصنع ميسمي بيدي ؟ »

— « بحقك ! ليس الامر كذلك ، ولكني أخشى شيئاً يا قبطان آخاب . أليس هذا الرمح من اجل الحوت الابيض ؟ »

— « من اجل الشيطان الابيض ! والآن هيّا لصنع الكلاّبات ؛ عليك انت نفسك ان تصنعها يا هذا ، هذه هي الامواس التي أحلق بها – من خير الفولاذ ، خذها ، واصنع منها الكلابات حادة كوخز ابر الثلج في البحر الجليدي » . ورمق الحداد الشيخ تلك الامواس لحظة كأنه كان يريد ان يردها فلا يستعملها .

— « خذها يا رجل لا حاجة لي اليها ، لاني لن أحلق ولن اغتذي ولن أصلي حتى – هاك – الى العمل ! »

ولما ان جعل بيرث الفولاذ أخيراً في شكل سهم وألحمه الى الكعب ، دل الفرق بين المعدنين اين ينتهي طرف الحديد ، ولما ان كان الحداد يضع الكلابات في النار ليحميها آخر مرة قبل ان يسقيها صاح بآخاب ان يـــدني منه برميل الماء :

— « لا . لا . لا ماء ولا سقي ! أريدها من سقي الموت نفسه . انتم هناك يا طاشطيقو وكويكوج ودغة ! ماذا ترون ايها الوثنيون ؟ هل تعطوني دماً يغطي هذا الكلاّب؟» ورفعه في الفضاء فأجابته «أن نعم» ثلة من الرءوس السود أنغضت اليه ، وثقبت الجلود الوثنية في ثلاثة مواضـــع ، وسقيت بالدم عندئذٍ كلابات الحوت الابيض .

وعوى آخاب وهو ذاهب في البحران ، والحديد يتشرب بنهم دم العماد : « انا لا أعمدك باسم الآب وانما أعمدك باسم الشيطان ! »

وجمع آخاب الأعمدة الزائدة من اسفل واختار من بينها عموداً من شجر الحيقور ما يزال لحاؤه عالقاً به ودسّ طرفه في وقب الحديدة . ثم امر بحبـــل جديد فحلّ وأخذت منه بضع قامات الى الدولاب الرافع ومدّ حتى توتر كثيراً . ووطئه آخاب بقدمه حتى أز الحبل أزيز وتر القيثار ، ثم انحنى بلهفة فوقه ، واذ لم يرَ فيه فتائله متمايزة هتف : « عظيم ! والآن هيا بنا الى الاربطة المقيّرة » .

حلّ الحبل من أحد طرفيه واخذت الفتائـــل المنشورة وضفرت جميعاً ونسجت حول ثعلبة الرمح ، ودسّ العمود بعيدًا في وقب الثعلبة ، ومن الطرف الأدنى مدّ الحبل على نصف طول العمود ، وثبت هنالك باحكام وذلك بمداخلة الخيوط وتشابكها . واذ انتهى ذلك أصبح العمود والحديد والحبل — كأنها

ربات القدر الثلاث – متواشجة لا تنفصم ، ومشى آخاب في خيلاء ممتقلا الرمح وصوت رجله العاجية وصوت عمود الحيقور كلاهما يرن رنيناً أجوف على كل لوح خشبي . وقبل ان يلج قمرته سمع صوت خفيض شاذ يشوبه تماجن ولكنه من أشد الاصوات اثارة للشفقة . آه يا بيب ! ان ضحكتك التاعسة وان عينك الكسلى المسهدة ، وكل هذه الاقنعة المجونية التي تتلبس بها – كل هذه قد امتزجت امتزاجاً ذا مغزى بالمأساة السوداء – مأساة هذه السفينة السوداوية ، وسخرت هازئة منها !

١١٤ الشرك[1]

حين تغلغلت الباقوطة مبعدة في قلب ارض التطواف اليابانية هاج بجواتيها هائج الصيد حتى كانوا يقضون في الجو الوديع الرضيّ اثنتي عشرة ساعة وخمس عشرة وثماني عشرة وعشرين وهم في ذروة الكدّ، منهمكين في قواربهم، يجذفين باتزان او مبحرين او مطاردين للحيتان او منتظرين في هدوء بروزها من الماء، مـــدة ستين او سبعين دقيقة، وان كان النجاح الذي اصابوه ضئيلاً لا يوازي جهودهم .

في مثل تلك الاوقات تحت شمس خبت حرارتها، يعوم البحار طوال اليوم فوق اثباج مُلسٍ بطيئة المدّ، ويجلس في قاربه خفيفاً كأنه زورق من خشب التامول، ويمتزج امتزاجاً حميماً بالموجات الناعمة نفسها تلك التي تبربر ازاء حافة السفين كالقطط عند احجار الموقد . هذه هي لحظات السكينة الحالمة، اذ ينسىٰ المرء حين يرى الجمال الهادىء والألق في جِلْد المحيط ان قلب النمر ينبض في جوانحـــه ، ولا يذكر – الا بشق النفس – ان هذا القفاز المخملي يخفي مخلباً ضارياً .

---

[1] بلـــغ القاص لحظة حرجة تذكر فيها ما قاله في الفصل : ٤٢ « واذا كان اكثر مظاهر الكون المرئي قد خلق من مادة الحب فان الافلاك غير المرئية انما صنعت من الرعب » وتذكر ان الطبيعة تتبرج وكأنها عاهرة ؛ فتوقف في هذا الفصل لحظة يتأمل هذا الظاهر قبل ان يغوص الى « منطقة الرعب » .

هذه هي الاوقات التي يحس فيها الجوّاب وهو في قارب التحويت، احساساً ناعماً، بشعور بنوي واثق مطمئن نحو البحر كشعور ابناء البرّ نحو البرّ، فيظن البحر برّاً مزداناً بالازاهير؛ اما السفينة النائية التي لا تبدو منها إلا قمم صواريها وهي تجهد قدماً، فتتبدى وكأنها لا تمخر الامواج المتدحرجة وانمـــا تتهادى بين الحشائش الطويلة في سهوب متموجة. كخيول المهاجرين الغربيين، لا يظهر منها إلا آذانها المؤللة، اما اجسامها المختفية فتخوض غمار الخضرة المذهلة.

والوديان الطويلة البكر وسفوح التلال الوادعة الزرقاء يتسلل فوقها الصمت والطنين حتى لتكاد تقسم ان تلك الخلوات ينام فيها اطفال انهكهم اللعب، في ايار الطروب حين ذهبوا يقطفون ازاهير الغابات، ويخالط هذا كله مزاجك الصوفي، فاذا الواقع والوهم — وقد التقيا في منتصف الطريق — يتشابكان ويتداخلان ويكونان كلاً واحداً لا فاصل بين جزءيه.

ومها تكن هذه المناظر المسكنة مؤقتة عابرة فانها لم تكن تعجز عن ان تترك أثرها في آخاب، ولكن ان كانت هذه المفاتيح الخفية الذهبية قادرة على ان تفتح خزائنه الذهبية الخفية فان انفاسه فوقها كانت تصبغها بالدنس.

ايتها المسارب المكسوة بالاعشاب! ايتها المجالي الربيعية المترامية في الروح! فيك — وان ايبسك الجدب الموات الذي يلفحك من الحياة الدنيا — فيك يستطيع الناس ان يتمرغوا كالمهارى في البرسيم الناضر عند الصباح، ويحسون ندى الحياة البرود خالداً لديهم، في لحظات تمرّ مرّ السحاب. يا رب ليت هذه الهدأة المباركة تدوم! غير ان وشائع الحياة المختلطة المتشابكة تنتسج لحمـــة وسدى، فلكل هدأةٍ عاصفةٌ تمارضها. ليس في هذه الحياة تقدم دائب قدماً لا يتقهقر. فنحن لا نتقدم خلال مراحل معينة متدرجة ثم نقف الوقفة الاخيرة — لا نفعل كذلك خلال سحر الطفولة اللاواعي، وايمان اليفاعة التسليمي، وشك

عهد الفتاء (وهو مصيرنا جميعاً) ثم الريبة الكلبية ثم الجحود، بحيث نقف في طمأنينة الرجولة المتأملة التي تعبر عنها « إذا » . ولكننا كلما قطعنا هذه المرا- ل عدنا فيها من جديد ونظل الى الابد اطفالاً ويافعين ورجالاً وصوراً من « إذا » [1].
اين يقع الميناء الاخير حيث لا نزحزح المرساة من بعد؟ في اي اثير سابح يبحر العالم الذي لا يعيا به اكثر الناس إعياء؟ اين يختفي والد هذا اللقيط؟ اروا حنا كأولئك اليتامى، ماتت أمهاتهم اللائي لم يتزوجن بعقود وهن يضعنهم : ان سرّ الأبوّة قد دخل القبر معهن، فاذا شئنا ان نتعرفه كان علينا ان نذهب هناك .

وفي ذلك اليوم نفسه اطل استاربك من حافة قاربه على البحر الذهبي نفسه وتمتم قائلاً : «ايتها الروعة التي لا يسبر غورها، كالتي يراها المحب في عيني عروسه الشابة، لا تحدثيني عن اسماك القرش المرصوصة فيك كالأسنان، ولا تحدثيني عن اساليبك في اختطاف لحوم البشر. ليطرد الايمان الواقع . ليطرد الوهم الذكرى، انا ارسل النظرة عميقة فأحتقب ايماناً » .

اما اسطب فقد قفز في ذلك الضياء الذهبي نفسه كالسمكة ذات الحراشف البراقة وقال : «انا اسطب، واسطب رجل ذو تاريخ، ولكن اسطب في هـذا الموقف يحلف انه كان دائماً محبوراً » .

---

١ كلمة EI اليونانيه وهي منقوشة على باب هيكل ابولون في دلفي .

١١٥ الباقوطة والعزب يتلاقيان

بعد بضعة اسابيع مضت على تسوية رمح آخاب كانت المشاهد والمسموعات التي عرضت امام الريح بهيجة طروباً .

وكان ما واجهته الباقوطة مركباً نانتوكتياً اسمه « العزب » صفّ في العنبر آخر برميل من الزيت وأغلق المنافذ التي تكاد ان تنشق امتلاءً ، وكان في ثوب ايام الزينة يبحر ، مسروراً جذلاً وان شابه شيء من اعتداد المغرور ، بين السفن المتباعدة في مواقعها على مجالات الصيد ، قبل ان يحوّل قيدومه عائداً الى الوطن .

وكان الرجال الثلاثة في قمم صواريه يلبسون اعلاماً طويلة من قماش ضيق احمر فوق قبعاتهم ، ومن المؤخرة تعلق قارب تحويت ، قاعه متجه الى اسفل ، اما الدقل المائل فقد شبح فيه مأسوراً الفكّ الاسفل الطويل من آخر حوت ذبحوه ؛ ومن الحبال والاشرعة في كل جـــانب كانت ترفرف اعلام وشارات ورايات ذات ألوان . اما الجوانب فقد ربط في كل قمة من قممها الثلاث المجوفة كالسلال برميلان من زيت العنبر ومن فوقها في مشعبة الصاري العلويّ تبدو براميل صغيرة لطيفة تحوي ذلك السائل الثمين ايضاً . وفي القرص الواقع عند أعلى الصاري الرئيس سمّر قنديل نحاسي .

وقد علمنا من بعد ان هذا المركب « العزب » احرز نجاحاً مدهشاً غاية في

ذلك ، ومما زاد الامر ادهاشاً ان سواه من السفائن الاخرى العديدة قد قضت اشهراً كاملة دون ان تصيب حوتاً واحداً . وقد ألقيت منه براميل لحم البقر والخبز تخلصاً لتفسح مكاناً لما هو اثمن منها من زيت العنبر ، ليس هذا فحسب بل ان هذا المركب قايض المراكب الاخرى التي واجهها على براميل اضافية ، صفّت فيه على طول ظهر المركب وأودعت في غرف القبطان والضباط . حتى المائدة في القمرة كسرت وجعلت وقوداً وأصبح الرفاق الذين يأكلون في القمرة يتناولون طعامهم عند الطرف العريض من برميل زيت مربوط الى ارض الغرفة ليكون زينة متوسطة ؛ وقيّر البحارة في المنارة صناديقهم — في الواقع — وملأوها بالزيت، وقيل على سبيل التندر ان الطباخ اتخذ لاكبر حلة لديه غطاء وملأه ، وان قيّم الاغذية سدّ ابريق القهوة الاضافي لديه وعبأه ، وان الزراقين غطوا ثمالب اسنتهم وملأوها ، وان كل شيء ملىء بزيت العنبر إلا جيوب سروال القبطان ، فقد ابقاها خالية ليدس فيها يديه كي يكون ذلك شاهداً ناطقاً بأنه قانع تمام القناعة .

وعندما اتجه هذا المركب الطروب ذو الجـــد السعيد نحو الباقوطة ذات المزاج المتقلب، سمعنا صوتاً بربرياً من طبول ضخمة آتياً الينا من المنارة، وعندما زاد اقترابنا منه رأينا حشداً من رجالها واقفين حول مراجل التصفية الضخمة فيها وهي مغطاة بخيش يشبه ورق البرشمان او جلد كروش السمكة السوداء ، وكلما دقت عليها قبضات البحارة احدثت زئيراً عالياً . وعلى الربعة خلف الدقل كان الضباط والزراقون يراقصون فتيات سمراوات بلون الزيتون هربن معهم من الجزائر البولونيزية بينا يهيمن على الرقصة الطروب ثلاثة من زنوج لونج آيلاند قد احتقبوا اقواس كمانات من عاج الحوت ، وهم قد تعلقوا في قارب مزخرف ، مثبت باحكام في الأعلى بين الصاري الامامي والصاري الرئيس . وفي الوقت نفسه كان آخرون من عصبة السفينة منهمكين بصخب عند مبنى معامل التصفية حيث نقلوا منها المراجل الضخمة ؛ ولقد يخيل اليك انهم كانوا يهدمون

اسوار الباستيل اللعين فقد كانوا يرسلون صرخات وحشية عندما كانوا يلقون ما استغنوا عنه من الآجر والجص في البحر .

اما القبطان سيد هذا المشهد وصاحبه فقد وقف منتصب القامة فوق الربعة المرتفعة خلف الدقل الاعظم حتى كانت الرواية البهيجة تجري كلها تحت بصره وكأنها إنما ابتدعت طلباً لتسليته .

وآخاب ايضاً كان واقفاً على الربعة اشعث اسود تعلوه كآبة عنيدة لا تريم ، وعندما عبرت كل من السفينتين مخر أختها واحداهما تقيم افراحاً لأمور مضت واخرى تتوجس النذر من امور آتية كان القبطانان يمثلان في شخصيهما موضع المفارقة اللافتة في ذلك المشهد .

صاح قبطان « العزب » الطروب وهو يرفـــع كأساً وزجاجة في الفضاء : « تعالوا الينا ، تعالوا الينا ! »

فصرّ آخاب بأسنانه مجيباً : « هل رأيت الحوت الابيض ؟ »

فقال الآخر في دعابة ومرح : «كلا، انما سمعت به، ولكن لا يكن لك فيه اعتقاد . تعال الى ظهر سفينتنا ! » .

– « انت مفرط في مرحك اللعين . أبحر . هل فقدت رجالاً ؟ »

– « لم أفقد شيئاً يستأهل ذكراً – اثنين من ابناء الجزر ، ذلك كل مـــا فقدت ، لكن تفضل يا رفيق القلب ، تعال الينا ، انا استطيع ان أنزع ذلك السهوم الاسود من جبينك تواً . أقبل ، ألا تقبل ! (هذا اوان الجذل)، سفينتنا ممتلئة مزمعة نحو الوطن » .

فتمتم آخاب: «ما اقرب الاحمق من ان يألف ويؤلف!» ثم بصوت جهوري: «تقول ان سفينتكم ممتلئة وانها مزمعة نحو الوطن، اذن فاعلم ان سفينتنا خالية وانها مبعدة عن الوطن، فاذهب في طريقك وانا في طريقي. انتم في الامام! انشروا الاشرعة وأقبلوها وجه الريح!»

وبينا ذهبت احدى السفينتين امام النسمات جذلى مسمحة، ناطحت الاخرى الريح جاهمة عنيدة، وافترقت السفينتان، اما بحارة الباقوطة فينظرون نظرات رصينة مترددة نحو «العزب» العائد، واما رجال «العزب» فلم يلقوا بالاً لنظرات أولئك وهم في نشوة وحبور. وعندما كان آخاب مستنداً على أعلى الكوثلة ورمق السفينة المزمعة نحو وطنها استخرج من جيبه قارورة من رمل، وحول نظره من السفينة الى القارورة، فبدا كأنما يجمع بذلك بين متباعدين لان تلك القارورة كانت مليئة بمستخرجات من بحر نانتوكت.

١١٦ الحوت المحتضر

حين يبامننا ابناء السعد المجدودون ويبحرون على مقربة منا، نقبس لانفسنا، وان كان القنوط يأخذ بمجامع نفوسنا من قبل، قبساً من ذلك النسيم الهابّ ، ونحسّ في مرح ان اشرعتنا قد انتفخت بالأمل . هذا شيء غير نادر في الحياة وذلك هو ما حدث للباقوطة، فان ملاحيها بعد ان قابلوا «العزب» المرواح، رأوا الحيتان في اليوم التالي وذبحوا اربعة منها، وذبح آخاب من الاربعة واحداً.

كانت الشمس قد طفلت ؛ وعندما قرّت الرماح جميعاً في تلك المعركة القرمزية، طفا في بحر الغروب الجميل والسماء الجميلة اثنان : الشمس والحوت، ثم أفلا في سكون الموت معاً ، ثم تمعجت في الافق الوردي عذوبة وكآبـــة، وتصاعدت ابتهالات متضافرة متلاحمة، حتى بدا وكأن نسيم البر الاسباني بعيداً صاعداً من الوديان الخضر في جزائر مانيلا قد تقحمت به همته فتحول بحاراً فولى وجهه نحو البحر محملاً بتلك الابتهالات والاناشيد المسائية .

وتبددت جهامة آخاب وانبسطت اساريره مرة اخرى، وانما انبسطت تمهيداً لجهامة اعتى واعمق، وكان حينئذ قد ذهب الى المؤخرة بعيداً عن الحوت وجلس ممعناً يرقب سكراته الاخيرة من قاربه الهادىء . ولحوت العنبر مشهد غريب وهو يحتضر اذ يولـّي رأسه وجهة الشمس ثم يلفظ انفاسه الاخيرة ؛ ذلك المنظر الغريب في ذلك المساء الوادع المطمئن نقل الى آخاب عجباً لم يعرفه من قبل :

« يدور ويدير جبهته مستقبلاً لحظة الختام، ما ابطأه ولكن ما احزمه وهو يحوّل جبهة عانية بالخشوع مبتهلة ضارعة مشفوعة بآخر ايماءات الاحتضار ! هو ايضاً يعبد النار، يا تِبْعَ الشمس الأمين الكبير الرفيع ! أوْهِ لك ان ترى هذه الاعينُ المفعمة بالود هذه المشاهد المفعمة بالود . تأمل ! ها هنا وراء محبس الماء، خلف كل طنين تبتمته السعادة والتعاسة في دنيا البشر، في هذه البحار الصريحة النزيهة حيث لا صخور تقدم ألواحاً تخط فوقها التقاليد، حيث الامواج منـــذ عصور صينية طويلة ما تزال تتقلب خرساء لا يحدثها احد، كالنجوم التي تتلألأ فوق منابع النيجر المجهولة، هنا ايضاً تموت الحياة مولية وجهها شطر الشمس، مفعمة بالايمان ؛ ولكن أرجع البصر كرة ! ما يكاد الموت يدركها حتى يلتف الموت حول الجثة فتولي وجهها وجهة اخرى » .

«آه ايها الهندوسي الاسود، يا نصف الطبيعة، يا من بنيت من العظام الغارقة عرشك في مكان ما في قلب هذه البحار التي لا يكسوها اخضرار، انت يا كافر، ايها الملك ، وأنت تنطق بالحقيقة اذ تحدثني في الزعزع الصرصر التي يعم بهـــا الخراب والموتان ، وفي المدفن الساكن الذي يسمى هدأة بعد جيشان . ان حوتك هذا اذ يحوّل رأسه المحتضر نحو الشمس ثم يدور مرة اخرى ليحمل اليّ عبرة اي عبرة » .

« وانت يا عاتق القوة الموشح الملتحم في ثلاث طاقات ، أنت ايتها النفاثة الطمّاحة الموشاة بقوس قزح ، كيف يجهد المرء منا ، كيف يوالي نفثاته باطلاً ! باطلاً ايها الحوت تطلب الشفاعة لدى الشمس العجلى التي تسترد الحياة ولا ترجعها بعد ؛ غير انك ايها الجانب الاسود تهدهدني بايمان أشد سواداً واكثر كبرياء ،

كلّ الاشياء التي تمازجت لديك ولا يمكن حصرها تسبح دوني ؛ ترفعني انفاس اشياء كانت قبل حية ، تضوع كالهواء فأصبحت ماء» .

« تحية لك ، تحية الى الابد ايها البحر يا من لا يجد الطائر البري راحة نفسه إلا فوق اضطرابك الابدي . انا ابن الارض ، أرضعني البحر : السفح والوادي كفلاني غير ان الامواج اخوتي بالرضاع » .

١١٧ السهر على الحوت

ماتت الحيتان الاربعة التي ذبحت في ذلك المساء ، متباعدة ، أحدها مات نائياً ضد الريح والثاني أقرب منه وجهة الريح ومات الثالث على محاذاة القيدوم والرابع على محاذاة الكوثلة . وجُرّت الثلاثة الاخيرة وأجنبت الى السفينة قبل حلول الليل، اما الذي مات ضد الريح فلم يمكن الوصول اليه حتى الصباح وكان القارب الذي تولى ذبحه هو الذي سهر الى جانبه طوال الليل ، وذلك هو قارب آخاب .

وقد غرست عصا الراية قائمة في نفاثة الحوت الميت والقنديل معلق في اعلاها يرسل لألاء مضطرباً مترددأ على الظهر الاسود الصقيل ويلقي ومضات بعيدة على امواج الليل التي كانت تمس في رفـــق جانب الحوت العريض كأنها امواج ناعمة تتكسر على الشاطىء الصخري .

وبدا آخاب وجميع ملاحي قاربه نائمين الا البارسي الذي أقعى في مقدم القارب ، وجلس يرقب أسماك القرش وهي تتلعب كالاطياف من حول الحوت ، وتدق ألواح الصنوبر الخفيفة بذيولها ، وجرى في الفضاء صوت راعش كأنه صوت النواح بين الجنود على الذين خسفت بهم الارض وتحوّلوا قاراً من اشباح عامورة المذنبين الذين لم تدركهم المغفرة .

وهب آخاب من نومه ، فاذا به وجهاً لوجه امام البارسي ، وكانت حلكة

الليل تطوّق الرجلين فيبدوان وكأنهما آخر اثنين في عالم طغى عليه الطوفان . وقال : « عاودتني الرؤيا مرة اخرى » .

– « رؤيا عربات الموتى ؟ ألم اقل لك ايها الشيخ انك لن تعرف تابوتاً او عربة ؟ »

– « وهل يحتاج من يموت في البحر عربة تنقله ؟ »

– « ولكني قلت ، ايها الشيخ ، انك قبل ان يدركك الموت في هذه الرحلة سترى عربتين حقاً على البحر اما الاولى فلم تصنعها أيدٍ بشرية واما الخشب الملموس في الثانية فلا بد انه من اشجار امريكية » .

– « اجل، اجل . منظر غريب حقاً ، يا بارسي – ان ترى عربة والريش من فوقها عائمة على المحيط ، والموجات هي حاملة النعش . ها ! مثل هذا المنظر لن نراه وشيكاً » .

– « صدق او لا تصدق ، انك لن تموت الا حتى ترى هذا المنظر ، ايها الشيخ » .

– « وما ذاك الذي قلته عن نفسك ؟ »

– « مع ان الامر آجلٌ فيما يتصل بي ، الا اني سأكون ربيئةً لك ، أمضي قبلك » .

– « وحين تمضي قبلي – ان حدث ذلك ابداً – فاني قبل ان ألحق بك ، فلا بد من ان تظهر لي ، لتكون دليلاً لي ؟ أليس كذلك ؟ حسن ، اني أصدق كل ما تقوله يا دليلي وربيئتي ؛ ما يزال عليّ عهدان : ان أقتل موبي ديك وأن ابقى حياً بعد قتله » .

فقال البارسي وعيناه تومضان كأنهما يراعتان من نار الحباحب في الحلك : « اقطع على نفسك عهداً ثالثاً ايها الشيخ ، فلن يقتلك الا القنّب » .

– « تعنى حبال المشنقة [1] . اذن فأنا خالد على البر وعلى البحر – » كذلك صاح آخاب بضحكة ساخرة – : « خالد على البر وعلى البحر » .

ولاذ الرجلان بالصمت كأنهما رجل واحد ، وطلع الفجر الداكن ، ونهض الملاحون النائمون من قعر القارب ، وقبل الظهر جُرّ الحوت الى السفينة .

---

[1] هنا اخطأ آخاب التقدير وظن ان القنب لا يعني الا حبال المشنقة .

١١٨ مقياس الزوايا

مع الزمن اقترب موسم الصيد على الخط، وحين كان آخاب يصدر كل يوم من قمرته ويلقي نظرة الى اعلى كان قيم الدفة اليقظ ، يعالج محاور دولابه[١] متباهياً ، والبحارة اللاهفون يجرون بسرعة الى حلقات الحبال ويقفون هنالك وعيونهم مصوبة على الدبلون المسمّر، وقد فرغ صبرهم في انتظار الامر بأن يوجهوا قيدوم السفينة نحو خط الاستواء . وجاء الامر في إبانه ، كان الوقت يقترب كثيراً من الظهيرة وكان آخاب وهو جالس في صدر قاربه المرفوع عالياً، يهم برصد الشمس — حسب عادته اليومية — لتقدير مدى ارتفاعها .

ونهار الصيف في البحار اليابانية كجدول من الألق الوضاء، فالشمس اليابانية الحيّة التي لا يطرف جفنها تبدو وكأنها البؤرة المتوهجة في مجهر المحيط الزجاجي المترامي، وتبدو السماء مصبوغة باللك ولا سحاب هنالك، والأفق سابح، وهذا العري ذو الألق الذي لا يخبو كأنما هو سناء عرش الله لا تستطيع العيون ان تحدق فيه . ومن الخير أن كان مقياس الزوايا لدى آخاب مزوداً بعدسات ملونة يستطيع من خـــلالها ان يبصر تلك النار الشمسية ؛ وبقي آخاب في جلسته لحظات ليقع على اللحظة الدقيقة التي تحل فيها الشمس في الأوج، وهو قد جعل يراوح جسمه على حسب تقلبات السفينة ، ووضع على عينيه منظاره الذي يشبه

---

١ هنا جعل الدفة دولاباً، وكان قد قال في الفصل : ١٦ ان لها محلا اتخذ من فك حوت .

آلات التنجيم . وبينا كان انتباهه كله مستغرقاً ، كان البارسي راكعاً دونه على ظهر السفينة، ووجهه متجه الى أعلى كوجه آخاب، وهو يرقب الشمس مثله، إلا ان جفون عينيه كانت تخفي حدقتيه بعض اخفاء، ووجهه الغريب قد استبد به ركود ارضي . وأخذ آخاب نتيجة الرصد بعد ذلك، وحسب بقلمه على رجله العاجية ماذا كان ارتفاع الشمس في تلك اللحظة نفسها، وعاد يتردى في غمرة حلم مدة لحظة ثم رفع رأسه الى الشمس وتمتم قائلاً : « انت يا علامة بحرية، انت ايها الرائد القوي الرفيع، انت تصدقينني الخبر عن موضعي في الحاضر، ولكن أتستطيعين ان تلمحي اليّ تلميحاً أين أكون في المستقبل ؟ او تستطيعين ان تخبري اين تعيش بعض الاشياء الاخرى سواي في هذه اللحظة ؟ أين موبي ديك؟ لا بد من انك في هذه اللحظة تبصرينه، ان عيني لتنظران في نفس العين التي تبصره، أجل وفي العين التي ترى الاشياء على الجانب الآخر المجهول منك ايتها الشمس، على حد سواء » .

ثم نظر الى آلة قياس الزوايا، ومس مبتدعاتها ورموزها العديدة واحداً بعد آخر ثم تفكر ثانية وتمتم : « لعبة حمقاء ! ألهية اطفال يحملها الاميرالات المستكبرون والقومودورات والقباطنة ؛ ان العالم ليباهي بك، ويزهو بحيلتك وقوتك، ولكن ماذا بعد كل هذا تستطيعين ان تفعلي سوى ان تعيّني النقطة المسكينة الذليلة التي تكونين انت نفسك فيها على هذا الكوكب الواسع، واليد التي تمسك بك : لا . لا شيء سوى ذلك، ولو كان مقدار ذرة ! انك لا تستطيعين ان تنبئينا اين تكون غداً عند الظهر قطرة ماء او ذرة رمل، ومع ذلك فانك من القحة بحيث تحقرين الشمس ! علم ! لعنت ايتها اللعبة المغرورة ! ولعنت جميع الاشياء التي توجه عيون الانسان نحو تلك السماء، فان حيويتها الحية انما تلفح عينيه مثلما ان هاتين العينين الشاخصتين يحرقهما ضوؤك ايتها الشمس . ألحاظ عيني الانسان على مستوى واحدٍ وأفقَ الارض بطبيعتها، ولم ينبتها الله في أم رأسه كأن الله قد اراده ان يحدق في جَلَد سمائه . لعنت ايتها الآلة التي تقيس

الزوايا ! » ثم قذف بها على ظهر السفينة : « بعد اليوم لن استبين طريقي الارضي بك، سيهديني ويريني موقعي في البحر، بوصلة السفينة المستوية، والاعتماد على التقديرات التخمينية المرتجـــلة » . — ثم اضاف وهو نازل من القارب الى ظهر السفينة : « اجل ! كذا أدوسك انت يا شيئاً خسيساً يشير بوهن الى الاعالي ، هكذا احطمك واضربك ! »

وما ان نطق الشيخ الهائج بهذه الكلمات وما ان داس برجليه كلتيهما الحية منهما والميتة على الآلة حتى مرت على وجه البارسي الاخرس القابع دون حراك سحابتان: احداهما نصرٌ ساخر كأن المقصود بها هو آخاب والاخرى يأس قاتل كأن نفسه هي المعنية بها . ونهض دون ان يلحظه احد وانسلّ ذاهباً ، اما البحارة الذين تملكتهم الرهبة لمنظر رئيسهم فانهم احتشدوا فوق أعلى المقدمة حتى صرخ آخاب وهو يذرع ظهر السفينة في اضطراب : « الى حلقات الحبال ! ارفعوا الدفة — أديروا الدعائم الساندة ! »

وفي لحظة دارت الدعائم الساندة، واستدارت السفينة على عقبها نصف دورة ، وصواريها الثابتة الجليلة مصوبة في انتصاب على هيكلها الطويل المضلع كأنمـــا هي ثلاثة فرسان — كل واحد منهم اسمه هوراتيوس[1] — يرقصون على حصان واسع الظهر .

وكان استاربك يقف بين رءوس اولئك الفرسان يرقب طريق الباقوطة الصخاب ويرقب آخاب ايضاً حين ذهب يتمايل على ظهر السفينة :

— «لقد جلست امام نار الفحم الكثيفة وشهدتها وهي تتوهج مفعمة بحياة

---

[1] ثلاثة اخوة هم ابناء هوراتيوس حاربوا ضد الاخوة الكوريائيين حفاظاً على سيادة ألبا .

اللهيب المتلوّي ورأيتها وهي تأخذ في الخمود، وتنطفىء، حتى تصبح رماداً اخرس ! يا شيخ البحار هذه الحياة النارّية التي فيك ما الذي يبقى منها في الختام سوى حفنة من رماد ! »

وصاح اسطب : « اجل إلا انــه رماد فحم البحر – تأمل هذا يا سيد استاربك – قولي « فحم البحر » – لا فحماً عادياً مبتذلاً . طيب ! طيب ! سمعت آخاب يتمتم قائلاً : « ها قد دس بعضهم هذه الورقات في يدي وحلف ان ألعب بها أنا ولا احد سواي » . عليّ اللعنة ان كنت يا آخاب لا تلعب لعباً سليماً؛ عش في اللعبة حازماً، ومت حازماً».

١١٩

الشموع

أشد المناخات دفئاً يربّي اضرى الضواري : فنمر البنغال يقعي في حدائق الافاويه ذات الخضرة الدائمة . والسماء اشد شيء اشراقاً الا انهـــا تحتقب اشد الصواعق فتكاً : هذه كوبا الفاتنة تعرف الاعاصير التي لم تطف ابداً ببلاد الشمال ؛ كذلك هي الحال في هذه البحار اليابانية المتألقة ، فالبحّار يواجه فيها أعتى العواصف اعني الزعزع الهوجاء « التيفون » . فهي تنبثق احياناً من ذلك الفضاء الصافي كأنها قنبلة متفجرة في مدينة مبهورة نائمة .

قبل مساء ذلك اليوم تمزقت أشرعة الباقوطة واضحى على الصواري العارية ان تنازل الزعزع التي ضربتها ضربة على أم رأسها ؛ وحين حل الظلام كان البحر والسماء يهدران ، والرعد يشقها والبرق يتوهج فيها ، ويفضح الصواري العاجزة ، والمزق ترفرف حولها من هنا وهناك ، وهي كل ما تركه لها هياج العاصفة الاول ، لتتلهى به في لعبها المقبل .

وكان استاربك يقف على الربعة خلف الدقل الاعظم وهو يمسك باحدى هذه المزق ، ولدى كل لمعة برق يرفع بصره الى اعلى ليرى اية كارثة اخرى قد اصابت الادوات الضرورية هنالك . اما اسطب وفلاسك فكانا يوجهان الرجال في رفع القوارب الى اقصى علو وفي كيفية الربط بأقصى احكام، وبدا ان جهدهم يضيع هباء، فمع ان القوارب رفعت الى قمة الروافع فان قارب الربعة المضادة للريح (قارب آخاب) لم تكتب له النجاة فقد اندفقت امواج هائلة متضربة ضدّ

جانب السفينة المترنح العالي وشقت قاعدة القارب عند المؤخرة وتركته مرة اخرى يقطر ماء كأنه غربال .

قال اسطب وهو يتأمل القارب المتصدع : «صنعته رديئة ! صنعته رديئة يا سيد استاربك ولكن لا بد للبحر ان يفعل ما يريد . انا واحد من الناس الذين لا يستطيعون منازلته . اما ترى يا سيد استاربك ان الموجة تطيل التحفز قبل ان تثب ، فهي تجري حول العالم كله ثم تقفز ، اما انا فكل مسافة التحفز التي لديّ هي عرض هذه الالواح ها هنا . لكن لا بأس بذلك ، فكله يتم في دعابة ، كذلك تقول الاغنية القديمة : (يغني)

آه ان الريح طروب
والحوت ساخر ضحوك
وذيـــله ناضر
والبحر فتى دعبوب مرح لعوب ساخر ضاحك مجّان ،

والرشاش يتطاير
وهذه اصبعه تثير زبدا
حين يتململ في العبير
والبحر فتى دعبوب مرح لعوب ساخر ضاحك مجان

والرعد يشق السفين
وانما هو يتمطق
اذ يلعق اصبعه
والبحر فتى دعبوب مرح لعوب ساخر ضاحك مجان

فصاح استاربك : « حسبك يا اسطب ودع الزعزع تغني وتضرب قيثارتها ها هنا في حبالنا وأشرعتنا ، ولو انك كنت رجلاً شجاعاً للزمت الصمت » .

— «ولكني لست رجلا شجاعاً» ابداً ما قلت انني رجل شجاع ، انا جبان ، وانا أغني تشجيعاً لقلبي وانا اخبرك بالأمر يا سيد استاربك: لا شيء يوقف غنائي في هذا العالم الا ان يقطع حلقي ، وحين يحدث ذلك فأنا اراهنك انني سأنشد تسابيح الختام» .

— « احمق ! انظر من خلال عيني ان لم يكن لك عينان » .

— « مه ! كيف ترى من الليلة الظلماء خيراً مما يراه سواك مهما يكن حمقه ؟»

فصاح استاربـــك وهو يقبض على كتف اسطب ويشير بيده نحو مقياس الطقس : « افتح عينيك ! ألا ترى الريح تهب من الشرق ، اي من نفس الجهة التي سيجري فيها آخاب من اجل موبي ديك ؟ نفس الجهة التي أمر بالدوران نحوها ظهر اليوم ؟ تأمل قاربه هناك اين وقع التشقق ؟ في أشرعة المؤخرة ، يا رجل، حيث تعود ان يقف ، لقد انشقت البقعة التي يقف فيها يا رجل ! والآن اقفز من حافة السفينة وتغن متلاشياً ان كان لا بد من غناء ! »

— « لا أفهمك حتى بعض الفهم ، ماذا في الريح ؟ »

فناجى استاربك نفسه فجأة غير آبه لسؤال اسطب قائلاً : « نعم ، نعم . الدوران حول رأس الرجاء الصالح أقصر طريق الى نانتوكت ، والريح التي تدقنا بمطرقتها الآن لتشق سفينتنا يمكن لنا ان نحولها الى ريح رخاء تسوقنا الى الوطن ، هناك ضد مهب الريح ظلمة مصير امـــا مع مهب الريح ، فالوجهة هي الوطن - أراها تضوىء هناك ، لكن ذلك ليس من فعل البرق » .

في تلك اللحظة اثناء احدى فترات الظلمة الحالكة التي تتلو التماع البرق سمع استاربك صوتاً الى جانبه وفي اللحظة نفسها على وجه التقريب تدحرجت فوق رأسه زخة من قصف الرعد .

— « من هناك ؟ »

— « الرعد الرعّاص » — قال آخاب ذلك وهو يتلمس طريقه على حافة الربعة العليا ذاهباً الى الثقب المحوري ، إلا انه فجأة وجد طريقه واضحاً أمامه على ضوء حراب مقذوفة من نار .

ومثلما ان مانعة الصواعق في برج على البر انما يراد منها ان تصرّف التيار الخطر في الارض فكذلك اختها مانعة الصواعق التي تحملها بعض السفن على كل صار فانما يراد منها ان تسرّبَ التيار نفسه في الماء ، ولكن بما ان هذا الموصل يجب ان ينزل الى عمق غير قليل حتى تتحاشى نهايته كل مساس بهيكل السفينة وبما انه زيادة على ذلك اذا ظلّ هنالك مجذوباً على الدوام فانه يكون عرضة لكثير من الكوارث ، هذا علاوة على انه قد يتدخل تدخلاً غير قليل ببعض الحبال والاشرعة وبذلك يعيق طريق المركب في الماء كثيراً او قليلاً ، من اجل ذلك كله فان الاجزاء الدنيا من موانع الصواعق في السفينة لا تكون دائماً على ظهرها وانما هي بعامة تصنع من حلقات طويلة دقيقة لكي يتم سحبها الى أعلى في السلاسل الى خارج او القاؤها في البحر حسبما يتطلبه الموقف .

صاح استاربك للبحارة وقد استفاق فجأة بقوة البرق اللماح الذي كان قد اخذ يرسل شعله المنطلقة لتنير موقع آخاب :

« موانع الصواعق ! موانع الصواعق ! أهي فوق الظهر ، أنزلوها في المقدمة والمؤخرة ! عجلوا ! »

فصاح آخاب : « حسبك ! دعنا نتذرع بروح رياضية في هذا النزال وان كنا نحن الفريق الاضعف . اني قد اسهم في رفع موانع الصواعق على جبال الهملايا والانديز حتى أحفظ العالم كله من الخطر ، ولكن دعنا من استغلال الامتيازات لانفسنا ، دعها حيث هي يا سيدي » .

فصاح استاربك : « انظر الى أعلى ، انهـــا شعل القديس اميليو (جسم قديس) انها جسم قديس ! جسم قديس! »

كانت كل الدعامات الساندة في السفينة قد مالت على وهج نار صفراء وكانت كل نهاية مثلثة الرءوس في كل طرفٍ من اطراف مانعة الصواعق الثلاثة قد علقت بها ثلاث شعل بيضاء مستدقة ، وكل واحد من الصواري الطوال الثلاثة كان يلتهب في صمت في الفضاء الكبريتي وكأنها جميعاً ثلاثة رءوس مستدقة من شموع ضخمة منصوبة امام المذبح .

« سحقاً للقارب ! ليذهب ! » كذلك صرخ اسطب في تلك اللحظة عندما ارتفع الماء المتلاطم تحت قاربه الصغير حتى ان حافته لطمت يده بعنف وهو يمرّ حبلا . « سحقاً له » — ثم انزلق الى الوراء على ظهر السفينة وعيناه المصعدتان تبصران الشعل . ثم على التو صاح مغيراً نغمته : « ارجو ان تولينا شعل القديس جميعاً رحمتها ! »

في لعنات البحارة كلمات مألوفة ، فهم قد يلعنون وهم في نشوة السكينة مثلما يلعنون وهم بين نواجذ العاصفة ، وهم قـــد يصبون اللعنات من نهايات الدعامات الساندة عند الشراع الاعلى حين يكونون اشد شيء ترنحاً من بحر هائج . ولكني قلما سمعت في كل رحلاتي لعنة مترددة حين يكون اصبع الرب الملتهب قد نزل على السفينة حين تصبح كلمات بليشاصر «منا منا تقيل وفرسين» منسوجة مع الاشرعة والحبال .

وبينا كانت هذه الصفرة تتلهب في الاعالي لم يسمع بين البحارة المسحورين كلام الا قليلا ، وكان البحارة قـــد تجمعوا في عصبة كثيفة واقفين عند منارة السفينة وعيونهم جميعاً تلتمع في تلك الصفرة الفوسفورية الشاحبة كأنهم عِقد ناءٍ من النجوم . واذ تبدى دغة ذلك الزنجي الضخم اللامع إزاء ذلك الضياء الشبحي لاح في الطول ثـــلاثة امثال قامته الحقيقية ، وبدا كأنما هو السحابة السوداء التي انطلق البرق منها . واما شفتا طاشطيقو المنفرجتان فقد كشفتا عن اسنان في بياض القرش تلتمع التماعاً غريباً حتى كأنما قد مستها شعل القديس اميليو . واما وشم كويكوج فانه حين سطعت عليه الاضواء السماوية ، توهج فوق جسمه كأنه شعل شيطانية زرقاء .

وذوى رواء الصورة جميعاً حين طفت عليها الصفرة الشاحبة في الاعالي ، ومرة اخرى كانت الباقوطة وكل نفس عليها ملفعين في عباءة ، ومرت لحظة او اثنتان حين اصطدم استاربك بشخص وهو يتقدم الى الامام ، كان الشخص هو اسطب ، فقال له : « ما رأيك ايها الرجل الآن ، سمعت صيحتك ، فلم تكن نظير ما جاء في الاغنية » .

— « لا . لا . لم تكن ، لقد قلت : ارجو ان تولينا شعل القديس جميعاً رحمتها ، وانا لا ازال ارجو ان تفعل ذلك ، أتراها لا تولي الرحمة الا الوجوه العابسة ؟ أليس لديها طاقة لتقبـــل الضحك ، وانظر يا سيد استاربك أقول « انظر » والظلام حالك يحول دون الرؤية ، والصواب ان اقول : « اسمع » : اني اعد الشعلة التي علقت برأس الصاري علامة الحظ السعيد، لان هذه الصواري مغروسة في عنبر سيطفح بزيت العنبر، — فهمت ؟ — وبذا فان الزيت سيتغلغل في الصواري كعصير الحياة في الشجرة . اجل ان صوارينا الثلاثة ستصبح ثلاث شموع من زيت العنبر — ذلك هو الفأل الحسن الذي رأيناه » .

في تلك اللحظة رأى استاربك وجه اسطب وقد أخذ في بســطء يلوح منه

بصيص، ونظر الى اعلى وصاح : «انظر ! انظر ! » ومرة اخرى تراءت الشعل العالية المستدقة وقد بدا في شحوبها ما لاح كأنه شيء فوق طبيعي قد تضاعف ما فيه من سمات علوية .

وصاح اسطب مرة اخرى : «أرجو ان تولينا شعل القديس جميعاً رحمتها».

وعند قاعدة الصاري الرئيس تحت الدبلون واللهب تماماً كان البارسي راكعاً امام آخاب ورأسه منحنٍ بعيداً عنه، بينا كان عدد من البحارة عن كثب منه، عند الحبال المقوسة والمدلاّة، منهمكين في حفظ احد الصواري من العطب فشدهم الوهج فتلاصقوا ملتحمين، ووقفوا معلقين كأنهم ثلة من الزنابير المخدّرة تعلقت من غصن متدلٍ من شجرة، وبقي آخرون مغروسي الاقدام في ظهر السفينة في وقفات متنوعة مسحورة كأنهم الهياكل الجسمية في هركولانيوم بعضها واقف وبعضها يمد الخطو وبعضها راكض . الا ان عيونهم جميعاً كانت مصوبة الى أعلى .

فصاح آخاب : «أجل، أجل، يا رجال صوبوا النظر اليها، عاينوها جيداً، ان الشعلة البيضاء لتنير الطريق الى الحوت الابيض، ناولوني حلقات الصاري الرئيس هناك، انه ليسرني ان ألمس هذا النبض وادع نبضي يدق ازاءه . دم يواجه ناراً ! كذا هو » .

ثم استدار وقد قبض بإحكام على آخر حلقة ووضع قدمه على البارسي وأثبت نظره الى أعلى وطرح ذراعه الايمن على امتداده الى اعلى ووقف منتصباً امام ذلك الثالوث العالي ذي الرءوس الثلاثية من الشعل :

«آه يا روحاً صافية من نار صافية، كنت اعبدها ذات يوم فوق هذه البحار كما يعبدها الفارسي حتى حرقتني في شعيرة قربانية فأنا لا أزال احمل ندوبها

حتى الساعة [1] . انا اعرفك الآن، ايتها الروح الوضاءة، وانا اعرف الآن ان عبادتك الحق تحدٍّ ، انك لا تعطفين على الحب او الاحترام، واما الكراهية نفسها فلا يمكنك إلا قتلها، وكل شيء تقتلين . فاليوم لا يقف في وجهك احمق سادر لا يعرف الخوف . فيّ قوتك التي لا تتكلم ولا تتحيز في مكان ، ولكنني سأظل حتى الرمق الاخير من حياتي الزلزالية انازع في هيمنتها المطلقة غير المتكاملة على نفسي . في وسط حومة اللاشخصاني المتشخص، ها هنا تقف شخصية، وان كانت في خير احوالها نقطة . من أين أتيت والى اين اذهب ؟ غير اني ما دامت لي حياة البشر ستظل تحيا فيّ الشخصية الملوكية وتستشعر حقوقها الملوكية . غير ان الحرب ألم والكره ويل . تعالي في أدنى اشكال الحبّ وسأركع امامك وأقبلك، اما في اعلى صورك فتعالي محض قوة علوية، ومع انك تسوقين اساطيل من عوالم مفعمة بشحوناتها فهناك ذلك الذي لا يزال قليل المبالاة بك، آه ايتها الروح الصافية، من نارك خلقتني، وانا مثل ابن النار البار انفثها مردودة اليك » .

[تعود خطفات البرق مكرورة مفاجئة . تقفز الشعل التسع في اتجاه طولي بحيث تصبح ثلاثة اضعاف ارتفاعها الاول . آخاب وسائر الرجال يغمضون أعينهم، وقد غطّوها براحاتهم] .

« فيّ قوتك التي لا تتكلم ولا تتحيز في مكان . ألم اقل كذلك ؟ وهي لم تنزع مني ، ولا انا القي هذه الحلقات الآن . انت تستطيعين ان تضربيني بالعمى

---

[1] درس احد النقاد رمز « النار » في قصة موبي ديك ففسر هذه العبارة بقوله : « كان آخاب يعبد النار اولاً لانه يرى فيها محطماً للشرّ على الطريقة الزرادشتية الصحيحة، اذ كان يعدها مبدأ النور ، واذ فعل ذلك ضربه البرق فأحرقته النـار ، فكان فعلها موازياً للتشويه الذي احدثه موبي ديك ... » .

ولكنني عندئذ استطيع ان أتلمس طريقي. انت تستطيعين ان تهلكيني ولكنني استطيع عندئذ ان اكون رماداً . خذي اليك ولاء هذه العيون البائسة وهذه الراحات المتخذة وقاءً. أما انا فلا أريد ولاءً . ان البرق ليلتمع خلال جمجمتي، وحدقتاي تؤلمان وتوجعان، وذهني المصعوق كأنه مقطوع الرأس يتدحرج على ارض صعّاقة . آه ! آه ، وان غشيني العمى فأنا اتكلم اليك، انت ضياء ، ومع ذلك فانك تنبثقين من الظلام، وانا ظلام انبثق من الضياء، انبثق منك انت ! قد كفت حراب البرق عن الانطلاق ، ها انا افتح عيني ، فهل أبصر ؟ هناك تلتهب الشعل، آه ايتها الفخيمة ! ما اشد ما اعتز الآن بانتسابي اليك ! ولكنك ليس ضياؤك إلا والدي الناري اما أمي الحلوة فلا اعرفها . آه ايتها الجائرة انك لا تعرفين كيف جئت ولذلك تقولين لم تلدك أمّ ؛ يقيناً انك لا تعرفين مبتدأك ومن ثم تقولين انك قديمة لا أول لك ، انا اعرف ذلك من نفسي ، اعرف ما لا تعرفينه من نفسك ايتها الجبارة المهيمنة . ووراءك شيء لا يمتزج بغيره ايتها الروح الوضاءة ليست ابديتك إزاءه الا زمناً، ليست قدرتك على الخلق ازاءه الا آلية؛ من خلالك، من خلال نفسك الملتهبة تراه عيناي المحرقتان رؤية غائمة، ايتها النار اللقيطة، ايتها الناسكة الازلية ان فيك لغزك الذي لا يحل، فيك حزنك الذي لا يشركك فيه احد . ها هنا في ألم مستكبر اجد جدي وأقرأ اسراره . اقفزي، اقفزي الى اعلى والحسي السماء، انا اقفز معك، احترق معك . ويسرني ان التحم بك، بتحدٍ اعبدك ! »

فصاح استاربك : « القارب ! القارب ! انظر ما حلّ بقاربك ايها الشيخ ! »

بقي رمح آخاب الذي صنعه في نار بيرث مربوطاً ربطاً محكماً في محجأه المرئي الظاهر حتى انه نتأ بعيداً عن مقدم قارب التحويت، ولكن البحر الذي شق قاعدته قد جعل الغمد الجلدي المرتخي يسقط عنه، ومن كلاّبة السنان الفولاذي الحادّ سطعت شعلة مستوية من نار شاحبة ذات شعب؛ وعندما كان

الرمح الاخرس يحترق هنالك كأنه لسان حية، قبض استاربك على ذراع آخاب قائلاً : « الله، الله ضدك ايها الشيخ ؛ كفَّ عما اعتزمته ! فهذه رحلة منكودة الطالع، بدايتها منكودة والاستمرار فيها منحوس، دعني احول وجهة السفينة، ما دام في مقدورنا ذلك ، ايها الشيخ، ونساير الريح الرخاء نحو الوطن حتى يتاح لنا ان نخرج في رحلة خير منها » .

وتأدى الى البحارة الذين كان قد تملكهم الفزع ما قاله استاربك فجروا الى حيث الحلقات، وان لم يكن هناك شراع واحـــد مرفوع، ومرت عليهم لحظة كانت افكار الضابط المبهور فيها هي افكارهم، فرفعوا عقائرهم بصيحة تمردية - بعض التمرد، ولكن آخاب قذف بحلقات موانع الصواعق المقعقعة على ظهر السفينة، واختطف الرمح المحترق وهزه كأنه شعلة بينهم وأقسم ان يسم به اول بحار يحلّ طرف حبل، وشلهم منظره عن الحركة، وأخافهم المزراق الناري الذي يحمله فانكمشوا وتراجعوا في فزع، وتكلم آخاب ثانية فقال :

« كل ايمانكم التي حلفتموها لصيد الحوت الابيض تلزمكم كما يلزمني يميني، ان آخاب الشيخ مرتبط بقسمه قلباً ونفساً وجسماً ورئتين وحياة، وانتم كي تعرفوا لاي نغمة يدق قلبه انظروا ها هنا، سأطفىء آخر خوف » . ونفخ نفخة واحدة على الشعلة فأطفأها .

ومثلما يهرب الناس في العاصفة التي تكتسح السهول من جوار شجرة دردار ضخمة منفردة ، يجعلها ارتفاعها وقوتها ابعد عن السلامة، لانها تكون بذلك هدفاً واضحاً للصواعق، كذلك فان كثيراً من البحارة حين سمعوا كلمات آخاب الاخيرة هربوا في هول الفزع مبتعدين عنه .

١٢٠ ظهر السفينة قريباً من نهاية النوبة الاولى في الحراسة الليلية

(آخاب جالس عند الدفة ، واستاربك يقترب منه) .

— «يجب ان ننزل الدعامة الرئيسية التي تسند الشراع العلوي يا سيدي فان الرباط قد استرخى ، والرافع الأيمن قد وهى حتى كاد ينقطع فهل أنزلها يا سيدي ؟ »

— « لا تنزل شيئاً ، اربطها ، لو كانت لديّ دعائم اشرعة سماوية لأمرت برفعها الآن » .

— « سيدي ؟ بحق الاله ! سيدي ؟ »

— « طيب » .

— « المراسي تعمل يا سيدي فهل أجعلها تدخل فوق ظهر السفينة ؟»

— « لا تنزل شيئاً ولا تحرك شيئاً بل اربط كل شيء . الريح تعلو ولكنها لم تبلغ بعد الى هضباتي ، اسرع واهتم بالامر ، وحق الصواري والأرينات ، انه ليعدني قبطاناً أحدب مسئولاً عن سفينة مساحلة ذات دقل واحد . يريد ان

ينزل الدعامة الرئيسية التي تسند الشراع العلوي! واه يا قدور الغراء! أعلى تويجات الصواري انما صنعت لأقسى الرياح، وتويج دماغي هذا يبحر وسط منطلق السحاب ، فهل انزله ؟ لا ينزل تويجات أدمغتهم في وقت العاصفة الا الجبناء ؛ اي فوضى هنالك في الأعلى ! لكنت احسبها فوضى رائعة لولا ان القولنج مرض مزعج ؛ آه ، خذ دواء ! خذ دواء ! »

١٢١ منتصف الليل – حوافي السفينة عند المنارة

(اسطب وفلاسك قد ركبا حوافي السفينة عند المنارة وهما يمران أربطة اضافية فوق المراسي المعلقة هنالك).

– « لا يا اسطب؛ تستطيع ان تدق تلك العقدة قدر ما تشاء حتى تسحقها ولكنك لن تستطيع ان تجعلني أزدرد ما كنت تقوله قبل قليل ، ترى كم مضى عليك مذ كنت تقول نقيضه تماماً ؟ ألم تقل ذات مرة ان اية سفينة يبحر فيها آخاب فتلك السفينة يجب ان تدفع شيئاً اضافياً عـــلى بوليصة تأمينها ، كأنها معبأة ببراميـــل بارود في مؤخرتها وصناديق من أعواد الثقاب في مقدمتها ؟ قف الآن : ألم تقل انت ذلك ؟ »

– « طيب هب انني قلته ؟ فماذا في ذلك ؟ منذ ذلك الوقت غيّرت لحمي جزئياً فلمَ لا أغيّر عقلي ؟ ثم هب ان سفينتنا معبأة ببراميل البارود في الخلف واعواد الثقاب في القيدوم فكيف بحق الشيطان يمكن لاعواد الثقاب ان تلتقط النار في هذا الرشاش البليل ؟ انت يا أخيّ ذو شعر أحمر جميـــل ولكنك لا تستطيع ان تلتهب . انفض نفسك ، انت اكواريوس او حامل الماء يا فلاسك . تستطيع ان تملأ جراراً واباريق عند ياقة معطفك ، ألا ترى اذن ان شركات التأمين البحريّ قد تطلب ضمانات اضافية من اجل هذه الاخطار الاضافية ؟ ها هنا صنابير كبرى يا فلاسك ، ولكن أصخ – مرة اخرى – وسأجيبك عن

الامر الآخر . اولاً أبعد رجلك من قمة المرساة هنا ، حتى استطيع ان أجر الحبـــل، أصغ اليّ : ما الفرق الكبير بين الامساك بمانعة صواعق في صار اثناء العاصفة والوقوف لصق صار ليس فيه اية مانعة صواعق ابداً في العاصفة ؟ ألست ترى ، يا ذا الرأس اليابس، ان لا اذى يصيب الممسك بقضيب المانعة الا اذا ضربت الصاعقة الصاري أولاً ؟ عمّ تتكلم اذن ؟ لا تجد سفينة واحدة في كل مائة مزودة بموانع الصواعق؛ ولم يكن آخاب، ايها الرجل، ولا كنا جميعاً في خطر، حسب رأيي المتواضع، اكثر من الخطر الذي يتعرض له البحارة في عشرة آلاف سفينة تبحر الآن في البحار . لكن انت ايها الدعامة الكبرى، انت، اظنك تتمنى لو ان كل فردَ في الكون يمشي وقد جعل في زاوية قبعته قضيباً صغيراً يمنع الصواعق كالريشة المثبتة في قبعة ضابط الميليشيا، ويجرجرها من خلفه كأنها حزامه . لمَ لا تكون عاقلاً يا فلاسك ؟ من السهل ان يكون المرء عاقلاً، فلمَ لا تكون انت ؟ اي امرىء له نصف عين يستطيع ان يكون عاقلاً » .

— « لا أدري لمَ يا اسطب، احياناً يجد المرء ذلك عسيراً » .

— «نعم عندما يكون المرء نقيعاً فمن العسير ان يكون متعقلاً ، هذا حق . وانا أكاد انتقع بهذا الرشاش . لا بأس ، امسك اللفة هنالك وأمرّها، يبدو لي اننا نربط هاتين المرساتين كأننا لن نستعملها من بعد ابداً . ان ربط هاتـــين المرساتين يا فلاسك يشبه من يشد امرءاً كتافاً، جاعلاً يديه وراء ظهره . وما اكبر هاتين اليدين واكرمها ، يقيناً . هاتان قبضتاك الحديديتان ، مش كده ؟ واي قدرة فيها على القبض ايضاً ! ليت شعري يا فلاسك هل للعالم مرساة في مكان ما ؟ ان كانت له مرساة فانها تتأرجح من حبل طويل شاذّ في مبلغ طوله. دق تلك العقدة هناك وبذلك ينتهي عملنا . خـــير شيء يرضي النفس ، سوى النزول الى البرّ ، هو النزول على ظهر السفينة ، اقول : انفض حواشي صدارتي، اتسمح ؟ شكراً لك . يسخر الناس من المعاطف الطويلة يا فلاسك ، ولكن يخيل

اليّ ان المعطف ذا الذيل الطويل يجب ان يلبس دائماً اثنـــاء كل العواصف في الاعالي ، فاذا كان الذيل مستدقاً الى اسفل فانه يأخذ الماء . فهمت ؟ وكذلك الامر في القبعة ذات العرف فان العرف يا فلاسك يمثل طنف الجرن في نهاية السقف الهرميّ . لا اريد بعد اليوم الصدارات البحرية الضيقة او قبعات التربولين ، سأتخذ سترة فراك وقبعة محردة . كذا قررت . مرحى ! ووه ! ها هي قبعتي التربولين تهوي الى الماء ، رباه ، رباه كيف تكون الريح التي تهب من السماء قليلة الذوق ! هذه ليلة قذرة يا فتى ! »

١٢٢

في الاعالي عند منتصف الليل — الرعد والبرق

(الدعامة الرئيسية التي تسند الشراع
الاعلى، وطاشطيغو يحزمها بأربطة
جديدة) .

« م ؛ م ؛ م . أوقف ذلك الرعد، هذا رعد كثير هناك في الاعالي . ما فائدة الرعد؟ م ؛ م ؛ م . لا نريد رعداً . نريد رماً . اعطنا كأساً من رمّ ؛ م ؛ م ؛ م ! »

١٢٣ البندقية

في خلال أعتى الصدمات التي كانت تحدثها الزعزع كان الرجل الواقف عند نخل السكان ، المصنوع من عظم الفك، ينطرح مترنحاً عـــدة مرات على ظهر السفينة بسبب حركاتها المتقطعة مع ان حبالاً واقية كانت قد ربطت بها – اذ كانت حبالها مسترخية – لانه لم يكن ثمة معدى من ان يكون النخل حراً بعض الشيء .

وفي عواصف عديدة كهذه العاصفة ، حين لا تكون السفينة إلا خذروفاً متقلباً في يد الريح ، فانه ليس من المستغرب ان ترى الابر في البوصلات ، بين فترة واخرى، تدور وتدور، وذلك هو ما حدث في الباقوطة، فان قيم الدفة لم يفته ان يلحظ عند كل صدمة تقريباً، سرعة الدوران في الابر فوق لوحاتها، وذلك منظر لا يكاد يلحظه اي انسان دون الاحساس بنوع من الشعور لم يألفه .

وبعد مضي بضع ساعات على انتصاف الليل خبت حدة الزعزع كثيراً حتى ان البقايا المترجرجة من الاشرعة : المقدم والمستأخر والعلويّ الرئيس، انفصلت عن الصواري بالجهود المضنية التي بذلها كل من استاربك واسطب ، واحدهما منهمك في الامام والآخر في الخلف، وذهبت تغزل بعيداً مع مهب الريح كأنها ريش طائر البطروس، وهو الريش الذي تتلعب به الريح حين يكون ذلك الطائر الذي تقلبه العاصفة ناشراً جناحيه .

وأميلت الاشرعة الثلاثة المناظرة وطويت، ونشر شراع مرن في المقدمـــة يلشر مثله عادة في العواصف، حتى ان السفينة جرت على الماء مرة اخرى بشيء من التثبت المتماسك، وأمر قيم الدفة بأن يوجهها ان كان التوجه ممكناً في اتجاه شرقي جنوبي شرقي ، ذلك انه خلال هيج العاصفة انما كان يوجه السفينة حسب تقلب الحال بها واذ كان يقرّب السفينة من مجراها قدر الامكان، مراقباً البوصلة في الوقت نفسه ـ يا لله ! ما احلى هذه العلامة ! ها هي الريح تدور من المؤخرة، اجل ان ما كان ريحاً نكباء قد اصبح ريحاً رخاء !

وعلى التوّ أديرت الدعامات السائدة على نغمة اغنية حيوية مطلعها : « هو ! الريح رخاء ! او هي ـ هو، تهللا يا رجال » والبحارة يتغنون طرباً ؛ ومن عجيب ان الامل بالتغير قد زيف على التوّ وجه نذر الشرّ التي سبقته .

وما كاد استاربك يعدّل الدعامات وفق المهب ـ في حرد وبرم وكآبة ـ وكان منوطاً به ان يعلن حالاً في اية ساعة من الساعات الاربع والعشرين عن كل تغير يحدث في شئون ظهر السفينة، امتثالاً منه في ذلك لأوامر رئيسه، ما كاد يفعل ذلك حتى هبط آلياً الى الطابق السفليّ ليحيط آخاب علماً بتعديل الدعامات وفق المهب .

وتوقف لحظة امام غرفة رئيسه ـ توقفاً لاارادياً ـ قبل ان يقرع الباب . كان قنديل القمرة اثناء تأرجحاته الطويلة ذاهباً جائياً يلتهب تلهباً مترجرجاً ويلقي ظلالاً متذبذبة على الباب المغلق [1] ـ وهو باب رقيق ثبتت فيه ستائر في موضـــع الالواح الخشبية العليا، وكان انسفال القمرة في انعزالها يجعل الصمت

---

١ قارن هذا بقنديل يونان في موعظة الاب مابل ص : ٩٢ من هذا الكتاب .

المهمهم يرين في ذلك المكان وان طوّق ذلك الصمت من جميع النواحي بهدير العناصر جميعاً . وانكشفت البنادق المعبأة من محاجنها، لامعة، منصوبة عاموديا ازاء الجدار الحاجز الامامي . كان استاربك رجلا نزيهاً مستقيماً ولكنه لحظة ان رأى البنادق انطلقت من قلبه ـ على نحو غريب ـ خاطرة شريرة، إلا انها كانت مختلطة بأفكار اخرى بعضها خير وبعضها لا هو الى الخير ولا هو الى الشر، حتى انه لم يكد يستبينها قائمة بنفسها في تلك اللحظة .

تمتم قائلاً : « كان يريد ان يرديني بالرصاص ذات مرة ؛ نعم تلك هي البندقية نفسها التي صوبها اليّ ـ تلك ذات الخزان المرصع ـ لألمسها ، لأرفعها، من الغريب ان ارتعش وانا الذي تمرست بكثير من الحراب القاتلة . معبأة ؟ دعني افحصها . اجل، اجل والبارود في الخزان ؛ ليس هذا امراً حسناً . أمن الافضل ان افرغها ؟ ـ مهلاً . سأبرأ مما انا فيه . سأمسك بها في جرأة ما دمت افكر ـ جئت اخبره بان الريح طيبة . كيف تكون طيبة ؟ طيبة تصلح للموت والفناء ـ اي هي صالحة لموبي ديك . ما من ريح طيبة الا الريح التي تصلح لذلك الحوت اللعين . هذا هو نفس الانبوب الذي سدده اليّ، نفسه، هذا نفسه، وانا امسك به، كان يمكن ان يقتلني بالأداة التي اقبض عليها الآن بيدي . اجـــل ولعله يرتاح لو قتل جميع بحارته . ألا يقول انه لا ينزل صواريه لأية عاصفة ؟ ألم يحطم مقياس الزوايا ؟ أليس يجد طريقه في هذه البحار المليئة بالمخاطر عن طريق التقدير التخميني المرتجل المستمد من سجل الرحلة وهو سجل حافل بالخطأ ؟ ألم يحلف في هذه الزعزع نفسها انه لن ينصب موانع صواعق ؟ ولكن أنظل نرضى لهذا الشيخ المجنون ان يجر جميع عصبة السفينة الى هوة العدم في صحبته ؟ نعم ان ذلك يجعله قاتل عمد لثلاثين رجلاً او اكثر ان لقيت هذه السفينة اذى بالغاً مميتاً . اما انها ستلقى اذى بالغاً مميتاً فان روحي تقسم ان ذلك حادث لا ريب فيه ان لم يجد آخاب من يكبح جماحه، فاذا تمت تنحيته في هذه اللحظة فان تلك الجريمة لن تكون من صنعه . ها ! أتراه يتمتم في نومه ؛ نعم هناك ـ في

الداخل ـ انه نائم . نائم ؟ اجل ولكنه ما يزال حياً، وسيستيقظ حالاً . انا لا استطيع ان اعارضك عندما تفيق ايها الشيخ. انك لا تصيخ للتعقل، للاحتجاج، للتوسل؛ كل هذه امور تزدريها. الطاعة الحاسمة لاوامرك الجازمة: ذلك هو كل ما تتردد به انفاسك . اجل وتقول ان الرجال نذروا على انفسهم مثل نذرك، تقول ان كل واحد فينا آخاب، لا سمح الله العظيم ! ولكن اما من مخلص آخر، مخلص شرعي ؟ نسجنه حتى نرجع به الى الوطن ؟ مه ! أترجو ان تنتزع القوة الحية في هذا الشيخ من يديه ؟ لا يجرب ذلك الا احمق . هب انه صفّد، عقدت من حوله كل الحبال والمواصر، قيد بالحلقات على ارض القمرة ، عندئذ يكون اشد افزاعاً من نمر في قفص، انا لا استطيع ان اطيق هذا المنظر، وربما لم استطع ان اهرب من عوائـــه فالراحة والنوم والعقل الرزين ـ جميع هذه ستفارقني عندئذ في الرحلة الطويلة المشئومة . وماذا يتبقى بعد ؟ بيننا وبين البرّ مئات الفراسخ واقرب برّ الينا اليابان التي يحرم علينا النزول فيها، انا اقف وحدي فوق بحر منبسط وبيني وبين القانون محيطان وقارة، أجل. اجل انه لكذلك، أيذسب ارتكاب القتل الى السماء حين تصيب بصواعقها من سيصبح قاتلاً، وهو في سريره ، فتحرق الاغطية والجلد معًا ؟ أكون قاتلاً إذا ـــ» وفي بطء واستخفاء، وهو يسترق النظر استراقًا، وضع طرف البندقية المعبأة ازاء الباب.

«على هذا المستوى تتأرجح ارجوحة آخاب في الداخل، ورأسه في هذه الجهـــة، « كبسة » واحدة يستطيع استاربك بعدها ان يعيش ليعانق زوجته وطفله مرة اخرى . آه يا ماري ! ماري ! بني ! بني ! بني ! ولكن ان لم أوقظك للموت، ايها الشيخ، فمن يدري في اية اعماق لا قرار لها يتردى جسد استاربك في هذا اليوم من الاسبوع، مع جميع البحارة، يا رب يا عظيم ! اين انت ؟ أأقدم ؟ أأقدم ؟ ـــ قد هدأت الريح وتحوّلت يا سيدي ، وقد طوينا الأشرعة الامامية والرئيسية العليا وعادت السفينة الى مجراها » .

ـ « الى المؤخرة ! آه يا موبي ديك اخيراً وضعت جُمْعَ يدي على قلبك ! »

كذلك كانت الاصوات التي انبعثت من فم الشيخ في نومه المتقلب بالعذاب كأن صوت استاربك قد انطق الحلم الاخرس .

واهتزت البندقية التي ما تزال مصوبة، ازاء الباب، كأنها ذراع سكران، وبدا استاربك وكأنه يصارع ملاكاً، ولكنه استدار عن الباب وردّ انبوب الموت الى كنّه وغادر المكان .

- « انه في نوم عميق يا سيد اسطب، اهبط اليه انت وأيقظه وابلغه الخبر، انا سألقي نظرة على ظهر السفينة، وانت تعرف ما تقول » .

١٢٤ الابرة

في اليوم التالي كان البحر الذي لم يخبُ هيجه تماماً يتقلب في امواج طويلة بطيئة ذات حجم هائل ويدفع الباقوطة قدماً وهو يتمطى في آثارها المقرقرة، كأنه راحتا مارد مبسوطتان . وتكاثرت النسمات القوية الصامدة حتى بـــدا الفضاء والهواء وكأنها شراعان ينتفخان انتفاخاً شديداً، وكأن كل الكون يجيش متموجاً امام الريح . وانحجبت الشمس متلفعة في ضوء الصباح ، فلم نعد نستبينها إلا بما تنشره حولها من ضوء قويّ حيث كانت اشعتها الظمّانة تتجه محتشدة مكدسة . وهيمنت على كل شيء زخـــارف كالتي يزدان بها الملوك والملكات البابليون؛ اما البحر فكان بوتقة ذهب مذاب، يتوثب مرسلاً نفاخاته بقوة الضوء والحرارة .

ووقف آخاب منتحياً جانباً وقد طال به الصمت المسحور ، وكلما أمالت السفينة المترجرجة دقلها المائل الامامي وجه نظره الى اشعة الشمس اللامعة التي تنبعث في الامام، وكلما استقرت مطمئنة عند المؤخرة التفت الى خلف ورأى موقع الشمس عند المؤخرة، وكيف ان اشعتها الصفراء تمتزج بمخر السفينة الذي لا يتعوّج ولا ينحرف .

ها، ها، يا سفينتي ! ليستطيع المرء ان يعدّك عربة الشمس . هو ! هو ! ايتها الامم تلقاء القيدوم أنا آت اليك بالشمس ! ضعوا النير فوق اعناق الامواج التالية، هالو ! اجعلوها عربة مردفة، ها انا اسوق البحر ! »

ولكن خاطرة مناقضة كبحت جماحه فجأة فأسرع نحو الدفة وتساءل بصوت اجش : « كيف اتجاه السفينة ؟ »

فأجاب قيم الدفة المرتاع : « شرقاً ـ جنوب شرق يا سيدي » . فصفعه بقبضته مجتمعة وقال : « كذّاب ! أتتجه شرقاً في هذه الساعة من الصباح والشمس في المؤخرة ؟ »

تحيرت لدى هذه الحقيقة كل نفس، لان الظاهرة التي لحظها آخاب فاتت كل من عداه فلم يفطنوا لها، ولكن السبب في ذلك هو انها كانت حقيقة ساطعة يعشي سطوعها عين الفكر .

ودسّ آخاب رأسه بعض الشيء في صندوق الابرة فلمح البوصلتين لمحاً، وببطء هبطت ذراعه المرفوعة وبدا لحظة وكأنه يترنح، ونظر استاربك الذي كان يقف وراءه، يا للهول ! كانت البوصلتان تشيران الى الشرق والباقوطة ذاهبة دون انحراف نحو الغرب .

ولكن قبل ان يتأدى النذير الاول المرعب بين البحارة هتف الشيخ في ضحكة جاسية : « لاحت لي ! لقد حدثت قبلاً ؛ ان رعد الليلة الماضية يا سيد استاربك قد ادار بوصلتينا، هذا كل ما في الامر ؛ وأنا اعتقد انك سمعت بمثل هذا من قبل » .

— « اجل ، ولكنه لم يحدث من قبل لي أبداً يا سيدي » — ذلك ما قاله الضابط الشاحب في اكتئاب ووجوم .

ولا بد من ان اقرر في هذا المقام ان حوادث كهذه قد وقعت غير مرة

للسفن اثناء العواصف العنيفة فان الطاقة المغناطيسية حسبما توجد في ابرة البحار، هي كما يعرف الجميع، لا تفترق في اساسها بشيء عن الكهرباء التي ترى في السماء، ولذلك فيجب ألا يتملكنا العجب كثيراً اذا حدثت مثل هذه الامور، وقد وقعت حوادث، ضرب البرق فيها المركب وحطم بعض الصواري والمعدّات، فكان التأثير على الابرة احياناً انكى واشد، اذ انعدمت منها القوة المغنطيسية حتى اصبح ما كان فيها فولاذاً ممغنطاً لا نفع فيه اكثر مما في ابرة الخياطة في يد امرأة عجوز . ثم ان الابرة في الحالين لا تستعيد من ذاتها ما تبدد من قوتها الاصيلة او اضمحلّ، واذا تأثرت البوصلة التي في الصندوق لقيت البقية الموجودة في السفينة مصيراً مماثلاً حتى ولو كانت بوصلة في ادنى اجزاء السفينة مودعة في الكلزون .

وقف الشيخ عامداً امام صندوق الابرة يلحظ البوصلتين المنحرفتين، وبحدّ يده الممتدة عدّلهما حسب وجهة الشمس بدقة، ولما أن رضي عن دقة التحويل للابرتين أصدر أوامره بتغيير وجهة السفينة وفق ذلك؛ فرفعت الباحات ومرة اخرى طعنت الباقوطة بمقدمتها الباسلة وجه الريح المضادة اذ ان الريح التي ظن انها طيبة انما كانت تمازحها وحسب .

وفي الوقت نفسه لم يقل استاربك شيئاً ، مهما تكن خواطره الخفية، وانما أصدر في هدوء الاوامر المطلوبة ، وانصاع كل من اسطب وفلاسك للاوامر بالمثل دون تذمر ، وان بدا انهما كانا حينئذٍ يشاركانه المشاعر نفسها الى درجة قليلة . واما الرجال الآخرون فان خوفهم من آخاب – وان بدا بعضهم يهمهم في خفوت – كان أشد من خوفهم من الاقدار ، واما الزراقون الوثنيون فظلوا كما كانوا ابداً من قبل غير عابئين بشيء ، او اذا هم اكترثوا فانما كان اكتراثهم مغناطيسية يطلقها قلب آخاب العاتي الذي لا يلين في قلوبهم العاتية التي لا تلين .

ومشى الرجل الشيخ مدة على ظهر السفينة في احـــلام متكوّرة ولكنه ـ ان زلق على كعبه العاجي ، فرأى انابيب المنظار النحاسية المحطمة ، وهي انابيب مقياس الزوايا الذي طرحه في اليوم السابق على ظهر السفينة .

« يا ناظور السماء المستكبر المسكين ، يا رائد الشمس ! أمس حطمتك ، والبوصلة اليوم كانت تودّ لو تحطمني . كذا ، كذا ؛ ولكن آخاب ما يزال سيد المغناطيس المشحون . يا سيد استاربك — هات حربة دون قناة ، ومطرقة واصغر ابرة من ابر صانعي الاشرعة ، عجّل » .

ربما كان الدافع الذي يملي عليه ما يريد ان يفعله مشفوعاً ببعض دوافع صادرة عن بصيرة ، وربما كانت غايتها انعاش نفوس البحارة بصنيـع من مهارته الماكرة في امر مثير للعجب كأمر البوصلتين المحولتين . ثم ان ذلك الشيخ كان يعلم حق العلم ان الابحار على هدي ابرتين مواربتين ، وان كان امراً عملياً على نحو أرعن ، فانه ليس من الامور التي يمر بها البحارة المؤمنون بالخرافة مرّ الكرام ، دون ان يحسوا بالقشعريرة ونذر الشرّ .

والتفت في رباطة جأش نحو البحارة حين سلمه الضابط الادوات التي طلبها : « يا رجال ؛ يا رجالي لقـــد عكس الرعد إبر آخاب الشيخ ولكن آخاب يستطيـع من هذه القطعة من الفولاذ ان يصنع ابراً ، تشير الى الوجهة الصحيحة كأي ابر اخرى » .

تبادل البحارة بينهم نظرات مرتبكة تفيض بالدهشة الذليلة حين سمعوا هذا القول ، وترقبوا بعيون هيفة اي سحر يبدو . اما استاربك فحوّل نظره ناحية .

هوى آخاب بالمطرقة على الحربة الفولاذية فأطار رأسها بضربة ، وأعطى الضابط سائر القضيب الحديدي وأمره ان يمسكه عامودياً دون ان يمس ظهر السفينة ، ثم دق الطرف الاعلى من هــذا القضيب الحديدي مراراً بالمطرقة ، ووضع الابرة الكليلة مقلوبة في طرف القضيب ، ودقها دقاً خفيفاً عدة مرات ، والضابط ما يزال ممسكاً بالقضيب ، ثم حركها بضع حركات غريبة – ولا احد يدري أكانت ضرورية لمغنطة الفولاذ او قصد بها ليزيد من الرهبة في نفوس بحارته – وطلب خيطاً من الكتان ، ومشى الى صنــدوق البوصلة فزحزح الابرتين المعكوستين واستخرجها ، وعلق ابرة الشراع من وسطها أفقياً فوق واحد من قرصي البوصلة . فأخذ الفولاذ في بادىء الامر يدور ويدور مهتزاً متذبذباً في طرفيه واخيراً استقر في موضعه ، وعندئذٍ تراجع آخاب الذي كان يرقب هذه النتيجة بامعان من جانب صندوق الابرة ، وأشار اليه بذراع ممدودة نحوه وهتف : « احــكموا انتم ان كان آخاب – او ان لم يكن – سيد المغناطيس . الشمس في المشرق ، وهذه البوصلة تقسم ان ذلك صحيح ! »

وأطلوا عليها واحداً اثر آخر اذ لم يكن يستطيع ان يبدد جهلاً كجهلهم الا المعاينة بالنظر ، وانسلّوا ذاهبين واحداً اثر آخر .

في نظراته النارية التي ترسل الاحتقار والانتصار كنت ترى آخاب وهو في ذروة خيلائه القاتلة .

١٢٥

مقياس السرعة وحبل المقياس

على الرغم من طول ما عامت الباقوطة الساعية الى مصيرها خلال هـــذه الرحلة فان مقياس السرعة والحبل المتصل به قلما استعملا ؛ وبعض السفن التجارية وكثير من سفن الحواتة ، نظراً لاعتمادها المطمئن على وسائل اخرى في تحديد الموقع الذي تحلّ فيه، وخاصة اثناء تجوالها، تغفل رفع مقياس السرعة اغفالاً تاماً . وان كان قباطنتها في الوقت نفسه يسجلون بانتظام على اللوحة المعهودة، وكثيراً ما يكون عملهم هذا حفاظاً على شكليات الامور دون اي شيء آخر ، المساقَ الذي انجرت فيه السفينة، كما يسجلون نسبة التقدم التخميني كل ساعة . وكذلك جرت الحال بالنسبة للباقوطة فقد ظلت البكرة الخشبية والقرمـــة الخشبية ذات الزوايا المتصلة بها معلقة دون مساس مدة طويلة، تحت الدرابزين الواقع في الحوافي الخلفية، وقد نشعت بالرطوبة من الامطار والرشاش، وقلّصتها الشمس والريح، اي تضافرت كل العناصر لتبـــلي شيئاً معلقاً متبطلاً . ولكن آخاب الذي لم يتنبه لكل هذا لفتت هذه الحال نظره عندما اتفق له ان ألقى نظرة على البكرة الخشبية، بعد مشهد المغناطيس بساعات غير كثيرة، وتذكر ان مقياس الزوايا لم يعد له وجود، وتذكر قسمه المحنق حول القرمة المستوية والحبل. كانت السفينة تبحر في الضباب ، والامواج في مؤخرتها تتدحرج صخابة حين صاح : « انتم في الامام ! ارفعوا مقياس السرعة » .

جاء اثنان من البحارة: التاهيتي ذو البشرة الذهبية وابن جزيرة مان الاشمط فقال لهما : « ليقف احدكما عند البكرة الخشبية وأنا اسحب » .

فذهبا الى اقصى المؤخرة على الجانب الايمن من السفينة حيث كان ظهرها بقوة الريح المواربة يكاد ينغمس في البحر المزبد المندفع على انحراف .

فأمسك الرجل ابن جزيرة مان بالبكرة الخشبية ورفعها الى اقصى ما يستطيع ممسكاً بهـــا من طرفي اليدين البارزتين في مغزلها الذي يلتف حوله ملف الحبل ، ووقف كذلك والقرمة ذات الزوايا معلقة مدلاة حتى اقترب منه آخاب .

وقف آخاب امامه وكان يحل بخفة ٍ ثلاثين او اربعين لفة لكي يكوّن منها طوِلاً يطرحه من فوق السفينة حين تجرأ ابن جزيرة مان الذي كان يلحظه في امعان ويلحظ الحبل، فتكلم قائلاً :

— «سيدي انا لا أثق فيه، هذا الحبل هالك، قد اتلفته الحرارة والرطوبة في المدى الطويل » .

— «لا بأس به ايها الشيخ فانه سيستمسك؛ هل اتلفتك انت الحرارة والرطوبة في المدى الطويل ؟ ما تزال مستمسكاً لا بأس بك، او ربما كان الاصوب ان اقول : ان الحياة لا تزال مستمسكة تقوم بك ، ولست انت الذي تقوم بها» .

— « انا امسك الملف يا سيدي . الامر كما يقول قبطاني . ليس من الجدير بي وقد اشمطت الذوائب فوق ذهني ان اجادل، وبخاصة ان اجادل رئيساً لن يعترف لي بالصواب » .

— «من هذا ؟ ها هنا استاذ رثّ الهيئة في كلية الطبيعة الملكة المبنية من حجارة الغرانيت، ولكن يلوح انه نافع حتى ليتجاوز حد النفع . اين ولدت ؟»

— «في الجزيرة الصغيرة الصخرية التي تسمى جزيرة «الانسان» (مان) يا سيدي» .

— «عظيم ! انك تستطيع ان تحرز الكون بذلك !»

— «لا ادري يا سيدي، ولكنني ولدت هنالك» .

— «في جزيرة «الانسان»، مش كـــده ؟ لو عكست القول لكان افضل. ها هنا انسان من «الانسان» — انسان ولد في «الانسان» التي كانت ذات يوم مستقلة، واليوم جردت «الانسان» من الانسان — ابتلعت، من ابتلعها ؟ ارفع البكرة ان الحاجز الجامد الاعمى ليدع كل الرءوس الباحثة عن جواب في النهاية. ارفعها ! هكذا» .

جرّ مقياس السرعة وتوترت اللفائف المسترخية على عجل في حبل طويل ممتد من المؤخرة، وعلى التوّ اخذت البكرة الخشبية تدور. ثم ان مقاومة الجذب في قرمة المقياس، وقد رفعتها الموجات المتضربة وانخفضت بها في ارتجاج، قد جعلت بدورها الرجل العجوز المسك بالبكرة يترنح ترنحاً غريباً .

— «تثبت ممسكاً !»

فرقعة ! ان الحبل الذي تجاوز في توتره الحدّ تدلّى متقوساً في انحناءة مديدة وغابت القرمة المسحوبة .

— «انا حطمت مقياس الزوايا والرعد عكس الابر، وهذا البحر المجنون يقطع حبل مقياس السرعة، لكن آخاب يستطيع ان يصلحه . اسحب الى هـــذه الناحية ايها التاهيتي؛ لفّ انت الحبل حول البكرة يا ابن جزيرة مان، واسمع ! قل للنجار يصنع قرمة اخرى وانت اصلح الحبل . هيّا اهتم بالأمر» .

– «ها هو ينصرف . كأن لم يحدث شيء في نظره، اما انا فاني ارى ان المحور قد انفلت من وسط العالم . اسحب . اسحب . يا تاهيتي . هذه الحبال حين ترخيها تجري سليمة وحين تلفـّها تأتي متقطعة وتنجر ببطء . ها بيب ؟ جاء يقدم العون ؛ ماذا يا بيب ؟ »

– «بيب؟ من ذا الذي تناديه باسم بيب ؟ بيب قفز من قارب التحويت . بيب مفقود . دعني ارى ان كنت قد استخرجته من البحر ايها الصياد . ان الحبل ينجر بعسر وتثاقل، وانا اظن انه ممسك بطرفه . انفضه ايها التاهيتي ، اطرحه عنك ! فنحن هنا لا نسحب جبناء . هو ! ها هي ذراعه تشق الماء . البلطة ! البلطة ! اقطعوها ، فنحن هنا لا نسحب جبناء . يا قبطاننا آخاب ! سيدي، سيدي ! ها هو بيب يحاول ان يعود الى ظهر السفينة » .

فأمسك به ابن جزيرة مان من ذراعه وصرخ : « اهدأ ايها المرور المجنون ، انصرف عن الربعة خلف الدقل الاعظم ! »

فتمتم آخاب وهو يقترب: « الابله الاكبر يوبّخ الابله الاصغر، ارفع يديك عن تلك القداسة الطاهرة ! أين تقول ذهب بيب ايها الغلام ؟ »

– « في المؤخرة يا سيدي هناك في المؤخرة ! تأمل ! تأمل ! »

– «ومن انت ايها الغلام؟ انا لا أرى خيالي في انساني عينيك الفارغين. رباه! هذا الانسان شيء تتخذه الارواح الخالدة منتخلاً تنفذ منه ! من انت ايها الغلام ؟ »

– «انا الجرّاس يا سيدي، أنشد الضالة في السفينة. دن ـ رن ـ دن ! بيب ! بيب ! بيب ! من دلّ على بيب فله مائة رطل من صلصال ، ارتفاعها خمسة

اقدام — علامته أنه جبان — تسهل معرفته بهذه العلامة ! دن ـ رن ـ دن ! من رأى بيب الجبان ؟ »

— «بعد خط الثلج لا يمكن ان تكون هناك قلوب . آه ايتها السماوات المتجمدة ، انظري من علٍ الى ما هــو هنا . أنت ولدت هذا الطفل التعس وهجرته، انت ايتها الفاجرة الولود . اليّ يا غلام! ان قمرة آخاب ستكون بيت بيب ما دام آخاب حياً . انك لتلمس سويداء قلبي ايها الفتى، انك موصول بي بحبال منسوجة من خيوط قلبي . تعال هيا بنا نهبط الى القمرة » .

فقال بيب وهو يمعن محدقاً في يد آخاب ويتحسسها : « ما هذا ؟ هذا جلد قرش مخملي ، آه لو ان بيب المسكين لمس شيئاً لطيفاً كهذا فربما لم يذهب فقيداً ! هــذا يبدو لي يا سيدي مثل حبلٍ جانبي في سفينة ، شيء تتعلق به النفوس الضعيفة . آه يا سيدي ادع بيرث الحدّاد لكي يأتي و «يبرشم» هاتين اليدين معاً، السوداء مع البيضاء، لأني لن ادع هذه اليد تفلت من يدي » .

— «آه يا غلام ويدي لن تفلت من يدك إلا اذا جررت الى اهوال اسوأ من التي هنا . تعال اذن الى قمرتي . تأملوا يا من تعتقدون ان الآلهة فيها الخير كله وان الانسان فيه الشر كله، تأملوا ! انظروا كيف ان الآلهة العليمة بكل شيء تسهو عن الانسان المتألم، وان الانسان على بلاهته وجهله بما يأتيه مــلىء بالاشياء العذبة من حب وشكران . تعال ! اشعر انني اشد خيلاء حين اقودك بيدك السوداء مما لو امسكت بيد امبراطور ! »

فتمتم الأشيب ابن جزيرة مان: « ها هنا يمشي اثنان مجنونان. احدهما مجنون بالقوة والآخر مجنون بالضعف، ولكن ها هي نهاية الحبل البالي، كله يقطر ماء ايضاً . يقول لي اصلحه ! اظن من الخير لنا جميعاً ان نجد لنا حبلاً جديداً تام الجدة . سأقابل السيد اسطب في الامر » .

١٣٦

عوامة الانقاذ

أبحرت الباقوطة في اتجاه جنوبي شرقي على هـــدي المؤشر الفولاذي الذي طرّقه آخاب، وليس فيها ما يعيّن مقدار سرعتها سوى القرمة المستوية والحبل اللذين سوّاهما هو . واستمرّ بها طريقها نحو خط الاستواء . فكان قيامها برحلة طويلة خـــلال مياه مهجورة بحيث لا ترى سفناً وتصبح بعد وقت غير طويل مسوقة — على انحراف — بقوة رياح تجارية لا يتغيّر مهبها — على أمواج وديعة يستمر مرير وداعتها ابداً ، كل هذه الامور بدت وكأنها الاشياء الهادئة الغريبة في هدوئها التي تجيء ارهاصاً بمشهد صخّاب مستيئس .

وعندما اقتربت السفينة اخيراً من ضواحي مجال الصيد الاستوائية — ان صــحّ التعبير — وكانت في الحلكة المبهمة التي تسبق الفجر تبحر الى جانب عنقود من الجزيرات الصخرية ، عندئذٍ روّع حراس النوبة — وكان فلاسك برأسهم — بصيحة وحشية منكرة ، لما تنضح به من كآبة منتحبة كأنها ندب مغمغم ترسله اشباح جميع الابرياء الذين أزهق ارواحهم هيرودس، حتى انهم وحداناً وزرافة هبوا من هجعاتهم ووقفوا او جلسوا او اتكئوا صاغين في تصلب كتمثال العبد الروماني المنحوت — على مدى بعض لحظات — وتلك الصيحة الغريبة الوحشية ما تزال منهم بمسمع . اما المسيحيون او الفريق المتمدن بين البحارة فقالوا انها حوريات البحر ، وانتفضت اجسامهم ارتعاداً ، وامـــا الزراقون الوثنيون فظلوا ساكنين لا يدركهم فزع ، غير ان ابن جزيرة مان

الاشيب – اكبر البحارة جميعاً في السنّ – اعلن ان الاصوات الوحشية المثيرة التي سمعوها انما كانت اصوات قوم حديثي الغرق في البحر .

وكان آخاب في ارجوحته في الاسفل فلم يسمع بهذا حتى طلع الفجر الداكن وصعد هو الى ظهر السفينة ، فأفضى اليه فلاسك بالنبأ مشفوعاً بتلميحات الى بعض معاني الشؤم ، فضحك ضحكة جوفاء وأورد التفسير التالي لذلك الامر الغريب :

تلك الجزر الصخرية التي مرت بها السفينة هي ملاذ عدد كبير من حيوان الصيل[1] ، وبعض افراد الصيل الصغار الذين فقدوا امهاتهم او الامهات اللواتي ثكلن صغارهن قد اقترن ولا بد من السفينة وظللن يرافقنها معولات نائحات على نحو شبيه باعوال بني الانسان ونواحهم ؛ ولكن هـــذا التفسير كان أبلغ تأثيراً مما عداه في نفوس بعضهم لان اكثر البحارة يستشعرون احاسيس موشحة بالخرافات نحو حيوانات الصيل وذلك لم ينشأ لديهم فحسب من نغماتها المعولة حين يلم بها مصاب ، وانما نشأ ايضاً من مظهرها الانساني فهي ذات رءوس مستديرة ووجوه ذكية بعض ذكاء ، حين تبرز متطلعة من الماء عن كثب . وكثيراً ما أخطأ الناس في البحر تحت ظروف معينة حقيقة الصيل وحسبوه آدمياً .

ولكن مخاوف البحارة أتيـــح لها ان تجد ما يؤكدها تأكيداً غاية في الاستصواب ، وذلك بالمصير الذي لقيه احدهم ذلك الصباح ، فقد غادر ذلك الرجل ارجوحته عند طلوع الشمس الى قمة الصاري عند المقدمة ، أتراه لم يكن قد استكمل يقظته من النوم (لان البحارة احياناً يصعدون وهم في حال بين النوم واليقظة) ؟ اتراه كان كذلك ؟ لا احد يدري . لكن مهما يكن الامر فانه لم يمكث طويلاً في مجثمـــه حتى سمعت صيحة – صيحة وانقلاب – ونظر البحارة الى اعلى فرأوا في الفضاء شبحاً يهوي ، ونظروا الى أسفل فرأوا كومة صغيرة متموجة من الفقاقيع البيض في زرقة البحر .

---

[1] Seal

وأنزلت عوّامة الانقاذ – وهي برميل نحيف طويل – من عند المؤخرة حيث تظل دائماً معلقة في انتظار وثبة لبقة الا انه لم تمتد يد للقبض عليها ؛ وبما ان الشمس كانت قد ضربت ذلك البرميل فقد تكمّش حتى انه امتلأ بالماء في بطء وتشبع خشبه اليبيس بالرطوبة في كل مساماته، ولذا فان البرميل المسمّر بالدسر المطوّق بالحديد لحق بالبحّار الى القعر كأنه يقدم له من نفسه وسادة حقيقية وان كانت صلبة الملمس.

وبذا فان اول رجل من رجال الباقوطة اعتـــلى الصاري ليرقب الحوت الابيض عند المجال الخاص بذلك الحوت، ذلك الرجل ابتلعه اليم في جوفه. ولكن قلّ ان تجد احداً تنبه لهذا في الحين. بل انهم في الواقع لم يأسفوا لهذه الحادثة، او في الاقل لم تحزنهم بكونها نذير شرّ، فقد عدوها تحقيقاً لشرّ كانت قد جاءت به النذر لا ايذاناً بشر سيقع في المستقبل. فصرحوا انهم قد ادركوا سبب الصيحات الوحشية التي سمعوها في الليلة السابقة. ومرة اخرى قال ابن مان العجوز: لا.

وأصبح تدبير عوامة انقاذ بدلاً من العوامة التي فقدت امراً لزاماً، وولي استاربك امر الاهتمام بذلك، ولكنهم لم يجدوا برميلاً مناسباً في خفته، وكانت جميع الايدي، في اللهفة المحمومة لما بدا انه ازمة موشكة في الرحلة، جازعةً من ان تبذل جهداً الا ان يكون وثيق الصلة بغايتها القصوى، أياً كانت تلك الغاية. لذلك كانوا يريدون ان يتركوا مؤخرة السفينة غير مزودة بعوامة انقاذ حين ألمح كويكوج الى تابوته في اشارات وايماءات غريبة.

فصاح استاربك مجفلاً «تابوت يتخذ عوامة انقاذ!»

وقال اسطب: «ذلك شيء مستهجن في رأيي».

وقال فلاسك : « انه يصلح تماماً ، وهذا النجار سيسوّيه في يسر » .

فقال استاربك بعد توقف سوداوي : « هاته ، ليس يصلح سواه . زوده بالحبال يا نجار، لا تنظر اليّ هكذا، انا اعني التابوت ، أتسمعني؟ شده بالحبال».

فقال النجار وهو يحرك يده كأنه يحمل مطرقة: «وهل ادق غطاءه بالمسامير يا سيدي ؟ »

— «أجل».

— « وهل أقيّر ملاقيه يا سيدي ؟ » — وحرك يده كأنه يحمل وعاء القار .

— « انصرف ! ماذا لديك فيما يتصل به ؟ اصنع عوّامة انقاذ من التابوت ، ولا شيء سوى ذلك . يا سيد اسطب يا سيد فلاسك تقدّما معي » .

— « لقد انصرف ساخطاً . يستطيع ان يتحمل الكلّ اما عند الاجزاء فيحرن ويتسخط . انا لا احب هذا . لقد صنعت رجلاً للقبطان آخاب وهو يلبسها كما يفعل الرجل الدمث المهذب ثم صنعت صندوق قبعات لكويكوج فرفض ان يدس رأسه فيه . أيذهب كل تعبي سدىً في ذلك التابوت ؟ وهو يأمرني الآن ان اصنع منه عوامة انقاذ . هذا يشبه قلب معطف قديم فهذا يعني انني سأجعل القفا وجهاً ، انا لا احب هذا النوع من العمل الذي يليق بالاسكاف. لا أحبه ابداً . لا كرامة فيه . ليس هنا موضعي . تصليح الآنية يحتاج الى غلمان السمكرية . نحن خير من هؤلاء . لا أحب ان امس بيدي الا مهمات نظيفة بكراً رياضية قلباً وقالباً ، اموراً تبدأ بانتظام في البداية وتكون في الوسط حين تبلغ الوسط وتأتي الى النهاية عند الختام ، لا مهمة اسكاف تكون منتهية في الوسط ، وعند البداية تكون في النهاية . ان تكليف المرء بمهمات

الاسكاف من حيل العجائز . رباه ! ما اشد حب العجائز للسمكرية . انا اعرف عجوزاً في الخامسة والستين هربت مع سمكري شاب اصلع وهذا هو السبب الذي كان يجعلني امتنع من اداء اي عمل للعجائز المترملات « الوحدانيات » على البرّ حين كان لي دكان في فنيارد، فلعله كان يخامر رءوسهن الشائخة «الوحدانية» ان يهربن معي . لكن هي — هـــو ! ليس في البحر قبعات الا قبعات الثلج . خلني أرى . اسمّر الغطاء . أقيّر الملاقي ثم اطليها به مرة اخرى، ثم أدق عليها خشباً مستعرضاً وأحكمه ثم اعلقه باللولب النتاش فوق مؤخرة السفينة . هل حدث من قبل ان اجريت هذه الامور على تابوت ؟ بعض المسنين من النجارين المؤمنين بالخرافات قد يُشدون بالقيود والحبال قبل ان يقبلوا انجاز هذه المهمة ولكنني مصنوع من شوكران خشب ارستوك الاعقد . لا أبالي . مقعدتي كفن وأطوف مبحراً في صينية من مقبرة ! لا بأس . نحن العاملين في الخشب نصنع أسرة العرسان وموائد اللعب مثلما نصنع التوابيت وعربات الموتى . نعمـــل بالشهر او بالحرفة او بالفائدة . لا نسأل من صنعتنا ما مأتاها وما منتهاها ، الا ان كانت ترقيعاً « وتسكيجاً » ، وعندئذٍ نتخلى عنها اذا استطعنا . هِمْ ! سأؤدي المهمة الآن في رفق ، سيكون لدي — يا سيدي — كم واحد في السفينة، المجموع ؟ نسيت . على اي حال ، سأعمل ثلاثين حبل انقاذ متفرقة ، طرف كل منها معمم بعقدة كرأس التركي ، طول كل منها ثلاثة اقدام ، كلها معلقة حول التابوت ، فاذا غرق هيكل السفينة فانـــه يكون هناك ثلاثون شخصاً حياً يتنازعون كفناً واحداً، منظر لا تبصره كثيراً تحت الشمس ! إليّ ايتها المطرقة والاسفين ووعاء القار والمخرز ! الى العمل ! »

(التابوت موضوع على برميلين من براميل الحبال بين الدكة ذات اللازم والمدخل المفتوح ؛ النجار يقيّر ملاقيه ؛ خيط من الدسر الملوية ينحل ببطء من كبة كبيرة موضوعة في جيب صدارته الداخلية. يأتي آخـــاب بطيئاً من باب القمرة ويسمع حس بيب وهو يتبعه).

– «ارجع يا فتى! سأرجع اليك بعد قليل . ها هو ذهب ! هذه اليــــد لا تناسب مزاجي بأكثر مما يناسبه ذلك الغلام – جناح متوسط في كنيسة ! ما يجري هنا ؟ »

– «عوامة انقاذ يا سيدي . هذه هي اوامر السيد استاربك . آه ، انظر يا سيدي . احذر ان ترتطم بالمدخل !»

– «شكراً ايها الرجل . ان تابوتك قريب من القبو» .

– «ما يقول سيدي ؟ يعني المدخل ؟ حقاً هو كذلك سيدي، هو كذلك».

– «ألست انت صانع الرجل؟ انظر ألم يأتِ هذا الجذم من حانوتك ؟»

– « أعتقد انه منه يا سيدي ، كيف حال الطوق[1] ؟ »

– « جيد . ألست انت ايضاً حانوتياً ؟ »

– «بلى سيدي . انا أقمت هـــذا الشيء تابوتاً لكويكوج ، ولكنهم كلفوني الآن ان أحوله الى شيء آخر» .

---

١ ferrule يعني الطوق المعدني الذي صنعه لرجله العاجية .

— « اخبرني اذن ، ألست انت سافلاً لعيناً جشعاً متطفلاً احتكارياً ذا ميول وثلية اذ تصنع يوماً أرجلاً ، ويوماً آخر توابيت لتلحد فيها الارجل ثم تستخرج من هذه التوابيت نفسها عوامات انقاذ ؟ لا مبدأ يوجهك شأنك شأن الآلهة ، فأنت كمن يزاول حرفاً كثيرة » .

— « ولكني لا أعني بهذا شيئاً يا سيدي . أنا أفعل حسبما يعنّ » .

— «هذا ما تفعله الآلهة ايضاً . أصخ . ألا تترنم بالغناء وانت تصنع تابوتاً ؟ يقولون ان العمالقة الطيطان كانوا يهمهمون بالغناء وهم يسوون فوهات للبراكين ، وحفار القبور في « هملت » يغني والمجرفة في يده . ألم تفعل ذلك ابداً ؟ »

— «أغني يا سيدي ؟ هل أغني ؟ آه ، ان الغناء وعدمه لديّ سيان ، يا سيدي ، ولكن السبب الذي جعل حفار القبور يصنع موسيقى هو ان مجرفته لم يكن فيها اية موسيقى يا سيدي . اما دقماق التقيير فانه مليء بها . أصخ له » .

— «أجل وبسبب الغطاء أصبح لديك صندوق ألحان . والذي يصنع صندوق الالحان من بين الاشياء جميعاً هو انه ليس تحته الا فراغ ومع ذلك فان التابوت الذي سجي فيه جسم يرن نفس الرنين ايها النجار . هل اتفق لك ان أعنت في حمل نعش وسمعت التابوت وهو يرتطم ببوابة المقبرة عند دخولهم اليها ؟ »

— «وحق ايماني يا سيدي لقد — »

— « ايمان ؟ ما معنى هذا ؟»

— « ايماني — يا سيدي — هذه لفظة تجري على طرف اللسان — لا اكثر يا سيدي » .

– «م . م . امضِ في حديثك» .

– «كنت أوشك ان اقول يا سيدي ان ––» .

– «أأنت دودة قز ؟ أتغزل أكفانك من ذاتك ؟ انظر الى صدرك ؟ وأزح هذه الاحابيل عن الانظار » .

– « انه يذهب الى المؤخرة . ذلك شيء مفاجىء ، ولكن العاصف يجيء ايضاً فجأة في العروض الاستوائية . سمعت ان خط الاستواء يشق جزيرة ألبارل وهي احدى جزر جاليباجوس من وسطها . يبدو لي ان استواء ماء يشق هذا العجوز ايضاً في وسطه . فهو دائماً تحت خط الاستواء حار ناري ، صدقوني ! ها هو ينظر الى هذه الجهة . تعالي ايتها الدسر ، أسرعي ، ها هنا نذهب نحن . هذا الدقماق الخشبي هو السداد وانا أستاذ في الكؤوس الموسيقية – سدّ ! سدّ !»

[آخاب يناجي نفسه] :

«هذاك منظر ! هذا صوت ! نقار الخشب الاشمط يسد شجرة جوفاء . الاعمى والاخرس موضع حسد في مثل هذا الموقف . ما أرى ! هذا الشيء الموضوع على برميلين من براميل الحبال، مملوءاً من حبال الجرّ. ذلك المرء مهرج ماكر شديد الخبث . رات – تات ! هكذا تدق دقائق العمر . آه لجميع الموادّ كيف انها غير مادية ! اي شيء حقيقي في الكون إلا الافكار التي تعجز المتأمل ! ذلك هو رمز الموت الجاهم ، رمزه المخوف ، وقد أصبح اتفاقاً العلامة الموضحة للعون والامل في حياة محفوفة بالخطر ، عوامة انقاذ تصنع من تابوت ! أيمكن الامعان في هذا الرمز ؟ أيكون ان التابوت بمعنى من المعاني الروحية ، بعد كل

ذلك ، ليس الا حافظة خلود ! سأفكر في هذا الامر . لكن لا . لقد أمعنت في البعد الى الجانب المظلم من الارض اي جانبها الآخر فاذا الجانب النظري المضاء يبدو لي شفقاً غير يقيني . ألست تنتهي ايها النجار من هـــذا الصوت اللعين ؟ انا أهبط الى قمرتي فلا أريد ان ارى هذا الشيء اذا عدت . بيب سيحدثني في الامر نفسه من جديد . انني أشرب فلسفات عجيبة منك ! لا بد ان هناك قنوات مجهولة من عوالم مجهولة تفرغ تيارها فيك ! »

١٢٨ الباقوطة تلتقي براحيل

لاحت في اليوم التالي سفينة كبيرة اسمها «راحيل»، عامدة نحو الباقوطة وقد تجمع البحارة محتشدين عند صواريها جميعاً . وكانت الباقوطة عندئذ قد احرزت سرعة طيبة في الماء، ولكن لما كانت السفينة الغريبة المنشورة الاجنحة مع المهب تدنو منها ، هبطت الاشرعة المنتفخة جميعاً كأنها مثانات فارغة انفجرت، وهربت الحياة جميعها من الهيكل المصفوع .

تمتم العجوز ابن جزيرة مان يقول: «أخبار سيئة . انها تحمل اخباراً سيئة». وقبل ان يتمكن قبطانها، وقد وضع النفير على شفتيه، من ان يقف في قاربه، ويحيّي آخاب وملء نفسه الأمل، سمع صوت آخاب ينادي :

— «أرأيتم الحوت الابيض ؟ »

— «أجل . أمس . هل رأيتم قارب تحويت تائهاً يتقاذفه التيار؟» وخنق آخاب فرحته، وأجاب عن ذلك السؤال المفاجىء بالنفي، وكان على وشك ان ينزل الى السفينة الغريبة، حين أوقف القبطان الغريب طريق مركبه وشوهد وهو ينزل من جانبه ، وبعد بضعة تجذيفات صادقة اعلق خطاف قاربه الىالسلاسل الرئيسية في الباقوطة وقفز فوق ظهرها . فعرف فيه آخاب على التو أحد ابناء نانتوكت ولكن لم تجر بينهما تحية رسمية .

— «أين كان ؟ — لم يقتل ! لم يقتل ! » — كذلك صرخ آخاب وهو يدنو متقدماً — «كيف كان ؟ »

ويجمل الحكاية التي حكاها القبطان الغريب ان ثلاثة قوارب انهمكت، في وقت متأخر بعض الشيء من بعـــد ظهر اليوم السابق، في مطاردة سرب من الحيتان قادها على بعد اربعة اميال او خمسة من السفينة، وبينا كانت في مطاردة سريعة مع المهبّ برزت فجأة حردبة موبي ديك البيضاء ورأسه من الماء الازرق، غير بعيد في اتجاه الهبوب؛ وعلى اثر ذلك أنزل القارب الرابع المعدّ — وهو قارب احتياطي — للمطاردة توّاً، وبعد انجار مغذٍّ امام الريح، بدا وكأن هذا القارب الرابع — وهو اسرعها قاعدة — قد نجح في ان يشكّ الحوت ويُعلقه بالحبل على الاقل، حسبما استطاع نظر الرجل الواقف في رأس الصاري ان يستبين من الامر، فقد رأى القارب المتضائل المنقط على البعد، ثم ابصر دفقة عاجلة من الماء الابيض يعلوها الحبب، ثم لم يرَ شيئاً آخر، ولذا قدّر البحارة ان الحوت المطعون قد جرى هارباً بمطارديه الى غير وجهة، حسبما يحدث في اغلب الاحيان. كان هناك تخوف ولكن الفزع الايجابي لم يتمكن في النفوس، ثم وضعت شارات الاستعادة في مكان عــــالٍ، غير ان الظلام حلّ واضطرت السفينة ان تلتقط القوارب الثلاثة التي توغلت في الابعاد مع المهبّ قبل ان تذهب في البحث عن الرابع الذي مضى في اتجاه مضاد تماماً، ولذا فانها لم تجد لزاماً عليها فحسب ان تترك هذا القارب يلاقي مصيره حتى قريب من منتصف الليل وانما اضطرت لتزيد بعدها عنه في الوقت نفسه. ولما وجدت ان سائر البحارة اصبحوا على ظهرها في أمان حشدت اشرعتها جميعاً — الاشرعة الجانبية الخفيفة على نظائرها — وأزمعت خلف القارب المفقود، مشعلة في مراجل التصفية ناراً جعلتها فناراً، ووضعت كل امرىء في الاعالي — بالتناوب — رقيباً. ولما ان قطعت مسافة غير قليلة لتدرك المكان المفترض للبحارة المفقودين، حيث لاحوا آخر مرة، ولما ان توقفت لتنزل القوارب الاحتياطية كي تجذّف جميعاً من حولها ولم تجد شيئاً اندفعت ثانية في إبحارها، ثم توقفت، ثم أنزلت قواربها، واستمر مريرها على ذلك حتى تبلج ضوء النهار، ولكن لم يلح من القارب المفقود ادنى لائحة.

ولما ان انتهى القبطان الغريب من سرد قصته، مضى على التو يكشف عن غايته في النزول الى ظهر الباقوطة، فقال انه يرغب ان تشترك هذه السفينة مع سفينته في البحث، وذلك بأن تسير السفينتان في البحر اربعة اميال او خمسة منفصلتين على خطين متوازيين، وبهذا ترودان أفقين بدلاً من أفق واحد .

فهمس اسطب في أذن فلاسك يقول : « أراهن على شيء . أراهن ان احد الذين في القارب المفقود قد لبس خير معطف عند هذا القبطان او لعله اخذ ساعته، فهو قلق يريد ان يسترجعه او يسترجعها . من سمع ابداً بسفينتي حواتة ورعتين تجوبان البحر بحثاً عن قارب تحويت في ذروة موسم التحويت ؟ ما رأيك يا فلاسك ؟ انظر ما أشد شحوبه، شحوب حتى في بؤبؤي مقلتيه – تأمل – لعله ليس المعطف – لا بد انه —» .

– « ابني، ابني نفسه بين المفقودين، بحق الاله ارجوك، استحلفك — » هنا هتف القبطان الغريب قائلاً لآخاب : « دعني استأجر سفينتك مدة ثماني واربعين ساعة – سأدفع الأجر راضياً ، وادفع على آخر قرش – ان لم يكن هناك طريقة اخرى – لثماني واربعين ساعة فقط – لا غير – لا بد لك، آه، لا بدّ لك، ولسوف تؤدي لي هذا الصنيع » .

فصاح اسطب : « ابنه ! آه ان المفقود هو ابنه ! انا اسحب ما قلته عن المعطف والساعة . ماذا يقول آخاب ؟ علينا ان ننجي ذلك الولد » .

فقال ابن جزيرة مان وكان يقف خلفهم : « لقد غرق مع البقية ليلة أمس لقد سمعت ؛ انتم جميعاً سمعتم صراخ ارواحهم » .

وتبين لنا بعد قليل ما جعل حادثة راحيل أشجى واعلق بالأسى، ذلك ان القبطان لم يكن له وحسب ابن في عداد بحارة القارب المفقودين وانما كان له في

الوقت نفسه ابن آخر بين بحارة القوارب الاخرى، وقد انفصل ايضاً عن السفينة خلال الاحداث السود ، احداث المطاردة، حتى ان الولد التعس ، ظلّ لذلك أمداً ، وهو غارق في قرارة اشد حيرة شدة وظلماً، ولم ينقذه من حيرته تلك إلا رئيس ضباطه، حين هدته الغريزة الى ما تعمله سفينة التحويت عادةً في مثل هذه اللزبات الملحة، اعني انها اذا وقعت بين قوارب متباعدة معرضة للتهلكة فانها دائماً تتجه نحو انقاذ الاغلبية . ولكن القبطان لسبب مزاجي مجهول تحاشى ذكر هذا كله، فلم يلمح الى ابنه الآخر المفقود الا حين اضطرته الى ذلك برودة آخاب ؛ كان ذلك الابن يافعاً في الثانية عشرة من عمره اراد والده له بكل ما في النانتوكتي من حمية الحب الابوي المؤيد ببسالة لا يدركها ريب ، ان يتمرس باخطار المهنة وعجائبها، فهي منذ القدم تمثل القسمة التي قسمت لبني قومه، النانتوكتيين. وكثيراً ما يحدث ان يرسل قبطان نانتوكتي ابناً، وهو في هذه السنّ الناعمة ، بعيداً عنه في رحلة طويلة تمتد ثلاث سنين او أربعاً على سفينة غير سفينته، حتى لا تضعضع معرفته الأولى لحرفة التحويت بهوىً عارض او توجس نابٍ او فضل اهتمام يبديه نحوه أبوه، ومثل هذا أمر يُعدّ طبيعياً في الآباء.

وكان القبطان الغريب في الوقت نفسه ما يزال يتوسل ان يمنحه آخاب ما سأل ، بينا ظلّ آخاب واقفاً كالسندان يتلقى كل ضربة دون ان يقابلها بأدنى هزة .

قال القبطان الغريب : « لن أتزحزح حتى تقول لي : أجل ؛ اصنع من أجلي ما تريدني ان اصنعه من اجلك في مثل هذا الموقف ، فان لك انت ايضاً ابناً يا آخاب – هو طفل يترعرع بأمان في بيته – هو ابنك في شيخوختك ايضاً – نعم ، نعم ، أراك تلين ؛ أرى ذلك منك ، جرياً ، عدواً ، يا رجال وقفوا على أهبة كي تديروا الباحات .... » .

وصاح آخاب : « حسبك ! لا تمسّ لفافة حبل » ، ثم أكمل في صوت نبر

فيه كل لفظة في تؤدة وأناة : « قبطان جاردنر . لن افعل ذلك . بل ان الوقت بهذا يضيع من يدي . وداعاً ، وداعاً . لتنزل عليك بركات الله ايها الرجل ، وأرجو ان اغفر لنفسي ، غير انه لا بد لي من الذهاب . يا سيد استاربك ، انظر ساعة البوصلة وأنذر جميع الغرباء بالرحيل بعد ثلاث دقائق من هـــذه اللحظة : ثم شدّوا الحبال والقلوع كي تبحر السفينة مثلما كانت قبلاً » .

واستدار مسرعاً مشيحاً بوجهه ، ونزل الى قمرته ، مخلفاً القبطان الغريب متصلباً مندهشاً لهذا الرفض البات المطلق الذي واجه به رجاءه الملحّ . ولكن جاردنر صحا من ذهوله وأسرع في صمت الى جانب السفينة ، وقد تقول انه ارتمى ساقطاً في قاربه ولم يهبط هبوطاً ، وعاد الى سفينته .

وسرعان ما تباعدت السفينتان في مخرهما ، وحين كانت السفينة ما تزال بمرأى منّا ، كانت تتلدد هنا وهناك خارجة عن مجراها عند كل بقعة سوداء في الماء مهما تكن صغيرة؛ وفي تلدّدها تدار باحاتها في هذه الوجهة وفي تلك، وبقيت تجري شمالاً ويميناً ، احياناً تواجه موجاً من امامها وأحياناً تنساق امام الموج، بينما صواريها وباحاتها طوال ذلك قد احتشدت بالرجال كأنها ثلاث شجرات سامقة من الكرز والاطفال معلقون لقطفه بين فروعها .

وكنت ترى بوضـــوح ان هذه السفينة، وهي تتوقف وتتعرج بها طريقها التاعسة، ما تزال مجهدة تبكي ، ودمعها رشاش الماء ؛ كانت هي راحيل تبكي اولادها ، لانهم لم يبقوا لها [1] .

---

[1] ارميا ٣١ : ١٥ « هكذا قال الرب : صوت سمع في الرامة ، نوح بكاء مرّ ، راحيل تبكي اولادها ، وتأبى ان تتعزى عن اولادها لانهم ليسوا بموجودين » .

١٢٩

القمرة

« يتحرك آخاب ذاهباً الى ظهر السفينة ؛
يمسك بيب بيده ليصطحبه » .

— «يا فتى ، يا فتى، أقول لك ، عليك ان لا تتبع آخاب الآن . ان الساعة لآتية تلك التي لن يدعك آخاب فيها تفزع منه ، الا انه لا يريد لك ان تكون معه . فيك ايها الفتى المسكين ما أحسُّ انه شفاء لدائي . هو كالدواء ؛ إلا ان دائي من اجل هذه الرحلة خير صحة أرجوها . قرَّ إذن في القمرة حيث يخدمونك كأنك القبطان نفسه . أجـــل يا فتى ، ستجلس هنا فوق كرسي المثبت بالقلاووظ ، وأنت ستكون فيه قلاووظاً ثانياً » .

— « لا . لا . لا ! ليس لك جسم كامل يا سيدي. استعمل جسمي بدل رجلك المفقودة ، حسبي ان تدوس عليَّ يا سيدي . ما أريد مزيداً أظلُّ جزءاً منك » .

— « آه ! على رغم ملايين الاخساء ، يجعلني هذا متطرف الايمان في وفاء بني الانسان ، الذي لا يزول ولا يحول ! — وهو اسود ! وهو مجنون ! ولكن يخيل اليّ انه يعتريه الشفاء ؛ فها هو يعود عاقلاً» .

— « يقولون لي يا سيدي ان اسطب تخلى مرة عن بيب الصغير المسكين ، الذي تلتمع عظامه الغارقة بياضاً رغم سواد بشرته، ولكنني لن أتخـــلى عنك يا سيدي كما فعل اسطب لبيب . سيدي لا بد ان اذهب معك » .

— «اذا أطنبت في الحديث معي على هـــذا النحو فان هدف آخاب ينقلب رأساً على عقب . أقول لك لا ، ذلك لن يكون » .

— « آه يا سيدي الطيب ، سيدي ، سيدي ! »

— «لئن انتحبت كما تفعل فاني قاتلك ! حذار ، فان آخاب ايضاً مجنون . أصغِ وسوف تسمع قدمي العاجية كثيراً على ظهر السفينة وتعلم اني ما أزال هنا. ها انا أغادرك . يَدَكَ نتصافحْ ! تلاقتا ! انت صادق يا فتى صدق المحيط حول المركز ؛ هكذا : حلـّت عليك بركة الله ابداً ، واذا بلغت الامور هذا الحد — نجّاك الله ابداً وليكن ما يكون » .

[يمضي اخاب ويتقدم بيب خطوة الى الامام]

— «هنا وقف في هذه اللحظة . انا اتخذ مثل هيئته — غير اني وحدي ، لو كان بيب المسكين هنا لتحملت ذلك ولكنه فقد . بيب ! بيب ! دن ! رن ! دن ! من رأى بيب ؟ أظنه في الاعلى ، لأجرب الباب . مــــاذا ؟ لا قفل ، لا مزلاج ، لا عارضة ، ثم لا يفتح . لا بد انه الحلقة السحرية . أمرني ان أمكث هنا ، أجل وقال ان هذا الكرسي المثبت بالقلاووظ لي . ها هنا ، أجلس إذن قبالة الطرنسوم في منتصف السفينة عينه وأمامي كل أربنتها وصواريها الثلاثة . ها هنا فيما يحدثنا ملاحونا الشيوخ يجلس امراء البحر العظام احياناً الى المائدة في مراكبهم السود المزودة بـ ٧٤ مدفعاً ويتزعمون على المائدة ومن دونهم صفوف من القباطنة والنواب. ها! ماهذه اسبليطات؟ اسبليطات[١]؟ انها تجيء محتشدة! أديروا القناني، يسرني ان أراك، املأوا الكؤوس يا سادة! اي شعور غريب ينتابني حين يكون غلام اسود مضيفاً لرجال بيض يلبسون الاشرطة الذهبية فوق معاطفهم!

---

١ الاسبليطة : رمانة مقصبة فوق كتف السترة العسكرية .

سادتي هل رأيتم فتى يدعى بيب ؟ فتى زنجي قميء طوله خمسة اقدام ، ملامحه كملامح الكلب التبيع الذليل ، تنضح جبناً . قفز مرة من قارب تحويت . هل رأيتموه ؟ لا ! لا بأس إذن، املأوا كؤوسكم مرة أخرى ايها القباطنة ولنشرب نخب عار الجبناء جميعاً ! لا أسمّي احداً ، العار والشنار لهم ! ضعوا قدماً على الطاولة . العار والشنار للجبناء جميعاً ، صه ! في أعلى اسمع صوت عاج — آه سيدي ! سيدي ! يهبط قلبي حقاً حين تمشي فوقي ، ولكنني سأبقى هنا وان كانت هذه المؤخرة ترتطم بالصخور ، فتنبعج ، ويجيء الحار ليرافقني » .

١٣٠ القبعة

بعد هذا التجوال الاولي المديد بدا وكأن آخاب، في الزمان والمكان الملائمين، قد ألجأ عدوه بعد ان جاب مياه التحويت الاخرى الى حظيرة بحرية كي يتسنى له ذبحه دون ان يفلت من يده . لقد وجد نفسه في نفس البقعة التي أصيب فيها بجرحه الاليم ؛ لقد قابل سفينة وتحدث الى قبطانها وعرف انها أمس في الواقع التقت بموبي ديك . لقد كانت لقاءاته التالية لمختلف السفن كلهـــا متضافرة تدل عن طريق المفارقة على عدم المبالاة الشيطانية التي مزق بها موبي ديك صياديه، سواء أثموا في حقه او لم يأثموا ؛ لقد اخذت عينا الرجل الشيخ تومضان بشيء تكاد النفوس الضعيفة لا تطيق رؤيته . كانت غاية آخاب ثابتة تلتمع من علٍ على جهامة البحارة الجاهمين وليل كآبتهم الذي لا يريم، كأنه النجم القطبي الذي لا يغور وانما يظل يرسل خلال ليالي الاشهر الستة الطوال في المنطقة المتجمدة نظرته النفاذة المركّزة المسدّدة. كانت غايته تهيمن عليهم حتى ان توجساتهم وشكوكهم وريبهم ومخاوفهم كانت تؤثر ان تختفي تحت ارواحهم فلا تنطلق منها سنبلة او ورقة .

وفي هذه الفترة المرتقبة تلاشى كل ميل الى الفكاهة، طبيعية كانت او مصطنعة، فلم يعد اسطب يحاول ان يثير الابتسام ، ولم يعد استاربك يحاول ان يخفت ابتسامة . كلا النقيضين من سرور وحزن، من رجاء وخوف، كأنما سحقا فأصبحا غبـــاراً دقيقاً وصبّا في الملاط المجبول، حينئذ، حول روح آخاب

الحديدية ؛ كانوا كالآلات يتحركون صامتين فوق ظهر السفينة وهم على رقبة من ان عين الشيخ المستبدة مسلطة عليهم .

ولكنك لو تأملته في عمق، وهو في احدى ساعاته الأمينة الواثقة، حين كان يظن ان لا عين تراه الا عين واحدة، لرأيت انه بينا كانت عينا آخاب ترهبان عيون البحارة فان نظرة البارسي المبهمة كانت تُرهب نظرة آخاب او على الاقل تؤثر فيها احياناً على نحو غريب . ومثل هذا المزيد من الغرابة السارية اخـــذ يكتنف فيض الله النحيل، مثل هذه الارتعاشات المسترسلة اخذ يهزه حتى اخذ الرجال يتطلعون اليه في ارتياب، غير مستيقنين اليقين كله انه حقاً مصنوع من مادة الآدميين او انه خيال مرعب ألقاه على ظهر السفينة جسم كائن خفي، وان ذلك الخيال كان ما يزال يحوم دائماً هنالك اذ لم يعرف عن فيض الله انه ينام او ينزل الى الطابق السفلي حتى في الليل؛ انما هو يقف دون حراك ساعات وساعات، لا يجلس ولا يستند ، وعيناه الكئيبتان العجيبتان تقولان دون ابهام : « نحن الرقيبين لا نرتاح ابداً » .

ثم ان البحارة لم يعودوا يستطيعون ان يمشوا في اي وقت ليلا كان او نهاراً على ظهر السفينة الا اذا كان آخاب امامهم، إما واقفاً في الثقب المحوري وإما ذارعاً الالواح بين طرفين لا يتجاوزهما ، وهما الصاري الرئيس والمظين ، فان لم يكن هذا او ذاك رأوه واقفاً في ناروزة القمرة، وقد مدّ رجله الحية فوق ظهر السفينة كأنه يريد ان يخطو وانكفأت قبعته على عينيه بقوة، حتى انه مهما يكن ثابتاً دون حراك ، ومهما تمرّ الليالي والايام عليه وهو لم يضطجع في ارجوحته، فان البحارة لا يستطيعون ان يعلموا يقيناً لا يعتوره خطأ ان كان هو حقاً يغمض عينيه احياناً لانها مختفيتان تحت تلك القبعة المنكفئة او ان كان ما يزال منعماً النظر اليهم ؛ ثم لا يهمه بعدُ ان يقف هذه الوقفة في الناروزة ساعة كاملة على امتدادها ، غير عابىء ان تتجمع رطوبة الليل حبات من ندى

على ذلك المعطف وتلك القبعة اللذين يتلبسان صخراً منحوتاً، فان الثياب التي يندّيها الليل تجففها شمس اليوم التالي دون ان يخلعها؛ ويوماً اثر يوم وليلة بعد ليلة لم يعد يلمّ بالطابق السفلي، وانما كان يرسل في طلب اي شيء يحتاج اليه من القمرة .

كان يتناول الطعام في ذلك الهواء الطلق، اعني الوجبتين الوحيدتين: الفطور والغداء، اما العشاء فلم يكن يمسّه، ولم يكن يشذب لحيته وانما نمت معثكلة متلبدة كأنها جذور اشجار مقلوبة اقتلعت من الارض، ولا تزال تنمو في استرخاء فوق قاعدة عارية وقد جفت خضرتها في الاعالي. ومع ان حياة آخاب كلها اصبحت رِقْـبَةً واحدة متصلة على ظهر السفينة، ومع ان رقابة البارسي الغامضة كانت ايضاً كرقابة آخاب دون انقطاع، فان هذين الاثنين لم يكونا يتحدثان احدهما للآخر الا أن تعرض مسألة عابرة غير ذات شأن، في فترات طويلة، تجعل التحادث بينهما ضرورياً . كانت حلقة سحرية قوية كأنما تربط سراً بين الاثنين ومع ذلك فانهما كانا علناً في نظر البحارة الملوءين رهباً يبدوان متباعدين كأنهما قطبان، فاذا اتفق ان تبادلا كلمتين نهاراً، ظلاّ كلاهما في الليل أخرسين حتى فيما يتصل بأوهى تمتمة شفوية. واحياناً كانا يقفان اطول الساعات دون ادنى هتفة، متباعدين تحت ضوء النجوم . اما آخاب فهو في ناروزته واما البارسي فيقف عند الصاري الرئيس، غير انهما يحدقان احدهما في الآخر بعيون نافذة؛ كأن آخاب يرى في البارسي خياله ملقى امامه، وكأن البارسي يرى في آخاب كيانه الجسدي الذي بارحه .

غير ان آخاب، فيما كان يفصح به عن ذاته الحق يومياً وكل ساعة وفي كل لحظة بأوامر يلقيها الى مرءوسيه، آخاب بذلك كان يبدو السيد المستقل، بينما البارسي عبدٌ له . ومع ذلك ظل الاثنان وكأنهما مدمجان في قَـرَنٍ، يسوقهما طاغية خفي، ويمشي الخيال النحيل منهما الى جنب الدعامة الصلبة، اذ مهما يكن البارسي فان آخاب الصلب كان كله دعامة وأرينة .

وعندما بزغ اول خيط من خيوط الفجر متلألئاً سمع صوته الجهوري آتياً من المؤخرة : « زودوا رءوس الصواري بالرجال ! » وطوال اليوم كله حتى بعد المغيب وبعد الشفق يظل يسمع ذلك الصوت نفسه ـ كل ساعة عندما يدق جرس قيم الدفة ـ صارخاً : « ماذا ترون ؟ حددوا انظاركم ! حدّدوا ! »

ومضت ثلاثة ايام او أربعة على لقاء راحيل التي كانت تنشد ولديها دون ان تظهر نفاثة واحدة ؛ وعندئذ بدا وكأن الشيخ الممرور يرتاب في امانة ملاحيه ، او على الاقل يرتاب فيهم ما عدا الزراقين الوثنيين ، بل اخذ يشك في اسطب وفلاسك وانهما قد يغفلان عامدين المنظر الذي يسعى اليه. ولكن ان كانت هذه الريب فيه فانه تحاشى التعبير عنها بكلمات، وكان ذلك من حكمته، مهما تكن اعماله موحية بها .

فقال لنفسه: «سأكون انا اول من يرى الحوت، اجل ان آخاب سينال القطعة الذهبية ! » ونسج بيديه عشاً من حبال الاشرعة على هيئة زنبيل وارسل يداً الى اعلى ببكرة ذات دولاب واحد ليربطها الى رأس الصاري الرئيس فتلقى طرفي الحبل المشدود الى اسفل، وعقد احد طرفيه بالزنبيل، وأعدّ وتداً للطرف الآخر كي يوثقه الى اللوحة في حافة السفينة ، وما ان فعل ذلك، والطرف الثاني ما يزال في يده وهو واقف الى جانب الوتد، حتى نظر الى ملاحيه نظرة انتقلت من واحد الى آخر ، متوقفة طويلاً عند دغة وكويكوج وطاشطيقو متحاشية فيض الله، ثم ركز بصره الثابت الواثق على رأس الضباط وقال : « امسك الحبل يا سيدي – انا اضعه في عهدتك يا استاربك » . وبعد ان اتخذ جلسته في الزنبيل أمر بان يرفعوه الى مجثمه، وكان استاربك هو الذي امسك الحبل آخراً وبعدئذ وقف قريباً منه، وكانت احدى يدي آخاب تقبض على الصاري الملوكي بينا نظراته مرسلة عبر السفينة الى مدى اميال واميال في البحر، أماماً وخلفاً والى هذا الجانب والى ذاك – ضمن الدائرة الواسعة المديدة التي يمكن ان يمتد اليها البصر من ذلك العلو الشاهق .

يرفع البحار الى ذلك الموضع حين يعمل بيديه في مكان عالٍ يكاد يكون منعزلاً بين الحبال والاشرعة ، وربما لم يكن لديه موطىء قدم فيه، وانما يبقى معلقاً بالحبل . وفي مثل هذه الظروف يعهد دائماً بطرف الحبل المربوط عند ظهر السفينة الى شخص يكون دقيق المسئولية في النظر والحراسة . ذلك ان الحبال المسترسلة تشبه تيهاً ، ولا يستطيع المراقب الذي يرى القسم المنظور منها عند ظهر السفينة ان يستبين دائماً ودون خطأ علاقاتها وتشابكاتها المختلفة في الاعالي. واذا كانت اطراف هذه الحبال عند ظهر السفينة تنحلّ كل دقيقة من علائقها، فان من الخطر البالغ على البحار المرفوع — بطبيعة الحال — ان لا تزود الحبال بحارس دائم اليقظة، اذ ان اهمال البحارة قد يجعله يهوي وينقض في الماء . لذا فان ما صنعه آخاب في هذا الصدد لم يكن امراً شاذاً؛ انما الشيء الغريب في الامر هو انه عهد بالحراسة الى استاربك، ويكاد استاربك ان يكون الرجل الوحيد الذي تجرأ ابداً على مخالفته في أي شيء على نحو لا يقلّ عن الجزم البات إلا هنة يسيرة، وهو احد الذين كان يبدو على آخاب انه يشك في امانتهم في الحراسة، لذا كان من المستغرب ان يقع اختياره على هذا الرجل نفسه ليقوم بحراسة الحبال، اذ معنى ذلك انه وضع حياته كلها مختاراً في يدي انسان غير موثوق فيه .

وما ان جثم آخاب في الاعالي، وقبل ان يمضي عليه عشر دقائق، حتى اقترب منه صقرٌ من تلك الصقور البحرية الكاسرة ذوات المناقير الحمر التي كثيراً ما تطير على نحو مزعج حول رءوس صواري الحواتات المزودة بالرجال، في تلك النواحي، صقر من تلك الطيور جاء يدوِّم ويصرخ حول رأس آخاب في تيه من الدورات السريعة التي لا يستطيع النظر ان يحقها، ثم انطلق على مدى ألف قدم مستقيماً في الفضاء ثم خات متلولباً وذهب يدوّم حول رأسه مرة اخرى .

وبدا كأن آخاب وهو معلق النظرة في الافق النائي المبهم لم يلمح هذا الطائر البريّ ولا كان لأي واحد آخر ان يعيره اهتماماً، لانه مظهر مألوف لديهم، لولا ان أقلّ الناس يقظة عندئذ بدا وكأنما يرى في كل منظر معنى خبيئاً .

وفجأة صاح البحار الصقلي الذي كان جاثماً عند قمة المظين: «قبعتك ! قبعتك يا سيدي ! » وكان يقف خلف آخاب وان كان على صعيد أدنى ويفصل بينهما خليج عميق من فضاء .

ولكن الجناح الاسود كان قد اصبح امام عيني الرجل الشيخ، واصبح المنسر الاعقف الطويل عند رأسه : وانطلق الصقر الاسود صارخاً وقد فاز بغنيمته .

حول رأس تاركوين [1] طار صقر ثلاثاً، نازعاً قبعته ليعيدها الى مكانها، ومن ثمّ اعلنت تناقيل زوجته ان تاركوين ربما أصبح ملكاً على روما، ولكن الحادث عدّ فألاً حسناً لان القبعة اعيدت الى مكانها، اما قبعة آخاب فلم تعد ابداً ونأى بها الصقر طائراً، ومضى بعيداً عن مقدم السفينة، واختفى في النهاية، وعنـــد لحظة اختفائه رؤيت — في انبهام — هنة صغيرة سوداء، تسقط من ذلك العلو الشاهق الى البحر .

---

١ هو لقومو تاركوينوس، اصله من كورنث، غادر موطنه الاترسكي نجئاً عن ما يأتيه به الحظ في روما .

١٣١ لقاء بين الباقوطة والمسرة

مضت الباقوطة ذات المرة الشزر في إبحارها ؛ وتوالى كرّ الامواج والايام ، والتابوت الذي جعل عوّامة انقاذ ما زال يتأرجح بخفة ، وشوهــدت سفينة أخرى أساء أصحابها اختيار الاسم حين دعوها : « المسرة » . وحين اقتربت تعلقت الانظار جميعاً بعوارضها العريضة ويسمونها « المقصّ »، فهي تعارض في بعض سفن التحويت الربعة الواقعة خلف الدقل الاعظم على ارتفاع يبلغ ثمانية اقدام او تسعة ، وتستعمل لحمل القوارب الاحتياطية او غير المعدّة او التي لم تعد صالحة .

وعلى مقص السفينة الغريبة شوهدت دعائم بيضاء محطمــة وبضعة ألواح متفلقة كانت من قبل تسمى قارب تحويت ، ولكن البصر كان ينفذ من خلال ذلك الحطام فيرى ما وراءه بوضوح، مثلما ينفذ من خلال هيكل حصان مسلوخ ناصع البياض يهتز بعض اهتزاز .

— « هل رأيتم الحوت الابيض ؟ »

فأجاب القبطان الغائر الوجنتين من أعلى الكوثلة : « تأمل ! » وأشار بالنفير الى الحطام .

— « هل قتلتموه ؟ »

— « ان الرمح الذي قد يحقق ذلك لم يصنع بعد » -- كذلك أجاب القبطان

الآخر وهو يرمق في أسف أرجوحـــة مدوّرة على ظهر السفينة ، كان بعض البحارة منهمكين – في صمت – يخيطون أطرافها المجموعة .

فاختطف آخاب الحديدة التي سوّاها بيرث من محجأها ، وامسك بهـــا وهتف : « لم يصنع بعد ، انظر ايها النانتوكتي ، في هـــذه اليد يقبع موته ! سقيتها دماً هذه الكلابات وروّيتها بالبرق وانا أحلف اني سأثقفها ثالثة بغمسها في الموضع الحار خلف الزعنفة حيث يكون الحوت الابيض أشد شيء احساساً بحياته اللعينة ! »

– « اذن حماك الله أيها الشيخ » – وأضاف مشيراً الى الارجوحة – « هل ترى هذه . فيها أدفن واحداً من خمسة رجال اشداء كانوا احياء امس ، لكنهم ماتوا قبل حلول الليل . هذا الوحيد هو الذي أدفنه اما البقية فدفنوا قبل ان يموتوا وأنت تبحر فوق قبرهم » ثم التفت الى بحارته وقال : « أأنتم مستعدون هنالك ؟ ضعوا اللوح على الحافة العليا وارفعوا الجثة . كذا . آه » – وتقدم نحو الارجوحة بيدين مرفوعتين وهو يقول : « يا رب اجعل البعث والحياة –– » .

فصاح آخاب في رجاله كأنه البرق : « شدوا الحلقات ! ارفعوا الدفة ! »

ولكن الباقوطة التي أجفلت فجأة لم تكن سرعتها كافية لتتحاشى الرشاش الذي أحدثته الجثة حين ارتطمت في الماء . لم تكن سرعتها كافية حقاً غير ان بعض الفقاعات المتطايرة بللت هيكلها بعموديتها الروحية .

ولما انسابت السفينة بآخاب نائية عن « المسرة » الخائرة لاحت عوامـــة الانقاذ الغريبة معلقة في مؤخرة الباقوطة ، واضحة بارزة .

فانبعث صوت في مخرها محمل بالنذر : « هـــا . هناك ! انظروا هناك يا رجال ! عبثاً ايها الغرباء تفرون من جنازتنا الحزينة لانكم انما تديرون لنا كوثلة سفينتكم كي ترونا تابوتكم ! »

١٣٢ السيمفونية

كان يوماً صافياً كأنه الفولاذ زرقة، وكاد الجلـدان الازرقان: الفضاء والبحر لا ينفصلان في تلك اللازوردية الشاملة؛ ولكنهما يتباينان: فأما الهواء الساكن فانه كان وضاحاً شفافاً ناعماً له وجه امرأة، واما البحر الصليب فانه مسترجل تعلو فيه موجاته الطويلة القوية المتأنية كأنه صدر شمشون وهو نائم .

وهنا وهناك في الاعالي كانت تنساب اجنحة ناصعة ، أجنحة طيور صغيرة بيضاء لا شية فيها ، وتلك هي الافكار الرقيقة التي يتمخض عنها الهواء المؤنث اما في الاعماق ، في دركات الازرق الذي لا قرار له ، فكانت الحيتان وأسماك السيف واسماك القرش تتدافع – جيئة وذهوباً – ، وتلك هي الافكار القوية المضطربة القتالة التي يتمخض عنها البحر المسترجل .

ومع ان هذه المفارقة كانت قائمة بينهما اذا اعتبرتهما من داخل ، فان هذه المفارقة بينهما انما كانت في الظلال والاخيلة اذا اعتبرتها من خارج ، فكلا الاثنين كانا شيئاً واحداً ، ولا فرق بينهما إلا فرق ما بين التذكير والتأنيث .

وفي الاعالي كانت الشمس ، كأنما هي قيصر او مـــلك فخيم ، تزف الهواء الرقيق للبحر الجسور المتضرب كما تزف العروس الى زوجها . وعند طوق الافق تنشأ حركة ناعمة مرتجفة – اكثر ما ترى هنا عند خط الاستواء – تدل على

الثقة المدلهة النابضة ، والمخاوف الحبيبة التي تفتح العروس الخفِرَة بها صدرها لتتلقى حبيبها .

ووقف آخاب الصامد في وضح الصباح وقـــد رفع حاجباً يشبه الخوذة المشظّاة نحو جبهة السماء التي تشبه جبهة فتاة شقراء ، وهو مقيد مبروم ، ملوّى معقد بالتجاعيد والغضون ، ثابت لا يلين على شحوبه ، وعيناه تتوهجان كأنهما جمرتان ما تزالان تبصّان تحت رماد الدمار .

آه ايتها الطفولة الخالدة ، يا براءة الكون اللازوردي ؟ ايتها المخلوقات الخفية المجنحة التي تمرح من حولنا ، ايتها الطفولة العذبة التي يمثلها الفضاء والسماء ! ما كان أشد غفلتك عن الويل المعشش في نفس آخاب الشيخ ! غير أني رأيت مريم ومرتا ، حوريتان تضحك عيونهما ، تلعبان دون اكتراث حول راعيهما الشيخ ، وتعبثان بدائرة الخصلات المشعوطة التي نبتت على حافة عربة دماغه الملتهبة .

عبر آخاب ظهر السفينة من الناروزة في بطء واستند على حافتها وراقب كيف يغرق خياله في الماء ويظلّ يغرق تحت بصره ، كلما ازداد سعياً ليخترق الاعماق ؛ ولكن يبدو ان الاريج اللطيف في ذلك الهـــواء المسحور استطاع في النهاية ان يبدد – لمدى لحظة – ذلك الشيء السرطاني في روحه . لقد استطاع ذلك الهواء المرح السعيد وتلك السماء الطروب ان يربتا عليـــه وان يلاطفاه بالمداعبة . والدنيا أمّ دفر التي طـــالما كانت قاسية القلب ، أخفتت قسوتها وألقت من حول عنقه الصليب ذراعيها الحادبين ، وأخذت في سرور تتنهد فوقه كأنما تفعـــل ذلك فوق رأس امرىء تستطيع ان تجد له في قلبها عطفاً يقيه العثرات ويكفل له البركات، مهما يكن فيه من عناد وأخطاء . وانحدرت من تحت قبعة آخاب المنكفئة دمعة نزلت في البحر ، ولم يكن المحيط الهادي كله يحتوي ثراء كتلك الدمعة الصغيرة .

ورأى استاربك الرجل الشيخ ، رآه وهو يلقي ثقله مستنداً على الحافة ويبدو انه سمع في قلبه الصادق ذلك التنهد المديد الذي انسل من وسط السكون المحيط . وظلّ استاربك حريصاً على ألا يمس آخاب وان لا يلفت انتباهه، ومع ذلك فانه اقترب ووقف هنالك .

التفت آخاب .

— « استاربك ! »

— « سيدي » .

— « آه يا استاربك هذه ريح عليلة عليلة ، وهذه السماء لطيفة وديعة . في مثل هذا اليوم — في عذوبة كهذه تماماً — طعنت اول حوت — كنت حواتاً صغيراً في الثـــامنة عشرة ! اربعون — اربعون — اربعون سنة مضت ! — مضت ! اربعون سنة من التحويت المستمر الدائب ! اربعون سنة من الحرمان والاخطار ومواسم العواصف ! اربعون سنة على البحر القاسي الذي لا يرحم . أربعين سنة هجر آخاب البر الآمن المطمئن ، اربعـــين سنة ليشن الحرب على ويلات الماء ، أجل ونعم يا استاربك ، من هذه الاربعين لم أقض على الشاطىء ثلاثاً كاملات . حـــين افكر في الحياة التي عشتها — وكيف كانت وحشة الوحدة ، كانت عزلة قبطان مشيدة مسوّرة ، لا تسمح لأية عاطفة من الارض الخضراء ان تتسرب اليها الا من خلال نافذة صغيرة — آه ، فيها الملل والسأم ، عبودية القيادة المتوحدة ! حين أفكر في كل هذا ، ولم أكن أعرفه من قبل بهذا الوضوح وانما كنت أخمن ما هنالك بعض تخمين ، عندما أفكر كيف اني طوال اربعين عاماً عشت عـلى طعام مملوح جاف — خير رمز للتغذية اليابسة التي عاشت عليها روحي — وعندما يكون في متناول أفقر رجل من ابناء البر فاكهة طازجة يومياً ، وهو يكسر أنضر الرغفان في الكون بينا أتناول انا البقسماط

اليابس ، بعيداً ايتها المحيطات على سعتها ، بعيداً من تلك الزوجة الفتاة التي تزوجتها بعد ان تجاوزت الخمسين وسافرت في اليوم التالي الى رأس هورن، تاركاً على مخدة الزوجية أدحية واحدة لا غير ، زوجة ؟ أأقول زوجة ؟ بل الاحرى ارملة وزوجها حيّ ! اجل ، لقد أرملت تلك الفتاة المسكينة حين تزوجتها يا استاربك . ثم الجنون والحنق والفورة في الدم والحاجب المعقود بالدخان تلك الامور التي كانت عدة آخاب آلاف المرات لدى انزال القوارب، بها يطارد في هياج مزبد فريسته ، اقرب الى الشيطان في حاله من الانسان ، اجل ، اجل ! ما كان احمق آخاب على مدى اربعين عاماً – احمق – احمق معرقاً في الحمق كان آخاب المسنّ ! لمَ هذا الجهد في الصيد ؟ لم تضنى اليد حتى تكاد تكون مشلولة على المجذاف والمزراق والحربة ؟ هل أصبح آخاب اليوم اغنى وافضل مما كان ؟ تأمل واحكم . آه يا استاربك ! أليس من القسوة – وانا احمل هذا العبء المضني – ان تختطف مني رجل كنت بها أقوم؟ أزح هذا الشعر الاشيب ناحية فانه يعشيني حتى أبدو وكأنني ابكي. مثل هذه الخصلات التي اشتعلت شيباً لم تخرج الا من رماد ! ولكن أتراني ابدو هرماً ، هرماً جداً يا ستاربك ؟ انني لأحسّني خائراً مقوس الظهر محدودباً كأنني آدم يترنح تحت عبء القرون المتراكمة مذ أهبط من الفردوس . رباه ! رباه ! رباه ! ليتفطر قلبي ! لينشق رأسي ! سخرية ! سخرية ! يا سخرية مريرة لذّاعة يمثلها هذا الشعر الابيض! هل مارست السرور الكافي حتى تجيء ايها الشيب له ختاماً فأبدو وأشعر انني كبرت كبراً لا يطاق ؟ قرّب ! قف بقربي يا استاربك . خلّني انظر في عين انسان ، ذلك افضل من التحديق في البحر او الفضاء ، أفضل من التوجه بالنظر الى الله . وحق الارض الخضراء ، وحق الموقد المتوهج هذه هي المرآة السحرية يا رجل ، فانا ارى في عينك زوجي وطفلي . لا . لا . ابق على ظهر السفينة ، على ظهر السفينة ! لا تنزل قاربك حين أنزله انا ، لا تنزله حين يأخذ آخاب الموسوم في مطاردة موبي ديك . لن تكون تلك المخاطرة من نصيبك ، لا . لا . لن تفعل وانت تحمل بيتي النائي في تلك العين ! »

— « آه يا قبطاني ! يا قبطاني ! يا ذا الروح النبيلة ! يا ذا القلب الكبير، بعد هذا كله ! لم يطارد احدٌ تلك السمكة المقيتة ! تعال معي ! دعنا نهرب من هذه المياه القاتلة، لنعد الى الوطن ! ان استاربك لديه زوجة وطفل — زوجة وطفل يتمثلان في لدات شبابه، لدات كأنهم اخوته واخواته، كزوجتك وطفلك يا سيدي هم اللدات الذين عرفهم العمر المتحبب التواق ذو الاحاسيس الابوية . لنبتعد ! هيا بنا نبتعد ! في هذه اللحظة دعني أغير وجهة السفين ! ما اسعدنا، ما أشدَّ تهللنا يا قبطاني ونحن نتدحرج في طريقنا لنرى نانتوكت القديمة ثانية ! أظن يا سيدي انهم في نانتوكت ينعمون بهذه الايام الوادعة الزرقاء، كيومنا هذا » .

— « ينعمون . ينعمون . رأيتهم، بعض ايام الصيف وقت الصباح، عند هذا الوقت او قريباً منه — نعم ان ابني الآن في القيلولة — ثم يصحو مرحاً ويجلس في سريره، وتحدثه امه عني، عني انا العقيّ المفترس، وكيف اني أمعنت في البحار، ولكنني سأعود اليه لأرقصه » .

— « انها ماري زوجتي، ماري زوجتي فعلت كذلك ! فقد كانت تعد ان تحمل ابني كل صباح الى الرابية لكي يرى اول ومضة من اشرعة أبيه ! نعم ! نعم ! حسبنا ! قضي الامر ! اننا نتوجه الى نانتوكت ! تعال يا قبطاني قدّر الاتجاه، ولنذهب . انظر ! انظر ! ها هو وجه الطفل يطل من النافذة ! ها هي يد الطفل على الرابية ! »

ولكن آخاب أشاح بوجهه واهتز كأنه شجرة تفاح مئوفة وطرح آخر تفاحة مغبرة على الثرى .

« ما هذا ؟ اي شيء غــير أرضي لا يسمّى ولا يعلل هو هذا ؟ اي سيد

خبيء خداع ، اي امبراطور جائر عسوف يوجهني ، حتى انني أظل اندفع واحتشد وازج بنفسي كل وقت مقاوماً كل مظاهر الحب والشوق الطبيعيين، ويجعلني مستعداً لأؤدي دون مبالاة ما لو استأنست بشعور قلبي الطبيعي لم أجرؤ على ان أوديه ! أآخاب هو آخاب ؟ أأنا ام الله ام من ذا يرفع هذه الذراع ؟ ولكن ان كانت الشمس العظيمة لا تجري من نفسها وانما هي عبد مأمور في السماء، ولا يستطيع اي كوكب ان يدور إلا ان تديره قوة خفية، فكيف اذن ينبض هذا القلب الصغير وكيف يفكر هذا الذهن الضئيل لولا ان الله هو الذي يسبب النبض والفكر، هو موجد الحياة لا أنا. وحق السماء يارجل اننا ندار في هذا العالم كذلك الدولاب الرافع والقَدَرُ هو المحل . وطوال الوقت، تأمل ! تلك السماء الباسمة وذلك البحر الذي لا يسبر له غور ! انظر ، انظر ذلك البيقور ! من ذا الذي اوحى اليه ان يطارد تلك السمكة الوثابة ويقبض عليها ؟ اين يذهب القتلة يا رجل ؟ من ذا الذي يصدع بالحكم حين يجرّ القاضي نفسه الى موقف المتهم ؟ ولكن الريح وديعة لطيفة والسماء وديعة المحيّا، والنسمات تنفح كأنما هبت من مرج ناءٍ بعيد، كانوا يحصدون عند سفوح الانديز يا استاربك والحصادون نائمون بين القش الحديث حصاده . نائمون ؟ اجل ، مهما يكن ما نبذله من كدّ فاننا ننام في النهاية في الحقل . ننام ؟ اجل ويعلونا الصدأ بين الزرع الاخضر، كالمناجل التي طرحت وتركت بين الاغمار والشمالات، يا استاربك ! »

ولكن اليأس ران على وجه الضابط فغدا في لون الجثة ، وانسلّ ذاهباً .

واجتاز آخاب ظهر السفينة ليطل عن الجانب الآخر ، غير انه اجفل اذ رأى خيال عينين محددتين في الماء . كان فيض الله متكئاً دون حراك على تلك الحافة نفسها .

١٣٣ المطاردة – اليوم الاول

في النوبة الوسطى من الحراسة تلك الليلة حين انتقل القبطان الشيخ ـ حسب عادته بين الحين والحين ـ من الناروزة التي يستند فيها وذهب الى الثقب المحوري، نصب وجهه فجأة بعنف، مستنشياً هواء البحر ، كما يفعل كلب فطين على سفينة تقترب من احدى الجزر المتأبدة . وأعلن ان ثمة حوتاً قريباً، ولا بد . وسرعان ما أصبحت تلك الرائحة الفريدة التي يبعثها حوت العنبر الحي على المدى البعيد احياناً ، واضحة يشمها جميع الرقباء . ولم يندهش اي بحار حين ذهب آخاب فعاين البوصلة ثم مؤشر الريح وعين بدقة منشأ الرائحة قدر المستطاع ثم أمر في سرعة ان يغيّر اتجاه السفينة تغييراً طفيفاً ، وان يقصر الشراع .

وكان لهذه السياسة الماضية التي تملي تلك التحركات ما يسوغها عند انبلاج النهار ، فقد كانت ملوسة ممديدة تغشي البحر أمـــاماً على اتجاه طولي بعيد ، ملساء كأنها الزيت وتشبه ، في الغضون المائية المثناة التي تقع عنـــد حدّها ، العلاماتِ المصقولة كالمعدن التي يتركها امراج التيار السريع عند مصب جدول عميق سريع .

– « زودوا المراقب بالرجال ! استدعوا جميع العاملين ! »

ودق دغة بمؤخرة ثلاث عتلات مجتمعة على ربعة المنارة فنبه النائمين بدقات كأنها نفخات الصور حتى بدا وكأن الناروزة بعثرتهم منشورين ، فظهروا على التوّ وملابسهم في أيديهم .

صاح آخاب وقد بسط وجهه نحو السماء : « ماذا ترون ؟ »

فكان الجواب الذي تأدى من علٍ : « لا شيء ! لا شيء يا سيدي ! »

— « انشروا الاشرعة العليا النبيلة ! والأشرعة الخفيفة الجانبية ، في الاعالي والاداني وعلى الجانبين ! »

ونشرت جميع الاشرعة فأرخى حبل الحياة الذي يستبقيه لكي ينقله الى رأس الصاري الملكي الرئيس ، وفي بضع دقائق كانوا يرفعونه الى مرقبه . ولم يبلغ إلا ثلثي الارتفاع المطلوب وهو يحدق امامه خلال الفراغ الافقي بين الشراع العلوي الرئيس والشراع العلوي النبيل حتى رفع عقيرته في الفضاء بصوت كأنه صراخ النورس : « هناك ينفث ! هنـــاك ينفث ! حردبة كربوة ثلج ! هو موبي ديك ! »

حمي الرجال على ظهر السفينة بتلك الصيحة التي رددها في الوقت نفسه الحراس الثلاثة ، فاندفعوا الى جانب الحبال والاشرعة ليروا الحوت المشهور الذي طاردوه — وما زالوا — طويلاً . وبلغ آخاب عندئذ مرقبه وهو يعلو اقداماً فوق المراقب الاخرى ومن دونه طاشطيقو على رأس الصاري العلوي النبيل حتى كاد رأس هذا الرجل الهندي ان يكون على مستوى أخمص آخاب . ورأى المراقبون من مرتفعهم هـــذا ذلك الحوت على بضعة أميال او نحوها الى الامام ، وكلما تقلبت الامواج انكشفت حردبته العالية اللامعـــة وهو يرسل نفثاته الصامتة بانتظام في الفضاء . وبدت نفثاته لأعين البحارة السذج نفس النفثات التي طالما رأوها في المحيطين الاطلسي والهندي تحت ضوء القمر .

وصرخ آخاب وهو ينادي الرجال الجاثمين في مراقبهم من حوله :

— « أو لم يره احدكم من قبل ؟ »

فقال طاشطيقو : « أكاد أكون رأيتـــه في نفس اللحظة التي رآه فيها القبطان آخاب يا سيدي وقد صرخت عند ذلك » .

— « ليست نفس اللحظة ، كلا ليست نفسها ، لا . ان القطعة الذهبية من نصيبي ، لقد حفظها القدر لي ، انا وحدي ، لا أحد فيكم كان يمكن ان يبصر الحوت قبلي . ها هو ينفث ! هـــا هو ينفث ! ها هو ينفث هناك ! هناك مرة اخرى ! هناك ثانية ! » — كذلك صرخ في نغمات مستطيلة بطيئة رتيبـــة ، منغومة حسب نفثات الحوت المسترسلة المنتظمة . — « يريد ان يقمس ! اطووا الاشرعة الخفيفة الجانبية ! انزلوا الاشرعة العلوية النبيلة ، قفوا الى جانب قوارب ثلاثة . الدفة هناك ! كاثب الريح ، اقترب منه درجة . هكذا . ثباتٍ يا رجل ثبات ! ها هما شطيرتا ذنبه ! لا . لا . ليس هذا الا ماء كثيفاً أسود ! أكل القوارب مستعدة ؟ قربوا قربوا ! انزلني يا سيد استاربـــك ! أنزل ، انزل . سريعاً . أسرع ! » وانزلق خلال الفضاء هابطاً الى ظهر السفينة .

فصاح اسطب : « انه عامد نحو المهب يا سيدي ، بعيداً عنا ؛ لا يمكن ان يكون قد رأى السفينة بعد » .

— « اخرس يا رجل ! قف عند حلقات الحبال . وجه الدفة الى تحت ! شدّ الحبال . هزّها ! هزّها ! هكذا . أحسنت ! القوارب ، القوارب ! »

انزلت كل القوارب على التو الا قارب استاربك ، ونشرت جميع أشرعتها وأعملت جميع بدالاتها وهي تنطلق نحو المهب بخفة متمعجة ، وآخاب في الطليعة يقود الهجوم ، وضوأ في عيني فيض الله الغائرتين بصيص شاحب ينتمي الى الموت ، ولوت فمه حركة شنيعة .

وأسرعت مخاطمها الخفيفة خلال الماء كأنها أصداف بحرية لا حفيف لها من

نوع النوطل[1]، ولكنها لم تكن تقترب من العدو إلا في بطء ، وعندما اقتربت منه زاد سكون البحر وانبساطه وكأنه ينشر بساطاً على الامواج ، كأنه مرج مستوٍ في الظهيرة ، كذلك كان يمتد في هدوء وصفاء . وعلى المدى اقترب الصياد اللاهث من فريسته التي تبدو مطمئنة حتى بدت لعينيه بوضوح حردبته اللماعة المعشبة كاملة ؛ سارية في عرض البحر كأنها كيان منعزل عما عداه ، وهو باستمرار يوضع في حلقة دوّارة من أرق الزبد الصوفيّ المخضوضر . ومن وراء ذلك رأى التجاعيد المتداخلة المترامية في رأسه البارز بروزاً طفيفاً ، وأمام الرأس بعيداً على الامواج الناعمة كأنها سجاد عجمي انطلق الخيال الابيض اللماع من جمجمته العريضة الناصعة ، في تغضنات موسيقية تصاحب الخيال مرحة لاهية ، ومن خلف تطغى المياه الزرق متداخلة في الوادي المتحرك الذي يشقه مخره المسترسل ، وعلى كلا الجانبين ترتفع نفاخات براقة وتتراقص من حوله . إلا ان هذه النفاخات انماثت مرة أخرى حين مستها أصابع رفيقة ، هي أصابع مئات الطيور المرحة ترفرف في نعومة فوق البحر ، وتعود فتحلق طائرة . وبرزت من ظهر الحوت الابيض قناة طويلة محطومة لحربة غرست فيه حديثاً كأنها سارية راية ترتفع من سفينة تجارية وحيدة الشراع ذات هيكل مدهون. وبين الحين والحين كان سرب من الطيور المحلقة ذوات الاصابع الناعمة، تسف في طيرانها فوق الحوت كأنها ظلة وتحط على هذه القناة وتهتز متأرجحة ، والريش الطويل في ذيولها يتموج كأنه أعلام .

كان يكتنف الحوت المنساب بهجة رقيقة — وداعة من سكينة مستحكمة في خفة ؛ ولا كذلك جوبتر نفسه في صورة ثور أبيض مختطفاً أوروبة عنوة ، سابحاً بها وهي ممسكة بقرنيه الرشيقين ، وقد أنعمت عيناه — المتوددتان الغامزتان — نظراً مواربأ الى الفتاة ، وهو يتلوى عامداً في سرعة رشيقة أخّاذة نحو خميلة العرس في كريت ، ولا جوبتر نفسه ، ولا ذلك المتجلي ذو الجلال العظيم ، كان يفوق الحوت الابيض المجيد الفخيم ، وهو سابح في تأله وبهاء .

---

[1] nautilus

ومع وقع التموجات التي يشقها فاذا تركته أبعدت نائية، كان الحوت ، على جانبيه الناعمين ، على الجانبين اللامعين ، يسكب صنوف الاغراء. فلا عجب اذا وجد بين الصيادين من جذبهم هذا الهدوء وأغراهم الى حدّ بعيد فغامروا بمهاجمته ولكنهم وجدوا بعد ان أصاب منهم مقتلاً ان السكينة انما تخفي وراءها اعصاراً غير انك ايها الحوت تنسرب هادئاً ، هدوءاً خلاباً معنوياً ، لكل من يرمقك اول مرة، مهما يكن عدد الذين غررت بهم على هذا النحو وقضيت عليهم .

وهكذا مضى موبي ديك من خلل الهدأة الهادئة في البحار الاستوائية ، التي توقف بين أمواجها التصفيق بالايدي لشدة الانبهار، وهو قد حجب عن الانظار المفزعاتِ الكاملة التي يمثلها جذعه الغاطس مخفياً اخفاءً تاماً البشاعة المخيفة التي يلتوي بها فكه . وسرعان ما برز الجزء الامامي منه ببطء من خلل الماء ، وعلى مدى لحظة كوّن جسمه الرخامي كله قنطرة عالية كأنها الجسر الطبيعي في فرجينيا ، وهزّ شطيرتي ذنبه في الفضاء منذراً ؛ لقد تجلى الله العظيم ثم غطس واختفى عن الانظار، وتوقفت طيور البحر البيض مدوّمة ، وانحرفت عـــلى أجنحتها ، وتمطت في توق فوق البركة المتموجة التي بارحها .

وعامت القوارب الثلاثة في بطء وقد انتصبت مجاذيفها، وهبطت بدالاتها، وضلّت اشرعتها وهي ترقب عودة موبي ديك الى الظهور .

« ساعة » — كذلك قال آخاب وهو واقف راسخ في مؤخرة قاربه ونظر الى ما وراء موقع الحوت نحو المسافات الزرق المبهمة والفراغ المديد الحافز في اتجاه الريح . ولم تكن الا لحظة ؛ فقد عادت عيناه تدوران في محجريها وهو يدهما ليمسح المجال المائي . وهبّ النسيم برودا واخذ البحر ينتفخ متموجاً .

وصاح طاشطيقو : « الطيور ! الطيور ! »

كانت الطيور البيض كلها تطير نحو قارب آخاب في طابور هندي طويل كأنها رفوف مالك الحزين محلقة، وعندما اصبحت دونه على مسافة بضع ياردات بـــدأت تخفق باجنحتها فوق الماء وتدور وتدور وتدور وهي ترسل صيحات البهجة والرجاء . كان بصرها أحدّ من بصر آخاب . فانه لم يستطع ان يستكشف اية علامة في البحر ولكنه حين حدق وأطال التحديق في الاعماق رأى على غور بعيد بقعة بيضاء حية ليست اكبر من ابن عرس ابيض، ترتفع في سرعة عجيبة وتكبر كلما ارتفعت، حتى تحولت عائمة من القعر الذي لا يستطاع استجلاؤه، وعندئذ وضح فيها صفان طويلان اعوجان من انياب بيض لامعة . كان ذلك هو فم موبي ديك المفتوح وفكه المنشاري . اما جسده الضخم المحجوب فكان ما يزال مختلطاً بعض اختلاط بزرقة البحر ؛ وانفغر الفم المتلألىء تحت القارب كأنه قبر رخامي نزع بابه، فأدار آخاب القارب جانباً بضربة مواربة من مجدافــه ليحيد عن شبحه المرعب ثم نادى فيض الله، ليتبادلا مكانيهما وذهب الى مقدم القارب وأمسك بالرمح الذي صنعه بيرث وأمر بحارته ان يمسكوا بمجاذيفهم وان يقفوا متأهبين كي يتمكنوا من العودة للوراء .

وبسبب من دورة القارب عندئذ حول محوره جعل مقدمه، من قبيـــل المبادرة، مواجهاً رأس الحوت وهو ما يزال تحت الماء، ولكن كأنما لحظ موبي ديك هذه الخطة بذلك الذكاء الماكر الذي يعزى اليه، فاستبدل في مواربـــة بمكانه مكاناً آخر، في لحظة، مطلقاً رأسه المغضن طولياً من تحت القارب .

واهتز القارب من اقصاه الى اقصاه وسرت الهزة لحظة في كل لوح ودعامة، والحوت مضطجع على ظهره في انحراف على نحو ما يضطجع القرش الكدّام وهو يتناول مقدم القارب كله ببطء وتحسس في فمه حتى ان الفك السفلي الطويل الضيق المنشاري تلوى بارزاً في الفضاء وعلق احد الانياب باحد مساند المجداف. وكان داخل الفك المائل الى الزرقة الابيض بياض اللؤلؤ على بعد ست بوصات

من رأس آخاب ثم بلغ الى اعلى من ذلك، وفي هذا الموقف هزّ الحوت الابيض ذلك الرمث الضئيل كما تهز القطة الظالمة في وداعة طريدها الفأر . ونظر فيض الله بعينين لا دهشة فيهما ، وشبك ما بين ذراعيه، غير ان الملاحين الذين في صفرة النمور كانوا ينقلبون فوق رءوس بعضهم البعض وكل منهم يبادر لينال لواذاً في أقصى المؤخرة .

وبينا كانت كلتا الحافتين المرنتين تثبان داخلاً وخارجاً، والحوت يداعب القارب الهالك بهذه الطريقة الشيطانية ، ولا يمكن قذفه بالرماح من المقدّم، لان جسمه غاطس تحت القارب، ولأن المقدم نفسه يكاد يكون داخل فكه ؛ وبينا توقفت القوارب الاخرى عفواً كأنها امام ازمة سريعة يستحيل عليها مواجهتها، عندئذ هاج آخاب لمصاقبة خصمه له مصاقبةً تعذبه بوشك نجاز الامل ، لانها وضعته وهو حيّ أعزل بين الفكين اللذين يمقتهما – هاج واستبد به الحنق، فأمسك الفك الطويل بيديه المجردتين وحاول بضراوة ان يزحزحه عن ذلك الاطباق الضاغط الكزّ ؛ وفيما كان يجهد هذا الجهد الضائع انزلق الفك من بين يديه ، واستسلمت الحافتان الهشتان، وانقلبتا، وفرقعتا عندما انزلق الفكان كأنهما مقصان بعيداً الى الوراء، وشقا القارب نصفين، ثم انطبقا في الماء في مسافة متوسطة بين النصفين العائمين . ولما ان عاما تدلت الاطراف المكسرة، وتعلق الملاحـــون عند النصف الخلفي من القارب بالحافتين، وجاهدوا ليستمسكوا بالمجاذيف حتى يربطوها الى بقية الحطام .

في تلك اللحظة التمهيدية قبل ان يتم انشقاق القارب كان آخاب اول من ادرك قصد الحوت، وذلك لانه رفع رأسه بحركة ماكرة فتراخت عنه قبضة آخاب وقتاً ما ؛ في تلك اللحظة بذل آخاب بيده آخر محاولة ليدفع القارب بعيداً عن مكدم الحوت، ولكن القارب ما عتم ان انزلق هابطاً في فم الحوت وتمايـــل على جانبيه وهو ينزلق فحال بين قبضة آخاب وفك الحوت، فهوى آخاب حين انحنى ليدفعه وسقط منبطحاً على وجهه فوق الماء .

اما موبي ديك الذي انسحب عن فريسته متمعجاً فقد استلقى على مسافة قصيرة وقد طعن برأسه الابيض المستطيل عامودياً في الامواج صعوداً ونزولاً وفي الوقت نفسه أدار ببطء جسمه المتطاول حتى ان جبهته المغضنة الفسيحة عندما برزت – على مدى عشرين قدماً خارج الماء، او تزيد – تكسرت تلقاءها الاثباج المتعالية بكل ما فيها من امواج مترافدة تكسّراً يبهر الابصار وهي تقذف رشاشها الراعش عالياً في الفضاء، حقداً واضطراماً * . كذلك امواج « القنال » التي ترتد على اعقابها مقهورة بعض الشيء اثناء العاصفة تتراجع عن قاعدة « اديستون » لا لشيء الا لتطاول قمتها زهواً في اندفاعها المتوثب .

وسرعان ما استعاد موبي ديك وضعه الافقي فسبح بخفة ولف حول الملاحين المنتثرين ودار، وهو يمخض الماء في نخره الحقود، كأنه يهم ان ينطلق في غارة جديدة اشد من اختها فتكاً . وبدا كأنما يهيج فيه منظر القارب المتشظي جنوناً كما فعل الجريال القاني من دم العنب والتوت حين سكب امام فيلة انطيوخوس، حسبما جاء في كتاب المكابيين . وفي الوقت نفسه كان آخاب يوشك ان يختنق في الزبد الذي اثاره ذنب الحوت الوقح، وأعجزه عجزه عن ان يسبح، وان استطاع ان يبقى عائماً حتى في قلب مثل تلك الدوّامة، وظهر رأس آخاب الذي آده العجز وخانه الحول كأنه نفاخة متقلبة قد تفجرها اصغر صدمة عارضة . ورمقه فيض الله من مؤخرة القارب التي تناثرت شظايا بنظرة وديعة باردة ليس فيها لهفة المتطلع. فأما الملاحون المتشبثون عند الطرف الآخر المتقاذَف فلم يستطيعوا اغاثته، اذ كان حسبهم ان ينظروا في ما دهمهم ، فقد كان منظر الحوت الابيض مهولاً في دورانه، وكانت الدوائر المنداحة التي

* هذه الحركة خاصة بحوت العنبر وتسمى « قـذف الحربة » تشبيهاً لها بتسديد الحربة صعوداً وهبوطاً في التحويت حسبما تقدم الوصف (انظر الفصل : ٨٤) وبهذه الحركة يستطيع الحوت ان يرى ، خير رؤية واشملها ، اي شيء يحيط به .

يحدثها سريعة كأنها دورة كوكب، حتى خيل اليهم انه سينقض عليهم افقياً ؛ وأما القوارب الاخرى فانها، وان لم يمسها أذى، كانت تحوم عن كثب دون ان تجرؤ على التجذيف ودخول تلك الحومة ومباشرة الضرب، لئلا يكون في ذلك امارة على الهلاك الوحيّ للمطروحين بين انياب التهلكة، اعني آخاب وسائر الملاحين، وفي مثل هذه الحال فانهم ايضاً لا يرجون لانفسهم نجاة، ولذا وقفوا يتطلعون بعيون متخازرة عند الحافة الخارجية من ذلك الفلك المريع الذي اصبحت نقطة المركز فيه رأس آخاب .

ومنذ البداية كان هذا كله في اثناء ذلك بمرأى من الرقبـــاء في أعالي الصواري، فأدارت السفينة باحاتهـــا، وعمدت الى ذلك المشهد، ودنت كثيراً حتى ان آخاب ناداها قائلاً : « اجروا نحو ... » وفي تلك اللحظة اندفع نحوه موج فاصل من لدن موبي ديك غمره حيناً، غير انه تخلص منه جاهداً، واتفق ان ارتفع على سنام موجة متعالية فصاح « اجروا نحو الحوت ! — طرّوه شلاً ! »

أشرعت مقادم الباقوطة المحدّدة ، وكسرت الحلقة المسحورة فحالت بين الحوت الابيض وضحيته، وعندما ابتعد ساخطاً متبرماً سارعت القوارب مخفة الى النجدة .

جرّ آخاب الى قارب اسطب وعيناه اللتان تقدحان شرراً عشواءان، والملح الاجاج يتقرص في تجاعيده ، وقد انقطعت في جسمه اوتار القوة لطول النزع والتوتير ، فاستسلم بلا حول لمصير جسده وظلّ بعض الوقت مستلقياً محطماً في قعر قارب اسطب كأنه شخص داسه قطيع من الفيلة بالأقدام . ومن اعماق اعماقه السحيقة انبعثت أنات تُعجز الوصف كأنها اصوات موحشة تنبعث من أخاديد .

ولكن هذه الحدة في استسلامه الجسدي قصّرت من عمر هذا الاستسلام العاني ؛ ذلك ان بعض القلوب الكبيرة احياناً تستجمع – بلمح البصر – جميع الآلام الرقراقة المبثوثة برفق خلال أعمار الناس الضعفاء وتكثفها في صورة غمرة عميقة من الألم ، فاذا شاءت الآلهة فان مثل هذه القلوب تحتقب في عمرها وحده ألم عصر كامل ، ألماً مؤلفاً من تلك المكثفات المفاجئة ، وان كنت ترى فيها خلاصة ألم اذا نظرت اليها في كل فرد متألم على حدة ؛ فهذه الكائنات النبيلة تحتوي في نقاط مراكزها الهندسية كل محيط من محيطات النفوس الضعيفة .

قال آخاب ناهضاً بعض نهوض ، مستنداً في تضجع على ذراع واحدة محنية : « الرمح ! – هل هو سليم ؟ »

فقال اسطب وهو يرفعه امام عينيه : « أجل سيدي ، لانه لم يقذف ؛ ذلك هو السبب » .

– « ضعه امامي – هل فقدنا احداً ؟ »

– « واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة ، كانت لدينا خمسة مجاذيف يا سيدي وها هنا خمسة رجال » .

– « حسن . أعنّي يا رجل ؛ اود ان اقف . كذا، كذا، ذاك هو ! هناك ! هناك ! ما يزال ذاهباً في اتجاه الريح . أية نفاثة وثابة ! حطوا أيديكم عني ! ان النسغ الخالد عاد يجري في عظام آخاب ! انشروا الاشرعة. أحضروا المجاذيف؛ الدفة ! »

اذا انشق قارب ما ، فان بحارته في أغلب الاحيان ، حين يلتقطهم قارب آخر ، يعينون على التجذيف في الثاني وتستمر المطاردة بما يسمونه المجاذيف المزدوجة ، وهذا هو ما حدث حينئذٍ؛ ولكن القوة المزيدة في القارب لم تكن

تساوي القوة المزيدة في الحوت لانه يبدو انه « ثلـث » كل زعنفة من زعانفه ، فقد كان حينئذ يسبح بسرعة تدل بوضوح على ان البحارة ان اندفعوا نحوه في تلك الظروف فان المطاردة ستكون طويلة لا تنتهي الى حدّ، هذا اذا لم تكن نتائجها غير مرجوة . ولا تستطيع اية عصبة من الملاحين ان تطيق مثل هذا التوتر الطويل المستمر دون راحة ، عند المجاذيف ، طول هذه المدة المديدة ، فذلك شيء لا يطاق الا في دورة قصيرة واحدة . ولذا فان السفينة ، كانت كما يحدث احياناً ، هي الوسيلة المرجوة الوحيدة للاضطلاع بعبء المطاردة ، ومن ثمّ عمدت القوارب نحوها ورفعت في التوّ الى معالقها ، وكانت هي قد احتازت نصفي القارب المحطوم من قبل ، فرفع كل شيء الى جانبها ، وكوّمت جميع ما فيها من أشرعة في الاعالي ، ومـدت من جوانبها الاشرعة الجانبية الخفيفة كأنها جناحا البطروس المزودان بمفصلين ، واشتدت تجري في مخر موبي ديك الذاهب في اتجاه الريح .

وكان الرقباء في أعالي الصواري يهتفون بانتظام بأنهم رأوا نفاثة الحوت المتلألئة في فترات معروفة رتيبة فاذا قيل لآخاب انه قمس تواً ، عين الوقت ، ثم اخذ يذرع ظهر السفينة ، وساعة صندوق الابرة في يده ، فاذا انقضت آخر ثانية من الساعة المقدّرة سمع صوته يقول : « لمن القطعة الذهبية الآن ؟ هـل ترونه؟» فاذا كان الجواب : «لا يا سيدي» أمرهم على التو ان يرفعوه الى مرقبه. على هذه الحال تصرم النهار : حيناً يكون آخاب في الاعالي جاثماً دون حراك ، وآونة يذرع الالواح قلقاً .

وحين كان يتمشى كذلك دون ان يحدث صوتاً الا ان يهتف بالرجال في الاعالي او يأمرهم ان يرفعوا شراعاً الى ارتفاع اكبر ، او ينشروه على عرض أوسع – حين كان كذلك يتمشى جيئة وذهوباً كان عند كل دورة يدورها وهو معتمر قبعته المتكفئة يمرّ بقاربه المحطم الذي كان قد أنزل على الربعة خلف

الدقل الاعظم ، ووضع هناك مقلوباً ، مقدمه مكسور وكوثله محطوم . واخيراً توقف امامه ، وانسلّ فوق وجهه الشائخ مزيد من كآبة ، مثلما ان السماء الملبدة بالغيوم يزحف على وجهها مزيد من أسراب جـــديدة من السحب في بعض الاحايين .

ورآه اسطب متوقفاً ولعله اراد دون ان يخامره الغرور ان يبدي عزيمته التي لم تهن ويبقي لنفسه في ذهن قبطانه مكانة الباسل الشجاع ، فتقدم منه ورمق القارب المحطوم وهتف : « الحمار رفض الشوكة . لقد وخزت فمه بجدة يا سيدي، ها ! ها ! »

— « اي شيء تعوزه الروح هذا الذي يضحك وهو قبالة شيء محطوم ؟ يا رجل ، يا رجل ! لو لم أكن أعلم انك شجاع كالنار التي لا تعرف الخوف (ومثلها حركة آلية) لأقسمت انك جبان رعديد . يجب ألا تصدر أنـــة او ضحكة امام شيء محطوم » .

فقال استاربك وهو يدنو منه : « أجل سيدي ، هذا منظر جليل ؛ انه فأل ، وانه فأل سيىء » .

— « فأل ؟ فأل ؟ — لفظة في المعجم ! اذا كانت الآلهة ترى ان تحــــدّث الانسان دون التواء فانها تحدثه بشرف ونزاهة صراحة دون التواء، ولكنها لا تهز رءوسها وتغمغم بتلميحات مبهمة كالتي ترسلها العجائز . انصرفا ! انتما قطبان متضادّان في شيء واحد . ليس استاربك إلا اسطب معكوساً، وليس اسطب إلا استاربك معكوساً . وانتما تمثلان جميع البشر . وآخاب يقف وحده بين ملايين الارض المأهولة، وليس له جيران من بشر او آلهة ! برد . برد . أرتجف ! كيف ذلك ؟ انتم في الاعالي هل ترونه ؟ اهتفوا كلما رأيتم نفثة حتى لو نفث عشر مرات في الدقيقة ! »

كاد اليوم ينقضي ، ولا شيء يصدر حفيفاً سوى حواشي ثوبه الذهبي . وسرعان ما خيم الظلام او كاد، ولكن المراقبين بقوا في امكنتهم لا يؤذن لهم .

فصاح صوت من الفضاء : « لا نستطيع نرى النفاثة الآن، سيدي، الظلام حالك » .

— « كيف كانت وجهته عندما رأيتموه آخر مرة ؟ »

— « كما كان من قبل، سيدي، عامداً نحو مهب الريح » .

— « طيب ! ما دام الليل قد حلّ فانه سيتباطأ في رحلته . أنزلوا الاشرعة الملكية والعلوية النبيلة من الاشرعة الجانبية الخفيفة يا سيد استاربك ؛ علينا ألا نسبقه قبل الصباح ، انه يقوم برحلة الآن ولعله ان يتوقف مدة . الدفـــة هناك ! اجعلها منصوبـــة تماماً امام الريح ! انتم في الاعالي ! انزلوا ! يا سيد اسطب ، ابعث بديلاً الى قمة الصاري الامامي ولاحظ ان يظلّ مزوداً بمراقب حتى الصباح » . ثم تقدم نحو الدبلون المغروس في الصاري الرئيس وقال : « هذه القطعة الذهبية لي، لاني كسبتها، ولكني سأبقيها هنا حتى يموت الحوت الابيض، وأي امرىء منكم ينبىء به أولاً في اليوم الذي يقتل فيه فستكون هذه القطعة من نصيبه، واذا كنت انا الذي أنبىء به في ذلك اليوم فان عشرة امثالها ستقسم فيما بينكم . انصرفو ! انت القيم على ظهر السفينة يا سيدي » .

ومـــا ان قال ذلك حتى وضع نفسه في موقع وسط داخل الناروزة وكفأ قبعته، ووقف هنالك حتى الفجر إلا ان ينهض بقامته احياناً ليرى كم انقضى من الليل .

١٣٤ المطاردة – اليوم الثاني

عند بزوغ الصبح زودت رءوس الصواري بحراس جدد في موعدهم وصرخ آخاب بعد ان انتظر قليلاً حتى ينتشر الضوء : « هل ترونه ؟ »

– « لا نرى شيئاً يا سيدي » .

– « تضافروا جميعاً في نشر القلوع ! انه ليسير بأسرع مما قدرت . انشروا الاشرعة العلوية النبيلة . اجل كان الحق ان أبقيها منشورة طول الليل . لا بأس، انها الراحة قبل الاندفاع » .

لأقرر في هذا المقام ان هذه المطاردة المصابرة وراء حوت واحد ، والليل فيها يفضي الى النهار والنهار الى الليل دون توقف ، انما هي شيء لا تعزّ نظائره في حرفة التحويت بالبحار الجنوبية ، ذلك ان بعض العباقرة العظماء بفطرتهم بين القباطنة النانتوكتيين قد أحرزوا من المهارة العجيبة ومن لقانة التجربة ومن الثقة الصامدة المرابطة ما جعلهم – اذا لحظوا الحوت محض لحظ في آخر مرة انكشف لأعينهم فيها – يتنبأون ، على نحو دقيق في ظروف معينة ، بالاتجاه الذي سيظل ينحوه في سباحته فترة ما ، وهو غائب عن الابصار ، وبمقدار السرعة المحتملة في تقدمه أثناء ذلك . وفي هذه الاحوال يفعل الحوات بالنسبة للحوت ، وهو يرقب بوصلته ، ما يفعله الربّان حين يوشك ان يختفي عن نظره ساحل يعرف سِيفه حق المعرفة وهو يرغب في ان يعود اليه مرة اخرى ، لا في الموقع الاول بل في موقع آخر أبعد منه ، فهذا الربان يقف عند بوصلته ويقدر

بدقة اتجاه الرأس البادي لعينيه حينئذ لكي يستيقن انه ان عاد لزيارة الرأس المحجوب عن عينيه فانه سيتخذ اليه مسلكاً مسدّداً لا ينحرف به يمنة او يسرة. كذلك هو شأن الحوّات ، بعد ان يطارد الحوت ويميزه بعلامة فارقة خلال ساعات عديدة في ضوء النهار، ثم يحلّ عليه الليل فينحجب الحوت وراء ظلمته، هذا الحوات يكاد يرتسم في عقله الراجح سياق مخر الحوت بدقة تحت الظلام ، كما يرتسم السّيف في ذهن الربان . ويستوي في مهارة هذا الحوات — وهي مهارة مدهشة — النقش على الماء — أعني سياق المخر — والنقش في الحجر ، فهما لديه سيان من حيث الكفاية والغناء ، في كل ما يراد منهما ، وان ضرب المثل بقلة غناء النقش على الماء . ألست ترى الرجال يعرفون « الحوت » الحديدي الجبار الحديث بكل خطــوة من خطواته ويقدرون ، وساعاتهم في أيديهم ، نسبة سرعته كما يقدر الاطباء نبض الطفل ويقولون في يسر : القطار الغادي او القطار الرائح سيصل المكان الفلاني في الساعة الفلانية ؟ يكاد ذلك ان يكون هو عين ما يحدث لدى الصيادين من ابناء نانتوكت فانهم في بعض الاحوال يوقّتون لحوت البحار حسب ما لحظوه من نسبة في سرعته ويقولون لانفسهم : بعد كذا وكذا ساعة يقطع هذا الحوت مائتي ميل ، ويبلغ هذه او تلك الدرجة العرضية او الطولية . ولكن ان كان لهذه الحذاقة ان لا تفيل في النهاية فلا بد ان يظــل البحر والريح حليفين للحوّات . اذ ماذا تغني الحذاقة عن ملاح سكن بحرُه او واجهته الريح حين تؤكد له أنه على بعد ثلاثة وتسعين فرسخاً وربع الفرسخ من الميناء ؟ وبعد فالحوّات يستطيع ان يستخلص من هذه الحقائق أموراً دقيقة أخرى تناظرها فيما يتصل بصيد الحيتان ومطاردتها .

ومضت السفينة تشق الماء ، مخلفة في البحر ثلماً ، كأنها قنبلة مدفع طاشت فاتخذت سكة محراث فهي تشق الحقل المستوي أثلاماً .

وصاح اسطب : وحق الملح والقنب ! ان هذه الخفة في حركة ظهر السفينة

لتنسلّ في رجل المرء وتطنّ في القلب . أنا وهذه السفينة رفيقان باسلان — ها ! ها ! ليت أحداً يرفعني ويلقيني في الماء على ظهري ، أحلف بالبلوط الرطب ان ظهري أرينة . ها ! ها ! اننا نسير في طريق لا يثور فيها غبار ! »

— « هناك ينفث ! ينفث ! ينفث ! أمامنا تماماً ! » — تلك هي الصيحة التي أرسلها الحراس من رءوس الصواري .

فصاح اسطب : « أجل ، أجل ! عرفت ذلك — لن تنجو — انفث وفجر نفاثتك ايها الحوت ! الشيطان نفسه في أثرك . انفخ في بوقك حتى تتقرح رئتاك ! آخاب سيهريق دمك مثلما الطحان يغلق منفذ الماء الشارع على الجدول ! »

وكان اسطب يتحدث بهذا والملاحون جميعاً عن كثب ؛ وكان الحنق الذي أثارته المطاردة قد جاش بهم عندئذٍ جيشانَ الحبب ، كالخمر المعتقة تبدأ صنعها من جديد ، فما كان قد أحسّ به بعضهم قبل من مخاوف وهواجس شاحبة لم تبقَ خفية عن الانظار فحسب بسبب تزايد آخاب هيبة ، وانما انماثت تلك المخاوف والهواجس كالارانب المذعورة على السهوب وهي تذهب بدداً امام البيسون الجمّاز ، فقد اختطفت يد القدر أرواحهم جميعاً وبالمخاطر المثيرة في اليوم السابق وعذاب الترقب في الليلة الفائتة والطريقة العامدة العمياء السادرة المستأسدة التي ذهبت بها سفينتهم الوحشية غائصة تمرّ مرّ السحاب، بهذه الامور جميعاً تدحرجت قلوبهم قدماً . اما الريح التي كانت تنفخ من أشرعتهم كروشاً ضخمة ، وتدفع السفينة بسواعد خفيّة لا تقاوم ، فقد بدت وكأنها رمز لذلك الفعّال الخفي الذي اتخذهم عبيداً في هذا المضمار .

كانوا رجلاً واحداً لا ثلاثين ، كل تميز فردي في كل امرىء منهم : شجاعة

هذا وخوف ذاك ، اثم هذا وبراءة الآخر [1] ، جميع هذه الانواع امتزجت في وحدة واحدة ، ووجهت كلها نحو الهدف المهلك الذي كان يسعى اليه سيدهم وسندهم آخاب . كانوا في ذلك شأنهم شأن سفينتهم فقد صنعت من اشياء متنافرة : دخل في تركيبها الخشب من سندبان وغـُرب وصنوبر ، والحديد والقار والقنب ، وكل هذه تضافرت وتداخلت لتكون هيكلاً واحداً ملموساً ، ينطلق في طريقه متزناً مستنداً على أرينة متوسطة طويلة توجهه أنى شاءت .

عمروا الاشرعة والحبال فدبت فيها الحياة ؛ وأضحت رءوس الصواري كقمم النخلات العمّ الطوال تصنع لها جمّة من سواعد وأرجل ، وكان بعضهم يتعلق بالسارية بيد واحدة فيصل السارية الاخرى ، وهو يتأرجح متناوحاً ، وآخرون جلسوا على أقصى الباحات المتأرجحة وهم يظللون أعينهم من وهج الشمس ؛ كانت جميع الدعائم والسواري قد أثمرت بشراً ، وقد نضج ثمرها ، وحان ان تؤتي للقدر أكلها . يا لله ! كيف مضوا يجاهدون خلال تلك الزرقة اللانهائية سعياً وراء ما قد يرديهم في هوة الابد .

وصرخ آخاب بعد ان مضى على الهتاف الاول بضع دقائق ولم يسمع هتافاً آخر : « لمَ لا تهتفون ان كنتم ترونه ؟ ارفعوني يا رجال ، لقد خدعتكم أبصاركم، ليس موبي ديك بالذي يبعث نفثة مستهجنة واحدة ثم يختفي » .

وقد صدق؛ فان الرجال في لهفتهم الحافزة قد رأوا شيئاً ظنوه نفاثة الحوت، وسرعان ما أيدت الأحداث ذلك ، اذ ما كاد آخاب يبلغ مجثمه ، ومـا كاد الحبل يربط بالوتد المخصص له على ظهر السفينة ، حتى حرك مفتاح النغم لجوقة

---

[1] في الاصل : guilt and guiltiness والكلمة الثانية يجب ان تكون guiltlessness اي براءة .

موسيقية جعلت الهواء يتذبذب كأنه تحت وقع طلقات بنادق مجتمعة ؛ وسمعت هتفة ظافرة ، كأن ثلاثين بوقاً من جلد الغزال تنبعث معاً حين لاح موبي ديك — أقرب الى السفينة من النفاثة الكاذبة اي أقل من ميل الى الامام — ؛ ذلك ان الحوت الابيض لم يعلن حينئذٍ عن مكاثبته بالنفثات الهادئة المتراخية، لم يعلن عنها بذلك الدفق المطمئن من تلك النافورة الخفية في رأسه، وانما بتلك الظاهرة المدهشة التي يسمونها الوثب العلوي" ، اذ يرتفع حوت العنبر بأقصى سرعته من أبعد الاعماق ويمط جسمه كله في الهواء الخالص ، مكدساً جبلاً من الزبد الباهر ويكشف عن موضعه على بعد سبعة أميال او اكثر ، وتشبه ان تكون الامواج الممزقة المحنقة التي يرجّها في تلـــك اللحظات عرفاً له ، ويكون هذا الوثب العلوي في بعض الحالات تحدياً .

وارتفعت الصيحة : « هناك يثب وثبته العلوية ! هناك يثب وثبته العلوية ! » وذلك حين قذف الحوت الابيض نفسه في الفضاء كأنه سمكة سلمون، مزهواً متحدثاً بنعمة شجاعة متطرفة . أما الرشاش الذي أثاره، فقد شوهد فجأة في وضح الزرقة على بسيط الماء ثم وهو يرتفع ازاء زرقة أشد في حاشية السماء، فتلألأ وتوهج لحظة يزوغ عنه فيها البصر كأنه جبل من جليد، وتلبث هنالك وحدّة وهجه الاول تتضاءل وتأفل تدريجياً، حتى تحوّل الى ضبابية غائمة كأنه سحابة توشك ان ترسل قطراتها في الوادي .

فصاح آخاب : « أجل . ثب وثبتك الاخيرة نحو الشمس يا موبي ديك ! دنت ساعتك ودنا من يدي الرمح الذي سيرديك ! انزلوا ! انزلوا جميعـــاً الا واحداً في المقدمة . القوارب ! تأهبوا !»

أغفل البحارة استخدام سلالم الحبال الملـّة عند القلوع وانزلقوا هابطين على ظهر السفينة كأنهم رجوم الشهب ، عن طريق الدعائم الخلفية المتفرقة وحبال الاعلام، بينا انزل آخاب من مرقبه في انطلاق أقل وسرعة اكثر .

ولما ان بلغ قاربه - وهو قارب احتياطي أعد بعد ظهر اليوم الفائت - صاح : « انزلوا القوارب . السفينة في عهدتك يا سيد استاربك، ابق متحاشياً للقوارب ولكن قريباً منها . انزلوا قواربكم جميعاً ! »

وكأنما اراد موبي ديك ان يلقي رعباً وحيّاً في قلوب العصب الثلاث من الملاحين، اذ كان هذه المرة هو البادىء بالهجوم فقد استدار وتقدم نحوهم . وكان قارب آخاب متوسطاً، فأخذ يشجع رجاله ويخبرهم انه سيعمد الى اخذ الحوت «روّلسي»، أي انه سيجذف عامداً نحو جبهته - وهو شيء غير شاذ في التحويت؛ فمثل هذا المسلك على بعد معين يمنع الحوت من ان يرى الهجمة القادمة لان رؤيته جانبية لا رأسية . ولكن قبل ان تبلغ القوارب الثلاثة ذلك الحد، وفيما هي واضحة لعيني الحوت كأنها الصواري الثلاثة في السفينة، تمعج موبي ديك وتلوّى في سرعة هائجة وفي لمح البصر اندفع منطلقاً بين القوارب الثلاثة وفكّاه فاغران وذنبه يتقلب كالسوط وهو يطلب النزال على كل جانب في معركة مفزعة غير عابىء بالحراب التي تُقذف نحوه من كل قارب، وكأنما هو قد صمم على ان يفني كل لوح من الواح تلك القوارب ، ولكن القوارب داورته بمهارة وظلت تدور دون توقف كأنها مهاجمون مدربون في ميدان، وتروغ من طريقه وان كان روغانها لا ينأى بها عنه اكثر من عرض لوح خشبي، اما نداءات آخاب الوحشية طوال ذلك الوقت فقد كانت تمزق كل صيحة اخرى سوى صيحة الحوت نفسه وتلقيها بدداً .

ودار الحوت دورات لم تخلف أثراً فاجتاز الحبال الثلاثة العالقة به وأعاد اجتيازها، وعقّد اجزاءها المرخاة في ألف طريقة حتى قصّر مداها، فقربت هي القوارب المتحمسة من الشفار المغروسة فيه، وان كان الحوت قد انتحى جانباً لمدى لحظة كأنه يستجمع لانقضاض مريع . وانتهز آخاب هذه الفرصة فأرخى مزيداً من الحبل ثم أخذ يجره وينخعه - أملا منه ان يفك بعض

تعقيداته – ولكن مهم ! لقد تمّ منظر أشد وحشية من انياب القرش المتراصة !

ذلك ان الرماح والحراب التي انحلّت ، بكلاباتها الشائكة وشفراتها المشحوذة ، علقت بالحبل والتوت فيه وتداخلت بين تشابكاته التي جعلتها كالبريمة ، ومضت لامعة تقطر ماء عند خطافات المقدمة في قارب آخاب . وما كان في مقدرته ان يعمل إلا شيئاً واحداً، فأمسك بسكين القارب ووصل بشيء من عسر دون تلك الادوات الفولاذية ثم من ورائها، وقبض على الحبل هنالك وجرّه وأمرّه في القارب الى الرجل القائم عند المقدمة، ثم قطع الحبل في موضعين عند الخطافات، وأسقط تلك الحزمة الفولاذية في البحر وربط الحبل مرة اخرى . في تلك اللحظة قام الحوت الابيض بهجمة مفاجئة بين التشابكات الباقية في الحبال الاخرى، وبهذا العمل جرّ قاربي فلاسك واسطب المتورطين دون ان يستطيعا المقاومة نحو شطيرتي ذنبه، وضرب احدهما بالآخر كأنهما ثفالتا قمح متدحرجتان فوق أواذيّ شاطىء صخريّ، ثم قمس في الماء واختفى في دردور جياش الغليان ظلت فيه شظايا الشربين الشذي من القاربين المحطومين تتراقص وتدور – على مدى – كأنها شذرات من جوزة الطيب في كأس من شراب البنش يحرك بخفة .

وكان أفراد عصبتي الملاحين ما يزالون يدورون في الماء سعياً وراء براميل الحبال المتقلبة والمجاذيف وغيرها من أدوات العوم، وفلاسك الصغير الجسم في انحدار يهتز صاعداً هابطاً كأنه قارورة فارغة، مقرفصاً رجليه الى اعلى لينجو من فكوك القرش المخوفة ، واسطب يغني بحرقة لعلّ أحداً ينتشله ، وحبل القبطان الشيخ ، وقد انفصل، يمكنه من التجذيف في البركة المزبدة لينقذ من يقدر على انقاذه ؛ في ذلك الجو الضاري الذي تحتشد فيه معاً آلاف المخاطر لتتجسد ملموسة، بدا وكأن القارب الذي ما يزال سليماً، قارب آخر، تجره نحو السماء أسلاك خفية، ومن البحر عامودياً انقض الحوت الابيض منطلقاً انطلاقة

السهم، فصدم بجبهته الواسعة قاعدة القارب وأرسله متدحرجاً متقلباً في الفضاء حتى سقط ثانية وحافته منكسة، وآخاب ورجاله يناضلون للخروج من تحته كأنهم حيوانات الصيل يحاولون الخروج من كهف في شاطىء بحر.

وكان أول زخم دافع للحوت قد ألقاه فوق السطح لاارادياً فعدّل من وجهته حين لامس السطح، على مسافة يسيرة من مركز الخراب الذي أحدثه، واضطجع وهو مستدبر له لحظة يتحسس في بطء ويتقرّى بذنبه من جانب الى آخر، وكلما لامس جلده مجذاف ضالٌ او قطعة من خشب أو أقل شظية او شذرة، انحاش ذنبه متراجعاً وأخذ يلطم به البحر على الجانبين. وكأنما أرضاه انه أدى عمله وانتهى منه في تلك النوبة فدفع على التو خطمه المغضن خلال المحيط، وخلفه تنسحب الحبال المعقدة، واستمر في طريقه وجهة الريح وكأنه رحالة يمشي بخطى منتظمة رتيبة.

ومرة اخرى جاءت السفينة وقد رقبت المعركة كلها — كما فعلت من قبل — مخفة للانقاذ، وأنزلت قارباً التقط الملاحين العائمين والبراميل والمجاذيف وكل ما أمكن بلوغه والتقاطه وأمنتهم على ظهرها سالمين، اعني سلامة من الموت، والا فقد كان فيهم اكتاف وأرساغ وأعقاب كلها مرضوضة، وكدمات مزرقة وكانت هناك رماح وحراب معوجة، وحبال معقدة لا يمكن حلها، ومجاذيف وألواح محطمة، جميع هذه كانت هنالك، ولكن يبدو انه لم يصب أحد منهم بسوء مميت او خطير. وقد وجد آخاب متشبثاً في عناد بنصف قاربه المكسور، كما فعل فيض الله في اليوم السابق، وكان ذلك يهيىء له عوامة مريحة نسبياً، بل انه لم يصب بالانهاك كما حدث في كارثة اليوم المنصرم.

غير انه حين أعين على الصعود الى ظهر السفينة تركزت فيه جميع العيون، وبدلاً من ان ينتحي جانباً ظلّ شبه معلق على كتف استاربك وكان حتى

عهدئذ في طليعة من يقدمون له المساعدة . أما رجله العاجية فقد انقصفت ولم يبق منها إلا شظية محددة قصيرة .

— « أجل، أجل يا استاربك، جميل ان يتكىء المرء احياناً اياً كان هو الذي يتكىء، وليت آخاب الشيخ تذوق الاتكاء اكثر مما فعل » .

فقال النجار وكان قادماً حينئذ : « طوق الحديد لم يتحمل شدة يا سيدي، لقد أخلصت العمل في هذه الرجل » .

وقال اسطب في اهتمام صادق: «أرجو ألا يكون العظم قد أصيب يا سيدي».

— « أجل ! تراها وقد انقصفت شظايا يا اسطب ! تراها ؟ ولكن آخاب الشيخ لم يصب بشيء ولم تنكسر له عظمة واحدة وليس فيّ ذرة من عظم تشبهني مثل هذه العظمة الميتة التي فقدتها . لا أحد، حوتاً ابيض او انساناً او شيطاناً، يستطيع ان يكشط شيئاً من كيان آخاب الصحيح الذي تتقاصر دونه الايدي . أيستطيع الرصاص ان يلمس ذلك القاع، أتستطيع سارية ان تخدش ذلك الجلد ؟ انتم في الاعالي ! ما وجهته ؟»

— « عامد وجهة الريح يا سيدي » .

— « عدل الدفة اذن ، احشدوا الاشرعة مرة اخرى، يا قوّام السفينة ؛ انزلوا ما تبقى من القوارب الاحتياطية وجهزوها . اذهب يا سيد استاربك واجمع ملاحي القوارب » .

— « دعني أساعدك اولاً على بلوغ الحافة يا سيدي » .

— « آه ، آه ، آه ! ما أشد ما تؤلمني هذه الشظية ! يا للقدر الملعون ! كيف يكون للقبطان الذي لا تنهزم روحه رفيق جبان ! »

– « ما يقول سيدي ؟ »

– « لا أعنيك انت يا رجل ، انما أعني جسدي . أعطني شيئاً أتوكأ عليه ، تلك الحربة المترجرجة تصلح . اجمع الرجال . يقيناً لم أره بعد ، وحق السماء هذا مستحيل ! ضاع ؟ أسرع ! ادعهم إليّ جميعاً » .

كانت الخاطرة التي ألمت بالشيخ صحيحة فعندما اجتمع الرجال لم يكن البارسي بينهم .

وصاح اسطب : « البارسي ! لا بد انه علق في —— »

– « ذرعكم القيء الاسود ! اركضوا جميعاً الى فوق، الى أسفل، في القمرة، في المنارة، اعثروا عليه – لم يذهب – كلا لم يذهب ! »

ولكنهم رجعوا في سرعة ليخبروه ان البارسي لا أثر له أبداً .

فقال اسطب . « أجل يا سيدي علق في تشابكات حبلك – أظنني رأيته مسحوباً الى أسفل » .

– « حبلي ! حبلي أنا ؟ ذهب ؟ اذن ذهب ؟ ماذا تعني هذه الكلمة الهيّنة ؟ اي جرس جنازة يدق فيها حتى ان آخاب الشيخ ليرتعش كأنه برج الجرس ! والرمح ايضاً ! يتقلب فوق التابوت هنالك ، هل ترونه ؟ السنان الذي أعددته يا رجال ، لقتل الحوت الابيض – لا ، لا ، لا ، يا لك من أحمق متقرّح ! هذه اليد قذفته ! انه في الحوت ! انتم في الاعالي ! اغرسوا أعينكم فيه ، – اسرعوا !. ليذهب الجميع لاعداد القوارب – اجمعوا المجاذيف – يا زراقين ! الشفار ! الشفار ! – ارفعوا الاشرعة الملكية أعلى فأعلى – شدّوا القلوع ! الدفة ! ثبات ! ثبات من اجل حياتكم ! سأطوق الكرة الارضية المستفيضة بالدوران عشر مرات ، أغوص عامداً خللها ، إلا اني مصمم على قتله ! »

فصاح استاربك : « يا لله ! لحظة واحدة كفَّ عن القول بأنك ستقتله ؛ لن تقتله ايها الشيخ ، باسم المسيح حسبك ، فهذا شر من جنون الشيطان . طاردناه يومين ، وانشقت قواربنا مرتين الى شظايا ، حتى رجلك اختطفت من تحتك مرة اخرى — لقد بارحك شبحك الشرير — كل الملائكة الابرار يتألبون لتنبيهك بالنذر فأي مزيد تريد ؟ أنظل نطارد هذا الحوت القتّال حتى يغرق آخر شخص فينا ؟ أيسحبنا الى قعر البحر ؟ أيجرنا معه الى دركات العالم الأدنى؟ آه آه ، ان المضيّ في مطاردته جحود وكفر ! »

— « استاربك ! منذ عهد قريب أحسست بمشاعري تقترب منك على نحو غريب ، منذ تلك اللحظة التي رأينا فيها أحدنا — وانت تعرف ما رأينا — في عيني الآخر . ولكن ليكن وجهك لي في امر هذا الحوت كراحة هذه اليد ، سطحاً لا شفة فيه ولا قسمات ، ان آخاب سيظل هو آخاب الى الابد يا رجل ؛ هذا العمل كله مقدور على نحو لا يتبدل . فقد حفظناه وتلوناه أنا وأنت قبل ان تتقلب أمواج هذا المحيط ببلايين السنين . أحمق ! انا ساعد الاقدار ؛ انا أئتمر بأمرها ؛ اسمع ايها التابع المرءوس ها انت تطيع أوامري . — تحلقوا حولي يا رجال، انتم ترون شيخاً قد قطع جذعه ولم يبقَ الا جذمه يتكىء على قناة حربة لينة تهتز ، ويستند على قدم واحدة . ذلك هو آخاب ، ذلك هو الجزء الجسدي منه ، اما روح آخاب فانها ذات مئة قدم تمشي على مئة رجل . انا أحس بالتوتر وبأني جانح ضال كالحبال التي تربط فرقاطة حطمت صواريها في العاصف ، وقد أبدو لكم كذلك ، ولكني قبل ان انقطع فانكم ستسمعون فرقعة . واعلموا ، حتى تسمعوها ، ان موصار آخاب ما يزال موثقاً الى هدفه . أتصدقون ايها الرجال ما يسمونه الفأل والطيرة ؟ اذن فجلجلوا بالضحك وصيحوا ثانية ! الاشياء التي تهم بالغرق ترتفع مرتين الى السطح قبل ان تغرق ، لكي تغوص الى الابد . كذلك هو شأن موبي ديك — عام يومين ، وغداً يومه الثالث . أجل يا

رجال سيبرز مرة أخرى — لا لشيء الا ليلفظ آخر نفثة . هل تحسون أيها الرجال الشجعان انكم شجعان ؟ »

فصاح اسطنب.: « كالنار جرأة » .

وتمتم آخاب : « ومثلها آليــــة » . ثم مضى يتمتم والرجال يذهبون الى الامام : « الاشياء التي تسمى فألاً وطيرة ! وأمس قلت الشيء نفسه لستاربك حول قاربي المكسور آه ! كم أسعى بجرأة لأسكب في قلوب الآخرين مــــا يتشبث متعلقاً بقلبي ! البارسي — البارسي ! ذهب ، ذهب ؟ وكان لا بد ان يذهب قبلي ، ولكن لا بد ان أراه مرة أخرى قبل ان أموت — كيف ذلك ؟ ها هنا لغز قد يرد جميع الحقوقيين ومن ورائهم أشباح جميع القضاة خاسئين حائرين . وهو ينقر ذهني كأنه منقار الصقر ، لكني انا انا الذي يحله ولا بد » .

وحين حلّ الغسق كان الحوت مــــا يزال يتجه نحو المهبّ . ومرة أخرى خففت سرعة الاقلاع ومرّ كل شيء كما مرّ في الليلة الفائتة الا ان صوت المطارق وطنين المسنّ كان يسمع حتى يكاد ينبلج الصباح اذ كان الرجال يكدون على ضوء القناديل في اعداد القوارب الاحتياطية اعداداً كاملاً دقيقاً ويشحذون أسلحتهم من أجل الغد . وفي الوقت صنع النجار لآخاب من الارينة المنكسرة في قاربه المحطوم رجلاً أخرى . اما آخاب نفسه ذو القبعة المنكفئة فوقف ، كما وقف في الليلة الماضية ، ثابتاً داخـــل نطاق الناروزة ، وعينه المختبئة المترقبة — كأنها عبّاد الشمس — قد ركزت خلفاً على المزولة في توقع وانتظار ، وجلس قبالة المشرق يتطلع متى يبزغ اول خيط من الضياء .

١٣٥

المطاردة – اليوم الثالث

تبلج صباح اليوم الثالث جميلاً ناعشاً ومرة اخرى انتهت نوبة الحارس الليلي الوحيد القائم عند قمة الصاري الامامي، وحلّ محله جموع من رقباء النهار تعلقوا بكل صارٍ وتشبثوا بكل دعامة .

وصاح آخاب : « هل ترونه ؟ » ولكن الحوت لم يكن قد لاح بعد .

– « لا يحيد عن مساق نخره ، اتبعوا ذلك النخر، ذلك كل ما هنالك؛ الدفة هناك ! تثبت وأنت ذاهب مثلما كنت تفعل حتى الآن . ما أجمل هذا اليوم ! لن يشرق على العالم يوم اجمل منه حتى ولو خلق هذا العالم من جديد وأعد بيتاً يأوى اليه الملائكة في الصيف، وجعل هذا الصباح اول يوم يستقبلهم فيه . ها هنا غذاء للفكر لو كان لدى آخاب ندحة للتفكير، إلا ان آخاب لا يفكر ابداً انه ، يشعر ، يشعر، يشعر وحسب ؛ وهذا حسبُ الآدميّ الذي قدر عليه الموت ! أما التفكير فانه قحة . وليس هذا إلا حقاً وميزة لله وحده، فالتفكير برود او هدوء او يجب ان يكون كذلك ، وقلوبنا المسكينة تخفق، وأدمغتنا المسكينة تجاوبها بقوة في ضرباتها . ومع ذلك فقد خيل إليّ احياناً ان عقلي هادىء – هادىء متجمد – وهذه الجمجمة المسنّة تقعقع كأنها زجاجة تحولت محتوياتها الى ثلج وانت تهزها . وهذا الشعر نامٍ، وما يزال ينمو في هذه اللحظة، ونموه يتطلب حرارة، ولكن لا، انه كذلك النوع المعروف من العشب الذي قد ينمو في اي مكان، بين وهدات الجليد في جرينلاند او في حمم فيزوف . كيف تحركه الريح ! انها لتسوطني به كقطع ممزقة من شراع مشقوق تسوط السفينة

المتقلبة وهي بها متشبثة . ريح غادرة هبت ولا ريب قبل اليوم خلال دهاليز السجون وزنزاناتها وأقبية المستشفيات، وجددت تهويتها وها هي تهب الينا بريئة كأنها جزز الصوف ؛ اطردوها ! انها ملوثة . لو كنت ريحاً لما مضيت أهب على مثل هذا العالم التاعس الشرير، اذن لزحفت الى كهف وتسللت داخلاً فيه؛ ومع هذا فهذه الريح شيء سامٍ بطولي ! من ذا استطاع ان يغلبها ؟ في كل معركة تقوم بالضربة الفيصل المريرة ؛ اهجم عليها طعناً تجد نفسك بين ثناياها . ها ! رعديدة هي الريح التي تضرب الآدميين العراة عرياً تاماً ثم لا تقف لتتلقى ضربة واحدة، حتى آخاب أقوى مراساً منها، واسمى من مثل سلوكها . ليت الريح كانت ذات جسم، ولكن كل الاشياء التي تكاد تزهق الآدمي وتثير سخطه انما هي اشياء لا اجسام لهـــا ؛ لا اجسام لها اذا اعتبرتها موضوعاً لا حين تعتبرها فعّالة . ثمة فرق بين الحالين، فرق بالغ المكر، بالغ الخبث ! ومع ذلك فاني اقول ثانية وأقسم على ما أقول ان في الريح شيئاً كله عظمة وكله جلال . هذه الرياح التجارية الحارة، على الاقل، التي تهب في اثناء صفاء الجو على استقامة في وداعة قوية صامدة نشيطة، لا تتحول عن مجراها مهما تتحول تيارات البحر الدنيا وتتبدل، ومهما تتعرج الانهار الجبارة الكبرى على اليابسة وتسرع غير مستيقنة الى اين تتجه في النهاية . وحق القطبين الخالدين ! ان هذه الرياح التجارية نفسها التي تسوق سفينتي ، هذه الرياح او ما يشبهها، شيء لا يحول، مثلها اكتمالاً وقوة هو الذي يسوق سفينة روحي في وجهتها ! اليه ! انتم في الاعالي ! ماذا ترون؟»

– « لا شيء، يا سيدي » .

– « لا شيء ، والظهر قريب ! القطعـة الذهبية ستجد رجلاً يستحقها ! أترون الشمس ! أجل أجل ، فهمت، لقد تجاوزته في الابحار . كيف؟ هل تسلم زمام المبادرة ؟ أجل انه الآن يطاردني، لست انا الذي أطارده . هذا سيىء ؛ كنت أقدر ذلك . أحمق ! الحبال – الرماح يجرها الآن . أجل . أجل لقـــد

تجاوزته الليلة الماضية . حولي ! حولي ! انزلوا جميعاً إلا اصحاب النوبة ! زودوا حلقات الحبال بالرجال ! »

كانت الريح والباقوطة مبحرة تصيب ربعها فلما عكست اتجاهها اصبحت السفينة المشدودة الحبال تواجـــه النسمات متعسفة وهي تثني الزبد في نحرها الابيض عائدة .

وتمتم استاربك لنفسه وهو يلف الحبل الجديد الرئيسي في حلقته على الحافة : « ضد الريح يبحر سائراً الى الفم الفاغر . حمانا الله ؛ غـــير ان عظامي تترشح رطوبة في داخل جسمي وتبلل اللحم من داخل ؛ أنا لا تخامرني ريبة في انني أعصي الله اذ أطيعه ! »

وصاح آخاب وهو يقترب من زنبيل المصيص : « قرب لكي ترفعني الى أعلى ؛ علينا ان نواجهه حالاً » .

— « أجل ، أجل يا سيدي » . وامتثل استاربك أمره تواً ومرة أخرى كان آخاب يتأرجح مرتفعاً .

مضت ساعة كاملة ، طرّقت كما يطرّق الذهب وسحبت فاذا هي عصورٌ . وتجرّع الزمن نفسه انفاساً طويلة من الهواء وهو في هيئة ترقب حادّ ، وأخيراً رأى آخاب النفاثة ثانية على بعد ثلاث درجات من مقياس الطقس . وعلى التوّ سمعت ثلاث زعقات من قمم الصواري انطلقت وكأن السِنَة اللهيب هي التي نطقت بها .

— « جبهة لجبهة سأقابلك للمرة الثالثة يا موبي . انتم يا من عـــلى ظهر السفينة ، جرّوا الحبال في حلقاتها ؛ احشدوها في عين الريح . ما يزال أبعد من

ان ينزل الينا قواربه يا سيد استاربك . الاشرعة تهتز ! قفوا فوق قيم الدفة ومعكم المطرقة الكبيرة ! هكذا ، هكذا ؛ يبحر بسرعة ، وعلي ان أنزل للقائه . ولكن لألق نظرة أخرى هنا على البحر وأنا في الاعالي ، ما يزال لدي وقت كافٍ . منظر قديم هرم ومع ذلك فانه شاب جديد . لم يتغيّر قلامة ظفر منذ رأيته اول مرة وأنا غلام من كثبان نانتوكت ! المنظر نفسه ! نفسه . سيان هو في عيني نوح وفي عيني . ثمة رذاذ ناعم مع المهب . مـــا أحب هذه الوجهات التي تذهب فيها الريح ، لا بد أنها تقود الى مكان ما ، الى مكان غير هذه الارض المبتذلة ، اكثر نخليّة" من النخيل ، مع الهبوب ! الحوت الابيض يذهب في تلك الوجهة ، اذن فانظر ضدّ الريح ، تلك هي الناحية الفضلى وان كانت أمرّ الناحيتين لكن وداعاً وداعاً يا قمة الصاري القديم ! ما هـــذا ؟ – الاخضر ؟ أجل طحالب دقيقة انتسجت في هذه الصدوع التي تمر فيها الحبال. مثل هذه الخضرة لا يلوث رأس آخاب ! ذلك فرق ما بين هرم الانسان وهرم المادة ، لكن أجل ايها الصاري كلانا نهرم معاً ، اما الهيكلان فانهما سليمان ، أليس كذلك يا سفينتي ؟ إلا رجل مفقودة، ذلك كل ما هنالك ؛ وحق السماء ان هذا الخشب الميت لخير حالاً من لحمي الحيّ من كل وجه ، فلا أستطيع ان أقارنه به لقـــد عرفت سفناً صنعت من أشجار ميتة عاشت عمراً أطول من أعمار رجال صنعوا من « أحيا » مادة حيوية كانت لدى آبائهم الحيويين . ما ذاك الذي قاله ؟ انه يجب ان يذهب قبلي ، فهو ربيئتي ، وأنه سيرى ثانية ؟ لكن اين ؟ أيكون لي عينان تبصران في قاع البحر اذا نزلت هذه الدركات التي لا تنتهي الى قرار ؟ وها انا طول الليل ظللت أبحر نائياً عنه ، أيان غاص . أجل ، أجل لقد أخبرت حقيقة مريعة عن نفسك وكثيراً من حقائق أخرى يا بارسي ! ولكن ما تنبأت به لآخاب قصّر عن المدى . وداعاً يا قمة الصاري . ارقبي الحوت بعين يقظة ، ما دمت غائباً . سنتحدث غداً ، لا ، بل الليلة حين يكون الحوت الابيض ممدداً هناك مربوط الرأس والذنب » .

وألقى الامر بالنزول وكان ما يزال يتلفت حوله وهو ينزل متمكناً شاقاً الهواء الازرق ، الى ظهر السفينة .

وأنزلت القوارب في الوقت المناسب ، وفيما كان آخاب واقفاً في كوثلة الشالوب وهو يهمّ ان يضع رجله في موقع النزول ، لوح بيده للضابط الذي كان يمسك أحد حبال المرافع على ظهر السفينة وأمره ان يتوقف .

— « استاربك ! »

— « سيدي ؟ »

— « لثالث مرة تبدأ سفينة روحي هذه الرحلة يا استاربك » .

— « أجل يا سيدي انك أنت الذي تريد ذلك » .

— « بعض السفن تبحر من موانئها ، ومن ثم تصبح مفقودة الى الابد يا استاربك ! »

— « صحيح يا سيدي ؛ تلك حقيقة مؤسفة » .

— « بعض الناس يموتون عند الجزر ، بعضهم في مياه ضحلة ، بعضهم عند طغيان الماء . وانا أحس الآن كأني موجة ، كلها عرف مقنزع ، يا استاربك . انا هرم — صافحني ايها الرجل » . وتلاقت يداهما ، والتحمت عيونها وكانت دموع استاربك هي الغراء الذي دبّقها معاً . « آه يا قبطاني ، يا قبطاني ! يا ذا القلب النبيل ، لا تذهب ، لا تذهب ! أترى ، ان هذا الذي يبكي أمامك رجل شجاع ، فما أشد عذاب الاقناع اذن ! »

فصرخ آخاب وهو ينفض ذراع الضابط عنه : « انزلوا القوارب ! ليتأهب الملاحون ! »

وفي لحة كان الجذفون يعملون القارب على كثب مكاثب من جهة الكوثلة ، وصاح صوت من نافذه القمرة السفلى : « القرش ! القرش ! سيدي ، سيدي ، ارجعوا ! »

غير ان آخاب لم يسمع شيئاً اذ كان صوته نفسه عالياً حينئذٍ ، وجمز القارب مبتعداً .

لكن الصوت لم يقل الا حقاً ، اذ ما كاد القارب يبتعد عن السفينة حتى كانت أعداد من أسماك القرش ، كأنما برزت من المياه السوداء تحت هيكل السفينة ، تنهش بحقد شفرات الجاذيف كلما انغمست في الماء ، وعلى هذا المنوال رافقت القارب بنهشاتها . ذلك شيء مألوف حدوثه لقوارب التحويت في تلك البحار المحتشدة ، اذ تلحقها أسماك القرش احياناً ظاهرة للعيان على النحو التنبؤي الذي تحوم فيه الطيور الكاسرة فوق رايات الكتائب الزاحفة في الشرق . ولكن هذه القرشان كانت اول قرشان تراها الباقوطة منذ ان أبصرت الحوت الابيض اول مرة . لقد كان ملاحو آخاب همجاً صفراً كالنمور ، ترى هل كان لحمهم أشدّ شذىً مسكياً في أنوف القرشان ، وهو أمر يؤثر في نفوس هذه الحيوانات أحياناً كما هو متعارف ؟ أياً كان الأمر فانها مشت في أعقاب ذلك القارب وحده ولم تقترب من القوارب الاخرى .

وتمتم استاربك وهو يحدق من على حافة السفينة مادّاً عينيه نحو القارب المتقهقر : « يا قلباً من الفولاذ الخالص ! أما تستطيع ان ترنّ في جسارة عند هذا المنظر ؟ تنزل قاربك بين القرشان الفرّاسة وهي تتبعك فاغرة الافواه الى الصيد ، وهذا هو اليوم الثالث العصيب ؟ ذلك انه اذا مضت ثلاثة ايام في

مطاردة حادة دائبة فكن على يقين ان اول يوم فيها هو الصباح وثانيها هـــو الظهيرة وثالثها هو المساء وهو نهاية ذلك الامر – أياً ما تكون النهاية . رباه ! ما هذا الذي ينطلق في داخلي ويجعلني في هدأة الموت متلبثاً أتوقع – مصلوباً على وشك الارتعاد ! شئون المستقبل تطفو أمام عيني كأنها في هيئات فارغة وهيا كل ، والماضي كله قد غدا مبهماً . ماري يا فتاتي ، ان صورتك قد انبهمت في الامجاد الشاحبة من ورائي . وانت يا بني ! يبدو انني لا أرى الا ان عينيك قد غدتا زرقاوين جذابتين . تتكشف أغرب مشكلات الحياة لعيني ولكن السحب تحول بيني وبينها . أنهاية رحلتي آتية ؟ رجلاي يسري فيهما الاعياء كالذي ظل طول يومه يمشي . تحسس قلبك – أتراه ما يزال يخفق ؟ حرّك نفسك يا استاربك – شقه نصفين ، حركه ، حركه ! ارفع صوتك بالكلام ! انت يا قمة الصاري ! هل ترين يد ابني على الرابية ؟ جننت – انتم في الاعالي ! ابقوا عيونكم يقظة مفتحة على القوارب – عاينوا الحوت جيداً هو ! ثانية ! اطردوا ذلك الصقر ! ترونه ! انه ينقر – انه يمزق دوّار الريح » – يشير الى الراية الحمراء التي ترفرف عند التويج الرئيسي – « ها ! ها هو يفرّ بها ! أين الرجل الشيخ الآن ؟ هل ترى هذا المنظر يا آخاب ! – رعشة ، رعشة ! »

لم تكن القوارب قد أبعدت كثيراً حين صدرت اشارة من قمة أحـــد الصواري وامتدت ذراع تشير الى أسفل ، عرف منها آخاب ان الحوت قـــد قمس ؛ ولكنه رغبة منه في ان يقترب منه لدى بروزه ، ظلّ ذاهباً في طريقه منحرفاً قليلاً عن المركب ، وظلّ الملاحون المأخوذون في صمت عميق حين كانت الموجات الرأسية تدق وتدق على مقدم القارب .

« اغرزي ، اغرزي مساميرك ايتها الامواج حتى نهاياتها ولكنك تدقينها في شيء لا غطاء له ، ولن يكون لي تابوت او عربة جنائز ؛ لا يقتلني إلا القنب ، ها ! ها ! »

وفجأة انتفخت المياه من حولهم ببطء في دوائر واسعة ثم ارتفعت بسرعة كأنها تنحدر عن جوانب جبـل جليدي غاطس في الماء ، ناهض بسرعة الى السطح . وسمع صوت خافت مدمدم ، ثم طنين تحتاني ، ثم حبس كل منهم أنفاسه اذ انطلق جسم مديد طولياً على مواربة من جوف الماء ، وهو مشعث بالحبال المجرورة والرماح والحراب . وحلق لحظة في الفضاء الموشح بقوس قزح وقد تلفع في حجاب رقيق متهافت من الضباب ، ثم سقـــط متمعكاً في الماء .

تناثر الماء في الجو على ارتفاع ثلاثين قدماً وأومض لحظة كأنه اكداس من النوافير ، ثم تهاوى منكسراً في زخة من الندف المتناثر تاركاً السطح المنداح مزبداً كالحليب الطازج حول جذع الحوت الرخامي .

صاح آخاب في الجذفين : « وسّعوا المدى ! » وانطلقت القوارب متقدمة للهجوم ولكن موبي ديك كان قد ثار ثائره بالشفرات الجديدة التي أخذت تأكل منه منذ أمس فبدا وكأنما تلبست به مجتمعة كل الملائكة التي طردت من الجنة . وبدت الخطوط الواسعة من العضلات المتلاحمة المنتشرة في جبهته العريضة البيضاء تحت بشرته الشفافة وكأنها قد انعقدت معاً ، واجتاز رأسه القوارب فأخـــذ يتلعب بذنبـــه فيما بينها، ومرة أخرى دقها ففرقها ناثراً من قاربي الضابطين ما هنالك من شفرات وحراب ، ومندفعاً في جانب من الجزء العلوي من مقدمتيهما غير انه خلـّى قارب آخاب دون ان يحدث فيه خدشاً .

وبينا كان دغة وكويكوج يوقفان الالواح المضغوطة والحوت يسبح مبعداً عنها، فقد دار وأبرز زعنفة كاملة حين انطلق من جانبها، في تلك اللحظة صعدت صيحة سريعة : رؤي جسم البارسي الممزق مربوطاً في عدة مواضع الى ظهر الحوت، اذ كان الحوت في الليلة الماضية قد لفّ حوله لفائف الحبال فقيده بها

وهو يدور طاقاً فوق طاق، وقد أصبحت مسوحه السود ممزقة ارباً ارباً وعيناه المنتفختان قد استدارتا مصوبتين الى آخاب .

سقط الرمح من يده .

وأخذ نفساً طويلاً نحيلاً وهو يقول : « مخدوع ! مخدوع ! أجل يا بارسي ! ها أنا أراك ثانية — أجل وأنت ربيئتي، تتقدمني، وهذه اذن، هذه هي عربة الجنائز التي أنبأت بها . ولكنني أحاسبك على كل كلمة قلتها . أين العربة الثانية؟ امضيا، ايها الضابطان، الى السفينة . هذان القاربان قد أصبحا قليلي الجدوى . اصلحاهما ان استطعتما في الوقت المناسب وارجعا الي"، فاذا لم تستطيعا فحسب الموت ان يستقبل آخاب . انزلوا يا رجال ! اول شيء يقفز من هذا القارب الذي انا فيه، فاني أقذفه بالمزراق . لستم انتم رجالاً آخرين وانما انتم ساعداي ورجلاي ولذا أطيعوني . — اين الحوت ؟ هل غطس مرة اخرى ؟ »

ولكن موبي ديك بدا بالغ القرب من القارب، اذ كان يسبح ثانية الى الامام في ثبات كأنما انتوى ان يذهب هارباً بالجثة التي يحملها او كأن موقع الجولة الاخيرة لم يكن سوى مرحلة في رحلته تحت الريح . وكان قد تجاوز السفينة التي كانت حتى هذا الوقت تبحر في اتجاه مضاد" له وان كانت قد توقفت حينئذ عن المضي في وجهتها . وبدا انه يسبح باقصى ما لديه من سرعة وانه لا ينوي إلا المضي" في طريقه المستقيم في الماء .

وصاح استاربك « آه ! يا آخاب لا يزال لديك ندحة من وقت، حتى هذه اللحظة، في اليوم الثالث، ان تكف عنه . تأمل ! ان موبي ديك لا يطلبك . انما انت الذي تطلبه وتسعى وراءه في جنون ! »

وأطلق القارب الوحيد أشرعته مع الريح الناشئة، فاندفع تحتها في سرعة،

بقـــوة المجاذيف والقلوع ؛ وعندما كان آخاب ينزلق في النهاية على مقربة من السفينة، مكاثباً بحيث يستبين وجه استاربك بوضوح وهو متكىء على الحافة ، هتف به ان يدير السفينة، وان يتبعه دون اسراع كثير في فترة مقدورة . وعندما نظر الى اعلى رأى طاشطيقو وكويكوج ودغة وقد امتطوا القمم الثلاث في لهف، بينا كان المجذفون يقلبون القاربين المشقوقين اللذين رفعا قبيل قليل الى جانب السفينة وهم منهمكون في اصلاحها، واذ أسرع رأى من خلال المجازات الجانبية لمحة خاطفة كلاً من اسطب وفلاسك وهما مشغولان على ظهر السفينة بين اكوام من الشفرات والحراب الجديدة، وبينا كان يرى هذا كله، بينا كان يسمع المطارق في القاربين المكسورين كانت مطارق اخرى بعيدة وكأنما تدق مسماراً في قلبه . غير انه تشدّد مستجمعاً نشاطه . ورأى ان دوّار الريح او العلم لم يعد موجوداً في قمة الصاري الرئيس فصاح بطاشطيقو، الذي كان لتوه قد بلغ ذلك المرقب، لينزل فيحضر علماً آخر ومطرقة ومسامير، لكي يسمّره الى الصاري .

وأخذت سرعـــة الحوت تخبو فيما يبدو فقد غدا القارب مرة اخرى قريباً منه في سرعة، وان كانت إجفالة الحوت الاخيرة غير طويلة مثلما كانت من ذي قبل . ترى ما سرّ هذه التؤدة ؟ أكان قد اصابه اللغوب بعد ثلاثة ايام من المطاردة الدائبة ومن المقاومة التي تحدثها له المعرقلات المعقدة التي يحملها اثناء السباحة ؟ أكان تباطؤه وليد خداع وخبث كامنين فيه ؟ ربما، من يدري ؟ وفيما كان آخاب ينساب فوق الامواج كانت القرشان الغلاظ القلوب ما تزال ترافقه وهي قـــد لزمت القارب في إصرار واستمرت تنهش المجاذيف الدائبة حتى أصبحت شفراتها مثلمـــة متدغدغة، وتكاد كلما انغمست في الماء تخلـّف فيه شذرات من شظايا .

— «لا تكترثوا بها ! هذه الاسنان انما تهيىء لمجاذيفكم مساند جديدة . فلك القرش أفضل للراحة وأثبت ظهراً من الماء الخاذل» .

– « ولكن يا سيدي في كل نهشة تصبح شفرات المجاذيف أصغر من ذي قبل».

– « تضاين » وقتاً كافياً ! جدفوا » . ثم تمتم : « من يدري ان كانت هذه القرشان تسبح لتعيّد على لحم الحوت او على لحم آخاب ؟ – لكن جدفوا ! هيا، أجل بكل حيوية . ها نحن نقترب منه . الدفة ! خذ الدفة ؛ دعني أمرّ » .
– واذ قال ذلك أعانه اثنان من المجذفين ليبلغ مقدم القارب الذي ما يزال طائراً. وحين انحاز القارب الى جانب ، على طول المدى – وجرى على محاذاة زعنفة الحوت الابيض بدا وكأن الحوت ساهٍ عنه وعن تقدمه – وهو شيء يعتري الحوت احياناً – وأصبح آخاب في نطاق الضباب الدخاني الطودي الذي قذفت به نفاثة الحوت فأخذ يتلوى حول حردبته الضخمة الرابية « المونادنوكية » [١] . وعلى هذا الوضع كان آخاب قد أصبح منه قريباً فتقاعس بجسمه ورفع ذراعيه كليهما طولاً الى اعلى للتسديد، وقذف بشفرته العنيفة وبلعنته الاعنف في الحوت البغيض ، ولما ان غاصت الشفرة واللعنة حتى الثعلبة كأنما ابتلعتهما ردغة سبخة تلوى موبي ديك من الجانبين ألماً، وكوّر زعنفته القريبة، متشنجاً، ضدّ مقدم القارب، ودون ان يشق فيه ثقباً رماه فجأة بضربة أدارته على عقبيه ولولا ان آخاب أمسك بالجزء المستعلي من الحافة متشبثاً لانطرح في البحر مرة اخرى ، غير ان ثلاثة من المجذفين هووا في الماء لانهم لم يكونوا يقدرون اللحظة الحاسمة لهجومه ، ومن ثمّ لم يكونوا على استعداد لنتائجها. وأتيح لاثنين منهما ان يمسكا بحافة القارب واذ ارتفعا الى مستواه على ظهر موجة طرحا نفسيهما على ظهره مرة اخرى . أما الثالث فقد سقط عند المؤخرة بـــلا حول ولا قوة، غير انه ظلّ عائماً سابحاً .

وفي الوقت نفسه، تقريباً، انطلق الحوت الابيض خلال البحر الخبّاب بعزم

---

١ نسبة الى جبل مونادنوك وهو منعزل يشبه القبة في جنوبي نيوهامبشير .

قويّ وخفة وحيّة، دفعة واحدة، فصاح آخاب بقيّم الدفة ليباشر أمر الحبل ويمسكه ، وأمر الملاحين ان يدوروا في مقاعدهم وان يجرّوا القارب الى هدفه، وما ان احسّ الحبل الغدّار بذلك الشدّ والسحب المريبين حتى فرقع في الفضاء الفارغ منقطعاً .

— « ما الذي انقطع فيّ ؟ بعض عضلاتي تتصدع ! عادت سليمة ؛ المجاذيف ! المجاذيف ! عليه، هيا ! »

ولما سمع الحوت صوت القارب يشق الماء في اندفاعة هائلة، دار متحرفاً بجبهته الناصعة متحدياً، ولكنه لمح في دورانه هيكل السفينة الاسود مقترباً، وكأنما رأى فيها مصدر كل هذا التعقب الجائر، وربما حدّث نفسه أنها عدو اكبر وأسمى فانقض فجأة على خطمها المقترب ، وفكاه يصطكان وسط وابل ناري من الزبد .

ترنح آخاب ولطم جبهته بيده وقال : « أصبحت أعمى، الايدي ! مدوا ايديكم كي أتحسس طريقي . هل حلّ الليل ؟ »

فصاح المجذفون المنكمشون : « الحوت ! السفينة ! »

— « المجاذيف ! المجاذيف ! انحدر ايها البحر الى أعماقك كي يستطيع آخاب ، قبل ان تضيع فرصته الى الابد، ان ينحدر هذه المرة الاخيرة الاخيرة منزلقاً الى هدفه . فهمت . السفينة ! السفينة ! اندفعوا يا رجالي ! ألا تريدون ان تنجّوا سفينتي ؟ »

وحين دفع المجذفون عنوة خلال الامواه المتلاطمة كالمطارق الضخمة عاط طرفا اللوحين في المقدم الذي لطمه الحوت، واصبح القارب المصاب مؤقتاً في

لمحة او نحوها مسجىً على مستوى الامواج تقريباً، وملاحوه الذين غطسوا الى انصاف الماء خائضين يحاولون جاهدين ان يسدوا الثغرة وينزحوا المياه المنصبة فيه .

وفي تلك اللحظة نفسها ظلت مطرقـــة طاشطيقو، اثناء ذلك متصلبة في الفضاء، ولفـّته الراية الحمراء بمض التفاف كأنها رداء بلاضي ثم تموجت منحسرة عنه كأنها قلبه الذي جاش منفلتاً من قفصه، اما استاربك واسطب اللذان كانا دونه على الدقل المائل فقد لحظا الوحش المنقض حالما لحظه طاشطيقو .

– « الحوت، الحوت ! ارفع الدفة ! آه ايتها القوى العذبة في الهواء جميعاً، ضميني اليك بقوة ! لا تجعلي استاربك يموت ان كان لا بد من ان يموت، في نوبة اغماء تليق بالنساء . ارفعوا الدفة، أقول، أيها الاغبياء، الفك ! الفك ! أهذه خاتمة صلواتي المتفجرة ؟ كل ضروب الوفاء التي عرفتها طول عمري، آه آخاب آخاب ! تأمل ما صنعت . ثباتٍ، يا قيم الدفة، ثباتٍ ؛ لا. لا . ارفع الدفة مرة اخرى ! انه يدور ليلاقينا ! آه ان جبهته الساخطة تنطلق نحو امرىء يقول له واجبه انه لا يستطيع ان يتخلى عنه، رباه ! عونك، كن الى جانبي ! »

– « لا تكن جنبي، كن دوني اياً كنت يا من تريد ان تعين اسطب، لان اسطب ايضاً لابث هنا لا يتحلحل . انا اكشر في وجهك ايها الحوت العبوس ! من ذا أعان اسطب او من ذا أبقاه يقظاً سوى عينه التي لا تطرف ؟ والآن يذهب اسطب المسكين لينام على حشية شديدة النعومة، ليتها كانت محشوة بالعصيّ . انا اكشر في وجهك ايها العبوس القمطرير ! انظري ايتها الشمس، ايها القمر ، ايتها النجوم ! أنا أدعوك أصحاب غيلة حشاشين لخير شخص ذي خيال كان أبداً، ومع ذلك كله فأنا أقرع كأسي بكئوسك، فليتك تعطينني الكأس ! آه، آه، آه، آه ! ايها الحوت العبوس، سيتاح لك كثير من الجرع واللهوات . لمَ

لا تطير يا آخاب ! أما أنا فاني اخلع نعليّ وصدارتي استعداداً له . ليمت اسطب في تبانه، موتاً شديد العفونة أجاجيّ الملوحة مع ذلك . كرز ! كرز ! كرز ! آه يا فلاسك ليتني أنال كرزة حمراء واحدة قبل ان اموت ! »

— « كرز ؟ لتمنيت فحسب ان نكون حيث ينمو الكرز، آه يا اسطب ارجو ان تكون امي المسكينة قد تسلمت القسط الباقي من مرتبي قبل اليوم، فاذا لم تفعل فان ما تأخذه بعد لن يزيد على بضعة مليات، لان الرحلة قد انتهت».

أطلّ جلّ البحارة من مقدم السفينة متوقفين عن العمل وقد بقيت في أيديهم المطارق وقطع الخشب والحراب والرماح دون ان يتنبهوا لالقائها، تماماً كما بارحوا أعمالهم المختلفة ، وعيونهم المسحورة جميعها مصوبة نحو الحوت الذي كان يراوح رأسه المتوعد بالمصير من جانب الى جانب على نحو غريب، وقد أرسل امامه وهو مندفع نطاقاً عريضاً من زبد متناثر في اشكال نصف دائرية . وفي منظره كله عقاب وانتقام وحيّ وحقد خالد، ورغم كل ما قد يستطيع الانسان ابن الفناء ان يفعله، فان ذلك الركن البارز الصلد الابيض من جبهته لطم المقدم اليساري في السفينة حتى ترنحت الرجال والاخشاب، وبعضهم سقط مكباً على وجهه ؛ واهتزت رءوس الزراقين في الاعالي فوق اعناقهم الغليظة كأنها تويجات قد سحطت من اماكنها .

وصرخ آخاب من القارب : « السفينة ! عربة الموتى ! — هي العربة الثانية ، خشبها لا يكون الا امريكياً ! »

وغاص الحوت تحت السفينة المتفرشة وجرى يتأطر على طول قاعدتها ، ثم استدار وهو تحت الماء وانطلق بخفة الى السطح ثانية بعيداً عن المقدم الأيمن الا انه من قارب آخاب على بضع ياردات واستلقى هنالك ساكناً مطمئناً .

— « هـــا انا أحول جسمي عن الشمس ، أنت يا طاشطيقو ! دعني اسمع مطرقتك ، آه ايتها السواري الثلاث التي لا تعنو ، انت ايتها الأرينة التي لا تنصدع ، وأنت أيها الهيكل الجميل المتأله ، وأنت أيها الظهر الثابت، أيتها الدفة المستكبرة ، أيها المحطم المصوب نحو القطب – يا سفينة مهيبة كالموت ، هـل تفنين اذن ولا بد ، دون ان أكون فيك ؟ هل أحرم من آخر كبرياء حمقاء ينالها أدنى القباطنة الذين تتحطم سفنهم ؟ آه يا موتاً موحشاً يختم حياة موحشة ! أحس ان ذروة عظمتي تحل في ذروة حزني . هو ، هو ! من أقصى حدودك ، انصبي اليّ ايتها الموجات الجريئة ، موجات حياتي الغابرة جميعاً وطاولي موجة موتي هذه المديدة المعرومة . نحوك أتدحرج ايها الحوت المبيد الذي لا يحرز غلبة ، الى النهاية أصاولك مصارعاً ، من جوف الجحيم أسدّد اليك الطعن ، من أجل البغض أبصق عليك آخر أنفاسي . كل التوابيت وعربات الجنائز تغوص في بركة واحدة! وبما أني لن أحمل على تابوت او عربة فلأتسحب مزقاً وانا ما أزال أطاردك ، ايها الحوت اللعين . هكذا أبعث الحربة » .

قذف الرمح ، فندّ الحوت المصاب الى الامام، وجرى الحبل خلال أخدوده بسرعة مضطرمة – جرى ملتوياً . ووقف آخاب ليسويه وسوّاه حقاً ، ولكن اللفة علقت مارقةً حول رقبته ، ودون نأمة ، كما يفعل خرس الاتراك حين يخنقون الضحية بوتر القوس ، انطلق من القارب قبل ان يعرف الملاحون انه ذهب . وفي اللحظة التالية ندت الانشوطة الثقيلة في طرف الحبل من البرميل الفارغ تماماً وصرعت أحد المجذفين فلطم وجه البحر واختفى في أعماقه .

وتوقف بحارة القارب المأخوذون لحظة ثم داروا : « السفينة ! يا رب يا عظيم اين السفينة ؟ » ومن خلل حجب وغشاوات محيرة رأوا خيالها المتلاشي يميل جانبياً ، كأنه ملفع بتلافيف السراب في مضيق مسينا ، ولم يبقَ بارزاً فوق الماء إلا الصواري العليا بينا ظل الزراقون الوثنيون يرقبون البحر غاطسين

وهم مستقرون في مراقبهم العلية إما بقوة الهيام او الوفاء او القدر . وأحاطت بالقارب الوحيد دوائر منداحة ، فاذا كل ملاحيه وكل مجذاف عائم وكل قناة ، وكل ذي نسمة وغير ذي نسمة فيـــه ، يدورون ويدورون دورة الفلكة في دردور مائي واحد ، حمل أصغر شظية من الباقوطة وغاب بها عن الانظار .

وعندما انصبت الغمرات الاخيرة المتمازجة فوق رأس الهندي عند الصاري الرئيس تاركة بضع بوصات من السارية المنتصبة خارج الماء ، مع عصا الراية الطويلة المرفرفة ، التي أخذت تتموج في هدوء ، محدثة مفارقة ساخرة ، فوق الامواج المحطمة التي تكاد تلامسها — في تلك اللحظة ارتفع ساعد أحمر ومطرقة وحلقا خلفياً في الفضاء ، يريدان تثبيت العلم وتسميره في السارية الهابطة ، وحط صقر سماوي تبع التويج الرئيسي زاجراً موبخاً ، هابطاً من موطنه الطبيعي بين النجوم ، حط على الراية مزعجاً طاشطيقو هنالك ؛ واتفق ان دسّ هذا الطائر جناحـــه العريض المرفرف بين المطرقة والخشبة ، وفي الوقت نفسه أحسّ طاشطيقو المتوحش الغاطس من دونه بتلك الهزة الاثيرية وهو في سكرة الموت ، فأبقى مطرقته متصلبة لا تريم ، وهكذا فان طير السماء ذا الزعقات ، بزعقاته التي تشبه نفخ الصور ، والمنقار الملكي المندفع الى أعلى ، والهيئة المستأسرة جميعاً الملفوفة في راية آخاب ، هبط مع سفينته وهي كالشيطان لا تغوص في جهنم الا اذا جرّت معها قطعة من السماء ، اتخذتها خوذة لنفسها .

وطارت صغار الطير تزعق فوق الفوهة الفاغرة ، ثم تكسرت موجة بيضاء نكدة على حوافيها المنحدرة ، ثم انهار كل شيء ، وانبسط كفن البحر المترامي متدرجاً ، مثلما كان يفعل منذ خمسة آلاف عام .

خاتمة

« ونجوت انا وحدي لاخبرك » (سفر ايوب ١ : ١٥)

تمت الرواية . فلم يعود هذا الممثل للظهور على المسرح ؟ لان واحداً ظلّ حياً بعد الدمار .

واتفق ان كنت انا الفتى الذي كتبت له الاقدار بعد اختفاء البارسي ان يحلّ محلّ القيم على المقدمة في قارب آخاب، حين احتل ذلك القيم المكان الخالي بفقدان البارسي، وهـو نفسه ذلك الملاح الذي سقط عند المؤخرة حين قذف الملاحون الثلاثة، آخر يوم من ايام المطاردة، من قاربهم الخطّار. وكنت عائماً على حاشية المنظر التالي، والمشهد كله بمرأى مني، وحين بلغني ضغط السفينة الغائصة، وقد تبدد بعض قوته، كنت حينئذ انسحب ببطء نحو الدردور الآخذ بالانغلاق، واذ وصلته كان قد تحول الى بركة بيضاء مزبدة، فدرت ودرت مشدوداً نحو تلك النفاخة السوداء التي تشبه الزر في محور تلك الدائرة الدوّارة في بطء كأني اكسيون آخر[1] . حتى اذا بلغت ذلك المركز الحيوي انفجرت النفاخة السوداء الى أعلى، واذا بالتابوت منفلتاً بقوة مرونته الدقيقة وقابليته الكبرى للعوم ينطلق طولاً من البحر بقوة عظيمة ثم يهوي ثم يعوم الى جانبي . وطفوت بعون ذلك

[1] في اساطير اليونان والرومان ان اكسيون ملك لبيطاي في تساليا عوقب على فجوره بان ارسل الى الجحيم وربط الى دولاب ناري دائم الدوران .

التابوت مـــدة يوم وليلة وعمت فوق بحر ناعم كأنه المرثية الحزينة، وانسابت القرشان حولي دون ان تمسني بأذى، كأنما وضعت على افواهها اقفالاً، وانسابت صقور البحر من فوقي بمناقير مغمدة . وفي اليوم التالي اقتربت مني سفينة، واقتربت، وانتشلني ملاحوها أخيراً . كانت هي « راحيل » الجرّابة الضالة ، التي وجدت، اثناء بحثها المتردد عن ولديها الضائعين، يتيماً آخر .

ملحوظة

كل التعليقات التي رُمز اليها بعلامة كهذه * فهي مما كتبه ملفل نفسه .
أما التعليقات المصدّرة بالأرقام فهي من تقييدات المترجم .

الفهرس